فلسطين

بين الغزو الفكري والاستعمار

إعداد
جمال حسن أحمد السراحنة





إشراف الأستاذ الدكتور
نايف معروف

دار الصميعي
للنشر والتوزيع

فلسطين

بين الغزو الفكري والاستعمار

بسم الله الرحمن الرحيم

فلسطين

بين الغزو الفكري والاستعمار

إعداد

جمال حسن أحمد السراحنة

إشراف الأستاذ الدكتور

نايف معروف

دار الصميعي

للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

دار الصميعي للنشر والتوزيع

هاتف ٤٢٦٢٩٤٥ - ٤٢٥١٤٥٩ فاكس ٤٢٤٥٣٤١
المركز الرئيس : الرياض - شارع السويدي العام
ص.ب ٤٩٦٧ الرمز البريدي ١١٤١٢
المملكة العربية السعودية
فرع القصيم : عنيزة ، أمام جامع الشيخ (بن عثيمين) يرحمه الله
هاتف ٣٦٢٤٤٢٨ تلفاكس ٣٦٢١٧٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

وإياه نستعين ، وما توفيقي إلا بالله

إن الغزو الفكري والثقافي الذي وضعت العصابات التبشيرية خططه ، والذي أدى إلى سقوط العالم الإسلامي في قبضة الدول الاستعمارية هو أخطر مؤامرة على الإسلام والمسلمين منذ فجر الإسلام حتى اليوم ، بل إن نتائجه أشد خطراً ، وأبعد أثراً من نتائج الحملات الصليبية وغزوات التتار .

بسم الله الرحمن الرحيم

الغزو التبشيري في فلسطين من القرن التاسع عشر وحتى عام ١٩٤٨م

مقدمة البحث :

الحمد لله رب العالمين ، الذي علَّم بالقلم ، علَّم الإنسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على الرسول محمد ﷺ الذي بعثه الله رحمة للعالمين ، القائل : « **يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها** » . قلنا : أو من قلة بنا يومئذ ؟ . قال : « **أنتم كثير ، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل ..** »(١) .

أما بعد :

فإن الهجمة الشرسة التي تعرض لها العالم الإسلام وما يزال يتعرض لها اليوم بالأشكال والصور كافة والتي أصابت المسلمين في صميمهم ، سواء كانت عسكرية استعمارية ، أو فكرية ثقافية ، مما خلف أسوأ النتائج على المسلمين ، وذلك بتفككهم وتأخرهم عن ركب الحضارة ، بعد أن عاشوا في أزهى عصور التاريخ ، وسجلوا أسمى آيات المجد في العلم والمعرفة ، مما دفع عدوهم الصليبي الحاقد ، واليهودي الماكر ، للعمل على إيقاف هذا المد الإسلامي العظيم ، وذلك بتشويه صورة الإسلام ، والحطِّ من أفكاره ، وتعاليمه بين أبنائه أولاً ، وبين متبعيه ثانياً .

فكانت الهجمة الثقافية الفكرية أشد وأنكى من العسكرية الاستعمارية؛ لأن الأولى تمر بخبث وسهولة ، والثانية تحتاج إلى مقاومة وعنف ؛ مما حدا بالمبشرين

---

(١) رواه الإمام أحمد (٥/ ٢٧٨) ، وأبوداود (٤٢٩٧) ، والبخاري في تاريخه (٤/ ٣٤٠) ، وأبونعيم في حلية الأولياء (١/ ١٨٢) .

والمستشرقين والمستعمرين إلى خلخلة تعاليم الإسلام في نفوس أتباعه ، وصرفهم عن قرآنهم وتاريخهم ، وعن ماضيهم المجيد ، ببث سموم التفرقة بين المسلمين ؛ لأنهم اعتقدوا أنه لن تتم السيطرة عليهم ما دام الإسلام دينهم .

وإن الأمة الواعية المتفهمة المتحضرة ، المؤمنة بربها ، وبرسالة نبيها ﷺ ، لا تسمح إطلاقاً للعدو وأساليبه التبشيرية بالانتشار بين أفرادها ، بل تسعى بكل ما أوتيت من قوة لإزالة آثار الاستعمار والتبشير ، ووضع حد لهؤلاء المبشرين من توعية وتبصير جميع أفراد المجتمع بالوسائل التعليمية والإعلامية الكافية .

ولما كانت خطورة التبشير لا تقتصر على فئة أو طبقة معينة من الناس ، بل تؤثر على الأمة بكاملها ؛ مما يؤدي إلى تدميرها وتأخيرها ، بات من الواجب أن نبذل الجهد ، وأن ننفق الأموال في سبيل القضاء عليهم ، والوقوف في وجوههم ووجوه مؤسساتهم التي يصفونها بالجمعيات الخيرية والإنسانية والاجتماعية ، فلماذا لا نجعل من هؤلاء المبشرين عدونا الحقيقي؟.

فهم يشكلون معاول هدم ، علاوة على ما يقومون به من إفساد ، وانحلال وتفكك بين صفوف المسلمين بأساليبهم الماكرة الخبيثة ، وباسم الإنسانية .

وتتعلق خطورة التبشير في أنه يعم جميع البلدان الإسلامية ، مع تفاوت من بلد إلى آخر ، ولما كانت فلسطين هي أملُهم المنشود ، ومحط ركابهم منذ الحروب الصليبية ، وبيت المقدس هو هدفهم ، فهنا نتساءل : إلى أي مدى قام علماء المسلمين بمحاربة المبشرين ، والوقوف في وجههم ؟

ولـما كانت هذه مشكلة خطيرة ؛ بات من الواجب إيلاءها ما يكفي من العناية والدراسة ، أود أن أشير إلى أن المبشرين في جمهورهم لا يخلو أحدهم من أن يكون

قسيساً أو استعمارياً أو يهودياً وقد يشذ عن ذلك أفراد .

إن التبشير بصورة عامة ينبعث من الكنيسة ، وفي الدول الاستعمارية يسير مع الكنيسة ووزارة الخارجية جنباً إلى جنب ، ويلقى منهما كل تأييد .

والدول الاستعمارية كبريطانيا وفرنسا ما زالت حريصة على توجيه التبشير في وجهته التقليدية ليكون أداة هدم للإسلام وتشويه سمعة المسلمين ووصفهم بالإرهاب ، ومنذ أن انتهت الحروب الصليبية بالفشل من الناحية العسكرية والسياسية لم ينقطع تفكير الغرب في الانتقام من الإسلام وأهله بطرق أخرى ، وذلك عن طريق نقد الإسلام ، هذا اللورد «اللنبي» يقول في « بيت المقدس » : «الآن انتهت الحروب الصليبية» أي من الناحية العسكرية .

أما التعصب الديني فما يزال أثره باقياً ، وكثير من الباحثين والدارسين والمؤرخين العرب وجهوا جهودهم للجانب السياسي والعسكري من المشكلة الفلسطينية وهذا المظهر الدامي والعنيف من الصراع ، وهناك القليل من الدراسات التي عالجت المشكلة الثقافية والفكرية وأخص بالذات الغزو الفكري والتبشيري من المشكلة الفلسطينية ومن خلال دراساتي لم أجد دراسة عن التبشير في فلسطين وأعني الغزو الفكري برمته لهذه المنطقة .

وهناك مقولة صهيونية كانت ترى أن مستقبل فلسطين بل مستقبل منطقة الشرق الأوسط سوف يتقرران على ضوء أوضاع التعليم في المنطقة ، ومن خلال دراساتي في كلية الإمام الأوزاعي طرحتُ هذا الموضوع ورحب به الأستاذ الدكتور نايف معروف بعاطفة الأبوة رغم مشاغله الكثيرة ، ولا أنسى الدكتور القاضي فوزي أدهم الذي شجعني كثيراً ، وقد عملت على تقسيم هذا البحث إلى سبعة

فصول ، وإن هذا التقسيم يساعد على تسهيل متابعة البحث بشكل تفصيلي ، ويساعد على التوصل لنتائج قيمة أفضل من لو عالجته كوحدة متكاملة ، وكنت ألجأ إلى عقد مقارنات في الصحة والتعليم والظروف السياسية والاجتماعية والدينية ، وقد واجهتني مشكلة كبيرة وهي : الحصول على الوثائق الأصلية فهي مخفية ولا تظهر ، وكذلك مشكلة التنقل بين المدن الفلسطينية ، ولا أخفيكم أن السفارات الفلسطينية فتحت لي أبوابها كاملة للأخذ من مكتباتها ما أشاء ، ومع هذا فإن فلسطين غالية على قلوبنا وكل ما نواجهه في سبيل الذود عن حماها ليس إلا أقل القليل ، فنحتسب ذلك عند الله .

علماً أن فلسطين كغيرها من الأقطار الشامية دخلت في حوزة الدولة العثمانية في مطلع القرن السادس عشر ، وكانت فلسطين ذات أهمية خاصة ، كيف لا وهي صلة الوصل بين ولاياتهم الإفريقية والآسيوية ، وتمر عبر أراضيها القوافل المتجهة إلى مصر ، ولقد بنى العثمانيون فيها القلاع والمحطات لأهميتها ، وفي عام ١٧٩٩م كانت قوات نابليون بونابرت قد اجتاحت جنوب فلسطين واتجهت نحو عكا ، ولكنها فشلت في الدخول ، ثم خضعت فلسطين من عام ١٨٣١م إلى عام ١٨٤٠م لمحمد علي باشا ، في حين اعتبر محمد علي باشا وابنه إبراهيم خارجين عن السلطة الشرعية لدولتنا الرشيدة الدولة العثمانية ، وشهدت فلسطين تنافساً قوياً بين الدول الكبرى حتى مطلع هذا القرن وكانت حماية الطوائف الدينية والتبشير الذريعتين المفضلتين لديها .

وقد سبقت فرنسا غيرها من الدول الغربية في الميدان ، فمنذ وقوع فلسطين تحت حكم محمد علي باشا حصلت طائفة اللاتين على امتيازات كبيرة بسبب موقف فرنسا المؤيد لوالي مصر ، وتضاعف عدد الكنائس والأديرة ومنازل استقبال

الحجاج وكما زاد عددد المدارس والمستشفيات والمؤسسات الخيرية التابعة للبعثات التبشيرية ، وفي عام ١٨٤٧م وصل أول بطريرك لاتيني إلى المدينة المقدسة ، ومنذ ذلك الحين نشأ تنافس بين المبشرين اللاتين والبروتستانت .

أما النفوذ البريطاني فقد بدأ يتوطد بعد مشاركة الأسطول البريطاني في هزيمة نابليون على أبواب عكا عام ١٧٩٩م ، ولا شك أن بريطانيا هي أول دولة أنشأت قنصلية في القدس عام ١٨٣٨م بعد أن كان محظوراً إقامة أي أجنبي في المدينة المقدسة ، وبذلك بدأت حماية اليهود في فلسطين ، وأخذ النشاط الثقافي البريطاني في فلسطين صورة منظمة بعد إنشاء صندوق الكشف عن فلسطين عام ١٨٦٥م ، واستمر هذا النشاط الثقافي البريطاني التبشيري البروتستانتي ينمو بنمو النشاط البريطاني في فلسطين ، وسعى الألمان إلى تثبيت أقدامهم في فلسطين وحصلت عام ١٨٤٣م على إنشاء أول قنصلية ألمانية في القدس ، ولقد شارك الأمريكيون الأوربيون في هذا النشاط خاصة ميدان التبشير ، وفي عام ١٨٤٢م أنشئت أول قنصلية أمريكية في القدس .

هذا ؛ وتعتبر الإرساليات التبشيرية اللاتينية أقدم الإرساليات التبشيرية في مجال التعليم ، وكانت مدرسة مار يوسف للبنات عام ١٨٤٨م أول مدرسة تبشيرية لاتينية ، وهذا خليل السكاكيني أحد الباحثين يشير إلى خطورة المبشرين قائلاً : «هل كان ينتظر من رؤساء الدين وكلهم أجانب لا يعرفون حاجات البلاد ولم يجيئوا إلا لغرض ديني» .

ورغم هذا النشاط التبشيري الواسع الذي قامت به الإرساليات البريطانية والألمانية والأمريكية ومن قبل الفرنسية لم يزد عدد البروتستانت في بلاد الشام كلها

في نهاية القرن التاسع عشر على سبعة آلاف شخص .

ولقد اعتمدتُ في بحثي بصفة رئيسة على مجموعة من الوثائق والمراجع العلمية وكانت مصادري على النحو التالي وحسب أهميتها :

١- اطلاعي على مجموعة من الوثائق المصورة والتي تحمل رقم (F.O. 371) والتي تضم مجموعة كبيرة من البرقيات والمذكرات الصادرة عن حكومة فلسطين ووزارة المستعمرات البريطانية .

٢- الاطلاع إلى مجموعة من المذكرات الصادرة عن حكومة فلسطين في الإدارة والاقتصاد والصحة والتعليم .

وبعد هذا العرض الموجز للبحث فإنه يسعدني أن أتقدم بالشكر والعرفان لكل من قدموا لي الإرشاد والتوجيه والمساعدة بمختلف أشكالها المادية والمعنوية .

الغرض من البحث :

يهدف البحث إلى إبراز خطورة التبشير ، وإيضاح وسائله ، وأساليبه ، ثم استعراض بعض الدراسات السابقة ، وكيف يمكن تحذير المسلمين منه ، والوقوف في وجه خططه ، ومقاومة إغراءاته .

والغرض الرئيس من هذه الدراسة هو تأكيد الدور الإسلامي في معالجة هذه القضية والمشكلة الخطيرة من خلال توفير الأساليب والحلول المناسبة لمقاومة التبشير ، والحد منه ، ومن هنا تكمن أهمية هذا البحث الذي سأبين فيه مخاطر التبشير وأساليبه ومناهجه ، والطرق التي يجب على الجيل الناشئ اتباعها لمقاومته ، والتصدي له بالعلم والبحث .

*** وتكمن أهمية البحث في محاولة الإجابة عن الأسئلة التالية :**

١ - هل نجح المسلمون فعلاً في فهم مخططات المبشرين ؟ ومن ثم التصدي لها ؟ أما ما زال خطرهم موجوداً ؟ وما أسباب هذا الوجود ؟

٢ - ما الطرق التي تم اتباعها لمقاومة المبشرين ؟ وما الطرق التي يجب أن تكون فعلاً ويجب اتباعها فعلاً ؟

*** الأسباب والأهداف الأخرى لدراسة هذا الموضوع :**

١ - من المؤلم جداً أن نرى عدداً كبيراً من المسلمين ما زال يتهافت على مؤسسات المبشرين ، ويتقبل الخدمة المجانية منهم ، دون أن يفكروا في تدبير أمرهم ، والاستغناء عن هؤلاء المبشرين ، وعدم الافتراض أنه لا يوجد حل إلا عندهم ، وأننا بحاجة ماسة إليهم .

٢ - معظم العلاجات التي جرى تبنيها سابقاً لعلاج هذه المشكلة نظرية ، وتركزت في الوقوف في وجه المبشرين ، دون حث أصحاب المؤسسات الإسلامية والجمعيات الخيرية المسلمة تعويض المحرومين والمحتاجين من خدمات بدل أن يقفوا بشكل طوابير ينتظرون رحمة المبشرين أن يساعدوهم ويعالجوهم أو يعلموهم .

٣ - الفكرة التي يقدمها الباحثون عامة للعالم الإسلامي دون تخصيص كل دولة بمفردها ودراسة ظروفها وكيفية التخلص من مخططات المبشرين ؛ لأن لكل دولة ظروفها الخاصة ، فما يصلح للعلاج في مصر - مثلاً - لا يصلح للعلاج في فلسطين .

لذلك لابد من دراسة تخصصية تقابل اهتمام المبشرين في بلادنا ، ومخططاتهم الحقيقية ؛ لأنهم يعرفون كيف يعاملون كل دولة بما يناسبها .

* أهداف ثانوية :

١- إظهار عدد المنتفعين والمستفيدين من الجمعيات التبشيرية ، وإظهار حجم المشكلة وخطورتها .

٢- محاولة إدراك الأسباب الأساسية التي تقود بعض المسلمين إلى إلقاء أنفسهم في أحضان المبشرين وأن يكونوا لعبة في أيديهم .

٣- إلقاء الضوء على النتائج الخطيرة الناجمة عن تفاقم هذه المشكلة وخطورتها ، ووجوب التصدي لها ، وملخص القول يتركز في شعور الباحث أن مختلف الحلول التي جرى تبنيها من قبل الباحثين ليست كافية ، لذلك يأمل الباحث أن تتمكن الدراسة من النجاح في تغطية المجالات التالية :

١- استعراض جوانب المشكلة .

٢- تحديد مختلف الأسباب المؤدية لتطورها ، والخطورة الناتجة عنها .

٣- كيفية الوقوف في وجه المبشرين وطرق ذلك .

* منهج البحث :

١- سيلجأ الباحث إلى جمع المعلومات من المصادر العربية والأجنبية التي تعرضت لموضوع التبشير في فلسطين ، والموقف الذي يجب أن يكون عليه أهل فلسطين من الوعي والتصدي بكل الوسائل والأساليب العلمية والإعلامية .

٢- سيعمد الباحث إلى استخلاص نتائج الدراسات السابقة لتشكيل خلفية للدراسة الحالية وسيتم :

أ- جمع المعطيات والمعلومات ذات الصلة من المراجع العربية والأجنبية .

ب- دراسة العوامل والأسباب والطرق وطرق التبشير في فلسطين .

ج- عرض العلاج بالتفصيل والطرق التي يجب اتباعها .

د- عرض موقف الإسلام من التبشير وطرق التصدي له ولمخططاته .

* * *

تمهيـــد

*** المعنى اللغوي للغزو:**

ذكر ابن منظور في «اللسان» الغزو فقال : غزا : غزا يغزو غزواً ، طلبه وقصده ، وغزواً وغزاة وغزواناً .

وغزا القوم : سار إلى قتالهم وانتهابهم في ديارهم[١] .

وورد معنى الغزو في « مختار الصحاح » قولـه : غزا ، غزوت العدو من باب عدا، وأغزاه : جهزه للغزو[٢] .

والغزو الثقافي أو الفكري : واحد من شُعب الجهد البشري المبذول ضد شعب ما ؛ لكسب معارك الحياة منه ، ولتذليل قيادته ، وتحويل مساره ، وضمان استمرار هذا التحويل حتى يصبح ذاتياً إذا أمكن[٣] .

التبشير لغة :

يقال التبشير من البشارة ، والبَشارة والبشارة : تباشر القوم بأمر ، والتباشير: البشرى ، والبشر: المبشر الذي يبشر القوم بأمر خير أو شر[٤] .

والتبشير والتنصير يحملان الغرض نفسه ، والمفهوم نفسه ، فيصبح معنى التنصير لغـة: الدخول في النصرانية ، وفي المحكم : الدخول في دين النصارى .

---

(١) ابن منظور أبوالفضل جمال الدين محمد بن مكرم : لسان العرب (٢/ ٩٨٥).

(٢) الرازي ، محمد بن أبي بكر : مختار الصحاح ، ص٤٧٤ .

(٣) الخريجي ، منصور بن عبدالعزيز : الغزو الثقافي للأمة الإسلامية ، ماضيه وحاضره ، ص٢٧ .

(٤) لسان العرب (٤/ ٦٠) .

ونصَّرَه : جعله نصرانياً . وفي الحديث : « كلُّ مولودٍ يُولد على الفطرة حتى يكون أبواه اللذان يهوِّدانه أو ينصِّرانه »[١] .

ويقول الرازي[٢] في «مختار الصحاح»: نصره تنصيراً: جعله نصرانياً[٣] .

التبشير اصطلاحاً :

استخدم التبشير علماً على تلك الحملة التي تولّتها الصليبية فيها سُمي « بتعلم الدين المسيحي ونشره » وهو تعريف غير دقيق ؛ لأن التبشير حَمَلَ في الوقت نفسه أهدافاً أخرى غير التنصير[٤] . والتبشـــير : العمل في حقل التبشير أو بعثة دبلوماسية أو ثقافية . والمبشِّر: هو المرسل الديني[٥] .

والتبشير المسيحي : عبارة عن التنصير ، أي تحويل الناس من دياناتهم التي يدينون بها سواء كانوا من المسلمين ، أم من غير المسلمين إلى الديانة النصرانية ، إذاً حقيقة التبشير المسيحي هو إما تحويل الناس عامة إلى نصارى ، أو محاولة تشكيك المسلمين في عقيدتهم ، ليتركوا الإسلام ويتحولوا إلى نصارى مستقبلاً ، وإذا لم يتحولوا إلى نصارى ، فليتحولوا إلى ملحدين[٦] .

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٩٣) ، والبخاري (١٣٥٩) ، ومسلم (٢٦٥٨) .

(٢) الرازي ، محمد بن أبي بكر : صاحب « مختار الصحاح » في اللغة ، ومن فقهاء الحنفية ، وله علم بالتفسير والأدب ، من كتبه : «شرح المقامات الحريرية» ، و«حدائق الحقائق» و « روضة الفصاحة » ، توفي بعد سنة (٦٦٦هـ) . الأعلام (٦/ ٥٥) .

(٣) الرازي ، محمد بن أبي بكر : مختار الصحاح ، ص٥٨٣ .

(٤) جريشة ، علي : الاتجاهات الفكرية المعاصرة ، ص٢٣ .

(٥) بعلبكي ، منير : المورد ، ص٥٨٤ .

(٦) البسطامي ، أحمد سعدالدين: التبشير وأثره في البلاد العربية والإسلامية (ص٣١) .

وهناك رأي يقول : إن التبشير المسيحي عبارة عن هجوم المسيحية على الديانات المستوطنة في البلاد التي يتوجه إليها المبشرون المسيحيون للتبشير فيها ، خصوصاً الإسلام ، وذلك كما قال « غاردنر »(١) ـ وهو قس إنجليزي يعرف العربية ، له يد طولى في تأسيس فرع مصر لجمعية الكنائس ـ : « إنه وإن كان قد خاب الصليبيون في انتزاع القدس من أيدي المسلمين ليقيموا دولة مسيحية في قلب العالم الإسلامي لكن الحروب الصليبية لم تكن لإنقاذ هذه المدينة بقدر ما كانت لتدمير الإسلام»(٢) .

والغزو التبشيري يقصد به الوسائل غير العسكرية التي اتخذها الغزو الأجنبي لإزالة مظاهر الحياة الإسلامية ، وصرف المسلمين عن التمسك بالإسلام مما يتعلق بالعقيدة وما يتصل بها من انكسار وتقاليد وانحطاط وسلوك (٣) .

ويعني التبشير أيضاً : محو الشخصية العربية الإسلامية ، بحيث يصبح الإنسان العربي تابعاً لا كيان له ، سواء في ذلك الكيان الوطني أو القومي أو الديني ، ولا يهم أن يظل اسمه محمداً - مثلاً - إنما المهم أن يكون محمداً هذا مستلب الفكر ، عديم الشخصية(٤) .

والتبشير أو التنصير حركة دينية سياسية استعمارية ، بدأت بالظهور إثر فشل الحروب الصليبية ، بغرض نشر النصرانية بين الأمم المختلفة في دول العالم الثالث

---

(١) جاردنر ، و. ر. و : مستشرق إنجليزي ، من آثاره في العالم الإسلامي : الجهاد (١٩١٢م) ، والغزالي الصوفي (١٩١٧م) ، والحركة الأحمدية (١٩٢٠م) ، انظر المستشرقون (٢/ ٦٦) .

(٢) الطهطاوي، محمد عزت: التبشير والاستشراق، أحقاد وحملات على النبي ﷺ وبلاد الإسلام، ص١.

(٣) قطب ، محمد : واقعنا المعاصر ، ص١٩٥ .

(٤) مرسي ، محمد عبدالعليم : التغريب في التعليم في العالم الإسلامي ، ص٢٢ .

بعامة، وبين المسلمين بخاصة، بهدف إحكام السيطرة على تلك الشعوب[١].

ويقول الدكتور إبراهيم عكاشة: « إن المبدأ العام للتنصير هو قيام مجموعة من المنصرين باحتلال منطقة معينة، والعمل على تنصير سكانها، وإنشاء كنيسة وطنية تؤول مسؤولياتها الإدارية والمالية تدريجياً للأهالي، الذين يقومون بدورهم بنشر النصرانية في المناطق التي لم يصل إليها المنصرون[٢].

نلاحظ هنا توافقاً بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، فالحصيلة النهائية هي إدخال الناس في النصرانية، وإقناعهم بأن الدين الأمثل لهم، وخاصة المسلمين الذي يجهلون الفرق بين الإسلام والنصرانية، وحتى يتقبل الناس هذا العمل الجديد عليهم سماه أهله «التبشير»، لما لهذه الكلمة من أثر جيد في نفوس المسلمين، لذلك هو أشهر كلمة مرادفة للتنصير[٣].

والحق الذي لا مرية فيه أن التنصير والتبشير ما هما إلا تكفير لمن ينخدع بهما وإخراج له من الإسلام إلى الكفر والنصرانية المحرفة الحالية والسائدة كما بنص القرآن الكريم: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ﴾ [المائدة: ٧٣].

التعريف المختار:

* **التبشير**: هو عمل منظم تقوم به مجموعة منظمة لخدمة الدين النصراني، يهدف إلى تحويل أبناء المسلمين عن دينهم، أو تشويه صورة الإسلام لديهم، مع وصفه بالجمود والتأخر وعدم صلاحيته لهذا العصر.

---

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ص١٥٩.

(٢) عكاشة، إبراهيم: ملامح عن النشاط التنصيري في الوطن العربي، ص٢٦.

(٣) العسكر، عبدالعزيز بن إبراهيم: التنصير ومحاولاته في بلاد الخليج العربي، ص١٤.

الفصل الأول

التبشير تاريخياً ، دوافعه ، وسائله

ويشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : التبشير تاريخياً .

المبحث الثاني : دوافع التبشير.

المبحث الثالث : وسائل التبشير.

* * *

المبحث الأول
التبشير تاريخياً

أولاً : نشأة التبشير :

يطلق المسيحيون لفظ « المبشرون » على الدعاة إلى ملتهم ، ومن هنا يصعد تاريخ التبشير إلى حواريِّ عيسى عليه السلام ، الذين يعبرون عنهم بالرسل ، فقد انتشروا بعد عيسى عليه السلام في الأرض يدعون الناس إلى ملّتهم .

على أن «بطرس»[١] و«بولس»[٢] في أواخر القرن الأول المسيحي (٦٧م) لم يتجاوزا روما إلى جهات العرب ، ثم أرسل بطرس تلامذته إلى مصر ليهدي أهلها إلى المسيحية ، ثم انتشرت المسيحية في كثير من جهات إفريقيا في أول القرن الخامس الميلادي ، وفي تلك الأثناء كانت المسيحية تنتشر في أوروبا الشرقية ، وجاء «سان دنيس» في القرن الثالث فأسس كنيسة باريس ، ومنها

---

(١) بطرس (القديس) (نحو ١٠ق . م – ٦٧م) : هو سمعان بن يونا أول رئيس على الكنيسة ، كان صياد سمك ، أقامه المسيح رئيساً على الرسل ، أقام في أنطاكية ، مات في روما أيام نيرون . المنجد في الأعلام (١٢٨) ، والموسوعة الميسرة (١/ ٣٨٧) .

(٢) بولس (القديس) : قديس اشتهر بلقب رسول الأمم ، كان من أعنف مضطهدي المسيحية ثم اهتدى على طرق في دمشق وعمده حنياً ٣٣ ، واندفع متفانياً في التبشير بين مدن آسيا الصغرى واليونان ، كان اسمه شاول قبل اهتدائه . مات في روما بقطع الرأس سنة (٦٧م) ، له أربع عشرة رسالة موجهة إلى الكنائس المختلفة أو إلى بعض تلاميذه . المنجد في الأعلام (١٤٩) ، والموسوعة الميسرة (١/ ٤٤٠) .

انتشر المبشرون في الضواحي ونشروا الأناجيل بين أهلها[1] .

يرى القارئ مما مرَّ أن جمعيات التبشير اليوم لها تاريخ بعيد يتصل بالقرن الأول والثاني من المسيحية .

فكان المبشرون في أول الأمر مبعثرين لا تجمعهم جامعة لكل طائفة من المبشرين كنيسة ينتمون إليها ، لكنهم في القرن العاشر اجتمعوا إلى رئيس عام هو بابا الكنيسة الرومانية .

وعلى الرغم من تحرك البعثات التبشيرية المتواصلة إلا أن عدد الذين نصروا قليل جداً ، كالصين ومصر واليابان ، إذا ما قيس بالجهود المبذولة ، لذلك استمر عمل هذه البعثات التبشيرية ، ففي عام (١٦٤٧م) قرَّر البرلمان الإنجليزي أن تنشأ بعثات دينية ترسل إلى الجهات القصيّة لنشر الدين ، فتألفت تلك البعثات وانتشرت في الأرض ، وكذلك سلك الدانيماركيون سيرة الإنجليز ، فألفوا كثيراً من البعثات الدينية إلى الهند (١٧٠٤م) وكذلك هولندا ، ونلاحظ نشاط الولايات المتحدة الأمريكية ، التي بدأت نشاطها منذ عام (١٨٢٠هـ)[2] ، حيث أصبحت بعثاتها تناظر البعثات الإنجليزية في كل مكان ، وكان مقر هذه البعثات في بوسطن (١٨١٠م) .

ولا ننسى عدداً من الجمعيات التي تأسست من أجل هذا الغرض ابتداءً بجمعية لندن التبشيرية التي تأسست عام (١٧٩٥م) في بريطانيا ، وجمعية نشر

---

(١) وجدي ، محمد فريد : دائرة معارف القرن الرابع عشر إلى العشرين ، ص٢٠٦ .

(٢) الخطيب ، محب الدين اليافي ، مساعد: الغارة على العالم الإسلامي ، ص٢٤-٢٥ .

التوراة البريطانية عام (١٨٠٤م) ومركزها لندن .

وفي عام (١٨٤١م) حصلت بريطانيا على إذن من السلطان العثماني بإنشاء كنيسة بروتستانتية في المدينة المقدسة ووصل أول أسقف عام (١٨٤٢م) وكان يهودياً متنصراً[١] ، وفي عام (١٨٥٥م) تأسست جمعية الشبان المسيحيين في نيويورك ولها تسعة آلاف فرع في العالم ، ووظيفتها إدخال ملكوت المسيح بين الشباب ، وفي عام (١٨٩٥م) تأسست جمعية اتحاد الطلبة المسيحيين تهتم بدراسة أحوال التلاميذ في كل الأقطار ، وبث روح المحبة بينهم ، فالتحق بها (١٠٠.٠٠٠طالب وأستاذ) يمثلون أربعين قوماً ، وهذا العدد خاص بهذه الجمعية فقط ، وفي عام (١٨٥٥م) تأسست جميعة المرسلين الأمريكيين الإنجيلية ، وفي عام (١٩٠٢م) تأسّست جمعية تبشير الشبان ، ومن وظائفها استمالة النساء والبنات والشبان والطلبة إلى استماع صوت المبشرين ، وفي عام (١٩٢٣م) تأسس فرع مصر لجمعية اتحاد الكنائس ، وهنا نشير إلى الدور الذي لعبته إرساليات التبشير ممثلة في جمعياتها ، حيث كانت هذه الإرساليات أول خطوات الاستعمار ، وكان من أول عملها إحداث الشقاق في الأمة التي تبشر فيها[٢] .

فمنذ الحروب الصليبية التي بدأت بالحملة الأولى (١٠٩٥م) بانتفاضة عنصرية تعصبية حاقدة ضد الإسلام وأهله عرفت أوروبا عن كثب ديار الإسـلام ، ووقفت على ما لدى المسلمين من وسائل أمنهم وأمانتهم ، وارتفاع مستواهم في الاجتماع والاقتصاد والسياسة كثمرة لفهم دينهم ومنهج ربهم

---

(١) المحافظة علي : الحركات الفكرية في عصر النهضة في فلسطين والأردن ، ص٢٠ .

(٢) الجندي ، أنور : الإسلام في وجه التغريب ، ص٢٨-٣٤ .

واتباعاً لسنة نبيهم ﷺ[١] .

وفي أعقاب عصر النهضة الأوروبية الذي دار فيه صراعٌ طويل بين رواد الفكر الأوروبي وبين الكنيسة والذي انعكس سلباً على ديار المسلمين في شكل غزو للأفكار عن طريق التبشير والاستشراق ، وبعد ذلك لجأوا إلى تخطيط دراسات متأنية قامت بها أجهزة ومؤسسات متخصصة بعدة مجالات وبأساليب مختلفة تحقق لهم الهدف المبتغى من إضعاف شوكة المسلمين ، ومحاربة الإسلام ، ومن أهم تلك الأساليب المعادية للإسلام : تخريب عقل الأمة ، ثم دس الشعارات التي مزقت الوحدة الإسلامية ، مثل : نشر الشعارات الوطنية والقومية ، والعلمانية ، وتحرير المرأة[٢] .

وكان الدور الذي قامت به الكنيسة في بلاد المسلمين وخصوصاً حين اقتحمت الحياة الاجتماعية ومارست دورها في مؤسسات التعليم ، إضافة إلى ما يُسمى بالعمل الخيري ، والنشاط الرياضي والكشفي الذي أقامت له أندية ومراكز ثقافية ، فمع نشاط الكنيسة السري للغاية ما زالت تقيم علاقات اجتماعية ، وتدفع معونات وتبرعات ، وتشكل لجاناً لأنشطتها من المسلمين ؛ ليكونوا على مقربة من العمل الحركي للكنيسة ، أو لكي يكونوا إعلاميين لها بين أبناء المسلمين وتجمعاتهم ، وهذا ما ساعد رجال الكنيسة على العمل في جو آمن بعيد عن المضايقات التي كانت توقف هذا النشاط لو ظهر بشكل مباشر .

وما هذه العداوة وهذا الخطر إلا نتاج الحروب الصليبية حيث إن العداوة

---

(١) ستيفن رينسمان: تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني ، ص١٦٩ .

(٢) طعمية ، صابر ، أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي ، ص٤٣ .

دنيوية سياسية ، لا صلة لها بالدين ، إذ إن المبشر يحمل في فكره محـو الإسلام من العالم .

وكانت تقف وراء هذا النشاط المحموم جهتان هما : الكنيسة الأوروبية بمذاهبها كافة ، والدول الطامعة قوميتها كافة ، وربما كان هذا هو الهدف الوحيد الذي جمع الدول والكنيسة بعد هزيمتها وعزلتها ، حتى كان كثير من القساوسة والمبشرين يعملون لخدمة الاستعمار والاحتلال ، وفي الوقت نفسه كانت الدول تدعم التبشير ، وتمهد له كل السبل خارج بلادها فقط ، واتفق الفريقان على أنه لابد من إعادة تشكيل الإسلام في قوالب غربية أو عصرية أو إصلاحية ، وهكذا تضافرت جهود المبشرين والمستشرقين بدهاء لخدمة هذا الغرض[١] .

وكانت الخطة بين الدول الأوروبية المستعمرة ، والكنيسة تدور حول محور واحد ، هو ضرب الإسلام وتنحيته عن الحياة[٢] .

وكانت هذه الخطة تستعمل مع كل إقليم يراد غزوه والاستيلاء عليه ، وهذا ما صرَّح به « غلادستون »[٣] بقولـه : « إننا لا نستطيع الاستقرار في الشرق ما دام فيه هذا الكتاب» - وأشار إلى القرآن الكريم - ، أما «وليم جيفوك بالكراف»[٤]

---

(١) السعيد عبدالستار فتح الله : الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ، ص٣٤ .

(٢) هذا العداء للإسلام مستمر لا يخفى على أحد ، وهو مسجل عبر النصوص القرآنية قال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ [البقرة :٢١٧] .

(٣) غلادستون: زعيم حزب الأحرار البريطاني ، ومن مشاهير الخطباء في القرن التاسع عشر ، ومن ألدّ أعداء الخلافة الإسلامية ، رئيس وزراء بريطانيا عام ١٨٨٢م . انظر : الموسوعة العربية الميسرة ، ص٦٣٦ .

(٤) بالكراف (١٨٢٦-١٨٨٨م) : تلقى العلم في مدرسة تشاهترهاوس وأكسفورد ، وانضم إلى

الإنجليزي ، والمسمى بالحرباء؛ لتنقله من راهب يسوعي إلى بروتستانتي فقال : « متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا أن نرى العربي حينئذٍ يتدرج في سبيل الحضارة ، التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه »[١] .

ونحن لا ننكر أن الباعث الحقيقي المقيت وراء الحروب الصليبية إنه باعث ديني وما تلاه من بواعث اقتصادية واجتماعية وسياسية وعسكرية ، ويؤيد هذا الرأي الدور الرهيب الذي قام به « بطرس الناسك » من تأليبٍ للأوروبيين ، وإشعال جذوة الحماسة الدينية في نفوسهم ، وكذلك قيام الكنيسة بدور فعَّال ، حيث كانت تطلب من الجمهور المسيحي في كل صلوات الأحد أن يضعوا تبرعاتهم في صناديق التبرعات الموضوعة أمام الكنيسة ، ولعل قيام الباب نفسه بالنداء لهذه الحملات دليل آخر على ما يضمره النصارى من حقد وكراهية للمسلمين[٢] .

إن الحقد النصراني على الإسلام والمسلمين الذي امتد عدة قرون بسبب الانتصارات الإسلامية على النصرانية وانتزاع أجزاء واسعة من أملاك النصرانية في بلاد الشام وشمالي إفريقية كان هذا الحقد يظهر مع كل انتصار جديد للإسلام[٣] .

الرهبانية اليسوعية في لبنان ، وطوف بالمشرق متنكراً بزي طبيب سوري ، ورحل إلى جزيرة العرب بمعية بطرس الجزبجري (بطريرك الملكيين الكاثوليك) ثم ترك مسوح الرهبان إلى السلك الدبلوماسي فعمل في الحبشة (١٨٦٥م) وطريزون (١٨٦٧) ، وجورجيا التركية (١٨٧٠م) ، والفرات (١٨٧٢م) ، وجزر الهند الغربية (١٨٧٣م) ، آثاره: رحلتي إلى أواسط وشرقي الجزيرة العربية (١٨٦٢م-١٨٦٣م) ، في ٤٢٧ (لندن ١٨٦٥ و١٨٨٣م) ، المستشرقون (٢/ ٦١) .

(١) الخطيب محب الدين ، اليافي ، مساعد : الغارة على العالم الإسلامي ، ص٩٣ .

(٢) طعيمة ، صابر: أخطار الغزو الثقافي على العالم الإسلامي ، المكتب الإسلامي ، ص٢٥.

(٣) شاكر ، محمود : التاريخ الإسلامي ، المكتب الإسلامي ، ص٢٥٢ .

فهذه التحديات تلجأ إليها الصليبية وبأساليب مختلفة ، بين الحين والآخر ، بهدف أن تفصل بين الإسلام والأمة عن طريق إقامة الحواجز والسدود ، وهذه الحواجز إما أن تكون فكرية عقدية ، وذلك بتحريك جنودها من المبشرين والمستشرقين ؛ لتشكيك الأمة في كتابها وسنتها وتاريخها .

وإما أن تكون نفسية بإظهار : أن الغرب لم يبنِ حضارته العلمية والتقنية إلا حين تخلى عن الدين ، والتخلف الذي يعاني منه المسلمون ما سببه إلا التمسك بالدين؛ فهو في نظرهم سبب التخلف والجمود .

إن المتتبِّع لتاريخ العلاقات بين الغرب والشعوب الإسلامية يلاحظ حقداً مريراً يملأ صدور الغرب ، يصاحب ذلك خوف رهيب من الإسلام ، حيث إن الصليبيين كانوا وما زالوا يكيدون للإسلام وللحضارة الإسلامية والعربية ، ولعل أخطرها ما أنتجته الصليبية في مجال المكر والخديعة ، تلك الحركة المشبوهة التي قادها الغرب الصليبي الحاقد ، وتزعّم التخطيط لها ملوك وقادة الغزو الصليبي ، تلك هي حركة التبشير[١] .

---

(١) ومن هنا بثت أقوال كثيرة توحي بزخرف القول أن الدين أفيون الشعوب ، وحجر عثرة في وجه التقدم والديمقراطية ، وأنه عدو للعلم .. إلى ما هنالك من شعارات مزوقة ، الهدف منها إبعاد المسلمين عن عقيدتهم ، وتفريق كلمتهم ؛ إذ لا فرق ـ في الحقيقة ـ بين العلم والدين ، فكلاهما يلتقي لخدمة الإنسان ، والأخذ بيده إلى شاطئ الأمان وجادة الصواب . ومن شاء الزيادة فليقرأ كتاب «العلم يدعو إلى الإيمان» ، وكتاب «الله يتجلى في عصر العلم » ففيهما ما يثلج الصدر ، وينقع الغليل .

* بداية التبشير :

ظن المسلمون في انتصارهم العسكري على الصليبيين: أن المعركة قد انتهت بطرد آخر الجنود الصليبيين من ديارهم ، ولكن الغرب لم يقف عند هذا الحد في صراعه ومؤامراته ، ولكن وصل إلى رأس الأمر كله عندما قرر أن تكون الحرب هذه المرة موجّهة إلى العالم الإسلامي ، لا عن طريق السلاح ، بل هي حرب فكر ؛ لأنهم عرفوا أن المسلمين مهما تخلفوا في الصناعة والعلم فإن عقيدتهم راسخة تحمل طابع الجهاد ، وتدفع بالألوف إلى ساحات الاستشهاد في سبيل الدفاع عن الحق ، وعن الأرض ، وعن العرض ، إذاً فالمعركة يجب أن تبدأ من هذه النقطة الأخيرة ، ولابد من تزييف هذه العقيدة ، وامتصاص ما فيها من قوة وإيمان ؛ حتى يفقد المسلمون هذا السلاح الخطير الكامن في نفوسهم .

لقد وضعت الخطط في وقت مبكر من (١١٢١م) إلى (١٣٨٠م) بعد هزيمة «لويس التاسع»[١] ، ملك فرنسا في الحملة السابعة على مصر ، وفي سجنه وضع تلك الخطط ، ولم تكتشف إلا بعد سنوات طويلة ، وكانت أولى علامات ظهورها في وصية لويس التاسع بعد هزيمته في المنصورة[٢] إذ إن أول من يحدد دور المبشر ومهمته ، ويكيف طبيعته كمحارب ، هو الملك لويس التاسع في زنزانته التي نزل بها ، كأسير حرب في المنصورة ، في آخر الحملات الصليبية ،

(١) لويس التاسع : (١٢١٤-١٢٧٠م) ، قاد الحملتين الصليبيتين السابعة والثامنة ، وصل إلى دمياط عام (١٢٤٩م) ، أُسر في معركة المنصورة (١٢٥٠م) ، توفي بالطاعون في تونس . المنجد في الأعلام (٥٠١) ، والموسوعة العربية (١٥٨٥) .

(٢) الجندي ، أنو : الخنجر الذي طعن به المسلمون . ص١٣-١٤ .

لقد أتاحت له زنزانته أن يفكّر في خلوته بعمق في السياسة التي كان أحق بالغرب أن يتبعها إزاء المسلمين ، وقد انتهى من تفكيره إلى تلك الآراء ، وهذا ما أفضى به لأعوانه المخلصين أثناء رحلته إلى عكا راجعاً إليها من دمياط[١] .

يقول المؤرخ الفرنسي « دينيه جروسيه »[٢] : إن الملك لويس التاسع كان بذلك في مقدمة كبار الساسة الغربيين الذين وضعوا للغرب الخطوط الرئيسة جديدة شملت مستقبل آسيا وأفريقيا بأسرها ، وهكذا رسم لويس التاسع التخطيط المبدئي لسياسة التبشير في الوطن العربي والإسلامي منه خاصة وذلك :

١ - تجنيد المبشرين الغربيين في معركة التبشير لمحاربة تعاليم الإسلام ووقف انتشاره ثم القضاء عليه معنوياً .

٢ - العمل على استخدام من يمكن إغراؤهم من مسيحيي الشرق إضافة للمبشرين الغربيين في تنفيذ سياسة الغرب (التبشيرية) والاستعمارية .

---

(١) الغتيت، محمد علي : الغرب والشرق من الحروب الصليبية إلى حرب السويس ، ص٣٥ .

(٢) جروسي (١٨٨٥-١٩٥٢م) : مستشرق وأديب ومؤرخ ، عُيِّن أميناً لمتحف سرنوكي بباريس ، وانتخب عضواً في المجمع اللغوي الفرنسي . آثاره : تاريخ آسيا ، وتاريخ الفلسفة الشرقية (١٩٢٣م) ، وحضارة الشرق تناولها بدقة ما خلا ... فلم يعن به (باريس ١٩٢٩-١٩٢٣) وتاريخ الصليبية ومملكة الفرنجة في القدس في ثلاث أجزاء معتمداً على المصادر العربية (١٩٣١-١٩٣٦) ، وأمبراطورية البطاح عن السلاجقة (١٩٣٩) ، الإمبراطورية المغولية في مجموعة تاريخ العالم ، باريس (١٩٢٤) ، ونادر شاه (المجلة الآسيوية ص٢١٧ (١٩٣٠) ، وقصور الصليبيين في الأرض المقدسة (١٩٣٦) ، ونسيج جديد في تدمر (١٩١٩) ، والدراسات التاريخية والاستشراق (المجلة التاريخية ١٩٣٧م) ، وحول فقرة مبهمة في تاريخ غليوم الصوري (المنوعات السورية لديسو ١٩٣٩م) ، والقديس لويس والأحلاف الشرقية (الدراسات التاريخية ٣ (١٩٤٨) ، المستشرقون (١/ ٢٧٢-٢٧٣) .

٣- العمل على إنشاء قاعدة للغرب في قلب الشرق الإسلامي ، تكون نقطة ارتكاز ، من غزة حتى الإسكندرية .

٤- اعتبار القساوسة الذين يذهبون إلى تلك البلاد للتبشير بالنصرانية جنوداً للغرب[١] .

وهذا « زويمر »[٢] في خطابه لمؤتمر القاهرة الخاص بالمبشرين ، فذكر : أن مؤتمر القاهرة كان فاتحة عصر جديد لتنصير المسلمين ؛ لأنه كشف الحجاب عن أمور كثيرة كانت مهملة ومنسية ، واستنجد بالكنائس واستصرخها ، فخاضت الجرائد والمجلات في مسألة الانقلاب العثماني ، والانقلاب الفارسي ، والنهضة المصرية ، وحركة الجامعة الإسلامية ، ومكانها من الحالة السياسية الحاضرة ، وكل هذه الكتابات التي نشرتها الجرائد أبانت عما يجب أن تعمله في العالم الإسلامي ، وصنفت الكتب الكثيرة ، التي يراد بها تعريفنا ببلاد الإسلام ، وحالات المسلمين ، مثل كتاب «الشرق الأدنى والشرق الأقصى» الذي طبع منه (٤٥.٠٠٠) نسخة ، ومثل كتاب «أخواتنا المسلمات » ، وكتاب « العالم الإسلامي» الذي طبع منه (٥٠.٠٠٠) نسخة ، وأكثرها تنشر بلغات متعددة .

وقد أدرك المبشرون أنفسهم ذلك حتى قال بعض غلاتهم « زويمر » : «المدارس أحسن ما يعول عليه المبشرون في الاحتكاك بالمسلمين»[٣] .

---

(١) شرف ، عمار : حقائق عن التبشير ، ص٩ .

(٢) زويمر : (١٨٦٧-١٩٥٢م) ، مستشرق أمريكي ، محرر مجلة « عالم الإسلام » الإنجليزية ، من كتبه « يسوع في إحياء الغزالي » . المنجد (٢٨١) .

(٣) أ.ل. شاتيله: الغارة على العالم الإسلامي ، نقله إلى العربية مساعد اليافي ، ومحب الدين الخطيب، ص١٥٩ ، ١٦٠ .

وما من مرة قرر الأوربيون الاستيلاء على بلد أو منطقة إلا سبقت إليها بافتتاح المدارس بمراسليها الدينيين ، ومن تخلّق بأخلاقهم ، لتمهد لها الطريق بالاستعمار ، وهؤلاء المبشرون يظهرون بمظهر رجال العلم ، فلا يلقون معارضة، ومن يقف في وجههم فهو ضد العلم وبغيض؛ لأن المبشرين هم أصحاب الهداية والمعرفة والتمدن في ظاهر العين ، مع العلم أنهم سفراء الاستعمار ، وهل من المعقول أن يقطع بعضهم البحار ، مع شدة الأخطار حباً في المسلمين ، وطمعاً في نشر العلم بينهم ، وإننا نعلم أنه ما من مدرسة من هذه المدارس ، أوجمعية من هذه الجمعيات ، وهذه الأموال التي تنفق عليها ليست عبثاً ، وإنما لما تنطوي عليه أنفسهم من السيطرة والاستعمار ، ولعل مراكز التبشير التي بدأت عملها في جزيرة مالطة في أواخر القرن السادس عشر ، واعتبرت الجزيرة قاعدة هجوم على الشرق الإسلامي كله ، ثم انتقلت إلى بلاد الشام عام (١٦٢٥م) ، وكان نشاطها في هذه المرحلة محدوداً[١] ـ إلا أكبر دليل على ذلك .

ولقد أشارت بعض المراجع إلى أن المجلس الأمريكي لمندوبي البعثات الأجنبية ، أنشئ في «بوسطن» (١٨١٠م) ، وأرسل بعد تسع سنوات (١٨١٩م) أول مطبعة للشرق الأدنى ، واتخذت من مالطة مركزاً لهم[٢] .

ولعل أرجح الآراء : أن التبشير بمعناه التنصيري بدأ منذ مطلع القرن التاسع عشر ، وذلك لأن قوى التبشير وجدت الطريق أمامها مفتوحاً ، وميسراً مع العوامل التي أعدها لها النفوذ الاستعماري ، وأهمها :

---

(١) الجندي ، أنور : الإسلام في وجه التغريب ، ص ٢١ .

(٢) حِتي ، فيليب : مختصر تاريخ لبنان ، ص٢٤٢ .

١- الامتيازات الأجنبية التي من خلالها كانوا يجوبون أرجاء العالم الإسلامي دون معارض ، فكل التسهيلات تمنح لهم ، كيف لا ! وهم أبناء الرعايا الأجنبية وضيوف القناصل الأجنبية في بلادنا ؟! .

٢- دعم الحكومات الغربية لهم في إنشاء المدارس والمعاهد والمستوصفات الطبية والمستشفيات(١) .

فعلى سبيل المثال أنشئت مدرستان إنجليزيتان في القدس عام (١٨٩٩م) هما مدرسة القديس جورج وكلية القدس للبنات ، وأنشئت مدرسة الفرندر الأمريكية للبنين والبنـــات في رام الله عام (١٨٩٩م) وأنشأت مدرسة المجدل عام (١٨٨٢م)(٢) .

إن التنصير بالنسبة بالنصارى عقيدة يلتزمون بها بل يعدون ذلك إجبارياً ، ولا يقبل الله غيره ، وعليه فالتنصير لا يقتصر على غير النصارى فقط ، بل تعمل كل كنيسة بالتنصير بين أتباع الكنائس الاخرى ، فالكنائس البروتستانتية تسعى لتحويل المجتمعات الكاثوليكية إلى مبادئها ، وتعمل الاخرى عكس الأولى ﴿بأسهم بينهم شديد﴾ [الحشر: ١٤] .

ولقد جاء في إنجيل مرقس على لسان يسوع المسيح: «وقال لهم اذهبوا إلى العالم، واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها من آمن ، واعتمد خلص ، ومن لم يؤمن يُدَن»(٣) .

---

(١) رودي ، بارت : الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ، ترجمة مصطفى ماهر ، ص٣١ .

(٢) Tibawi A.L. Arab Education in Mondatory Palestine . p.62 .

(٣) إنجيل مرقص ، (ص١٤-١٥) .

هذا لا ننكره ، ولكن قبل مجيء رسالة خاتم المرسلين ، ولما بعث محمد ﷺ كان من الواجب على أصحاب الديانتين اليهودية والنصرانية اتباع رسول الهدى ﷺ، ولكن إنكارهم لذلك جعلهم يتمارون ، ويصرون على ضلالهم .

وانطلاقاً من تعاليم الكنيسة ، وتخطيط رجال اللاهوت بدأ الرهبان نشاطهم التبشيري ، لنشر النصرانية في وقت مبكر ، واتبعوا في ذلك النشاط مناهج وأساليب متعددة تفاوتت بتفاوت الأزمنة ومستوى المجتمعات الحضارية .

*** دور الفاتيكان :**

في عام (١٣٤٩هـ/ ١٩٢٩م) وبموجب اتفاق (اللاتيران) الذي عقد بين موسليني والفاتيكان ، وفيها يعتبر الفاتيكان هو الذي يقوم بدور دعائي دستوري ، منظم للحركات النصرانية في الغرب ، عندها غدا العمل التبشيري والاستشراقي أكثر تنظيماً ، وفاعلية وبلغ أشده في فترة ما بين الحربين ، التي يطلق عليها فترة (نضوج الثمار)[١] .

وعلى مر الزمن تطورت حركات وأساليب المبشرين تأثراً مع التطور الذي طرأ على مختلف جوانب الحياة ، فقد قرر مجلس الكنائس العالمي و الفاتيكان وهيئات التبشير الأخرى الإسهام في مشاريع التنمية لدى الدول النامية والمتخلفة تحت شعار (من الكنيسة إلى المجتمعات) ومنها إنشاء القرى الزراعية، وتقديم القروض المباشرة للفلاحين .

وهنا نضيف قول القسيس (لبسيوس) أحد كبار مؤسسي الإرساليات

(١) الجندي ، أنور : الإسلام في وجه التغريب ، ص٧٢ .

التبشيرية جاء فيه : « إن نار الكفاح بين الصليب والهلال لا تتأجج في البلاد النائيـــة ، ولا في مستعمراتنا ، بل تكون في المراكز التي يستمد الإسلام منها قوته»[(١)] .

من هنا نلاحظ أن الكنيسة ودعايتها الكاذبة ضد الإسلام طوال الحروب الصليبية وما بعدها ، وتصويرها الإسلام بصورة الدين الوثني المنحرف ، مما عبأ النفوس الأوروبية عامة بعقيدة الكراهية ضد المسلمين والإسلام ، وأخذت هذه المفاهيم تتوارث بلا فهم ، ولا تمييز في نفوس الأوروبيين إلى يومـنا هـذا ، والعجيب أن الحضارة الغربية ، حين تمت لها الجولة علـى المسلمين كانت تتعامل مع المسلمين بروح علمانية ، على الرغم أن من يقوم بدور الراهب والمبشر إما « مستشرق » ، أو « جاسوس » محترفين ، في آن واحد ، لذلك استهدف هذا الغزو البعيد عن روح الدين المسيحي الأرض الناس والثروات والعقول والمعادن والأخلاق والعادات والأفكار ، وعلى هذا كله كانت الكنيسة تبارك ذلك ، فكان القتل والتشريد والاستيلاء على الخيرات ، فهل هذا كله من تعاليم المسيح عليه السلام ؟! ، شتان بين ما يقولون وما يعملون !! لذلك كان تركيزهم على مهاجمة الإسلام ، والعمل الدائب على التشكيك فيه ، وتنحيته عن مجالات الحياة وتتبعه داخل النفس بالطمس والتشويه .

يقول المؤرخ الإنجليزي (توينبي)[(٢)] : « وما كان لأوروبا أن تصل إلى معشار

---

(١) يكن ، فتحي : العالم والإسلام والمكائد الدولية خلال القرن الرابع عشر ، ص٦٦ .

(٢) توينبي ، آرنولد جوزيف (١٨٨٩-١٩٧٥م) : مؤرخ وفيلسوف بريطاني ، وضع نظرية «التحدي والاستجابة» في كتابه الكبير « دراسة للتاريخ » الذي يقع في اثني عشر مجلداً (١٩٣٤-١٩٦١م) وخلاصتها : أن الحضارة لا تنشأ إلا حيث تكون البيئة الصالحة لتحدي

هذه النتائج ، ولو ظلت ألف سنة تحمل السلاح وتقذف بالجيوش وتنتصر في الحروب »[١] .

وكانت الكنيسة تقف وراء هذا النشاط المحموم بكافة مذاهبها ، ومنذ البداية كان هناك تجاوب متبادل ، إن لم يكن هناك تماثل في العقيدة بين المستشرق الأكاديمي ، والمبشر الإنجيلي ، وعاش التحالف بين الجانبين خلال القرن التاسع عشر ، وهكذا قال المبشرون ورجال المستشرقين بدرجات متفاوتة من الدهاء ، وبعد النظر في أنه لابد من إعادة تشكيل الإسلام في قوالب غربية[٢] .

ثانياً : أطوار التبشير ومؤتمراته :

١- مرحلة ما قبل الاستعمار :

عرفنا أن التبشير يعني في مفهومه البسيط نشر المسيحية بين المسلمين ، والعمل على جذبهم إليها ، وقد بدأ التبشير في الشرق الإسلامي منذ قرون طويلة ، ولكنه كان يسير هادئاً ، وكان يتبع بادئ الأمر أساليب لا تثير الضغائن ولا تولد المشاكل ، ولا تثير الرأي العام ، ولكن الكنيسة أبت إلا أن تسلك طريق التعصب والتحامل على المسلمين ، وكان من أخطار ما حدث الأكاذيب والتجنيات على الإسلام طوال الحروب الصليبية وبعدها ، وتصوير الإسلام بأنه ديني وثني متخلف مما عبأ نفسيات الأوروبين ضد الإسلام بالكره والمقت ،

شعب ما ، وإلا عندما يكون هذا الشعب على أتم الاستعداد للاستجابة لذلك التحدي ، وأن الحضارات تنهار عندما تتلاشى عبقرية الأقلية المبدعة » . موسوعة المورد العربية (١/ ٣٥١) .

(١) فتح الله سعيد ، عبدالستار : الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ، ص٤٠ .

(٢) البهي ، محمد : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، ص٥٧٣ .

وأخذوا يتوارثون ذلك جيلاً بعد جيل بلا فهم ولا تمييز[١]. ومن أخطر الوسائل التي لجأت إليها الصليبية في حربها ضد المسلمين، هذه الإرساليات والبعثات والجمعيات التنصيرية، وتتجلى خطورة حركة التنصير في هذا الحشد الهائل من المبشرين، والمنصرين العاملين في العالم كله، وفي البلاد الإسلامية والعربية خاصة، ثم في هذه المؤتمرات التي يعقدونها بين الحين والآخر؛ بهدف البحث في أفضل الطرق والسبل لدفع عملية التنصير إلى الأمام[٢]. وهذه إحصائية بعدد المبشرين (المنصرين) في حقل التبشير، فقد ذكرت مجلة الدعوة المصرية عدد المبشرين بقولـها: يقدر عدد المنصرين في العالم بحوالي (٢٢٠) ألف منصر، وأما عدد العاملين من الأطباء والباحثين والاجتماعيين والمعاونين للمنظمات التنصيرية فيقدر بحوالي (١٧) مليوناً، وهناك (٣٠٠) جامعة ومعهد تعمل في مجال تدريب وتخريج المنصرين وإرسالهم إلى مناطق العالم[٣].

وقد تضاعف هذا العدد في التسعينات حتى غدا المبشرون يملكون أكثر من (١٣٠٠) محطة راديو، وينظمون رحلات دورية سياحية إلى القدس، وهناك نحو (٢٥٠) منظمة بدأت حرباً مكشوفة ضد المسلمين في الولايات المتحدة وأنشأت لها فروعاً في فلسطين، منها: السفارة المسيحية الدولية في القدس»، «منظمة الأغلبية الأخلاقية»، «هيئة المائدة المستديرة الدينية»[٤]، وفي تصريح للقائد الفرنسي الجنرال «بيير كيللر» عن وسائل التأثير الفرنسي في الشام قبل

---

(١) عوض، محمد عبدالرحمن: أخطار التبشير في ديار المسلمين، ص٩.

(٢) هنادي، محمد عبدالقادر: قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها، ص١٢٧-١٢٨.

(٣) مجلة الدعوة، القاهرة، ١٤٠٣هـ، ص٣٨، ٧٩.

(٤) كامل، عبدالعزيز مصطفى: قبل الكارثة نذير ونفير، ص٢٤٤.

احتلاله قال : « فالتربية الوطنية كانت بكاملها تقريباً في أيدينا ، وفي بداية عام (١٩١٤م) كان أكثر من اثنين وخمسين ألف تلميذ يتلقون دروسهم في مدارسنا ، وكان من بين هؤلاء فتيان ينتسبون إلى عائلات إسلامية عريقة ، مما جعل الجمعية المركزية السوريـــة التي تألفت في باريـس (١٩١٧م) تعلن أن جميع ميول السوريين وعواطفهم تتجه نحو فرنسا ، بعد أن تعلمـوا لغتهـــا وخبروها على مر الأجيال وتأكدوا من إخلاصها وتجردها[١] .

ويقول أيضاً : «إن كلية عينطورة في لبنان هي وسط ممتاز للدعاية الفرنسية» . ويقول : « إن مؤسساتنا تعمل دون ملل لتغذية النفوذ الفرنسي ، مثل : معهد الدراسات العبرية في القدس ، ومعهد الدراسات الإسلامية في القاهرة ، والمدرسة الإكليريكية الدومينيكانية في الموصل »[٢] .

وكان للمبشر الهندي « هنري مارتين » (١٨١٢م) يداً طولى في إرسال المبشرين إلى بلاد آسياً الغربية ، فبعد إقامته بالهند وترجمته للتوراة إلى عدة لغات يعد من أوائل المبشرين في الخليج العربي ، ومن بعد موته أخذت إرساليات التبشير تشد الرحال إلى الأناضول وفلسطين واتخذت لها مراكز في القسطنطينية وبيت المقدس ، ومنذ عام (١٨٤٩م) أخذت الإرساليات ترد هذه البلاد فقسمتها إلى مناطق ، وقد شمر المبشرون عن سواعدهم في ترجمة الكتاب المقدس : التوراة والإنجيل إلى لغات الشرق بأسلوب سهل يتسنى فهمه لكل الطبقات[٣] .

---

(١) السعيد ، عبدالستار فتح الله : الغزو الفكري ، ص٤٠ .

(٢) المرجع نفسه ، ص٤٠-٤١ .

(٣) الخطيب ، محب الدين ، اليافي ، مساعد : الغارة على العالم الإسلامي ، ص٢٨-٢٩ .

هذا كل ما حدث في الفترة الأولى للإرساليات نعني بذلك ما قبل الاستعمار ، وتميزت هذه المرحلة بما يلي :

١- تكوين الجمعيات الدينية المسيحية .

٢- إنشاء المدارس والجامعات المسيحية .

أما من حيث الجمعيات فكانت جمعية الفنون والعلوم بلبنان وأنشئت عام (١٨٤٧م) وكان أعضاؤها ممن يستطيعون أن يقوموا بخدمة التبشير المسيحي وتحقيق أهدافه ، وكان هدفها نشر العلوم بين الكبار على شكل ندوات ومحاضرات ، وكذلك نشر التعليم بين الصغار عن طريق نشر المدارس ورياض الأطفال ، وهذه الجمعيات أخفقت ولم يكتب لها النجاح لعدم الإقبال عليها ، ثم أخذ اليسوعيون في إنشاء جمعية أطلقوا عليها «الجمعية الشرقية» وأشرف عليها أحد كبار القساوسة ، ولكنها فشلت ولم يكتب لها النجاح أيضاً ، وفي هذه المرحلة كان السلطان عبدالحميد يدعو إلى الوقوف في وجه المبشرين والوقوف ضد النفوذ الغربي ، الذي أخذ يزحف على البلاد الإسلامية[1] ، وكان من أعمال هذه الجمعيات والمبشرين فيها الدعوة للعامية وترك الفصحى[2] ، وكان من

(١) البسطامي ، أحمد سعدالدين : التبشير وأثره في البلاد الغربية والإسلامية ، ص٣٦ .

(٢) لا شك أن الدعوة إلى العامية ، ومحاربة اللغة العربية الفصحى ، من الأولويات التي دعا إليها المبشرون ، وبذلوا لتحقيقها العالي والنفيس حقد على الدين الإسلامي باعتبار الفصحى لغة القرآن ، وقد صدر منذ عشرات السنين كتاب « تاريخ الدعوة إلى اللغة العربية العامية وآثارها في مصر » للدكتورة نفوسة زكريا سعيد ، وهو كتاب قال فيه محمود محمد شاكر : « أراه كتاباً صالحاً لكل مثقف يجد فيه مادة صحيحة لتاريخ معركة قاسية خبيثة ، إذا وقانا الله شرها باليقظة فقد نجونا من المحنة الساحقة ، وإذا أسأنا فابتلينا بتمام الغفلة فذلك الأبد » . أباطيل وأسمار ص١٥٤ .

مساعديهم

«فارس الشدياق»[١] ، «ناصيف اليازجي»[٢] ، «بطرس البستاني»[٣] ، و «لويس عوض»[٤] ، وكانوا يستمدون معلوماتهم من المبشرين والمستشرقين أمثال «فانديك»[٥] الطبيب والمبشر الأمريكي ، والذي أرسل إلى سوريا لهذا الغرض ، وكذلك فلسطين ولبنان، ليشرف على البعثات التبشيرية في أنحاء الوطن العربي،

---

(١) أحمد فارس الشدياق : عالم باللغة والأدب. تنقل في أوروبا والدول العربية واعتنق الإسلام وأصدر في الاستانة جريدة « الجوائب » فعاشت (٢٣) سنة ، من آثاره : « كنز الرغائب في منتخبات الجوائب » و « سر الليال في القلب والإبدال » و « الجاسوس على القاموس » توفي سنة (١٨٨٧م) ، الأعلام (١/ ١٩٣) .

(٢) ناصيف اليازجي : شاعر ، من كبار الأدباء في عصره ، استخدمه الأمير بشير الشهابي في أعمال الكتابية نحو (١٢) سنة ، انقطع بعدها للتأليف والتدريس من كتبه : « مجمع البحرين» و«العرف الطيب» و «نفحة الريحان» توفي سنة (١٨٧١م) الأعلام (٧/ ٣٥٠) .

(٣) بطرس البستاني : عالم ، واسع الاطلاع ، أتقن عدة لغات ، وعُيِّن ترجمانا للقنصلية الأمريكية في بيروت . من مؤلفاته « محيط المحيط » و« دائرة معارف » و« تاريخ نابليون » . توفي سنة (١٨٨٣م) الأعلام (٢/ ٥٨) .

(٤) لويس عوض: كاتب مصري ، وقف من الحضارة العربية وإسهاماتها موقفاً معادياً لا يراها شيئاً، وأن دورها انتهى ، والعرب عنده إما جهلة أو ناقلون ، عين مستشاراً في مؤسسة الأهرام ، وتولى تحرير صحيفة الأدب والفن ، وكان كثير التجني على التراث العربي ، ومن دعاة إحلال اللغة العامية محل الفصحى ، وكسر عمود الشعر ، نال جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام (١٩٨٨م) !! ، من كتبه « فقه اللغة العربية » و «ثقافتنا على مفترق طرق» و« أوراق العمر » ، توفي سنة ١٩٩٠م . ذيل الأعلام ص١٦٠ .

(٥) فانديك ، كرينليوس: طبيب عالم ، مستعرب . أرسل للتبشير في سورية ، وحذق العربية ، له نحو (٢٥) مصنفاً عربياً ، منها « النقش في الحجر» ، و« طب العيون » ، توفي سنة (١٨٩٥م). الأعلام (٥/ ٢٢٣) .

يوجهها حسب المخطط التبشيري العالمي إضافة إلى القس «زويمر» الذي يشرف على البعثات في البحرين حيث مكان إقامته ، ومن هناك يتصل بجميع الإرساليات[١] ، لم يكن نشاطهم في إقامة المدارس بل الجامعات ، فأقاموا الجامعة الأمريكية على سبيل المثال عام (١٨٦٦) في لبنان ، وجعلوا الدراسة بالعربية للتودّد إلى العرب والتقرب إليهم والبعد عن الدولة العثمانية التي كانت تسيطر على البلاد وقتئذ[٢] .

وقد بدأ التنصير علمه بأسلوب صريح مكشوف يقوم على الدعوة المباشرة لنبذ الإسلام واعتناق المسيحية ، وكان المبشرون يتلقون مناهج ودراسات خاصة تعدهم للعمل الذي سوف يقومون به ومن ضمن تلك الدراسات : دراسة أحوال البلاد المرسل إليها المبشر ، وقد يتلقى تدريباً عسكرياً للتبشير بالقوة أحياناً[٣] .

هذا ، وقد استخدمُ المبشرون جميع الطرق والأساليب التي تبلغهم أهدافهم كالوعظ وتأليف الكتب والتعليم والتمريض والمحاضرات وأعمال البر والخدمات الاجتماعية ، وتقول المبشرة الإنجليزية « آنا ميللجان » : إن نفراً من الأطباء المبشرين أنشأوا مستوصفاً في بلدة « الناصر » في السودان ، وكانوا لا يعالجون المريض أبداً إلا بعد أن يحملوه على الاعتراف بأن الذي يشفيه هو

---

(١) الخريجي ، منصور : الغزو الثقافي للأمة الإسلامية ماضيه وحاضره ، ص٨٠.

(٢) سيد أحمد ، نبيل : النشاط التبشيري الأمريكي في البلاد العربية حتى عام (١٩٢٣م) ، ص٢٣٦.

(٣) الخالدي ، مصطفى ، فروخ عمر : التبشير والاستعمار ، ص٤٧ .

المسيح ، وفي الحبشة كانوا لا يعالجون المرضى قبل أن يركعوا ، ويسألوا المسيح أن يشفيهم[١] .

وكانوا يعقدون مؤتمرات دورية لمراجعة أعمالهم ودراسة خططهم ، مما يوضح تطور أساليبهم وتجددها بحسب ما يلقونه من استجابة من المسلمين ، وخير مثال على ذلك عندما واجه المبشرون خطة عدائية لهم في مصر اضطروا إلى أسلوب جديد حيث أخذوا يلقون المحاضرات في الموضوعات الاجتماعية والخلقية والتاريخية ، لا يستطردون فيها إلى مباحث الدين رغبةً منهم في جلب قلوب المسلمين إليهم، وأنشأوا بعد ذلك مجلة أسبوعية اسمها «الشرق والغرب»، افتتحوا فيها باباً غير ديني يبحثون فيه بالشؤون الاجتماعية والتاريخية، وأسسوا أيضاً مكتبة لبيع الكتب بأثمان قليلة ، والغرض من ذلك استجلاب الزبائن ومحادثتهم في أثناء البيع[٢] .

ومن خلال ذلك توصلوا إلى النتائج التالية :

١ - عرفوا أحوال البلاد وأفكار المسلمين وشعورهم وعواطفهم وميولهم.

٢ - حصلوا على ثقة عدد من المسلمين بهم .

٣- تحققوا أنهم ـ بتظاهرهم في وداد المسلمين وميلهم إلى ما تطمع إليه نفوسهم من الاستقلال السياسي والاجتماعي والنشأة القومية ـ يمكن أن يدخلوا إلى قلوبهم. هذه هي الطريقة التي استحسنها المبشرون ، بعد أن علموا

---

(١) المرجع السابق نفسه ، ص٤٨-٤٩ .

(٢) سالم ، محمد رشاد : المدخل إلى الثقافة الإسلامية ، ص٣١ .

أن الأمور التي يتذرعون بها ـ وتكون صبغتها دينية ـ لا ريب أن عاقبتها الإخفاق .

٢- مرحلة ما بعد الاستعمار من عام (١٩١٧-١٩٤٨م) :

أعني بذلك تلك الأحقاب السيئة التي عاشتها الأمة الإسلامية ، وكان للكفار الأجانب وجود عسكري ثابت على أرض المسلمين ، ومن وجود جالياتهم ، ورعاياهم ، وتفردهم بالنفوذ والسلطان(١) .

وكانت هذه الفترة ، من أسوأ المراحل على ديار المسلمين ، بل أعنف من الحروب الصليبية ، لأن أوروبا هذه المرة جاءت ، ومعها حضارة جديدة ، وبرأقة ، ومؤثرة ، مهدت لها بغزو فكري ، واجتماعي قوي ، وتداخلت مع السكان في علاقات إنسانية ، واجتماعية ، وثقافية ، وصداقة ، وتجارة ، وفنون... إلخ.

وقد حذر النبي ﷺ من هذه الغارة بقوله: « يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها » فقال قائل : أوَ من قلة نحن يومئذ؟ قال ﷺ : **«بل كثير أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة ، منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن »** . فقال قائل: وما الوهن؟ قال ﷺ : **«حب الدنيا وكراهية الموت»**(٢) .

والكفر في هذه المرحلة عقدوا تنفيذ خطتهم ، التي ترمي إلى الأمور التالية:

١- إنشاء جيل مجانس لهم ثقافتهم ، ليسهل عليهم الاتصال به، والتفاهم معه.

---

(١) السعيد ، عبد الستار ، الغزو الفكري ص٥٨.

(٢) سبق تخريجه ، ص٢.

٢- أن تخلو الأجيال المقبلة من الدين ، والثقافة الإسلامية ، ومن الحمية الدينية .

٣- تغيير لغة الدراسة ، وجعل لغات المحتلين الغزاة مكان اللغات المحلية في التعليم ، من أجل القضاء على اللغة العربية من جهة ، وانتشار الإنجليزية من جهة أخرى ، وكان المبشرون يثيرون قضية عدم قدرة اللغة العربية على الاستيعاب للمصطلحات العلمية الحديثة ، وقد ظهر ذلك علانية في كتاباتهم[(١)] فنجحوا في الهند مثلاً ، والجزائر ، ولم ينجحوا في مصر ، ثم أقام الفرنسيون جامعة أطلقوا عليها «جامعة القديس يوسف» ، في لبنان أصبحت هذه الجامعة مركزاً مهماً في الشرق الأوسط ، ولم يقتصر دورها على التعليم فقط ، بل امتد إلى السياسة ، ولعبت دوراً كبيراً في سورية ولبنان ، وانتشر خريجو هذه الجامعة في العالم العربية والإسلامي[(٢)] .

*** دور الإرساليات في هذه المرحلة :**

١- إثارة العداء بين العرب ، والدول الإسلامية العثمانية .

٢- فك الرابطة التي تربط بين جميع المسلمين وهي رابطة القرآن الكريم.

٣- القضاء على الكيان الذي يقاوم النفوذ الاستعماري .

٤- القضاء على فكرة إقامة الجامعة الإسلامية .

٥- تشجيع الدعوة للقومية، والدم، والعرق، حتى لا توجد وحدة إسلامية

---

(١) شيخو ، لويس ، الآداب العربية في القرن التاسع عشر ، ص٢٦٣-٢٨١.

(٢) البسطامي ، أحمد سعد الدين: التبشير وأثره في البلاد العربية والإسلامية ، ص٣٨.

تجمع بين جميع المسلمين[١] .

ولا شك أن هذه الإرساليات ، كان لها الأثر الكبير في إذكاء الخلاف الديني بين المسلمين والمسيحيين في كثير من البلاد الإسلامية والعربية ، وقد قابل المسلمون هذه الإرساليات ، بالشك في عملها ، وذلك لأن أوروبا لم تتحمل المشاق رحمة بالمشرق وخدمة لبلاده ، وإنما رغبت في أن تجعل لقربها أثراً سياسياً ودينياً .

ومن جهة أخرى يرى بعض الباحثين : أن الكنيسة هي المسؤولة الأولى عن تنظيم تلك المؤسسة التعليمية من مدارس ، ومعاهد ، وجامعات ، والإشراف عليها[٢] .

وظهرت خطورة هذه الفترة ، في كون معظم الدول العربية الإسلامية تحت وطأة الاستعمار ، يعني أصبح للمبشرين يد قوية في العمل ، كما تشاء دون عراقيل ، فكانت مصر ، والسودان ، والعراق ، والأردن ، تحت سيطرت الاستعمار البريطاني ، وسوريا ، ولبنان ، والجزائر ، وتونس ، والمغرب ، تحت سيطرت الاستعمار الفرنسي ، وفلسطين تحت الانتداب البريطاني .

وأخذوا ينشرون نصرانيتهم بحرية كاملة ، وخصوصاً عندما كانوا يعيشون في رعاية أوروبا المستعمرة وحمايتها ، وقد نجحت هذه الإرساليات في عملها ، إذ فرقت الصلات التي كانت قائمة بين أبناء البلد الواحد .

---

(١) المحيش ، نبيل ، عبد الرحمن: الغزو الفكري للعالم الإسلامي ، ص٢٦.

(٢) عطية ، نعيم: الفكر العربي في مئة سنة ، ص٢٤-٢٥.

* ما منحته أوروبا للمبشرين في هذه الفترة من تسهيلات ؟ .

١- السماح لهم بإقامة مؤسسات على قطع من أراضي المسلمين دون مقابل .

٢- صرف إعانات لهم لينفقوها على تلك المؤسسات .

٣- الإعفاءات الجمركية لكل شيء يحملونه من بلادهم .

٤- امتيازات خاصة بحيث يعملون دون قيد ، أو شرط ، ودون أدنى مسؤولية ، أو الإشراف عليهم ، أو محاكمتهم عليها ، فزاد عدد المبشرين ، وزاد عملهم ، بفتح المدارس ، والمعاهد ، والجامعات ، بل تخطى ذلك لإقامة مستشفيات ، وجمعيات دينية ، ولم يقف الأمر عند ذلك الحد ، بل تطاولوا على المؤسسة التعليمية التي تقف في وجوههم ، مثل : الأزهر الشريف ، ولكن انبرى عدد من كتاب المسلمين ، ليرد عليهم ، ويفند مزاعمهم ، أمثال: «محمد حسين هيكل»[1] ومساعده «أحمد نجيب» على صفحات جريدة «السياسة» ،«وشكيب أرسلان» ، و«محب الدين الخطيب» و«مساعد اليافي»[2] على صفحات جريدة

---

(١) محمد حسين هيكل (١٨٨٨-١٩٥٦م) كاتب وسياسي مصري حرر جريدة «السياسة اليومية» «السياسة الأسبوعية». تولى رئاسة مجلس الشيوخ ، تميز أسلوبه بالنصاعة والإشراق ، من آثاره «حياة محمد» و «الصديق أبو بكر» و « الفاروق عمر» و«رواية زينب» التي يعتبرها النقاد أو رواية مصرية بالمعنى الحديث للكلمة موسوعة المورد العربية (٢/ ١٢٨٨) .

(٢) مساعد اليافي: فاضل من المشاركين في حركة اليقظة العربية الحديثة. دُعي في أواخر الحرب العامة الأولى إلى مكة. فسمي وكيلاً للخارجية بقصر الملك حسين. كان يجيد الفرنسية ، ويحسن الإنجليزية والإيطالية ، ودرس العبرية ، نشر أبحاثاً فضح بها بعض أسرار الصهيونية. ترجم عن الفرنسية كتاب «الغارة على العالم الإسلامي» طعنه عميل من عملاء الصهيونية بخنجر في صدره فأرداه قتيلاً سنة (١٩٤٣) . الأعلام (٧/ ٢١٣) .

«المؤيد» بالقاهرة ١٩١٢م ، ومحمد رشيد رضا[١] ، على صفحات مجلة «المنار» في القاهرة[٢] .

وهذه المرحلة تختلف عن سابقتها ، حيث الأولى لم تكن الدول الإسلامية تحت سيطرة المستعمر ، فكان عملهم في الخفاء ، أو الظهور قليلاً ، والتظاهر بعبارات الخير ، والرحمة للناس ، أما الفترة الثانية فأخذت الإرساليات صفة العلانية ، حتى وصل الأمر بالمبشرين إلى الاعتداء ، والهجوم على الإسلام والمسلمين ، وكان هدفهم توهين الروح المعنوية في قلوب المسلمين ، ولا فرق في ذلك بين صغير أو كبير ، فقير أو غني ، كذلك إضعاف العقيدة في نفوس المؤمنين بها ، يقول الدكتور محمد حسين هيكل «إن هدف التبشير ، هو توهين الروح المعنوية في قلوب المسلمين من جميع طبقاتهم ، وإن إضعاف العقيدة في نفوس المؤمنين ، هي استمرار للنضال التاريخي القديم بين المشرق والمغرب ، والإسلام والنصرانية ، حيث يتخذ اليوم أساليب الغزو الحديث بطريق الدعوة، والإغراء ، والوسائل الاقتصادية ، والاجتماعية ، ويعتقد خصوم الإسلام من الأحبار والقساوسة ، أنهم قطعوا في سبيل إضعاف العقيدة الإسلامية في نفوس الشعوب المسلمة خطوات لا بأس بها» وقال : «هذه هي الغاية التي تعمل لها الأمم الأوروبية ، وترصد لها الأموال الطائلة ، وتجند لها من الدعاة جيشاً

(١) محمد رشيد رضا: صاحب مجلة «المنار» وأحد رجال الإصلاح الإسلامي. من الكتّاب العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير. أنشأ مدرسة الدعوة والإرشاد وانتخب رئيساً للمؤتمر السوري ، من آثاره «تفسير القرآن الكريم» و «نداء للجنس اللطيف» و «الوحي المحمدي» توفي سنة (١٩٣٥) . الأعلام (٦/ ١٢٦) .

(٢) البسطامي ، أحمد سعد الدين: التبشير وأثره في البلاد العربية والإسلامية ، ص٢٣-٢٤.

ضخماً، في صور المعلمين ، والمبشرين ، والمبشرات ، والأحبار»[١] .

وفي هذه المرحلة ، لم يقف عمل المبشرين ، على التبشير فقط ولكنهم استطاعوا أن يدنسوا ، ويقحموا أنفسهم في كثير من المؤسسات الحكومية وغير الحكومية كالصحافة ، والتعليم ، والمستشفيات.

مع هذا فقد ازداد عدد الإرساليات التبشيرية الإنجليزية والأيرلندية ، ونفوذها في جميع البلاد العربية والإسلامية ، وقد زاد عدد المبشرين حتى وصل عام (١٩٣٢م) إلى (٩٨.٣٨٨) مبشراً يشرفون على (٨١) مؤسسة تعليمية ، بالإضافة إلى (١١٣) روضة وخمسمائة مستشفى ، و(١٠٢٤) صيدلية.

وكان لكل هذه الإرساليات فروع في معظم بلدان العالم الإسلامي[٢] .

* في مصر مثلاً :

١- إرسالية تبشير بقيادة «وليم ويلكوكس» ، كان يعمل مهندساً زراعياً ، بريطاني الأصل ، استقدمته بريطانيا للتبشير في مصر ، كان مشهوراً بمواقفه ضد الإسلام ، قام بترجمة التوراة إلى العربية ، وتوزيعها مجاناً .

٢- إرسالية تبشيرية بقيادة «دنلوب»[٣] الإنجليزي ، استطاع هذا المبشر أن يحول مناهج التدريس حيث ألغى حفظ القرآن ، ومناهج التاريخ الإسلامي ،

---

(١) أنور الجندي : الإسلام في وجه التغريب ، ص٤٢.

(٢) المرجع السابق نفسه ، ص٤٣.

(٣) دنلوب : كان في البعثة الأقيوسية ، كان أداة النفوذ الأجنبي في تغيير التعليم المصري من الأسلوب الإسلامي إلى الأسلوب العلماني ، أنور ، الجندي: معالم التاريخ الإسلامي المعاصر ، ص٧١.

وأحل محلها ، التاريخ الأوروبي ، وكان يحارب اللغة العربية ، والأزهر .

* وفي الخليج العربي :

١- إرسالية إلى البحرين (١٨٩٢م) تحت قيادة «صموئيل زويمر» ، وتعتبر أقوى الإرساليات إلى البلاد العربية ، حيث عاش مدة طويلة في تلك البلاد ، واستطاع أن يقيم مدة طويلة في تلك البلاد ، واستطاع أن يقيم بعض المدارس والمستشفيات في البحرين ، ومسقط ، والبصرة ، والكويت ، واشتهر بتعصبه ، ودهائه ، وخبثه.

٢- إرسالية إلى الإمارات (١٨٩٠م) ، واشتهرت الإرسالية هناك في المجال الطبي ، ثم التعليمي ، حيث يوجد مستشفى في مدينة العين ، وتوجد عيادات في الفجيرة والشارقة [١] .

٣- في عمان (١٨٩٠م) ، بقيادة «زويمر» و «كانتين» حيث أقاما بعض الكنائس والمدارس ، ثم بعض المستشفيات [٢] .

٤- في قطر (١٩٤٨م) ، وكل روادها من الهنود ، حيث أنشئ عدد من الكنائس هناك ، سواء كانت كاثوليكية ، وتضم حوالي ٢٥٠٠عضواً ، أو بروتستانتية ، ومعظم أتباعها أوروبيون ، وكذلك أرثوذوكس من أكلابار بالهند [٣] .

٥- أما الكويت فقد وصل مبشران عام (١٩٠٣م) ، هما «صموئيل زويمر»

---

(١) حبنكة ، عبد الرحمن: أجنحة المكر الثلاثة ، ص٣٣-٣٥.

(٢) المرجع السابق نفسه ، ص ٣٠-٣١.

(٣) دنفر ، أحمد: التبشير المسيحي في الخليج ، ص٢٥-٢٧.

والثاني «فريد بارن»[١] ، وهما من رواد الإرساليات الأمريكي ، ثم قامت إرسالية التبشير الأمريكية ببناء مستشفى وكنيسة. وكان المبشر الأمريكي «ستانلـي ملري » الملقب خادم المسيح يشرف عليهـا. وفي عـام (١٩٣٠م) تم بناء أول كنيسة في الكويت خاصة ، أطلق عليها اسم كنيسة «المسيح » ثم توالت الكنائس بعد ذلك ، مثل ، كنيسة «ماريا» و «مارتوما» وغيرها ، وتوالت أعمال المبشرين هناك[٢] .

* في لبنان :

١- إرسالية تبشيرية في عام (١٨٤٠م) ، تحت رئاسة أحد كبار المبشرين « كرينليوس فانديك » ، وبقي بلبنان حتى مات .

٢- إرسالية تبشيرية عام (١٨٥٩م) ، تحت رئاسة أحد كبار المبشرين الأمريكيين « دانيال بلس »[٣] ، كان رئيس الكلية في بيروت ، يتردد بين استنبول وبيروت ، والذي يصر أن يكون كل أستاذ فيها مبشراً مسيحياً ، واعتزل العمل في عام (١٩٢٠م) .

---

(١) دانيال بلس: مؤسس الجامعة الأمريكية بيروت. كان يتكلم العربية ، ولا يعد في المستشرقين مقس. درس اللاهوت مبشراً في عبية وسوق الغرب بلبنان. تـوفي (١٩١٦م) . الأعلام (٢/ ٣٣٠).

(٢) الدوسري ، أحمد النجدي: الغزو التبشيري والنصراني في الكويت ص٩٣.

(٣) دانيال بلس: مؤسس الجامعة الأمريكية ببيروت. كان يتكلم العربية ولا يعد في المستشرقين مقس. درس اللاهوت وكان مبشراً في عبية وسوق الغرب بلبنان توفي سنة (١٩١٦م) الأعلام (٢/ ٣٣٠) .

٣- إرسالية تبشيرية بقيادة « بيار ضودج»[١] حصل على الدكتوارة في اللاهوت ، عمل رئيساً لجمعية الشبان المسيحيين ما بين (١٩١٣-١٩٢٠م) ، ثم رئيساً للجامعة الأمريكية[٢] .

*** المؤتمرات التبشيرية :**

أولاً : مؤتمر برلين : الذي انعقد عام (١٨٧٨م) ، وكان من نتائج هذا المؤتمر:

أ- تحطيم الدولة العثمانية ، التي كانت سداً منيعاً ، في طريق محاولة فرض المسيحية ، على الشعوب المسلمة وأخذ اليهود على عاتقهم تفجير الأوضاع الداخلية .

ب- تقسيم البلاد إلى دويلات ، وحدود مصطنعة ، وأخذت بريطانيا وفرنسا على عاتقهما القيام بذلك على النحو التالي :

أ- دعم الأقليات النصرانية الموجودة في البلاد الإسلامية .

ب- مضاعفة جهود التبشير ومساندة النشاط الكنسي بشقيه الكاثوليكي والبروتستانتي ، وتركيز هذا النشاط في العالم الإسلامي ، وكان نتيجة هذه المقررات وقوع العالم الإسلامي فريسة للاستعمار[٣] .

---

(١) بيار ضودج: دكتور في الحقوق واللاهوت. مستشرق أمريكي من أعضاء مجمع اللغة العربية المراسلين. شغل عدة مناصب منها: إدارة إغاثة الشرق الأدنى لسورية وفلسطين ، وإدارة مؤتمر الثقافة الإسلامية بجامعة برانستون. مترجم إلى الإنجليزية كتاب «الفهرست» لابن النديم وألف بالإنجليزية «الأزهر» و «التعليم الإسلامي» توفي (١٩٧١م) الأعلام (٢/ ٨٠) .

(٢) الخالدي مصطفى ، فروخ عمر: التبشير والاستعمار ، ص٩٤-٩٧-٩٩.

(٣) الجبهان ، إبراهيم سليمان: معول الهدم والتدمير في النصرانية والتبشير ، ص٣٩.

ثانياً : مؤتمر القاهرة : (١٩٠٦م) ، في منزل أحمد عرابي[١] زعيم الثورة المصرية آنذاك برئاسة «زويمر» وحضره (٢٢) مبشراً من الرجال والنساء ، يتبعون كثيراً من الإرساليات الأمريكية والإنجليزية ، والألمانية ، والهولندية ، والسويدية ، وغيرها. والهدف محاصرة الإسلام في البلاد العربية ، وإعاقة تقدمه إلى وسط إفريقية ، وكان هذا مجال تنافس وتسابق بين الإسلام والنصرانية في أفريقيا ، وهذه من أولويات عمل المبشرين[٢] . وقد نوه أحمد شوقي إلى ذلك وعنى عرابي بقوله :

صـــــغار في ذهــــاب والإيـــــاب أهــــذا كــــل شــــأنك يــــا عــــرابي

وكان مما جاء في جاء في مؤتمر القاهرة :

أ- استنهاض همم رجال التبشير ، ليجمعوا قواهم ، ويقوموا بأعمال مشتركة وعمومية للاستيلاء على الأماكن المقدسة .

ب- قرار خاص بأعمال نسائية ويفيد بذلك التبشير وسط النساء المسلمات[٣] .

ولهذه المؤتمرات خطر كبير ، نذكر بعض النصائح التي ألقيت في واحد من هذه المؤتمرات ، وهو مؤتمر القاهرة ، ومن هذه النصائح «لزويمر» :

---

(١) أحمد عرابي: زعيم مصري ، وبلغ رتبة (أميرلاي) في أيام الخديوي توفيق. ثم كان ناظراً للجهادية. نفاه الإنجليز إلى جزيرة سيلان حيث مكث (١٩) عاماً ، وأطلق في أيام الخديوي عباس له « تقرير » عن « ثورته » ، و « كشف الستار عن سر الأسرار » توفي سنة (١٩١١م) . الأعلام (١/ ١٦٨).

(٢) W.H.T Gairdner.An Accourt and interpreation of the world Missionary conference, Edinbury, 1410.

(٣) البسطامي ، أحمد سعد الدين: التبشير وأثره في البلاد الإسلامية ، ص٥٣.

١- إقناع المسلمين أن النصارى ليسوا أعداء لهم .

٢- نشر الكتاب المقدس بلغات المسلمين ، لأنه أهم عمل مسيحي.

٣- تبشير المسلمين ، يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ، لأن الشجرة يجب أن يفسدها أحد فروعها .

ثالثاً : مؤتمر «أدنبرة» التبشيري: الذي عقد عام (١٩١٠م) في إنجلترا عقب انعقاد مؤتمر المبشرين في القاهرة عام (١٩٠٦م) ، وحضره ١٢٠٠ من المندوبين، وتفرع إلى ثماني لجان ، وخاضت اللجنة الثالثة في «الأعمال المدرسية التي يقوم بها المبشرون» واكتفت بهذه الكلمات عن المسلمين: «اتفقت آراء سفراء الدول الكبرى في عاصمة السلطنة العثمانية على أن معاهد التعليم الثانوي التي أسسها الأوروبيون كان لها تأثير على حل المسألة الشرقية ، يرجع إلى تأثير العمل المشترك الذي قامت به دول أوروبية كلها»[١].

وقد بلغ عدد المبشرين الأمريكان (٥٠٥) من المندوبين في هذا المؤتمر التبشيري ، وكان منهم كبار الشخصيات ، كالمستر « روزفلت » رئيس أمريكا ولكنه لم يحضر لعذر طارئ ، وهذا العدد يفوق عدد أية دولة استعمارية أخرى كإنجلترا التي اشترك عنها (٥٠٢) من المندوبين [٢] .

وأما اللجنة الأولى ، ناقشت تقدم التبشير في إفريقية الوسطى ، والجنة الثانية ناقشت السبل لعمل ميداني خاص برجال إرساليات التبشير .

---

(١) الخطيب ، محب الدين: الغارة على العالم الإسلامي ، ص١٠٩.

(٢) السعيد ، عبد الستار فتح الله: الغزو الفكري ، ص٤٢.

نتائج هذا المؤتمر :

أ- فرع خاص بالإحصاءات .

ب- فرع خاص لنشر مطبوعات الإنجيل ، والكتب الدينية النصرانية.

ج- فرع خاص بالتربية والتعليم في البلاد التي يعمل بها المنصرون.

د- فرع خاص ، لدراسة العلاقة بين المنصرين ، وحكومات تلك البلاد.

هـ- فرع لدراسة العقبات التي تحول دون تنصير المسلمين(١) .

رابعاً : وفي نفس العام عقد مؤتمر بيروت ، وهو مؤتمر غير رسمي ، قبل عام ١٩١١م ، جاء فيه: أن على المبشرين أن يعملوا بين المسلمين مباشرة في سورية وفلسطين خاصة - بهدوء - وبوسائل مختلفة ، معتقدين أن نشر الدستور العثماني قد جعل الأمر أمامهم أكثر إمكاناً وسهولة ، ومن أجل ذلك قرروا أن يجددوا جهودهم ، وأن يسيروا بأعمالهم إلى الأمام (٢) .

خامساً : مؤتمر لكنهوء بالهند عام (١٩١١م) ، عقد مبشرو البلاد الإسلامية من البروتستانت مؤتمرهم الثاني في مدينة لكهنؤ بالهند ، أي بعد خمس سنوات من مؤتمر القاهرة واشترك فيه (١٦٨) مندوباً ، و(١١٣) مدعواً ، و(٥٤) جمعية تبشيرية ، ومنهم المبشر «زويمر» ومن مواد هذا المؤتمر: النظر في حركة الجامعة الإسلامية ، ومقاصدها وطرقها ، إضافة إلى النظر في الانقلابات السياسية ، ثم البحث في موقف الحكومات من الإرساليات التبشيرية ، ثم تربية المبشرين على

---

(١) الخطيب ، محب الدين: الغارة على العالم الإسلامي ، ص٤٠-٤٨.

(٢) الخالدي مصطفى. فروخ ، عمر: التبشير والاستعمار ، ص٥٣.

ممارسة تبشير المسلمين[١] .

* نتائج مؤتمر لكنهوء :

١- يعقد المؤتمر القادم في القاهرة عام (١٩١٦م).

٢- إذا طرأت هناك ظروف سياسية أو أمور أخرى تحول دون عقد المؤتمر في القاهرة ، فيعقد في لندن .

٣- يوافق مؤتمر لكنهوء ، ويؤيد مؤتمر إرساليات التبشير الذي عقد عام (١٩١٠م) على ضرورة حصر المساعي في القارة الإفريقية ، دون أن تمس مساعي الدول الأخرى .

٤- يرى أنه على الجمعيات التبشيرية ، أن تتكاتف ، لكي تؤلف سلسلة قوية للتبشير المسيحي في أماكن الخطر ، وذلك عن طريق تربية المبشرين ، أو حسن اختيارهم .

سادساً :

أ- مؤتمر القدس (الأول) ١٩٢٤م ، اهتم المؤتمرون بالطبيب على أنه وسيلة إلى التبشير ، وفصلوا طرق ذلك.

ب- مؤتمر القدس (الثاني) ١٩٢٥م.

ج- مؤتمر القدس الذي عقد بجبل الزيتون ١٩٢٧م ، وحضرته أربعون دولة من الدول الغربية الصليبية ، حيث قال أحد أقطاب المؤتمر[٢] «أتظنون أن غرض

---

(١) جريشة ، علي محمد ، الزيبق محمد شريف ، أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي ، ص٣٤.

(٢) Here son to Henderson 2 , MAE , 193 , guarantees. For Religions Liberty in Egypt P.R.O, Fo.371–9005 .

التنصير وسياسته إزاء الإسلام هو إخراج المسلمين منه، ومنهم ليكنوا نصارى؟ إن كنتم تظنون هذا فقد جهلتم التنصير ومراميه ، لقد برهن التاريخ من أبعد أزمنته على أن المسلم لا يمكن أن يكون نصرانياً مطلقاً ، والتجارب دلتنا ، ودلت رجال السياسة النصرانية على استحالة ذلك ، ولكن الغاية التي نرمي إليها ، هي إخراج المسلم من الإسلام فقط ، ليكون مضطرباً في دينه ، وعندما لا تكون له عقيدة يدين بها ، ويسترشد بهديها ، عندها لا يكون له من الإسلام إلا اسم ، أحمد ، ومصطفى ، أما الهداية فينبغي البحث عنها في مكان آخر »[1] .

د- مؤتمر القدس (الثالث) ١٩٢٨م ، وكان لمدة أسبوعين (٢٣ آذر - ٨نيسان) وضع تقريراً في ثمان مجلدات[2] .

هـ- مؤتمر القدس (الرابع) ١٩٣٥م.

نتائج مؤتمر القدس الرابع: (١٩٣٥م) جاء فيه: أن « زويمر » ، دعا المبشرين لما يلي :

١- الجهاد في سبيل المسيحية ، لا في سبيل الله .

٢- استعمار المسيحيين للبلاد الإسلامية ، وذلك بعد قتالهم.

٣- مهمة المبشر المسيحي أن يخرج المسلم من الإسلام ، حتى لا تربطه صلة بالدين.

٤- الاستمرار في تغيير برامج التعليم في البلاد الإسلامية.

---

(١) عكاشة ، إبراهيم علي: ملامح عن النشاط التنصيري في الوطن العربي ، ص٣٨.

(٢) الجندي ، أنور: الإسلام في وجه التغريب ، ص٦٣.

٥- الاستمرار في إقامة مدارس ، ومعاهد ، وجامعات ، ومستشفيات ، ثم سيطرة أوروبا وأمريكا عليها ، وبذلك يتم استعمار العالم العربي والإسلامي ، ويصبح تحت سيطرتهم[١] .

وإذ وقفنا لننظر نجد أن : أربعة منها في القدس ١٩٢٤ ، ١٩٢٥ ، ١٩٢٨ ، ١٩٣٥م ، وذلك لأن الحروب الصليبية التي كانت تريد السيطرة على بيت المقدس ، لتحوله إلى بلد نصراني – وفشلها في ذلك - ، ما زالت أنظارهم تتجه إلى هذه البقعة المطهرة لتحويل أهلها إلى نصارى ، وكان هذا العمل يتم بشكل مكثف من قبل جميع الإرساليات ، ولكن – ولله الحمد – لم يفلحوا في ذلك ، ولما أخفقت هذه الإرساليات عملت كل هذه الحكومات على نزعها من أيدي المسلمين ، وتسليمها للصهيونية العالمية[٢] .

مؤتمر القدس: (١٩٣٥م) ومن أبرز ما ظهر فيه خطبة « زويمر » :

« لقد أديتم الرسالة التي أنيطت بكم أحسن الأداء ، ووفقتم لها أسمى التوفيق ، وإذا كان يخيل إلي أنه مع إتمامكم العمل على أكمل الوجوه ، لم يفطن بعضكم إلى الغاية الأساسية منه ... مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ، ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية ، فإن في هذا هداية لهم وتكريماً ، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح

(١) حسين ، محمد ، محمد: الإسلام والحضارة الغربية ، ص٢٥.

(٢) أرى أن يدرك المسلمون كيف يفكر عدوهم ، ويَعُوا بشكل عميق أساليبه ومخططاته ، ليقفوا على أهبة الاستعداد ، ويحاربوه من حيث حاربهم ، فمن عرف عدوه ، ومؤامراته ، وطريقة تفكيره ، سهل عليه مقاومته والتصدي له.

مخلوقاً لا صلة له بالله ، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها وبذلك تكونون بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية ، وهذا ما قمتم به من خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام .

لقد قبضنا أيها الأخوة في هذه الحقبة من الدهر – من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا – على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية ، ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير والكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة ، التي تهيمن عليها الدول الأوروبية والأمريكية ، والفضل لكم وحدكم أيها الزملاء ، إنكم أعددتم بوسائلكم جميع العقول في الممالك الإسلامية إلى قبول السير في الطريق الذي مهدتم له كل التمهيد .

إنكم أعددتم نشئاً في ديار المسلمين لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم عن الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية ، وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقاً لما أراده له الاستعمار المسيحي ، لا يهتم بالعفافة ، ويحب الراحة والكسل ، ولا يعرف همه في دنياه إلا في الشهوات.

فإذا تعلَّم فللشهوات ، وإذا جمع المال فللشهوات ، وإن تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات ، إن مهمتكم تمت على أكمل الوجوه ، وباركتكم المسيحية، ورضي عنكم الاستعمار ، فاستمروا في أداء رسالتكم ، فقد أصبحتم بفضل جهادكم موضع بركات الله ... »[١] .

واعتبرت هذه المرحلة مهمة جداً للمبشرين ، وذلك بالانقلاب الذي ذهب

---

(١) السعيد ، عبد الستار: الغزو التبشيري ، ص٤٣-٤٤.

ضحيته السلطان عبد الحميد ، مما زاد من نشاط المبشرين ، وتوسيع حركتهم.
تقول مصادر التبشير: « إن حدوث الانقلاب في غرب آسيا ، كان موجباً للإعجاب والاستغراب ، فقد بددت معلم التجسس وأقامت الحرية على أنقاض الاستعمار ، وصار في البلاد العثمانية والعربية غير ممنوع ، وأن السلطة السياسية ، انقلبت إلى أيدي الإنجليز ، والفرنسيين والروسيين ، والهولنديين ، حتى بلغت مدارس الإرساليات التبشيرية ، والمدارس الأجنبية (١٥٢) مدرسة، تضم (٢٢٤٧) طالباً. وزاد هذا التوسع بعد زيارة «دوفرين» الوزير البريطاني لمصر بعد الاحتلال ، وقد استقدمت بريطانيا المبشر القس «دوجلاس دنلوب» الذي استخدم معلماً في مدرسة البعثة الاسكوتلاندية في «سانديرِ» ، ثم مفتشاً بالمعارف ، ثم مسيطراً على الوزارة تماماً. وأشار كثير من الباحثين ، إلى الدور الذي لعبته الإرسالية التبشيرية في مصر ، منذ الاحتلال البريطاني ، معتمدة على قول اللورد سالسبري:«إن مدارس المبشرين أول خطوات الاستعمار ، فإن عملها هذا أحدث الشقاق في الأمة التي تبشر فيها»(١) مع تصدي المسلمين في هذه الفترة للمبشرين ، وأعوانهم ، مثل : جمال الدين الأفغاني(٢) ، ومحمد عبده ، والشيخ رشيد رضا ، الذي قال: «لن أدع الرد على المبشرين ما داموا يطعنون في

---

(١) الجندي ، أنور : الإسلام في وجه التغريب ، ص٢٨.

(٢) جمال الدين الأفغاني: فيلسوف الإسلام في عصره ، وأحد الرجال الأفذاذ الذين قامت على سواعدهم نهضة الشرق الحاضرة ، تتلمذ له نابغة مصر محمد عبده وكثيرون كان عارفاً بالعربية والأفغانية والفارسية والسنسكريتية والتركية ، وتعلم الفرنسية والإنجليزية والروسية ، وإذا تكلم بالعربية فلغته فصحى ، واسع الاطلاع على العلوم الحديثة ، كريم الأخلاق، كبير العقل، له «تتمة البيان في تاريخ الأفغان » توفي سنة (١٨٩٧م) . الأعلام (٦/ ١٦٩).

الإسلام ، ويدعون المسلمين إلى دينهم ، لأن الرد عليهم فرض كفاية ، حيث لا أرى في البلاد مجلة ولا جريدة تقوم بالرد عليهم ، فإن تركتها كنت آثماً ، وجميع القادرين عليها » وفي عام (١٩٣٢-١٩٣٣م) عندما أحس الاستعمار أن مخطط التبشير قد أخفق ، وكانت الحملة التي هاجمت المبشرين في الصحف ضخمة ، وبعيدة المدى ، بدأ في تعديل أسلوبه ، وذلك بنقل قيادته نقلاً مباشراً إلى كتاب يكتبون باللغة العربية، وبذلك اختفى اسم التبشير ظاهرياً، وراء دعوة التجديد، والعصرية ، وحرية الفكر[١] والتي حمل لواءها « طه حسين[٢] ، علي عبدالرزاق، سلامة موسى»[٣] والهدف من كل هذا النشاط هو إبعاد المسلمين عن دينهم ، وتغليب طابع التفرنج الذي يقضي على الذاتية الإسلامية والشخصية العربية[٤]، فإن تحول خطة التبشير إلى خطوات أعمق ، في مجال الثقافة والنفوذ السياسي

---

(١) الصباغ ، محمد ، لطفي: الابتعاث ومخاطره ، ص٣٧-٤٥.

(٢) طه حسين: دكتور في الأدب ، ومن كبار المحاضرين جدد مناهج ، وأحدث ضجة في عالم الأدب العربي ، وكان من أعضاء المجمع العلمي العربي المراسلين بدمشق ، ثم رئيساً لمجمع اللغة بمصر ، عين محاضراً في كلية الآداب بجامعة القاهرة ، ثم كان عميد لتلك الكلية ، فوزيراً للمعارف. من مؤلفاته: « في الشعر الجاهلي » و « حديث الأربعاء » و « على هامش السيرة » توفي سنة (١٩٧٣م) الأعلام (٣/ ٢٣١) .

(٣) سلامة موسى: كاتب ، مضطرب الاتجاه والتفكير. جحد الديانات في شبابه ، وعاد إلى الكنيسة في سنة الأربعين أصدر مجلة « المستقبل » قبل الحرب العالمية الأولى. رأس تحرير مجلة « الهلال » و« كل شيء » صنف وترجم ما يزيد عن أربعين كتاباً منها « حرية الفكر » و « اليوم والغد » و«تاريخ الفنون » وكان كثير التجني على كتب التراث ، يناصر بدعة: الكتابة بالحرف اللاتيني ، توفي (١٩٥٨م) .

(٤) الشبانة ، عبد الله ، حمد: المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية ، ص١٠٩-١١٥.

القادر على إحداث أبعد الآثار ، في المناهج الدراسية ، وإثارة الشبهات حول الشريعة ، واللغة العربية ، والحديث النبوي ، ومن هنا ركز الاستعمار على بعض الأسماء ، وأكسبها شهرة ولمعاناً ، ودفع بهم في خضم الثقافة والصحافة ، وأبرزها حتى تصدرت وأصبح قوة لها وزنها حيث تولت أكبر المناصب في الجامعات ، والأعمال الرسمية ، أمثال طه حسين ، وعلي عبد الرزاق ، ولطفي السيد(١) ، وقاسم أمين(٢) ، وهكذا نسب الاستعمار إلى صفوفه أعداداً جديدة ومن أبناء جلدتنا(٣) وللأسف(٤) .

---

(١) لطفي السيد ، أحمد: رئيس مجمع اللغة العربية في القاهرة ، وينعت بأستاذ الجيل. كان أمين حزب « الأمة » وحرر صحيفة « الجريدة » يومية ، وكان من أعضاء الحزب الوطني ، ومن أعضاء « الوفد المصري » وتحول إلى « الأحرار الدستوريين » وعين مديراً لدار الكتب المصرية. فمديراً للجامعة عدة مرات ، ثم وزيراً للمعارف ، والداخلية ، والخارجي ، فعضوا بمجلس الشيوخ ، ورئيساً ، لمجمع اللغة العربية سنة (١٩٤٥م) ، من كتبه المترجمة « علم الطبيعة » و « السياسية والأخلاق » توفي سنة (١٩٦٣م) ، الأعلام(١/ ٢٠٠).

(٢) قاسم أمين : كاتب باحث اشتهر بمناصرته للمرأة ودفاعه عن حريتها. أكمل دراسة الحقوق بفرنسا ، وفي مصر كان وكيلاً للنائب العمومي بالمحكمة المختلطة ، فمستشاراً بمحكمة الاستئناف. له « تحرير المرأة » توفي (١٩٠٨م) . الأعلام(٥/ ١٨٤) .

(٣) الجندي ، أنور : الإسلام في وجه التغريب ، م.س ، ص٤٠ .

(٤) لذا لا عجب أن بقي كثير من محبي العربية ، ودعاتها ، وأئمتها ، وكتابها المتميزين ، بعيدين عن الشهرة والأضواء اللامعة ، ردحاً من الزمن ، حتى جاء وقت وأخذوا جزاء من حقوقهم. ليس يخاف علينا أولئك الكبار أمثال: مصطفى صادق الرفاعي ، وغيره ممن حمل راية الإسلام والفصحى ، وكانت له مواقف مشهورة وآثار باقية خالدة تنفع الأمة ، وتحارب أعدائها .

المبحث الثاني

دوافع التبشـــير

١- دوافع استعمارية

٢- دوافع علمية .

٣- دوافع تاريخية .

٤- دوافع اقتصادية .

٥- دوافع سياسية .

***

أولاً : دوافع استعمـارية

لا شك أن للتبشير النصراني أهدافاً ودوافع وغايات ، يسعى لتحقيقها ، ومن جملة هذه الأهداف: تشويه الثقافة الإسلامية ، والتراث العربي الإسلامي ، ثم إفساد الخصائص المعنوية في البلاد الإسلامية ، مع خلق تخاذل روحي ، وشعور بالنقص لدى الشعوب الإسلامية ، ثم توسيع شقة الخلاف بين الطوائف ، والمذاهب ، وإثارة النزاع بين الأديان ، ومع كل هذا إعداد شخصيات تستسلم ولا تقاوم النفوذ الأجنبي(١) والمتفحص لهذه الدوافع والغايات ، يلاحظ أن خطة التبشير النصراني ، لا تستهدف إخراج المسلم عن دينه وإدخاله في النصرانية ، أو دين آخر ، وإنما هدف التبشير أكبر من ذلك ، في الحقيقة إنها عملية واسعة تستهدف إخراج المسلم من المفاهيم ، والقيم الإسلامية ، وإدخاله في دوامة الفكر البشري ، وصهره في مفاهيم الوثنية والمادية ، والعلمانية ، والعرقية ، وفتح الطريق أمام فكره ، ليقبل ما تطرحه أعاصير الماركسية والوجودية ، والعلمانية ، وغيرها من السموم ، «فالمهم هو إخراج المسلم من إسلامه، دون إدخاله في دين جديد ، بل حبسه في دائرة مظلمة مفرغة ، في حيرة، وتيه ، لا تجعل منه قوة صالحة ، بل أعضاء ، وقدرات مشلولة ، وبالتالي تكون الشخصية الإسلامية كماً مهملاً ، لا تحمل فكراً ، ولا ديناً ، منصهرة في بوتقة الحضارة الغربية »(٢) .

---

(١) الخريجي ، منصور: الغزو الثقافي للأمة الإسلامية ماضيه وحاضره ، ص٧٥.

(٢) الجندي ، أنور ، الخنجر الذي طعن به المسلمون ، ص١٣٥ .

وهناك قاعدة لا يستهان بها ، وينبغي الوقوف عندها طويلاً ، تلك التي تقول:« إن المسلمين لا ينهزمون ما دام فكرهم باقياً ، وما دامت عقيدتهم باقيةً ، وقائمة ، ذلك لأنها تدفعهم في قوة إلى الاستشهاد ، في سبيل حماية الديار ، ومقاومة الغاصب ، وتطهير الأرض من دنس الغزاة[(١)] والإسلام ، يجعل القتال في سبيل تحرير الأرض ، ديناً وعقيدة»[(٢)] .

لذلك فإن السبيل للانتصار على المسلمين ، والسيطرة عليهم ، يجب أن يبدأ أولاً من حرب الكلمة ، ولابد أن تقوم في الغرب قوى من الباحثين ، والدارسين الذين يدرسون اللغة العربية ، ويترجمون القرآن الكريم ، ويعملون من أجل القضاء على كل المفاهيم التي تتصل بالجهاد في سبيل الله[(٣)] ، فإذا استطاع الغرب النجاح في ذلك ، فقد استطاع أن يقضي على القوة الروحية ، والنفسية القائمة وراء تلك القوة ، وعندئذ يمكن السيطرة على المسلمين في الوقت الذي يصبح المسلم مضطرباً في دينه دون عقيدة يسترشد بها ، «عندها يكون المسلم ليس له من الإسلام إلا اسمه ، وتكون الصليبية قد حققت

(١) المرجع نفسه ، ص١٦.

(٢) الجهاد في سبيل الله مقدس ، بَيْدَ أنَّ تهميش هذا الركن يدل على مؤامرات خفية تحاك في الظلام ، وتأخذ لبوساً يحمل معنى السلام ، والطمأنينة ، الإخلاء إلى الأرض ، وأن الأصدقاء الغربيين والصهاينة لا يريدون شراً بالمسلمين ، إنما هدفهم الأخذ بأيديهم إلى ما فيه صلاحهم وتقدمهم. وتنطلي هذه الحيلة على كثير من مثقفينا ، بينما يقذف المستشرقون والمبشرون وأعداء الدين بسموم نافعة تحمل في أطوائها السم الزعاف ، إذ تنشر أفكار مفادها أن الإسلام انتشر بالسيف لا بالكلمة الحرة ، وغير ذلك من الهرطقات.

(٣) Hereson to Henderson, 2̄ Mer, 193̄ Guarantees for Religions Liberty in Egypt P.R.O.FO.371.7796.

أهدافها »[1] .

نقول: إن أهم بواعث ودوافع التبشير هي استعمارية ، وذلك عن طريق إضعاف المقاومة الروحية ، والمعنوية في نفوس أبناء المسلمين ، وبث الوهن ، والضعف ، والإرباك ، والشك في تفكيرنا. « لقد أقبل المبشرون إلى ديارنا لتلقي مصالحهم وأهدافهم مع مصالح الاستعمار[2] وأهدافه ، وبل اعتمد على المبشرين في بسط النفوذ في الشرق، وكان لهم دور كبير في إقناع قادة الغرب والمستعمرين، بأن المسيحية ستكون قاعدة الاستعمار الغربي في الشرق ، وبذلك سهل المبشرون للمستعمرين مهمتهم بدعمهم وتزويدهم بالمال والحماية ، ولهذا فقد قام الاستعمار بداية على أكتاف المبشرين ، والرهبان. ولهذا أيضاً نجد كلام المبشرين أنفسهم أكبر دليل على ذلك فيقول المنصر الأمريكي «جاك منلسون» : لقد تمت محاولات نشيطة لاستعمال المبشرين لا لمصلحة المسيحية وإنما لخدمة الاستعمار والعبودية»[3] .

ولا شك أن الاستعمار كان يستخدم نفوذه في حماية حركة المعتدين ، ولذلك أعلن « بلفور »[4] وزير خارجية بريطانيا تأييده لحركات المعتدين ، والمبشرين ،

---

(١) وقال علي بن أبي طالب لائماً العصاة ، الذين جنحوا عن جادة الصواب وتمسكوا بالقشور دون الألباب : «واعلموا أنكم صرتم بعد الهجرة أعراباً ، وبعد الموالاة أحزاباً ، ما تتعلقون من الإسلام إلا باسمه ، ولا تعرفون من الإيمان إلا رسمه » . نهج البلاغة (٢٩٩).

(٢) النتشه ، رفيق: الاستعمار وفلسطين ، ص٥٩/ ٦٨.

(٣) د. صالح ، سعد الدين: الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام ، ص٥٦-٥٧.

(٤) بلفور: آرثر جيمس (١٨٤٧-١٩٣٠م)، سياسي إنجليزي ورئيس وزراء بريطانيا عام ١٩٠٢م، ثم وزير خارجيتها عام ١٩١٧م ، صاحب وعد بلفور الذي ضمنه حق اليهود بإنشاء وطن لليهود في فلسطين. انظر: الموسوعة العربية الميسرة ص٣٦٠.

في تصريح جاء فيه : « إن المبشرين هم ساعد جميع الحكومات المستعمرة وعضدها في كثير من الأمور المهمة ، ولولاها لتعذر على تلك الحكومات أن تذلل كثيراً من العقبات »[١] .

إن معظم قادة الغرب النصراني كانوا أعضاء في حركات التنصير ، مما يدل على مدى التعاون بين التنصير والاستعمار ، فقد مزج المنصرون الدين بالسياسة، لأن الدين عندهم كان وسيلة فقط ، أما السياسة فكانت هي الهدف الحقيقي. «فالكتاب المقدس ليس إلا وسيلة لاستلاب الأرض من أهلها. بل وتغيير معتقداتهم ، وطمس معالم حضارتهم »[٢] .

لقد قامت حركة التبشير والتنصير بدور خطير ، بالتمهيد لاغتصاب فلسطين من يد المسلمين ، وتسليمها لليهود ، وذلك أن أهداف حركة التنصير القضاء على وحدة المسلمين. وتفريق كلمتهم ، وتشتيت جمعهم ، حيث التقت الصهيوينة ، والتنصير ، فكل يريد مصلحته ، فاليهود يريدون إقامة دولتهم ، والمنصرون يريدون القضاء على الإسلام ، وتمزيق العالم الإسلامي ، « ومن هنا قامت مراكز التنصير في فلسطين بمحاولة لإماتة الروح الإسلامية ، وذلك عن طريق النوادي والملاعب التي تجمع المسلمين واليهود معاً » [٣] .

يقول الدكتور عمر فروخ: «إن الألعاب الرياضية كانت تخدم قضية المبشرين، وتخدم الصهيونية في فلسطين خدمة عظيمة ، حتى اندفعت مدارس التبشير تؤله

(١) د. صالح ، سعد الدين: الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام ، ص٥٧.

(٢) العسكر ، عبد العزيز: التنصير ومحاولاته في بلاد الخليج العربي ، ص٢٥.

(٣) التنشئة ، رفيق: الاستعمار وفلسطين ، ص٥٥.

الروح الرياضية »[١] .

«المنصرون يبذلون جهودهم من أجل إنشاء جيل مسلم يحمل أفكار الغربيين وثقافاتهم[٢] ، حتى يسهل الاتصال بهم ، وبالتالي السيطرة عليهم ، واستعمارهم ، بعد خلو هذه الأجيال من الدين والثقافة الإسلامية «وبذلك يسهل إخضاع العالم الإسلامي للاستعمار ، والتحكم في مقدراته ، وتفريق المسلمين[٣] .

يقول « لورانس براون » المبشر البريطاني: «إذا اتخذ المسلمون في إمبراطورية عربية ، أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً ، وأمكن أن يصبحوا نعمة له أيضاً ، أما إذا بقوا متفرقين ، فإنهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير»[٤] .

ويفصح القس الأمريكي «كالهون سيمون » عن رغبة التبشير القوية في تفريق المسلمين بقوله : «إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السود ، وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوروبية ، ولذلك كان التبشير عاملاً

(١) الخالدي ، مصطفى ، فروخ عمر: التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص١٨٣ .

(٢) وصحيح أن الرياضة حياة للناس ، ولكن إن أصبحت هي الشغل ، والهم القائم ، والهدف الأسمى ، والبرنامج المستمر الواسع ، فحينها تصبح هدفاً وغاية لا وسيلة ، وهنا المقتلة ، فالرياضة وسيلة لبناء جسم قوي ، وإيجاد روح التعاون والمعاشرة الطيبة والتنافس الشريف ، أما الواقع فقد حوصر من كل ناحية بعسر المطالب ، وضيق الاتجاه ، حتى سئم كثير من العقلاء هذا التوجه المقيت لإعلاء شأن الرياضة إذ ماتت الروح الجهادية ، وصارت الرياضة ملهاة وتسلية ، وقتلاً للوقت ، وهروباً من تأدية الواجب ، وطريقاً للإنفاق والإسراف وما إلى ذلك. والمستعمر لا ينام ، والمبشرون يفكرون ، والمستشرقون يبذلون الجهود الحثيثة لإيجاد شواغل للأمة ، والأمة غارقة في سبات عميق ، وصيحات الخير تتلاشى مع هبوب الرياح .

(٣) عبد الوهاب ، أحمد: حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر ، ص١٦٢ .

(٤) البهي ، محمد ، الفكر الإسلامي الحديث ، ص٤٢٣ .

مهماً في كسر شوكة هذه الحركات »[١] .

إن الانهزامات التي مني بها الصليبيون طوال قرنين من الزمان ، أرادوا أن ينفسوا عنها بقولهم : «ألم نكن نحن ورثة الصليبيين؟ أو لم نرجع تحت راية الصلبيين ، لنستأنف التسرب التبشيري ، والتمدين المسيحي ، ولنعيد – في ظل العلم الفرنسي ، وباسم الكنيسة – مملكة المسيح؟ »[٢] .

ولو كان التبشير دعوة للخير ، لما تنازع المبشرون فيما بينهم ، ولقد كانت كل دولة تهتم بمبشريها ، لاعتقادها أن مبشريها طلائع نفوذها ، ومقدمات لتبسطها في الأرض.

إن اتساع نفوذ المبشرين الأمريكيين في الإمبراطورية العثمانية ، بين عام (١٨٤٠-١٨٥٠م) ، وكثرة تدخلهم في شؤون البلاد ، كان تنفيذاً لسياسة استعمارية ، حيث إن تركية حاولت إخراجهم من أراضيها ، ولكن أمريكا علمت على إثارة مشاكل لحكام دولة الخلافة العثمانية ، حيث صرفتهم عن موضوع المبشرين ، وهكذا ظل المبشرون الأمريكيون ، يتمتعون في الدولة الإسلامية العثمانية بحقوق الرعايا الأمريكيين»[٣] كما تنص معاهدة« الامتيازات الأجنبية» ، وهي ذات علاقة تجارية كالإعفاءات الجمركية والضرائب وكان المبشرون بهذه المعاهدة يتسلحون ويقومون بأعمالهم التبشيرية، والسياسية[٤] .

(١) العسكر ، عبد العزيز: التنصير ومحاولاته في بلاد الخليج العربي ، ص٢٧.

(٢) الخالدي ، مصطفى ، فروخ عمر: التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص١١٥.

(٣) البهي ، محمد: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، ص٥٢٢.

(٤) الخالدي ، مصطفى ، فروخ عمر: التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص٥٤.

ولكن دولة الخلافة العثمانية زاد ارتيابها من حركات المبشرين ، لأنها علمت أن المبشر يسبق الجيش إلى كل مكان ، لذلك شددت عليهم الرقابة ، ولكن المبشرين كلما أحسوا بالخطر ، لجؤوا إلى قنصليات بلادهم ، كرعايا أجانب ، «ولما أرادت الدول الأجنبية ضرب بيروت من البحر ، أرسلت الولايات المتحدة سفينة حربية صغيرة اسمها «سيان » ، حملت على ظهرها المبشرين إلى جزيرة قبرص ، وبعد الانتهاء من ضرب بيروت ، وخروج إبراهيم باشا[١] من سوريا ، أعادت الولايات المتحدة مبشريها إلى أماكنهم السابقة ، من السنة نفسها، ولما أدركت الدول الأوروبية أن المبشرين آلة فعالة لتأييد النفوذ الأجنبي، أخذت كل الدول تتبارى في استخدام المبشرين» ، ومع هذا كله ، حرصت الدول الإسلامية العثمانية على عدم إدخال الأطفال إلى مدارس المبشرين[٢] .

نخرج بهذا بنتيجة ، هي: أن التبشير يرتبط ارتباطاً وثيقاً بظاهرة الاستعمار ، فحيثما يكون أحدهما يكون الآخر ، أو يمهد له ، وكذلك حين يتوسع الاستعمار يتوسع التبشير ، وخاصة خلال القرنين التاسع عشر ، والعشرين الميلاديين. ونلاحظ أيضاً : أن المبشرين لا يلتزمون بالصدق والأمانة ، ولا يمكن أن يلتزموا بهما فهم دائماً يجنحون للحط من قدر الإسلام وتشويه صورته ، وإصدار

---

(١) إبراهيم باشا ، بن محمد علي: قائد بعيد المطامح ، من ولاة مصر ، سار إلى سوريا سنة (١٢٤٧هـ) فانقادت له ، وصد جيشاً للآستانة ، فتوغل في الأراضي التركية حتى قارب الآستانة ، فتدخلت الدول الأوروبية ، وعقدت معاهدة «كوتاهية وتقضي بضم سوريا إلى مصر ، وتولية إبراهيم باشا عليها ، وفي عهد السلطان عبد الحميد تم إخراج إبراهيم باشا من سوريا ، ونزل له محمد على عن إمارة الديار المصرية. توفي سنة (١٨٤٨م) الأعلام (١/ ٧٠).

(٢) Mission, 164-5 : Jessup 22 Re- thimking

أحكام ضده بهدف تنفير المسلمين منه ، ومحاولة ردهم عنه ردة شاملة ، و بخطوات»[١] ويقصد بالردة : تحويل المسلمين من ثقافة الإسلام إلى ثقافة الغرب بوسائل متعددة ، منها : الدعوة إلى تطوير الإسلام ، العلمانية ، والقومية ، أو التقارب بين الأديان »[٢] .

ويكفي أن نشير إلى أن المستعمرين الغربيين للعالم الإسلامي لم ينسوا قط أنهم صليبيون جاءوا لغزو المسلمين وحكمهم ، حتى قال (اللنبي) القائد البريطاني مقولته ، عندما دخل القدس (١٩١٨م) : «الآن انتهت الحروب الصليبية»[٣] .

وهنا يتضح حقدهم ومحاولتهم تمزيق الأمة ، فبعد أن اقتنعوا أن التبشير لن يؤتى ثماره ، بتحويل المسلمين إلى النصرانية[٤] ، كان لابد من التوجه إلى التبشير

---

(١) غراب ، أحمد: رؤية إسلامية للاستشراق ، المنتدى الإسلامي ، ص٨ ،ص٩.

(٢) عندما تضيع القيم ، وتتلاشى المبادئ ، ويصبح التعليم والتعلم كبراً وعنجهية وتطاولاً ، فإن الناس لا يأبهون في وضع أولادهم في مدارس خصومهم وأعدائهم الألداء ، ولا يكتفون بذلك، بل يفتخرون بأن الطالب الفلاني قد نال شهادة في الشريعة الإسلامية من المعهد من المعهد النصراني الفلاني أو من جامعة غربية ، وبختم من قبل البروفسور فلان ، ولدى البحث عن هويته يتبين أنه يهودي عنيد ، أو مستشرق لدود ، أو مبشر يتألى على الحق والناس والدين.

(٣) الخالدي مصطفى ، فروخ عمر: الاستعمار والتبشير في البلاد الإسلامية ، ص١٠٠ .

(٤) يحدثنا التاريخ عن محاولات ناجحة للتنصير ففي إندونيسيا (١٠.٠٠٠) صليبي مجند للتنصير ، وهناك سفينتان تنصيريتان في المياه الأندنيسية وهما « دولوس » و«لوجرس» تتجولان باستمرار بين الجزر الإندونيسية الألفين ، تذيعان فقرات من الإنجيل والتعليمات التنصيرية. وقد تم حتى الآن تنصير أكثر من (١٥) مليون مسلم أندونيسي. « صيحة تحذير من دعاة التنصير » لمحمد الغزالي ص(١١٩) ورحم الله القائل : كم يستغيث بنا المستضعفون وهم قتلى وأسرى فيما لا يهتز إنسان.

الثقافي ، والسياسي ، وإذا كان هؤلاء الرهبان ينفذون إلى كل مكان ، ويدخلون كل بيت بحجة إسداء النصائح الدينية ، فكان الأهم ، هو إبراز المثال الأوروبي الجديد ، على أنه نموذج يحتذى ، وتأليب طائفة دينية على أخرى ، لإحداث الشرخ المطلوب في الوحدة الإسلامية ، ذلك الشرخ الذي كان دوماً ، وحتى اليوم المنفذ الذي يسر للاستعمار سبيل السيطرة على بلاد المسلمين ، فدأبوا على التفريق ، والتقسيم ، ونحن بحاجة ماسة إلى الوحدة [١] .

أما تطلعهم إلى تفتيت الكيان العربي والإسلامي في الشرق ، فقد كان ذلك في اتفاقية سايكس [٢] بيكو [٣] ، التي فتتت المنطقة ، وأحدثت مناطق احتلال للدول صاحبة النشاط التبشيري ، وبعد سنة من هذه المعاهدة ، صدر وعد بلفور (١٩١٧م) [٤] ، ثم احتلت فرنسا سوريا ، واحتلت بريطانيا الأردن ، وفلسطين ، وعملت على تقسيمها ، أما المدارس الأجنبية ، فحققت انتشاراً واسعاً ، في الشرق العربي الإسلامي ، وتزايد عددها بسبب المنافسة الاستعمارية ، وللأسف بدل أن نقف في وجههم ، بدأ البعض يقدم التسهيلات لهم خدمة لمصالحه الاقتصادية ، والاجتماعية.

وهكذا وجد المشرق الإسلامي نفسه من الناحية الثقافية أمام وضع غريب ،

(١) والهدف من ذلك جعل قلب المسلم فارغاً من العقيدة ، وجعل سلوكه بعيداً عن تمثل الخلق القويم ، فيشعر بوحشة غريبة تبعده عن الله تعالى ، فهم لا يريدون اصطياد المسلم ، بل الهدف تحويله إلى امرئ شرود ، لا قلب له ، ولا راحة ، ولا مأوى.

(٢) سايكس: الخبير البريطاني في الشؤون الشرقية.

(٣) بيكو : القنصل الفرنسي في بيروت .

(٤) إسماعيل ، عادل ، خوري أميل ، السياسة الدولية في الشرق العربي ، ص٢٦.

ربما جاز تشبيهه بالتآزر الصليبي، الوثني، الأوروبي المغولي، الذي حدث إبان الحروب الصليبية، هادفاً إلى خنق العالم الإسلامي.

وأخيراً، وبعد الإفاقة من الاستعمار، واشتعال الثورة في وجه المحتل الغاصب، والنفوذ الأجنبي المسيطر، لجأ التبشير إلى أسلوب جديد «وهو الاختفاء وراء العلم، والمعاهد، والجامعات ودور الصحف، ومراكز الثقافة. صحيح أنه رحل عن ديار المسلمين، ولكن بقي بصورة أخرى، وأما سبب الاختفاء كما قلنا: إنه أدى دوره في إعداد النواة التي تسلمت زمام القيادة الفكرية، أو السياسية. إذا الدور الصريح الكبير قد انتهى، مع العلم أن الدول المستعمرة تبين لها أن أقوى سلاح لبث الاستعمار لم يعد بالحديد والنار، وإنما هذا التبشير الخفي، تحت أستار المعاهد، والجامعات الخيرية، والأدبية، والعلمية»(١).

إن التعليم في مدارس الإرساليات إنما هو واسطة إلى غاية واحدة فقط، هذه الغاية هي قيادة الناس، فهذا هو التبشير، وتلك حقيقة وهو وسيلة للاستعمار، وأداة من أدواته، «وكفى دليلاً على ذلك أن متخرجي مدارسه يعرفون عن تاريخ الغرب وثقافته أكثر مما يعرفون عن تاريخ بلادهم وثقافتهم، وكفى أن يصبح هؤلاء دعاة للغرب في بلادهم وألسنته المعبرة، وأحياناً يده الباطشة»(٢).

* * *

(١) الشبانة، عبد الله حمد، المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية، ص٦٦.

(٢) طعيمة، صابر: أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي، ص٧٢.

ثانياً : دوافع علمية

العلم نور وإصلاح ، ولكن المبشرين جعلوه وسيلة إفساد وتدمير ، وقصدوا به تخريب الشخصية الإسلامية ، وتفريغها من معاني دينها العظيم ، وإغرائها بفوارغ الأمور. وسيظل الدور الذي قام به الرهبان والراهبات تحت أردية الكهنوت وصمة في جبينهم وجبين الكنيسة والنصرانية ، حيث رضوا أن يكونوا أداة في يد العلمانية الملحدة ، بدل كونهم ناقلين لوحي الله عز وجل.

«وكانت مؤتمرات المبشرين ، أعداء الأمة الإسلامية ، دائبة في ضرب النطاق الحاقد حول الشريعة الإسلامية ومحاولة انتقاصها وتنقيصها ، وإبعادها عن مجال الحياة الأساسية في واقع حياة المسلمين »[(١)] .

وليس أدل على ذلك ، من أن دولة الخلافة نفسها كانت نهباً لهذا الغزو الذي تمثل في المدارس ، والمعاهد ، والإرساليات ، ثم حملات الدعاية الكاذبة في الصحف ، والمجلات ، مما جعل الدولة العثمانية بين براثن ما يراد لها من كيد لئيم » ، رغم مقاومتها الشديدة من الناحية الإسلامية ، ولكن هذا العدو نجح في تهيئة أنصار له من الداخل ، قربوا له الجولة »[(٢)] .

ولقد عمل الغرب على سيادة التعليم المدني على الديني ، ثم ظهرت دعوة الذين استغربوا داعية إلى التجديد والابتكار في عرض الأفكار الإسلامية.

---

(١) هنادي ، محمد ، عبد القادر : قلاع المسلمين المهددة من داخلها وخارجها ، ص١٢٩-١٣٠.

(٢) حسين محمد ، محمد: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، ص٩٤.

لقد وجد التعليم في المدارس الأجنبية فرصته الذهبية في ظل الاحتلال الذي أطلق أيدي غلاة المبشرين والقساوسة ، وأضرابهم في وضع برامج التعليم لمدارسهم ، حتى كانوا يلقنون فيها أطفال المسلمين مبادئ المسيحية ، وتعاليمها، ويحفظونهم الصلوات ، ونصوص كتبهم الدينية ، ومن أبرز ما يمثل ذلك ما كتبه (هـ.دانبي) في كتابه عن مؤتمر المبشرين المنعقد في القدس (١٩٣٥م) ، ويقول في أول الكتاب « كان التعليم وسيلة قيمة إلى طبع معرفة تتعلق بالعقيدة المسيحية ، والعبادة المسيحية في نفوس الطلاب »[١] والمؤلف يفرق بين المدارس المسيحية ، والتبشيرية ، بأن الأخيرة تحاول نقل الطلاب من مذاهب مختلفة ، إلى مذهبها هي ، أما المدارس المسيحية فإنها تحاول أن تهيء الطالب – من أي مذهب كان – فتجعله مسيحياً ، وتحمله على ممارسة التقوى المسيحية والسلوك المسيحي ، وخصوصاً ما دام طفلاً ، وهكذا ينشأ الطالب وتنشأ معه فلسفة مسيحية للحياة.

يقول المبشر الأمريكي « جون موط »[٢] : «إن الأثر المفسد في الإسلام يبدأ باكراً جداً ، ومن أجل ذلك يجب حمل الأطفال الصغار إلى المسيحية قبل بلوغهم سن الرشد ، وقبل أن تأخذ طباعهم أشكالها الإسلامية »[٣] .

نلاحظ كيف أن المبشرين يخططون لأطفال المسلمين وصغار السن منهم ، لأنه يسهل تنشئتهم تنشئة مسيحية صرفة ، ومن الصعب بعد ذلك تعديل

(١) الخالدي ، مصطفى ، فروخ عمر: التبشير والاستعمار ، ص٦٧-٦٨.

(٢) جون موط: مبشر أمريكي له كتاب اسمه « خمسة عقود ونظرة إلى المستقبل » أصدره عام (١٩٣٥م) .

(٣) السعيد ، عبد الستار: الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ، ص٧٧.

سلوكهم ، ومعرفتهم أما بقية المدارس – ونعني بها الوطنية – فقد سارع الاحتلال للسيطرة عليها عن طريق رجاله ، وعملائه الذين تولوا وضع مناهج جديدة ، وسهروا على تنفيذها ، وخدمة أغراضها مثل القس «دنلوب»[١] الذي رسم سياسة التعليم بمصر هو ، وتلاميذه من بعده. «وحرص الاحتلال على تطويق التعليم ، والتعليم الديني خاصة ، وسحب جمهوره إلى ما يسمى التعليم المدني ، ثم يعرض مناهج الدين الإسلامي عرضاً منفراً ، مما يغرس في نفوس الأطفال عدم الاهتمام بها ، وعدم جدواها دراسياً ، مما يحملهم على الاستخفاف بالدين ، من حيث هو سلوك وعبادة ، وبالتاريخ الإسلامي كذلك ، والذي هو سجل لأمجاد الأمة الإسلامية»[٢].

«كما لجأ المستعمر الخبيث إلى نشر النزاعات الإقليمية في مناهج الدراسة[٣] ، والاعتزاز بها كما حدث بالنسبة لتاريخ الفراعنة في مصر ، والآشوريين والبابليين

---

(١) دنلوب: نصراني ، إنجليزي ، واضع منهج التعليم بمصر ، وهو قسيس وخريج كلية اللاهوت ، مستشار في وزارة المعارف المصرية.

(٢) الجندي ، أنور: التبشير الغربي ، ص١٠-١١.

(٣) لذا نسمع بين الفينة والأخرى عبارات الرفض للتاريخ العربي الإسلامي ، فيقال «دعونا من الماضي » « ما لنا وللمرجعية » «كفانا قراءة للكتب الصفراء» ، «هل تاريخنا إلا حروب ودماء» ، «بعد عهد الصحابة خرج الناس عن الدين » ، «ماضينا مدح للسادة وإسراف في الإنفاق » إلى ما هنالك من عبارات مخزية. وتناسى المتجاهلون معارك الشرف والبطولة ومواقف الكرامة والإباء ، والمكتبات المنتشرة في الأصقاع ، والمساجد العامرة بالخاشعين ، والمراصد المفعمة بالعلم والإيمان. إن تاريخنا خير شاهد على الإشعاع العلمي ، الذي استفادت منه أوروبا ردحاً من الزمن ، وأخذت أوائل العلوم وطورتها ، فليس العيب في تاريخنا ، إنما العيب في الأجيال التي لم تحافظ على علم الأولين ، فعاشت على موائد الآخرين عالة ضائعة .

والفينيقيين في لبنان وسوريا وغيرهما ، مع عرض تاريخ أوروبا بثوب جديد ، كله قيم وأخلاق ومُثل عُليا من أجل استقطاب أبناء المسلمين ، والحب ، والغناء في الحضارة الغازية وأبطالها » ، وهذا هو محور ردتنا عن ديننا[١] .

« وفي هذا المجال نفسه كانت البعثات تتقاطر على الدول الأوروبية من أبناء المسلمين ، استكمالاً لتعليمهم العالي ، بحيث لا يرجعون إلى وقد تأثروا بوجهة الغرب ، وفلسفته ، وأخذوا طريقة الحياة الأوروبية ، وبذلك أصبحوا رصيداً في حساب أعداء الإسلام بالسلوك ، والعادات ، والتربية ، وللأسف كتب على أمتنا أن تقاد من مثل هؤلاء »[٢] .

وفي مثل هذا المجال العريض انطلق أئمة الكفر يغزون المسلمين غزواً مركزاً، يستهدف هدفاً محدداً مرسوماً ، «هو ردة المسلمين عن دينهم ، إن لم يكن بالتنصير المباشر ، فبالتغريب الكامل الذي يعني فناء مطلقاً في حضارة أوروبا خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يحمد منها وما يعاب »[٣] .

ولم تقتصر المشاركة بين الدول المستعمرة على استنزاف الثروات المادية ، بل امتدت إلى الثروات العلمية ، والحضارية ، ثروات التراث الإسلامي ، «المتمثلة في المخطوطات ، والوثائق ، والكتب النادرة التي نقلها المستشرقون إلى لندن ، وباريس»[٤] ولقد استفادوا من هذه المخطوطات ، وبالإضافة إلى ذلك عكف

---

(١) السعيد ، عبد الستار: الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ، ص٧٧.

(٢) الصواف ، محمد ، محمود: المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام ص١٧.

(٣) طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر دراسة وتحليل طه حسين ، المؤلف أحمد زكي الشلق ، مجلة كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية ، ص١٥١-١٧٢.

(٤) سعيد ، إدوارد: الاستشراق ص٦.

المبشرون ، والمستشرقون للاختيار من هذه المخطوطات ، ومن نصوصها ، ما يكون عوناً لهم على تكوين صورة مشوهة عن الإسلام ، والمسلمين ، ثم يقومون بتبرير سيطرة الغرب على الشرق ، وكتابة التقارير التي تعين الحكومات الغربية على صنع القرار السياسي تجاه العالم الإسلامي .

وفي ١٧سبتمر عام (١٩٠٩م) ، قال «كيرزون»[١] في مجلس اللوردات البريطاني:« إن معرفتنا الوثيقة ليس فقط بلغات الشعوب الشرقية ، بل كذلك بمشاعرها ، وتقاليدها ، وتاريخها ، ودينها ، ومقدرتنا على فهم ما يمكن أن يسمى: عبقرية الشرق ، كل ذلك هو القاعدة التي يمكن على أساسها أن نحافظ في المستقبل على وضعنا الذي اكتسبناه ، وليس هناك خطوة تنفيذ لتقوية هذا الوضع يمكن أن توصف بأنها تستحق اهتمام حكومة صاحب الجلالة ، أو جراء حوار عنها في مجلس اللوردات ، ولا يوجد هناك من ينقل كل ذلك لهم سوى المبشرين ، والمستشرقين.

لا ننكر أن المبشرين المستشرقين قد جمعوا معلومات كثيرة عن الإسلام ، والمسلمين ، وقد مكنهم الاستعمار الصليبي من نهب ثروات المسلمين ، العلمية،

---

(١) كريزون ، جورج: (١٨٥٩-١٩٢٥) ، سياسي بريطاني ، أظهر في شبابه تفوقاً في السياسة عين وكيلاً لوزارة الهند (١٨٩١-١٨٩٢) وكتب عدة كتب عنها ، اهمها:«فارس والمسألة فارسية » ١٨٩٢ » و « مسائل الشرق الأقصى » (١٨٩٤م) ، عين حاكماً للهند (١٨٩٩-١٩٠٥م) ، فقام بتنفيذ اصطلاحات مهمة ، أبرزها تشجيع التعليم العالي ، وتهدئة قبائل الحدود الشمالية اختير مديراً لجامعة إكسفورد ، ووزيراً للخارجية (١٩١٩-١٩٢٤م). رأس مؤتمر لوزان (١٩٢٢-١٩٢٣م) مهد الطريق لمشروع دور كتسوية للتعويضات التي فرضت على ألمانيا عقب الحرب العالمية. قام بمفاوضات سياسية مع عدلي يكن رئيس الوزارة المصرية لعقد معاهدة لتحديد العلاقات بين مصر وبريطانيا (١٩٢١م) ، الموسوعة العربية الميسرة (٢/ ١٥٢٦).

والفكرية ، والحضارية ، وقد استولوا على مخطوطات المسلمين ،ونقولها إلى عواصم الغرب ، وتمكنوا من الوصول إلى أنفس ما عند المسلمين ، وإلى خزائن كتبهم عقيدة ، وفقهاً ، وحديثاً ، وتفسيراً ، وتاريخاً ، مما جعلهم يتعرفون على حضارة المسلمين عن قرب ، وتعميق. «ومن يقول:إن المنصرين ،والمستشرقين استخدموا هذه الثروة لمنفعة المسلمين ، أو لمنفعة العلم ، فقد جانبه الصواب ، لان عداوتهم الحقيقية للإسلام والمسلمين تحول دون ذلك ، حتى لو فكرنا في سبب قدومهم ، لكان عكس هذا القول ، جاءوا ليهدموا ويخربوا ، ويدمروا لا لينفعوا المسلمين ، ويبنوا أمجادهم »[(١)] .

يقول العالم المسلم محمد أسد[(٢)] بعد إسلامه في كتابه «الإسلام على مفترق الطرق » من فصل بعنوان « شبح الحروب الصليبية «لا تجد موقف الأوروبي ، موقف كره في غير مبالاة فحسب ، كما هي الحال في موقفه من سائر الأديان والثقافات ، بل كره عميق الجذور ، يقوم في الأكثر على صور من التعصب الشديد ، وهذا الكره ليس عقلياً فحسب ، ولكنه يصطبغ أيضاً بصبغة عاطفية قوية ، قد لا تقبل أوروبا تعاليم الفلسفة البوذية ، أو الهندوسية ، ولكنها تحتفظ

---

(١) غراب ، أحمد: رؤية إسلامية للاستشراق ، المنتدى الإسلام ، ص٨٠.

(٢) محمد أسد: مستشرق نمساوي ، اعتنق الإسلامي عام (١٩٢٦م) ، كانت رحلاته في أطراف الجزيرة العربية ، موضع كتابه: «الطريق إلى مكة». أنشأ بمعاونة (وليم بكتول) مجلة « الثقافة الإسلامية » في حيدر أباد الدكن بالهند ، وعين رئيساً لدائرة الشرق الأوسط في وزارة الخارجية الباكستانية ، فوثق العلاقات بين باكستان والدول الإسلامية ، ثم عين وزيراً مفوضاً لباكستان في الأمم المتحدة من كتبه:« الإسلام على مفترق الطرق » و « أصول الفقه الإسلامي » و « منهج الإسلام في الحكم » ، توفي في إسبانية سنة (١٩٩٢م) ذيل الأعلام (١٦٦).

دائماً فيما يعلق بهذين المذهبين بموقف عقل متزن مبني على التفكير ، إلا أنها حالما تتجه إلى الإسلام يختل التوازن ، ويأخذ الميل العاطفي بالتسرب... ويظهر في كثير من بحوثهم كما لو أن الإسلام منهم أمام قضائه.... » ليس نتيجة هذه المحاكمة سوى صورة مشوهة للإسلام وللأمور الإسلامية ، تواجهنا في جميع ما كتبه مستشرقوا ومنصروا أوروبا ، وهم في غاية السرور عندما يجدون ما ينالون به من الإسلام [(١)] .

من خلال هذا العرض ، نستنتج أن الكره والحقد هو الذي يسير هؤلاء القوم والحكم مسبقاً دون دليل أو بينة في اتهام الإسلام ،من هنا نقول: إن هذه الدراسات تخلو من الموضوعية العلمية فضلاً عن الإنصاف .

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة : ١٠٩].

فهل من المعقول أن نصدق كلاماً غير كلام الله عز وجل؟!

ونشير هنا إلى أن النهب الاستعماري لم يقتصر على الخيرات المادية ، بل امتد إلى الخيرات الثقافية لهدفين :

الأول: إثراء الدول المستعمرة .

والثاني: تجريد المستعمرات من تراثها الثقافي ، وإفقارها في هذا الميدان الحيوي الهام الذي يتصل بصميم كرامتها الإسلامية ، بالإضافة إلى قطعها عن إرثها

---

(١) أسد ، محمد: الإسلام على مفترق الطرق ، الترجمة العربية ، ص٥٢-٥٤.

الثقافي الذي سيدفعها إلى الوقوف في وجه المستعمر.

حيث جاءت جحافل الاستعمار الغربي فكان النهب ، والسلب ، «المنهجي» الذي امتد إلى المساجد ، والمكتبات العامة ، الخاصة ، والقصور ، ودور العبادة ، والعلم ، حتى امتدت أيديهم إلى باطن الأرض إلى القبور تنبشها ، وتأخذ ما تجده بداخلها ، وكل ذلك ترسله إلى أوروبا ، « وإن نظرة في متاحف لندن ، وباريس ، وروما لتريك الهجمة الشرسة على تراث أمتنا ، وسرقة الثروات ، ونهب الإنسان»[١] .

«والتفريغ الثقافي في بلادنا لم يكن مقصوراً على انتهاب مواد الثقافة الروحية ، بل اتجه إلى القضاء على أكبر العناصر المكونة للروح ، والشخصية الإسلامية وهو اللغة»[٢] ، لأنها وعاء القرآن ، فمن هنا كان امتهان اللغة ، والتضييق عليها واحد من الميادين التي نشط فيها الاستعمار الثقافي في مختلف أرجاء الوطن العربي .

ثالثاً : دوافع تاريخية :

إن سعي أعداء الإسلام ، لتشويه التاريخ العربي والإسلامي قديم ، وفي العصر الحديث أثير الكثير من الشبهات حول التاريخ الإسلامي ، والحضارة الإسلامية ، ويدور كثير من هذه الشبهات ، حول مرحلة الضعف والتخلف ، وأسبابها ، وعواملها ، «وقد حاول بعض كتاب الغرب وغيرهم أن يعزوا هذا

---

(١) السامرائي ، نعمان: الفكر العربي والفكر الاستشراقي ، ص٤٨.

(٢) انطونيوس جورج : يقظة العرب ، ترجمة ناصر الدين الأسد ، إحسان عباس ، ص٤٩٨.

التخلف إلى الإسلام ، وما جاء به من فكر إسلامي»[١] .

وقد ألفت كتب كثيرة منها: (تاريخ التمدن في الإسلام ، وتاريخ العرب قبل الإسلام وتاريخ الأدب العربي) وكلها لجرجي زيدان[٢] ، أحد نصارى العرب ، وهي تحمل في طياتها الأخطاء الكثيرة ، والآراء المنحرفة ، وهي تمثل نقلاً لآراء الغربيين في التاريخ العربي ، والإسلامي.

وأما «بروكلمان » فقد زعم أن الحجر الأسود أقدم وثن يعبد ، كما ردد: أن خالد بن الوليد قتل مالك بن نويرة ليتزوج امرأته الجميلة ، كما اتهم الصحابي المغيرة بن شعبة بالزنا ، وأنه رجل انتهازي ، كما نضيف هنا قول المبشر الفرنسي ، « آرنست رينان »[٣] : إن الحضارة العربية حضارة سطحية ظاهرية ، أنتجتها عقول أوروبية ، ومنابع يونانية ، وفارسية ، وهندية ، وأية حضارة موجودة عند العرب مصدرها ، غير سامي »[٤] .

ومن الدوافع التاريخية : دعوة الكنيسة للأخذ بالثأر ، والتنكيل بالإسلام

---

(١) الجندي ، أنور : الإسلام في وجه التغريب ، ص٢٤٧ .

(٢) جرجي زيدان (١٨٦١-١٩١٤م) : أديب ومؤرخ لبناني ، ولد وتعلم في بيروت وتوفي بالقاهرة من رجال النهضة. أسس في القاهرة مجلة الهلال ١٨٩٢م ، ودار الهلال للنشر ، له مقالات لغوية وتاريخية مشهورة ، من كتبه « تاريخ التمدن الإسلامي» و«تاريخ آداب اللغة العربية » وروايات من تاريخ الإسلام. المنجد (٢٨٢) .

(٣) آرنست رينان: (١٨٣٢-١٨٩٢م) : أديب فرنسي تخلى عن دعوته الإكليريكية لينصرف إلى دراسة اللغات السامية ، وتاريخ الديانات فقد إيمانه وعبر في كتبه عن آرائه العقلانية ، منها « مستقبل العلم » و « تاريخ نشأة المسيحية » أول أجزائه «حياة يسوع » الذي أحدث تأثيراً واسعاً في أوروبا. زار لبنان وفلسطين ، وقام بأعمال تنقيب أثرية. المنجد (٢٧٤).

(٤) المحيش ، نبيل عبد الرحمن: الغزو الفكري للعالم الإسلامي ، ص٦٦-٦٧ .

والمسلمين بشتى الوسائل ، وبمختلف الطرق ، للتصدي لحركة الدعوة الإسلامية[١] ، ومنع انتشار حضارة الإسلام « حيث أوعزت الكنيسة إلى رجال الفكر والمبشرين بتكثيف العمل ، والعكوف على دراسة الإسلام ، والشرق ، لمعرفة حقيقة الإسلام ، وللرد عليه ، وبالتالي العمل على رسم الخطط المناسبة للهجوم على الإسلام ، والقضاء عليه »[٢] .

وقد بلغ حقدهم ذروته ، وبسبب هزيمتهم على يد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله ، بدأوا بتزوير التاريخ ، ومن أشهر القصص التي تتحدث عن بطولات صلاح الدين الأيوبي. أثناء الحملة الصليبية الثالثة التي قادها الملك « ريتشارد قلب الأسد » ، القصة الإنجليزية التي ظهرت في العصور الوسطى بعنوان «ريتشارد قلب الأسد » وهذه القصة ملحمة تحكي أحداث الحملة الصليبية

---

(١) وقد كتب د. شوقي أبو خليل سلسلة من المصنفات تكشف زيغ وافتراء بعض المستشرقين والمتخاذلين ، كبروكلمان وجرجي زيدان ، وهي تفضح كذبهم وتحاملهم على العرب والمسلمين.

(٢) إن ما فعله الصليبيون في بلاد الشام لتقشعر من هوله الولدان ، يقول أحد المؤرخين النصارى : « لما دخل المغيرون الصليبيون بيت المقدس منتصرين ، وضعوا السيف في الناس ، وأحدثوا مجزرة هائلة ، حتى يقال : إن خيل الصليبيين الذين ذهبوا إلى مسجد عمر راكبين كانت غارقة في الدماء إلى الركب ، وأخذوا بأرجل الأطفال وضربوهم عرض الحائط ، أو دورهم ورموا بهم من سور البلد ، وفي اليوم الثاني تعمدوا مثل هذه الاضطهادات التي ترتعد لها الفرائض على مستوى أكبر وأوسع ، ولم يزل يناشدهم « تيكرد » ما قد جعله في ذمته من تأمين ثلاثمائة من الأسرى ، ولكن لم يستجيبوا لصياحه ولم يراعوا ضمانه ، وقتلوهم عن أخرهم. ثم حدثت مجزرة مريعة ، فقتلت الرجال والنساء والأطفال تقتيلاً ومثلت أجسادهم تمثيلاً ،وقد تكدست قطع أجسادهم وأعضائهم الممزقة ، ولما انتهت هذه المجزرة الهائلة أسروا الأسرى العرب فغسلوا شوارع المدينة المتلطخة بالدماء. دائرة المعارف البريطانية (٦/ ٦٢٧).

الثالثة بأسلوب أوروبي ، يصور المشرق والمسلمين في الأرض المقدسة بفلسطين ، فقد حوت تلك القصة الكثير من الدس على المسلمين ، والإجحاف بهم ، وبحضارتهم العظيمة.

وما كان ذلك إلا دليلاً على مرض قلوبهم ، تجاه الإسلام والمسلمين[1] ولقد كان من نتيجة المؤتمر الأوروبي الذي انعقد في برلين عام (١٨٧٨م) ، اتفاق المتآمرين على المقررات الآتية :

١- تحطيم دولة الخلافة العثمانية التي كانت سداً منيعاً في طريق محاولة فرض المسيحية على الشعوب الإسلامية ، واقتسامها ، ولقد أخذت اليهودية العالمية على عاتقها مهمة تفجير الوضع الداخلي عن طريق إثارة النعرات الطائفية ، والعنصرية ، وإبقاء الفتن ، وإشعال الثورات ، وممارسة التجسس لحساب الدول الأجنبية ، ونشر أجهزة التخريب على أوسع نطاق .

٢- تمزيق البلاد الإسلامية إلى دويلات تقام بينها حدود مصطنعة.

٣- دعم الأقليات النصرانية الموجودة في البلاد الإسلامية ، واستغلالها في إثارة الفتن ، والقلاقل.

٤- مساعدة وتشجيع المذاهب المناهضة للإسلام ، كالعلمانية والبهائية والتشيع بجميع صوره وأشكاله.

٥- مضاعفة جهود المبشرين ، ومساندة النشاط الكنسي ، وتركيزه في العالم الإسلامي[2] .

---

(١) عبد المقصود ، عبد الفتاح: صليبية إلى الأبد ، ص٧٤.

(٢) الجبهان ، إبراهيم السليمان : ما يجب أن يعرفه المسلم من حقائق عن النصرانية والتبشير ، ص٣٧-٣٨.

وكانت من نتيجة هذه المقررات أن وقع العالم الإسلامي فريسة لاستعمار أوروبي خبيث ، استهدف نهب الثروات ، وتشويه المثل ، وقتل المبادئ ، ومهدت للغزو الفكري ، والثقافي كما هيأت لظهور دولة الظلم في فلسطين دولة بني يهود، فهم أساس كل فتنة عمياء حدثت في البلاد الإسلامية بما أثاروه من نعرات طائفية ، ودعوات شعوبية .

رابعاً : دوافع اقتصادية :

إن المتتبع لهؤلاء المبشرين وألاعيبهم وآرائهم ، يلاحظ أنهم يستخدمون الدعوة للدين وسيلة لغاية يريدونها ، وهي محاولة القضاء على الدين الإسلامي، تمهيداً للاستعمار الغربي في العالم الإسلامي، والسيطرة على النواحي الاقتصادية، والسياسية. يؤيد كلامنا هذا: أن المبشرين لم يكونوا القدوة المثلى للدعاة ، فقد ظهر منهم كثيرون أصحاب مطامع شخصية ، كما أن بعضهم الآخر تنقل من جمعية إلى أخرى حسب هواه كالمبشر البريطاني «وليم بلغرايف»[1] الذي انقلب راهباً يسوعياً ، وجادل قومه البروتستانت ، ولما استغنى عن اليسوعيين عاد بروتستانتياً ، ويضيف مبشر آخر : «أنه تحول للتبشير إشباعاً لرغباته ، ومغامراته الشخصية التي شوهت اسم النصرانية في الشرق» ، فقضية التبشير ليست قضية دينية لها غاية سامية ، ولكن كان لهم مطامع شخصية ، ومطامع دولية في سيطرة بلادهم على مقدرات المسلمين ، وخيرات بلادهم[2] وبالتالي كان التبشير الخطوة

---

(١) وليم بالكراف: (١٨٢٦-١٨٨٨م) : إنجليزي ، رائد التبشير زار بلاد العرب من مؤلفاته: «رحلتي إلى أواسط شرق الجزية العربية» .

(٢) الغامدي ، صالح عون: التبشير في العصر الحديث ، ص٢٢.

الأولى التي مهدت للاستعمار ، ومكنته من الاستيلاء على بلاد المسلمين ، وتسخير أرضها وخيراتها ، وكثير من أبنائها لخدمة الأغراض السياسية والتبشيرية معاً[١] .

يقول « أ.ل. شالتيه » رئيس تحرير مجلة العالم الإسلامي ، في باريس «ينبغي لفرنسا أن يكون عملها في الشرق ، مبيناً قبل كل شيء على قواعد التربية العقلية للتأثير على عقول أبناء الشرق ، وقلوبهم ، ليتسنى لها توسيع نطاق هذا العمل ، والتثبيت من فائدته ، ويجدر بنا لتحقيق ذلك الفعل ألا نقتصر على المشروعات الخاصة التي يقوم بها الرهبان المبشرون ، وغيرهم بها ، لأن لهذه المشروعات أغراضاً اختصاصية »[٢] .

وبهذا نرى كيف يريد هذا المبشر أن تكون المشروعات حكومية ، وتعمل لصالح الدولة ، وليست خاصة بالأفراد. لم تكن حركة التبشير خالصة لدينهم كما يزعمون ، وإنما كانت تخفي وراءها أغراضاً أخرى منها:« استخدام التنصير كأسلوب تجاري ، يدر على القائمين به الأرباح الطائلة بشكل مباشر ، أو غير مباشر ، حيث يستغل المبشرون الإعفاءات الجمركية لما يستوردونه من الخارج لمصالحهم الشخصية ، واتخذوا من ذلك فرصة للربح ، والتجارة ، حيث يستوردون البضائع المختلفة ، ويبيعونها لتجار الوطنين ، ولقد لاحظت دولة الخلافة الإسلامية ذلك وألغت تلك الإعفاءات ، تلك دوافع شخصية لا تكاد

---

(١) الطهطاوي ، محمد: التبشير والاستشراق ، وأحقاد وحملات على الرسول ﷺ وبلاد الشام ، ص٤٧٥ .

(٢) أ.ل. شاتليه: الغارة على العالم الإسلامي ، لخصها محب الدين الخطيب ، ص٣٧.

تذكر مع الخطر الاقتصادي الأكبر الذي سعى المبشرون إلى إحداثه ، ودعوة الدول المستعمرة إلى الإسهام فيه ، حين أشاروا على الأوروبيين أن الحرب مع المسلمين تؤدي إلى خسائر جسيمة. من أجل ذلك اقترح المبشرون على دولهم أن تشل حياة المسلمين الاقتصادية ، بإبعادهم عن الشواطئ ، ذات الأمطار الوافرة، وطرق المواصلات الكافية ، والمراكز الحديثة المهمة ، ثم حصرهم في الداخل ، وفي الصحاري على الأكثر »[١] .

إن اقتراحات كهذه ، دفعت المستعمرين إلى الأخذ والتقييد بها ، فلولا المبشرون ودراستهم للواقع الجغرافي والاقتصادي لبلاد المسلمين ، لما نجح المستعمرون في سهولة السيطرة عليها ، لذلك كانت معظم الاقتراحات السيطرة على الشواطئ ، وعليه عملت الدول المستعمرة على إخلاء المسلمين من على الشواطئ ثم قذفت بهم إلى داخل البلاد وإلى ما وراء النهر كما حصل بفلسطين»[٢] .

يتضح مما تقدم ، حرص الدول المستعمرة على الكسب المادي والاقتصادي ، لذلك كانت تسعى إلى أخذ امتيازات أجنبية خاصة بها ، لم يتمتع بها المسلم نفسه، ولذلك كان الغربي يجوب الدولة العثمانية كاملة لا يعارضه أحد ، ولو قتل لطالبت دولته دية من دولة الخلافة العثمانية ، أضعافاً مضاعفة[٣] ، وإذا

---

(١) صالح ، سعد الدين: الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام ، ص٥٨-٥٩.

(٢) Moslem World : the Poltical Geogrphy of the Mohammed in World, jan, 1930, pp.1–4 .

(٣) وأريد أن أوضح أمراً ملخصه: أن ضياع فلسطين يرتبط بالمؤامرات الاستعمارية ، وقوتها ، بيد أن مواقف التخاذل العربية والإسلامية كان له دور أكبر وداعم للاستعمار ، ثم إن أرتال الجهاد لا تؤتي ثمارها إلا بدعم حكومي ، ينظمها ويستمر في رفدها بالمال والرجال والدعاية والإعلام.

رجعنا إلى قضية الامتيازات تلك ، لرأينا أن الدولة العثمانية منحتها لهم في أوج قوتها حيث إن السلطان سليمان القانوني ، منح ملك فرنس شيئاً من الامتيازات التجارية ، ويمكن أن نلخص هذا الموضوع فيما يلي :

١- إن الرجل الذي عهد إليه بالحصول على هذه الامتيازات كان يدعي «ده لافورست » وهو راهب من فرنسا ، من اتباع القديس يوحنا ، فهذه الامتيازات ليست منتزعة من الدولة العثمانية ، بل هي هدية من السلطان له يوم ذاك.

٢- عين هذا الراهب سفيراً في الآستانة ، فكان أول سفير لفرنسا في دولة الخلافة العثمانية.

٣- مع مرور الأيام ضعفت دولة الخلافة العثمانية بعد قوتها ، ولم تعد الامتيازات التجارية وقفاً على فرنسا فقط ، بل امتدت لتشمل الإنجليز ، والإيطاليين ، والأسبان ، والهولنديين ، ثم إلى الأمريكان ، واليونان ، « وزادت هذه الامتيازات ، حتى شملت الإعفاءات الجمركية والضرائب »[1] حيث لم تشمل الأمريكان في بداية الأمر من هنا أدرك المبشرون كيف يحتمون بهذه الامتيازات الأجنبية ، فاستغلوها إلى أبعد الحدود ، فكانوا يجوبون أنحاء دولة الخلافة العثمانية كأجانب ، ليعملوا فيها كمبشرين .

ومن دوافعهم أيضاً توسيع تجارتهم ، والحصول من بلاد الشرق على المواد

وهذا واضح عبر مسيرة التاريخ ، فلو حصل التكاتف والتنظيم والوعي الكافي لتغيرت كثير من مجريات الأحداث. والمهم أن يتعظ العرب والمسلمون لئلا تضيع منهم أراضي جديدة !!

(١) رفعت ، محمد: تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية ، ص٢٣٣-٢٣٤.

الأولية لصناعاتهم ، التي كانت في طريقها للازدهار ، ومن أجل ذلك وجدوا: أن الحاجة ماسة للسفر للبلاد الإسلامية ، والتعرف عليها ، ودراسة جغرافيتها الطبيعية ، والزراعية ، والبشرية ، حتى يحسنوا التعامل مع تلك البلاد ، وتحقيق ما يصبون إليه[١] .

وكانت انجلترا صاحبة أكبر مسحة استعمارية في القرن التاسع عشر ، وكانت تنظر بعين الطمع الدائم للبلاد العربية الإسلامية بعد أن رسخت أقدامها في الهند ، وتواجهها في ذلك منافسة فرنسا ، التي نالت امتياز حماية الأراضي المقدسة» ثم دخلت روسيا القيصرية مجال المنافسة مع رغبتها الخروج إلى البحار الدافئة؛ مما كان يجعلها تتذرع بحماية المسيحيين الأرثوذكسيين في الدولة العثمانية، وفي بلاد الشام بصفة خاصة «ثم دخلت المجال أيضاً ألمانيا ، فإيطاليا ، التي حاولت دخول المنافسة عبر الإرساليات الدينية ، ثم أطلت أمريكا محاولة نيل شيء من الغنيمة المشرقية ، بعد انهيار الرجل المريض»[٢] .

والإرساليات التعليمية ، ومدارس التبشير ، التي تتهافت على منطقتنا الإسلامية والتي تتظاهر بالأهداف الإنسانية ، ليست حباً ، وشفقة على بلاد المسلمين ، وبهذا صارت الدول الكبرى ، تقف وراء التبشير لمذاهب ثلاثة في بلادنا ، ففرنسا والنمسا وإيطاليا تحميان المذهب الكاثلوكي ، وروسيا الأرثوذكسي ، وإنجلترا البروتستانتي ، فكان التزاحم على أشده بين الإرساليات الدولية ، فلم

---

(١) عالم الكتب ، مجلة الرياض ، دار ثقيف ، ١٤٠٤هـ / المجلد الخاص العدد الأول ، ص١٧٤.

(٢) شريف ، محمد بديع ، المحاسن زكي ، عبد الكريم أحمد: دراسات تاريخية في الوحدة العربية ، ص٧٧ ، ٣٩٥.

يكن هذا التنافس دينياً كما يزعمون ، بل للسيطرة الاقتصادية ، ونهب خيرات الشرق ، بإضعاف دولة الخلافة العثمانية ، فهم يقولون : « تركيا اليوم أشبه بحقل مغلق ، حيث تتنافس القوى الأوروبية الرئيسية ليس من أجل إيجاد النفوذ على المستوى الاقتصادي ، والتجاري فقط بل على المستوى السياسي أيضاً »(١) .

وكان من ضمن أهداف الدول المستعمرة الاقتصادية ، البحث عن الرزق عندما ضاقت بهم سبل العيش العادية ، وكانت بلاد المسلمين أرض خير ، وعطاء ، ينعم من يقيم عليها مسلماً كان أو ذمياً برغد العيش ، ولكن هؤلاء النفر سرعان ما تحولوا بعد أن تحسنت أوضاعهم ، وارتفع مستوى دخلهم ، فبدل أن يشكروا ويستقروا هادئين ، تحولوا إلى ذئاب تريد تخليص الرزق من أيدي المسلمين حسداً من عند أنفسهم فبدؤوا يعملون لصالح دولهم ، لكي تنعم بخيرات المسلمين ، وأصبحوا العين الساهرة لها(٢) .

* إن موضوع النشاط التبشيري كان سمة واضحة لبداية اتصال الولايات المتحدة الأمريكية بالبلاد العربية الإسلامية بعد استقلالها عن طريق الامتيازات ، وهي المرتكز الأول للمبشرين الأمريكيين في كثير من ألوان نشاطهم غير المشروع في الولايات العربية العثمانية ، ولكن نريد أن نؤكد أن هذه الامتيازات لم تكن سوى نوع من الحماية للأجانب في ظل الدولة الإسلامية ، وحمايتهم من الحيف ، والجور في مسائل الضرائب والرسوم ، إضافة إلى حاجة الدولة العثمانية

---

(١) عريس ، طلال: المدارس الفرنسية في سورية في نهاية القرن التاسع عشر ، الفكر العربي ، السنة الثالثة ، عدد ٢١ ، ص٣٩٥.

(٢) محمد عوض محمد: الاستعمار والمذاهب الاستعمارية ، ص٨٢-٨٣.

لتحقيق فوائد تجارية ، بتوطيد العلاقات الاقتصادية بين الدول الأوروبية المختلفة « ثم تحولت هذه الامتيازات إلى دمار على المسلمين ، وعلى ولايات الدولة العثمانية المسلمة»[١] .

وهكذا لاحظنا أن هذه الامتيازات التي حصلت عليها الدول الأوربية المستعمرة ، من دولة الخلافة العثمانية ، والتي كانت موثقة بالتواريخ التالية:

* فقد حصلت فرنسا على هذه الامتيازات كلها (١٥٣٥م) ، وإنجلترا سنة (١٥٨٣م) ، وهولندا سنة (١٦١٣م) ، والنمسا سنة (١٦١٥م) ، والدانمارك سنة (١٧٥٦م) ، وروسيا سنة (١٧٨٣م)، ثم الولايات المتحدة سنة (١٨٣٠م)، والبرتغال سنة (١٨٥٥م)[٢] .

وبذلك نلاحظ أن تاريخ الامتيازات قديم ، وكانت تجدد مع كل سلطان جديد ، وأما بالنسبة للولايات المتحدة ، فكانت تتطلع إلى نشر نفوذها التجاري، وخاصة في البلاد العربية ، ولقد استفادت الولايات المتحدة من امتيازاتها على صورة البعثات التبشيرية التي اتخذت من بلاد الشام أهم ، وأكبر هذه المناطق ، لممارستها ، فمنذ منتصف القرن التاسع عشر بدأت الولايات المتحدة تهتم بعض الشيء في المنطقة بشكل رئيسي خلال نشاطات البعثات التبشيرية في المجالات الثقافية والتعليمية فقد كانت الأراضي المقدسة دائماً موضع اهتمام مسيحي[٣] .

---

(١) عبد الحميد ، نبيل : الأجانب وأثرهم في المجتمع العربي ، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت سنة (١٩٧٦م) ، إلى جامعة عين شمس ، كلية الآداب ، إشراف الدكتور: جمال زكريا ، ص٩-١٠ .

(٢) سيد أحمد ، نبيل : النشط التبشيري الأمريكي في البلاد العربية ، ص٢١ .

(٣) النتشة ، رفيق الاستعمار وفلسطين ، ص٢٢٢.

فكانت أول بعثة تبشيرية تصل إلى مدينة بيروت (١٨٢٠م) ، ولكن الدولة العثمانية ، وسكان بيروت المسلمين عارضوا ذلك ، لمعرفتهم بنية هذه البعثة التبشيرية ، ومع الظروف الصعبة ، إلا أن هذه البعثة علمت وتابعت نشاطها بفضل مبشريها الذي أظهروا نشاطاً ، كبيراً. ثم تابعت الولايات المتحدة بث قناصلها في دمشق ، وحلب ، وبيروت ، ويافا ، والرملة ، والقدس ، وما هي إلا سنوات حتى غطت المؤسسات الأمريكية الشرق الأدنى» وكان متخرجوها يحتلون مكانـة بارزة في الحياة، وعلى هذا الأساس وفدت الإرساليات التعليمية، والأجنبية ، ووجدت المناخ المناسب للنمو والانتشار»[١] .

ومن الدوافع الاقتصادية أيضاً ، وفي ظل الغفلة والصمت تحاول عناصر معينة شراء أراض ذات قيمة تاريخية ، أو عسكرية ، ثم تحشد أتباعها فيها ، ليظهروا بغتة بمطالب شاذة يحميها القانون ، وهذا ما فعلته بريطانيا مع اليهود في فلسطين ، فحرب التبشير ، كان يساندها حرب الإسكان ، والتهجير «وخير مثال ، جزيرة قبرص ، التي أخذتها بريطانيا من دولة الخلافة العثمانية ، وكانت إسلامية خالصة ، فاستقدمت إليها المستوطنين اليونانيين ، حتى كادت تذهب بطبيعتها الإسلامية ، وتقوم بحركات ، لضمها إلى اليونان ، التي لم تعرف هذا الجزيرة من بدء التاريخ »[٢] .

نلاحظ هنا كيف أن المبشرين كانوا خطراً عظيماً في الدعوة لتهجير سكان المنطقة الأصليين ، ووضع عناصر غريبة مكانهم ، أو الدعوة لشراء الأراضي ،

---

(١) حوراني ، البرت: مستقبل الجامعات الأجنبية في الشرق الأدنى ، ص٢٥.

(٢) عبد الظاهر ، حسن عيسى : التبشير والاستعمار ، مجلـة الأزهر ١٩٧٦ ، جـ٨ ، ص١١٨٨.

ثم بيعها لليهود وغيرهم.

خامساً : دوافع سياسية :

كان من أهداف المبشرين إضعاف روح الإخاء بين المسلمين وتفرقتهم لإحكام السيطرة عليهم ، وكان المبشرون يتعلمون لغات تلك البلاد التي يعملون بها ، ويدرسون دينهم ، ليعرفوا كيف يسوسونها ويحكمونها ، «إضافة إلى التعرف على شعوب المنطقة الإسلامية والعربية تعرفاً صحيحاً ينفذ إلى الجذور ، ويتابع الفروع ، ثم يتدخل في التوجيه والتخطيط »[(١)] .

انظر إلى قول الأب الفرنسي «شانتور» الذي رأس الكلية اليسوعية في بيروت زمناً طويلاً في أيام الانتداب ، وظل في منصبه سنين طويلة بعد ذلك: «وقلما صعد أحد منهم كرسياً إلا إذا كان الأب شانتور يراه أهلاً لتنفيذ سياسة الانتداب »[(٢)] من هنا نرى أن السياسة هي من أهم الأهداف الحقيقية عندهم ، والسياسة في نظرهم تعني ، استيعاب الغرب للشرق.

وفي الرابع من نيسان (١٩٢٤م) عقد اتفاق بين الولايات المتحدة ، وفرنسا في باريس ، وظل طي الكتمان حتى الثالث عشر من آب سنة (١٩٢٥م) ، جاء في المادة العاشرة منه :

« إن إشراف الدولة المنتدبة على الإرساليات الدينية في سورية ولبنان ، يجب أن يقتصر على حفظ الأمن ، وتسيير الحكم ، ثم إن نشاط هذه الإرساليات

---

(١) العمري ، أكرم ، ضياء: التراث والمعاصرة ، ص٥٩.

(٢) الخالدي مصطفى ، فروخ عمر: التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص٣٨.

الدينية يجب ألا يعترض سبيله ، كما أن رجال هذه الإرساليات ، يجب ألا يخضعوا ، لتدبير يقيدهم بسبب جنسيتهم ، ما دام النشاط قاصراً على الحقل الديني »[١] .

وكان من أول أخطار المبشرين ، وإرسالياتهم أن يخلقوا في دولة الخلافة العثمانية أسباباً تقود إلى الحرب ، لأن الحرب تضعف الدولة العثمانية فيضعف سلطانها على رعاياها ، فيجد المبشرون حين تضعف الدولة منفذاً قوياً للتبشير ، علماً أن معظم الحروب من قبل الدول الغربية على دولة الخلافة العثمانية متميزة بعالم ديني. قال « لورنس براون » : وكذلك شنت الدول الأوروبية في القرن التاسع عشر ، والعشرين حروباً عدوانية على الحكومات المسلمة ، ثم انتزعت منها أراضي ضمتها إلى سلطانها».

وأخذ المبشرون مراكز استراتيجية في العالم الإسلامي بعد الحرب العالمية الأولى ، واستطاعوا أثناء الثورات ، والحروب ، الاضطرابات ، أن يتابعوا عملهم بهدوء وثبات ، واستغل المبشرون أحوال الحرب ، فاستفادوا وبطريقة غير مباشرة ، واتفقت غايات الحروب الاستعمارية ، وغايات التبشير وتوحدت في حروب تثار ظاهراً باسم الاقتصاد ، والسياسة ، وباطناً للاستعمار ، وللقضاء على العناصر التي تجعل استغلل الشرق مستحيلاً.

وكانت أوروبة إلى اليوم تنظر إلى حروبها نظرة دينية ، والمبشرون لا يثيرون الحرب بين دول نصرانية ، لأن في ذلك إضعافاً لهم ، » لهذا انصرف المبشرون إلى

(١) المرجع السابق نفسه ، ص٥٧.

إثارة الفتن ، والاضطرابات في الدول الإسلامية العثمانية ، عند ذلك ندرك الصلة القوية بين السياسيين ، والمبشرين ، والتي استغلت في استعمار دول المشرق »[١] ، وكذلك تقسيم فلسطين ، أو المطالبة بذلك ، بتأسيس دولة صهيونية في فلسطين ، وهذا ما بين عامي (١٩٣٥-١٩٤٥م) قبل أن تولد دولة إسرائيل دليل على أن التخطيط مسبق لذلك ، ومدبر له من قبل الدولة الأوروبية المستعمرة ، « وكانوا يريدون أن يكون لبنان وطناً قومياً للنصارى في الشرق الأدنى »[٢] .

«وظلت هذه الثورات ، والاضطرابات تسعر من قبل المبشرين حتى كانت ثورة (١٨٦٠م) ، وقسم السكان إلى مسلم ، ومسيحي ، وأسرعت الدول الغربية ترسل جيوشها ، وأساطيلها إلى شواطئ بلادنا ، لحماية النصارى »[٣] وكانت تدخلات ظالمة ، فلو تدخلت دولة واحدة لكان الأمر فردياً ، والتمسنا له المبرر ، ولكن هبت معظم الدول في التدخل ، عندها وقف المبشرون بعيدين عن النار التي أججوها ، وألقونا فيها وقوداً .

قال «جاردنر»[٤] : «لقد خاب الصليبيون في انتزاع القدس من أيدي المسلمين ، ليقيموا دولة مسيحية في قلب العالم الإسلامي ... والحروب الصليبية

---

(١) الخالدي ، مصطفى: فروخ عمر ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص١٣٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص١٣٩ .

(٣) لبنان ، تأليف لجنة من الأدباء ، ص٢١٨ ، ص٣٠١ .

(٤) جاردنر و. ر.و: Gardner.W.R.W. مستشرق من آثاره: في العالم الإسلامي: الجهاد (١٩١٢م) والغزالي الصوفي (١٩١٧) والحركة الأحمدية (١٩٢٠) [المستشرقون: (٢/ ٦٦)] .

لم تكن لإنقاذ هذه المدينة بقدر ما كانت لتدمير الإسلام»[١] أما «ليغونايين لطفي» أرمني ، فيقول:« لقد أحب الصليبيون أن ينزعوا القدس من أيدي المسلمين بالسيف ، ليقيموا للمسيح مملكة في هذا العالم ، إنهم لم يستطيعوا أن يقيموا تلك المملكة ، وخابت كل دول أوروبا عن طريق السيف ، فأرادوا أن يثيروا حرباً صليبية جديدة عن طريق التبشير»[٢] ، فاستخدمت لذلك الكنائس ، والمدارس والمستوصفات ، وفرقت المبشرين في المعالم ، وهكذا ثبتت الدول حركة التبشير لمآربها السياسية ، ومطامعها الاقتصادية .

فعلينا أن نتذكر دائماً أن المبشرين كانوا ، وما زالوا ، يعملون مستشرين لحكوماتهم في التخطيط لسياستها الاستعمارية ، والتنصير في العالم الإسلامي ، وقد أدت الأعمال إلى أضرار جسيمة بالمسلمين ، فهذا «ماكدونالد»[٣] البريطاني يعمل مستشاراً لحكومته في تخطيط سياساتها ضد المسلمين في شبه القارة الهندية ، وكان «جب»[٤] يعمل مستشاراً للحكومتين البريطانية والأمريكية ، في تخطيط

---

(١) الخالدي ، مصطفى ، فروخ عمر: التبشيريون والاستعمار في البلاد العربية ، ص١١٥ .

(٢) الخالدي ، مصطفى فروخ عمر: التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص١١٥ .

(٣) ماكدونالد: مستشرق أمريكي الإقامة ، بريطاني المولد والتنشئة ، ولد سنة ١٨٦٣م ، وتوفي سنة (١٩٤٣م) ، صرف نشاطاً كبيراً في التبشير المسيحي ، وفي إعداد المبشرين في مدرسة كندي للإرساليات التبشيرية. من مؤلفاته: «تطور علم الكلام والفقه» و«الموقف الديني والحياة الدينية في الإسلام» . موسوعة المستشرقين لعبد الرحمن بدوي (٣٧٢-٣٧٣) .

(٤) جب : مستشرق إنجليزي ، ولد في مصر سنة (١٨٩٥م) ، وتوفي في أكسفورد سنة (١٩٧١م) ، تخصص في اللغات السامية ، وخلف سير توماس أرنولد سنة (١٩٣٠م) ، على كرسي اللغة العربية في جامعة لندن. وكان أحد المستشرقين على دائرة المعارف الإسلامية ، وكان إنتاجه أدنى كثيراً من الشهرة التي حظي بها لأسباب بعيدة عن العلم ، وأهم كتاب له « المجتمع

سياساتها الموالية لإسرائيل ، والمعادية للعرب والمسلمين .

* المنصرون وعلاقتهم بالاستخبارات :

تتعاون المخابرات الغربية بوجه عام ، والأمريكية بوجه خاص تعاوناً وثيقاً مع مركز الدارسات الاستشراقية ، وبخاصة مركز دراسات الشرق الأوسط في الغرب ، وقد كشفت الوثائق أن المنصرين المستشرقين ، هم عيون الغرب ، والأمريكان في بلادنا ، وأن هذا الاهتمام قد استمر بالتوسع والتطور في الدراسات الاستشراقية ، وتسع بشكل هائل ،وبخاصة بعد الحرب العالمية ، وزاد عدد المتفرغين لهذه الدراسات زيادة هائلة في جامعات أمريكا ، وكندا ، وأن كبر المستشرقين ، والمبشرين هم أساتذة جامعات في أمريكا ، وأوروبة ، وكل هؤلاء المنصرين يرصدون حركات المسلمين ، خاصة الجماعات الإسلامية وبودار صحوتهم ، ويركزون على مصر في الغالب باعتبارها من أكبر مصادر الثقافة الإسلامية ، ليس داخل أمريكا بل في الخارج أيضاً «وفي العالم الإسلامي نفسه ، لتتوالى مهمة الرصد ، والتسجيل لكل ما يدور في هذا العالم ، وجمع المعلومات عنه ، وتحليلها ، وكتابة التقارير ، والتعامل معنا بعد ذلك حسب مخططاتهم »[(١)] .

وهذه نماذج لبعضهم: «هيرمان أيلتس» مستشرق ودبلوماسي من أخطر الشخصيات الأمريكية الخبيرة بالعالم العربي ، عمل في المخابرات الأمريكية

الإسلامي والغربي » بالاشتراك مع هارولد برون. له كتاب في الدين الإسلامي عنوانه : «الاتجاهات الحديثة في الإسلام» موسوعة الاستشراق (١٠٥-١٠٧).

(١) ريتشارد دكمجيان : الأصولية في العالم العربي ، ترجمة عبد الوارث سعيد ، ص١١٠.

(١٩٤٢-١٩٤٥م). عمل بالظهران، وجدة، وعدن ، وبغداد ، وطرابلس ليبيا ، والرياض ، والقاهرة» ، وبحكم خبرته يشير إلى دور المخابرات الأمريكية في اضطهاد الإسلاميين على أيدي حكوماتهم »[١] .

ومن صور التشنيع على الإسلام وصفه بأنه عدة أنواع: « الإسلام الأصولي ، الإسلام التقليدي ، والإسلام الرسمي ، الإسلام الجماهيري ، الإسلام الصوفي ، والإسلام السياسي»[٢] ، مع أن الإسلام واحد ، وهو إسلام القرآن والسنة ، وأصوله واحدة في جميع العصور ، وهو صالح للتطبيق في كل زمان ومكان.

* الانقلابات السياسية والتواطؤ على الخلافة الإسلامية :

كان من مخططات المبشرين إحداث تغيرات سياسية في العالم الإسلامي ، كي يتسنى لهم التجول والعمل دون معارضة ، خاصة وأن الدولة العثمانية ممثلة في السلطان عبد الحميد – يرحمه الله – كان يحد من نشاطاتهم ، ويطالب بمراقبتهم ، وتضيق الخناق عليهم ، لذا كان من أهدافهم إحداث انقلابات سياسية ، وقد وصف « زويمر »[٣] الانقلابات في غرب آسيا وقتئذ ، بأنها موجبة للإعجاب ، لأنها أقامت الحرية ، وصار التجوال في البلاد العثمانية ، والعربية ، والفارسية غير ممنوع .

---

(١) خضر ، أحمد ، إبراهيم: الإسلام والكنجرس ، عدد ٩١٧ ، ص٤٥ .

(٢) ريتشارد ، دكمجيان: الأصولية في العالم العربي ، ص٤٤-٤٦ .

(٣) زويمر (صومئيل) (١٨٦٧-١٩٥٢م) مستشرق أمريكي ، محرر مجلة (عالم الإسلام) الإنجليزية وله مؤلفات قيمة عن الإسلام في أنحاء العالم وعن العلاقة بين المسيحية والإسلام منها : (يسوع في إحياء الغزالي) .

«وإن انتقال السلطة السياسية من يد الدولة العثمانية الإسلامية على أكثر المسلمين ، إلى يد انجلترا ، وفرنسا ، وروسيا ، وهولندا هذا مما يزيد من مسؤولية الملوك النصارى في مهمة تنصير العالم الإسلامي »[١] .

«هكذا نرى إلى أي حد كان التبشير ، والسياسة يتعاونان وكانت السياسة تعمل مقنعة من وراء المبشرين ، الذين كانوا بدورهم يعملون مقنعين بقناع التعليم ، والتطبيب ، وبذل الإحسان ، وكان رجال السياسة يدافعون عن المبشرين كرعايا أجانب بغض النظر عن جنسياتهم ، حتى رجال السياسة العلمانيون كالجنرال « ساراي » المفوض السامي في سوريا ، ولبنان ، يوم نشبت الثورة السورية (١٩٢٥م) ، كان يتفانى في خدمة رجال الدين الأجانب ، بروتستانت كانوا أم كاثوليك ، ما دام أن الهدف في النهاية واحد »[٢] .

وكانت فرنسا في أكثر الأحيان تجعل قناصلها ، وسفرائها رجال دين ، بل مبشرون.

فمن هنا كانت أولى الفواجع ، والنكبات التي مني بها العالم الإسلامي في إسقاط الخلافة ، والقضاء على رمز قوة المسلمين ، ووحدتهم. وهذه الخطة الصليبية الحاقدة ، والتي يقول عنها أحد مؤرخيهم (الزريكلي ديجوفارا) »: « إن خطة القضاء على الدولة العثمانية الإسلامية قد بدأت عشية انتهاء الحروب الصليبية عام (١٢٩٠م)، واستمرت حتى حققت أهدافها في عام (١٩١٨م)».

---

(١) البسطامي ، أحمد سعد الدين: التبشير وأثره في البلاد العربية والإسلامية ، ص٨٢-٨٣.

(٢) الخالدي ، مصطفى ، فروخ ، عمر: التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص١٢٤ .

وإن سبب ذلك العداء الشديد الواقع بين النصرانية والإسلام»[١].

ففي عام (١٨٩٨م) تمكن «هرتزل»[٢] والحاخام اليهودي «موشي ليفي» بعد توسط السفارة الألمانية من مقابلة السلطان عبد الحميد في إستانبول ، وتقدم «هرتزل » من الخليفة الذي شكك فيه كثير من الأقلام والجهات ، وقال له : «مولانا صاحب الشوكة ، جلالة السلطان ، لقد وكلنا عبيدكم اليهود بتقديم أسمى آيات التبجيل ، والرجاء ، عبيدكم المخلصين اليهود يقبلون التراب الذي تدوسونه ، ويستعطفونكم للهجرة إلى فلسطين المقدسة ... ولقاء أوامركم العالية الجليلة نرجو أن تتفضلوا بقبول هديتهم ، خمسة ملايين ليرة ذهبية» [٣] .

ولما كان السلطان عبد الحميد على علم بقرار المؤتمر في سويسرا ، لذا كان يفهم ما يقصده هرتزل ، لذلك بعد الاستماع أمر بكل هدوء مرافقيه ، أن يطردهم من القصر، وأصدر على الفور أمراً بمنع هجرة اليهود إلى فلسطين»[٤].

ولقد دفع السلطان عبد الحميد – رحمه الله – ثمن هذا الموقف ، كما يدفع المؤمنون الصادقون أثماناً باهظة لمواقفهم الصلبة.

ففي عام (١٩٠٨م) قام « مصطفى كمال »[٥] وهو من يهود الدونمة بحركته ،

---

(١) الخطيب ، محب الدين : الغارة على العالم الإسلامي ، ص١٥٢ .

(٢) هرتزل (تيودر) (١٨٦٠-١٩٠٤م) Herzel كاتب مجري يهودي ، أسس الحركة الصهيونية [المنجد في الأعلام (٧٢٧)].

(٣) النتشة ، رفيق: السلطان عبد الحميد وفلسطين ، ص١٨٢ .

(٤) خوجة ، كمال: أسرار الانقلاب العثماني ، مصطفى طوران ، ص١٦-١٧ .

(٥) مصطفى كمال أتاتورك (١٨٨١-١٩٣٨م) : قائد تركي ولد في سلانيك – مؤسس الجمهورية

وتم خلع الخليفة عبد الحميد في عام (١٩٠٩م) ، ثم صدر القرار المشؤوم بإلغاء الخلافة الإسلامية ، وتحويل تركية إلى دولة علمانية ، وعلى أثر ذلك تم تقسيم العالم الإسلامي ، وتم اجتياحه عسكرياً وفكرياً.

وإذا كانت الإرساليات التبشيرية هي منطلق العمل في المدرسة والصحيفة فإن من ورائها قوى استعمارية ضخمة تمدها بالمال ، وبكل الاحتياجات[١] .

* إشاعة فكرة القومية :

إن وحدة المسلمين ووجود الخلافة من الأمور التي بذل الغرب المستحيل في القضاء عليها ، وخوف أوروبا من وحدة المسلمين أشد من أي خطر آخر ، لأنهم عرفوا الإسلام دين دعوة ، وهو ينتشر بين النصارى أنفسهم ، وهم يعلمون كفاح المسلمين الطويل في أوروبة لإخضاع بلدان كثيرة لصالحه ، ويقول المبشر «لورنس براون» في كتابه «The Prospects of Islam» المطبوع

وأول رئيس لها (١٩٢٣م) ، قام بإصلاحات اجتماعية ، غير كتابة التركية من الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني. [المنجد في الأعلام (٢٤)] .

(١) في كتاب « الحق المر » الجزء الثالث (ص٧٩) كتب الغزالي يقول: « تهب على إفريقية السوداء رياح فتنة عاتية ، تبغي زحزحتها عن عقائدها ، ودحرجة الإسلام عن منزلته الأولى إلى الثانية ، أو ما وراء ذلك حتى يتلاشى ، ومعروف أن التبشير العالمي وقت نهاية هذا القرن لبلوغ غايته وأن جيشه الهاجم استطاع التغلغل في أقطار بيضاء ، بعدما اجتاح الجنوب والوسط. والمعروف أنه لا توجد تقريباً قوى مدافعة ، فليست للأزهر بعثات ، وكذلك رابطة العالم الإسلامي ، والأهالي متروكون لأنفسهم، وكانت هناك جمعية للدعوة إلى الإسلام تعمل في جنوب السودان، وقفت عن وظيفتها في أثناء حرب الخليج ، وعلى جماهير المسلمين المعزولين ، أن يعتمدوا على فطرتهم السليمة ، وقواهم الكليلة في مدافعة العدو الزاحف » .

بلندن عام (١٩٤٤م) : «لقد كنا نخوف بشعوب مختلفة من دون مبرر ، إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا ، ولم نجدهم خطراً علينا ، وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد ، ثم رأينا خطأ التهديد بالخطر الشيوعي ، إذ وجدنا البلاشفة حلفاء لنا ، أما الخطر الأصفر الذي يتمثل في الشعوب الصفر مثل : اليابان والصين ، فإن هناك دولاً ديمقراطية كبيرة تتكفل بمقاومتها[١] ، ولكن الخطر الحقيقي الكامن في نظام الإسلام ، وفي قدرته على التوسع والإخضاع ، وفي حيويته ، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي»[٢] .

وحرص المبشرين الدائم كان في تمزيق الوحدة الإسلامية ، وذلك عن طريق تشجيع الحركات القومية ، مع السعي الحثيث ، إلى تحطيم الخلافة العثمانية ، ويحدثنا «ساطع الحصري»[٣] في كتابه « محاضرات في نشوء الفكرة القومية» عن

---

(١) تتناقل وكلات الأنباء بين الحين والحين الآخر ، مواقف الولايات المتحدة الأمريكية تجاه اليابان والصين ، وهي مواقف ضاغطة ومحاصرة ، وتحمل في طياتها الكثير من التهديد والوعيد ، فلا يسمح باتخاذ موقف ضد رغبات الولايات المتحدة ، إلا كان الويل والدمار الاقتصادي مصير المتحدي، ولا ينخدع القارئ بالعولمة التي يتحدثون عنها، فهي في الحقيقة تعني سيطرة أمريكا ، والدول العظمى من بعدها على العالم كله لإجبار الجميع على الخضوع والركوع ، واستنزاف خيرات الآخرين وجعلهم تبعاً للسادة الأقوياء. ويأخذ المتأمل العجب من وجود قوات أمريكية كبيرة العدد ، كثيرة السلاح ، داخل اليابان مثلاً ، وهي دولة صناعية رائدة ، ولكنها لا تستطيع التحرر من السادة والسيطرة الأمريكية ، ولله في خلقه شؤون ..

(٢) الخالدي ، مصطفى ، فروخ ، عمر: التبشير والاستعمار ، ص١٩٤.

(٣) ساطع الحصري: كاتب ، باحث. من علماء التربية تترك ثم تعرب له (١٢) كتاباً بالتركية. عين وزيراً للمعارف بدمشق. أنشأ معهد الدراسات في جامعة الدول العربية. وصنف أكثر من (٥٠) كتاباً عربياً منها « العروبة أولاً » و «آراء في التربية والتعليم» و « القومية العربية والدين

تطور الفكرة القومية عند الأتراك العثمانيين ، فيقول : «إن الفكرة القومية عند الأتراك العثمانيين ، بدأت أولاً كحركة لغوية أدبية ، ثم صارت تظهر في الأبحاث التاريخية ، وبعد ذلك انتقلت إلى ميادين الحكم ، والسياسة ، وإذا سمينا حركة القومية التركية بالاستتراك ، جاز لنا أن نقول: إن تيارات القومية – عند الأتراك العثمانيين – بدأت باستتراك اللغة ، ثم انتقلت إلى استتراك التاريخ ، وانتهت في آخر الأمر ، إلى استتراك الدولة»[1] .

واستمرت هذه الدعوى حتى تم إلغاء اللغتين العربية والفارسية في جميع المدارس الابتدائية والثانوية ، وقد امتدح «آرنولد توينبي » أتاتورك ، وذكر أنه نجح في قطع صلة تركيا بالتراث الإسلامي ، وبطريقة لم ينجح بها أحد قبله ، من الذين أرادوا إبعاد شعوبهم عن الأفكار القديمة التي تعـارض أفكارهم»[2].

ويروي الدكتور « محمد محمد حسين » كيف حاول الإنجليز بكل وسيلة قطع أي صلة تربط المصريين بالأتراك ، وبالدولة العثمانية ، ثم يقول : «وكان الإنجليز من وراء كل ذلك هدف واحد هو إضعاف العصبية الدينية ، وتقطيع أواصر المسلمين في مستعمراتهم ، حتى يستطيعوا أن يواجهوهم واحداً واحداً»[3] .

ونخلص إلى أن الحقيقة التي يجب أن تكون ماثلة في كل عقل ونفس : هي أن

الإسلامي » توفي ببغداد سنة (١٩٦٨م) معجم المؤلفين العراقيين (٢/ ١٦) والأعلام (٣/ ٧٠) ومعالم وأعلام (٣٠٦) .

(١) الحصري ، ساطع: محاضرات في نشوء الفكرة القومية ، ص٥٢.

(٢) شلبي ، أحمد: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، ص٥٥٦.

(٣) حسين ، محمد ، محمد : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١/ ٩٤.

النفوذ الاستعماري الذي ما تزال مصالحه قائمة في العالم الإسلامي ، وهو يريد استبقاء هذا النفوذ عن طريق تغريب الثقافة العربية والفكر الإسلامي ، وسلخ مقوماتها ، لإضفاء مقومات الفكر الغربي ، والثقافة الغربية عليهما بحيث ينتزع من هذه الأمة مقدراتها النفسية والعقلية على معارضته ، أو الوقوف في وجهه ، بل إحلال روح صداقته ومحبته ، والدفاع عنه ، بل الإعجاب به ، فمتى نفيق؟ .

* * *

المبحث الثالث

وسائل التبشيـر

المبحث الثالث
وسائل التبشير

* أساليب التبشير قديماً وحديثاً :

التبشير عدو خفي ، يجتهد في ستر أغراضه ، وإخفاء نواياه ، وما وسعته الحيلة بالخبث ، والدهاء . ونجد في كتاب « طرق العمل التبشيري بين المسلمين» للمبشر « تشارلس واطسون » دليلاً على ذلك ، حيث يقول :

« يجب على المبشر أن يحترم في الظاهر جميع العادات الشرقية ، والإسلامية ، حتى يستطيع أن يتوصل إلى بث آرائه بين من يصغي إليها » ويمضي في القول حتى يختم عبارته بقوله : « على المبشرين أن يظلوا برآء كالحمامة ، وحكماء كالحيات »[(١)] .

نتعجب هنا كيف أن فاقد الشيء يستطيع أن يعطيه غيره ، أو الذي لا يحمل ذرة إيمان كيف يريد بذر الإيمان في نفوس الناس ، فإن المبشر يتزيى بأكثر من زي، ويتلون بأكثر من لون ، ويتشكل حيثما يرى مصلحته ، فإن كان الطب قام ببناء المستشفيات وأحضر الأطباء ، وإن كان التعليم سيفتح المدارس وينشئ الجمعيات ويبني الجامعات ، وينفق في سبيل ذلك الأموال الطائلة ، فليس هناك أضعف من إنسان يتألم ، ولا أوهن من مخلوق اجتمعت عليه العلل والأوجاع ، فهو إذ ذاك الراضي المستسلم على أمل الشفاء ، والخلاص من الآمة[(٢)] .

---

(١) عويس ، عبد الحليم: ثقافة المسلم في وجه التيارات المعاصرة ، ص٩٦-١٠٤ .

(٢) السيد صالح ، سعد الدين: احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام ، ص٤٦ .

ومن هنا عرف المبشرون ذلك الضعف ، فاتخذونه وسيلة من وسائلهم في النفوذ إليها ، واستمالتها ويقول واطسون : « حينما تجد بشراً تجد آلاماً ، وحينما تكون الآلام ، تكون الحاجة إلى الطبيب ، فهناك الفرصة للتبشير »[١].

« ولننظر كم الذين خدعوا بالمؤسسات الطبية ، التي يقيمها أمثال هؤلاء في البلاد العربية والإسلامية ، ومثلما كان الطب ، كان التعليم ، والتأثير فيه أعظم ، وليس تعليم الصغار هو الذي يتجهون إليه ، فهناك أيضاً التعليم العالي ، فإن لم يحققوا هدفهم في إخراج أبناء الإسلام من دينهم وعقيدتهم اكتفوا بزعزعة تلك العقيدة ، وطبعهم بطابع ثقافتهم الغربية ، فيصبحون وبالاً على بلادهم ، وهم لا يرون فضلاً إلا لحضارة الغرب »[٢] .

ولقد اتخذ المبشرون في تحقيق أهدافهم ومخططاتهم عدداً من الوسائل التي تخدم التبشير وأن يستغلوا جميع المناسبات كالمؤتمرات الفكرية ، والعلاج الطبي ، والشؤون الاجتماعية.

الأساليب القديمة :

١ - انطلاقاً من تعاليم الكنيسة أخذ المبشرون طريقهم في التنصير منذ وقت مبكر ، معتمدين على أساليب متعددة ، منها ما كان مبنياً على الإقناع الفردي ، والوعظ العالم في الكنائس ، والأماكن العامة ، لتعريف الناس بحياة المسيح ، وتعاليمه، وهو الأسلوب الذي اتبعه الأوائل: أمثال «فيليب» و«برنابا»[٣]

---

(١) عويس ، عبد الحليم: ثقافة المسلم في وجه التيارات المعاصرة ، ص٩٠.

(٢) عزت محمد ، إبراهيم: الوعي الإسلامي ، ص٥٧-٥٨.

(٣) برنابا (القديس) : رفيق بولس الرسول في التبشير. قبرصي الأصل (المنجد في الأعلام (١٢٢).

و«مرقص»[١] و«بولس»[٢] ويطلقون على هذا الأسلوب من التنصير(منهج الكلاسيكي) وانتهى هذا الأسلوب من زمن بعيد ، ثم أخذ التنصير الفردي يسير جنباً إلى جنب مع التنصير الجماعي ، مع الاعتماد على الأسلوب الكلاسيكي نفسه[٣] .

٢- أصبح الأسلوب المتبع بعد ذلك يعتمد على إكراه الرعايا على اعتناق دين ملوكهم ، وهذا كان سائراً في العصور الوسطى ، واتبعته الإمبراطورية الفارسية (٦١٤هـ) ، والرومانية والبيزنطية (٦٢٧م) ، وبدأت مسيرة التنصير بالقوة ، واستخدمت جميع وسائل الضغط على الشعوب غير النصرانية ، وبذلك ظهر ما يعرف بالغرب النصراني ، وتعتبر الحروب الصليبية أكبر دليل على محاولة تنصير الشعوب بالقوة.

٣- وفي القرن التاسع الهجري والربع الأخير منه ، والقرن الخامس عشر الميلادي ، فتح مجال جديد للتنصير ، حيث كان المكتشفون يصحبون الرهبان حاملين معهم شعار الصليب إلى الأراضي التي تكتشف ، وعندها زاد عدد المنصرين ، وكثر أتباع الكنيسة[٤]. ولما بدأ عصر الاختراعات خاصة في طرق المواصلات التي قصرت المسافات، ووسعت التداخل بين الدول، وأقطار العالم، لذلك حصل تغير جذري في أسلوب التنصير ، ومناهجه ، وتنظيماته ، وفقاً

(١) مارك : القديس في القرن الأول للميلاد وصاحب إنجيل مرقص .

(٢) بوليس : القديس أحد دعائم الكنيسة القدامى في القرن الأول للميلاد ، ٦٧م.

(٣) عكاشة علي إبراهيم: ملامح عن النشاط التنصيري في الوطن العربي ، ص١٢-١٣

(٤) خالدي ، مصطفى ، فروخ عمر: التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص٦٤.

للمتغيرات الجديدة من وسائل الاتصال ، مع العلم أن الطائفة التي كانت تحتل منطقة معينة تباشر فيها عملها التنصيري دون تدخل الطوائف الأخرى ، لذلك لعب أتباع هذه الطوائف دوراً مهماً في مجال نشر المذهب الكاثوليكي في العالم ، وما يزالون حتى اليوم.

٤- وفي مطلع القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) ، زالت فكرة: أن التنصير فقط بيد الرهبان ، والقساوسة التابعين للكنيسة ، حيث بدأت أشكال جديدة تأخذ مكانها ، مما أدى إلى نمو الالتزام الشخصي نحو التنصير بين الأفراد العاديين ، وظهرت فكرة الجمعيات التنصيرية ، لذلك لم يعد التنصير مقتصراً على رجال الكنيسة فقط ، بل ظهرت جمعيات خاصة ومن هذه الجمعيات الكاثوليكية مثلاً ، وممن لها نشاط واسع في العالم الإسلامي والعربي : جمعية الشبان النصارى (١٨٥٥م) ، « آباء مل هل » (١٨٦٦م) ، « آباء فيرونا » (١٨٦٧م) ، جمعية «الآباء البيض» ، أسست ١٨٦٨م. ولهذه الجمعيات أتباع في شمال إفريقيا ، وبلاد الشام[(١)] .

وهنا ظهر تبني الحكومات العمل التنصيري ، وتوظيف أناس مختصين له ، وتمويل البعثات بالمواد الضرورية للتنصير، لإنشاء الكنائس، والمدارس وغيرها، ويعرف هذا النوع من الجمعيات ، والمنظمات «بالجمعيات المساعدة» وقد أورد أستاذ علم اللاهوت (غوستاف ورنك) أسماء إحدى وعشرين جمعية ، تقوم بجمع الأموال ، وقد أكد « ورنك » أن ثلث تمويل البعثات كان من تبرعات اختيارية ، وباقي الثلثين من الحكومات الغربية ، ومساهمة البابا[(٢)] .

---

(١) النملة ، علي إبراهيم: التنصير مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته ، ص٤٢.

(٢) المرجع السابق ، ص٤٥.

«لا بد من وجود أزمات معينة ومشكلات ، وعوامل إعداد وتهيئة تدفع الناس أفراداً ، وجماعات خارج حالة التوازن » هذا ما دعا إليه «ديفيد .ا. فريزر» في بحثه الذي قدمه بعنوان (تطبيق مقياس[١] أنيكل في عملية التنصير) فقوله أفراداً وجماعات ، أي : وحدانا وزرافات ، أي كلهم سواء بطريقة فردية ، أم بطريقة جماعية على أن يكون ذلك الإقبال إقبالاً عاماً ، وليس مطلقاً ، وليس المقصود مطلقاً يعني أفراداً ، لأن التنصير الفردي غير مرغوب فيه ، لأنه بطيء في نظرهم ، ولا يتناسب مع روح التطور العصري ، وكذلك هذه الطريقة تجعل الفرد منبوذاً من قومه ، وأهله ، ولن يستطيع أن يؤثر التأثير المطلوب ، والمرغوب فيه ، لذا هم يركزون على التنصير الجماعي ، ليتلاشوا خطورة التنصير الفردي.

أما قوله «أزمات ومشكلات وعوامل إعداد وتهيئة» ، أي : صعوبات يقع فيها الناس ، فيتلفتون حولهم فلا يجدون إلا اليد النصرانية تضمد جراحهم ، وترد لهفتهم ، وتواسي نكباتهم ، وتهدهد على مشاعرهم ، هنا يصبح الإنسان مديناً لهم ، فيخضع وينقاد ، وقديماً قالوا: « إن الإنسان عبد الإحسان » تأسره الكلمة ، والموقف ، والعون. إذاً هم يريدون تحولات كبيرة إلى النصرانية[٢] .

• **ومن أساليبهم أيضاً:** البحث عن التجمعات المسلمة ، التي يقل فيها الترابط الجماعي ، وبالتالي تقل العقوبة الاجتماعية لمن يردي أن يتمرد على قانون الجماعة ، ويتصرف بحرية فردية ، فهم يفتشون عن أولئك الذي ضعف فيهم

---

(١) مقياس انيكل في عملية التنصير: من الناحية الإيجابية يطلب من كل فرد أن يكون نصرانياً وهذه النظرية تبرز مشكلة النصارى (العددين) أو (الاسميين) ومن الناحية السلبية أن الدعوة للمسيح لا تجد استجابة إلا من الأشخاص الهامشيين أو المنحرفين في المجتمع الإسلامي .

(٢) ديار بكرلي ، عبد الرزاق: تنصير المسلمين ، ص٢٦.

الوازع الديني ، وعن الذين قلت بينهم العفوية الاجتماعية ، والذين أكلهم المرض ، والفقر ، والتشرد ، أو طحنتهم الحروب والانقلابات. هنا يكون موضعهم ، وهنا يظهر دورهم[١] .

● ومن الأساليب القديمة التركيز على الأناس الهامشيين في المجتمع ، الذي يكون لديهم استعدد (للتنصير) ، أو دخول النصرانية ، لأن هؤلاء الناس في حالة عدم توازن ، لعدم اهتمام المجتمع بهم ، وتخليه عنهم ، فهم بالتالي يبحثون عن أسلوب ، يبنون من خلاله ذواتهم مبرهنين فيه عن أهمية وجودهم ، وغالباً ما يكونون منحرفين سلوكياً ، أو ليس لديهم القدرة ليكونوا مؤثرين فيمن حولهم[٢] .

* أساليب التبشير الحديثة:

تختلف الأساليب ، وتعدد فمنها الصريحة ، وأخرى الخفية ، كما أن هناك أساليب تقليدية ، وأخرى حديثة. ومن أبرز الأساليب الحديثة: الأساليب الصريحة ، وتكون على نوعين:

١- التنصير العلمي القائم على النقاش والتشكيك .

٢- التنصير القسري ، ويتمثل في الحروب ، ومحاكم التفتيش ، واختطاف الأطفال. ويمكن خدمة الوسيلة الأولى بإقامة الجمعيات ، والمدارس، والمعاهد ، والجامعات ، والندوات ، والمؤتمرات ، مع تلقي الدعمين المادي ، والمعنوي من

---

(١) المرجع السابق نفسه ، ص٣٠.

(٢) المودودي ، أبو الأعلى: واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم ص١٥٧.

حكومات الدول الغربية ، ومهمتها أن ترعى الحملات التبشيرية ، وتمكن لها. ومن أبرز هذه المؤسسات والجمعيات[١] : جمعية طبع الإنجيل البريطانية ، تأسست عام (١٨٠٤م) وتهتم بالطبع ، والترجمة ، والتوزيع.

٣- جمعية الكنيسة التنصيرية. نشأت عام (١٨٤٤م). وتركز على العليم ، والخدمات العلاجية ويسهم الألمان فيها بجهود كبيرة.

٤- أنشأ الفرنسيون جمعية للمستشرقين عام (١٨٨٧م) ، ألحقوها بأخرى في عام (١٩٢٠م) ، وتم إصدار المجلة الآسيوية .

٥- أنشأ الأمريكيون جمعية باسم: «الجمعية الشرقية الأمريكية» عام (١٨٤٢م). وهذه نماذج فقط من الجمعيات التنصيرية المتعددة ، والمتنوعة الاتجاهات، والتخصصات، وهناك موسوعة كاملة بالإنجليزية ترصد المعلومات عن معظم الجمعيات التنصيرية في العالم وهي : (Encyclopedia of Missions – London)

٦- وهناك مجلة « العالم الإسلامي » ، مجلة فرنسية واسمها أيضاً (Le Monde Musulman).

٧- إنشاء دائرة المعارف الإسلامية[٢] ، حيث صدرت بعدة لغات ، وترجمت للعربية ، وصدر العدد الأول بثلاثة عشر مجلداً[٣] .

---

(١) النملة ، علي إبراهيم : التنصير مفهومه ، وأهدافه ، ووسائله ، وسبل مواجهته ، ص٤١-٤٢.

(٢) طعيمة ، صابر: أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي ، ص٧٤.

(٣) وهذه الدائرة – دائرة المعارف الإسلامية – فيها ما فيها من تشويه للحقائق وتزوير للوقائع ، وكذب ، وتلاعب بالأحداث ، لخلط السم بالدسم ، وفيها أيضاً جهالات وضلالات ، لا سيما

تتعدد الأساليب ، والطرق التي يلجأ إليها المنصرون ، وكل ما يقومون به من أساليب مدروسة ، ومعتمدة من قبل كبار القساوسة ، والمبشرين في مؤتمراتهم المتعاقبة ، ومن هذه الأساليب:

١- استغلال الأزمات التي تحدث بين المسلميـن ، محاولين مدهم بالأموال مقابل تسهيلات معينة ، وإن لم يشترطوا ذلك صراحة[١] ومن هذه الأزمات مثلاً ، دخول أحد لمسلمين السجن على خلفية جنائية ، أو قانونية أخرى فيظهرون العطف على أسرته ، ويمدونها بالمال في غيابه ، ويعتنون بهم. وبهذه الطريقة يستطيعون الوصول إلى كثير من الأسر المحتاجة ، ومد يد العون لهم ، وبعد الإغداق الكثير عليهم بالمال والمتاع ، يحاولن تنصيرهم ، بل توقيعهم على صكوك تحولهم إلى النصرانية .

٢- عملية بناء الكنائس ، في وسط الأحياء المسلمة: يرى من يقوم على بنائها، أنه ومع مرور الزمن يصبح دخول الكنيسة مألوفاً ، وسماع الترانيم ، والصلوات مألوفاً ، وحضور الحفلات وعقود الزواج سهلاً وميسراً ، والهدايا ، والأمانات كل ذلك من قبل رجال الكنيسة مع تظاهرهم بالود ، والمحبة ، والعطف ، مما يجعل الكثير من ضعاف المؤمنين يتحول إلى دينهم ، أو على القليل ينحرف عن دينه.

ما يتعلق بالإلهيات ، والنبوات ، وتحليل الشخصيات المنسوبة إلى الإسلام ،وهي تحتاج إلى مصنف مستقل لبيان الأخطاء الواردة فيها ، وحري بالمسلمين أن يقوما بذلك ، ليكتشفوا الزيغ والدجل وتعلو الحقيقة ساطعة في كبد السماء .

(١) الإندونيسي ، أبو هلال: غارة تبشيرية على إندونيسيا ، ص٤٥.

٣- استغلال المدارس ، والجامعات ، والمستشفيات ، والمصحات في تنصير المسلمين ، مثل كلية « روبرت » في استنبول ، والجامعة الأمريكية في بيروت ، وكلية « غوردن » في الخرطوم(١) .

٤- إغراء المسلمين بمبالغ باهظة الثمن ، مقابل بيعهم الأرض لإقامة الكنائس عليها. يحرص المبشرون على شراء مواقع ممتازة في المدن الكبيرة ، أو بعض الأرياف لإقامة مشاريعهم عليها من كنائس ، والهدف من ذلك هو تنصير المسلمين الذي يعيشون في تلك البلاد ، والمحاولة غرس ، وزرع أن هذه الكنائس قديمة ، وذات أهمية ، ويجب التردد عليها وزيادتها ، وكونها جزاءاً من التراث المسيحي ، مع العلم أنه يتم بناؤها على أحدث الطرق الهندسية ، والديكور المعماري للأديرة ، والكنائيس في القرون الوسطى ، حتى تكون موضع إعجاب من أبناء المسلمين(٢) .

٥- القيام بأعمال إنسانية ، ومساعدات مالية ، وإعانات كبيرة للفقراء ، والمحتاجين ، وتكون دورية، ومساعدة النوادي ، والمدارس ، بهبات معينة تزيد، أو تنقص ، ففي دولة كإندونيسيا ، تم إنفاق أكثر من ٣٠ مليون دولار في أحد الأعوام ، ولا شك أن هذه الأموال تنفق على تنصير المسلمين ، وخاصة الفقراء والمحتاجين منهم(٣) .

٦- طبع الكتب والنشرات ، وتوزيعها بالمجان. هذه الفكرة تستهوي كثيراً

---

(١) الخالدي ، مصطفى ، فروخ ، عمر : التبشير والاستعمار ، ص٩٤.

(٢) الجيهان ، إبراهيم سليمان: معاول الهدم والتدمير في النصرانية والتبشير ، ص٣٢.

(٣) الإندونيسي ، أبو هلال: غارة تبشيرية على إندونيسيا ص٤٨.

ممن يحبون جمع الكتب ، أو يحبون المراسلة ، خاصة أن هذه الكتب تصل مجاناً ، ودون عناء ، مما يدفع الشباب خاصة لقراءة ما بداخلها. وهناك تفسير للإنجيل أيضاً .

٧- المشاركة ، القيام بأعمال خيرية ، كشق طريق ، أو حفر بئر ، أو تشييد مدرسة ، أو بناء جمعية. تجد المبشرين يقومون بالعمل ، ويقدمون قروضاً لشركات الكهرباء ، والإنارة والهاتف والمساعدة في الحفر والأعمال الأخرى[١] .

أما الوسائل غير الصريحة فتأتي ضمن المسلسلات ،والأفلام ، والبرامج الثقافية ، والتعليمية ، التي تطبع دائماً بنمط العبث المغري ، بما فيه من تفاهة ، وممارسات لا دينية ، لا تخلو من الأمثال ، والسلوكيات ، خاصة الصور المتحركة الموجهة للأطفال ، وهذا ما أكده الدكتور « أكوورد » في بحث عن الإرسال الإذاعي ، وأن الإنجليزية ضرورية ، ومهمة ، وكنا نبعث مع كل كتاب يعلم الإنجليزية نسخة من الإنجيل بالعربية والإنجليزية[٢] .

*** ومن هذه الوسائل :**

١- <u>**الوقوف في وجه الدعاة ، والقضاء على نشر الدعوة**</u> : فإن من الأساليب التي لجأت إليها الإرساليات التبشيرية العمل على شراء مراكز الدعوة الإسلامية خاصة التي حوربت من قبل الحكومات ، والاستعمار ، وأصابها الفقر ، وشراء تلك المراكز بأسعار عالية جداً ، ثم تقوم بهدمها ، وإقامة أماكن مسيحية أخرى

(١) البسطامي ، أحمد سعد الدين: التبشير وأثره في البلاد العربية والإسلامية ، ص١٩٦ .

(٢) د. أكورد: الإرسال الإذاعي الحالي الموجه إلى المسلمين ، ص٥٨١ ، ص٦٥٢ .

مكانها مثل ملاجئ دور أيتام مستوصفات[١] ..إلخ.

٢- إقامة مخيمات كشفية ، ودورات تدريبية رياضية وبرامج تلفزيونية وتعليم لغات: لقد شاهدت بنفسي في فلسطين ثلاث نساء ، ورجلين ينظمون دورات رياضية ، ومخيمات كشفية لمدة شهر كامل ، وينامون مع الطلاب ، والطالبات، ويأكلون معهم، ويزورون بيوتهم ، ويقيمون حفلات الغناء معهم ، ثم تقدم الهدايا لهم ، ووعدهم بالزيارات القادمة في الأعوام المقبلة ، ثم تطور الأمر إلى أن أخذوا يستضيفونهم بمدينة الناصرة ، وفيها أكبر عدد من النصارى والمبشرين[٢] .

٣- استغلال العاملين النصارى: في المجتمعات المسلمة على مختلف مستوياتهم العلمية ، وتخصصاتهم من أطباء ، وممرضين ، وخبراء ، وصيادلة ، وعمال ، ومهنيين ، وحرفيين[٣] .

٤- استغلال اليهود مع صعوبة ذلك في مؤازرتهم ومساعدتهم ، وقد ظهر في

---

(١) الخطيب ، محب الدين: الغارة على العالم الإسلامي ، ص٣٤.

(٢) تشكيل الدعاية التلفزيونية مصدراً آخر للقلق عند ذوي الأطفال ، فالأهل يشاهدون انحداراً كبيراً في المستوى الأخلاقي لأطفالهم ، ويكفي أن نلقي نظرة واحدة على مشاهدة الإثارة الجنسية التي تقدمها الشاشة الصغيرة لندرك مدى الخطر اللاأخلاقي الذي يحيط بالأطفال ويداهمهم ، ومن هنا نعرف – أيضاً – لماذا يشكل التلفزيون مصدراً كبيراً لقلق الأهل ومخاوفهم الطفل والتلفزيون (١٦٣-١٦٤) والأطفال والإدمان التلفزيوني (١٦٧).

وهنا يقع الأهل في حيرة من أمرهم ، أيتركون أطفالهم يشاهدون هذه البرامج المرعبة التي لا تنتهي ، أو يتوجب عليهم منعهم من رؤيتها ، ويسببون لهم حزناً كبيراً؟! الأسرة المسلمة في العالم المعاصر ، ليوسف بدوي ، وأحمد جمعة (٣٥٩).

(٣) عكاشة ، إبراهيم: ملامح التنصير في الوطن العربي ، ص٣٢-٣٣.

صفوف المنصرين يهود منصرون ، وعملوا في المنطقة العربية وما «صموئيل زويمر»[١] إلا أحد هؤلاء ، وهو يهودي وأفراد عائلته كذلك ، وهو من أبرز المنصرين في المنطقة ، وقد آزره فريق من المنصرين ، كذلك ، ومنهم أخوة «بيتر»[٢] ، وزوجته «ي. لو زويمر»[٣]. يقول «عبد الله التل» : «وأعجب العجب أن يعلم القارئ بأن «صموئيل زويمر» ، هذا الذي كان يرأس مؤتمرات التبشير ، من «أدنبرة» في أقصى الغرب إلى «لكنهئو» في أقصى الشرق ، والذي قاد معارك التبشير طوال ستين عاماً ، وبينت رسالاته عام (١٩٥٢م) ، قد كشف عن يهوديته الدفينة الراسخة في أعماق نفسه ، وقد طلب حاخاماً يلقنه في ساعاته الأخيرة أثناء احتضاره ، وأن الكنيسة تحتفظ بهذا السر المذهل ، ولا تنشره حتى لا تنكشف حيل اليهود »[٤][٥] .

---

(١) صموئيل زويمر : (١٨٦٧-١٩٥٢م) أمريكي الجنسية كان رئيس المنصرين في الشرق الأوسط (المستشرقون ، العقيقي ٣/ ١٣٨).

(٢) بيتر زويمر: أمريكي ، منصر ، أرسل ضمن جماعة إلى منطقة الخليج العربي ، واستطاع تأسيس بعض المؤسسات النصرانية (الموسوعة العربية الميسرة).

(٣) نويهض ، عجاج: حكماء صهيون ، نصوصها ، رموزها ، أصولها التلمودية ص ٢٩٦-٢٩٧.

(٤) التل ، عبد الله : جذور البلاء ، ص٢٢٨.

(٥) كم مر على الأمة أمثال هؤلاء المتآمرين ، وهي سادرة في غيها ، ومتابعة شهواتها ، وخنوعها أمام المرأة والمال والحاجة. وكلما حدثت واقعة قيل: قضاء وقدر ، أو : لعن الله المستعمر ما أخبثه ، أو المستعمر قوي ويأتي بألف لبوس ولبوس ، ويتناسى فاقدوا الوعي واليقظة: أن عليهم أن يكونوا واعين لما يدور حولهم ، وأن يحذروا اليهود والنصارى ، فإن اجتماعاً لفتح الشيطان في ذلك الاجتماع ، وكانت النتيجة حرباً ضروساً ضد الإسلام. فمتى تفيق الأمة من غفلتها؟! وتأخذ عدتها لتجابه وتقاتل ، وتحمل راية الجهاد بكل أبعاده وزواياه .

٥- للتجار ، ورجال الأعمال نصيب وافر ، وجهد: ولكن بشكل خفي ، وغير بارز ، ونحن نعلم كيف انتشر الإسلام في إفريقيا ، وإندونيسيا ، والفلبين ، عن طريق التجار المسلمين ، فلم يغب هذا عن بال المنصرين ، فلجأوا إلى هذا الأسلوب ، وهذا ما فعله الفرنسيون في لبنان ، وسوريا والمغرب العربي ، يقول أنيس الصايغ في كتاب (لبنان الطائفي) : « كانت فرنسا تعتبر نفسها صاحبة المسيحيين في الشرق ، وخاصة الموارنة في لبنان ، ودعمت فرنسا هذه السياسة المستترة بثوب ديني ، يتعهد العلاقات التجارية ، والإرساليات التبشيرية ، بين لبنان وفرنسا ، فقد ضاعفت فرنسا عنايتها بأمور التجارة ، وأرسلت القناصل ، وأسست المكاتب والمراكز الثابتة ، لتسهيل أمورها[(١)] .

ولا تزال هذه الوسيلة تقوم بدروها ، خاصة وأن الشركات الأجنبية دخلت المنطقة بعد الحرب العالمية الأولى ، وأرست قواعدها هناك ، وشكلت مدناً خاصة بها ، وتحت إدارتها أعداد كبيرة من العمال ، تملي عليهم أنماطها الإدارية .

*** أبرز الوسائل المساندة لتنصير والمنصرين :**

١- الاحتلال والاستعمار ، وهي الأقوى ، فكان من أهم أعمال المنصرين تهيئة البلاد الإسلامية للاستعمار بل يدعون دولهم للاستعمار ، ولما تم ذلك ، ذلل المستعمرون كل العقبات في وجه المنصرين ، واستطاعوا إقامة مؤسساتهم دون عناء أو تعب ، بل بدعم سخي من هذه الدول. ويقول « دوفوكو »[(٢)] في

(١) الصايغ ، أنيس: لبنان الطائفي ، ص١٠٦.

(٢) دوفوكو: مبشر فرنسي له مذكرات كتبها في ١٦/٧/١٩١٦م وعاش هذا الأب بين الطوارق المحاربين لكل تسرب أجنبي.

مذكراته التي كتبها في ١٦/ ٩/ ١٣٣٤هـ ، ١٦/ ٧/ ١٩١٦م : « أعتقد أنه إذا لم يتم تنصير المسلمين في مستعمراتنا بشمال أفريقيا ، فإن حركة وطنية ستقوم بها على غرار ما حدث في تركيا ، وأن نخبة من المثقفين ستتكون في المدن الكبرى متأثرة بالفكر الفرنسي دون أن يكون لها إحساس الفرنسيين ، ولا طبيعتهم ، وأن هذه النخبة ستحتفظ بمظاهر الإسلام رغم ضياع روحه ، لتؤثر بها على الجماهير ، ومن جهة أخرى فإن جمهور الشعب من البدو الرحل ، سيبقى جاهلاً عديم الصلة ، بنا متمسكاً بإسلامه ، حاقداً على الفرنسيين ، محتقراً لهم ، بدافع من وازعه الديني ، وشيوخه ، ومعاملة الفرنسيين من رجال السلف». وقد عاش هذا الراهب بين الطوارق[(١)] المقاومين لكل تسرب أجنبي[(٢)] .

ويقول المنصر الأمريكي «جاك مندلسون» : «لقد تمت محاولات نشطة لاستعمال المبشرين ، لا لمصلحة الكنيسة ، وإنما لخدمة الاستعمار ، والعبودية»[(٣)]. وكما قال نابليون[(٤)] عام (١٨٠٤م) : «وإن في نيتي إنشاء مؤسسة الإرساليات

---

(١) الطوارق : قبائل عربية في شمال إفريقيا ويكثر وجودهم في الجزائر ، وهم نسبة لطارق بن زياد.

(٢) الفاسي ، جلال: التبشير أخطر أسلحة الاستعمار ، ص٦٠-٧٠.

(٣) جاك مندلسون ، الرب والله وجوجو: الأديان في إفريقيا المعاصرة ، ترجمة إبراهيم أسعد محمد ص٢٩.

(٤) نابليون بونابرت: (١٧٦٩-١٨٢١م): ولد في أجاكسيو. من عائلة بونابرت. إمبراطور فرنسا (١٨٠٤-١٨١٥م). اشتهر في حملة إيطاليا الأولى عام (١٧٩٤م) ، والثانية ١٧٩٦م ، قاد حملة على مصر (١٧٩٨-١٧٩٩م) ، فانتصر في معركة الأهرام. جلب من الفاتيكان إلى مصر أول مطبعة عربية (بولاق). قنصل أول (١٧٩٩م) ، ثم قنصل مدى الحياة (١٨٠٠م) ، ربط الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية بالدولة (الكونكورد) عام (١٨٠١م) ، نشر القانون المدني (١٨٠٤م) ، سمي إمبراطوراً سنة (١٨٠٤م) ، اشتهر بانتصاراته في أوسترلتز وينا ، وفريلاند ، وفانمرام.

الأجنبية ، فهؤلاء الرجال المتدينون سيكونون عوناً كبيراً لي في آسيا ، وإفريقيا ، وأمريكا ، سأرسلهم لجمع المعلومات عن الأقطار. إن ملابسهم تحميهم ، وتخفي أية نوايا اقتصادية ، أو سياسية»[(١)] .

٢- المواطنون الغربيون يقدمون مساعدات واضحة للمنصرين ، أفراداً ، أو مؤسسات تجارية ، واقتصادية ، وحملات التبرعات في أيام الآحاد متكررة ، حيث يتردد كثير على الكنائس في هذا اليوم. ويكون الجانب الروحي على قدر من الاستيقاظ ، والعواطف مثارة لتقديم الدعم المادي للمنصرين يسمع الوعظ عبر شاشات التلفاز ، أو الإذاعة المحلية التي تدعمها الكنيسة بأجر معين ، حيث تستأجر الكنيسة ساعات بث معينة من صباح الأحد ،وفي المناسبات الدينية[(٢)] .

٣- تعد حالة الفقر والعوز التي تعاني منها الشعوب الإسلامية من أقوى الوسائل في مساندة المنصرين ، ومضاعفة جهودهم ، خاصة المناطق المنكوبة ، والمحتاجون ، مستعدون لقبول أية إغاثة تصل إليهم، بغض النظر عن مصدرها، وهدفها. ولا مجال هنا للتفكير في قبولها أم لا. وبعد الاستيقاظ يتساءل المسلمون المحرمون ، أين المسلمون منا؟ مما يدفعهم إلى التنكر لدينهم ، وليس دينهم – كما نعلم – هو السبب .

عزل سنة ١٨١٤م ، وانزوى في جزيرة إلبا. عاد إلى باريس بعد شهور قليلة فتحالفت أوروبة ضده فانهزم في معركة وازلو ١٨١٥م ، نفي إلى جزيرة القديسة هيلانة حيث توفي. [المنجد في الأعلام (٧٠٣)].

(١) الموسوعة العربية الميسرة ، مرجع سابق ، ص١٨١٢.

(٢) النملة ، علي إبراهيم: التنصير مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته ، ص٧٥.

٤- إن قلة التعليم والجهل الذي يعيشه كثير من بلاد المسلمين مرتع خصب للمبشرين بما يحملون من أفكار ، والمنصرون هنا لا يطالبون بترك الصلاة ، والصوم ، ولكن بنشر الخرافات بينهم ، والدجل ، والشعوذة ، كل هذا يؤخر الإسلام سنوات عديدة ، يقول «زويمر» : تمادى الاعتقاد بالتمائم وتأثيرها يؤخر أحوال الشعوب الإسلامية ، ويزيدها شقاء .

ويضيف « زويمر » قائلاً : « إن الخطة الفاسدة الخطرة التي تقضي ببث مبادئ المدينة مباشرة ، ثم نشر المسيحية عقيمة لا فائدة ترجى منها ، لأن إدخال الحضارة والمدنية قبل إدخال المسيحية لا تحمد مغبته ، بل تنجم عنه مساوئ كثيرة ، تفوق المساوئ التي كانت قبلاً »[١] .

٥- إن التحريف الذي وقع في الكتاب المقدس ، والذي قد يسميه بعض المنصرين مرونة ، فإنما هو وسيلة من وسائل التنصير ، فمن هنا كان من السهل التنازل عن المبادئ النصرانية ، كي يسهل على المنصر مهمته ، ومن لم يقبل بالنصرانية يتخل عن الإسلام كأقل ما يمكن ، وهناك شعار لهم قدمه القسيس «ثرونثن» في المؤتمر المنعقد بالقاهرة عام (١٩٠٦م) « إن الشعب البسيط يلزمه إنجيل بسيط »[٢] .

٦- ومن الوسائل المساندة لهم: ترحيب الحكام ، ورؤساء القبائل بهم ، وتسهيل مهمتهم. إن هذا التسامح ، وهذه المحبة ، اتصلت بالمسلمين إلى فتح كنائس ، في مجتمعاتهم المسلمة ، وأخذوا يسمعون أصوات أجراس الكنائس كل

---

(١) الخطيب ، محب الدين: الغارة على العالم الإسلامي ، ص٩٢.

(٢) الخطيب ، محب الدين: الغارة على العالم الإسلامي ،ص٢٧.

يوم ، بل عند كل صلاة ، وهذه الأميرة العربية» سالمة بنت السيد سعيد البو سعيدي » في كتابها «مذكرات أميرة عربية» - وكانت مسلمة - وقد تنصرت ، وتزوجت ضابطاً ألمانيا في الثمانينات من القرن الثالث عشر الهجري ، والستينات من القرن التاسع عشر الميلادي ، تقول : « إن التسامح مع المنصرين قد وصل إلى إقامة كنائس في تجمع مسلم خالص (١٠٠٪) كما في زنجبار ، وتقول الأميرة ذلك لما وصلت إليه من الألم والأسى ، وإلى ما وصل إليه أهلها وعشيرتها »(١) .

٧- ومن الوسائل الأخرى بناء الكنائس في أماكن بارزة ، ولو لم تقام فيها الطقوس الدينية ، إلا في الأعياد مثلاً ، وإقامة مقابر نصرانية ، أو أندية نصرانية ، مما تؤثر على عقول الزائرين وخيالاتهم.

٨- ومن وسائلهم أن يقبل المبشّر ، بل يكون مستعداً لقبول أقوال تخالف المسيحية التي يعتنقها ، فلا مانع عنده من تفهم المذاهب الاقتصادية: كالاشتراكية ، والشيوعية ، أو أن يطعن في الرأسمالية ، ثم لا مانع من مصادقة الشيوعيين ، مع أنها عدوه كالنصرانية . ولقد صدر عن لجنة من المبشرين كتاب بعنوان: «التفكير الجديد في أمر الإرساليات عام (١٩٣٢م) ، جاء في : « إن المبشرين يفرضون على أنفسهم أن يكنوا مستعدين لأن يقبلوا بأمور تخالف العقيدة المسيحية يقول : «تشارلس واطسون» في وصفه للمبشرين بالتلون في سبيل تحقيق هدفهم التبشيري : « يجب أن يظلوا برآء كالحمام ،ولكن هذا لا يمنعهم أيضاً من أن يكونوا حكماء كالحيات »(٢) .

---

(١) سالمة بنت السيد سعيد بن سلطان: مذكرات أميرة عربية ، ص٥٠.

(٢) عويس ، عبد الحليم: ثقافة المسلم في وجه التيارات المعاصرة ، ص٩٦.

٩- المستوطنات: يجب التذكير في بداية الأمر أن الأطماع الإمبريالية في أواخر القرن التاسع عشر لا تخص فلسطين فحسب بل كذلك القارتين الإفريقية والأسيوية ، إذ سلكت القوى الأوروبية آنذاك سياسية توسيعية شملت العديد من البلدان ، فكانت الدول الاستعمارية وخصوصاً فرنسا وبريطانيا العظمى بحاجة إلى أسواق لمصنوعاتها المتراكمة ، ومجالات لاستثمار أموالها الفائضة ، ولهذا الهدف علمت القوى الأوروبية على عقد معاهدات مع حكام الدولة العثمانية ، تمنح بذلك امتيازات لجاليتها على المستويين الاقتصادي والقضائي.

وتركت هذه المهمة للمبشرين في تسهيل الطرق ، ومد جسور التقارب بين دولهم ودولة الخلافة ، ولا شك أن فلسطين الإسلامية كانت محط أنظار جميع الإرساليات التبشيرية في العالم ، سواء أكانت هذه الإرساليات أوروبية أم أمريكية ، ومما لا شك فيه أن القرن التاسع عشر الميلادي كان يعد أعظم حقبة تاريخية ، استطاعت الإرساليات التبشيرية ، أن تمارس نشاطها في البلاد العربية بحرية تامة وعلى الأخص الإرساليات الأمريكية، التي بدا نشاطها عام ١٨٤٤م، حيث قام اتحاد الإرساليات الأمريكية ، بإرسال الكثير من أعضائه إلى فلسطين وقاموا بتأسيس جمعيات تبشيرية أمريكية في فلسطين ، وأخذ أعضاؤها ينتشرون في كل البلاد إضافة إلى بقية المبشرين البريطانيين ، والفرنسيين ، والإيطاليين ، والألمان.

*** أولى المستوطنات التي يقيمها المبشرون :**

١- المستشفيات :

يقوم المنصرون ببناء المستشفيات وذلك بغرض تنصير المسلمين، والمستشفيات تقوم بعملين :

العمل الأول : تقدم هذه المستشفيات المساعدات العينية والمالية لمرضاها من المسلمين ليتأثروا بالنصرانية .

والعمل الثاني : حضور بعض المنصرين والتحدث مع مرضى المسلمين عن عيسى – عليه السلام – ، وعمله بالطب ، وحبه مساعدة الآخرين، والنصرانية ، تدعو إلى المحبة والتسامح لجذب مرضى المسلمين إليهم، ومن هذه المستشفيات:

أ-مستشفى راهبات القديس يورميوس في حيفا ،حيث اشتريت الأرض عام (١٨٦٨م) ، وأنشئت إلى جانبه دار للأيتام واستراحة للرهبان[١] .

ب- مستشفى الدياكونيس ، كان أول مستشفى في القدس يستقبل المرضى من الطوائف كافة ، وبلغ عدد المرضى في السنة الأولى (٩٠) مريضاً .

٢- الكنائس :

يحاول المنصرون شراء بعض الأراضي ذات المواقع الممتازة من المدن الكبيرة ، أو في أعظم الأحياء الشعبية التي يقيم فيها المسلمون ، بأثمان باهظة ، تصل إلى أضعاف قيمتها الحقيقية ، ومن ثم يقمون عليها الكنيسة. ويعتبر إنشاء مطرانية القديس البروتستانتية من قبل روسيا وإنجلترا عام ١٨٤١م أحد أهم معالم السياسة الكنسية الأوروبية خلال القرن التاسع عشر في منطقة الشرق الأدنى عموماً ، وفلسطين خصوصاً [٢] .

وكذلك : مستوطنات « جمعية الهيكل الألمانية » بفلسطين ، وشراء أراض في

---

(١) المحافظة على :العلاقات الألمانية الفلسطينية ، ص٨٥.

(٢) سنو ، عبد الرؤوف: المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين ، ص٣٥.

منطقة الرملة – المستوطنة الزراعية « بير سالم » – المستوطنة الحرفية. وكذلك إقامة مستوطنة تبشيرية ألمانية في القدس[١] ، وإقامة مجموعة كبيرة من المنزل في فلسطين مثل :

أ- نزل أوغستا فكتوريا على جبل الزيتون عام (١٩٠٥م) .

ب- النزل الألماني القديم ، والواقع أمام باب يافا بالقدس عام (١٩٠٨م).

ج- نزل القديس بولس شمال باب العمود في القدس[٢] .

وكان للرهبان نشاط واسع اقتصر في بداية الأمر على إنشاء الأديرة والمستوطنات ، وكان الرهبان يتلقون الدعم من حكوماتهم ، ومن الكرسي البابوي.

٣- المؤسسات والمنشآت الخيرية :

أ- ملجأ العجزة في القدس حيث اشتريت قطعة أرض عام (١٩٠٣م) ، وبني عليها منزل بدعم من الجمعية الألمانية للأرض المقدسة عام (١٩٠٥م). وكانت تتبعه مدرسة بنات ، واستمر يستقبل العجزة حتى عام (١٩٣٨م) ، ثم تحول إلى مدرسة داخلية للأطفال المشردين[٣] .

ب- مأوى المجذومين ، وقد بلغ عدد الذين عوجلوا في السنة الأولى (١٢) مريضاً ، وفي عام (١٨٨٤م) ، وجد أن المأوى لا يتسع ، فتم شراء قطعة

---

(١) المرجع نفسه ، ص٦٨.

(٢) المحافظة ، علي : العلاقات الألمانية الفلسطينية ، ص٨٣.

(٣) المحافظة ، علي : العلاقات الألمانية الفلسطينية ، ص٦٧.

أرض خارج أسوار القدس وبني مأوى جديد أطلق عليه اسم «معونة المسيح» عام (١٨٥٥م)[١] .

٤- الأندية والجمعيات الأدبية :

حيث كان لها دور ثقافي ، وسياسي ، واجتماعي نفذ من خلالها المبشرون إلى عقول الشباب بالدس والتحريف ، وذلك بإلقاء المحاضرات والندوات ، والألعاب الرياضية ، ومن هذه الجمعيات:

أ- جمعية القدس الأدبية التي تأسست عام (١٨٤٩م) ، على يد القنصل البريطاني في المدينة المقدسة. وكانت تعني بالأبحاث الأوروبية والعلمية ، والآثار ، والإحصاءات ، والحضارة الاقتصادية ، والاجتماعية في فلسطين ، كما كانت تبحث في الأديان والعادات المحلية بشكل كبير ، غير أن عضويتها اقتصرت على المسيحيين البروتستانت ، وهي من أقدم الجمعيات في فلسطين[٢] .

ب- جمعية سوسنة صهيون : أنشئت في القدس عام (١٨٧٧م) كفرع لجمعية اتحاد الشبان المسيحيين في لندن .

ج- جمعية الغيرة المسيحية لشبان الروم الأرثوذكس[٣] .

ومن أشهر جمعيات عكا الأدبية: جمعية شعبة المعارف ، جمعية مار منصور .

د- جمعية نهضة فتاة الروم الكاثوليك أنشئت قبل الحرب العالمية الأولى

---

(١) المرجع نفسه ص٦٨.

(٢) المحافظة ، علي: الحركات الفكرية في عصر النهضة في فلسطين والأردن ، ص٥٥.

(٣) Tibawi, British Interests in Palestine.p 125 .

وتعطلت أعمالها أثناء الحرب ثم أعيد افتتاحها عام ١٩١٩م ، باسم « جمعية الشبيبة المسيحية » برئاسة أديب جدع وجمعية السيدات المسيحية. ومن أهم النوادي: النادي العربي في القدس الذي أنشئ عام ١٩٢٤م ، النادي الأرثوذكسي في غزة ، ونادي الشبيبة البتلحمية في بيت لحم ، والنادي الأدبي في الناصرة والنادي القومي في يافا[١].

مع أن المنصرين والمستشرقين جميعاً يتفقون مع ذلك كله على الهدف العام ، وهو: ردة المسلم عن دينه إلى شيء آخر ،فهم في تعاملهم يكتفون بزحزحة المسلم عن دينه إلى أي شيء آخر ، كأن يصبح علمانياً ، أو تقدمياً ، أو من دعاة القومية ، أو اشتراكياً ، أو شيوعياً ، كل ذلك أفضل في نظرهم من أن يظل على إسلامه. وبمعنى آخر يريدون مسلماً في الظاهر ، أي: منافقاً ، وهذا أشد خطراً على الإسلام ، والمسلمين من العدو المعلن لعداوته ، والكافر المجاهر لكفره. (وهذه أمثلة مجموعة من المنصرين وهم يحملون هذا الهدف):

١ - صمويل زويمر «SAMUEL ZWEMER» .

عرف القسيس الأمريكي «صوميل زويمر» منصراً أكثر مما عرف مستشرقاً ، ولكنه في الحقيقة يجمع بينهما في نشاطاته العلمية والأكاديمية .

إنجازاته :

أ- أسس مجلة العالم الإسلامي ، وهي أخطر مجلة تنصيرية عالمية يكتب بها المنصرون عن الإسلام ، وقد رأس تحريرها ستاً وثلاثين عاماً[٢] .

---

(١) ياغي / عبد الرحمن: حياة الأدب الفلسطيني الحديث ، ص٩٥-٩٧.

(٢) عكاشة ، إبراهيم: ملامح عن النشاط التنصيري في الوطن العربي ، ص٣٢.

ب- مؤسس للإرسالية العربية الأمريكية (١٨٨٩م) ، في منطقة الخليج العربي ، وقد أنشأت عدداً من المدارس ، والمستشفيات ، والكنائس .

ج- تنظيم المؤتمرات التنصيرية ، ففي عام (١٩٠٦م) قام بتنظيم مؤتمر في منزل أحمد عرابي في القاهرة ، وصف بأنه يمثل عهداً جديد لإرساليات التنصير بين المسلمين ، وكان هذا المؤتمر مقدمة لمؤتمرات أخرى .

د- له مؤلفات منها: الإسلام ، تفكك الإسلام ، ودراسات في الإسلام الشعبي .

وقد أعلن « زويمر » تحالف المنصرين مع اليهود في العمل بالمنطقة ، فقال: « إن المنصرين الامريكيين الذين توجهوا إلى الجزيرة العربية يعتبرون أنفسهم أبناء إسرائيل ، وحلفاء اليهود » [(١)] .

٢- كنث كراج :

منصر ومستشرق معاً أمريكي ، ويرأس تحرير مجلة العالم الإسلامي حالياً ، ويعد من أخطر المنصرين وأشهرهم عداوة للإسلام والمسلمين ، وقد خلف منصراً أشد منه خطورة هو : «صمويل زويمر» في توجيه المخططات ، والنشاطات التنصرية ضد الإسلام والمسلمين ، وخاصة في منطقة الشرق الأوسط.

وقد اشترك في البرامج الدراسية الإسلامية التي يقوم بها المجلس المسيحي للشرق الأدنى في القدس بالتعاون مع اليهود[(٢)] .

---

(١) التميمي ، عبد الملك خلف : التبشير في منطقة الخليج العربي ، ص٤٨-٤٩ .

(٢) الخالدي ، مصطفى ، فروخ عمر: التبشير والاستعمار ، ص٩٩.

وله مؤلفات عديدة تطعن في الإسلام ، والقرآن من أشهرها: نداء المئذنة والقبة والصخرة ، ومن أحدثها : عيسى والمسلمون .

٣- سنوز هورجرونيه « CHRISTAN SNOUCK HURGRINJE »

هولندي منصر ومستشرق ، اشترك في عمليات الجاسوسية ، والتنصير ، والاستعمار العسكري ، والثقافي ، ولد (١٨٥٧م) ، لأب قسيس ، ودرس اللاهوت المسيحي في كلية أنشئت خصيصاً لإعداد القساوسة ، وكانت رسالته في التخرج عن « الحج إلى مكة » (١٨٨٠م). تظاهر كذباً بالإسلام ، وسافر إلى مكة ، وبقي فيها ستة أشهر ، منتحلاً اسم عبد الغفار ، وكان بارعاً في تمثيل دور المسلم ، كان وثيق الصلة بعلماء المسلمين في مكة ، وإندونيسيا[١].

- ساعد في إعداد المنصرين الهولنديين ، وفي فتح مدارس للتنصير في إندونيسيا .

- من أكبر مخططي سياسة الترابط الثقافي بين هولندا ، وإندونيسيا .

- ومن الحقائق الثابتة ، أن هندريل ، وكريمر المنصر المشهور ،وصاحب النقد في دوائر التنصير العالمي ، هو تلميذ هرجرونيه ، ولم تنقطع المراسلة بينهما منذ (١٩٢١-١٩٣٥م) ، وتوفي (١٩٣٦م) .

٤- فنسك:

مستشرق ، ومبشر هولندي ، عمل أستاذاً للغة العربية بجامعة لندن ، توفي (١٩٣٩م) ينسب إليه أنه صاحب المبادرة لوضع المعجم المفهرس لألفاظ

---

(١) عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين ، ص٢٤٥.

الحديث النبوي ، ويرجع تاريخ الفكرة إلى (١٩١٦م). يقع المصنف في ثمانية أجزاء ظهر الجزء الأول (١٩٣٦م) ، والأخرى بعد وفاته[١] .

لا شك أن فكرة فنسنك لم تكن لخدمة المسلمين والعلم ، بقدر ما كانت وسيلة قريبة لهم للنيل من القرآن والسنة بسرعة .

*** أقسام عمل المبشرين :**

١- عملهم التبشيري بين الجماعات ، وهذا يتم بالمستشفيات ، والمدارس ، والجامعات ، والندوات العامة .

٢- عملهم التبشيري مع الفرد الواحد ، وهذا يتم عن طريق الترحيب بالضيف ، وإكرامه ، وخدمته مع إظهار الود ، والصداقة له ، والعمل على زيارته ، وتحقيق رغباته ، حتى يصبح آلة مسخرة في أيديهم .

٣- العمل التبشيري الصامت: ويكون بتوزيع الكتب ، والنشرات ، وبعض الصور[٢] .

*** مهمة الإرساليات التبشيرية :**

١- الإرساليات وسيلة لهدم مفهوم العقيدة :

تعد ظاهرة الإرساليات التبشيرية من أخطر الظواهر الاجتماعية ،وقد عرف «زويمر» هدف هذا العمل الخطير ، بأنه : ليس إدخال المسلمين في المسيحية ،

(١) غراب ، أحمد عبد الحميد: رؤية إسلامية للاستشراق ، ص٩١-٩٢.

(٢) البسطامي ، أحمد سعد الدين : التبشير وأثره في البلاد العربية والإسلامية ، ص٢٢٣.

وإنما هو إخراجهم من الإسلام حين قال : « ليس غرض التبشير المسيحي إلا إخراج المسلمين من دينهم ، ولقد برهن التاريخ على أن المسلم لا يمكن أن يكون مسيحياً مطلقاً ، ولكن الغاية هي إخراج المسلمين من الإسلام فقط ، ليكون ملحداً ، أو مضطرباً في دينه ، وعندها لا يكون مسلماً ، أي لا تكون له عقيدة يدين لها ، وهذه هي أسمى مراتب الانتقام من الإسلام ، وأعظم الغايات الاستعمارية »[١] .

٢- محاولة التشكيك في تاريخ الإسلام وسيرة الرسول ﷺ ، واستغلال الآيات التي مجد القرآن فيها المسيح والسيدة مريم للتبشير بالمسيحية ، ومحاولة إقناع المسلمين بفكرة التجسد ، أو الادعاء بأن الفكر الإسلامي مستمد من الفلسفة اليونانية ، فيفقد أبناء المسلمين صلتهم بالقرآن[٢] .

٣- إغراء الشباب المسلم بالبعثات للخارج ، هي التي تستهدف تغيير شخصية الشباب بعد صهره في معاهد خاصة ، ثم حصار رجال البعثات بعد عودتهم ، ليكنوا خادمين للثقافات الأجنبية ، بعد بث الشكوك حول العقيدة الإسلامية ، حتى يبتعدوا عن دينهم[٣] .

ذكرت مجلة دعوة الحق التي تصدرها وزارة الأوقاف بدولة الإمارات العربية المتحدة في عددها الأخير ، قالت: « نشرت دائرة معارف الكنيسة (إنسكلوبيديا) الأرقام التالية :

---

(١) الجندي ، أنور: التبشير الغربي ، ص٨.

(٢) مرسي ، محمد عبد العليم: التغريب في التعليم في العالم الإسلامي ، ص٦٣.

(٣) صبرة ، عفاف: المستشرقون ومشكلات الحضارة ، ص٣٩.

الكنيسة الكاثوليكية (٢٥٠.٠٠٠) ألف متفرغ في الألم (مبشرين)، ومجموع العاملين لخدمة الكنيسة (١.٦٠٠.٠٠٠) نسمة، وما بين عامي (١٩٢٥-١٩٥٢م)، حول المبشرون (١٣.٠٠٠.٠٠٠) مليون شخص إلى الكاثوليكية بمعدل نصف مليون سنوياً، والكنيسة البروتستانتية (٤٣.٠٠٠) ألف متفرغ، يديرون (١٦٠٠) مركز ومستشفى في العالم، وعدد الذين تحولوا إلى البروتستانتية من (١٩٢٥-١٩٥٢م)، (٣٠.٠٠٠.٠٠٠) مليون شخص، والغريب أن هذه النشاطات الباهرة، والمتواصلة تقف صحافتنا الوطنية زاهدة في نشر هذه الأخبار، وهذا كله تحت عنوان: «حرب التبشير»[١].

* * *

(١) التبشير والاستعمار وآلام أخرى، العربي الإسلامي، السنة العاشرة، العدد ١١٥، رجب، ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م، ط١.

الفصل الثاني

مجـــالات التبشـير

المبحث الأول : المجال الديني .

المبحث الثاني : المجال الاجتماعي .

المبحث الثالث : المجال التربوي .

المبحث الرابع : المجال التجاري .

المبحث الخامس : المجال السياحي .

* * *

المبحث الأول
المجال الديـنـي

يجتهد النصارى في بناء الكنائس بكثرة ، ولو في أماكن لا يوجد بها نصارى ، مع الاهتمام بمظهر الكنيسة ، ليلفت النظر ويثير الانتباه ، ثم يعودون إلى جلب من يعمل بها ليكون نواة للمجتمع المسيحي ، وهكذا توجد الكنيسة قبل وجود النصارى ، ثم يتواجدون حولها(١) .

مع العلم أنهم يهيئون – إلى جانب الكنيسة – خدمات أخرى طبية ، وخيرية ، واجتماعية ، ودوراً للمسنين ، حتى يرضى الناس عنهم ، وعن هذه المؤسسة التي تقدم هذه الخدمات العظيمة مجاناً أحياناً ، أو بسعر مخفض جداً أحياناً أخرى ، وعن طريق الكنائس توزع النشرات والكتب المسيحية والأناجيل المترجمة مجاناً ، كهدايا لغير النصارى .

إن موقف أهل الكتاب من ديننا واضح أخبرنا عنه الحق تبارك وتعالى : ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ(٢) ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران : ٦٩-٧١] .

وقال تعالى : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا

(١) عبد الوهاب ، أحمد : التبشير بين الماضي والمستقبل ، ص١٦٦ .

(٢) تلبسون : تخلطون أو تسترون .

تَعۡمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلۡ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجًا(١) وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَـٰنِكُمۡ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [آل عمران : ٩٨-١٠٠] .

نرى بكل وضوح أن أهل الكتاب كانوا يعملون جاهدين لتضليل المسلمين في دينهم بهدف ردهم عنه ، وكانوا يسلكون في هذا التضليل سبلاً كثيرة ، ويتخذون إليه وسائل متنوعة منها التحريف ، والتلبيس ، الكتمان ، التشكيك ، ادعاء التفوق على المسلمين .

١- مجالهم في التحريف : أي: محاولة تأويل معاني القرآن بعد فهمها تأويلاً فاسداً ، لا يستقيم مع المراد من كلمات الله كما في قوله تعالى : ﴿۞أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٌ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٧٥] .

يقول قتادة : هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ووعوه(٢) .

٢- التلبيس : أي : مزج الحق بالباطل ، لتعمية الحق ، وتشويهه .

٣- الكتمان : أي: إخفاء الحق جملة ، قال تعالى : ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَـٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧١] .

---

(١) تبغونها عوجاً: تطلبونها معوجة ، أو ذات اعوجاج .

(٢) ابن كثير ، مختصر التفسير ، تحقيق محمد علي الصابوني ، دار القرآن ، ص٣٤٧.

وقولـه تعالى : ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ دليل على أنهم يعملون ذلك عن قصد ، وعمد ، وإصرار ، وقد تكرر هذا التعبير في هذا السياق في عدة آيات .

٤- التشكيك : أي تشكيك ، وإثارة الشبهات حول القرآن ، وحول الرسول ﷺ فكان من وسائل تشكيكهم القول بتناقض القرآن ، حيث يزعمون أن رسول الله يأمر أصحابه بأمر ، ثم يتراجع عنه بعد ذلك ، وأن كلامه يناقض بعضه بعضاً، ولكن لا يعلمون الحكمة من التغيير ، ولا يفقهون قوله سبحانه : ﴿۞ مَا نَنسَخْ[(١)] مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة : ١٠٦] .

٥- التظاهر باعتناق الإسلام ، ثم الخروج منه. وهذا من وسائل التشكيك ، لإيهام المسلمين أنهم اكتشفوا في القرآن نقصاً ، أو عيباً ، وهذا ما يلجأ إليه بعض المبشرين بإظهار حبهم للدين ، وأن لا فرق بين الإسلام ، والنصرانية ، ثم بعد ذلك ينقلبون عن الإسلام قاصدين زعزعة الدين في قلوب المسلمين[(٢)] .

يقول الشهيد سيد قطب[(٣)] : « وهكذا نرى أعداء الجماعة المسلمة لم يكونوا

---

(١) ﴿ما ننسخ من آية﴾ : ما نزل ونرفع من حكم آية ، ﴿ننسها﴾ : نمحها .

(٢) غراب ، أحمد ، رؤية إسلامية للاستشراق ، ص٢٠.

(٣) سيد قطب : مفكر إسلامي مصري . تخرج من كلية دار العلوم بالقاهرة سنة ١٩٣٤م ، وعمل في جريدة الأهرام. وكتب في مجلتي « الرسالة » و « الثقافة » ، عين مدرساً للعربية ، فموظفاً في ديوان وزارة المعارف ، ثم مراقباً فنياً للوزارة ، وأوفد لدراسة « برامج التعليم في أمريكا » ولما عاد انتقد البرامج المصرية ، وكان يراها من وضع الإنجليز ، وطالب ببرامج تتمشى مع الفكرة الإسلامية ، وبنى على هذا استقالته في العالم الثاني للثورة. وانضم إلى الإخوان المسلمين ، فترأس قسم الدعوة ، وتولى تحرير جريدتهم ، وسجن معهم ، فعكف على تأليف الكتب ونشرها وهو في سجنه ، إلى أن صدر الأمر بإعدامه ، فأعدم سنة (١٩٦٦م) من

يحاربونها في الميدان بالسيف والرمح ، فحسب ، ولم يكونوا يؤلبون عليها الأعداء ليحاربوها بالسيف ، والرمح فحسب ، وإنما كانوا يحاربونها أولاً في عقيدتها... بالدس والتشكيك ونشر الشبهات ، وتدبير المؤامرات»[١] .

إن المعركة بين المسلمين وبين عدوهم قبل كل شيء هي معركة العقيدة ، وعمل المبشرين ليس جديداً ، بل هو امتداد ، لظاهرة قديمة ترجع في بدايتها التاريخية الحقيقية إلى بداية الإسلام نفسه ، وإن لم تكن تسمى بهذا الاسم حين ذاك. وهذه الصورة المشوهة عن الإسلام هي بداية التبشير ، فقد قام المنصرون الأوائل الذين تعاونوا جميعاً بطرق مباشرة ، وغير مباشرة على تشويه الإسلام تشويهاً متعمدً ، فقد اقترح المنصر « رموندلول » الذي كان يحث المبشرين على تعلم اللغة العربية كأفضل وسيلة لتحليل المسلمين إلى المسيحية، وقبل اقتراحه من المجلس الكنسي على نحو الفكرة التنصيرية في الغرب المسيحي ، وبخاصة بعد إخفاق الحروب الصليبية في تحقيق أهم أهدافها، وهو ردة المسلمين عن إسلامهم، أو إبادتهم جميعاً ، واستمرت الروح التنصيرية المعادية للإسلام في الغرب في النمو والتطور[٢] .

٦- وهناك هدف لم يتناسوه في دراستهم العلمية أبداً ، وهو تشويه سمعة

مؤلفاته : « في ظلال القرآن» و «معالم في الطريق» و«النقد الأدبي» ولما كانت النكسة عام ١٩٦٧م ، قال علال الفاسي : «ما كان الله لينصر حرباً يقودها قاتل سيد قطب» الأعلام (٣/ ١٤٧-١٤٨) .

(١) قطب ، سيد : في ظلال القرآن ن جـ١ ، ص٣٤٨ .

(٢) R.W.Southerm : Western Views of Islam in the Middle Ages, Harvard university 1962. p.72.

الإسلام ، والتشكيك في التراث الإسلامي ، والحضارة الإسلامية. كما شنوا هجوماً عنيفاً على الدين الإسلامي زاعمين أنه لا يستحق الانتشار ، وأن المسلمين قوم همج لصوص ، سفاكو دماء ، وأن دينهم يحثهم على الملذات الجسدية ، فكان هذا هو المدافع الديني لدى الرهبان ، والمبشرين الذي يهمهم أن يطعنوا في الدين ويحرفوا حقائقه[١] .

فقد تبين لرجال الدين المسيحي ، أن لا سبيل إلى مقاومة الإسلام بالقوة الحربية ، وإنما تكون مقاومته الفعالة ، بالحجة العقلية ، والتي تقتضي معرفة آراء الخصم ، ومن هنا كان لا بد من ترجمة القرآن بهدف إقناع المسيحيين في أوروبا ، أن الإسلام لا شيء ، وكل ذلك للحيلولة دون انتشار الإسلام بين مسيحي أوروبا ، وأخذوا بإظهار الضعف ، كما يزعمون في القرآن ، وقد ألفت كتب كثيرة عن الإسلام ، وكذلك ترجمات القرآن التي عرفت باسم ، «دير كلوني» Cluniac Corpus[٢] .

ثم ظهرت ترجمات أخرى كثيرة بعد ذلك ، وكل هذه الترجمات تدعي أن محمداً ﷺ هو مؤلف القرآن ، وهذا إفك : ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠﴾ [العنكبوت : ٥٠].

وصرح «جورج سيل»[٣] أن هدفه من ترجمة القرآن هو تسليح النصارى

---

(١) الخطيب ، عمر: لمحات في الثقافة الإسلامية ص١٩١.

(٢) Montgomery watt : The Influence of Islam and Medieval (Edinbugh up 1472 . 74–57 .

(٣) سيل (جورج) (١٦٧٩-١٧٣٦م) مستشرق بريطاني درس العربية وأجاد فيها ، واتهم بالإسلاميات ، له ترجمة بالإنجليزية للقرآن مشهورة لدى النصارى ، ونشر مؤلفات كثيرة عن

البروتستانت في حربهم التنصيرية ضد الإسلام والمسلمين ، لأنهم وحدهم قادرون على مهاجمة القرآن بنجاح ، وإني أثق بأن العناية الإلهية قد ادخرت لهم مجد إسقاطه. وظهرت هذه الترجمة عام ١٨٩٦م ، وقد أشرف عليها ، وحققها منصر آخر ، اسمه «هويري» ، والذي أوضح أن هدفه من ترجمة القرآن هو هدف تنصيري ، وذلك ليكون بأيدي المنصرين أمثاله الذي يعملون بين المحمديين ، أي المسلمين، ومع ذلك تهجم هذا المنصر الحاقد على القرآن ، وطعن في الرسول ﷺ(١) .

هذه بعض الشواهد على آراء المبشرين والمستشرقين في الإسلام ، والقرآن والرسول ﷺ(٢) .

١ - « جوستاف فيل »(٣) في كتابه (محمد النبي) عام (١٨٤٣)م ، «يزعم أن ما كان ينتاب النبي ﷺ من الوحي وصوت الجرس الذي كان يسمعه ما هو إلا نوبات صرع ، واضطرابات عصبية » .

٢- اليوس سبرنجر في كتابه عن (حياة محمد ﷺ وتعاليمه) وقد صدر عام

---

(١) E.M. Wherry (Edr) : Acomprehensive Commentary on the Quran , Comptisiny Sales Translation And Preliminary Dicoure 1896 Reprint AMS Press New York . 1975–p.p. 7.8.

(٢) ريتشار بل ومنتجمري وات: المدخل إلى القرآن ، ص١٧-١٨.

(٣) جوستاف فيل: مستشرق ألماني ، يهودي الديانة ، ولد سنة (١٨٠٨م) ، تعلم العبرية والفرنسية. كان جده الحاخام الأكبر للمجمع الإسرائيلي ، فأدخله جده مدرسة تلمودية ، أمضى في مصر قرابة أربعة أعوام قام في أثنائها بالتدريس والترجمة. عين في عام (١٨٤٥م) ، أستاذاً مساعداً للغات الشرقية في جامعة هيدلبرج ، وفي (١٨٦١م) ، عين أستاذا كرسي للغات الشرقية. توفي سنة (١٨٨٩م) ، من مؤلفات: « النبي محمد حياته ومذهبه». وله ترجمة لـ: «ألف ليلة وليلة» و«أطواق الذهب» موسوعة المستشرقين ، لبدوي(٢٧١).

(١٨٦١م) ، «يزعم أن الرسول ﷺ كان مصاباً بالصرع والهستريا معاً».

٣- صموئيل مرجليوث[١] في كتابه محمد وظهور الإسلام صدر عام (١٩٠٥م) ، «يزعم أن الرسول ﷺ بادعائه الوحي ، قد ضلل الناس عمداً».

والعجب أن هذه الكتب وما شابهها كثير ، يعده المستشرقون وعملاؤهم مراجع يوثق بها ، ولا يستغني عنها[٢] .

٤- يقول « جون تاكلي » : يجب أن نستخدم كتابهم أي القرآن الكريم ، وهو أمضى سلاح في الإسلام ، ضد الإسلام نفسه ، لنقضي عليه تماماً ، يجب أن نري هؤلاء الناس ، أن الصحيح في القرآن ليس جديداً ، وأن الجديد فيه ليس صحيحاً[٣] .

* هجوم المبشرين والمستشرقين على الإسلام والقرآن والنبي ﷺ :

تعددت الافتراءات وتعدد المفترون على الإسلام في أزمنة مختلفة. ومن ذلك أقوال «فنسنك»[٤] وافتراءاته ، حيث يزعم أن التوحيد ، والإيمان بالبعث واليوم الآخر ، كاد يكون جوهر الوعظ لدى محمد ﷺ في بداية دعوته في مكة ، عندما

---

(١) مرجليوث ، دافيد صموئيل : مستشرق إنجليزي ، عني بالدراسات العربية والسامية. وهو مراسل للمجمع العربي في دمشق سنة (١٩٢٠م) ، من مؤلفاته وأبحاثه المغرضة: «محمد ونشأة الإسلام» ، «تطور الإسلام في بدايته» «العلاقات بين العرب واليهود» توفي سنة (١٨٥٨م) ، موسوعة المستشرقين ، لبدوي (٣٧٩).

(٢) ريتشارد بل ومنتجمري: مدخل إلى القرآن ص١٧ .

(٣) الخالدي ، مصطفى ، فروخ عمر: التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص١٤ .

(٤) فنسنك: مبشر ومستشرق هولندي ، توفي ١٩٣٩م.

كان عليه أن يواجه شكوك المكيين ، الذي لم يؤمنوا بالبعث واليوم الآخر .

ويزعم كذلك : أن ما كان يأتي به محمد ﷺ من قصص هي من التوارة والإنجيل ، لينذر قومه بما حدث لمكذبي الرسل قبله ، وليثبت أتباعه القليلين من حوله ، وفي المدينة قوي مركزه وزاد أتباعه ، وتخلص من اليهود ؛ لأنهم رفضوا الإيمان برسالته ، وأصبح في المدينة رئيس دولة ، ولم يعد بحاجة إلى قصص الأنبياء، التي كان يرددها في ثقة ، وتحول اهتمامه إلى الغزوات ، والغنائم ، وتحديد علاقاته من القبائل الوثنية ، وفرض الإسلام على الناس بحد السيف ، تلك هي دولته ، وامتد سلطانه خارج الجزيرة بحد السيف[1] .

هذا هو التضليل عن الإسلام ، ورسالته !! فأين المسلمون الذي يقع على كواهلهم بيان الحقيقة للمجتمع الأوروبي ، الذي تسممت أفكاره بما قال ، وكتب « فنسنك » الهولندي وغيره؟.

وهذا منصر آخر اسمه « هرجرونيه » ، يزعم أن كل ما كان محمد يتهم به ، ويوجه عنايته إليه في الدين ، ليس هو صياغة العقيدة ، بل ممارسة السلطة ، وذلك عن طريق الحكومة الدينية THEOCRACY التي أقامها هناك ، وهكذا تحولت شخصية محمد من واعظ تقي في مكة إلى شخصية سياسية ، وحاكم في المدينة ، ليس لديه رغبة في التفكير في العقيدة الإسلامية ، وصياغتها صياغة واضحة .

وقد أضاف هذا المنصر أن محمد ﷺ ركز كل اهتماماته في ممارسة السلطة ، ولم يتجه إلى صياغة العقيدة ، وبكذبه ، وزعمه الباطل أن محمداً ﷺ لم يهتم بصياغة

---

(١) The Muslim Greed . C.U.P 2ND ED.1965,ő WENSINKC,

عقيدة واضحة ، فلا بد من أن يخلو القرآن من العقيدة الواضحة[1] .

لا يريد هذا المستشرق أعني « هرجرونية » أن يفهم أو يقر بأن محمداً رسول الله ، وأنه لا يصوغ شيئاً من عنده ، وإنما يتلقى وحي ربه ، شأنه في ذلك شأن جميع الرسل قال تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥] .

ولما سئل : أين العقيدة الصحيحة ؟ ومن أين نأخذها ؟

قال : من الحديث ، لأنها ليست في القرآن ، وإنما في الحديث وحسب. وفي موقع آخر تهجم على الحديث وعده من أقوال الصحابة ، والتابعين ، وطبقاً لهذه الافتراءات يصبح الإسلام من وضع البشر ، وليس ديناً أنزله الله على خاتم الأنبياء والمرسلين ، فهل من عاقل منصف يقر مثل هذه المزاعم الواردة في الدراسة ، والتي يعتبرونها موضوعية حسب زعمهم؟!.

وفي الهجوم على الحديث النبوي يصرح قائلاً : « إن كتب الحديث ، وهي مصدرنا الرئيس لجمع المعلومات عن التطور المبكر لعلم العقيدة الإسلامية ، وقد حفظت لنا سلسلة من أقوال محمد ﷺ ، الذي يجب أن تعد حصيلة لجهد علمي في العقيدة قام به جيل من الصحابة »[2] .

أي إن هذه الأقوال ليست من محمد ﷺ ، بل من أصحابه ، ونرد قائلين: «إن العقيدة الإسلامية بكل جوانبها ، وأركانها وأدلتها قد تكرر ذكرها في القرآن

---

(١) IBID : OP. CIT P.17.

(٢) فنسنك ، العقيدة الإسلامية ، نشر مطبعة كامبردج ، ١٩٦٥ ص١٩ .

الكريم بصورة لا مثيل لها في الوضوح ، والبيان ، ولا تكاد تخلو سورة في القرآن مكية أو مدنية ، من ترسيخ العقيدة وتثبيتها وبيان أنها الأساس المتين الذي يقوم عليه الدين وتصح معه الأعمال ومن دونها يحبط الله كل الأعمال وإن تعاظمت » قال تعالى : ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة : ١٦٣]. ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة : ٢٥٥]. ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ﴾ [الحشر : ٢٢-٢٣] . ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة : ٢٨٥].

* هجوم على عالمية الإسلام :

والهجوم من قبل « فنسنك » وصاحبة « هرجرونية » ورد في كتاب هاملتون جب (المحمدية) حيث يزعم «فنسنك» أن عالمية رسالة محمد ﷺ لم ترد في القرآن، بل في الحديث ، حيث وضعها أصحابه – رضوان الله عليهم – ونسبوها كذباً إلى الرسول ، حيث يزعم أن القرآن ليس فيه ما يدل على عالمية الإسلام ، وأن محمداً أرسل للناس كافة ، ويستدل فنسنك على قوله بما يلي :

١- إن محمداً في القرآن رسول كغيره من الرسل ، ومن ثم يكون مبعوثاً لقومه خاصة.

٢- إن معنى النبي الأُمِّي ، أي منتسب إلى أمة من غير اليهود ، أي : العرب ، فليس معنى النبي الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب ، بل النبي العربي.

٣- يشير إلى الآيات التي فيها وصف القرآن ، بأنه نزل «قرآناً عربياً» حكماً

عربياً، لساناً عربياً، ومعناه : أن القرآن موجه إلى العرب فقط[١].

وعليه يعد هذا المنصّر أن محمداً ﷺ ليس للناس كافة، ومن المستحيل أن يكون محمد قد عد نفسه رسولاً إلى الناس كافة، ونحن نرد عليه قائلين : « إن عالمية الإسلام لم يشر إليها بعد وفاة الرسول ﷺ، بل أشار هو إليها عليه الصلاة والسلام قبل وفاته، ويكفي الإشارة إلى الآيات التالية : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] . وقوله : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ : ٢٨]. وقوله : ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨].

وهذا هجوم آخر من قبل « ديلاند » (ت ١٧١٨م) هولندي، اسم كتاب «الديانة المحمدية» يصرح بالهدف الحقيقي من تأليف كتابه فيقول : «صحيح أن الدين الإسلامي دين سيئ، وضار بالمسيحية إلى حد بعيد، ولكن ليس من حق المرء لهذا السبب أن يبخسه. ألا ينبغي للمرء أن يكشف أعمال الشيطان وحيله؟ إن الأحرى هو أن يسعى المرء للتعرف على الإسلام في حقيقته، لكي يحاربه بطريقة أكثر أماناً، وأشد قوة »[٢] .

ونلاحظ هنا كيف أن هذا المدعي الكاذب يزعم أن الإسلام من أعمال الشيطان. وحيله، وكيف أنه يحارب الإسلام بطريقة أكثر فعالية، وأكثر حقداً وكراهية، وبعد كل ذلك نقول، إنهم منصفون، وموضوعيون في أبحاثهم. وهذه موضوعية لا تحتاج إلى تعليق .

---

(١) فنسنك: العقيدة الإسلامية، ص٥-٨.

(٢) زروق: محمود حمدي: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص٣٣-٣٤ .

* وهذا مبشر ومستشرق آخر اسمه « دي ساي » (ت : ١٨٣٨م) ، فرنسي ، وكان من مهامه أن يترجم نشرات الجيش الفرنسي للمسلمين ، وهو الذي قام بترجمة الإعلان الفرنسي إلى الجزائريين باحتلال فرنسا للجزائر (١٨٣٠م) ، وجمع كثيراً من المخطوطات العربية ، والإسلامية ، وضمها إلى باريس ، وهو مستشار بوزارة الخارجية الفرنسية ، له أقوال جد خطيرة ، يقول : « إن الشعر العربي شعر مقدس » ونشاطاته وثيقة بين الاستعمار ، والاستشراق ، والتنصير ».

وقد اتصل به «رفاعة الطهطاوي[1] الذي ذهب ليصبح إماماً للمصلين بالطلبة المبتعثين إلى باريس ليعود وهو إمام أئمة التغريب ، وهو الذي طالب ، ودعا إلى

---

(١) رفاعة الطهطاوي: مصري ، من أركان النهضة المصرية العلمية في العصر الحديث. درس الفرنسية والجغرافية والتاريخ. أنشأ جريدة « الوقائع المصرية » ترجم عن الفرنسية : « قلائد المفاخر » و « المعادن النافعة » وغير ذلك ، وهو مؤسس مدرسة الألسن وناظرها . توفي بالقاهرة سنة ١٨٧٣م ، الأعلام (٣/ ٢٩) والخطط التوفيقية (١٣/ ٣٥). كتب رفاعة الطهطاوي آراء مستوحاة من الفكر ، والمجتمع الأوروبي وسواء كتب ذلك عن سوء قصد أو حسن توجه ، فإنه وضع البذور لتحرير المرأة ، من خلال الدعوة والجرأة في مواقف وقضايا نسوية ، كتعدد الزوجات وتحديد الطلاق ، واختلاط الجنسين ، ومما قاله : « إن وقوع اللخبطة بالنسبة لعدة النساء لا تأتي من كشفهن أو سترهن، بل منشأ ذلك: التربية الجيدة أو الخسيسة». وكتب الطهطاوي كتابين حشر فيهما آراءه التحررية ، وهما : « مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية » و « المرشد الأمين للبنات والبنين » . وهو ينفي أن يكون الاختلاط والتبرج داعياً إلى الفساد أو الغواية، ودافع عن الرقص بين الرجال والنساء. وكان الطهطاوي من الأوائل الذين تحدثوا عن حرية المرأة ، وخروجها للعمل مع الرجال جنباً إلى جنب ، وجاء بآراء مثيرة للجدل ، والمناقشة ، وفيها جرأة على الدين والأحكام الشرعية « الأسرة المسلمة في العالم المعاصر » (٢٩٣-٢٩٥).

تحرير المرأة ، وإلى التبرج والسفور ، والاختلاط »[١] .

*** « مونتجمري وات » :**

قس إنجليزي ، وثيق الصلة بالمسلمين ، ويوصف بالموضوعية في دراسته للإسلام ، انظر إلى أقواله ومزاعمه حيث يقول « إن محمداً في عصره وبيئته يعد مصلحاً اجتماعياً ، وذلك لأنه وضع نظاماً جديداً للضمان الاجتماعي ، والزكاة ، وأقام بناءً جديداً للأسرة ، ويعد مصلحاً أخلاقياً ، لأنه أخذ أفضل ما عند البدو من أخلاق ، وبذلك وضع إطاراً دينياً واجتماعياً للحياة » ويخلص إلى أن محمداً ليس رسولاً من عند الله ، ورحمة للعالمين ، ويقول «إن الذي ساعد محمداً على فعل ذلك كله ثلاث خصال هي: موهبته كعراف ، وحكمته كسياسي ، ومهارته في الإدارة » كل ذلك لينفي عنه الرسالة[٢] .

أية موضوعية هذه؟ وأية نزاهة علمية؟ بل قل أي: حقد وخبث تنطوي عليه نفسية هؤلاء المنصّرين ، والمستشرقين؟ لقد عمل المبشرون على تفريق وحدة العالم العربي والإسلامي ، ويتضح ذلك من خلال سعيهم لهدم الخلافة الإسلامية ، ثم الدعوة لتجزئة البلاد العربية إلى دويلات ، وبث عوامل الفرقة بينها ، كما عملوا على إحياء القوميات الجاهلية القديمة ، كما عملوا للقضاء على اللغة العربية الفصحى ، والدعوة للعامية ، واللهجات الإقليمية[٣] . وكان لهم دور كبير في تشجيع الحركات والمذاهب ، والعقائد الباطلة التي لا تشكل خطراً عليهم ، ومن

---

(١) الموسوعة الميسرة ، في الأديان والمذاهب المعاصرة ، ص٣٤.

(٢) حوى ، سعيد ، الرسول ﷺ ، ص١٧٤.

(٣) محمود ، علي عبد الحليم ، الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ، ص١٤٣.

ذلك تبني مذهب «القاديانية»[1] الذي يدعو إلى ترك الجهاد ، والتعايش مع المستعمر ، وكان قصد هؤلاء الأعداء من إثارة هذه الأمور صرف المسلمين عن دينهم ، ووضع حاجز بينهم وبينه ، ولكن قيض الله لهؤلاء الأعداء من يدحر شبهاتهم ، ويرد كيدهم ، ويذب عن الدين الإسلامي[2] .

ومن المؤسف حقاً انتشار هذه الأفكار على أيدي طائفة من الكتاب ، والمثقفين ، والباحثين الذي أوكل إليهم الاستعمار مهمة التوجيه ، والتأثير ، وقيادة الفكر ، وأمور التربية والتعليم ، وكانت المؤسسات الثقافية التابعة للمبشرين ، والمستشرقين تضم بين جنباتها مئات الألوف من أبناء المسلمين الآسيويين والإفريقيين وهذه شواهد على ذلك :

أ- ما صرح به القائد الفرنسي الجنرال « بيير كيللر » في قوله عن المعاهد الفرنسية في لبنان « فالتربية الوطنية كانت بكاملها في أيدينا بداية الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م) ، كان أكثر من اثنين وخمسين ألف تلميذ ، يتلقون دروسهم في مدارسنا ..... »[3] .

ب- « اللورد لويد » ، حين كان مندوباً سامياً لبريطانيا في مصر .. وعن كلية

---

(١) ثمة كتب كثيرة ردت على القدياني والقديانية ، وبينت القول الحق خول هذه الطائفة المعادية للإسلام ، فقد كتب أبو الحسن الندوي مقالات كثيرة ، وصنف أبوالأعلى المودودي كتاباً حول هذا الموضوع ، كما توجد مصنفات لغير هذين المؤلفين الكبيرين ، وكلاهما تدحض مزاعم القدياني ، وأهداف دعوته ، وارتباطها بالاستعمار ، وقيامها على الدجل والتشويه والتحريف والترهات.

(٢) طعمة ، صابر ، أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي ، ص١٨١-١٨٢.

(٣) حسين ، محمد ، محمد ، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢/ ٢٦٦.

فكتوريا بالإسكندرية يقول : « ليس من وسيلة لتوطيد هذه الرابطة أفضل من كلية تعلم الشباب من مختلف الأجناس المبادئ البريطانية العليا » ويقول : « إن المدرسة تضم ثمانية أجناس أو تسعة ». ويقول : « كل هؤلاء لا يمضي عليم وقت طويل ، حتى يتشبعوا بوجهة النظر البريطانية ، بفضل العشرة الوثيقة بين المعلمين ، والتلاميذ ، فيصيروا قادرين على فهم أساليبنا ، ويعطفوا عليها ... »[1] .

* * *

(١) المرجع نفسه ، جـ٢ ، ص٢٦٧.

المبحث الثاني
المجال الاجتماعــي

في الوقت الذي باتت فيه معظم الأجيال المسلمة لا تعرف عن الإسلام إلا اسمه ، ولا من المصحف إلا رسمه ، كانت هناك بيئة خصبة لأعداء الأمة كي ينفذوا مخططاتهم بيسر ، وسهولة دون مقاومة بعد أن أماتوا في نفوس الناشئة الغيرة على الإسلام ، وتقدم المبشرون بصمت ، وبلا ضجة يفتحون المؤسسات الاجتماعية الواحدة تلو الأخرى ، بهدف جلب أكبر عدد ممكن من بناء المسلمين إلى هذه الجمعيات ، والمؤسسات ، ومن هذا المنطلق حرص دعاة التبشير على أن يجدوا منفذاً إلى أخلاق المسلمين ، لعلمهم الأكيد أن سر عظمة الأمة في أخلاقها ، وأنها تستقي أخلقها من دينها الذي ارتضاه الله للناس جميعاً. إن الإسلام جاء لينتقل بالبشر خطوات فسيحات إلى حياة مشرقة بالفضائل والآداب ، واعتبر الإسلام أن هذا الهدف النبيل من صميم رسالته ، كما اعتبر أن الإخلال بهذه الوسائل خروجاً عليه ، وابتعاداً عنه[١] .

فكانت خطوات التبشير مرسومة ومدروسة ، فلا تراه ينتقل من خطوة إلى أخرى، حتى يتأكد من نجاح سابقتها، ثم يستفيد من نتائجها للخطوات اللاحقة، فكانت أولى خطواته في هذا المجال ما جاء في نداء المبشرات في مؤتمر القاهرة ١٩٠٦م ، ما يلي :

« لا سبيل إلا بجلب النساء المسلمات إلى المسيح ، إن عدد النساء المسلمات

---

(١) الغزالي ، محمد: خلق المسلم ، ص٤٢.

عظيم جداً ، لا يقل عن مائة مليون[١] ، فالأم هي المحضن الأول للأجيال ، وهي اللبنة الأولى في تربية الطفل المسلم ، لذا أدرك المبشرون أهمية المرأة في إعداد برامج خاصة ، من حيث إعداد مخططات لمدارس البنات قبل أن تصل البنت إلى دور الأمومة ، وبذلوا جهودً ، وخاصة مع بنات الأسر اللائي يكون لهن السيطرة التامة في تربية الجيل ، وحين تطمئن الإرساليات التبشيرية أن أمهات الجيل تخرجن في كليات البنات الأمريكية في القاهرة ، وبيروت ، وغيرها ، وأن طراز هؤلاء الأمهات قد طبع بطابع الحياة الغربية ، وروح العقيدة المسيحية ، فلا يضير المبشرين ، والمبشرات بعد ذلك أن يحملن أسماء فاطمة ، وعائشة[٢] .

يقول المبشر الأمريكي « جيمس » من كبار المبشرين عن مدرسة البنات في بيروت: إن مدرسة البنات في بيروت بؤبؤ عيني ، لقد شعرت دائماً أن مستقبل سورية ، إنما هو بتعليم بناتها ، ونسائها[٣] .

ومن أجل ذلك طلب المبشرون الأمريكيون منذ عام (١٨٧٠م) مبلغ ثلاثين ألف دولار لمدرسة دينية للبنات في بيروت ، وعللوا طلبهم هذا بقيمة المرأة في الحياة البيئية ، وأن تلك المدرسة ستساعد على تنصير سورية في المستقبل[٤] .

ولقد تقدم المبشرون ، وأصبحوا يفتحون دار حضانة إثر الأخرى ، وروضة بعد روضة ، ومدرسة تلو مدرسة ، وجامعة تفوق غيرها هنا ، وهناك،وتستغل

---

(١) المجتمع ، تأملات تاريخية ، دون مؤلف ص٤٨-٥٧.

(٢) العظم ، يوسف: أين محاضن الجيل المسلم ، ص٣٨.

(٣) الخالدي ، مصطفى ، فروخ ، عمر: التبشير والاستعمار ، ص٨٧.

(٤) المرجع نفسه ، ص٨٧.

حاجة الطفل إلى الرفق والمحبة ، بصورة مدروسة ، ومقصورة ، بحيث تزور له ذاته ، وتمزق عقيدته ، وتضيع تاريخ حضارته ، فيظل خالياً من معناها ، وتظهر صورة الأجنبي عدوه ، وعدو آبائه وأجداده ليصبح صديقاً وأخاً لأنه عاش في كنف تفكيره ، ونطاقه ، وسيطرته ، لأن كل مدرسة نصرانية ، تربط كل ما في الكون من حياة ، وسلوك بعيسى عليه السلام وهذا شرك في الربوبية ، وينشأ الطفل ، وينطبع الباطل في ذهنه ، مما لا سبيل إلى انتزاعه إلا بشق الأنفس(١) .

ونلاحظ من خلال هذا العرض عدد الإرساليات ، الجمعيات لدولة عربية – على سبيل المثال – كالأردن القريبة من فلسطين موضع الدراسة ، حيث تنتشر هذه المؤسسات ، والجمعيات في كل مدينة ، أو قل في كل قرية ، وهي كما يلي(٢) :

الفرير ، المعمدانية ، الراعي الصالح ، التراسنطة ، راهبات مار يوسف ، الإنجليزية ، اللوثرية ، المطران ، المانوين ، راهبات الفرنسيسكان، الكلية الأهلية ، المدرسة الأمريكية ، الأرمن والأرثوذكس ، طاركتشاتس المخلص ، السالزيان ، السبتيين ، راهبات سيدة الرسل ، الكلية البطريركية ، اللاتنية ، التقارب المسيحي،

(١) ومن هنا أكد الإسلام على دور المرأة في تربية طفلها ، والعناية بها ، فرسالتها التربوية عظيمة ومهمة ، وهي ذات محورين ، هما: التربية الإيمانية والجسمية ، ليشب الطفل سوياً مستقيماً متوازناً. وقد أوضح النبي ﷺ أثر الوالدين في التربية فقال : «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه ، وينصرانه ، ويمجسانه » . وحين تخرج الأم من بيتها لتعادي الرجال في أعمالهم ، أو لتعمل في ميادين الفتنة والإغراء ، فإن طفلها سيكون صيداً ثميناً في مدارس التبشير ، ومحاضن الاستشراق ، وإن اختفت أهداف المدارس ، وهاتيك المحاضن ، ولم يظهر على الساحة إلا تقديم المساعدة ، وبذل البسمة،والمعاملة بالرفق .

(٢) العظم ، يوسف: أين محاضن الجيل المسلم؟ ص٣٨.

راهبات سيهون ، القبطية ، دار الطفل ، الشهيدة دميانة ، القديسة مريم ، القديس نقولا .

ومن المدارس مدرسة عبية بلبنان التي تحولت إلى الكلية الإنجيلية في بيروت (١٨٦٥م) ، وكذلك كلية روبرت باستانبول ، وهي كلية مسيحية غير مستترة ، لا في تعليمها ، ولا في الجو الذي تهيئه لطلابها ، يقول « دانيال بلس » عن كلية بيروت ، وكلية استانبول: ليستا أختين بل توءمان إن هذه الكلية قد أنشأها مبشر ، ولا تزال إلى اليوم لا يتولى رئاستها إلا مبشر[١] .

من خلال هذا العرض لهذه المؤسسات ، وهناك العشرات غيرها لم تذكر ، أو لم يعلم عنها ، نقول هل جاء هذا من فراغ؟ أليست هناك أيد خطيرة ، تخطط وتمول مثل هذه المؤسسات المتناثرة هنا وهناك؟ .

ولعل أبرز أخطار التبشير التي تعرض لها المسلمون ، والي تهدد عقيدة الأجيال أيضاً ، وخاصة من يتلقون التعليم في مدارس التبشير النصرانية التي باتت تحمل مفاهيمهم ، ولغتهم ، وأفكارهم ، حتى قام بعض النقاد والأدباء النصارى في بعض البلاد العربية ، بتشجيع ظاهره استخدام المفردات النصرانية مثل: (الصليب) ، (الفداء) ، (الخلاص) ، و(الخطيئة).

ويقول « اثين » مؤكداً ضرورة الحرب العقدية عن طريق التبشير: إلقاء بذور الشك في نفوسهم – أي المسلمين – من عهد النشأة ، تفسد عقائدهم الإسلامية من حيث لا يشعرون ، وإن لم يتنصر منهم أحد فإنهم يصيرون لا مسلمين ، وأمثال

---

(١) الخالدي ، مصطفى ، فروخ عمر: التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص٩٥.

هؤلاء يكونون بلا ارتياب أخطر على الإسلام مما إذا اعتنقوا المسيحية ، وتظاهروا بها[1] .

ومن هذا المنطلق حرص دعاة التبشير على أن يجدوا منفذاً إلى أخلاق المسلمين ، لعلمهم الأكيد أن سر عظمة الأمة في أخلاقها ، وأنها تستقي أخلاقها من دينها ، ولكن أبى المبشرون إلا أن ينقلوا الأجيال المسلمة ، من قمة الفضيلة ، إلى قاع الرذيلة ، حيث أبت أنفسهم الخبيثة إلا أن يصدروا لنا سقوطهم ، وانحلالهم الخلقي ، ولكن بتخطيط وروية .

يقول الأستاذ يوسف العظم متعجباً : « لقد أصبح شرب الخمر أمراً عادياً عند البعض ممن تسموا بأسماء إسلامية ، لأن المجاملة واجبة في الحياة الاجتماعية ، وحفلات النوادي الليلية والعري والرقص صارت فناً تقتضيه ظروف الحضارة ، والاختلاط المنكر في تبرج فاحش ما عاد أمراً يحرّك في الرجل ذرة من كرامة ، أو خلجة حياء[2] .

ولقد اكتشف المبشرون طريقتين ، للوصول إلى الشعوب العربية والإسلامية ، والهبوط بها من قمة الكمال الإنساني إلى حضيض النقص ، والرذيلة .

الطريق الأولى : العبث بالمفاهيم ، والحقائق الخلقية .

الطريق الثاني : غزو المجتمعات الإسلامية المحافظة فكرياً ، وأخلاقياً بقيم المجتمعات الكافرة ، وتقاليدها .

---

(١) خميس ، محمد ، عطية: تداعت عليكم الأمم ، ص٦٩.

(٢) العظم ، يوسف: أين محاضن الجيل المسلم؟ ص٨٧.

وقد ظهر العبث بالمفاهيم ، والحقائق الخلقية في حشد النظريات الفلسفية الأخلاقية المنحرفة عن الشرائع الدينية ، وذلك بتزوير المفاهيم ، وقلب القيم ، والمعايير ، واعتبار : أن الأخلاق أمور اعتبارية ، تتواضع عليها الشعوب ، وليس لها أصول دينية[١] .

أما الانغماس في المجتمعات الفاسدة فقد جند الغزاة له أعمالاً كثيرة هدفها إفساد الجيل المسلم إفساداً سلوكياً ، وأهم العناصر التي استخدموها في الإفساد : المال ، النساء ، والخمر ، أنماط العيش التي تعتمد على الرفاهية ، والمتعة واللذة ، واللامبالاة[٢] .

وقد عمل العدو الغادر ، والغازي بتفضيل الخمور بأنواعها على صنوف الشراب ، وإحلال الزنى محل العفاف ، والقمار محل اللعب البريء ، واستبدال الزواج أو الزوجة الطاهرة ، بالصحاب والخليلة ، وقد اجتمع خمسون من القادة المسيحيين ، وأكثرهم من دول المشرق ، لتبادل الآراء ، والتشاور بينهم حول الوجود المسيحي في المشرق تحت إشراف جمعية الكنائس في المشرق بالتعاون مع الاتحاد العالمي للكنائس ، للاستمرار في تدمير الأخلاق .

---

(١) الميداني ، عبد الرحمن ، حسن: حبنكة ، غزو في الصميم ، ص١٧٤-١٧٥ .

(٢) وهذا قد يتطلب رداً مدروساً وشاملاً من أجهزة المجتمع ، بدءاً بالروضة والمدرسة ، والجامعة ، والأعلام بكل صنوفه ، والستر بكل اتجاهاته ، وتهيئة البرامج الداعمة للخلق النبيل ، والداعية للعودة إلى أحضان الإسلام ، والنهل من الكتاب والسنة ، والالتزام بالتكاليف الشرعية ، وينبغي أن تعد هيئات للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويقوم المسؤولون بمنع المخالفات الدينية ، وإغلاق أماكن اللهو ، وضياع الوقت ، والإباحية ، والفتنة بكل أشكالها. وإلا غرق المجتمع في دوامة من الرذيلة ، لا يعرف منتهاها إلا الله عز وجل .

* ومن صور النشاطات الصليبية في بلاد المشرق :

١- في مصر بلغ عدد الإرساليات البروتستانتية وحدها عام (١٩٢٠م)، خمس عشرة إرسالية، تضم ما يقارب أربعمائة وخمسين مبشراً، من ست جنسيات، يعاونهم نحو ١٥٠٠ مواطن، وتضم المدارس تحت إدارتها ١٦.٠٠٠ تلميذ، وبلغت المصروفات على تلك المدارس ١٤٠.٠٠٠٠ جنيهاً مصرياً، وقد وصل عدد أتباع كنائس الإرساليات ٥٠.٠٠٠ مواطن مصري[١].

٢- قام المبشر « زويمر » مبعوث الإرسالية العربية الأمريكية بزيارة إلى البحرين عام (١٨٩٢م)، وأنشأ مركزً أولياً للتبشير في المنامة عام (١٨٩٤م)، وتم بناء مستشفى الإرسالية الأمريكية في البحرين عام (١٩٠٢م)، وفي عام (١٩٠٥م) تم افتتاح مدرسة للبنين.

٣- قام « زويمر » بجولة استطلاعية، لعمان وقرر بعدها أن تكون مسقط محطة ثالثة للتنصير بعد محطتي البصرة، والبحرين، مع العلم، أن هذه الإرساليات في الخليج العربي، لم تلق نجاحاً كما كان يتوقع لها، وذلك راجع إلى صفاء وفقه عقيدة سكان تلك المناطق[٢].

وعمل المبشرون عبر عدة وسائل ومظاهر، من أجل التقرب من المواطنين، والتحبب إليهم اجتماعيا، والظهور بمظهر إنساني عاطفي، كي يقبلهم الناس، ويفتحوا صدورهم لهم، ومن هذه المظاهر :

---

(١) طعمية، صابر: أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي، ص١٩٢.

(٢) السبيعي، عبد الله ناصر: نشاط الإرسالية الأمريكية العربية في شرق الجزيرة، ص١٣١.

١ - استخدام الطب : لقد أدرك الصليبيون أن المريض على استعداد للتضحية بكل شيء في سبيل شفائه ، أو شفاء ابنه ، أو أمه ، أو أبيه ، لذلك سخر المبشرون كل إمكاناتهم الطبية في سبيل غاياتهم ، ويكفينا قولهم: «حيث تجد بشراً تجد آلاماً ، وحيث تكون الآلام تكون الحاجة للطبيب ، وحيث تكون الحاجة للطبيب ، هناك فرصة مناسبة للتبشير»[١] .

وقد وصلت بهم الدناءة ألا يعالجوا أحداً ، إلا إذا ركع للصليب ، أو اعترف أن شفاءه بيد المسيح والمبشرة الأمريكية « أيداهاريس » تقول تنصح الطبيب الذاهب بمهمة تبشيرية : « يجب أن تنتهز الفرص ، لتصل إلى آذان المسلمين وقلوبهم ، فتكرر لهم الإنجيل ، وإياك أن تضيع التطبيب في المستوصفات ، والمستشفيات ، فإنه أثمن تلك الفرص على الإطلاق ، ولعل الشيطان يريد أن يفتنك فيقول لك: إن واجبك التطبيب فقط ، لا التبشير ، فلا تسمع له »[٢] .

وفي مؤتمر القاهرة (١٩٠٦م) الذي كان يهدف إلى إعاقة انتشار الإسلام في وسط أفريقيا وحصر الإسلام في البلاد العربية ، يقول : « أ.ل.شاتليه » تحدث المؤتمرون عن أهمية إرساليات التنصير الطبية ، وقال «المستر هاربر» : يجب الإكثار من الإرساليات الطبية ، لأن رجالها يحتكون دائماً بالجمهور ، ويكون لهم تأثير على المسلمين أكثر مما للمبشرين الآخرين .

وهنا ذكر المستر « هاربر » حكاية طفلة مسلمة عني المبشرون بتمريضها في مستشفى مصر القديمة ، ثم ألحقت بمدرسة بروتستانتية في «باب اللوق» ، كانت

---

(١) الخالدي ، مصطفى ، فروخ ، عمر: التبشير والاستعمار ، ص٥٩.

(٢) الخالدي ، مصطفى ، فروخ ، عمر: التبشير والاستعمار ، ص٥٩-٦٢.

نهاية أمرها أن عرفت كيف تعتقد بالمسيح ، بالمعنى المعروف عند النصارى[١] .

ومما لا شك فيه أن الخدمة الطبية تحظى دوماً بالأولوية في مهمات المنصرين ، لأن المدخل الطبي مزاياه عديدة ، أهمها : الأثر النفسي ، لأن الناس غالباً ما يلتصقون بالطبيب لأخذ المشورة منه[٢] .

*** محاولات المبشرين التنصير عن طريق النساء :**

لأنهم لم يغفلوا عن النساء ودورهن ، لذلك جعلوا يبشرون في مستشفيات النساء ، بالإضافة إلى إرسال الطبيبات المبشرات إلى القرى والبيوت ، ولقد استغلوا كذلك الممرضات ، وإنشاء مدارس للتمريض ، لأن الممرضة تعمل على تخفيف الألم عن المرضى ، كذلك تحمل إليهم رسالة المسيح[٣] . ويهتمون بالمرأة كثيراً لأن الوصول لها يعني الوصول للأسرة كاملة لذلك استقدموا عدداً من المبشرات كي يتدخلن في الأسرة عن طريق المرأة ، كما شجعوا شباب المسلمين بالزواج من الفتيات النصرانيات ، ومعلوم مدى الخطورة من الزواج بالنصرانية[٤] .

---

(١) الخطيب ، محب الدين: الغارة على العالم الإسلامي ، ص٦٠.

(٢) التميمي ، عبد الملك خلف: التبشير في منطقة الخليج العربي ، ص٧٩-٨١.

(٣) الخالدي ، مصطفى ، فروخ ، عمر: التبشير والاستعمار ، ص٦٤.

(٤) إن الاقتران بالأجنبيات النصرانيات يعني في الأعم الأغلب أنهن يبقين في بلادهن ، وهذه خسارة لبلد الشاب المسلم، والزواج بالأجنبية النصرانية يعني إضاعة فرصة للزواج بالمسلمات في بلدهن العربية والإسلامية ، وبذا يكثر عدد العوانس! وإن الإنجاب من الأجنبيات النصرانيات يولد أطفالاً يشبون في بيئة غير بيئة المسلمين ، وستطالب أمهم الأجنبية بإبعادهم عن بلد أبيهم وذويه. إلى ما هنالك من معوقات ومشكلات تبرز إلى السطح إثر الزواج بالأجنبيات النصرانيات. انظر: كتاب العلم رفعة وخشية ، ليوسف علي بديوي (١٤١).

وقد فكر المبشرون بأساليب كثيرة لاصطياد النساء ، وذلك ببناء دور للمطلقات ، والأرامل ، الصغار ، والهدف من هذا كله لا يعدو أن يكون أسلوباً من أساليب المبشرين ، حتى يصبح بيننا مبشرات من جلدتنا ، يكون لهن تأثير أكبر بين العائلات المسلمة[(١)] .

ومن أخطر الدعاوى التي نفذ المبشرون من خلالها إلى روح الأمة المسلمة بالتعاون مع عملائهم ، ومن تدربوا على أيديهم إثارة قضية تحرير المرأة ، وقد استغل كشعار خادع ، يخفي وراءه الحرب على الدين ، فالهدف هو اجتذاب المرأة المسلمة ، واستخدامها حرباً على يدينها ، وأول من أوصى به في المؤتمرات التبشيرية (مؤتمر القاهرة التبشيري ١٩٠٦م ، ومؤتمر لكنهؤ في الهند ١٩١١م) ، وكان الهدف يومئذ تنصير المرأة المسلمة ، لأنهم عرفوا أنهم إذا نجحوا في هذا المجال دمروا الأجيال المقبلة .

لقد نصب هؤلاء أنفسهم مدافعين عن المرأة المسلمة ، وكأنها شكت حالهم لهم، ولكنه الحقد الدفين حتى يسقط المجتمع في حمأة الرذيلة، ويقضي بنفسه على نفسه ، وللأسف استجاب بعض الساقطين لهذه الدعوات ، كذلك استجاب السذج ، فنادوا بالتعليم المختلط ، وأن تخرج المرأة للعمل ، وأن تشارك في كل ميادين الحياة كالرجل تماماً ، وكانت الكارثة بعد ذلك[(٢)] .

وقد أساءت المرأة إلى نفسها ، وأساء إليها الذين ظاهروها ، وأعانوها ممن يزعمون أنهم أنصارها ، وفي الوقت الذي يتجرع فيه الغرب آثار خروج المرأة على

---

(١) الميداني ، أجنحة المكر الثلاثة: ص٧١-٧٢.

(٢) حريشة ، علي محمد ، الزيبق محمد شريف: أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي ، ص٩١.

فطرتها ووظيفتها[1] كان بعض كتابنا ، ومفكرينا ينادون بأن نأخذ في ذلك طريق الغرب ، وكان قاسم أمين من زعماء تلك الدعوة التي تجرأ فيها على النصوص بالتحريف والتغيير[2] ، استجابة لأستاذة « كرومر » الذي أوصى بذلك في كتاب Modern Egypt حيث علق على رجاله الآمال في رعاية المصالح الإنجليزية عن طريق إنشاء علاقات ود ، وتفاهم بين الإنجليز وبين المسلمين في مصر ، وقد زعم أعداء الإسلام أن في التزام المرأة لبيتها وفق تشريع السماء لها انتقاص لحقوقها ، وقتل لشخصيتها ، واعتداء على كيانها ، زاعمين : أن عكوف المرأة في بيتها تعطيل لنصف المجتمع ، ناسين أو متناسين أهم عمل شرفها الله به ، وهو العناية والتربية

(١) عانت أوروبة من ويلات المناداة بـ « تحرير المرأة » وطغت على سطح الأحداث أزمات كثيرة ... يرجع أكثرها إلى تفكيك الأسرة ، وشيوع أدب الجنس ، وقد نشرت حضارة الإسلام (مجلد ٣ عدد ٢ ص١٠٠) مقال لكاتب « ج ، س ، سولاك » فيه : « إن اشتراك المرأة في العمل الوظيفة شغل جل وقتها ، ونتج عن هذا أمر خطير هو شلل شعور الأمومة فيها ، فلم يعد عند الأم فراغ تهتم به بأبنائها. بل تركت للمال الذي تقدمه لهم بسخاء ، أن يعوض عن الحب والاهتمام بشؤونهم ، وبهذا انعدم وجود نساء يستطعن أن ينمين في أطفالهن شعور الإيثار ، والتضحية ، وحب الإنسانية ، والاستعداد للعيش مع الآخرين بوئام وانسجام. لقد تحول العالم وتغير ... وأصبحت الأمهات يتسابقن في تحقيق كل رغبة لأطفالهن فتجاوز دلال الأطفال كل حد ، وطفح كيل تزويدهم بكل حديث ، وفتحت لهم أبواب تحقيق مسراتهم على مصراعيها : السينما والسيارة والدراجة النارية والألعاب الأتوماتيكية ، ومزاولة الرقص في كل ساعة من ساعات اليوم » .

(٢) بعد سبع سنوات من صدور كتاب « تحرير المرأة » وقبل وفاة قاسم أمين بسنة ونصف ، أي عام (١٩٠٦م) تراجع المؤلف عن آرائه السابقة في حديثه لصحيفة «الظاهر» التي كان يصدرها محمد أبو شادي المحامي فأعلن قاسم أمين عن بطلان أقواله السابقة ، وأنها ضلال وغي ، وبين أنه كان مخطئاً في دعوته إلى تحرير المرأة. والجدير بالذكر أن هذه الأقوال جاءت بعد زوال اللورد كرومر ، وانطفاء نفوذ نازلي فاضل ، فتغيرت الظروف ، لذا تغير الأقوال. انظر كتاب : « المرأة المسلمة في العالم المعاصر » (ص٢٩٨-٢٩٩)

بالبيت والأطفال ، وإنشاء الجيل الصالح ونحن لا ننكر أن هناك بعض الوظائف تقوم بها المرأة ، وقد قامت بذلك منذ بداية الإسلام وأقرها الرسول ﷺ على ذلك، كالتمريض والتعليم ، وما يخص أعمال النساء ، كالنسيج والغزل إلى غير ذلك من أعمال[١] .

ولما أدرك المبشرون أن المرأة ذات أثر عميق في التربية ، أولوها اهتماماً عظيماً ، وبادروا إلى فتح أول مدرسة تبشيرية للبنات في بيروت (١٨٣٠م) ، ثم فتحوا مدارس أخرى في سورية ومصر ، والسودان ، والهند ، وبلاد الأفغان ، وقالوا « إن التبشير يكون أتم حبكاً في مدارس البنات الداخلية ، لما فيه من الأحوال المواتية ، والفرص السانحة ، لأن المدرسة الداخلية تجعل الصلة بالطالبات أوثق. تقول المبشرة « آنا ميليفان » في صفوف كلية بنات القاهرة : « ليس ثمة طريق إلى حصن الإسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة»[٢] .

*** في مجال العادات والتقاليد :**

يعد خطر المبشرين والمستعمرين في ميدان العادات والتقاليد من أخطر ما منيت به الأمة ، فهو غزو في صميم حياتها ، وفيه تحطيم للقيم والآداب الإسلامية التي اعتادت عليها ، وأول ما ركز عليه الأجانب في هذا المجال إفساد المرأة ، وهم يعرفون أهمية دور المرأة في تكوين الأسرة، ورعاية الأبناء، تقول إحدى المبشرات: « لقد استطعنا أن نجمع في صفوف كلية البنات في القاهرة بناتاً آباؤهن باشوات وبكوات ، ولا يوجد مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات

---

(١) حسين ، محمد ، محمد : حصوننا مهددة من داخلها ، ص١٢٥-١٢٧.

(٢) حسين ، محمد ، محمد : حصوننا مهددة من داخلها ، ص١٩٩.

المسلمات تحت النفوذ المسيحي ، وبالتالي ليس هناك من طريق أقرب إلى تقويض حصن الإسلام من هذه المدرسة »[١] .

« ثم حاول الأعداء أن يغربوا مجتمعنا في طريقة الطعام والشراب ، فأصبح كثير من الناس يأكلون بيسراهم ، ويحشدون على موائد الطعام ، ما هو زائد عن حاجاتهم ، ويجمعون إلى الطعام أشربة محرمة »[٢] .

ثم غربوا طريقتنا في اللباس والزي ، ففي أكثر البلاد العربية أخذ الناس يلبسون اللباس الغربي ، حتى ولو كان فيه كشف للعورات ، ثم اختلط أمر اللباس ، فأصبحوا يقلدون بعضهم بعضاً - أعني الرجال والنساء - ، حتى أصبحت النساء كما جاء في الحديث «**كاسيات ، عاريات ، مائلات ، مميلات**»[٣] ثم اخترعوا لنا مناسبات ، واحتفالات سنوية ، سموها أعياداً ، فمن عيد الأم ، إلى عيد العمال ، كما نشروا وأشاعوا بين الشباب الميوعة ، محاولين القضاء على الرجولة ، حتى أصبح الكذب أمراً عادياً ، وارتكاب الجريمة بطولة ، وعمل المبشرون في القضاء على الاستقامة والعفة ، كما عملوا على فتح الملاهي ، ودور السينما ، وجلب المخدرات ، والمسكرات ، وإن لم يكن بأيديهم ، فهم يسهلون عمله ، ونقله .

* إفساد الأخلاق وتغيير الحياة الاجتماعية :

وقد قام التبشير المرتبط بالاستعمار بدور كبير في هذا الإفساد الخلقي ، والتغيير

---

(١) العالم ، جلال : قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام وأبيدوا أهله ، ص٧٥.

(٢) محمد ، علي عبد الحليم: الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر ، ص١٤٤ .

(٣) رواه أحمد (٢/ ٣٥٦ و٤٤٠) ومسلم (٢١٢٨) والبيهقي (٢/ ٢٣٤ ، ٢٤٧).

الاجتماعي ، وكان أخطر الطرق في ذلك استخدام وسائل الإعلام ، وكان للصحافة باع طويل في تغيير الأخلاق ، والقيم الاجتماعية ، فكان من أخطر ما ردده المبشرون وتلامذتهم قضية تحرير المرأة من الجهل ، والحجاب ، وتمكينها من أن تكون قوة فعالة ، وأداة نافعة في المجتمع ، وتزعم الكتاب في ذلك «قاسم أمين» في كتابه : «المرأة الجديدة» حيث يذهب قائلاً ، إلى أنا ورثنا الصورة التي كوناها عن المرأة من العرب ، الذين قامت حياتهم على الغزو والنهب ، ومن ثم لم يكن فيها للمرأة نصيب تشارك فيه في الدولة ، ثم لم يكن لها نصيب في تربية الولد ، لأن تربيته مقصورة على تغذية جسمه ، ليشب مقاتلاً لا عالماً فاضلاً ، فصورة المرأة التي ورثها المسلمون عن العرب قد تكون صحيحة بالقياس إلى الماضي ، ولكنها مزورة في نظرنا إلى الحال والمستقبل[١] .

ويدعو قاسم أمين في آخر كتابه دعوة صريحة إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية ، فيقول : « هذا هو الداء الذي يلزم أن نبادر إلى علاجه ، وليس له دواء إلا أن نربي أولادنا على أن يتعرفوا على شؤون المدينة الغربية ، ويقفوا على أصولها ، وفروعها »[٢] .

فهذا قاسم أمين وأمثاله ، ممن تربوا على أيدي الغربيين ، ينادي بالأخذ بالحضارة الغربية في جوانبها التربوية والاجتماعية ، وللأسف اقتحمت المرأة كل ميادين العمل ، بل اشتركت في مظاهرات (١٩١٩م) ، وكان على رأسهن صفية

---

(١) أمين ، قاسم : تحرير المرأة ، ص٩٢.

(٢) أمين ، قاسم : تحرير المرأة ، ص٩٢ .

زغلول حرم سعد زغلول[١] ، وهدى شعراوي[٢] حرم علي شعراوي باشا ، وتجاوزت هدى شعراوي كل الحدود وسافرت إلى باريس وأمريكا لدراسة شؤون المرأة ، وأخذت تلقي بالتصريحات لمندوبي الصحف[٣] .

ولم يكن هذا التطور مقتصراً على مصر ، بل شمل العالم الإسلامي كله ، وأعقب ذلك الانغماس في الترف ، واتخاذ الأزياء الأوروبية ، وأساليب المعيشة الأوروبية ، ثم انتشرت المخدرات ، والبغاء ، والقمار ، والصور العارية باسم الفن والنجومية ، ثم تجاوزنا ذلك حتى فتحنا المعاهد الحكومية ، لتخرج الفنانين والفنانات ، والذي يقرأ وصف « خوجة نجش » للتطور الذي طرأ على المجتمع الهندي ، يخيل إليه أنه يتحدث عن مصر بما يؤكد أن أثر هذا الغزو كان واحداً[٤] .

---

(١) سعد زغلول : زعيم نهضة مصر السياسية ، وأكبر خطبائها في عصره ، اتصل بالأفغاني. فلازمه مدة ، واشتغل بالتحرير في جريدة « الوقائع » مع الشيخ محمد عبده. اشترك بالثورة العرابية وسجن شهوراً ، حصل على إجازة الحقوق واشتغل بالمحاماة ، واختير قاضياً فمستشاراً للوفد المصري للمطالبة بالاستقلال. تولى رئاسة الوزارة سنة (١٩٢٤م) ، ورئاسة مجلس النواب عام (١٩٢٥) و (١٩٢٦م) ، كان يحسن الفرنسية ، وله إلمام بالألمانية والإنجليزية. من مؤلفاته : « فقه الشافعية » و « خطبة » و«مختارات» توفي سنة (١٩٢٧م) ، الأعلام (٣/ ٨٣) والأعلام الشرقية (١/ ١٣٩).

(٢) هدى شعراوي: وجيهة ثرية ، ترأست الحركة النسائية في عصرها تقدمت المظاهرات النسائية سافرة ضد الإنجليز سنة (١٩١٩م) ، فكانت أول مصرية رفعت الحجاب ، عقدت وحضرت عدة مؤتمرات نسائية ، وأصدرت مجلة « المصرية » لها «مذكرات » توفيت سنة (١٩٤٧م) ، الأعلام (٨/ ٧٨-٧٩) .

(٣) سالم ، محمد رشاد: المدخل إلى الثقافة الإسلامية ، ص٦٥.

(٤) المودودي ، أبو الأعلى: الحجاب ، ص١١٨.

وقد بلغ التفسخ والانحلال في البلاد الإسلامية إلى حد مناداة الكتاب بالحرية الجنسية المطلقة ، وبوجوب فهم الشرف فهماً جيداً لا علاقة له بالعفة الجنسية ، والمحافظة على العرض؛ إذ إن الشرف يعني الأمانة والصدق ، أما العرض والعلاقات الجنسية فلا صلة بينها وبين الشرف لهذا المعنى التقليدي ، وهكذا نرى أن هذه الوسيلة من وسائل الغزو الفكري قد دمرت أخلاق الأمة ، وبدلت أوضاعها الاجتماعية، وانساق كثير من الشبان المسلمين خلف هذا التيار الجارف، وهم يعلمون أنهم بذلك يحققون أهداف أعدائهم ، ويحيون بسبب ذلك حيلة لاهية ، عابثة ، وينشغلون فيها بسفاسف الأمور والتفاهات ، فضلاً عن المعاصي والآثام ، وذلك بدلاً من الدأب والمثابرة ، والإعداد المستمر ليوم الجهاد ، والنجاة من أعدائنا .

* اللقاءات والمناسبات الاجتماعية :

نقصد بذلك المناسبات التي تربط بعض البشر ببعضهم عرضاً ، أو تتيح لبعض الناس أن يعرفوا بعضهم بعضاً ، والمبشرون يعرفون هذا كله ، ويعلمون مدى محافظة المسلمين ، وحرصهم على أسرهم ، فأحبوا من خلال نشاطهم الاجتماعي أن يبثوا في بيئتنا ما في بلادهم من انفتاح واختلاط ، وتسنى لهم ذلك بواسطة المدارس الأمريكية خاصة ، وعن طريق الخدمة الاجتماعية بين الناس بشكل عام .

جاء في كتاب (مؤتمر العاملين المسيحيين بين المسلمين) في نيويورك عام (١٩٢٤م)[١] : «نحن نعني بالعمل الاجتماعي المسيحي تطبيق مبادئ المسيح في

---

(١) Confernce of Christian Workers, Among Moslems, New York 1924 p.28.

جميع الصلات الإنسانية ، إن المسلمين يدّعون أن في الإسلام ما يلبي كل حاجة اجتماعية في البشر ، فعلينا أن نقاوم الإسلام بالأسلحة الروحية فالنشاط الاجتماعي يجب أن يرافق التعليم المباشر للإنجيل ، ويساعده ، ويتممه فلنبدأ بالصلات اليومية ، تلك التي تتصل بالطفل ، وبالمرأة ، ثم نتوسع في تلك الصلات حتى نبلغ إلى المبادئ الواسعة التي أقرتها عصبة الأمم ، فأمام الكنيسة اليوم مناسبات ممتازة ، تتيح للمبشر المسيحي أن يتصل برجال ، ونساء في البيئة الإسلامية الراقية ، لم يكن من قبل بإمكانه أن يتصل بهم ... من أجل ذلك نحن ننصح بالسير في الأعمال الاجتماعية على الأسس التالية : « إيجاد بيوت للرجال والنساء خصوصاً الطلبة منهم ومنهن ، وإيجاد آندية » والاعتناء بالتعليم الرياضي وأعمال الترفيه ، وحشد المتطوعين لأمثال هذه الأعمال » .

وجاء في الكتاب نفسه : « وعلى المبشرين أن يتعرفوا إلى أحوال المسلمين الاجتماعية ، والاقتصادية من حولهم ، ثم يسعون إلى الإصلاح في الظاهر ، سعياً إلى التأثير على الرأي العام ، وما يجب أن يهتم المبشرون به في الظهار أيضاً إصلاح الأحداث للحيلولة دون الزواج المبكر ، والحيلولة دون تشغيل الأطفال ، ومحاولة مساعدة العمال ، وكذلك الرفق بالحيوان » .

أما كيف يستغل المبشرون أعمال الخير في سبيل التبشير ، فيمثله «المر دوغلاس» حيث كتب مقالاً عنوانه : « كيف نضم إلينا أطفال المسلمين في الجزائر »[1] ، وذلك عن طريق إنشاء الملاجئ في عدد من أجزاء الجزائر ، لإطعام الفقراء وكسائهم ، وإيوائهم ، ثم قال : إن هذه السبل لا تجعل الأطفال نصارى ، لكنها لا

(١) الخالدي مصطفى ، فروخ ، عمر : التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص١٩٤ .

تبقيهم مسلمين كآبائهم .

ويظهر أن الإرساليات الكاثوليكية أكثر استخداماً لأعمال الخير في سبيل التبشير ، ولقد اهتم بابوات روما في الحقبة الأخيرة بنشر النصرانية بين المسلمين ، حتى إن البابا « بندكتوس » (١٩١٤-١٩٢٢م) عرف باسم: بابا الإرساليات(١) .

والإرساليات الكاثوليكية تتبع طريقين في التبشير المباشر بمخاطبة غير النصارى رأساً بأمور العقيدة ، وبالتعليم المسيحي ، أو غير المباشر ، فتقوم على الإحسان المادي ، وعلى العناية بالمرضى ، والتعليم ، وما شابه ذلك .

ومع ذلك فقد كان المسلمون ينظرون بحذر إلى الأعمال الاجتماعية التي كان المبشرون يتظاهرن بها رئاء الناس ، ولقد رأى المسلمون فساد الأخلاق يمشي مع هؤلاء الغربيين خطوة ، خطوة ، ولقد كانت الخمر تشحن من إنجلترا إلى دولة الخلافة العثمانية ، لتفتك بالشعوب العثمانية ، كما هي الآن تفتك بالقبائل الإفريقية(٢) .

---

(١) منذ عام ١٩٢٢م وبابا الفاتيكان يعلن عزمه عن تنصير إفريقيا كلها مع نهاية القرن العشرين ، أو بتعبير أضبط: جعل النصرانية هي الدين الأول في القارة القديمة ، والمعروف أن الإسلام هو الدين الأول في هذه القارة تليه الوثنية ، تليها المسيحية بشتى طوائفها. وباب الفاتيكان الحالي من أنشط رجال التبشير ، وأوسعهم حيلة ، وألينهم مقالاً ، وأذكاهم خطة ، ومع شيخوخته فهو ينطلق من معقله شرقاً وغرباً ليشرف بنفسه على تحقيق أهدافه ، ويلقى التقدير العميق حيث حل وهو يتنقل ويخطب في المسلمين والنصارى وغيرهم ، ويؤدي واجبه في خدمة التبشير المسيحي بمهارة ملحوظة. وهذا البابا ومن سبقه كلهم جهازاً تبشيرياً شديد الدقة واسع الدائرة انظر كتاب: الحق المر ، لمحمد الغزالي (١/ ٣٣).

(٢) الخالدي ، مصطفى ، عمر ، فروخ: التبشير والاستعمار ، ص١٩٩ .

المبحث الثالث
المجال التربـــوي

١- **الشبهات الدينية والطعن في الإسلام** : فمنها شبهات ومطاعن ساذجة ، ومعظمها كان يصدر عن المبشرين المتعصبين ، والغرض ديني محض ، متصورين أنهم بذلك يدخلون المسلمين في دينهم ، ولم يكن لهذا النوع أثر يذكر ، بل ربما أتى بعكس ما أريد منه ، لأنه يهيج العاطفة الإسلامية ، لذلك غيروا خطتهم ، واعتمدوا على مدخل آخر يغيرون به المفاهيم بوساطة الاحتكاك اليومي في التعليم ، والطب ، وملاجئ الأيتام ، ونحو ذلك [١] .

إن هذه السبل لا تجعل أطفال المسلمين نصارى ، ولكنها لا تبقيهم مسلمين كآبائهم ، ومثل هذه الجهود يبذلها المبشرون في شمالي إفريقيا ومصر .

٢- **التشكيك والنقد الجائر** : وهذه الدراسات في كثير من نواحيها تميز بالصبر، والجلد ، ومحاولة الاستيعاب ، والتحليل ، ولكنها في الوقت نفسه تحتوي على أخطار جسيمة ، حيث لم يقصد بها العلم ، والفكر ، ولا مجرد إشباع رغبة بقدر ما كانت خدمة مباشرة ، للدول المستعمرة ، وللكنائس الأوروبية ، بغرض ضرب الإسلام ، واقتلاعه من جذوره ، لأنه يشكل أكبر الأخطار عليهم ، وقاموا بدراساتهم المشبوهة ، الواحدة تلو الأخرى ، طعناً في الإسلام ، بدءاً من القرآن الكريم ، وانتهاءً بالسنة المطهرة ، ورواتها ، وحدث هنا كما تشاء ، عن الطعن في النبي ﷺ وأصحابه ، وهدم للتاريخ الإسلامي، وتصويره بالوحشي والانتقامي،

---

(١) الخطيب ، محب الدين: الغارة على الإسلام ، ص٥١.

وكل هذا محاولة منهم في تشكيل فكر جديد للمثقفين المسلمين [١] .

ولقد لاقى هذا العمل نجاحاً ، لأن الأجيال كانت مهزومة سياسياً ونفسياً ، ومتصفة بالتخلف المادي والحضاري ، وبعيدة عن أي تربية دينية صحيحة ، فكان هم المثقفين مجاراة الغازي ، وإثبات أنهم يستطيعون أن يكونوا مثله [٢] .

وتحت ستار هذه الدراسات الخبيثة ، وما ادعته من منهجية عليمة كاذبة ، استطاعت أن تدمر الجيل الناشئ ، وفي بلد كمصر دفع إلى كلية الآداب بالمستشرقين والمبشرين ، ليناقشوا أخطر قضايا الإسلام تحت ستار العلم ، وحرية الفكر ، ووضوح المنهج ، ومنهم « جويدي » في الجامعة الأهلية المصرية ، و«ماسنيون» اليهودي الفرنسي ، و«مرجليوت» الإنجليزي [٣] .

لقد صار التعليم من أفضل طرق المنصرين غير المباشرة ، لأنه من أقوى وأخطر المؤثرات الفكرية لقد حظي التعليم باهتمام الإرساليات التبشيرية الأمريكية العربية كوسيلة للتبشير ، فهو يتصل بالخلق المسيحي لاعتقاد المسيحيين أن المسيح كان معلماً ، وكان يدعو أتباعه لنشر تعليمه بين الناس [٤] .

ولم يكن التعليم أحد وسائل نشر النصرانية في البداية ، ثم أثبتت التجارب لهم عكس هذه الفكرة ، واعتبر التعليم أفضل الوسائل لنشر النصرانية ، كما قال المبشر

---

(١) السعيد ، عبد الستار ، فتح الله : الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ، ص٩٤.

(٢) ديار بكرلي ، عبد الرزاق: كلورادوا يطرح أخطر استراتيجية للتنصير بين المسلمين ، المجتمع ، الكويت ، ١٣٠٩/ ١٩٢١م ، ص٣٨.

(٣) السعيد ، عبد الستار: الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ، ص٩١.

(٤) عبد الوهاب ، أحمد: حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر ، ص١٦٦.

« ماكدونالد »[١] : ليس هناك ثمة وسيلة للتأثير على المواطنين أفضل من جمع أبنائهم في حجرات الدراسة[٢] .

والمنصرون يضعون كل ثقلهم في استقلال التعليم،وتوجيهه بما يخدم أهدافهم التبشيرية ، لذا أنشأ المبشرون مدارس تبشيرية تعليمية في مختلف المجالات التعليمية ، فيما دون المرحلة الجامعية التي هي من اختصاص المستشرقين ، وقد أسسوا مدارس كثيرة في بلدان العالم الإسلامي من دور الحضانة إلى الثانوية .

ويلاحظ : أن هذه المدارس الأجنبية التنصيرية تسير على سياسة الاستغناء عن المسلم ما أمكن ، فهم يحاولون الاستغناء عن المسلمين ، وإيكال أمر التعليم للمبشرين ، وإذا تتبعنا السلم التعليمي وجدناه في النهاية يستهدف تكوين مجتمع نصراني متكامل ، من ناحية الكفاءة الإنتاجية ، وقد قامت هذه المدارس والجامعات خير قيام بواجبها خدمة للأغراض الاستعمارية ، وأهمها بث روح الولاء للغرب ، وإبعاد الجيل الحاضر رويداً رويداً عن الإسلام[٣] .

ويتسع الشك على كل حال حينما يقدمون على استخدام معلم غير مسيحي ، ليعلم موضوعات لا يجدون معلماً مسيحياً لها ، فيرفضون على ضوء ذلك قبول غير المسيحي ، إلا إذا تعاون معهم ، وضعفت شخصيته ، لأنهم يعتقدون أن لمدارسهم رسالة يجب أن تؤديها ، وهي أن تجعل الشعوب كلها في المستقبل تابعة

(١) هو أمريكي من أشد المتعصبين ضد الإسلام ، من كتبه « تطور علم الكلام بين الفقه والنظرية الدستورية في الإسلام » .

(٢) عكاشة ، إبراهيم: التبشير النصراني في جنوب السودان ، ص١٧١ .

(٣) العمري ، نادية: أضواء على الثقافة الإسلامية ، ص١٦٨-١٦٩ .

للكنيسة ، من أجل ذلك كله ترفض هذه المدارس ، وفي فلسطين خاصة ، أن تتقيد بمناهج التعليم الرسمية ، لأن ذلك يفقدها صفتها التبشيرية المسيحية ، ويجعلها مدرسة كالمدارس الوطنية الأخرى ، فتبطل الغاية التي من أجلها وجدت. وهكذا نجد أن عقلية المبشرين القادمين إلى بلادنا باسم العلم ، لم تخدم العلم بقدر خدمتها للنصرانية والتبشير ، فليس عجيباً أن نرى معظم المدارس والأمريكية خاصة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالإرساليات التبشيرية[١] .

وقد استمرت الإرساليات الأمريكية التبشيرية في فتح مدارسها ببلاد الشام ، حتى بلغت في عام (١٩٠٩م) مائة وأربعة وسبعون مدرسة منتشرة في المدن والقرى كافة[٢] علماً أن ذروة أعمال المبشرين الأمريكيين في الحقل التعليمي ، تأسيس الكلية السورية ، التي أصبحت فيما بعد الجامعة الأمريكية في بيروت (١٨٦٦م) ، والتي ظلت من أكبر المؤسسات التعليمية في بلاد الشام[٣] .

*** ومن المجالات التربوية التبشيرية ما كان عن طريق الإعلام :**

قام المبشرون باستغلال الصحافة ، فالكلمة المكتوبة لها تأثير كبير على أفكار الناس في ميادين التبشير ، فمنذ انتهاء الحرب العالمية الأولى ، والمبشرون يستغلون الصحف استغلالاً واسعاً ، ويقرر « جب »[٤] « أن الصحافة هي أقوى الأدوات

---

(١) القطشان ، عبد الله: التعليم في فلسطين ، ج٢ ، ص٧٢.

(٢) الخالدي ، مصطفى ، الفروخ ، عمر: التبشير والاستعمار ، ص٧٨.

(٣) حوراني ، ألبرت: مستقبل الجامعات الأجنبية في الشرق الأدنى ، مجلة الفكر ، عدد خاص ، ١٩٥٩م ، ص٢٥-٢٦.

(٤) مستشرق إنجليزي ، من كتبه « المذهب المحمدي » .

الأوروبية ، وأعظمها نفوذاً في العالم الإسلامي» وجنباً إلى جنب مع هؤلاء المبشرين يجري توزيع المطبوعات ، ومن أشهر الإرساليات المتخصصة في ذلك :

١- رابطة الإيمان لمساعدة الإرساليات ، وهي منظمة هدفها مساعدة المبشرين في مجال الطباعة ، ونشر الكتب ، والمؤلفات عن الإسلام للمنصرين الذي يعملون في ديار المسلمين[١] ، خاصة ان هذه الكتب توزع مجاناً ، أو بسعر رمزي جداً .

٢- منظمة نشر النصرانية في الشرق الأوسط: مجالها المطبوعات النصرانية باللغة العربية. وأهم ما يوزعون « الكتاب المقدس » ، ثم كتاب «دين المسيح لا ولم ينسخ» وهو كتاب تبشيري كاب يبعث عن طريق صناديق البريد ، ومؤلفه « إسكندر جديد » وهم يبثون في هذه الكتب بالأساليب الودية ، والوعد بتلبية المطالب[٢] .

وقد أدرك المبشرون أهمية الإذاعة ، لأنها تصل إلى أكبر عدد ممكن من الناس ، ولهذا أنشأوا الإذاعات الخاصة بالدعوة إلى النصرانية، ونشر الإنجيل ، إما بصورة علنية ، أو خفية وإن موضوع البث الإذاعي هام جداً كرس له التنصير أموالاً وإمكانات هائلة ، وإن استخدامهم هذا الطعم إنما يدل على الفراغ والباطل الذي هم فيه .

ولديهم أساليب مختلفة لجذب المستمعين ، من بينها تقديم نشرات إخبارية علمية سياسية اقتصادية ، وتعتبر ممتازة عند كثير من الناس ، يقول د.« أكورود » في محاضرته (الإرسال الإذاعي الحالي الموجه للمسلمين): « ينبغي أن تكون هناك فترة زمنية ملائمة للبرامج ، وأن تكون على الأقل ساعة واحدة يومياً ، ثم قررنا

---

(١) عكاشة ، إبراهيم: ملمح عن النشاط التنصيري ، ص ٣٥-٣٦.

(٢) العمري ، نادية: أضواء على الثقافة الإسلاية ، ص١٧١ .

مد البث الإذاعي إلى ساعتين ونصف الساعة يومياً » ويضيف: «إن الذين استهدفتهم إذاعتنا كانوا شباباً تتراوح أعمارهم ما بين ١٦-٢٥ عاماً ، وأغلبهم من الطلاب متعلمين » يقول : « كنا محظوظين ، إذ كان بيننا شيخ مسلم متنصر يعد لنا البرامج ، وكان يلقي الموعظة كشيخ مسلم ، ولكن المحتوى كان من الإنجيل ». من خلال ما رأينا من تلك الأساليب التي جعلوها (طعماً) لاقتناص المسلمين[١] وكان مركز البث في قبرص .

* **عن طريق التعليم العالي**: الهدف من ذلك التأثير على قادة الفكر والرأي في البلاد ، وفي الجيل الناشئ ، وهذا ما لا يتحقق إلا عن هذه الطريق ، وعليه أوجد المبشرون البروتستانت كلية في بيروت (١٨٦٢م) وجلوا على رأسها «دانيال بلس» ، ثم أصبحت فيما بعد الكلية السورية الإنجيلية ، ثم هي اليوم الجامعة الأمريكية .

ثم أنشؤوا في القاهرة إلى جانب الجامع الأزهر الكلية الأمريكية في القاهرة ، بعد كلية روبرت باستانبول ، ثم أنشأ الفرنسيون في مدينة لاهور ، وهي مدينة إسلامية في الهند ، كلية للغرض نفسه .

وفي سوريا عام (١٩١٢م) كانت هناك ثمان وثلاثون مؤسسة تبشيرية من مختلف الجنسيات: فرنسية ، إنجليزية ، ألمانية ، دنماركية ، سويدية[٢] .

وكذلك كلية غردون في الخرطوم (إنجليزية)، حيث أسست عام (١٩٠٣م) ، وغردون هذا ضابط إنجليزي ، قتل في السودان لما استولى الإمام محمد أحمد

---

(١) ديار بكرلي ، عبد الرزاق: تنصير المسلمين ، ص٨٠-٨١ د.أكورود في محاضراته (الإرسال الإذاعي الحالي الموجه إلى المسلمين) ص٧٨.

(٢) الخلدي ، مصطفى ، فروخ ، عمر: التبشير والاستعمار ، ص٧٩.

المهدي[1] على الخرطوم عام (١٨٨٥م) .

أما الفرنسيون فقد بثوا برنامج مدارسهم بسوريا منذ عام (١٨٦٤م) قائلين : إن اليسوعيين المبشرين يريدون أن يقدموا إلى تلاميذهم النصارى العلم مع التعليم ، وفي الوقت نفسه أن يجعلوهم يعرفون فرنسا ، ويحيونها من خلال تحية العلم الفرنسي[2] ولقد كان المبشرون اليسوعيون في أول أمرهم ، ينشئون المدارس في جبل الدروز ، ثم يغلقونها إذا قصرت مواردهم الاقتصادية عن إدارتها،ولكن التعليم التبشيري بعد الانتداب ، وخصوصاً في جبل الدروز ، يقوم على تعاون وثيق بين المبشرين وبين السلطات العامة. وإن هذه المدارس الفرنسية لا تسعى إلى استغلال النشاط القومي في تعليم أهل البلاد ، ولا تسعى إلى إبراز الخصائص الوطنية ، حيث تفتح أبوابها لأبناء البلاد التي تكون فيها ، ولكنها تجهد في أن تجعل أبناء البلاد الذي تعلمهم – سواء كانوا في مراكش ، أو مصر ، أو سوريا ، أو لبنان – أشباهاً لأبناء فرنسا[3] نفسها في المظهر ، واللغة ، وأسلوب التفكير ، والتعلق بفرنسا المستعمرة[4] .

---

(١) محمد أحمد المهدي السوداني: ثائر ، كان لحركته أثر كبير في حياة السودان السياسية. حفظ القرآن وهو في الثانية عشرة من عمره ، اشتهر بالصلاح ، وكثر مريدوه ، وجاءه عبد الله التعايشي فبايعه على القيام بدعوته إلى تطهير البلاد من مفاسد الحكام ، وتلقب بالمهدي المنتظر ، وحدثت معارك بينه وبين حاكم السودان العام والحكومة المصرية ، فانتصر في كل معركة وكان فطيناً فصيحاً قوي الحجة. مات بالجدري سنة (١٨٨٥م). الأعلام (٦/ ٢٠).

(٢) الخالدي ، مصطفى ، فروخ ، عمر: التبشير والاستعمار ص ١١١.

(٣) الخالدي ، مصطفى ، فروخ ، عمر: التبشير والاستعمار ، ص١١٢.

(٤) وهذا ما نلاحظه فيمن تخرج من معهد أو كلية فرنسية ، فإنه يرطن بكلمات أجنبية في حديثه مع الناس ، ليظهر أنه متشبع بالثقافة الغربية ، ويتحدث عن أبطال فرنسا ، ومفكريها ، وكتابها ،

ولا يزال عالقاً في الأذهان أن أول ما اشترطته فرنسا لإعادة علاقاتها مع مصر في المفاوضات الدائرة بينهما ، إعادة مدارسها ومعاهدها ، فماذا يفهم من ذلـك ؟ وهنا سنورد ما قاله « كرومر » بمناسبة تعيين سعد زغلول وزيراً للمعارف (١٩٠٦م) ، بعد أن تكلم طويلاً عن الوطنية المصرية ، ثم وصف في ختام كلامه المدرسة التي ينتمي إليها زغلول ، وأن برنامجها يقوم على (التعاون مع الأوربيين لا على معارضتهم في إدخال المدينة الأوروبية إلى بلادهم) ثم يضيف قائلاً :« إن اختيار سعد غلول لهذا المنصب ليس إلا تأييداً لهذه السياسة التي ترمى إلى إدخال الهيمنة الغربية إلى مصر »[(١)] . ثم يقول « سوف نراقب ما تتمخض عنه هذه التجربة من آثار بعناية واهتمام فإذا نجحت التجربة – وهذا ما يأمله كرومر – يكون قد حقق هدفه ، وإذا أخفقت يعتمد على الأوروبيين أنفسهم في تنفيذ هذه الخطة ، وإن هذا الموقف في نشر حضارة الغرب أو ما يسمونه نشر الحضارة ، أو رسالة الرجل الأبيض ما هو إلا تنفيذ استعماري هادف إلى تدمير الأمة ، والقضاء على مقوماتها ، ومفاهيم دينها »[(٢)] .

فإذا سئل عن حضارة أمته العربية والإسلامية صار كالببغاء الأخرس تسمع همهمته فحسب ، أما صوته فاختفى تحت أكوام الثقافة الغربية ، التي رضع من مناهلها الهزء بالعربية ، وكره الواقع العربي واحتقار الماضي .

(١) حسن ، محمد ، محمد : حصوننا مهددة من داخلها ، ص١٤١-١٤٢.

(٢) نشرت جريدة الجمهورية في عددها الصادر في (٢٠/ ٤/ ١٩٧٨م) قولها : « لما تولى سعد زغلول زعامة الشعب في عام (١٩١٩م) اشترط على السيدات اللواتي يحضرن لسماع خطبه أن يزحن النقاب ، وكانت هذه أول مرحلة عملية للسفور » وكان سعد زغلول ماسونياً ، فقد نشرت مجلة المصور في العدد الخاص الصادر في (٢٣/ سبتمبر سنة ١٩٢٧م) بعد وفاة سعد زغلول ، صورة الخسارة تحت عنوان : «الأمة والحكومة تشيعان الفقد العظيم» وتحت الصورة

فالكاتب هنا ساخط أشد السخط على المحافظين ، وحتى على المعتدلين الذي يقاومون سياسة الانفتاح على الغرب ، وتلقف ثقافته غثها وسمينها ، والسبب أن هناك فرقاً شاسعاً بين المسلم الذي يؤمن بربه وبآخرته ، وبين الثاني ، والذي يقول: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية :٢٤].

ويزعم الكاتب أنه من غير الممكن اقتباس صناعات الغرب الآلية دون ثقافته ، ويدعي: « لا يمكننا أن نتقدم في الصناعة الآلية دون نشر هذه الثقافة بين الشعب على أكبر مقياس ممكن » لا أدري من أين اقتبس كرومر ذلك: إننا لا نتقدم إلا إذا أخذنا بثقافة الغرب ، وانسلخنا من ثقافتنا ، يعني : ديننا. ومتى كان الدين يحول دون العلم والمعرفة؟! ولكن هذا يغيب عن كرومر وأتباعه من المستغربين العرب[١] .

وهذا مثال آخر ، يصور ما يدعو فيه صاحبه إلى مواكبة الغرب والتأثر به ، ذلك ما كتبه السنهوري في مقاله عن القانون المدني العربي ، ويزعم فيه أن شريعتنا لم تبلغ مستوى القانون الغربي ، ودعا إلى تطوير الشريعة ، وهو يعني بذلك ، جعلها ملائمة لنظم حياتنا ، ولأنماطها المنقولة عن الغرب ، أو الغرب اللاديني . انظر إليه في قوله : « بعد أن أصبح الفقه الإسلامي ، والقانون المدني الغربي جنباً إلى جنب في صعيد واحد ، وبعد أن يتكامل القانونان وأن يتفاعلا ، هذا يؤثر في ذاك

مباشرة كتبت العبارة التالية: وفد البنائين الأحرار – الماسون في تشييع جنازة الزعيم الكبير – . وكان رحمه الله قطباً من أقطاب الماسونية » . وجاء في جريدة (المقطم) قريب من هذا ، في عددها الصادر يوم الجمعة في (٢٦ أغسطس سنة ١٩٢٧م) . فتأمل من إنسان كهذا كيف لا يخدم المصالح الغربية ؟.

(١) قسم اللغة العربية بكلية الآداب ، مجلة الأسرة ، العدد السادس ١٩٥٧م ، ص١٦٠-١٦٥.

وقد يتأثر به ، ومن ثم تقوم نهضة علمية حقة لدراسة الفقه الإسلامي في ضوء القانون المدني الغربي ، حتى إذا أصبح الفقه الإسلامي إلى حد يجعله مصدراً لقانون مدني يجاري مدنية العصر ، ويساير ثقافة الجيل ، عند ذلك نكون قد بلغنا المرحلة المنشودة من التقدم »[١] .

وبعبارة أخرى هو يعرض الشريعة على واقع الحياة ، ولا يعرض واقع الحياة على الشريعة ، ومع ذلك هو مخير بين شريعة منزلة من عند الله ، وقانون وضعي صنعته المصالح والأهواء.

والواقع إن ما يفعله السنهوري هو ما يهدف إليه الغرب في نقل ثقافتهم ، ومعارفهم .

يقول هـ .أ. ر. جب (Gibb) في كتابه « المحمدية » : إن مستقبل التغريب والدور الذي سيقوم به في العالم الإسلام ، لا يتوقف على هذه المظاهر الخارجية ، للتأثر والاقتباس ، لأن الصورة الظاهرية ثانوية ، وكلما كان التقليد في المظاهر أكمل ، كان امتزاج الشيء المنقول بنفس المقلدين أقل .... وإذا أردنا أن نعرف المقياس الصحيح للنفوذ الغربي، ولمدى تغلغل الثقافة الغربية في الإسلام ، كان علينا أن ننظر إلى ما وراء المظاهر السطحية ، وعلينا أن نبحث عن الآراء الجديدة ، والحركات المستحدثة ، التي ابتكرت بدافع من التأثير بالأساليب الغربية بعد أن تهضم ، وتصبح جزءاً حقيقياً من كيان الدولة الإسلامية ، فتتخذ شكلاً يلائم ظروفها»[٢] كل هذا يعني إيجاد إسلام غربي .

---

(١) السنهوري: في بحثه عن « القانون المدني العربي » ، ص٥-٢٩ .

(٢) Gibb : Muhammed anism ., An Historical Ssomey (oxford Up 1947) p.28.

*** تغيير نظم التعليم :**

لا ريب أن الغزو الفكري الغربي اعتمد على التعليم اعتماداً كبيراً في نشر حضارته ومبادئه ، واستعان بادئ الأمر بالتنصير الذي لجأ إلى الأساليب المباشرة ، التي قامت على إنشاء المدارس التبشيرية التي تدعو إلى المسيحية بطريق صريح ومكشوف ، وكان التركيز أكثر على رياض الأطفال ، ومدارس البنات ، وكذلك عن طريق محو الأمية. ثم لجأ العدو إلى أسلوب آخر في التعليم ، وهو اللاديني (أو المدني) . ويشرح لنا «اللورد لويد» المندوب السامي البريطاني في مصر ، في كتابه «مصر منذ عهد كرومر » ، وقد ألفه عام (١٩٣٣م) ، مبيناً السياسة التعليمية التي سار عليها الاستعمار الغربي في مصر ، فيقول: « إن التعليم الوطني عندما قدم الإنجليز إلى مصر كان في قبضة الجامعة الأزهرية الشديدة التمسك بالدين ، والتي كانت أساليبها الجافة القديمة تقف حاجزاً في طريق أي إصلاح تعليمي ، وكان الطلبة الذين يتخرجون من هذه الجامعة يحملون معهم قدراً عظيماً من بذور التعصب الديني ، ولا يصيبون إلا قدراً ضئيلاً جداً من مرونة التفكير ، والتقدير ، فلو أمكن تطوير الأزهر عن طريق حركة تنبعث من داخله هو لكانت خطوة جليلة الخطر ، ولكن إذا بدا أن مثل هذا الأمر غير متيسر تحقيقه ، فحينئذ يصبح الأمل محصوراً في إصلاح التعليم اللاديني ، الذي ينافس الأزهر حتى يتاح له الانتشار والنجاح. عند ذلك سوف يجد الأزهر نفسه أمام الأمرين ، فإما أن يتطور، وإما أن يموت ويختفي»[١] . ومنها بدأ يضيق الخناق على التعليم الديني ممثلاً في

---

(١) حسين ، محمد ، محمد: الاتجاهات الوطنية ، ٢/ ٢٨٧-٢٨٨.

الكتاتيب والأزهر[١] .

أي حقد هذا ؟ وأي تخطيط ماكر يدبر بليل ، لتدمير التعليم الديني، المسلمون كانوا في غفلة من ذلك ، ولم يفيقوا إلا والأمور قد انتهت ، وأحكم العدو سيطرته ، وأنجز مهمته ، وعندئذ يحتاج الإصلاح إلى سنوات وسنوات. من هنا كان حرص العدو على إضعاف التعليم الديني ، بل إبطال فعاليته،وإخضاع علمائه لسلطان الحكومة ، مع التقدير الشديد في الإنفاق عليه ، واغتصاب أموال الوقف المخصصة له وإنفاقها في وجوه أخرى ، وبعد ذلك تحول كل علماء الدين إلى موظفين يتقاضون رواتبهم من الحكومة ، عندها أخذوا يخشون بطشها إذا ما جهروا بالحق ، يعني محاربتهم في لقمة العيش. وفقدوا مكانتهم التي كانوا يعتدون بها ، كما وقفوا أمام الحملة الفرنسية ، وأما طغيان محمد علي باشا [٢] .

وقد نجحت سياسة الغرب في تحقيق أهدافها التي حددها الدكتور محمد محمد حسين كما يلي : « حصر أصحب الثقافة الإسلامية في المساجد ، ومنعهم من احتلال مراكز تتصل بتوجيه المجتمع ، وتنفير الناس منهم عن طريق تخفيض مرتباتهم ، مما يؤدي إلى أن يستشعروا الذلة والنقص وإلى أن تزدريهم الأعين ، وتنفر النفوس ، بسبب قذارة ملبسهم ، ومسكنهم ، نتيجة لفقرهم ، كما ينصرف الناس إلى ألوان التعليم التي تجر المغانم ، وتوصل الجاه،وهذه مؤامرة قديمة حاول الاحتلال والمبشرون ضبطها منذ وضع يده على الأزهر ، وهي ذات شقين الأول : عزل الأزهر عن الحياة ، والآخر إخضاع برامجه لرقابة تتضمن إفناء

(١) سعد ، مرسي ، أحمد،سعيد إسماعيل علي: تاريخ التربية والتعليم ص٢٤٩.

(٢) أبو حديد ، محمد فريد: « عمر مكرم » ص٥٢

شخصيته وتخبئته ، بحيث يصبح الدين تبعاً للحياة وذيلاً لها ، يتبعها ويتشكل بها ، بدل أن يقودها ، ويقومها »[١] .

أما التعليم المدني أو العلماني ، أو اللاديني ، الذي وجد جنباً إلى جنب مع التعليم في أكثر البلاد الإسلامية، فقد توسع الاستعمار بعد مرحلة من التقتير عليه، والاكتفاء بالمدارس التبشيرية والأجنبية ، أو إخضاع التعليم ورجاله للمستعمرين ، بحيث ينفذون السياسة التعليمية التي يرسمها لهم المستشارون الغربيون ، وفيها جعل الهدف من التعليم تخريج طلبة للوظيفة ، ولا يحملون إلا قشور التعليم ويهتمون بالشهادات أكثر من العلم والثقافة ، وبهذا نجح المستعمر في إضعاف التعليم ، واعتبروه مجالاً ناجحاً في تدمير الشباب المسلم ، وتخريج الأجيال الجاهلة[٢] .

وحيث إن التعليم هو الوسيلة الكبرى للتربية رأى المبشرون أن التبشير يجب ألا يقف عند مرحلة تعليمية واحدة ، بل يجب أن يتعدى ذلك ، وحتى التعليم العالي ، لأنه هو الذي يهيئ قادة الشعوب ، من أجل ذلك ، تبلورت الإرساليات الأمريكية حول إقامة كليات مجهزة تجهيزاً جيداً في إستانبول ، وبيروت ، وازمير ، والقاهرة وغيرها من مراكز البلاد الإسلامية .

وبعد ذلك أصبح الأمريكيون يعدون هذه المراكز هي « مصالح أمريكية » يجب المحافظة عليها ، وهم لا ينكرون أن هذه المراكز نشأت من التبشير ، وعلى أيدي المبشرين ، ومن هذه المؤسسات نذكر :

---

(١) حسين ، محمد ، محمد : الاتجاهات الوطنية ، ٢/ ٢٥٣.

(٢) الحبابين فاطمة الجامعي: تقويم تجربة التعريب في المغرب ، المستقبل العربي ، ص١٠٤-١٠٥.

١- مدرسة عبية في لبنان .

٢- كلية روبرت في إستانبول بتركية .

٣- الجامعة الأمريكية في بيروت .

٤- كلية غوردن في الخرطوم بالسودان .

٥- جامعة القديس يوسف في لبنان .

٦- الكلية الفرنسية في لاهور بباكستان .

وهذه المؤسسات عادة يتبعها مطابع ، وكل ذلك يتبع سياسة الدولة الممولة لهذه المؤسسة(١) .

إضافة إلى ذلـك « الحلقات الدراسية بالمراسلة » ، في بحث « لدونالد د.ديكاردز» جاء فيه «دعونا نتخيل ردود فعل الفتيات والنساء المسلمات على حلقة دراسية بالمراسلة عنوانها : « حقوق المرأة » .. ماذا يقول عنها الكتاب المقدس » ؟ أو حلقة أخرى (كيف تجدين حلولاً لمشاكل أسرتك؟) فهذه الحلقات تهتم بالمشكلات المؤلمة التي يعني منها الناس ، ففي هذه الحلقات البراقة يصورون كيف أن الإسلام كبل المرأة وقيدها واستعبدها ، وأنهم هم الذين يريدون تحريرها من ربقة العبودية .

هذه افتراءات واستهلاك لمفهوم (تحرير المرأة) بالطريقة التي وضعها المستعمر لأجلها ، ومن هنا لابد من التصدي له بكل ما يمكن من وسائل ، لتبيين حقيقة

---

(١) الخالدي ، مصطفى، فروخ ، عمر: التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص٦٣ .

الإسلام ، وما يحتويه هذا الدين حول المرأة وحقوقها[(١)(٢)] .

إن هذه الوسيلة (الحلقات الدراسية بالمراسلة) ، توفر لهم عناوين ، وتفتح لهم طرقاً ، للوصول إلى المسلمين ومخاطبتهم ، وكم يكون الإنسان البسيط العامي سعيداً عندما تصله رسالة من شخص مهم ، أو من هيئة مهمة ، مما يدفعه إلى مراسلتهم ، وبالتالي يقع في شباكهم ، فهذه الحلقات الدراسية تعطيهم عناوين ، وطرق اتصل مباشر مع الذين يتجاوبون معهم ، وبهذا يشكلون شخصيات رجال المجتمع من سياسيين ، وعاملين في مجالات الحياة المختلفة. فهذه وسيلة خبيثة لاصطياد البسطاء من الناس ، ومن ثم التلاعب بعقولهم،وصدهم عن دين الله ما أمكن[(٣)] .

* التغريب والتعليم :

يعتبر التعليم كما أسلفنا عنصراً أساسياً من عناصر التغيير التي تلجأ إليها المجتمعات لتصب ما تريد في أذهان الناشئة ، ثم العمل على تشكيل شخصياتهم

---

(١) ديار بكرلي ، عبد الرزاق: تنصير المسلمين ، ص٨٤.

(٢) والذي أراه نافعاً أن تصنف الكتب التي تشرح موقف الإسلام من المراة ، وتحدد معالم شخصية المرأة في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين ، حيث كانت ذات شخصية مستقلة،وذات إرادة كاملة ، وتشهد صلاة الجماعة ، وتخرج للعمل في الأرض ، وهي معتدة ، وتشارك في النشاط الاجتماعي ، وتحتفل بالعيد ، وحفلات الزفاف ، وتعقد الندوات الثقافية ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتساعد جيرانها ، وتعير الملابس في المناسبات ، وتهدي الهدايا ، وتعمل وتتصدق ، وتقدم المشورة ، وتوجد حلاً للأزمات الطارئة ، غير ذلك كثير ، وهذا وغيره يوضح رعاية الإسلام بالمرأة ، باعتبارها النواة الأساس لبناء المجتمع ، أما ما يفتريه المتعصبون والمستشرقون والمبشرون فحديث ليل لا يأتي بخير ، وينأى عن الحقيقة والواقع والتاريخ.

(٣) مرسي عبد العليم محمد: المعلم والمناهج وطرق التدريس ، ص١٤-١٥ .

للتأثير عليهم في المستقبل ، وأساس هذه العملية هم المعلمون لما لهم من تأثير في نمو وتحديد معالم شخصياتهم ، فإعداد المعلمين مهم جداً ، ومن دون إعداد المعلم، تخفق أنجح البرامج التعليمية مهما وفر لها من عناصر النجاح ، لأن للمعلم القدر الأكبر في صقل أبناء المجتمع ، علماً بأن المعلمين هم الذين يمدون المهن الأخرى بالعناصر البشرية المؤهلة علمياً ، واجتماعياً ، وفنياً ، وأخلاقيا. فالمعلمون هم الذين يتركون آثاراً واضحة على المجتمع كله ، وليس على أفراد فحسب(١) .

ولقد وعي الغربيون هذا البعد الخطير ، وبالتالي اهتموا بصب ما يريدون في عقول المدرسين ، سواء على مستوى الجامعة ، أو مستويات التدريس المختلفة، حيث يسروا لهم سبل الابتعاث للخارج ، ففي تركية أرسلت بعثات عسكرية ومدنية ، على حد سواء ، وفي مصر كذلك .

ولقد جاء في كتاب « المشكلة الشرقية » طبع لندن (١٩٥٧م) ، ما يلي: «لا شك أن المبشرين فيما يتعلق بتخريب وتشويه عقيدة المسلمين ، قد فشلوا تماماً ، ولكن هذه الغاية يمكن الوصول إليها من خلال الجامعات الغربية ، فيجب أن نختار طلبة من ذوي الطباع الضعيفة والشخصية الممزقة ، والسلوك المخل من الشرق ، ولاسيما من البلاد الإسلامية ، ونمنحهم المنح الدراسية ، وحتى نبيع لهم الشهادات بأي ثمن ، ليكونوا المبشرين المجهولين في تأسيس السلوك الاجتماعي والسياسي الذي نصبوا إليه. إن المجتمعات الغربية يجب أن تستغل جنون الشرقيين بالدرجات والشهادات لاستعمال الطلبة كمبشرين ، ووعاظ ،

---

(١) Chandler , Bj, and others : education and the New, teacher. Rodd Mead company N.Y.Toronto 1971.

ومدرسين لأهدافنا ومآربنا ، باسم تهذيب المسلمين للإسلام »[١] .

إن خطورة الابتعاث لا تقتصر على الطلاب المبتعثين فقط ، ولكن بما يعودون من أفكار خطيرة يكون لها الأثر السيئ على عقول طلابهم ، حيث يعودون بالشهادات ، ولكن بعد أن يترك روحه في مقهى أو خمارات الحي اللاتيني ، أو النوادي الموجودة بـ«سان جرمان» ...!![٢] .

* * *

(١) الميداني ، عبد الرحمن حبكة: الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ، ص٥٠٨-٥٠٩.

(٢) ابن نبي ، مالك: بين الرشاد والتنبيه ، ص١٠٧.

المبحث الرابع
المجـال التجـاري

ركز المبشرون في نشاطاتهم التبشيرية المبكرة على الاشتغال بالتجارة ، في قطر مثل السودان ، وخاصة تجارة الذرة ، والأبقار والخرز ، والأساور النحاسية ، وكانوا يتجرون فيها مع الأهالي عن طريق المقايضة ، ويدفعون أجور العاملين في مراكز التبشير ، ويبدو اهتمام المبشرين بهذه السلع كوسيلة لنشر الإنجيل في البلاد المختلفة ، وتعتبر التجارة تاريخياً مدينة للإرساليات التبشيرية والكنائس أيضاً[1] .

ويحرص المبشرون على احتكار السلع الضرورية ، لتتاح لهم الفرصة الكاملة للسيطرة على تلك المناطق ، عند فقدان هذه السلع كوسيلة ضغط ، وعندها يتم نشر الإنجيل وتعاليمه بسهولة ، لأن الإرساليات تنشط عند حدوث المجاعات ، أو انتشار الأمراض ، طلباً للمساعدة ، أو المال ، أو العلاج.

ولقد حرص المبشرون على قطع الصلة بين تجار الشمال والجنوب في دولة كالسودان ، حتى يتسنى لهم التجوال والاتصال بالقبائل الوثنية في المناطق النائية[2]، لأن التجار المسلمين كانوا ينشرون الإسلام واللغة العربية هناك ، فأحب المبشرون أن يقوموا بعمل تجار الشمال ومن خلال ذلك ينفذون إلى القبائل، وينشرون تعاليم المسيح ، وهذه القضية أثيرت في مؤتمر المبشرين الذي عقد في أدنبرة (١٩١٠م).

---

(١) عكاشة ، إبراهيم: التبشير النصراني في جنوب السودان ووادي النيل ، ص١٣٠.

(٢) خالدي ، مصطفى ، فروخ عمر: التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص١٥٠.

وقد أثار هذا العمل ضجة لدى تجار الشمال في السودان ، وقدموا شكوى للحاكم العام جاء فيها : « إن المبشرين الذي يعملون على نهر السوباط قد اعتادوا استلام كميات كبيرة من الأبقار عن طريق المقايضة بالذرة مع القبائل التي تحيط بهم ، وإننا نستنكر المنافسة غير العادلة بيننا وبين المبشرين الذي يتلقون مساعدات هائلة من الحكومة ، وتخفيضات في النقل البري والنهري لهم ، ولشحناتهم من المؤن والمواد ... وإن إجراء مثل ذلك يؤدي إلى إغلاق المناطق التي تم فتحها تدريجياً بوساطة الحكومة أمام التجارة الشرعية »[١] .

ولكن على ما يبدو : أن المبشرين لم يمتنعوا عن منع التجار الشماليين من الوصول للجنوب ، وأن سياسة الإقناع لم تجد نفعاً معهم ، مما دفع الحكومة في عام ١٩١٢م إلى إصدار قانون يحرم على المبشرين الاشتغال بالتجارة إلا في بعض السلع البسيطة لمنتجات الإرساليات ، إذ كانت تتبع لهذه الإرساليات معاهد ومراكز حرفية تنتج بعض الأعمال كالخزف ، والنسيج ، والأحذية ، وتباع في السوق المحلية ، والتي تمكن من دفع أجور العاملين في الإرساليات ، ومنذ ذلك القانون والإرساليات تطالب بعودتها للعمل التجاري ، وإلغاء القانون[٢] .

خلاصة القول : إن محاولة منع تجار الشمال من الوصول للجنوب ارتبطت أصلاً بأسلوب العمل التبشيري القاضي بالسيطرة الكاملة على المجتمعات المتخلفة ، وإن هذه السياسة بدأ تطبيقها بصورة عامة في كثير من الدول ، وفي الوقت الذي كانت تسير فيه إجراءات التخلص من المؤثرات الإسلامية والعربية

(١) عكاشة ، إبراهيم: التبشير النصراني في جنوب السودان وادي النيل ، ص١٣١ .

(٢) Regulation and condintions under , which Missionary work is Perimttel in the Sudan . Jan 1912G2 /5/022.

بالجنوب ، كانت الإرساليات تعمل جادة لفصله نهائياً عن سلطات الإدارة الأكليروسية في القدس والخرطوم العربيتين وربطه بإحدى الدول الإفريقية الزنجية [١] .

ونضيف : إنه ليس من الضروري أن تقوم بالاستعمار دول بنفسها ، بل كثيراً ما تولى الأفراد في صورة شركة تجارية ، تقوم بجميع أعمال الاستعمار ، فهم يعدون البعثات العسكرية ، والسفن ، والأسلحة اللازمة ، وفي الظاهر الاسمي هي شركة تجارية،ولكن أعمالها لا تقتصر على التجارة ، بل تتناول الفتح والغزو ، وانتزاع الأراضي والتبشير ، أي : إن الشركة هي دولة حاكمة ، ولكن بصورة غير مكشوفة ، وقد تناول الاستعمار بوساطة الشركات أقطاراً عظيمة كالهند ، وجنوب إفريقية ، والدول العثمانية بما حصلت عليه الدول المستعمرة من امتيازات لشركاتها ، وبعد ذلك تعمل الشركة في الاستيلاء على مساحات كبيرة من الأراضي، مثل الشركة التي كونها « سيسيل رودس »[٢] واستولت على مائة ألف كيلوا متر مربع ، وشركة إفريقية الشرقية البريطانية التي كان لها الفضل في الاستيلاء على شرق إفريقية ، فكان قيام هذه الشركات بالأعمال الاستعمارية بدلاً من الدول نفسها فتأمن الدول بذلك تعريض مصالحها ومؤسساتها للمخاطر ، ورفض الشعوب لها .

---

(١) عكاشة ، إبراهيم: التبشير النصراني في جنوب السودان وادي النيل ، ص١٣٢

(٢) رودس (سيسيل) بريطاني (١٨٥٣-١٩٠٢م) سياسي بريطاني هاجر إلى جنوب إفريقية حيث استغل مناجم الذهب والماس ، وجمع ثروة ضخمة ، حصل عام ١٨٨٨م على احتكار لاستثمار المعادن من روديسيا. تولى رئاسة الوزراء في مستعمرة رأس الرجاء الصالح (١٨٩٠-١٨٩٦م) سميت روديسيا على اسمه (موسوعة المورد العربية (١١/ ٥٥١).

وكان الأفراد في الشركات يعملون ما شاؤوا ، وأخيراً هم أفراد غير مسؤولين ، ثم تقوم الدولة المستعمرة فيما بعد بالسيطرة على هذه الشركة بعد أن تكون قد استعمرت البلد الذي أقيمت به هذه الشركات ، ثم تعلن الدولة المستعمرة أن لها رسالة مقدسة عالمية لابد أن تنشرها وتبثها بين الشعوب ، ألا وهي رسالة المدنية والحضارة ، وتوكل هذه المهمة للمبشرين والمستشرقين لتنفيذها عبر برامج مخططة ومدروسة[(١)] .

نلاحظ هنا وبالتحديد في ١٨ سبتمبر (١٨٣٣م) ، حصل « روبرتس » على اتفاقية للتجارة والصداقة من السلطان العماني بعد الوصول إلى مسقط ، أعطت تلك الاتفاقية ذات التسعة بنود للأمريكيين حقوقاً مماثلة للقوى الأخرى[(٢)] .

وربما كان هذا الاتفاق أول امتياز تحصل عليه حكومة غربية في ممتلكات السيد سعيد ، وقد وثق هذا الاتفاق ، وتم تبادل أوراقه في مسقط في ٣٠ سبتمبر (١٨٣٥م) ، وفي (١٨٣٦م) ، جرى استقبال رسمي لوصول أول قنصل أمريكي مهمته حماية التجارية الأمريكية ، والتجسس ، والدعوة للتبشير[(٣)] .

ولو عدنا إلى إفريقية ، وعلمنا : أن المستعمرين قدموا إلى تلك البلاد تحت شعار التبشير وباسمه لتحقيق الأهداف الاستعمارية ، فأي خدعة تكون ، وأي تضليل باسم الدين؟ ومن هنا تتضح الصلة بين الاستعمار والتبشير ، صلة بعيدة كل البعد

---

(١) محمد ، محمد عوض: الاستعمار والمذاهب الاستعمارية ، ص٤٢-٤٦.

(٢) Hurewitz. J,c. OP. cit, Doc, 75, pp, 256.

(٣) أباظة ، فاروق عثمان: التنافس البريطاني الأمريكي في جنوب البحر الأحمر في النصف الأول من القرن التاسع ، ص٢٥ ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٩م ، بحث غير منشور .

عن رسالة السماء[١].

فكان المبشرون يمهدون الطريق في إفريقية للحصول على الرقيق. ولقد نشر «الأب جادان» أنه في سنة (١٨٠٤م) ذهب ابن ملك الكنغو، وابن أخيه إلى معهد في (لواندا)، ليؤهلهما لدخول سلك القساوسة، وكان هذان الأميران التلميذان يتلقيان من الملك كل عام ثلاثة عبيد ليدفعوهم أجراً للكنيسة، كيف نقيس هذا السلوك بالإسلام الذي يدعو إلى تحرير العبيد ويطالب بهم كقيمة مادية مقابل التعليم؟ فكم عدد العبيد الذين تم إرسالهم إلى أوروبا وأمريكا تحت اسم الدين؟ هكذا استنزف الاستعمار، وبغطاء من المبشرين ثروات البشرية، ولم تعترض على ذلك الكنيسة الكاثوليكية، ولا البروتستانتية حتى إن تجارة الرقيق برزت من قبلهم بوساطة نصوص من العهد القديم[٢].

***

---

(١) نشرت صحيفة «الهيرالد تربيون» في ٢٥/٨/ ١٩٨٥م مقالاً تحت عنوان: «الباب يرجو الحد من انتشار الإسلام مع بداية زيارته الثالثة لإفريقية» وهذه هي الرحلة الثالثة للبابا خلال خمس سنوات، وهي يرى إفريقية من أنجح الميادين التي يعمل فيها النشاط الكنسي، كما يرى أن التوسع الذي تم ضاعف المنصرين عشرات المرات. ففي سنة (١٩٠١م) كان عدد الكاثوليك نحو مليون فقط، ويبلغ عددهم الآن (٦٥) مليون كاثوليكي، والمطلوب أن يصل العدد في السنين القادمة إلى مائة مليون!! أليس هذا استعماراً أو شبه استعمار، أو ارتباطاً بالاستعمار؟!.

(٢) عبد الظاهر، حسن عيسى: التبشير والاستعمار، مجلة الأزهر، جـ٨، السنة الثامنة والأربعون، ١٣٩٦-١٩٧٦م.

المبحث الخامس
المجال السيـاحي

وهذا أسلوب من أساليب المنصرين ، فقد استغلوا الفنادق العالمية الكبرى ، ذات الفروع في معظم عواصم العالم ، وقاموا بدس ما يمكن عن طريقها من غزو تبشيري ، ومن أمثلة ذلك من حدث في فندق « ميريديان » بالبحرين بإحدى دول الخليج في أحد الأعوام ، بعمل مسابقات لعدد من نزلائه في يوم المولد النبوي ، حول حوض السباحة في الفندق ، وقام شخص يطلقون عليه « بابا نويل » وهو رمز المسيحيين بتوزيع الهدايا على الأطفال الموجودين هناك [(١)] .

وبحجة التنقيب عن الآثار ، كان هناك في السودان إحدى البعثات الأمريكية للتنقيب عن الآثار في الأطلال القديمة شمالي السودان ، وقد تمكنت هذه البعثة من خلال أربع سنوات وحتى (١٩١٣م) ، - أي في الفترة التي عملت خلالها – من الكشف عن موقع هام للإمبراطورية الوسطى في «كرمة» وفي « مروي » في الشمال ، ثم العثور على آثار عديدة ومهمة[(٢)] ، ومن خلال ذلك أقاموا في كل موقع تم اكتشافه كنيسة. كما شارك الضباط الأمريكيون الذي عملوا في مصر في عهد الخديوي إسماعيل[(٣)] ، في أعمال الاستكشافات العلمية والجغرافية والمساحية في

(١) شلبي ، عبد الودود : أفيقوا أيها المسلمون قبل أن تدفعوا الجزية ، جدة ، دار المجتمع ، ١٩٨١م ص٩٦-٩٧.

(٢) شكري ، محمد فؤاد: أوروبة في القرن التاسع عشر ، الصراع بين البرجوازية والإقطاع ، من ١٩٨٩-١٩٤٨م ، ص١١٤.

(٣) الخديوي إسماعيل: خديوي مصر. كان مولعاً بالهندسة والرسم والتخطيط في طفولته ولما ولي

أقاليم السودان المختلفة ، ومن هؤلاء الضباط « كولستون » ، و« ماسون » ، و«براون» ، و«كامبل» و « متشيل » وغيرهم. وقد عين بعضهم في وظائف مهمة في السودان[١] .

والسودان وبرغم أنه شهد وفود عدد كبير من الأجانب ، إلا أن الجالية الأمريكية وصلت في فترة متأخرة في نهاية القرن التاسع عشر ، ومارست نشاطاً تبشيرياً تعليمياً ، وقد أعطتها الامتيازات الأجنبية حرية الحركة والانتشار في بعض مدن السودان وأقاليمه ، وكانت متميزة في نشاطها التبشيري عن بقية الإرساليات الأجنبية الأخرى ، وتمكنت من افتتاح المدرسة الإنجيلية الأمريكية للتجارة ، وفي قلب مدينة أم درمان عاصمة السودان سابقاً ، وبمقربة من ميدان « الخليفة » الذي طالما انطلقت منه جيوش المهدي المحاربة لأجل «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ضد المستعمر الإنجليزي ، وعلى رأسهم عبد الله التعايشي[٢] ولم تجد من سلطة الاحتلال الإنجليزي في مصر والسودان أي عقبة، أو قيود بل المساندة والتشجيع[٣] .

اتجه إلى تنظيم المدن وإنشائها. وفي أيامه أوصلت أسلاك البرق وسكك الحديد إلى بلاد السودان، وأقيمت المنارات في البحر الأحمر ، وبنيت مدينة الإسماعيلية ، وأنشئ المتحف المصري ، والمكتبة الخديوية. كان مسرفاً في الإنفاق على ملاذه وعلى مشروعاته. رضي بالمراقبة الأجنبية لخزاني مصر. عزل سنة ١٨٧٩م ، فقضى بقية أيامه في أوروبة وتركية إلى أن توفي في الأستانة سنة ١٨٩٥م ، الأعلام(١/ ٣٠٨).

(١) سيد ، أحمد ، نبيل : المجلة التاريخية المصرية ، ص٢٧٧.

(٢) عبد الله «التعايشي» (١٨٥٠-١٨٩٩م) خليفة المهدي السوداني بأم درمان ، حيث أوصى له المهدي خلافته فبايعه الدراويش أتباع المهدي سنة ١٨٨٥م ، فأقام ملكاً مطاعاً تجبى باسمه أموال بلاد السودان ، وجهز جيشاً للاستيلاء على مصر ، فهزمه الجيش المصري الإنجليزي. قتل في إحدى الحروب سنة ١٨٩٩م . الأعلام (٤/ ١٣٢).

(٣) فروخ ، عمر: من تحركات الاستشراق في البلاد العربية ، المنطلق ص ٢٠-٢١.

وهناك مجال آخر نفذ منه المبشرون ، وهو حرص الدول العربية على تشجيع السياحة ، وتحاول كل دولة أن يكثر عدد القادمين للسياحة فيها ، وخصوصاً إذا كانوا من الأغنياء .

إن معنى دخول أموال جديدة إلى الدول ، يعني انتعاش الحياة الاقتصادية ، ولكن السائحين ليسوا دائماً سائحين، فقد يكونون مبشرين، وقد يكنون جواسيس، وقد يكونون مفسدين ، وفي الآونة الأخيرة كثر القادمون باسم السياحة العلمية ، والاكتشافات الجغرافية،ثم كانوا عيوناً للدولة التي أرسلتهم باسم بريء ، هو العلم ، والاكتشاف ، والسياحة ، وهنا سأضرب مثالاً : إن الذين اكتشفوا مقبرة توت عنخ آمون الفرعونية في مصر هم من المستشرقين ، ولا ندري ما الكنوز التي خرجوا بها دون علم أحد ، ولا ندري الدواوين التي تمت سرقتها وتباع الآن بأغلى الأثمان. نستطيع القول إن المستشرقين قد أثروا متاحفهم ، ومكتباتهم بآثار الشرق المكتوبة وغير المكتوبة ، ولا شك أن الاستشراق المنحرف هو وجه من وجوه التبشير والاستعمار ، ووسيلة من وسائل السيطرة لأنهم في سبيل الحياة المادية يسلكون أي سبيل منحرف[١] .

ومن طرقهم الخبيثة في المجال السياحي: أن كثيراً من الرهبان والقساوسة الذي لا يظهرون بلباسهم الديني ، ويتخفون وكأنهم سائحون كثيراً ما يصادفون شباباً وفتيات مسلمات ، ويتبادلون معهم الزيارات ، حتى تتوطد العلاقة بينهم ، وما هي إلا شهور بعد عودة المبشرين إلى ديارهم ، وإذا بدعوات ترسل إلى هؤلاء الشباب متضمنة التذاكر ، والإقامة لمدة شهر ، أو أكثر ، في ضيافة ذلك المبشر أو القس ، ولن

---

(١) المرجع نفسه ، ص٢١.

يتردد الشباب في الذهاب ، خاصة إن كانت تلك الدعوات تشمل على عقود عمل مؤقتة للطلاب ، وبأجور مغرية في الإنجازات ، وكثير من الشباب الذين ذهبوا لم يرجعوا بحجة إكمال الدراسة ولكن وللأسف لم يكملوا تعليمهم ، بل ضلوا الطريق ، وانقطعوا عن دينهم ، وعن أوطانهم .

وهنا لا ننسى المعسكرات والمخيمات الصيفية التي كانت تعقد في المدن المسلمة ، كبيروت والناصرة ، وبيت لحم ، وغيرها كثير ، ويستضيفون لها كبار القساوسة ، والمبشرون لإلقاء المحاضرات ، أو التدريب ، والمهارات الرياضية ، والرحلات التي يقيمونها ، والصلوات التي يؤدونها ، والترانيم التي يسمعونها كل صباح ومساء بالإنجليزية أو الفرنسية ، كل ذلك كان يصب في وعاء واحد هو تجهيل الشباب ، وتدمير النشء ، حتى يتخرج جيل جاهل بدينه ، ولا يعرف ربه ، فالجهل أساس كل ما عاشته ، وما زالت تعيشه الأمة من كوارث [(١)] .

وكما نعلم أن السائح في التراث الإنساني يرتحل من وطنه إلى أغراض عديدة منها على سبيل المثال : السفر بحثاً عن الأمن والاستقرار ، السفر بحثاً عن الرزق ، أو يرتحل مع بندقيته وراء غزو وغنيمة ، أو طلباً للعلم أو العلاج ، وربما يسافر كي يحدث ضرراً في البلاد المسافر إليها ، ولا شك أن تاريخ الرحالة حافل بالكثير من المعلومات والفوائد التي تزين للشباب تقليد هؤلاء المبشرين في السفر ، وزيارة بلاد الكفر ، ومن ثم الضياع ، ومن المعروف أن التراث القديم عالمياً وإسلامياً قد امتلأ بأخبار السواح والرحالة ، وطلبة العلم ، وليس الفساد في الأرض .

---

(١) حاتم ، عماد: الغزو الثقافي الغربي الممهد والمتوافق مع الاستعمار ، الآداب ، العدد ٤٠٣ ، ١٩٨٢م ص٦٠.

وبعد الثورة الصناعية أصبحت السياحة والعلاقات الاقتصادية ، والتبادل التجاري وراء السفر والإقامة ، وبعد ذلك تطورت السياحة ، واقتضت المصلحة إنشاء الفنادق ، والمطاعم ، ومحطات السفر والأسواق التجارية ، والمراكز الثقافية والإعلامية ، فكان للمبشرين دور بارز في هذه المجالات عبر الفنادق والمطاعم ، حيث أصبحت الصناعة السياحية مهمة في تنمية المجتمع وتطوره وازدهاره[١] فلم يغب هذا عن بال المبشرين .

كما علموا على تأسيس هيئات ولجان تعني بالصناعة السياحية ، وذلك بإقامة الكليات الفندقية ، وتقديم المشورة والدراسات والبحوث ، وكان هذا مدخلاً كبيراً للمبشرين .

ولما كانت السياحة تعد مصدراً للدخل ، استغل ذلك المبشرون برحلات سياحية إلى بلاد المشرق ، وتطوير العلاقات بين مواطني الدول مع المبشرين ، واستغلوا بذلك إيجاد فرص للعمل لدى الشباب ، مع تطوير المفاهيم لدى الشباب خاصة ، لتواكب الطريقة الغربية. هذا بالإضافة إلى السياحة غير النظيفة التي تحدث عنها رئيس تحرير مجلة « المسافر العربي » ، العدد الثالث عشر ، مارس (١٩٨٧م) ، وصفت « بأنها غير صحية ، وتنتج عنها الإباحية الجنسية وغيرها»[٢] .

كما ركز المبشرون على تنشيط السياحة إلى بلاد الكفر عن طريق السياحة الترفيهية ، أو الرياضة ، والشبابية مع الاختلاط وما يتبعه ، إضافة إلى البرامج الإعلامية ، ومنح تسهيلات لهم كتخفيض تكاليف السفر والإقامة. كذلك

---

(١) العبد القادر ، علي العبد العزيز: السياحة صناعة المستقبل ، ص٦٦.

(٢) رئيس تحرير مجلة المسافر العربي ، ص٣٢.

استغلال الدورات الرياضية في محاضرات ثقافية .

كما شجع المبشرون إقامة مخيمات كشفية وطلابية وشبابية ، ووضع برامج لزياراتهم والتحدث إليهم ، مع عرض الأفلام والمسرحيات ، وتشجيع الهواة والفنانين دون غيرهم ، بالهدايا والجوائز[1] .

* * *

(١) إن كل ما يقوم دعاة التنصير والتبشير هو تجهيل الأمة الإسلامية ، وتنشئة جيل ضائع ، ولكن لا بأس أن نسمع مشاعر الغضب والحقد والعناد بادية في مؤتمر التنصير ، الذي انعقد في شوال سنة (١٣٤٦هـ) بالقدس أيام الانتداب البريطاني ، إذا وقف زعيم من دعاة التنصير يقول: لقد صرفنا من الوقت شيئاً كثيراً ، وأنفقنا من الذهب قناطير مقنطرة ، وألّفنا كتباً ، وألقينا خطباً ، ومع ذلك فلم ينتقل من الإسلام إلى النصرانية إلا عاشقاً بني دينه الجديد على أساس الهوى ، أو نصاباً سافلاً لم يكن داخلاً في دينه من قبل حتى بعده قد خرج منه ! ومع ذلك فالذين تنصّروا ، أو بيعوا بالمزاد ، لا يساوون ثمن أحذيتهم !! يجب علينا قبل أن نبني في قلوب المسلمين أن نهدم الإسلام في نفوسهم ، حتى إذا وهت صلتهم بدينهم سهل علينا ، أو على من يأتي بعدنا أن يتم رسالتنا ، وأن ينشر النصرانية بين الضائعين التائهين عن دينهم !! .

الفصل الثالث

فلسطين والتبشير

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : كيف بدأ التوغل التبشيري في فلسطين .

المبحث الثاني: نشاطات الإرساليات التبشيرية في فلسطين.

المبحث الثالث : نشرات المبشرين ومطبوعاتهم في فلسطين .

المبحث الأول
كيف بدأ التوغل التبشيري في فلسطين ؟

إن فلسطين من الناحية الإسلامية أرض مقدسة مباركة ، فهي الأرض التي باركها الله ، لوجود المسجد الأقصى فيها ، والذي يعد أولى القبلتين ، وثالث الحرمين الشريفين .

قال تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ [الإسراء :١] .

كما تمتاز فلسطين بأنها مهد الديانات السماوية جميعها، حيث أقام إبراهيم – عليه السلام – وبشر بالتوحيد ، ودفن بالخليل(١) ، وكذلك أنبياء الله : لوط وموسى وعيسى – عليهم السلام– ، فهي محط أنظار أصحاب الديانات ، تعرضت لمؤامرات الصليبين تارة ، واليهود تارة أخرى .

ومن ناحية أخرى فإن فلسطين تتمتع بموقع استراتيجي يتوسط بين القارات الثلاث : آسيـا ، وإفريقيا ، وأوروبا. ولقد ظلت فلسطين محط أنظار الاستراتيجيين والقادة العسكريين منذ فجر التاريخ حتى اليوم ، وهذا نابليون يقول عام (١٧٧٩م) وهو يتراجع مهزوماً من أسوار عكا: «لو فتحت عكا لفتحت الشرق» (٢) .

---

(١) الخليل : تقع جنوب القدس ، وتبعد عنها مسافة ٤٠ كلم ، وتعد من أقدم المدن التاريخية ، وفيها الحرم الإبراهيمي .

(٢) خمار ، قسطنطين : الموجز في تاريخ القضية الفلسطينية ، ص٢٣.

ومن هنا تمتعت فلسطين بهذه الأهمية وخاصة عند دولة الخلافة. كيف لا! وهي صلة الوصل بين ولاياتهم الإفريقية والآسيوية ، وتمر عبر أراضيها القوافل التجارية ، والعسكرية ، وبنوا فيها المحطات لحماية الطرق ، وتوفير الراحة لحجاج بيت الله الحرام ، كما حفروا البرك ، ورمموا القديم منها ، وسهلوا الطرق لهذه الغاية .

لذلك سعت الدول الاستعمارية إلى اتباع سياسة التفرقة في المنطقة ، باستغلال القوميات والطوائف والعصبيات من أجل سهولة السيطرة على هذه البقعة المباركة ، وتتقدم الدول الاستعمارية بريطانيا ، والتي كان لها الدور الأكبر في فكرة توطين يهود أوروبة في فلسطين ، لتبقى شوكة في حلق الأمة الإسلامية والعربية ، وفي هذا الصدد يقول الكاتب الإسرائيلي « يوري أفنيري » : إن فكرة إنشاء وطن يهودي في فلسطين بوصفه مخفراً أمامياً للإمبروطورية البريطانية ، لم تكن بأي حال فكرة جديدة ، ففي سنة (١٨٤٠م) حث على هذه الفكرة اللورد «بالمرستون»(١) الذي كان يعتقد وأن مستوطنة يهودية على الأرض المقدسة ، ستساعد الإمبراطورية العثمانية التي كانت تحظى بمساعدة البريطانيين ضد المصريين الذين كانوا يحظون بمساندة الفرنسيين »(٢) .

إن فلسطين كانت عامرة مزدهرة بالنسبة لغيرها منذ زمن الكنعانيين ، واستمرت فلسطين بالتطور ، والتقدم والرخاء بفضل تطور سكانها العرب ، الذين لم يغادروها عبر التاريخ ، حتى اعتبروا من أعرق شعوب العالم في الإقامة والاستقرار على أرضهم .

---

(١) اللودر بالمرستون : وزير خارجية بريطانيا – ١٨٤٠م .

(٢) أمين ، بديعة : المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية ، ص ١٤٨ .

وفي الوقت الذي جاء بنو إسرائيل (قوم موسى) إلى بلاد كنعان ، كانت المدن الكنعانية ذات حضارة قديمة نشأت منذ ألف وخمسمائة سنة ، وفيها منازل متقنة ، تتوافر فيها أسباب الراحة ، إضافة إلى ما فيها من الصناعة والتجارة .

وكانت عندهم علوم ومعارف وكتابة ، ففلسطين عربية مهما ادعى أعداء الإسلام أنها أرض الميعاد ، وأرض الآباء والأجداد ، علماً أن اليهود أنفسهم ليس بوسعهم أن ينكروا أن تلك الأرض كانت موطن العرب[١] .

ومن أهمية فلسطين عبر التاريخ تطور الزراعة فيها ، فسهولها الخصبة كانت جنات ، ونشاطها الاقتصادي كان مزدهراً جداً. فهذا هو الرحالة الفرنسي «فولني» سنة (١٧٨٠م) يبين مهارة أهل فلسطين في مختلف النشاطات الاقتصادية ، والصناعية ، والتجارية. وكانت التجارة عبر مينائي (يافا) و(عكا) نشطة جداً ، والصناعات الفلسطينية والمحاصيل الزراعية كانت تصدر عبر ميناء يافا ، كالزيوت ، والصابون ، الفول ، والقمح ، والقطن[٢] .

إن بساتين الزيتون والبرتقال التي استولى عليها اليهود بعد أن شردوا أهلها اللاجئين بعد عام (١٩٤٩م) لأكبر دليل على قوة هذا الشعب ، وأنه مكافح ، وسيبقى كذلك حتى يعيد أرضه بإذن الله.

وبذلك يرد على الذين روجوا أن أرض فلسطين كانت خاوية من السكان ، وكأنها صحراء قاحلة ، لا زرع فيها ، علماً أن شجرة الزيتون والبرتقال لم يزرع فيه أيام وشهور قلائل ، بل زرعته الأيادي المباركة ، ومنذ زمن بعيد .

---

(١) الأسمر ، فوزي :عرابي في إسرائيل ، ص٩٠٨ ، ترجمة د. نظمي لوقا وصوص عبدالله .

(٢) قهوجي ، حبيب : إستراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة ، ص٢٩.

إن العرب المسلمين ظلوا يقاومون عملية بيع الأراضي لليهود وطوال الفترة، أما الأراضي التي حصل عليها العدو، فهي أراض أميرية، منحتها بريطانيا لليهود، وبقية الأراضي كانت لملاك عرب من سورية، ولبنان، يقطنون خارج فلسطين، تم بيعها بالخفاء، وبأسعار مرتفعة جداً كانت مغرية لهم(١).

* موقف الإسلام من أهل الكتاب :

على الرغم من أن الكتب المقدسة التي بأيدي أهل الكتاب الآن محرفة من وجهة نظر الإسلام، وليست كما نزلت على موسى وعيسى - عليهما السلام - ومع ذلك التزم المسلمون باحترام أهل الكتاب، وتمثل ذلك في عدم منعهم من ممارسة شعائرهم التعبدية، بل عمل المسلمون على حماية كنائسهم. كما التزم المسلمون بمعاملة أهل الكتاب بحرية العمل والتملك، وأن الاعتداء عليهم خروج على تعليم الإسلام ما داموا ملتزمين بواجباتهم، ويؤدون الطاعة اللازمة، وغير خارجين على القانون والنظام الإسلامي. وهذه مجموعة من النصوص الشرعية توضح ما نقول.

ورد في القرآن الكريم عدد كبير من الآيات التي تأمر المسلمين بمعاملة أهل الذمة معاملة حسنة على أساس القاعدة التي رآها الفقهاء « لهم ما لنا وعليهم ما علينا »(٢).

قال تعالى : ﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن

---

(١) هراوي، سامي: الحصار المر، فلسطين بين عامي ١٩١٤-١٩٧٤م، ص٧٨، ترجمة د. فخري حسين.

(٢) السيد سابق: فقه السنة، ص٦٢٢.

دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨].

كما قال تعالى : ﴿ ۞ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ [العنكبوت :٤٥].

وقد امتدح القرآن الصالحين منهم بقوله :﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ ﴾ [آل عمران :٧٥].

وفي السورة نفسها يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ۞ لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [آل عمران : ١١٣-١١٤].

أما الأحاديث النبوية ، فقد ورد الكثير من الأحاديث التي تحث المسلمين على معاملة أهل الذمة أحسن معاملة وعلى تحريم إيذائهم في معابدهم ، أو أكل حقوقهم ، هذا وقد حفظ المسلمون العهود والمواثيق التي أبرموها مع أهل الذمة ، وأقاموا العدل بينهم ، وانتصفوا لهم من الظالم ، وحفظوا لهم حريتهم الشخصية والدينية. وقد جاء في الحديث «**من ظلم معاهداً، أو كلّفه فوق طاقته فأنا حجيجه**»(١) .

وقد كفل لهم رسول الله ﷺ ألاّ تهدم كنائسهم ، وأن يتركوا وشأنهم في دينهم بقوله ﷺ : « **اتركوهم وما يدينون** »(٢) .

---

(١) رواه أبو داود (٣٠٥٢).

(٢) لم أجده فيما بين يدي من مصادر حديثة ، وهو في فقه السنة لسيد سابق (٣/ ٧٢).

وعن أنس ر قال : رهن النبي ﷺ درعاً عند يهودي بالمدينة ، وأخذ منه شعيراً[(١)] . وفي لفظ : توفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهون عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير[(٢)] .

فحقوقهم محفوظة ما داموا يؤدون الواجبات المطلوبة منهم ، وهذا ينطبق عليهم وعلى المسلمين ، فمن يخرج عن النظام ، ويخالف الأمور الشرعية ، والأنظمة الإسلامية يتعرض للعقاب. فبقي أهل الذمة من يهود ونصارى يعاملون أحسن معاملة حتى جاء « الاستعمار ، وحسب بفعل مخططاته للانتقام من المسلمين جند الكثير من أهل الذمة لهذه المهمة ، ظناً منهم أن ذلك سيؤدي إلى اقتلاع المسلمين من جذورهم ، وكان الأولى بهم أن يحترموا من احترمهم ، ورعى حقوقهم عبر مئات السنين .

* * *

(١) رواه أحمد (٣/ ١٣٣) والبخاري (٢٠٦٩) والترمذي (١٢١٥) والنسائي (٧/ ٢٨٨) وابن ماجة (٢٤٣٧) .

(٢) رواه أحمد (٦/ ٤٢) والبخاري (٢٢٠٠) ومسلم (١٦٠٣) والنسائي (٧/ ٢٨٨) وابن ماجة (٢٤٣٦) وابن حبان (٥٩٣٦) .

فلسطين والتبشير

كان المبشرون في أول عهدهم مبعثرين لا تجمعهم جامعة ، كل طائفة منهم تتبع كنيسة تنتمي إليها ، ولكنهم في القرن العاشر اجتمعوا إلى رئيس عام ، هو بابا الكنيسة الرومانية .

والحروب الصليبية التي شنها المسيحيون على المسلمين في القرون الوسطى بدءاً من سنة (١٠٩٥م) لم تكن إلا دعوة إلى النصرانية بقوة النار والحديد ، وكانت طائفة الدومينيكان هي التي انتدبت لتنصير المسلمين في فلسطين ، وحصلت على امتياز سدنة بيت المقدس سنة (١٣٣٦م)[١] .

ثم حصل خلاف بين طوائف المبشرين وجماعاتهم ، أدى إلى ضعف ما عملوه. وفي أوائل القرن السابع عشر رأت الكنيسة أن تنشط في أمر التبشير ، لتعوض ما خسرته في السنوات الماضية، وفي عام (١٦٢٢م) توزع الدعاة على أرجاء الأرض، وكانت فلسطين تابعة لبعثة المشرق مع مصر وتركيا والفرس ، ومع هذا ورغماً عن المجهودات العظيمة التي بذلها المبشرون ، فإن أعمالهم ارتكست أكثر من قبل لعدم ارتكازها على شيء جدي .

ولقد وافق هذا السعي الخبيث دخول المسلمين في فترة ضعف وانحلال حضاري عام ، ولم يكن قادتهم على وعي تام بما يُخطط ويحاك حولهم ، ولما تعطلت الدول الأوروبية إلى إعادة الغارة على العالم الإسلامي عمدت إلى دراسة أحوال المسلمين من حيث اللغات واللهجات والطوائف والفرق ، ولم يكن هذا العمل

---

(١) وحدي ، محمد فريد: دائرة معارف القرن الرابع عشر – العشرين ، ٢/ ٢٠٦.

فردياً بقدر ما كان يستهدف غاية مزدوجة: تدمير الإسلام ، وقهر المسلمين ، وامتصاص ثرواتهم[(١)] .

وكانت تقف وراء هذا النشاط المحموم جهتان هما: الكنيسة الأوروبية ، والدول الطامعة قومياتها وأنواعها بكافة ، ودليل ذلك: أن كثيراً من المبشرين والقساوسة كانوا يعملون مباشرة ، لخدمة الاستعمار والاحتلال.

ولما كانت فلسطين كغيرها جزءاً من الإمبراطورية العثمانية منذ القرن السادس عشر ، بقي أهل فلسطين زهاء أربعة قرون عاشوا فيها أيام العز والرخاء في ظل دولة إسلامية ، حتى رأوا ظهور استقلال القوميات الأخرى التي كانت تخضع لدولة الخلافة العثمانية كاليونان ، والرومان ، والبلغار ، مع بداية الدول الأوروبية المستعمرة لدولة الخلافة العثمانية ، حيث استولت إيطاليا ، وفرنسا ، وبريطانيا ، على شمال إفريقيا ، والنمسا على جزء من البلقان ، وفي هذه الأثناء كانت فلسطين مطمعاً للاستعمار ، حيث كانت بريطانيا ، وفرنسا ترغبان في السيطرة على بلاد الشام ، وخاصة فلسطين ، ففرنسا كانت تتطلع إلى استعمار هذه البلاد منذ زمن بعيد من أجل مد نفوذها على جميع بلاد الساحل الشامي بما في ذلك فلسطين ، وما الحروب الصليبية ، وحملة نابليون بونابرت والجمعيات التبشيرية ، ونشر العداء بين الطوائف إلا أساليب وطرقاً اتبعتها فرنسا للسيطرة على هذا الجزء المهم والغالي من البلاد العربية[(٢)] .

أما بريطانيا فكانت تطمع في فلسطين خاصة بعد احتلالها لمصر والسودان ،

---

(١) فتح الله السعيد: الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ، ص٣٤.

(٢) النحال ، محمد سلامة: فلسطين أرض وتاريخ ص١٤١.

وفي عام (١٩١٣م) بدأت تطالب بحيفا ، والعقبة ، وتعمل على زحزحة أطماع فرنسا في فلسطين حتى يتم لها ابتلاعها ، كي تؤمن الطريق البري الذي يصل الخليج العربي بالبحر المتوسط ، فكان حتماً عليها أن تستولي على فلسطين ، وكانت حماية الطوائف الدينية والتبشير الذريعتين المفضلتين لدى فرنسا[١] وبريطانيا للدخول إلى قلب هذا الوطن العربي المسلم ، وانتزاعه من دولة الخلفة الإسلامية .

فلسطين في أواخر العهد العثماني :

١ - الوضع الإداري :

كانت وحدة التنظيم الأساسي في دولة الخلافة العثمانية الولاية ، والتي تنقسم بدورها إلى سناجق ، أو متصرفيات ، فكانت القدس سنجقاً منفصلاً ، ولها متصرف يتمتع بصلاحيات الوالي ، ويتلقاه أوامره من إستانبول مباشرة ، إذ أن فلسطين ككل لم تكن ولاية في حد ذاتها ، بل مقسمة إلى: سنجق القدس ، وسنجقي عكا ونابلس التابعين لولاية الشام ، ثم بعد ذلك ولاية بيروت بعد إعادة تنظيم ولاية الشام .

فكان سنجق القدس يشمل معظم أراضي فلسطين ، وتعود أهمية هذا السنجق لما يتمتع به بيت المقدس من مكانة دينية ، وتاريخية ، وسياحية ، ونضيف أن فلسطين كان تعدادها في أواخر القرن التاسع عشر (٤٦٦) ألف نسمة ، وفي أواخر سنة (١٩١٤م) قدرت السلطات العثمانية مجموع سكان فلسطين بـ(٦٨٩) ألف نسمة[٢] .

---

(١) بير ديستريا: من السويس إلى العقبة ، ترجمة يوسف مزاحم ، ص٦٢.

(٢) المحجوب ، علي: جذور الاستعمار الصهيوني بفلسطين ، ص١٤١.

ولسنجق القدس أقضية : بئر السبع ، وغزة ، والخليل ، وبيت لحم ، وأريحا ، ويافا ، واللُّد[١] ، والرملة ، ومدينة القدس نفسها ، ورام الله ، والمجدل[٢] ، وأما ما تبقى فكان فيه متصرفيتان متصرفة نابلس ويتبعها: جنين ، وطولكرم ، وبيسان ، وقلقلية ، وغور الفارعة ، ومتصرفية عكا وأقضيتها هي: صفد ، وطبرية ، والناصرة ، وحيفا ، والشريط الساحلي الممتد من جنوبي جبيل شمالاً إلى يافا جنوباً، وكانتا تابعتين لمتصرفية بيروت ، وكان لفلسطين نواب في البرلمان العثماني لما أعلن الدستور سنة (١٨٧٦م) وكذلك لما أعيد (١٩٠٨م) ، أما عسكرياً فكانت تابعة للقيادة العام السورية[٣] .

وفي العهود الأخيرة وضعت فلسطين كغيرها على خريطة المطامع الأوروبية ، لذا فقد تدفق عليها سيل من الحجاج ، والسياح ، ورجال السياسة ، كما قام العديد من المؤسسات الغربية التبشيرية وغير التبشيرية ، فتح المدارس في أنحاء البلاد ، كالمدرسة الصلاحية ، والمدرسة الأرثوذكسية القبطية ، والمدرسة الأحمدية في عكا ، وكلية النجاح الوطنية في نابلس .

٢- الوضع الاقتصادي :

فلسطين جزء من بلاد الشام تعرض اقتصادها للتقلبات نفسها التي مر بها

---

(١) اللُّد : بلدة صغيرة قيل إنها مسقط رأس القديس جرجس ، وقال ياقوت الحموي صاحب معجم البلدان: عندها يُقتل الدجال.

(٢) المجدل: مجدل عسقلان بلدة في فلسطين جنوبي القدس اغتصبها اليهود عام ١٩٤٨م ، بعد نزوح العرب إلى غزة ، وإليها تنسب مريم المجدلية الخاطئة التي تابت ، وأصبحت حاملة يسوع ، ووقفت مع أمه مريم العذراء على أقدام الصليب.

(٣) الدباغ ، مصطفى: بلادنا فلسطين ، ص٢٤١.س

اقتصاد المنطقة ، يزدهر حينما يكون الجو مناسباً ، وتتوافر الأمطار ، ويركد عندما يغلب الجفاف ، وإنتاجها كإنتاج منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط ، ومن الحبوب ، والزيتون ، والبقول ، والغلال ، وخصوصاً ، البرتقال ، فلم تكن فلسطين أرضاً قاحلة كما وصفها الصهاينة. أما الصناعات فقد تعرضت في أواخر القرن التاسع عشر ، وأول القرن العشرين لمنافسة أوروبية ، أضعفت الاقتصاد بشكل كبير ، وهذا حال دولة الخلافة العثمانية آنذاك ، أما الأراضي فكانت تخضع لضرائب كبيرة أعجزت المزارعين ، علماً أن أفضل الأراضي كانت بيد بعض العائلات احتكرتها ، ووظفت المزارعين فيها. وبسبب سوء الحالة الاقتصادية تمكن كبار التجار من بيروت ، كعائلات بسترس وسرسق ، والخوري من شراء أراض كبيرة ، وهذه تم بيعها والتنازل عنها لليهود ، وهكذا اتسعت مستوطنات اليهود [1] .

* بداية الامتيازات القنصلية :

تعرضت فلسطين كغيرها من ولايات دولة الخلافة العثمانية لاستغلال الأوروبيين عن طريق نظام الامتيازات الأجنبية. وهذا النظام يرجع إلى زمن السلطان العثماني سليمان القانوني الذي منح ملك فرنسا فرنسوا الأول امتيازات تجارية وقانونية سنة (١٥٣٥م) حيث أبقى للجاليات المسيحية والأجنبية أنظمتها العقارية الخاصة ، ومحاكمها ، وقوانينها ، وقضاتها ، فكانت بذلك تتمتع باستقلالها

---

(١) أما ما يشاع بأن الفلسطينيين باعوا أراضيهم ودورهم لليهود ، فكلام غير صحيح ، ولا تؤيده الوقائع التاريخية ، ولم يثبت أبداً أن فلسطينياً باع ممتلكاته ليهودي ، ولكنها إشاعات مغرضة ، مكشوفة الأهداف ، واضحة المرامي .

المشفوع بحماية الدولة. وحافظ بقية الخلفاء على ذلك ، ولكن هذه الامتيازات حين كانت الدولة قوية – بل في أوج قوتها – لم تؤثر على هذه الدولة إلا أنها وفي وقت الضعف انقلبت إلى تجاوزات بدأت تغير موازين القوى ، وتضعف الدولة العثمانية [1] .

وقد كانت الجاليات الأوروبية القاطنة في فلسطين في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين لا تخضع للقانون العثماني ، بل لنظام الامتيازات المعمول به، وكان يدير شؤون هذه الجاليات قناصل مكلفون لدى السلطات العثمانية ، وهؤلاء القناصل هم الذين ينظرون في أي دعوى ضد أفراد هذه الجاليات ، ولقد استفاد اليهود كثيراً من هذه الامتيازات ، لأنه يحملون جنسيات دولهم الأجنبية. وكانت هذه الامتيازات هي الباب الذي ولجت منه هذه الدول الاستعمارية ولوجاً يحقق أهدافها. وأخذت هذه الدول تفسر الامتيازات بأنها حقوق انتزعت من سلطان ضعيف ، مع أنها منحت في أوج قوة الدولة العثمانية المسلمة ، حتى أصبحت هذه الامتيازات عقبة كؤوداً أمام الدولة ، منعتها من تنفيذ مشروعات إصلاحية ، وأصبحت خطراً فيما بعد ، تكلف الدولة النفقات الكثيرة: الأمن ، والإدارة ، حتى سقوط الخلافة بعد الحرب العالمية الأولى [2] .

وتطور أمر هذه الامتيازات حتى أصبحت السفن الفرنسية تدخل الموانى العثمانية تحت حماية العلم الفرنسي ، ومنح الزوار حرية زيارة الأماكن المقدسة ، والإشراف عليها ، وحرية ممارسة الطقوس الدينية هناك ، وحصلت روسيا

---

(١) المحجوب علي: جذور الاستعمار الصهيوني ، ص١٤.

(٢) الشناوي ، عبد العزيز: الدولة العثمانية ، دولة إسلامية مفترى عليها ، ص٢/ ٧٥.

بموجب هذه الامتيازات حق بناء كنيسة في إستانبول ، وحق حماية النصارى التابعي للمذهب الأرثوذكسي من رعايا الدولة ، لقد أدت هذه الامتيازات إلى إشعال بؤر الفتن ، وأربكت الدولة ، وشغلتها عهوداً طويلة ، وبعد ذلك اتخذت ذريعة للتدخل الأوروبي بحجة حماية الرعايا ، وبالتالي الاحتلال والعدوان[1] وكانت هذه الامتيازات باباً سلكته الدول الأجنبية إلى تحقيق أهدافها في تدمير الدولة الإسلامية ، وإسقاط الخلافة.

مكانة فلسطين إسلامياً

فلفلسطين مكانة عظيمة في الإسلام تعود إلى ارتباطها بوجود المسجد الأقصى فيها . وهذا الارتباط بالقدس الشريف منذ أن حل رسول الله ﷺ في أرضها عندما أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وعرج به إلى السموات ، وكان هذا الربط العظيم بين مكة والقدس إعلاناً من الله تعالى : أن مواريث الأنبياء جميعاً قد أعادها الله إلى خاتم النبيين محمد ﷺ ، قال تعالى : ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ [الإسراء : ١].

إذاً حادثة الإسراء والمعراج توريث إلهي لبقية ما ترك الأنبياء السابقون لسيدنا محمد ﷺ لأنه جاء خاتماً يصحح ، ويعلن دين الله للعالم أجمع ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٩] .

---

(١) حسون ، علي: تاريخ الدولة العثمانية ، ص٨٤.

وفيها ثالث الحرمين الشريفين بعد الحرم المكي والمدني ، وورد في الحديث عن النبي ﷺ قال : «**لا تُشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجدي هذا**»(١) .

المسجد الأقصى هو ثاني مسجد وضع في الأرض لعبادة الله بعد المسجد الحرام في مكة ، وروى أبو ذر قال سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع في الأرض قال: «**المسجد الحرام**» . قالت : ثم أي ، قال: «**المسجد الأقصى**»(٢) . ومنذ أن فتح الخليفة عمر بن الخطاب ر بيت المقدس في السنة السادسة عشرة للهجرة عدها المسلمون وما حولها الثغر الذي يمكن لأعداء الإسلام أن ينفذوا منه إلى بيت الله الحرام في مكة وإلى مسجد رسول الله في المدينة ، وكان هذا مستمداً مما رواه السيوطي ـ رحمه الله ـ: أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه : «**إن الله عز وجل سيفتح عليكم الشام من بعدي من العريش إلى الفرات رجالهم ونساؤهم وإماؤهم مرابطون إلى يوم القيامة**»(٣) .

لذا أقبل المسلمون إلى بيت المقدس من كل ناحية ، ليقيموا فيها ويسدوا هذا الثغر ، ومنهم : عبادة بن الصامت ، ووائل بن الأسقع ، وأبوريحانة الأنصاري ، وشداد بن أوس ، وفيروز الديلمي وغيرهم – رضوان الله عليهم – .

---

(١) رواه البخاري (١١٨٩) ومسلم (١٣٩٧/ ٥١١) وأبو داود (٢٠٣٢) والنسائي (٢/ ٣٧) وابن ماجة (١٤٠٩).

(٢) رواه أحمد (٥/ ١٠ و١٥٦) والبخاري (٣١٦٦) مسلم (٥٢٠/ ٢) والنسائي (٢/ ٣٢) وابن ماجة (٧٥٣) .

(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٥٧) .

وقد زارها بلال وأبو الدرداء ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو ذر الغفاري ، وسلمان الفارسي ، وسعد بن أبي وقاص ، وأبو عبيدة ، وخالد بن الوليد ، وعبدالله بن عمر – رضوان الله عليهم أجمعين – ، فصارت فلسطين إسلامية ، لأن الإسلام ليس ديناً عربياً ولا شرقياً ، ولا ديناً زمنياً ، بل هو دين الله للناس كافة ، ومن فرط في القدس ، فقد فرط في إجماع الصحابة ، وخالف أصلاً من أصول التشريع الحنيف[1] .

ومن هنا فإن اهتمام المسلمين بالقدس لم ينقطع على مدى الأيام ، وظلت فلسطين عربية إسلامية منذ الفتح العمري لها سنة ١٥هـ ٦٣٦م إلى ١٣٦٠هـ ١٩٤٨م ، وباستثناء فترة الحروب الصليبية منذ سنة ١٠٩٩ – ١١٨٧م حيث أسس الصليبيون مملكة لاتينية فيها ، وحينما اجتمعت كلمة المسلمين وعزموا على تطهير البلاد المقدسة قادهم صلاح الدين ، وانتصروا في الحرب المقدسة ، والتي كان من أبرز معاركها حطين قرب بحيرة طبرية ، وأعاد صلاح الدين[2] بيت المقدس يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣هـ - ٢/ ١٠/ ١١٨٧م ، وعامل العدو

---

(١) شلبي ، رؤوف : عودة القدس ، ص٢٨.

(٢) صلاح الدين الأيوبي: من أشهر رجالات الإسلام . نشأ في دمشق ، وتفقه ، وتأدب ، وروى الحديث بها وبمصر والإسكندرية وحدث في القدس ، ظهرت مزاياه العسكرية مبكراً ، ولما هاجم الفرنج دمياط ، صدهم صلاح الدين ، ثم استقل بملك مصر ، ولما مات نور الدين سنة (٥٦٩هـ) اضطربت البلاد الشامية والجزيرة ، ودعي صلاح الدين لضبطها ، فأقبل على دمشق التي استقبلته بحفاوة. وكان أعظم انتصار له على الفرنج يوم (حطين) ثم فتح القدس سنة (٥٨٣هـ) كان رقيق القلب ، على شدة بطولته ، رجل سياسة وحرب ، بعيد النظر ، متواضعاً مع جند وأمراء جيشه ، ولم يدخل لنفسه مالاً ولا عقاراً توفي سنة (٥٨٩هـ). الأعلام (٨/ ٢٢٠) ووفيات الأعيان (٢/ ٣٨٦) الكامل لابن الأثير (٢/ ٣٧) مرآة الزمان (٨/ ٤٢٥).

المنهزم معاملة كريمة[١] .

حرر المسلمون فلسطين ، ولا يمكن أن تحرر من حكم من حكم المجرمين اليهود ، إلا إذا وحد المسلمون صفوفهم ، وأزالوا ما بينهم من فتن ومنازعات ، ولا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها[٢] .

وقد ظلت فلسطين ولاية من ولايات الدولة العثمانية ، وينطبق عليها ما ينطبق على غيرها من الولايات ، ولم تكن دولة الخلافة العثمانية بمنأى عن النشاط الصليبي والصهيوني في فلسطين فمنذ عام (١٨٥٥م) ، أصدرت قانوناً يمنع الأجانب من الاحتفاظ أو شراء أراض في فلسطين ، كما منعت من إنشاء مستعمرات يهودية ، ولم يكتف السلطان عبد الحميد الثاني بإصدار القرارات والقوانين التي تحمي فلسطين من تدفق الهجرة اليهودية إليها ، بل عمد إلى تبليغ الدول الأجنبية استياءه من مواقفهم في تشجيع الهجرة اليهودية إليها ، وللأسف كانت الدول الأجنبية تتنافس في تهريب اليهود إلى فلسطين ، كما ازدادت تشريعات السلطات بمنع اليهود من الدخول ، وكثيراً ما كانت تعارض قرارات السلطان برفض من القناصل الذين يتمتعون بامتيازات عالية[٣] .

ويظهر لنا من جهود المبشرين في قطاع الشرق للاستعمار الغربي: أن فلسطين

---

(١) ونسيمان ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية ، ص٧٥٢.

(٢) وكذلك عندما يعمق المسلمون إيمانهم ، ويلتزمون بشرع ربهم فإن الحجر ينادي: يا عبد الله المسلم ، تعال ، فإن ورائي يهودي فاقتله. هذا الإيمان هو الذي ينبغي أن يسود ، كي تحرر الأرض العربية والإسلامية من براثن الاحتلال بكل أشكاله .

(٣) الصافوي ، مجدي عبد الحميد : سقوط الدولة العثمانية وأثره على الدعوة الإسلامية ، ص٢٦١.

أصبحت منطلقاً للحركة التنصيرية بعد بيروت، للبعثات الأوربية، الأمريكية، وقد بدأت تستفيد هذه الحملات التبشيرية من «الفرمانات» والمراسيم التي تصدر عن دولة الخلافة العثمانية منذ عــام (١٢٥٥هـ- ١٨٣٩م) في شأن المساواة بين رعايا السلطان العثماني، وحصول النصارى في الدولة العثمانية على الحقوق التي كانت للمسلمين، فأسرعت الهيئات السياسة الأوروبية والتنصيرية إلى انتهاز هذه الأوضاع لتحويل نصارى الشرق إلى الارتباط بأوروبة لا لمصلحتهم فقط وإنما لمصلحة أوربا، وكان التعليم والمدارس الأوروبية أحد الأساليب المستخدمة لتحقيق هذه الأهداف فراحت المدارس تنتشر على طول العالم وبخاصة فلسطين والقدس عاصمتها، وكانت هذه المدارس تكشف بسهولة الفوارق بين المدارس الإسلامية والنصرانية، حيث قوة المتخرجين وثقافتهم الواسعة، بينما العجز واضحاً في المدارس الإسلامية للأسف، مما سارع في انضمام العديد من أبناء المسلمين في الالتحاق بهذه المدارس التبشيرية، لما في مناهجها من سعة في الرياضيات، والطبيعة، وسائر العلوم. ما عدا علوم العربية والمواد الإسلامية[١].

ومما ساعد على انتشار وتوسيع هذه المدارس التبشيرية وزيادة المبشرين : التعليم المجاني حيث كانت البعثة من أنشط البعثات التنصيرية في تغطية حاجات المدارس العلمية من مدرسين ومدرسات دون أية نفقات في مقابل ذلك[٢]. ومن هنا زاد الإقبال على هذه المدارس، مما اضطرها للتوسع، واستقدام أعداداً إضافية من المبشرين، وكانت هذه المدارس أقدر على توفير الكتاب المدرسي من المدارس

---

(١) نوار، عبد العزيز: تاريخ العراق الحديث، ص٢٢٣.

(٢) القطشان، عبد الله : التعليم في فلسطين، ص١١٨.

الإسلامية والحكومية ، إذ كانت البعثات التنصيرية تنشئ المطابع الخاصة بها ، فكانت هذه المدارس سبباً في زيادة عدد المبشرين ، وإقامتهم في الديار الإسلامية ، أعني فلسطين ، ومن هناك بدءوا يمارسون أنشطتهم التدميرية للشباب .

وكان معظم المسيحيين من سكان فلسطين في مطلع القرن التاسع عشر من طائفة الروم الأرثوذكس مع أقلية صغيرة من الروم الكاثوليك ، ومع بداية دخول الإرساليات التبشيرية بدأ أفراد طائفة الروم الأرثوذكس يعتنقون مذاهب المبشرين الوافدين .

وكانت أولى الطوائف التي أنشأت كنيسة خاصة بها هي طائفة البروتستانت ، ولكن دولة الخلافة العثمانية لم تعترف بها ، ومع طول المدة ، وبعد الوساطات ، وخاصة حكومة بروسيا تم الاعتراف بها في عام (١٨٥٠م). ولم يقف اللاتين مكتوفي الأيدي ، بل سارعوا إلى بعث بطريركيتهم إلى القدس (١٨٤٧م) ، لمنافسة النشط البروتستانتي ، مع العلم أن هذا التنافس التبشيري لم يكن إلا صورة لتنافس دولي ، إذ أن بريطانيا ، وأمريكا ، وبروسيا يدعمون المذهب البروتستانتي ، وكانت فرصة لهذه الدول بالتدخل لدى دولة الخلافة العثمانية لحمايتهم ، ومن خلال ذلك كسب المزيد من الامتيازات والتسهيلات ، في حين كانت فرنسا ، والنمسا تدعمان النشاط التبشيري الكاثوليكي ، لمحاولة بسط النفوذ ، وكسب الامتيازات لدولهم ، فكانت هذه الأنشطة التبشيرية وسيلة للدول الكبرى من أجل التسلل إلى قلب الأمة الإسلامية ، والسيطرة على ثرواتها ومقدرتها مع إفساد شعوبها طبعاً[١] .

---

(١) Tibawi .A.L American Intrests in Syria p.303 .

ولو رجعنا إلى الوراء ، لوجدنا أن فرنسا سبقت غيرها من الدول ، فمنذ عام (١٥٣٥م) أبرمت مع الدولة العثمانية أول الامتيازات التجارية ، وكان من ضمنها حرية الرهبان في ممارسة نشاطهم التبشيري في فلسطين وغيرها من الأقطار الشامية ، وفي عام (١٦٠٤م) أبرم اتفاق جديد نص على حرية الرعايا الفرنسيين في زيارة الأماكن المقدسة ، وحرية رهبان الفرنسيين في زيارة الأماكن المقدسة ، وحرية رهبان اللاتين في التجول في فلسطين[١] ، وفي عام (١٦٣٢م) حصل اللاتين من الباب العالي على حق ملكية كنيسة بيت لحم مع مغادرة الميلاد ، وبلغ بذلك النفوذ الفرنسي أوجه وعدت بموجبه فرنسا حامية المسيحية في الشرق العربي[٢] .

ولما دخل محمد علي باشا فلسطين عام (١٨٣١م) ، زاد نفوذ اللاتين بسبب موقف فرنسا من محمد علي المؤيد له. ففتحوا العديد من الكنائس ، والأديرة ، ومنازل استقبال الحجاج كما زادت المدارس والمستشفيات التابعة للبعثات التبشيرية اللاتينية ، مما زاد من غيظ الطوائف المسيحية الأخرى وحصل تنافس شديد بين المبشرين اللاتين والبروتستانت ، ففي عام (١٨٥٥م) جرى احتفال كبير في ساحة دير اللاتين في الناصرة ، أحرق من خلاله كل ما أمكن جمعه من كتب البروتستانت ، وتم الاعتداء بالأيدي على البروتستانت[٣] .

أما النفوذ البريطاني ، فقد بدأ يتوطد بعد هزيمة نابليون على أبواب عكا عام

---

(١) المحافظة ، علي : تاريخ الحركات الفكرية في عصر النهضة في فلسطين والأردن ، ص١٩.

(٢) المرجع نفسه ، ص١٩.

(٣) عبود ، أسعد: تاريخ الناصرة ، ص٨٧.

(١٧٩٩م) ، ولا عجب إذا كانت بريطانيا أول دولة تنشىء لها قنصلية في القدس عام (١٨٣٨م) بعد أن كانت الإقامة محظورة في المدينة المقدسة على أي أجنبي سواء كان حاجاً أم سائحاً ممثل قنصليات ، وبدأ التوغل البريطاني في عام (١٨٠٤م) وتمكنت بريطانيا من إنشاء كنيسة بروتستانتية في القدس عام (١٨٤١م)[١] .

وقد رافق هذه الأنشطة التبشيرية إنشاء المعاهد ، والتي كان لها دور في نقل الفكر الغربي إلى قلب فلسطين المسلمة ، وقد ترجمت بطريركية اللاتين رسالة البابا[٢] إلى العربية ، ووزعتها على نطاق واسع ، وكانت تتضمن هجوماً على الماركسية والاشتراكية ، كما دعت هذه الرسالة إلى أن المسيحية كافية لحل أي صراع داخل المجتمع ، وهاجم الباب النقابات المهنية متهماً إياها بالاحتكار والتعصب قائلاً : « دائماً الرأي العام المؤيد بأدلة كثيرة هو أن هذه الجمعيات يرأسها غالباً أناس تحت طي الخفاء ، ينهجون لها طرائق مخلة بالاسم المسيحي ، وسلام الشعوب ، وباحتكارهم جميع وجوه المكاسب يكرهون من يأبى الانضمام إليها على تحمل العقاب بالفقر »[٣] .

أما الطائفة الأرثوذكسية ، فقد نشأ خلاف كبير بين أتباعها ، بسبب احتكار مناصب كبار الأكليروس على اليونانيين ، وقد حرم الأرثوذكس العرب من تلك المناصب ، مما خلف تذمراً وتحول ذلك التذمر إلى فكر سياسي لدى أبناء هذه

(١) Tibawi. A.L. British Interests in Palestine , p 31-33.

(٢) البابا لاون الثالث عشر .

(٣) رسالة البابا لاون الثالث عشر ، ص٧-٩.

الطائفة مطالبين برفع الظلم عنهم ، واسترجاع حقوقهم التي سلبها الرهبان اليونان. وبعد اجتماعات مطولة حصل الأرثوذكس العرب على مطالبهم ، وتمت ترقيتهم في سلك الرهبنة ، وترفيعهم إلى الوظائف الروحانية ، بحيث يتساوون مع بقية الرهبان ، وفي عام (١٩٢٧م) تشكل في فلسطين حزب أرثوذكسي ، هدفه استعادة الأرثوذكس حقوقهم المغتصبة من اليونان [١] .

* * *

---

(١) المحافظة ، علي: الحركات الفكرية في عصر النهضة في فلسطين والأردن ، ص٢٥-٢٦ ، الطقشان ، عبد الله: التعليم في فلسطين جـ٢ ، ص٨٦.

المبحث الثاني
نشاطات الإرساليات التبشيرية في فلسطين

* الإرساليات البريطانية :

من المؤكد أن بريطانيا بدأت في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي (١٨٠٥م) بمهاجمة البلاد العربية الإسلامية وفي نيتها تمزيقها ، وأن تجعلها مناطق للنفوذ ، خاضعة للاستعمار المباشر أو المقنع ، لأجل ذلك سبقت هذا الاحتلال طلائع المستشرقين التي جالت البلاد ، وتعلمت اللغة العربية ، ليسهل تحدثهم بها إلى تلك الشعوب ، والبحث في الآثار ، والتعرف على الأفكار ، والقيام بالدعايات ، وإثارة المنازعات ، وإشعال الخلافات حتى تقع البلاد فريسة للاستعمار ، ولهذا الغرض أرسلت الطلائع من المبشرين ليكتبوا التقارير ، فكان لابد لهؤلاء من لبس ثوب الدين ، والتصنع بالدعوة إلى الله وكان من أهدافهم إضعاف روح المقاومة المعنوية خاصة في نفوس المسلمين ، وبث الوهن ، وتشويش التفكير ، وذلك عن طريق التشكيك بقيمة ما في أيدي المسلمين من تراث[(١)] . ساعين بذلك إلى هدم الإسلام فكرياً ، أو حضارياً. ضمن مخطط تدمير الخلافة الإسلامية ، فعملوا على تخريب الفكر الإسلامي ، وتشويه صورة المسلمين[(٢)] .

---

(١) كشك ، محمد جلال: الغزو الفكري ، ص٧.

(٢) أقول: إن موقف أعداء الإسلام واضح للعيان ، ولكن الذي أتاح لهم فرصة غزو تراثنا وبلادنا، والسيطرة على الفكر والثقافة ، هو جنوح الأمة عن استلام مركز القيادة ، والاهتمام الجدير

هذا وقد حرص الاستعمار على إرسال المبشرين المدربين على المهن ، والبحث ، والتدريس والتطبيب ، تساعدهم الصحف ، والمجلات ، والكتب ، والمقالات وكرسي الدراسة ، والمحاضرات ، والمؤتمرات العلمية ، وغيرها ، كل ذلك ليتمكن المبشر من إقناع الناس بصدق دعوته ، وحرصه ، وإخلاصه. فتعاون الاستعمار مع التبشير لتنفيذ سياسة واحدة ، لقد كان الاستعمار البريطاني لا يقوم بأي عملية. ولا يتخذ أي قرار إلا بعد استشارة بعض المبشرين ، فيذكر : أن «أنتوني إيدن »[(١)] وزير خارجية إنجلترا كان لا يتخذ قراراً يتعلق بالشرق الأوسط حتى يدعو مجموعة من المبشرين ، ويعرض عليهم المسألة ، ويستعين بآرائهم في اتخاذ قراراته[(٢)] .

بامتلاكها لزمام المبادرة فمثلاً في الدورة الرابعة والعشرين لمؤتمر المستشرقين المنعقد في ميونخ عام ١٩٥٧م ، كان عدد لأعضاء العرب يعد على الأصابع. وفي عام ١٩٦٠م ، عقد ذاك المؤتمر في موسكو ، ولم يكن وضع العرب أفضل. ثم عقد في الهند سنة ١٩٦٧م ، وكان عدد أعضائه ألف وبضع مئات ، وعدد العرب (٩) أعضاء يمثلون الوطن العربي من الخليج إلى المحيط. فأين نحن من إدراك حقيقة ذاتنا ، وماضي خطانا ، وأين هم في اهتمامهم بالشرق ودراسته ومعرفة أسرار مزاجه وعقليته وشخصيته. هم يعمون ونحن لا نعمل ، هم يجندون القوى ، ونحن نبعثرها، وتصبح الساحة الثقافية ملكاً لهم، فيكتبون الزيف ، ويقصر إدراكهم ، ويمسحون تراثنا بسوء الفهم ، والهوى ، والتعصب. ونحن مشغولون بالترهات والأمور الضحلة ، وندع الغرباء يفكرون عنا ، ويسهر خلق مشغولين بنا ، وننام نحن ملء الجفون وينشد المتنبى من وراء الأستار:

أنام ملءَ جفوني عن شواردها   ويسهر الخلق جراها ويختصم

(١) أيدن (نتوني) (١٨٩٧-١٩٧٧م) سياسي بريطاني ، اختير وزيراً للخارجية البريطانية مرات عديدة منذ ١٩٣٣م ، ورئيساً للوزراء (١٩٥٥-١٩٥٧م) خلفاً لتشرشل .

(٢) النملة ، إبراهيم علي: العلاقة بين الاستشراق والاستعمار ، ص١٤٨ .

ومن الذين كان لهم خدمة مزدوجة في التبشير والاستشراق ، والعمالة للاستعمار ، وأحد أعضاء الهيئة التي أنشئت لاكتشاف فلسطين « إدوارد هنري بالمر »[١] بغرض اكتشاف الارتباط بين التاريخ المقدس والجغرافية (المقدسة) يعني أرض الرسالات .

ولقد كانت الجمعيات التبشيرية من أهم الوسائل التي استخدمتها بريطانيا للدعوة إلى الفكرة الصهيونية ، والتركيز على دعوة المسيح المنتظر ، وما يؤسف له أن تكون تلك الجمعيات التبشيرية المسيحية سابقة للجمعيات اليهودية في الدعوة إلى المشروع الصهيوني ، وأنشئ بعض هذه الجمعيات في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، منها: جمعية إغاثة اليهود البائسين ، صندوق استعمار سورية. أنشأته السيدة «فن» زوجة القنصل البريطاني الثاني في القدس ومؤلف كتاب (جمعية تشجيع العمل الزراعي اليهودي في الأرض المقدسة) وكانت جمعية مسيحية بالكامل ، وأخيراً تم إنشاء صندوق استكشاف فلسطين برئاسة اللورد البريطاني شافتسبري في عام (١٨٦٥م)[٢] ، وذلك في بريطانيا .

وقد كانت الحماية من أبرز نشاطات الدول الأوروبية ، والتي منها بريطانيا ، تلك النشاطات التي كانت تعمل على فرض حماية تلك الدول وفق القوانين المسيحية واليهودية ، والأقليات المختلفة ، وتعد بريطانيا من أولى الدول التي عينت قنصلاً في القدس ، حتى أن المشاريع الزراعية كانت حماية ورعاية القنصلية البريطانية عام (١٨٥٢-١٨٥٤م) .

---

(١) إدوارد هنري بالمر : (١٨٨٢-١٨٤٠م) من عملاء الاستعمار البريطاني وهو باحث ومكتشف .
(٢) قهوجي ، حبيب: استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة ، ص٣٧.

ولما كانت فلسطين تابعة لدولة الخلافة العثمانية هي هدف المخططات الاستعمارية لإقامة المشروع الصهيوني ، لذلك ركزت الدول الأوروبية على دولة الخلافة لتحقيق هذا المشروع ففي صيف عام (١٨٣٨م) ، قام اللورد شافتسيري (كان اسمه آنذاك اللورد أشلي) السياسي البريطاني الكبير بتقديم مشروعه الاستيطاني لليهود تحت الحماية الأوروبية ، إلى اللورد « بالمرستون » وزير الخارجية البريطاني » الذي اهتم بها للغاية ، وتم على الفور تعيين قنصل لبريطانيا في القدس «هو يونغ» وفي عام (١٨٤٠م) عندما كان ثمة مؤتمر في لندن لمناقشة مستقبل فلسطين وسورية بعد خروج محمد علي ، وتراجعه إلى مصر ، قدم اللورد « شافتسبري » مذكرة إلى وزارة الخارجية بهذا الصدد[(١)] .

وكل ذلك كان بمحاولات من قناصل الدول لدى الباب العالي للحصول على مكاسب وامتيازات تتيح لهؤلاء حرية الاتصال بالجمهور والطوائف المختلفة ، من أجل الترويج للفكرة الصهيونية ، وقد كتب «بالمرستون» إلى السفير البريطاني في إستانبول ١٠ آب ١٨٤٠م « فإذا عاد الشعب اليهودي تحت حماية ومباركة السلطان ، فسيكون في هذا حائل بين محمد علي ومن يخلفه ، وبين تحقيق خطته الشريرة في المستقبل»[(٢)] .

وامتداداً لهذه الأساليب التي اتبعتها بريطانيا والدول الأوروبية كافة ، فقد حرصت هذه الدول على التعاون مع الأقليات في دولة الخلافة العثمانية ، لا سيما اليهود من ذوي النفوذ ، بالإضافة إلى إسناد هذه المهمة إلى المبشرين ، والعلماء ،

(١) قهوجي ، حبيب: استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة ، ص١٦.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٣.

والأجانب على السواء ، لتحقيق هذا الهدف. ويتحدث مصطفى كامل[١] قائلاً: «لقد دخل جسم الدولة كثير من الأجانب رجالاً ، ونساء ، وغيّروا أسماءهم بأسماء إسلامية ، وعملوا على الارتقاء في المناصب ، حتى وصل بعضهم إلى أسماها ، وصاروا من أقرب الدخلاء في الزمن السالف في كل فروع الدولة العلية، حتى في الجيش نفسه ، وصارت لهم سلطة عظيمة ، ونفوذ كبير ، فكنت تجد من يعمل لصالح روسيا ، مدعياً أنه روسي السياسة ، ومن يعمل لصالح إنجلترا مدعياً أنه إنجليزي السياسة ، ولكن ليس منهم من كان عثماني السياسة[٢] .

وعلى الرغم من كل هذه المحاولات إلا أن الإدارة العثمانية كانت تحارب الهجرة اليهودية ، وتخوض معارك شرسة ضد المخططات الاستعمارية ، حتى سقوط السلطان العثماني عبد الحميد الثاني ، يرحمه الله .

ومما لا شك فيه أن بريطانيا تعد من أكثر الدول الاستعمارية الأوروبية التي اهتمت بقضية المبشرين ، ويعود ذلك لكونها تطمع في بسط سيطرتها على الشرق ، والتوسع الاستعماري في آسيا ، وطالما بعثت بريطانيا المبشرين كسفراء لها في

---

(١) مصطفى كامل : نابغة مصري في عصره ، وأحد مؤسسي نهضتها الوطنية. كان فصيحاً ساحر البيان ، انصرف إلى مقاومة الاحتلال الإنجليزي بخطبة ومقالاته ، وكتبه. أنشأ في مصر جريدة « اللواء » اليومية سنة (١٩٠٠م). ودعا إلى إنشاء «الحزب الوطني» فانعقد أول اجتماع له سنة (١٩٠٧م) وانتخب رئيساً له طول حياته. له « حياة الأمم والرق عند الرومان » و « المسألة الشرقية » و « مصر والاحتلال الإنجليزي » وغير ذلك . توفي شاباً سنة (١٩٠٨م) الأعلام (٧/ ٢٣٨) وتراجم مشاهير الشرق (١/ ٣١٠) ورواد النهضة الحديثة (٢٠٦) .

(٢) حلاق ، حسان : موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ، (١٨٩٧-١٩٠٩م) ، ص٢٨٤-٢٨٥.

الدول التي يرغبون في السيطرة عليها ، لدراستها ، وتقديم التقارير الكاملة عنها حتى يدخل المستعمر البريطاني ولديه صورة واضحة وكافية عن الدولة المستعمرة. هذا وقد جندت بريطانيا مبشريها لنشر فكرة القومية بين المسلمين ، وكذلك تشجيع اليهود على الهجرة إلى فلسطين ، وإقامة كيان سياسي لهم تحت شعار العودة إلى أرض الميعاد ، تلك الفكرة التي لم تخطر على بال اليهود أنفسهم .

واستغلت بريطانيا المبشرين المسيحيين ، والعلماء ، والتوراة ، والإنجيل من أجل تحقيق أهدافها الاستعمارية ، حيث قامت الطبقة البرجوازية بإرسال المبشرين ، والتجار ، والرحالة ، والعلماء من كل نوع إلى فلسطين وغيرها ، ليفتحوا ، ويمهدوا الطريق أمام امتداد مصالحها ونفوذها ، وقد أنفقت الأموال الطائلة على استكشاف الأرض المقدسة ، وكل هذا النشاط الاستعماري بفلسطين كان يتم خلف واجهة دينية [١] .

أورد (هوارس مايركالمن) في كتابه (الصهيونية والسياسة الدولية) عن فكرة بعث إسرائيل بين أصحاب المصالح الاستعمارية من غير اليهود ، فكتب: «انتشرت فكرة بعث إسرائيل ، باعتبارها ممكنة التحقيق على صعيد السياسة العملية ، والمستوى الديني في بريطانيا ، وفرنسا عند غير اليهود ، بشكل واسع ، وأشد من انتشارها بين اليهود ، وإن إقامة دولة يهودية بفلسطين لم يكن عملاً إنسانياً ، وعادلاً ، بل ضرورة سياسية في ذهن بريطانيا ، لحماية الطريق عبر آسيا الصغرى إلى الهند»[٢] والحديث المهم حول قناة السويس ومع ازدياد توسع

---

(١) العظم ، صادق ، جلال: الصهيونية والصراع الطبقي ، ص ٥٥.

(٢) هوارس ماير كالمن : الصهيونية والسياسة الدولية ، ص١٦٠.

الاستعماريين البريطانيين في الشرق كانت تزداد تبعاً لذلك الأحاديث عن ضرورة إحياء المشروع الصهيوني، ووضعه موضع التنفيذ خدمة للمصالح البريطانية[(١)] .

وفي هذه الفترة بالذات جرت في إنجلترا مناقشات موسعة حول المشروع الصهيوني، وأهميته بالنسبة للمصالح البريطانية، وقد نشرت على سبيل المثال الجمعية العمومية لكنيسة سكوتلاندا تقريراً لاقى انتشاراً واسعاً له وضعه بعض المبشرين التابعين لها عن أحوال يهود فلسطين، ثم اتبعه بمذكرة إلى (بالمرستون) وزير خارجية بريطانيا عام ١٨٤٠م أشاد فيها بأهمية خطوته في تنصيب قنصل في القدس وسط الحماية الإنجليزية على اليهود في الأراضي العثمانية[(٢)] .

ومن الساسة البريطانيين الذين عملوا على استغلال اليهود لتحقيق ذلك المشروع الاستعماري، هو « دزرائيلي »[(٣)] أحد الساسة البريطانيين الذين ساهموا في بناء الإمبراطورية البريطانية، وقد أوضح في مذكرة دبلوماسية حول استعمار اليهود لفلسطين، نشرت في النمسا دون توقيع تحت عنوان: (المسألة اليهودية في المسألة الشرقية) وكان هدفه التحضير للاستعمار اليهودي، وكان يقول: « أليس

---

(١) النتشة، رفيق: الاستعمار وفلسطين، ص١٦١.

(٢) العظم، صادق جلال: الصهيونية والصراع الطبقي، ص ٥٤-٥٥ .

(٣) دزرائيلي، بنجامين (١٨٠٤-١٨٨١م) : سياسي بريطاني زعيم حزب المحافظين. رئيس عام (١٨٦٦) و(١٨٧٤-١٨٨٠م) تحدر من أصل إيطالي يهودي وقد تنصر والده عام ١٨١٧م. اشترى على مسؤوليته الشخصية حصة الخديوي إسماعيل من أسهم قناة السويس (عام ١٨٧٥م) . وضع عدة روايات أشهرها « فيقان غراب » (١٨٢٦-١٨٢٧م) [موسوعة المورد العربية (١/ ٤٩٣).

محتملاً أن ينمو في تلك الأرض خلال نصف قرن مثلاً شعب يهوي متراص ، قوامه مليون إنسان بكامل عدتهم ، يشكلون لغة واحدة حاميتهم إنجلترا ، وتحركه روح واحدة : الروح القومية النموذجية ، والرغبة في تحقيق الحكم الذاتي والاستقلال »[١] .

وبهذا يتأكد لنا: أن الحركة الصهيونية هي صناعة أوروبية ، لم يكن القصد منها خدمة اليهود ، بل مصلحة الاستعمار ، وقد كتب « هربرت سكوتي » رئيس وزراء بريطانيا ، تعليقاً على منطق خلفه «لويد جورج» رئيس وزراء بريطانيا عام (١٩١٧م) ، بصدد مناقشة أحد المشاريع العديدة لاستعمار فلسطين : مهما يبدو الأمر غريباً فقد كان « لويد جورج » أحد المدافعين عن المشروع ، ولا أظن أني في حاجة لأن أقول : أنه لا ماضي اليهود ، ولا مستقبلهم ، بل ولا اليهود أنفسهم يثيرون اهتمام «لويد جورج» في شيء على الإطلاق ، ومع ذلك فهو يرى أن وقوع الأماكن المقدسة تحت وصاية فرنسا « الملحدة » يعد كارثة ، وكما قال الزعيم البارز «ماكس نارادو» في مطلع القرن العشرين: «إن بريطانيا اخترعت الصهيونية »[٢] .

وطالما حاولت بريطانيا ولعشرات المرات إقامة دولة لليهود في فلسطين ، إلا أن الأمر لم يتم ، وبقيت المحاولات حتى صدر وعد بلفور ، ولما طلب من «لويد جورج»[٣] رئيس الوزراء البريطاني عام (١٩١٧م) ، الظروف المبرة لهذا الوعد ،

---

(١) العظم ، صادق جلال ، ص ٧١-٧٢.

(٢) إيفانوف ، يؤدي : الصهيونية ، ص ٣٤-٣٥ ترجمة ماهر عسل .

(٣) لويد جورج. دجايفيد (١٨٦٣-١٩٤٥م) سياسي بريطاني. زعيم الأحرار. يعتبر أحد أبرز رجال السياسة العالميين في الثلث الأول من القرن العشرين. تولى وزارة المال (١٩٠٨-١٩١٥م) فأحدث الضمان الصحي والضمان ضد البطالة. ثم تولى رئاسة الوزارة (١٩١٦-

فقال : « إن الانتهازية المحضة ، والأخطار المحدقة ببريطانيا في ذلك الحين وضرورات الدعاية ، هي التي حتمت عليه التورط بوعد كان في ذهنه في ذلك الحين غامضاً تماماً »[١] .

وها هي الحكومة الأمريكية تبادل هذا الوعد المشؤوم بتصريح من رئيسها «ويلسون » بقوله : « إني أعلن بأن الأمم الحليفة قد قررت وبدعم كامل من حكومتنا وشعبنا ، أن تضع أسس الدولة اليهودية في فلسطين »[٢] .

هذه هي بريطانيا ، وهاهي سياستها ، استعملت في سبيل مصالحها كل البيانات والأخلاقيات ، والقيم كستار يخفي مقاصدها غير الأخلاقية ، وغير الدينية ، وغير الإنسانية ، وخاصة في فلسطين .

فبعد ظهور بوادر الضعف على دولة الخلافة العثمانية بعد هزائمها في شبه جزيرة البلقان ، ومنذ ذلك الحين لم تستطع مواصلة سياستها المعروفة ضد بريطانيا خاصة في منطقة الخليج ، فعملت بريطانيا بكل ما تستطيع من قوة لإنهاء سيطرة العثمانيين على هذه المنطقة ، فاضطرت دولة الخلافة العثمانية إلى إبرام معاهدة مع بريطانيا بعد مفاوضات مطولة ، وتعديلات وتغييرات ، وتم التوقيع على المعاهدة، وفي اليوم نفسه بعث وزير الخارجية البريطاني بمذكرة إلى سفير الدولة العثمانية في لندن ، أشار فيها إلى توقيعه على تلك المعاهدة التي منحت بريطانيا

١٩٢٢م) أبان الحرب العالمية الأولى فقاد بريطانيا إلى النصر ، موسوعة المورد العربية (١٠٤٨/٢) .

(١) بيير ديستريا: من السويس إلى العقبة ، ترجمة يوسف مزاحم ص ٧٨.

(٢) إميل توما : جذور القضية الفلسطينية ، ص٨٥.

حرية العمل في منطقة الخليج ، ومن ذلك التاريخ تنشر بريطانيا مبشريها .

وقد وقّعت المعاهدة في ٢٩ يوليو عام ١٩١٣م[١] وهكذ كانت هذه المعاهدة البريطانية العثمانية تعكس الوضع الحقيقي لما وصلت إليه الحكومة العثمانية من ضعف وتخاذل بعد هزائمها في حروب البلقان. وبقراءة نصوص هذه المعاهدة يتبين أن فيها من الثغرات والتناقضات الشيء الكثير ، والذي يعبر عن الوضع السياسي للدولة ومفاوضيها ، مما أدى إلى أن تتنازل دولة الخلافة العثمانية عن الكويت ، ثم دول الخليج الواحدة تلو الأخرى ، وتسليم بريطانيا حق الحماية على هذه الدول وبعد ذلك بدأت – بريطانيا مستغلة هذه المعاهدة في التدخل المباشر في شؤون الدولة العثمانية ، التي منحت بريطانيا امتياز تنفيذ سكة الحديد من البصرة إلى الكويت[٢] .

إن المشروع الصهيوني لم يكن في يوم من الأيام سوى مشروع استعماري بريطاني في الأساس ، ثم ورثته الولايات المتحدة مع ما ورثته من تركة الإمبراطورية البريطانية ، ويقول « هرتزل » : « إن الهجرة إلى الدولة الجديدة لا يمكن أن تنفذ من دون مساعدة ودية من جانب الحكومات المهتمة التي ستحصل على منافع أساسية ، كما أنه كان يدرك في الوقت عينه : أن أكثر الدول التي يمكن أن تتبنى مشروعه قبل غيرها هي الدول الاستعمارية التي كانت تتنازع من أجل السيطرة على بلدان آسيا وإفريقية ، وفي مقدمتها بريطانيا التي كانت تقف في رأس

---

(١) التنشئة ، رفيق: الاستعمار وفلسطين ، ص١٩٨.

(٢) الروقي ، عايض بن حزام : حروب البلقان والحركة العربية في المشرق العربي العثماني ، ص٢٧٨.

الدول الاستعمارية آنذاك ، فهو يعلق ، ويقول دون أدنى شك : «فوجهت أنظاري إلى إنجلترا»[١] .

ولقد لعبت بريطانيا وأمريكا دوراً أساسياً وحاسماً عبر عشرات السنوات في عقد صفقات مع حكومات عدد من البلدان ، تم بموجبها دعم هجرة الطوائف اليهودية وتسليمها للصهيونية[٢] .

وقد انعقد في عام ١٨٨٥م مؤتمر في مدينة (بتسبرج) ضم تسعة عشر من حاخامات الطائفة الإصلاحية ، وفي عام ١٨٨٧م عقد مؤتمر آخر في «مونتريال» بكندا ، وآخر بأمريكا ، وأشار المؤتمران إلى أن الصهيونية لا يديرها نسل هارون عليه السلام ، وتخالف تعليم الدين اليهودي (الذي يرمي إلى نشر الدين اليهودي العالمي الذي أعلنه أنبياء اليهود ... ويؤكد الزعيم الهندي «غاندي» : إن الصهيونية خانت المثل اليهودية الدينية)[٣] .

ونستنتج هنا : أن الغاية من إقامة الدولة اليهودية لم يكن دينياً بأي حال من الأحوال ، بل كان هدفاً استعمارياً ، قصد منه أن تكون قاعدة عسكرية لأمريكا والغرب ، وكثيراً ما أكد اليهود المتدينون في أكثر من مناسبة رفضهم أفكار الصهيونية ، واعتبروها أفكاراً خارجة على الدين اليهودي .

وحتى عندما وقع الاختيار على فلسطين ، فإن هرتزل لم يأل جهداً في تأكيد الطبيعة اللادينية لهذا الاختيار ، إذ أخبر البابا « بولس العاشر » أن الصهاينة لا

---

(١) أمين ، بدعية: المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية ص١٥٧.

(٢) النتشة ، رفيق: الاستعمار وفلسطين ، ص ٢٣٥.

(٣) حسين ، محمد خليفة: الحركة الصهيونية طبيعتها وعلاقاتها بالتراث الديني اليهودي. ص٧١.

يطالبون بالقدس ، أو مثل هذه الأماكن المقدسة ، وإنما ينصب اهتمامهم على الأرض العلمانية فقط ، وكانت كلماته قاطعة بشكل أكبر عندما أكد لأحد الكاردينالات أنه لا يتطلع إلى أرض إسرائيل التاريخية ، بل يطالب فقط بالأرض الدنيوية [١] .

فهذه بريطانيا استغلت المبشرين ، واستغلت الدين بالترويج لأرض الميعاد ، ونزول المسيح ، والتوافق المسيحي اليهودي، وإلى غير ذلك من الدعايات الملفقة ، ولكن الهدف الأساسي هو ما ذكر سابقاً ، هدف استعماري ، اقتصادي ، وسياسي، ولا دخل للدين به لا من قريب ، ولا من بعيد.

ولقد كان التعاون كبيراً بين الانتداب البريطاني وزعماء الحركة الصهيونية ، لطبع تلك الحركة بالطابع الديني ، إذ أوجدت حكومة الانتداب البريطاني عام ١٩٢١م مجمعاً للحاخامات اليهود في القدس [٢] .

بدأ النفوذ البريطاني يتوطد في البلاد ، بعد مشاركة أسطوله في هزيمة نابليون على أبواب عكا عام ١٧٩٩م ، وهاهي بريطانيا تنشئ أول قنصلية لها في القدس عام ١٨٣٨ بعد أن كان محظوراً على أي أجنبي الإقامة في المدينة المقدسة ، وبعد افتتاح هذه القنصلية تولت حماية اليهود في فلسطين [٣] .

وفي عام ١٨٤٠م طلبت بريطانيا من محمد علي باشا السماح لها بإنشاء كنيسة إنجليكانية في القدس ، ولكن تم الرفض مبيناً أن الأمر بيد السلطان العثماني

---

(١) المسيري : عبد الوهاب : الأيدلوجية الصهيونية ، ص٢١٥.

(٢) المرجع نفسه ص ١٧٩.

(٣) Tibawi, Al. British interests in Palestine p.31-33.

صاحب السيادة على فلسطين ، وبعد ذلك حصلت بريطانيا على إذن بإنشاء كنيسة بروتستانتينية في القدس عام ١٨٤١م، ووصل أول أسقف، وكان يهودياً منتصراً، علماً بأن بريطانيا أنشأت قنصليات لها في عكا ، وصفد ، ونابلس ، ويافا ، وغزة ، وإن دل هذا على شيء إنما يدل على سرعة التغلغل داخل المدن الفلسطينية (١) .

وكان من صور هذا التغلغل إنشاء (صندوق الكشف عن فلسطين) في لندن ، ومهمته إلقاء الضوء على الآثار والمعالم الجغرافية والجيولوجية ، علاوة على رسم خريطة للبلاد ، ونشر دراسة شاملة في ثمانية مجلدات ، واستمر النشاط التبشيري البروتستانتي ينمو ويزداد بنمو النفوذ البريطاني والألماني في فلسطين (٢) .

وفي عام ١٩١٤م دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى بجانب ألمانيا ، وأعلنت في السنة نفسها إلغاء الامتيازات الأجنبية ، وبذلك أصبحت الدولة العثمانية تملك الصلاحيات الكافية لفرض سيطرتها على مؤسسات التعليم في فلسطين ، ووضعت المؤسسات الأجنبية تحت الرقابة المباشرة للسلطات العثمانية ، وانقطعت الاتصالات البريطانية والفرنسية بمؤسساتها ، وبقيت الألمانية ، لكن هذا الوضع لم يستمر طويلاً ، إذ ثار العرب على دولة الخلافة العثمانية بتحريض من الحلفاء مع وعود كاذبة لهم ، حيث كانت دولة الخلافة العثمانية تحكم منذ القرن السادس عشر إلى أوائل القرن العشرين .

وفي ديسمبر عام ١٩١٧م دخلت قوات الحلفاء مدينة القدس ، وفي عام ١٩١٨م هزمت دولة الخلافة العثمانية ، وانسحبت من المقاطعات العربية ، وفي

---

(١) محافظة علي ، الحركات الفكرية في عصر النهضة في فلسطين والأردن ، ص٢٠-٢١.

(٢) نجم ، عمر أبو النصر: جهاد فلسطين ، ص٥٨.

عام ١٩١٩م[١] تم التوقيع على معاهدة فرساي وميثاق عصبة الأمم ، وأدى دخول القوات الحليفة إلى فلسطين ، إلى إقامة حكومة عسكرية حكمت البلاد بين عامي ١٩١٧/ ١٩٢٠م عرفت المنطقة باسم « بلا العدو المحتلة » ، وهذه الأحداث أعادت بل عززت من نشاط الإرساليات التبشيرية ، ومؤسسات التعليم التابعة للطوائف المسيحية ، ومن ثم عادت المؤسسات للتناحر والتنافس ، وفي عام ١٩٢٠م تم إقرار نظام الانتداب البريطاني على فلسطين ، ولقد جاء في نص المعاهدة: (لقد اتفقت الهيئات السامية المنعقدة على أن تتعهد بتنفيذ المادة (٢٢) من ميثاق عصبة الأمم ، وعلى تطبيقها ضمن الحدود التي يعينها الحلفاء إلى دولة منتدبة تنتهجها تلك الدول ، ويجب على الدولة المنتدبة أن تحقق الوعد الذي قطعته بريطانيا العظمى لليهود في نوفمبر عام ١٩١٧م ، بخصوص تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين .. وتتعهد دولة الخلافة العثمانية المهزومة أن تقبل بجميع الأحكام الواردة في هذا القسم من المعاهدة ، والتي تبحث في هذا الأمر واعترفت المادة (٩٤) من المعاهدة بفصل فلسطين عن سورية ، بحيث تشكل كل منها دولة تتمتع بقدر من الاستقلال الذاتي تحت رعاية الدولة المنتدبة التي تقدم لها المشورة ، والمعونة الإدارية ، حتى تصبح قادرة على حكم نفسها وفقاً للفقرة الرابعة من المادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الأمم[٢] .

وبهذا تم اعتراف من قبل دولة الخلافة العثمانية بحق بريطانيا في السيادة على فلسطين ، ولقد نصت المادة (١٥) من بنوده : (يجب ألا تحرم أي طائفة كانت من

(١) قهوجي ، حبيب : استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة ، ص٣٧.

(٢) عبد القادر يوسف: مستقبل التربية في الوطن العربي في ضوء التجربة الفلسطينية ص٦٠ .

حق صيانة مدارسها الخاصة بتعليم أبنائها بلغتها الخاصة ، وألا ينقص من هذا الحق ما دام ذلك مطابقاً لشروط التعليم العمومي التي قد فرضتها الإدارة) وهذا يعد استمراراً لنظام الامتيازات القديم الذي تمتعت به الدول الأوروبية ، ممثلة بطوائفها المسيحية ، ومؤسساتها ، ومدارسها التبشيرية[١] .

* نشاط الإرساليات التبشيرية الأمريكية :

إن دراسة هذا النشاط تقتضي منا معرفة بداية هذا الاتصال ، اعني بفلسطين ، والذي تم عن طريق الامتيازات الأجنبية في الدولة العثمانية ؛ لأن هذه الامتيازات هي الركيزة التي اعتمد عليها المبشرون الأمريكيون في كثير من نشاطاتهم غير المشروعة في الولايات العربية العثمانية.

فالعالم العربي الممتد من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي كان خاضعاً لحكم دولة الخلافة العثمانية منذ القرن السادس عشر ، وعلى مدى أربعة قرون إلى سنة (١٩٢٣م) ، وفي مؤتمر لوزان تنازلت هذه الدولة عن حكم هذه الولايات ، ففي هذه الفترة كانت خاضعة للقوانين ، والأنظمة ، والاتفاقيات ، والمعاهدات التي تقررها الإدارة الحاكمة في دولة الخلافة العثمانية. ومن هذه المعاهدات الامتيازات الأجنبية ولكن نريد أن نعرف بعض دوافع هذه الامتيازات :

١ - تمكين هؤلاء الأجانب من المتاجرة والسكن في الولايات العربية ووقايتهم من الظلم والتعسف الذي قد يلحق بهم لكونهم غرباء ، ويدينون بدين آخر[٢] .

---

(١) Mardi Noach : Education in Palestine, 1920–1944.p. 1

(٢) المجلة التاريخية المصرية ، سيد أحمد ، نبيل عبد الحميد : النشاط التبشيري الأمريكي في البلاد العربية ، ص٢١٧.

٢- تحقيق فوائد اقتصادية بتوطيد العلاقات الاقتصادية بين الدول الأوروبية المختلفة مع دولة الخلافة العثمانية .

٣- عدم إغلاق أبواب الدولة في وجه الأجانب الذين طالبوا بهذه الامتيازات ، وحاجة الدولة الملحمة لهم رعاية لمصالحها [١] .

وكانت أولى هذه المعاهدات بين السلطان سليمان القانوني عام (١٥٣٥م) مع ملك فرنسا[٢] . وكانت هذه المعاهدات والامتيازات تنص على أن الأجانب فوق القانون والمحاكم ، وجهات الإدارة المحلية ، ولكن يخضعون لقوانين ومحاكم بلادهم[٣] .

ومع ضعف الدولة العثمانية شيئاً فشيئاً ، زادت هذه الامتيازات. وتوسعت ، ولم تتخلص منها الدولة العثمانية إلا بعد التنازل عن الولايات العربية عام ١٩٢٣م.

* بداية حصول الولايات المتحدة الأمريكية على هذه الامتيازات :

تعد هذه الامتيازات متأخرة عن بقية الدول الغربية ، فمثلاً فرنسا حصلت عليها عام ١٥٣٥م ، وإنجلترا عام ١٥٨٣م ، وهولندا عام ١٦١٣م ، والدنمارك عام ١٧٥٦م ، وبروسيا عام ١٧٦١م ، وإسبانيا عام ١٧٨٢م ، أما الولايات المتحدة الأمريكية ، فكانت عام ١٨٣٠م في عهد قريب في بداية العقد الثالث من

(١) المصري ، حبيب : ضرائب الدجل في مصر ، جـ١ ص٩.

(٢) فرنسوا الأول .

(٣) خانكي ، جميل : الأحوال الشخصية في مصر ، ص٦.

القرن التاسع عشر ، بعد أن استفحل أمر الامتيازات ، وأصبحت خطراً كبيراً في أرجاء الدولة العثمانية [١] .

* بلاد الشـــــام :

ترجع بداية النشاط الأمريكي إلى عام ١٨٢٠م ، عندما وصلت إلى بيروت[٢] أول إرسالية أمريكية تتبع الكنيسة ، وواجهت هذه البعثة مقاومة وعداء من المسلمين ، وكذلك عارضت دولة الخلافة العثمانية ذلك ، ولم تعترف بالبعثة ، واعتبرتها خطراً دينياً ، إضافة إلى أن هذه البعثة اصطدمت بالكاثوليك والأرثوذكس الذين يضمرون العداوة للبروتستانت[٣] .

إلا أن هذه الإرساليات واصلت نشاطها ، ويعود الفضل بذلك للمبشرين الذي أظهروا نشاطاً ، ومنهم «إيلي سميث»[٤] وهو أمريكي شاب درس اللاهوت ، وانضم للتبشير بالخارج وبقي في بيروت حتى توفي عام ١٨٥٧م ، ثم وسعت

---

(١) خانكي ، جميل : الأحوال الشخصية في مصر ، ص٧.

(٢) أنطونيوس ، جورج : يقظة العرب ، ص٩٨ .

(٣) غرابية ، عبد الكريم ، سورية في القرن التاسع عشر ، ١٨٤١-١٨٧٦م ، ص١٢٣.

(٤) سميث ، إيلي وفد على لبنان بالمطبعة الأمريكية من مالطة ، وحفر أمهات حروفها العربية (١٨٤٣م) وتعاون هو والمعلم بطريس البستاني ، وكان متضلعاً من السريانية ، وتعلم العبرية مع سميث ، على نقل التوراة إلى العربية (١٨٤٨م) ولما توفي سميث لم يكن قد نشر منها إلا سفرا التكوين والخروج ، فخلفه فانديك فيها ، وكان يستعين عليها بثقات المستشرقين ، لا سيما فلايشر ورويدخر ، بأعلام العرب حتى أتموها وكان معولهم في الترجمة على النسخة العبرية أكثر من غيرها. وقابلها الآباء اليسوعيون بترجمة اعتمدوا فيها على نسخ العبرية واليونانية والسريانية واللاتينية ، وكلفوا الشيخ اليازجي تصحيح عباراتها وأسلوبها ، وبالغوا في إتقان طبعها وتزيينها ، انظر كتاب : « المستشرقون » للعقيقي (٣/ ١٣٠) .

أمريكا نشاطها ليشمل مصر في عام ١٨٣٤م بسبب سياسة إبراهيم باشا التي نادت بالتسامح الديني ، والعدل ، والمساواة ، وفي عام ١٨٥٠م اعترفت دولة الخلافة الإسلامية رسمياً بالطائفة البروتستانتية ، وسمحت بفتح مجال العمل أمام هذه البعثة ، والتي ساعدت بمد نشاطها إلى دمشق، وحلب، وحمص، وحماة، وجبل النصيرية [١] .

ثم واصلت مد حمايتها ومتابعتها لنشاطها بعد مجيئها إلى بلاد الشام ، فأسست القنصليات ، وأوفدت الدبلوماسيين ، وذلك لحماية الإرساليات من ناحية ، وتدعيم نظام الامتيازات من ناحية أخرى ، فبدأت القنصليات الأمريكية بفتح أبوابها في دمشق، وبيروت، وحلب كما ظهرت قنصليات أخرى في يافا ، والرملة، والقدس بفلسطين ، وكان نواب القناصل أحياناً من اليهود [٢] .

* مدارس الإرساليات الأمريكية :

أدرك المبشرون الأمريكيون أن أفضل مجالات التبشير هو التعليم ، لأن التعليم يضمن تخريج أجيال مصنوعة على أيديهم ، فطريق التعليم هو أفضل في توجيه أفكار الطلاب وفق تخطيط المبشرين وبرامجهم [٣] .

---

(١) العقيقي ، نجيب : المستشرقون ، ص ١٧٠-١٧٥.

(٢) غرايبة ، عبد الكريم: سورية في القرن التاسع عشر ، ص١٣٠.

(٣) عن طريق هذه المدراس ، وفي إطار الخطة العامة للتبشير والاستشراق في « إضعاف مثل الإسلام وقيمه العليا من جانب ، ،أقبلت تفوق المثل الغربية من جانب آخر ، وإظهار أي دعوة للتمسك بالإسلام بمظهر الرجعية والتأخر » عن طريق هذه المدارس اهتم المبشرون بما يسمونه « تحرير المرأة » وتخريج جيل من الفتيات المسلمات اللواتي لا يعرفن من دينهم وتاريخهن شيئاً ، ويتعلقن بالحياة الغربية ، التي تفسح لهن الطريق إلى الفساد والانحلال باسم المساواة والتحرر

فالبعثات التبشيرية الأمريكية اعترفت أن أهداف المدارس ، والكليات التي تشرف عليها هذه البعثات هي التنصير ، حتى إن الموضوعات الدنيوية كالجغرافيا والتاريخ تحمل معها الآراء النصرانية وكانوا يقولون : «إن التعليم أنفع وسيلة يستغلها المبشرون لتنصير المسلمين » وعليه فقد انتشرت مدارسهم وكلياتهم في الشام انتشاراً كبيراً ، وكان أول ما أسسوه مدرسة في «عينطورة » عام ١٨٣٤م ، ثم أنشأوا مدرسة (عبية) عام ١٨٤٧م[١] واهتموا بتدريس البنات ، لعلمهم بأهمية المرأة في الحياة الاجتماعية .

وبالنسبة لاهتمامهم بالتعليم العالي ، أنشأوا الكلية السورية في بيروت ، (الجامعة الأمريكية) ، فمنذ بدايتها وهي في أحضان البعثات التبشيرية ، علماً أن هذه الجامعة كانت تصر على تعليم التوراة في صفوفها إذا استطاعت وكانت تخير الطلبة بين أن يحضروا في صفوف التوراة أو يتلقوا دروساً في الأخلاق .

وإذا كانت هذه الإرساليات الأجنبية قد استغلت الامتيازات الأجنبية ، وكان التبشير أساس سلوكها التعليمي والهدف الأول لأساتذتها ومعلميها الأمريكيين، ولعب خريجو مدراس الإرساليات دوراً كبيراً في حياة بلاد الشام السياسية ، فقد ظهر القوميون الذين نادوا فيما بعد بالقومية العربية أو إثارة نعرة الشعوبية [٢] .

وهي دعوة إقليمية ضيقة شجع عليها المبشرون ، وعلى رأسهم أفراد البعثة

من الرجعية. انظر المستشرقون ، للدكتور مصطفى السباعي ، والأخوات المسلمات ، لمحمد خيال الجوهري .

(١) الدسوقي ، عمر: في الأدب الحديث ، جـ١ ، ص١٠٩ .

(٢) سالم ، أحمد ، موسى :الإسلام وقضايا المعاصرة ، ص٦٣ .

التبشيرية الأمريكية ، وهكذا في سورية وغيرها ساهمت بشكل كبير في الفرقة ، والدعوة الإقليمية ببعض الأقطار العربية تمثّلت في المناداة بالعامية بدل لغة القرآن، وقد دعا « زويمر » إلى أن تكون اللغة العاميَّة هي السائدة ؛ لأن اللغة الفصحى لا تنتشر إلا بين فئات قليلة جداً من سكان الأقطار العربية والإسلامية[١] .

* صور من نشاطات الإرساليات التبشيرية الأمريكية في بلاد الشام :

١- إصدار نشرة شهرية مصورة عام ١٨٧١م ، باسم (كوكب الصبح المنير) وكانت توزع مجاناً على تلاميذ المدارس البروتستانتية .

٢- إنشاء أول عيادة طبية مع إنشائهم مدرسة الطب ، والصيدلة ، والتمريض في إطار مدارس الكلية السورية منذ بداية تأسيسها[٢] .

٣- ترجمة وتأليف كتب في الطب ، والهندسة ، والجغرافيا ، وهو العمل الذي قام به الدكتور الأمريكي « كوديتليوس » ١٨٤٠م ، وكان طبيباً ومبشراً .

٤- استغلال الأزمات الاقتصادية ، وتوزيع الأموال الإعانات ، خاصة عام (١٩١٥م) ، عندما حلت المجاعة ، إضافة إلى ويلات الحرب التي تعرض لها الشعب المسلم في بلاد الشام .

هذا وقد عرف المبشرون الأمريكيون الشرط الأول لتحقيق برامجهم التعليمية بنجاح ، وهو توفير الكتب المدرسية ، لذلك اتخذوا قرارين هما: تعليم اللغة

---

(١) الجندي أنور : الإسلام في وجه التغريب ، ص٣٥١.

(٢) حتي ، فليب: مختصر تاريخ لبنان ، ص٢٢٨.

العربية ، إنشاء مطبعة في بيروت ، وبالتالي نقلوا المطبعة الموجودة في مالطة إلى بيروت ، ثم ألحقوا في سلك الخدمة معهم «ناصيف اليازجي»[١] و«بطرس البستاني»[٢] وأوكلوا إليهم مهمة تأليف الكتب في مختلف المواضيع ، وأخذوا يطبعون ، ويوزعون أولاً ، ثم ذهب «إيلي سميث» أحد زعماء البعثة التبشيرية في المنطقة إلى مصر والقسطنطينية لبحث عن نماذج جديدة للحروف ، ثم ذهب إلى ألمانيا حيث اختار من مصانعها الطباعية أحرفاً للتنضيد جديدة ، عرفت فيما بعد بـ (العربية الأمريكية). وما انطبق على بيروت كان ينطبق تلقائياً على القدس تماماً .

ويمكن أن نوجز الأهداف التي وضعتها الإرساليات الأمريكية نصب أعينها عند مجيئها إلى فلسطين عن طريق نشاطها التعليمي والثقافي مما يلي[٣] :

---

(١) حاول المستشرقون أن يستخدموا الشيخ ناصيف كما استخدموا طانيوس الحداد وأمثاله تمهيداً لإدخالهم في المذهب البروتستانتي. ولكنهم وجدوا الشيخ ناصيف متحفظاً .. وتمكن «سميث» من استخدام ناصيف في نسخ الكتب ، فبدأت بذلك صلة علمية مع المبشرين الأمريكان استمرت مدى الحياة دون أن تمس مسألة المذهب. انظر كتاب « دراسات عربية وإسلامية » للدكتور عبد اللطيف الطيباوي ص (١٣٣) .

(٢) استدرج المعلم بطرس البستاني حتى اعتنق المذهب البروتستاني ، فعلت مكانته عند الأمريكان ، حتى إن رئيسهم القادم من أمريكا للتفتيش أوصى له ليكون واعظاً وقساً. ورضي المبشرون عن المعلم بطرس ، واعتبروا قبوله مذهبهم من علامات نحاجتهم ، وأظهر هو إخلاصاً لهم في الخدمة وأكد ذلك بتعلقه بمذهبه الجديد. ولم يستطع بطرس أن يحرر لغته من بعض الركاكة ، والاصطلاحات العامية والأغلاط النحوية ، وأثر الترجمة من اللغة الإنجليزية. انظر المصدر السابق (ص١٤٩) .

(٣) جورج لينشوفسكي : مصالح الولايات المتحدة الأمريكية في الشرق الأوسـط ، ص٢٣.

١- أن يكون هدف المدارس الأمريكية في فلسطين نشر المعرفة الدينية والدنيوية.

٢- أن تكون المدارس الأمريكية نواة للكنيسة الإنجليزية وآمالها ، لأن صغار اليوم رجال ونساء المستقبل .

٣- تربية الطفل وهو صغير تربية دينية ، وتدريب الأطفال سواء كانوا من البنين أم من البنات على تعليم الإنجيل ، ليشربوا وهم صغار تعاليم ومبادئ المذهب البروتستانتي ، فيحافظوا عليه وهم كبار[(١)] .

٤- أن تكون المدارس مكاناً لاجتماع المبشرين بالآباء ، وينشرون بعد ذلك مبادئ المذهب البروتستانتي[(٢)] .

٥- أن تكون المدرسة داراً للتربية بحيث يصعب على من يعيش في المستقبل البعد عن المكان الديني الذي ينتمي إليه .

---

(١) وضع الكاتب الفرنسي « إيتين لامي » النقط على الحروف في مقاله الذي نشرته مجلة « العالمين » الفرنسية ، منذ مائة عام ، كاشفاً عن أهداف الخطة الصليبية لهدم الإسلام بقوله : « إن مقاومة الإسلام بالقوة لا تزيده إلا انتشاراً ، فالواسطة الفعالة لهدمه ، وتقويض بنيانه هي تربية بينة في المدارس المسيحية ، وإلقاء بذور الشك في نفوسهم منذ الطفولة ، فتفسد عقائدهم من حيث لا يشعرون ، وإن لم يتنصر منهم أحد ، فإنهم يصيرون لا مسلمين ولا مسيحيين ، وأمثال هؤلاء يكنون بلا ارتياب أضر على الإسلام مما إذا اعتنقوا المسيحية ، وتظاهروا لها. إن طريقة تربية أبناء المسلمين - وإن كان لها من التأثير ما بيناه - فإن تربية البنات في مدارس الراهبات أدعى لحصولنا على حقيقة الغرض ، ووصولنا إلى نفس الهدف الذي نسعى إليه ، بل أقول : إن تربية البنات بهذه الكيفية هي الطريقة الوحيدة للقضاء على الإسلام بيد أهله « الأخوات المسلمات » (٢٢٥-٢٢٦).

(٢) محمد ، محمد سليمان أحمد : النشاط السياسي والثقافي للأجانب في مصر ، ص ٢٢٧

وقد ركزت الإرساليات الأمريكية نشاطها إزاء طبقتين من طبقات المجتمع هما :

أولاً : الطبقة المسيطرة ، والتي تتسم بالجاه والسلطان ، والتي اتخذت منها سنداً لنشاطها ، ودعماً معنوياً تتلقاه منها .

ثانياً : الطبقة الفقيرة المحرومة ، وتفتقر إلى النفوذ والجاه ، ومحرومة من التعليم والرعاية الصحية ، فكانت هذه الطبقة ميداناً فسيحاً يسهل احتواؤه ، كما يسهل التأثير عليه عن طريق التعليم والخدمة الاجتماعية .

أما الطبقة المتوسطة فكان التأثير فيها قليلاً ، لأنها غالباً ما تكون مثقفة إلى حد ما ، ويصعب السيطرة عليها ، وهي غالباً ما تحافظ على العادات والتقاليد والتراث ، فضلاً عن تمسكها بالمعتقدات الدينية التي تسلمتها من الآباء[1] .

ولقد أفسحت الامتيازات الأجنبية المجال لنشاط الإرساليات الأمريكية وغيرها من الإرساليات من أن تمارس نشاطها بحرية ، وأن تتدخل في أمور العقائد والأديان ، ونشر المذهب البروتستانتي ، مع أنها كانت تتستر خلف المدارس والمستشفيات ، والتي أتاحت لها الهجوم على الإسلام وأفكاره ، والدعوة إلى التحلل من الدين ، ونبذ الجهاد ، إلى غير ذلك من الأمور التي حرص المبشر على نشرها ، وتعميقها بين صفوف المسلمين وذلك بإثارة القضايا الكثيرة بين المسلمين كتعدد الزوجات ، والرق ، والمرأة .. الخ[2] .

---

(١) مينا ، طلعت : الإرسالية الأمريكية ونشاطها التربوي في مصر ص ٤٣ .

(٢) عبدالحميد ، نبيل : النشاط التبشيري الأمريكي في البلاد العربية حتى عام ١٩٢٣م ، ص ٢٧٠.

* الإمبريالية الأمريكية تستغل الدين لتحقيق أهدافها :

كما لاحظنا فإن أمريكا أولت اهتماماً متزايداً بالحركات التبشيرية المسيحية ، وسخّرتها في خدمة الإمبريالية ، شأنها شأن الدول الأوروبية الاستعمارية الأخرى .

فكما علمنا ، ومنذ منتصف القرن التاسع عشر بدأت أمريكا تهتم بالمنطقة ، وبشكل رئيسي ، خلال نشاطات البعثات التبشيرية في المجالات الثقافية ، والتعليمية ، فقد كانت الأرض المقدسة دائماً موضع اهتمام مسيحي[(١)] .

وهكذا ، فإن المبشرين من رجال الدين المسيحي الذين اشتغلوا في خدمة الاستعمار سبقوا اليهود بسنوات من أجل العمل للصهيونية ، تماماً مثل أوروبة الاستعمارية[(٢)] .

وكم حاولت أمريكا أن يتوسط سفيرها لدى الباب العالي ، للسماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين ، ومع الإلحاح الشديد وافق الباب العالي على أن يسكنوا في أية بقعة سوى فلسطين.

وعلى الرغم من جميع الادعاءات الصهيونية التي كان يطلقها أصحاب المشروع الصهيوني من الأمريكان ، ومن يناصرهم من المبشرين الذين كانوا في خدمة الاستعمار مثل الأستاذ الفرد جيوم أستاذ دراسات العهد القديم بجامعة لندن بأحقية اليهود بفلسطين ، إلا أن هذه الادعاءات لم تلق آذاناً صياغة ، إلا من بعض المبشرين المسيحيين الذين كانوا يعملون في خدمة الاستعمار.

(١) بويصير ، صالح مسعود : جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن ، ص٢١.

(٢) العظيم ، صادق جلل : الصهيونية والصراع الطبقي ، ص٥٤-٥٥.

وهذا وقد تطوع كثير من الحركات المسيحية الأمريكية في أواسط القرن الماضي ، من أمثال السبتيين ، وشهود يهوه ، لإقناع اليهود بساميتهم ، وبحقهم الإلهي في العودة إلى فلسطين تنفيذاً لوعود الرب[1] ولقد كانت الحكومة الأمريكية – ومنذ وقت مبكر – معنية بمصير دولة الخلافة العثمانية ، وبمصير النظام العالمي ، ولقد جربت منذ أواسط القرن التاسع عشر إقامة مستعمرات مسيحية أو يهودية في فلسطين ، ومع هذا كله كانت تلقى الإخفاق ، ولكنها واصلت جهودها بتصميم واضح. وفي تموز عام ١٨٦٧م وجه مجموع المستوطنين الأمريكيين المقيمين غرب يافا رسالة إلى السيدين « هـ. ب غسندون . و م. مويل» عضوي الكونغرس الأمريكي يشرحون فيها وضعهم ، ويطلبون التدخل لدى السلطات الأمريكية ، لتلخيصهم من الوضع الرهيب الذي وجدوا أنفسهم فيه ، ويذكر موقعو الرسالة ، وعددهم سبعون شخصاً ، أنهم استشاروا السفير الأمريكي في القسطنطينية السيد «جوي موريس» قبل إرسالها، وبتاريخ ٢٢ أيلول عام ١٨٦٧م جاء الرد من وزارة الخارجية إلى عضوي الكونغرس ، ليقول أنه متشكك من صحة نوايا موقعي الرسالة ، وأن جزءاً مهماً من المستوطنين لازال متمسكاً باستمرارية المشروع الاستيطاني ، ومشيراً إلى أن مجموعة من المستوطنين الجدد تتأهب للانطلاق من ولاية (ماين) إلى يافا ، ولذلك فإنه من غير المناسب لحكومة الولايات المتحدة أن تتورط في إعادة المستوطنين الخائبين ، في الوقت نفسه تتجه سفينة من ولاية (ماين) تحمل مهاجرين جدداً ليحلوا محل المهاجرين العائدين[2] هذا إصرار أمريكي على عدم

---

(١) شهالي ، نصر : إفلاس النظرية الصهيونية ، ص٦٣.

(٢) النتشة ، رفيق شاكر: الاستعمار وفلسطين ، ص٢٣٥.

التنازل عن دورهم ، بل وترسيخ أقدامهم في أرض ليست أرضهم ، وديار ليست بديارهم ، وكل ذلك خدمة للإمبريالية الاستعمارية المتسلطة .

* بداية الغزو التبشيري الفرنسي :

تزامن هذا الغزو مع الحملات التي قام بها نابليون ١٧٩٩م ، إذ كان من أهدافه نبش الأرض الإسلامية لاستخراج حضارات ما قبل التاريخ ، تمهيداً لاقتلاع المسلمين نهائياً ، فكان هذا هو هدف البعثات العلمية التي رافقت نابليون في حملاته ، فسعى نابليون إلى تحقيق أهدافه في المشرق على أيدي المسلمين أنفسهم في بعض الأحيان [١] .

وقد دخل الغزو الفكري عن طريق بلاد الشام ممهداً في الإرساليات المسيحية من نتاج التسامح الديني الذي تميز به حكم إبراهيم باشا بعد استيلائه على بلاد الشام ، حيث فتح هذا التسامح الباب للبعثات التبشيرية في منتصف القرن العاشر الهجري – السادس عشر الميلادي – وكانت البعثات معظمها كاثوليكية من الفرنسيين ، وكانت تظهر بمظهر الحامي والراعي للطوائف المسيحية الموالية للكنيسة بروما ، علماً بأن الشام كانت ميداناً فسيحاً للمبشرين بمختلف طوائفهم ، وذلك لكثرة المسيحيين ، ووجود الأماكن المقدسة بها[٢]. ولقد زاد نشاط هذه الإرساليات بعد أخذ فرنسا الامتيازات من الدولة العثمانية. وأشير هنا إلى أن الباب لم يكن مفتوحاً لفرنسا على مصراعيه بل وجدت من ينازعها

---

(١) خراج ، السيد أحمد : جذور العلمانية ، ص ٢٧-٢٨.

(٢) أنطونيوس ، جورج : يقظة العرب ، تعريب على حيدر ، ص ٩٧.

مانسنيون مستشرق فرنسي له بحوث كثيرة في التصوف (المستشرقون ١/ ٢٣٦).

كروسيا ، وبريطانيا ، وإيطاليا ، وأمريكا فيما بعد ، مما قلل نفوذها ، وحصر تحركاتها. وتعد فرنسا من أوائل الدول التي منحت الامتيازات من قبل دولة الخلافة العثمانية ، ويرجع ذلك إلى تاريخ بعيد حيث عين أول قنصل فرنسي في الآستانة ، ولما آل الوضع بالدولة العثمانية إلى الضعف ، أخذت فرنسا وبريطانيا تتنافسان على حماية الأجانب في دولة الخلافة العثمانية ، وأدرك المبشرون ما يمكن أن يستفيدوا من هذه الامتيازات ، فاستغلوها إلى أبعد الحدود ، بغض النظر عن أشكال ثيابهم، يدورون في البلاد كأجانب، ويعملون فيها كمبشرين ، وكانتا أي (فرنسا وبريطانيا) تهتمان بسورية اهتماماً كبيراً .

وبدأت طلائع المبشرين والمستشرقين تغزو العالم الإسلامي وبالأخص سورية وفلسطين التي – هي جزء منها – وقد بدأ تبني التبشير والاستشراق من قبل الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٣٨م ، فدخلوا بلادنا كمستشرقين ، وبكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، وسرعان ما تحولوا إلى مبشرين ، ونخص بالذكر منهم «لويس ماسنيون» الذي دعا إلى استغلال اعتقاد المسلمين بعيسى ابن مريم لحمل المسلمين على ترك دينهم[(١)] .

إن هذا الاستشراق الممزوج بالسياسة ، بل إن هذه السياسة المغلفة بالتبشير هي الاستعمار بعينه ، فمن وراء فرنسا أوروبا كلها تطمع إلى محو دولة الخلافة العثمانية ، واقتسام ممتلكتها ، لاسيما بعد اعتراف السلطان العثماني لكل من فرنسا وروسيا برعاية المسيحيين في الديار الشرقية: روسيا لحماية الكنيسة الإغريقية ،

---

(١) أحمد سماجلوفتش: فلسفة الاستشراق ، ص١٢٠.

وفرنسا لحماية الكنيسة اللاتيني[١] .

وقد عملت فرنسا جاهدة على دعم حركات الانفصال عن دولة الخلافة العثمانية في سورية عامة ، مقترحة مد يد العون لهم بالأشراف والتوجيه إذ جاء عن قنصل فرنسا في طرابلس الشام ما يلي : « إن فرنسا يمكن أن تكون متأكدة من حسن استقبال المسلمين لها إذا ما وعدت باحترام عقائدهم ، وبمساعدتهم ، وفي الحالة التي ذكرناها في اختيار خليفة لهم»[٢] ، حيث اقترح أن يختار المسلمون خليفة لهم عبر السلطان العثماني ، يعني : انفصال سورية عن دولة الخلافة العثمانية ، وتعد فرنسا بالمساعدة ، وبأنها ستحترم عقائد المسلمين إذا أحسنوا استقبالها. وكان الفرنسيون يقومون ، وعن طريق رجال الأعمال ، مدعومين بغطاء جامعي في تقديم الخدمات والمساعدات في منطقة النفوذ الفرنسي ، والتي تشمل متصرفية فلسطين ، دمشق ، وحلب ، وبيروت ، والمهم أن يصلوا إلى القدس[٣] .

ولعل من المضحك أن نجد أن الرأسمالي الكبير « هنري فورد »[٤] يطبع على نفقته وباسمه كتاباً عن بروتوكولات حكماء صهيون باسم «اليهودي في العالم» زاعماً أن ذلك خدمة للشعب الأمريكي ضد اليهود ، وحقيقة الأمر أنه يخدم السياسة الأمريكية والصهيونية في الوقت نفسه.

---

(١) العقاد ، عباس محمود: الإسلام في القرن العشرين ، ص٥٢.

(٢) النتشة ، رفيق : الاستعمار وفلسطين ، ص٩٨.

(٣) المرجع نفسه ، ص١٠٦.

(٤) هنري فورد : Ford (١٨٦٣-١٩٤٧م) : صناعي أمريكي. ساهم في تقديم صناعات السيارات. وتسهيل منالها للعامة [المنجد في الأعلام (٥٣٢)] .

كل هذه المحاولات الهدف منها توطين اليهود ، وإقامة دولة لهم خدمة لمصالحهم ، وهكذا تداس المبادئ وتنتهك الحرمات وتشوه الأخلاق تحت ضغط المصالح والمنافع ، التي لا مقياس غيرها عند أولئك المستعمرين ، مهما لبسوا من ثياب العدالة ، والمبادئ الإنسانية(١) .

فهناك تنافس بين الدول الاستعمارية ، فكل جولة تحرص أن يكون لها النصيب الأكبر من تركة دولة الخلافة العثمانية ، هذه فرنسا ترفض التصديق على الانتداب البريطاني في فلسطين حتى يتم التصديق على الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان ، فالعملية عملية مقايضة ولقد حصل تأخر للانتداب الفرنسي على سورية بسبب المحادثات المطولة مع إيطاليا حول حقوق المواطنين الإيطاليين في سورية ، وحقوق المواطنين الفرنسيين في فلسطين ، وفي عام ١٩٢٤م أعلنت الحكمة البريطانية بأنها سوف تمنح الحكومة الفرنسية الامتيازات نفسها التي منحت للحكومة الأمريكية وفيما يتعلق برعاياها في تأسيس إدارة خاصة بهم ، تتابع شؤونهم في المؤسسات الخيرية والمدارس في فلسطين(٢) .

ووافقت الحكومة الفرنسية على ذلك ، ولم تثر أي مشكلة ، وفيما لو تعرضت الإدارة الفرنسية إلى ضغوط من قبل الحكومة البريطانية ستعامل بريطانيا بالأسلوب نفسه في سورية ولبنان ، ولكن بريطانيا اضطرت لتقديم معونات

---

(١) جاك دومال وماري لوروا : التحدي الصهيوني (أضواء على إسرائيل) ، ص٢٩. ترجمة نزيه الحكيم ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط١.

(٢) F.O 371-10832, E 333–74–65 .

مالية لهذه المدارس والمؤسسات الفرنسية ، باعتبار أن فرنسا حليفة لها عند قيام الحرب العالمية الثانية في الفترة من ١٩٣٩-١٩٤٥م[(١)] .

وفرنسا كغيرها من الدول الاستعمارية كانت تطمع في الاستيلاء على أجزاء لا يستهان بها من أرض الدولة العثمانية ، وكانت على اتفاق مع بريطانيا ، وهذا ما صرح به الرئيس الفرنسي « ريمون بوانكاريه»[(٢)] عام ١٩٠٢م ولم يكن رئيساً بعد حيث تولى الرئاسة عام ١٩١٣م بقوله : « إني لسعيد أيضاً بأن أتمكن من أن أضيف ، بأنه ليس هناك أي مبرر لتصور وجود أي من الخلافات بيننا وبين الحكومة الإنجليزية حول هذه النقط (يعني : سورية الطبيعية)[(٣)] .

أما مصالح فرنسا التقليدية فيظهرها تقرير رسيم صادر عن لجنة الموازنة الفرنسية كما يلي: «إنها شركة فرنسية رأسمالها ١٤ مليون فرنك فرنسي ، لك التي بنت مرفأ بيروت، إن إدارات استثمار الماء والغاز والكهرباء مشاريع فرنسية ، إن خطوط السكك الحديدية: يافا – القدس ١٨٨٩م دمشق – بيروت وغيرها ... كلها مشاريع فرنسية .

وعلى صعيد التغلغل الثقافي والإنساني ، فقد كان لفرنسا أكثر من (١٠٠) مؤسسة للخدمات الاجتماعية (مستشفيات ، مصحات ، دور للأيتام ،

---

(١) القطشان ، عبد الله: التعليم الخاص اليهودي والمسيحي والإسلامي في فلسطين ، ص٧٦.

(٢) ريمون بوانكارية (١٨٦٠-١٩٣٤) : سياسي فرنسي رئيس الجمهورية (١٩١٣-١٩٢٠م) كان محافظاً ولكن محافظته لم تبلغ به حد الرجعية. جعل من همه صيانة فرنسا من الخطر الألماني المحدق (موسوعة المورد العربية (١/ ٥٢٥).

(٣) الصافوي ، مجدي عبد الحميد: سقوط الدولة العثمانية وأثره على الدعوة الإسلامية ، ص١٩٧.

والعجزة ، وأكثر من (٢٢٠) مؤسسة تعليمية موزعة بين سورية ، ولبنان ، وفلسطين ، هذا حتى عام ١٩١٣م وكانت هذه المؤسسات تضم حوالي (٥٢٠٠٠) طالب[١] .

في هذا الوقت الذي تنشط فيه المؤسسات التبشيرية الفرنسية في العمل كانت دولة الخلافة العثمانية تشهد انقلابات أساسية في مؤسساتها الحكومية ، وتغيرات في مؤسساتها التربوية ، اتباعاً لسياسة التتريك والدعوة إلى الطورانية حيث مصدر قبائل المغول .

هذا وتنبه بعض الدبلوماسيين الفرنسيين للنتائج التي تترتب على سياسة فرنسا في حمايتها للمسيحيين لموقف المسلمين. ونقرأ ذلك في رسالة القنصل الفرنسي « Couget » في بيروت بتاريخ ٣ كانون أول عام ١٩١٢م يقول : « إن المسلمين يخشون في حال سيطرة فرنسا على البلاد ، أن تؤدي تقاليد هذه الأخيرة في حمايتها للمسيحيين إلى إضعاف المسلمين ، وجعلها في وضع دون وضع يحميها .... »[٢] .

وكان الفرنسيون يحملون شعاراً من يصل أولا يستقبل بصورة أفضل «إضافة إلى أن فرنسا هي التي مثلت تاريخياً ، ومنذ الحروب الصليبية سياسة الحماية للكاثوليك في المشرق ، وأنها استمرت في حماية المسيحيين الكاثوليك والموازنة .

---

(١) كوثراني ، وجيه: السلطة والمجتمع والعمل السياسي من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام ، ص١٩٠.

(٢) كوثراني ، وجيه : السلطة والمجتمع والعمل الساسي من تاريخ الوالاية العثمانية في بلاد الشام ص ٢٠٠.

وطالما كانت فرنسا تسعى لحماية النصارى بفلسطين ، وتقديم خدمات خاصة لهم ، وخير مثال على ذلك في منتصف القرن الثالث عشر الهجري ، الموافق لمنتصف القرن التاسع عشر الميلادي ، وجد خلاف بين الكهنوت الكاثوليكي ، والكهنوت الأرثوذكسي للاستيلاء على مفاتيح الأماكن المقدسة في فلسطين ، واشتد الخلاف ، فتدخلت الحكومة الفرنسية للدفاع عن الكاثوليك ، والحكومة الروسية للدفاع عن الأرثوذكس ، وهكذا اشتد الاحتكاك بين روسيا وفرنسا ، حيث حاولت كل من الدولتين الضغط على السلطان الذي لزم الحياد على الرغم من تهديد روسيا بقطع علاقاتها الدبلوماسية معه إذا استسلم للضغط الفرنسي[١] .

ثم أخذت كل منهما تطلب من دولة الخلافة العثمانية منح امتيازات الأماكن المقدسة للفئة التي تحت رعايتها ، فوقفت حكومة دولة الخلافة العثمانية حائرة أمام ذلك ومترددة ، إلا أن حجة الكاثوليك كانت أقوى بموجب الامتيازات القديمة الممنوحة لفرنسا عام ١٧٤٠م من دولة الخلافة العثمانية ، والتي تخولها الحصول على امتلاك الكنائس فيها ، وكان الروس يسعون جاهدين لسلبهم تلك الامتيازات ، وإعطائها الأرثوذكس بسبب حماسهم لذلك المذهب ، ولنشر نفوذهم في الدولة عن طريق تحريك رعاياهم في البلقان .

ولما شغلت فرنسا بحروب نابليون ، لم تتمكن من المحافظة على مركزها في الأماكن المقدسة ، فسيطر الأرثوذكس عليها ، ثم قام نابليون بالتدخل لدى الباب العالي لإرضاء شعبه ، ولكن السلطان أحال هذه المشكلة إلى لجنة خاصة

---

(١) مصطفى أحمد عبد الرحيم : في أصول التاريخ العثماني ، ص٢٠٩.

لحل هذا الخلاف ، وبعد عدة اجتماعات قرر المجتمعون أحقية الكاثوليك في امتلك كنائس وأديرة لهم فيها حق الأولوية ، وعارض الروس وهددوا ، لكن دولة الخلافة العثمانية أصرت على موقفها[١] .

وبعد ذلك تم منح الكاثوليك بعض الامتيازات ، وأهمها : تسليم المفاتيح الثلاثة الخاصة بالأبواب الرئيسية لكنيسة العذراء ، وباب السراديب القائمة تحت كنيسة المهد في بيت لحم ، لذلك ارتاح السفير الفرنسي في استنبول لهذا الإجراء ، ونلاحظ كيف أن فرنسا تتغلغل من خلال رعاياها الكاثوليك في فلسطين خاصة ، والدولة العثمانية عامة ، وما نتج عن هذه الإجراءات من نزاع شديد بين روسيا والدولة العثمانية ، كيف أن بريطانيا كانت تلهب هذه الخلافات وتشعلها بين الحين والآخر. وكان من نتيجة تدخل أوروبة في الصلح تقوية النصارى داخل الدولة العثمانية ، وذلك بمساواتهم مع المسلمين والسماح لهم بامتلاك الأراضي والعقارات ، ودخول الوظائف الإدارية ، مع فرض الخدمة العسكرية عليهم رسمياً ، ووعدهم بازدياد تمثيلهم في مجالس الولايات وإنشاء البنوك ، والاستعانة برأس المال والخبرات الأوروبية[٢] .

وعلى الرغم من المعارض من المعارضة لهذا الخط وانتقاده من قبل رجال الإصلاح ، إلا أنه سار أشواطاً بعيدة للأمام ، مما جعل مسيحي الدولة يتطلعون إلى مزيد من التدخل الأوروبي حول تنفيذ الإصلاحات بدل من تطلعهم إلى السلطات العثمانية .

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٤٩١-٤٩٢.

(٢) مصطفى أحمد عبد الرحيم : في أصول التاريخ العثماني ص ٢١١-٢١٢.

وهكذا نرى : أن الدولة الأوروبية أخذت في غزوها الفكري للدولة مسألة الطوائف غير المسلمة ، ذريعة للتدخل المستمر في شؤون الدولة[١] .

ولو نظرنا إلى معاهدة باريس عام (١٢٧٣هـ ، ١٨٥٦م) ، لوجدنا : أن معناها دخول الدولة العثمانية تحت مظلة كفالة الدول الأوروبية ، واعترافها بالعجز ، والحاجة للحماية الأوروبية ، وتحت أهم بند في المعاهدة وهو البند التاسع الذي يعد المسيحيين بحرية ليس لها ضوابط[٢] .

هذا وقد كان لفرنسا نشاط كبير بين الطوائف المسيحية في الدولة العثمانية ، خاصة في فلسطين ، وكانت تعد نفسها وصية على الكنائس الشرقية المارونية والكاثولكية ، خاصة عند ضعف دولة الخلافة العثمانية واقترابها من الانهيار. وكان أهم الشخصيات العربية التي تعتبره فرنسا مشعل الراية «نجيب عازوري»[٣] صاحب كتاب « يقظة الأمة العربية » والذي قال عن فرنسا : «تقدم فرنسا من بين كل الدول الأوروبية المساعدة الأسمى والأكثر عصرية للمظلومين والتعساء ، فالأمة الفرنسية بجوهرها هي أمة الفروسية ، وهي التي

---

(١) البحراوين محمد عبد اللطيف : التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالأزمنة الحديثة ، ص٨٢.

(٢) أورخان محمد علي: حياة السلطان عبد الحميد الثاني ، ص ٣١-٣٢.

(٣) نجيب عازوري : سياسي لبناني ، من الكتاب . تخرج بمعهد الدراسات العليا في باريس ، وتوظف بالقدس ، وجاهر بالدعوة إلى استقلال سورية ، وفصلها عن الدولة العثمانية ، نزح إلى مصر ، ومنها إلى باريس ، حيث ألف سنة (١٩٠٤م) جمعية باسم «عصبة الوطن العربي» لم ينتسب إليها أحد ، وأصدر في العام التالي كتاب « يقظة الأمة العربية » ثم بعد عامين مجلة «الاستقلال العربي» شهرية ، عاونه فيها بعض الكتاب الفرنسيين ، وظهر منها (١٨) عدداً. ورحل إلى مصر ، فأصدر فيها جريدة «مصر» . توفي سنة (١٩١٦م) الأعلام (٨/ ١٢) .

بادرت بالحروب الصليبية التي عادت نتائجها بفوائد على العالم بأسره ، وهي التي حمت الإرساليات التبشيرية »[١] .

ويضيف « عازوري » بقوله : « إن مقام فرنسا ونشاطاتها في بلاد الرافدين وسورية وفلسطين يتحديان كل مزاحمة ، يتألف أنصارها الكاثوليك من أربعمائة وخمسين ألف ماروني ، مع بطريك وثمانية مطارنة ، ومن مائة وخمسين ألف رومي ملكي كاثوليكي ، مع بطريك وثلاثة عشر مطراناً ، ومن ستين ألف سرياني كاثوليكي ، مع بطريك وثمانية مطارنة ، ومن سبعين ألف كلداني كاثوليكي ، مع بطريك وثمانية مطارنة ، مع بعثتين تبشيريتين فرنسيتين في بيروت والموصل ، ومن بطريك لاتين في القدس ، مع عشرين ألفاً من المواطنين العرب الأصليين ، ذوي الطقوس اللاتينية ، ومن رئس أساقفة التبشير في بغداد. ويصبح المجموع سبعمائة وخمسين ألف محمي فرنسي ، مع خمسة بطاركة ، وسبعة وثلاثين مطراناً ، وثلاثة رؤساء أساقفة مبعوثين ومبشرين ، ولقد حمت فرنسا الكنائس الشرقية دائماً ، المارونية ، والملكية ، والسريانية ، والكلدانية ، والكاثوليكية بسخاء وصدق ، وأغدق عليها عليها أموالاً دون أن تقصد تجريدها من امتيازها ، أو استبعادها »[٢] .

وعلينا ألا ننسى أن فرنسا كانت تزاحم بريطانيا في حماية المبشرين ودعمهم المادي ، إضافة إلى أن فرنسا كانت سباقة إلى إقامة المشروع الصهيوني ، وما أن انتهت الحرب العالمية الثانية حتى ظهر الصدام واضحاً بين ممثلي الحكومة

---

(١) عازوري ، نجيب : يقظة الأمة العربية ، ص١١٥ .

(٢) قاسمية ، خيرية: النشاط الصهيوني في الشرق العربي ، ص١٢ .

الفرنسية والبريطانية بسبب التنافس على طريق إدارة الأراضي المحررة من الحكم العثماني. ولكن إعلان وعد «بلفور»[١] البريطاني ، وبتخطيط أمريكي جعل بريطانيا تفوز بصورة مطلقة باستغلال المشروع الصهيوني.

* تحقيق أحلام المبشرين في إقامة وطن قومي يهودي :

في عام ١٨٦٠م ، تأسس في فرنسا الاتحاد الإسرائيلي العالمي (الإليانس) كان مؤسسوه الرئيسيون «شارلز متو» (١٨٢٦-١٨٨٢م) يهودي فرنسي ، وعميل للمخابرات الفرنسية و«البرت كوهين وكريميو» وزير العدل الفرنسي منذ عام ١٨٧٠م وفي السنة نفسها نشر«جوزيف سلفادور» (١٧٩٦-١٨٧٧م) كتاباً عنوانه «باريس روما والقدس» حث فيه على عودة اليهود إلى فلسطين. كما نشر «مورنس مس» كتابه المعروف «روما والقدس» بعد سنتين ، والذي أكد فيه إقامة الدولة اليهودية في فلسطين تحت الحماية الفرنسية ، هذا وقد استأجرت جمعية «الإليانس» في عام ١٨٦٩م أثناء ولاية رشيد باشا ، (٦٥٠) فداناً ، وتساوي (٢.٦٠٠) دونما ، بأجرة سنوية مقدارها (١٨٠٠) فرنك ذهبي ، وفي تلك السنة تم بناء مدرسة زراعية على تلك الأرض قرب يافا لتدريب اليهود المهاجرين على الزراعة[٢] .

وفي هذا الميدان أيضاً كان التنافس الاستعماري واضحاً ، فاتبعت مؤسسة مشابهة في إنجلترا ، هذا الاتجاه في الاهتمام بالتطوير الثقافي والاجتماعي لليهود وهي (Anglo – Jewish Assiciation) تأسست عام (١٨٧١م)، وفي عام

(١) عازوري نجيب : يقظة الأمة العربية ، ص١١٥.

(٢) قاسمية ، خيرية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ، ص٩٨.

١٨٧٣م تأسست «إليانس» ألماني ، على خطوط الإليانس الفرنسي نفسه في نشاطه التعلمي[١] .

ومما لا شك فيه : أن فرنسا شاركت الدول الأوروبية الاستعمارية الأخرى في نشاطها داخل دولة الخلافة العثمانية ، وفي محاولاتها الحصول على ترخيص لدخول اليهود ، واستيطانهم في فلسطين ، وأخذ موافقة السلطان على بيع الأراضي .

ولقد كان لفرنسا نشاط كبير بين الطوائف المسيحية في الدولة العثمانية خاصة بلاد الشام ، وكانت حريصة على فرض حمايتها على كنائس الشرق المارونية والكاثوليكية ، وهي لم تعدم من وجود أنصار لها في الشام ، وكانت تعمل على حماية الإرساليات التبشيرية كمندوب عنها في الديار الشامية[٢] .

ونظراً لمثل هذه الاعتبارات كانت فرنسا تزاحم بريطانيا في السيطرة على بلاد الشام ، ومنها فلسطين ، لإقامة المشروع[٣] الصهيوني ، ذلك لأنها تعد نفسها حامية لعدد كبير من الطوائف والكنائس التي كانت تحظى بحمايتها ومساعدتها، ولكن صدور وعد «بلفور» من قبل بريطانيا بتأييد وتكليف بريطانيا رسمياً من عصبة الأمم ، بالانتداب على فلسطين ، جعل فرنسا تخسر كل الجهود التي قامت بها ، ومن نشاطات الإرساليات الفرنسية ما يلي :

١- نشاط أتباع القديس « فرنسيس » ويعرفونه في بلاد الشام باسم «الآباء

(١) قاسمية ، خيرية: النشاط الصهيوني في الشرق العربي ، ص١٢.

(٢) عازوري نجيب: يقظة الأمة العربية ، ص١١٥.

(٣) قاسمية ، خيرية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ، ص٩٨.

الفرنسيسكان» وهم موجودون في الأراضي المقدسة منذ الحروب الصليبية ، وفي عام ١٨٤٨م ، زاد عددهم وعدد أديرتهم ومنشآتهم ، ولهم أديرة في القدس ، وبيت لحم ، والناصرة ، وعين كارم ، وطبريا ، والطور ، وعكا ، وغيرها .

٢- جمعية راهبات الناصرة ، وقد تأسست هذه الجمعية في فرنسا عام ١٨١٤م، وفي نهاية عام ١٨٥٤م نزلت بعثة من راهباتها الناصرة، واستقرت بها ، وأنشأت مدرسة راهبات الناصرة ، وكان عدد التلميذات ما بين ٨٠-١٢٠ تلميذة ، وأكثر المعلومات راهبات .

٣- راهبات القديس يوسف أو الراهبات اليوسفيات ، نزلت القدس عام ١٨٤٨م ، وفي عام ١٨٨٨م استقرت إحدى بعثاتها في الناصرة(١) .

٤- إخوة المدارس المسيحية أو « الفرير » وهي جمعية دينية كاثوليكية غايتها فتح مدارس ، وتربية الناشئة ، ويعود تاريخها إلى المؤسس « يوحنا دولاسال » ١٦٥١-١٧١٧م الفرنسي ، واستقرت بالشام عام ١٨٧٨م ، حيث أسسوا أول مدرسة في يافا عام ١٨٨٢م ، وحيفا ١٨٨٣م ، والناصرة عام ١٨٩٢م(٢) .

*** نشاط الإرساليات الألمانية :**

كانت بداية الاهتمام من العلماء الألمان لأرض فلسطين عن طريق الرحالة ، كبداية الغزو لأرض فلسطين ، وألف في ذلك العديد من الكتب ، وقبيل عامي ١٨٤٥-١٨٥٩م نشرت كتاب في أربعة مجلدات ، فيه معلومات جيدة عن

(١) المحافظة ، علي : الحركات الفكرية في عصر النهضة في فلسطين والأردن ، ص ٣٧.

(٢) Tibawi .A.L.OP. Cit, p.63.

القدس ، وبقية المدن الفلسطينية لمؤلفه «زيتسن» وقد سبق أن نشر كتاب الرحالة «ذيبر» «رحلة من القاهرة إلى القدس» عام ١٨٢٣م وفي عام ١٨٥١م نشر كتاب بعنوان (الحج إلى الأرض المقدسة) ، لمؤلفه «يوهان هيلير» ونشر الرحالة النمساوي «لود فيج» كتاباً بعنون «إلى القدس» في (لايبتسيغ) عام ١٨٥٨م[١] .

وهناك العديد من الكتب والأبحاث التي صدرت عن الرحالة والمستشرقين الألمان لأرض فلسطين ، واهتم الباحثون الألمان بدراسة جغرافية فلسطين. ونشرت بين عامي ١٨٢٥-١٨٦٥م خرائط كثيرة لأرض فلسطين .

بعد الثورة الصناعية الكبرى في ألمانيا اتجهت بأنظارها إلى الشرق ، سعياً وراء فتح أسواق جديدة لمنتجاتها ، مقتفية أثر بريطانيا وفرنسا في ذلك ، وكانت الخطوة الأولى لزحف ألمانيا ناحية الشرق ، بعد المحاولات التي بذلتها ألمانيا في مؤتمر برلين عام ١٨٧٨م ، للتوسط بين الدول الأوروبية والدولة العثمانية ، حتى تأمل الألمان أن تكون بلادهم جسراً بين أوروبا والشرق[٢] .

ومن هنا دخلت ألمانيا بطريقة سليمة ، وأدخلت أموالها ، وصناعاتها ، وثقافاتها دون اللجوء إلى القوة .

وفي عام ١٨٨٠م طلب الباب العالي من السفير الألماني في استانبول «البارون فون ماتسفيلد » إرسال بعثة عسكرية ألمانية للإشراف على تنظيم وتدريب القوات العثمانية ، فتمت الاستجابة لمطلب السلطان العثماني ، وكانت هذه بداية الطريق ، وتعززت العلاقات ، وزادت البعثات ، وفي عام ١٩١٣م

---

(١) المحافظة ، علي : العلاقات الألمانية الفلسطينية ص ٢٦.

(٢) Mann, Golo: Deutche Geschichte des 19 and 2̄ Jahrhundert pp . 506-53̄

أرسلت بعثة عسكرية ألمانية برئاسة الجنرال «أوتوليمان فون سلندز» الذي رفع إلى رتبة ماريشال في الجيش العثماني ، وأصبح القائد الأعلى في جهة فلسطين عام ١٩١٨م ، عدد البعثة أربعين ضابطاً ، ثم ما لبث أن بلغ المئات أثناء الحرب العالمية الأولى[١] .

ولحق هذا التطور تبادل السفراء ، وزاد النفوذ الاقتصادي الألماني ، وكان أول قرض رسمي للدولة العثمانية في عام ١٨٨٨م ، ومقداره (١٦١٧٦٤٧) ليرة عثمانية ، بفائدة ٥٪ مقابل دفع ثمن الذخيرة الحربية التي اشترتها الحكومة العثمانية من ألمانيا لقواتها العسكرية ، وتلاه قرض آخر عام ١٨٩٤م ، ثم تتابعت الديون والقروض لصالح ألمانيا ، وبلغت ما بين عامي ١٩٠٨-١٩١٤م (٤٦) مليون ليرة عثمانية ذهباً[٢] .

ومن هنا زاد التدخل الألماني على النحو التالي :

١- منح الشركات الألمانية امتياز بناء سكة حديد بغداد عام ١٨٩٩م.

٢- التنقيب عن المعادن على طول سكة الحديد ، بعرض عشرين كيلو متراً من كل جانب عام ١٩٠٣م .

٣- سكة حديد الحجاز ، حيث شارك المهندسون الألمان في بنائها ، وعلى رأسهم المهندس «ميسنر»[٣] «Meissner» وبلغ التحالف الألماني العثماني ذروته في التحالف العسكري منذ آب ١٩١٤م ، وبذلك ضمنت ألمانيا وقوف الدولة

---

(١) المحافظة ، علي : العلاقات الألمانية الفلسطينية ١٨٤١-١٩٤٥م ، ص١٤ .

(٢) محافظة ، علي : العلاقات الفلسطينية ص١٨ .

(٣) Hecker, M:Raialmay 1888-1918 in the Econimic History of the Middle East p.252 .

العثمانية لجانبها ضد المصالح البريطانية ، الفرنسية ، والروسية ، والتي توجب بتحمل دولة الخلافة العثمانية إلى جانب ألمانيا نتائج تلك الحرب الخطيرة ، التي قطعت أواصر دولة الخلافة ، بل قضت عليها .

وقد كانت هناك معوقات كثير لنشاط المبشرين ما بين عامي (١٨٣٠-١٨٤٠م) ، وكان هذا النشاط مقيداً ، يواجه عقبات كبيرة ، ومعارضة من الحكومة العثمانية ، ولكن لما احتل محمد علي باشا بلاد الشام رفع القيود عن أصحاب الديانات الأخرى من مقيمين وزائرين ، كما منحت جمعية يهود لندن (١٨٠٩) حرية التبشير ، وسمح لليهود ببناء كنيس لهم بالقدس[١] ، وبعد زوال حكم محمد علي باشا ، وعودة الحكومة العثمانية لممارسة صلاحياتها ، ومساندة أوروبا لها ، أغمضت عيونها عن نشاط هذه الإرساليات ، وخاصة في فلسطين .

وهكذا بدأت النشاطات التبشيرية الألمانية عندما فكر ملك بروسيا[٢] بإنشاء مطرانية (أسقفية) بروتستانتية في القدس ، لتصبح هي المركز لكافة الكنائس البروتستانتية[٣] .

وقد تبرع ملك بروسيا بمبلغ خمسة عشر ألف جنيه استرليني من ماله الخاص للأسقفية الجديدة ، وغطت جمعية يهود لندن ثلاثة آلاف جنيه منه ، لتصبح هذه المطرانية مقسمة بين ألمانيا وبريطانيا ، حيث طلب وزير خارجية بريطانيا من سفيره في إستانبول عام ١٨٤١م أخذ الاعتراف لها ، وأن يتمتع أسقفها بالحرية

---

(١) رستم، أسد : الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ، جـ١ ص٨٧-٨٩.

(٢) فريدريش فيلهم الرابع .

(٣) Richter. J : Ahistory of Protestant In The Near East p 237

الكاملة ، كأي مواطن بريطاني ، وتم لهم ذلك ، وعين أول أسقف ، وهو المبشر «مايكل سولومون الكسندر » من أعضاء جمعية يهود لندن ، هو يهودي بولندي ، وتنصر عام ١٨٢٥م ، وعمل في هذه الجمعية ، ودخل الأسقف في احتفل كبير في ٢١ كانون الثاني ١٨٤٢م[١] ، ومارس نشطه حتى تنصر على يديه ٣١ يهودياً ، وقد أنشأ لهم (منزل المهتدين) ، والذي أصبح بعد فترة «الكلية العبرية» ، وتوفي الأسقف عام ١٨٤٥م ، وعين أسقف ألماني خلفاً للبريطاني وهو «صموئيل غوبات Samuel Gobat)[٢] .

وهذا الجديد ، وجه اهتمامه التبشيري نحو العرب ، وركز جهوده على إنشاء المدارس لأبناء النصارى العرب في فلسطين وبسط سيطرته على الطوائف لمسيحية في القدس والناصرة ويافا والرملة ، وبقي يفتح المدارس حتى أصبحت (٢٥) مدرسة ، وأكبر نصر حققه « غوبات » إنشاء العديد من المدارس ، مدرستان في القدس ، ومدرسة في كل من بيت لحم ، وبيت جالا ، واللّد ، والرملة ، وبرقين ، وشفا عمروا ، والسلط في الأردن[٣] وساهم في إرسال العديد من المبشرين ، وبعد ثلاث وثلاثين سنة بموت صموئيل غوبات عام ١٨٧٩م ، ويدفن في المقبرة الإنجيلية على جبل صهيون في المدينة المقدسة.

وعلى أثر ذلك وصل «جوزيف باركلي Joseph Barcly» عميد كلية ستيلفورد في شباط عام ١٨٨٠م إلى القدس، وكان مبشراً في جمعية يهود لندن في

---

(١) Tibawi. A.L. op. cit p. 58

(٢) ولد عام ١٧٩٩م من أصل فرنسي وتدرب على التبشير في معهد بازل وتعلم اللغة العربية على يد المستشرق الفرنسي دوساسي

(٣) Tibawi . A.L.OP.cit. p 136.

إستانبول، ولكنه وصل والاختلافات والتنازعات قائمة على أشدها بين الطوائف المسيحية الأجنبية والعربية هناك ، فواجه صعوبات كثيرة لم تسمح له بجمع صف النصارى هناك ، وحدث انقسام كبير بين بريطانيا وألمانيا .

* نشاطات التبشير الألماني البروتستانت في فلسطين :

منذ عام ١٨٨٩م قدم «شنلر»[١] مع خمسة رهبان بروتستانت ، وسكنوا منزلاً خارج أسوار القدس ، وبدؤوا عملهم التبشيري .

وعمل « شنلر » مديراً لمركز الأخوة الشبتلرية في القدس نسبة إلى شبتلر الذي عمل على التبشير البروتستانتي الألماني في فلسطين وأخذ يعمل على إيواء الأطفال الأيتام حتى وصل العدد عنده تسعة وعشرين طفلاً ، وأنشأ «شنلر» عدة مشاغل حرفية لهؤلاء في الدار ، مثل الخياطة والنجارة والحدادة وصناعة الأحذية ، والفخار ، وتخرج من هذه الدار العديد من المعلمين والحرفيين والرهبان. وبعد موته تولى ابنه (ثيودور) مهام الدار ، وفي عام ١٩٠٠م ، بلغ عدد الأطفال ١٢٥ طفلاً ، وأضيف فرع للمكفوفين ، وقسم لتدريب المعلمين عام ١٩١٠م، وبلغ عدد المتخرجين منذ إنشائها حتى ١٩١٠م (١٤٨٣) يتيماً ويتيمة[٢].

وبعد المدرسة الشبتلرية في القدس بدأت جمعية بيت المقدس نشاطها التبشيري الثقافي في (بيت لحم) عام ١٨٦٠م أنشأ ميلر[٣] مدرسة للبنين في بيت

---

(١) شنلر : مؤسس دار الأيتام السورية ، وهو قس يعمل في إدارة الإرساليات التبشيرية البروتستانية في بيت لحم .

(٢) المحافظة ، علي : العلاقات الألمانية الفلسطينية ، ص٥٦-٥٧.

(٣) ميلر (Mueller) مبشر ألماني من أخوة كريشونا تولى رئاسة جمعية بيت المقدس في بيت لحم .

لحم وأنشأت دارا للأيتام عام ١٨٩٦م ، وبنت داراً جديدةعلي طريق الخليل عام ١٨٩٨م لتستوعب سبعين يتيماً ، وبعد خلافات طويلة مع الروم الأرثوذكس توقف نشاطهم بعد أن كادت هذه الطائفة انه تجتث من جذورها ويقضى عليها قضاء تاماً بسبب الصدامات مع الأرثوذكس إلا أنهم أعادوا النشاط ببناء كنيسة صغيره ، ليزيد عدد المبشرين البروتستانت إلى ١٥٠فردا عام ١٩١٠م .

وبعد ذلك توجهوا إلى التبشير في الأوساط الإسلامية ، على الرغم من المخاطر التي ستواجههم ، واختاروا مدينة الخليل لتبدأ فيها تجربتهم عن طريق النقاش والحوار الديني ، وانشئوا عيادة طبية وصيدلية ، ومدرسة عام ١٨٨٤م إلا أن هذه المحاولة الجريئة تمت مقاومتها من قبل المفتى والأهالي ، فأغلقت أبوابها ، وباءت بالإخفاق[١] ، فتبعها «رهبنة الدياكونيس» في «كيزرفيرت» علي الراين ، حيث قررت أن تقوم الرهبنة بنشاط تبشيري في بيت المقدس فبدأت ببناء مدرسة (طاليتا قومي) للبنات[٢] ثم إنشاء مستشفى الدياكوتيس في القدس كأول مستشفى ، وبلغ عدد الذين تم علاجهم في السنة الأولى مائة شخص ، وفى عام ١٩١٠م بلغ عدد المعالجين ٦٠٠م مريض داخلي و٧٠٠ خارجي.

أما الإنجيليون الألمان ، فقد تجمعوا في ثلاث مدن بفلسطين هي : القدس ، وحيفا ، ويافا ، وتركز فيها جل نشاطهم التبشيرى والثقافي ، والخيري ، ففي مدينة القدس اخذ الألمان يمارسون صلواتهم بصوره منتظمة في نزل القديس يوحنا في القدس ، ثم توسعهم وأصبحوا يمارسون صلاتهم في كنيسة «المخلص»

---

(١) المحافظة ، علي : العلاقات الألمانية الفلسطينية ، ص٦١.

(٢) كلمتان سريانيتان تعني « يا صبية قومي » .

أول كنيسة إنجيلية للطائفة الألمانية في بيت المقدس ، ثم تم بناء مدرسة لهم . أما أهم المؤسسات التابعة لهم في بيت المقدس ، فهي :

١- نزل رهبنه القديس يوحنا ، حتى أصبح عدد النزلاء سنويا مائة وعشرين نزيلاً .

٢- مأوى المجزومين، حيث أقبل المرضى على المأوى الألماني بشي من التردد، حتى تم افتتاح مأوى جديد ستين مريضا[١] .

٣- مستشفي الأطفال الذي أطلق عليه اسم ماريا الخيرية (Marian St.) ومع نهاية القرن التاسع عشر ، كان المستشفى يعالج مائة وخمسين امرأة حاملاً ، وخمسمائة وخمسين طفلاً في العام[٢] .

أما في حيفا فكان لهم بناء يضم لهم مدرسة وكنيسة ، وكانت تضم أكثر من عشرين أسرة. وفي يافا أنشئوا مدرسة بمساعدة جمعية بيت المقدس ، وكان لسكة الحديد بين يافا والقدس عام ١٨٩٢م أثر كبير في تردد الآباء الإنجيليين بصورة منتظمة على يافا .

وهذه الجمعيات الثلاث في القدس ، ويافا ، وحيفا ، لم تكن قوية ، إذ بلغ عدد البروتستانت عام ١٩١٠م في فلسطين حوالي (٢٠٠٠) نسمة.

*** نشاطات الألمان الكاثوليك التبشيري في فلسطين :**

كانت أول خطوة لهم إنشاء الجمعيات الدينية التبشيرية ، ومنها :

---

(١) المحافظة علي : العلاقات الألمانية الفلسطينية ص ٦٨.

(٢) Richter . J : op.Cit.p 269 Geschiche.. pp 112-3

١- جمعية القبر المقدس ١٨٥٥-١٨٩٥م ، في مدينة كولون بألمانيا ، ومن أهدافها: دعم رهبنة الفرنسيسكان في الأرض المقدسة ، وتشجيع الحج إلى الأرض المقدسة .

٢- بناء مدرسة اللاتين في بيت جالا ، وبناء كنيسة المسيح في القدس ، وإنشاء مراكز الإرسالية في قريتي الطيبة ، وبيرسابا ، ونابلس ، ومعهد الراهبات في الناصرة(١) .

٣- استطاع الراهب «جيورج غات» الذي جاء من ألمانيا إلى القدس عام (١٨٦٩م) وتولى إدارة النزل النمساوي ، ومن ثم إدارة مدرسة البنين « مدرسة القديس بطرس » أن يؤسس الإرسالية ألمانية كاثوليكية في غزة عام ١٨٨٠م .

٤- جمعية فلسطين للكاثوليك الألمان ١٨٨٥-١٨٩٥م : وكان مقرها مدينة آخن (Aachen) ، وأصدرت مجلة بعنوان « صحيفة فلسطين » وكان لها دور في دعم كثير من الجمعيات والمؤسسات الكاثوليكية وهي:

أ- النزل الألماني في القدس ، حيث تم شراء أرض خاصة بهذا النزل عام ١٨٧٦م على يد المبشر « لاديسلاوس شنايدر » أمام باب يافا ، وتولى إدارته الراهب الألماني « يوسف شتاين » عام ١٨٨٧م ، ثم قدمت ثلاث راهبات من رهبة التبشير الكاثوليكي ، وتم استقرارهن بالقدس في النزل ، وبعد ذلك وسع المنزل ليشمل مدرسة ومستشفى .

ب- نزل حيفا : Das Hospr in Haifa ، حيث إن الآباء الكرملين في حيفا

---

(١) المحافظة ، علي : العلاقات الألمانية الفلسطينية ، ١٨٤١-١٩٤٥م ، ص٧٨.

منحوا الألمان قطعة أرض لبناء مبنى لراهبات القديس «بروميوس» ، ولكن هذا المشروع أخفق لمعارضة فرنسا ، وتم استئجار منزل للراهبات ، واستعمل كمستوصف لمعالجة المرضى ، واستقبال الحجاج ، وتعليم البنات الألمانيات بحيفا ، وبعد ذلك تم شراء الأرض[(١)] .

ج- إنشاء مستعمرة كاثوليكية ألمانية بفلسطين ، حيث تم شراء قطعة أرض على الزاوية الشمالية الغربية من بحيرة طبريا عام ١٨٨٧م ، ورفضت ذلك السلطات العثمانية ، وبعد ذلك تمت الموافقة عام ١٨٨٩م ، وتم بناء كنيسة ومنزل لرعاياها ومنزل للراهبات .

د- الجمعية الألمانية للأرض المقدسة ومقرها كولون بألمانيا : حيث صدرت الموافقة من قبل القيصر الألماني على حل جمعية فلسطين ، ودمجها مع جمعية القبر المقدس في جمعية جديدة «الجمعية الألمانية للأرض المقدسة « في ١١ آذار عام ١٨٩٥م ، وكان من أهداف هذه الجمعية :

١- حماية الأماكن المقدسة ، وتطوير الإرسالية التبشيرية الكاثوليكية في الأرض المقدسة.

٢- النظر بروح الجدية إلى المصالح الكنسية والاجتماعية للكاثوليك الألمان بفلسطين .

ذ- كنيسة نياحة العذراء : إلى الجنوب من سور القدس على جبل صهيون ، على بعد بضعة أمتار من باب النبي داود تم بناء هذه الكنيسة عام ١٩١٠م ،

---

(١) المحافظة ، علي: العلاقات الألمانية الفلسطينية ، ص ٨١.

ودشنت بحضور الأمير «إيتل مريش» الابن الثالث للقيصر .

ر- ونزل القديس بوليس : وهو فرع للجمعية الألمانية المقدسة إلى الشمال من باب العمود في القدس ، وتم البناء عام ١٩٠٨م ، وشملت نزلاً للراهبات ، ومعهداً لإعداد المعلمين[١] . وهناك الكثير من الكنائس ، والمستوصفات ، والمستشفيات ، والمزارع ، التي تم شراؤها ، واستقدام الرهبان والراهبات لها مثل: نزل أوغستا فكتوريا على جبل الزيتون عام (١٩٠٥م) ، وملجأ العجزة في القدس عام ١٩٠٣م ، وكان يقيم به أكثر من اثنتي عشرة راهبة .

ز- نزل أوغستا فكتوريا : شرع الألمان ببناء هذا النزل على جبل الزيتون عام (١٩٠٥م) ليكون للحجاج الألمان بين عامي ١٩١٠-١٩١٤م ، ثم أصبح مقراً لقيادة القوات الألمانية والعثمانية ، ثم أصبح منزلً للمندوب السامي البريطاني[٢] .

س- كنيسة مريم ودير البندكتين على جبل صهيون : بعد صدور الفرمان السلطاني بدأ البناء بكنيسة مريم ، ودير البندكتين على جبل صهيون ، وتم بناء الكنيسة ، رسمياً في ١٠ نيسان عام ١٩١١م بحضور نحو (٧٢٠) حاجاً ألمانيا كاثوليكياً[٣] .

ش- النزل الألماني ، ومدرسة شميدت : كان مبنى النزل يضم مدرسة للبنات أنشأتها الجمعية الألمانية للأرض المقدسة في عام ١٨٨٦م ، واتخذت اسم

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٨٢-٨٣.

(٢) أعيد النزل للألمان بين عامي ١٩٢٧-١٩٣٩م فأصبح داراً لاستراحة الرهبان ثم مستشفى للجنود الإنجليز .

(٣) المحافظة ، علي: العلاقات الألمانية الفلسطينية ، ص٨٤.

مدرسة شميدت نسبة لأول مدير لها الأب العازري فيلهلم شميدات ، وتطورت المدرسة بين عامي ١٩٠٨-١٩١٨م حيث كان عدد التلميذات عام ١٩٠٨م ثمانين تلميذة ، وفي عام ١٩١٤م بلغ عهن (١٢٠) تلميذة ، وكانت المدرسة تعلم الأشغال اليدوية ، والرسم ، إضافة إلى التعليم النظري(١) .

ص- المستوصف الصحي في قبية عمواس: اشتريت الأرض عام ١٨٧٦م قرب عمواس لبناء مستوصف للراهبات والرهبان العاملين في مدينة شميدت لبنات ونزل القديس بولس ، وكانت تشرف عليه الراهبات ، وتم بناؤه عام ١٩١٠م.

ض- ملجأ العجزة في القدس: أنشئ عام ١٨١٣م، وتم البناء عام ١٩٠٥م، بعد شراء الأرض بدعم من الجمعية الألمانية للأرض المقدسة ، وأطلق عليه «ملجأ ملكة الملائكة» ، وبقي يستقبل العجزة حتى عام ١٩٣٨م ، حيث حول إلى مدرسة داخلية للأطفال المشردين.

ط- مستشفى راهبات القديس بورميوس في حيفا : تم شراء الأرض رقم (٨.٨٦) وفي عام ١٨٨٨م ، تم البناء وأنشئت دار للأيتام واستراحة للراهبات ، ثم أصبح نزلا ومدرسة ، وفي عام ١٩٠٣م تم قبول البنات العربيات ، ولبسن لباس الراهبات في حيفا ، وكن ستة طالبات عربيات ، وكانت أول ممرضة عربية هي خريجة مدرسة البنات الألمانية في القدس(٢) ، نلاحظ كيف تم استدراج

---

(١) المرجع نفسه ، ص٨٧-٨٨ .

(٢) محافظة ، علي: العلاقات الألمانية الفلسطينية ، ص٧٤ .

العربيات ومسح شخصيتهن الإسلامية بلبس لباس الراهبات[١] .

ظ- مزرعة الطبعة ونزلها : تقرر في الاجتماع السنوي للجمعية الألمانية للأرض المقدسة الذي عقد في آخر عام ١٩١٠م شراء قطعة واسعة من الأرض على الضفة الغربية شمال بحيرة طبريا ، من أجل إقامة مستعمرة كاثوليكية ألمانية تضم ثلاثين أسرة عليها ، وكان المقصود من ذلك منافسة فرنسا[٢] . وكان للكنيسة اللاتينية وضع خاص في دولة الخلافة العثمانية ، يختلف عن وضع الكنائس الأخرى كالأرثوذكسية ، والأرمنية ، والشرقية المتحدة مع روما ، ذلك أن الأكليروس الأرثوذكسي ، والأرمني من رعايا السلطان ، وهو الذي يصادق تعيين بطاركتهم وأساقفتهم في حين لا تخضع الكنيسة اللاتينية للقانون العثماني ، بل للقانون الدولي ، لأن رهبانها مواطنون أجانب ، ولذلك بقي ممثل الباب في استنبول غير معترف به حتى نهاية القرن التاسع عشر ، لذلك كان يمارس نشاطه من خلال السفارة الأمريكية[٣]. وكان الروم والكاثوليك أقل من الأرثوذكس ، غير أنهم أقوى ، لحماية فرنسا لهم ، هذا وقد عين أول بطريرك لاتيني في القدس عام ١٨٤٠م وتلاه وصول أول مطران إنجيلكاني بعد عامين مما جعل التنافس كبيراً بين الكنيستين الكاثلوكية والإنجيلية في فلسطين ، وهذا يعد مظهراً من مظاهر الصراع الدولي على هذه البقعة المهمة. ومنذ وصول أول

(١) وكما يلاحظ فإن العربيات لبسن لباس الراهبات ، وأخذن زيّهن ، وهذا انتصار للمبشرين ، ومسخ للشخصية الإسلامية ومحاولة لإدخال العربيات في سلك التبشير مع مرور الزمن. فأين أسر تلك الفتيات ؟ وكيف قبل الأهلون أمثال هذه المهازل؟!! .

(٢) محافظة ، علي: العلاقات الألمانية الفلسطينية ، ص٨٥.

(٣) محافظة ، علي: العلاقات الألمانية الفلسطينية ، ص٨٥.

بطريرك لاتيني إلى بيت المقدس اهتمت الدولة الألمانية بفلسطين ، والأماكن المقدسة ، وهنا تم إيفاد بعثة خاصة إلى فلسطين عام ١٨٤٥م لدراسة إمكانية التبشير في فلسطين ، وعادت البعثة ، وقدمت مشروعاً لشراء الأراضي ، وإقامة المؤسسات التبشيرية الكاثوليكية ، ولكن المشروع توقف بسبب ثورات عام ١٨٤٨م في ألمانيا والنمسا وبقي الوضع حتى ١٨٧١م كما هو ، إلا أن النمسا أنشأت قنصلية تولت تمثيل دول الإمارات الكاثوليكية في المانيا(١) . وإذا كانت بروسيا وألمانيا المتحدة قد شجعتا التبشير الإنجيلي في فلسطين طمعاً في مد النفوذ الألماني إلى هذه البلاد ، فلم تتوانى ألمانيا الموحدة عن دعم المؤسسات الكاثوليكية في فلسطين وظلت فرنسا قلقة من التقارب بين البابا وألمانيا ، إلى أن أدلى الباب « ليون الثالث عشر LION XIII » بتصريح في ٢٠ آب ١٨٩٣م أكد فيه الحماية التقليدية الفرنسية لكاثوليك الشرق. ولما نزل القيصر الألماني في حيفا عام ١٨٩٨م ألقى الراهب الألماني « بيفيبر » مدير المدرسة الكاثوليكية في فلسطين خطاباً أمامه، أعرب فيه عن شكر الكاثوليك الألمان وامتنانهم للقيصر، وقال : « إننا نأمل أن تعطى لنا حرية العمل في المستقبل في فلسطين تحت حماية أجنحة النسر الألماني القوية ، وأن نتمكن من نشر الثقافة الألمانية ، والعمل الألماني » ورد عليه القيصر : «يسرني أن انتهز هذه المناسبة لأعلن بصورة حاسمة أن بإمكان رعاياي أن يتأكدوا من حمايتي لهم أين ما كانوا ، وفي أي وقت يحتاجون فيه إلى هذه الحماية»(٢) . ومنذ قيام الوحدة الألمانية أخذت المؤسسات الكاثوليكية الألمانية تنظم رحلات الحج إلى فلسطين، دون التنسيق مع

(١) المحافظة ، علي: الحركات الفكرية في عصر النهضة في فلسطين والأردن ، ص١٩.

(٢) المرجع نفسه ، ص٢٢ .

المؤسسات الكاثوليكية الفرنسية ، كما كان في السابق وبلغ عدد الحجاج الألمان إلى فلسطين بين عامي ١٨٧٣-١٨٨٦م (٢٩٩) حاجاً . وهكذا نلاحظ كيف عملت ألمانيا مجتمعة مع غيرها أو منفردة ، بدعم المؤسسات التبشيرية في فلسطين بشراء الأراضي مرة ، وبناء المدارس والمستشفيات مرة أخرى ، وكل ذلك بغطاء ودعم من حكومتهم ، لتبقى المصالح الألمانية قائمة ولها الدور نفسه الذي تلعبه بريطانيا وفرنسا في تثبيت الصهاينة ، وتثبيت دولتهم .

* * *

المبحث الثالث
نشرات المبشرين ومطبوعاتهم في فلسطين

سأتعرض في هذا المبحث لعدد من المبشرين ، ومطبوعاتهم ونشراتهم ، والهدف من زياراتهم لفسلطين ، حيث إن فلسطين تحتل مكانة مرموقة في التاريخ الإنساني ، باعتبارها الأرض المقدسة التي تتجه إليها أنظار معتنقي الديانات السماوية ، إضافة إلى موقعها الاستراتيجي والاقتصادي في قلب منطقة الوطن العربي ، وبين قارات العالم القديم الثلاث .

إن نظرة فاحصة لتكشف لنا حقيقة مهمة هي أن فلسطين كانت وطناً روحياً لمعتنقي الأديان السماوية ، وكانت معبراً وممراً وملتقى ليسل من السياح ، والحجا الباحثين ، والمبشرين ، والمستشرقين ، والرحالة ، الذي قدموا من أقطار الأرض كافة ، والذين كتبوا عن فلسطين ، وملامح الحياة فيها ، وكذلك كتبوا عن الثقافة الفلسطينية والتاريخ والآثار ، علماً بأن معظم الأوروبيين الذين كتبوا تركز وصفهم للأماكن المقدسة فقط ، وإذا حاولنا أن نستعرض الذين نشروا عن فلسطين ، وطبعوا عنها شيئاً فسأقسمهم إلى المجموعات التالية :

١- الذين قدموا لفلسطين إما دون تخطيط مسبق ، وإما عابري طريق ، فهؤلاء نرى كتابتهم مجرد مذكرات وملاحظات دون دراسة متخصصة ، وهم:

أ- الآنسة « ماري إليزا روجرز »[1] أخت قنصل بريطانيا في حيفا ، وكانت

---

(١) Mary Eliza Rogers, Domestic Life in Palestine.- London , 1855

زياراتهم عام ١٨٥٥م ، وكانت كتاباتها مجرد وصف لما شاهدته ، فوصفت البيوت ، والطرق ، والملابس ، والعرس ، والبناء ، وكتبت عن المرأة الفلسطينية وكتابها هو «الحياة المنزلية في فلسطين» .

ب-العالم الأثري الفنلندي « آبلي ساريزالوا »(١) قدم مع بعثات أثرية ، واهتم بالتراث الشعبي الفلسطيني .

٢- من قدم إلى فلسطين بهدف تبشيري أو تحت غطاء آخر كالبحث العلمي، أو باسم الرحالة ، وغيرها من الأسماء :

أ- « كريسترام »(٢) بحاثة وعالم بريطاني قام برحلة لفلسطين خلال عامي ١٨٦٣-١٨٦٤م ، زار مرج ابن عامر ونابلس والقدس ، ووصف شوارعها الضيقة ، والأقبية فيها ، ثم شارك في صلاة المسيحيين ، وزار مدرسة المطران جوبات ، ثم زار الخليل ، وزار الناصرة .

ب- المبشر « الطبيب سكريم جور » وفد ضمن بعثة تبشيرية إلى الناصرة ، وقد نشر كتاباً له عام ١٩١٣م ، وصف فيه الحياة اليومية للسكان بشكل دقيق ، وخاصة وظروف العمل وتكاليف الحية ، وتحدث في كتابه عن الحرف المنتشرة في الناصرة ، وعن الحرفيين ، وأسعار الحاجيات ، والأكلات المنتشرة في ذلك العصر(٣) .

---

(١) Ableli Saarisulo, Sonos of the Druse , Helsnk. Stardio Orietalia Series 1932 .

(٢) سليمان ، موسى: ترجمة رحلات في الأردن وفلسطين ، ص١٨.

(٣) Nassareth Today . Scrim Goor .- London, 1917

ح- « فانوور »[١] : عاش فترة طويلة في فلسطين ، وكان يحب طبيعة أرض فلسطين ، وروى العديد من الحكايات التي تعود إلى أهالي فلسطين .

خ- الدكتورة « هيلما جراتكفيست »[٢] : باحثة فنلندية ، في الفترة من بين ١٩٢٥-١٩٣١م ، قدمت لفلسطين مرتين وأقامت ثلاث سنوات ، درست اللغة العربية، وعرفت الحياة الشعبية في فلسطين، زارت القدس وحيفا ونابلس، واختارت قرية (أرطاس) ، وقامت فيها فترة من الزمن ، وقامت بتدوين الأغاني الشعبية ، ثم نشرت (أوضاع الزواج في القرية الفلسطينية) كما نشرت كتاب (الميلاد والطفولة عند العرب) تكلمت فيه عن الطفل وتربيته ، ودرست تقاليد الوسط الشعبي المسلم في فلسطين عند الوفاة والدفن ، ونشرت أيضاً كتاباً باسم (الوفاة والدفن عند المسلمين) .

هـ- « الفارس أريفو »[٣] : فرنسي نشر مذكراته في ستة مجلدات ، كتب عن المنطقة الساحلية في فلسطين ، ووصف حيفا ، والرملة ، ووصف الأماكن المقدسة في القدس ، وعكا ، والناصرة ، ومدينة صفد ، ووصف حياة العرب في فلسطين: الدينية ، والأخلاقية ، والقضاء ، والضيافة ، والموت ، والدفن عند المسلمين .

وكثيراً ما كانت الزيارات بلباس الرهبان ، مع وصف المسلمين وما قاموا به من التدمير والتخريب للأماكن المقدسة كما جاء على لسان «ساولف »[٤] : أن

---

(١) E.J Hanaua . Folklor the Holly Land London – 1907.

(٢) Granguist. Marriye Conditious □ vols, London , 1931–1935 Hilma

(٣) دليلي ، الصباغ: الفارس أرفيو ، ص٢٥.

(٤) دليلي ، الصباغ: الفارس أرفيو ، ص١٨.

المسلمين لم يتركوا مكاناً ممكناً للمرء أن يلجأ إليه إلا ألحقوا به الدمار في كل مكان خارج أسوار القس ، ودمروا مدينة بيت لحم بعد أن كانت كبيرة وجميلة ، وكذلك مدينة الناصرة ألحق بها المسلمون ويقول: إن الدير الكبير ما زال قائماً في مدينة الناصرة ـ نلاحظ هنا مدى الافتراء على المسلمين ووصفهم بالهمجية المدمرة ، علماً أنه يشهد في كلامه أن الدير الكبير لم يصبه شيء ـ أي تناقض هذا؟! وأي ظلم للمسلمين الذين طالما عملوا على حماية النصارى ؟!! .

وفي القرن الثامن عشر ، وعندما تطور الاستكشاف إلى عمل علمي ، كان هناك بعض الرحالة الذين يهتمون بالتوراة بشكل ثانوي ، وصار همهم التخصص في موضوع معين ، ومع ذلك ظل الهدف الواضح تفسير وإضاءة عهد التوراة ، والتأكيد على علاقة اليهود بفلسطين. لقد كانت التوراة بالنسبة للحجاج ، والرحالة ، والمستكشفين المخزون الذي هدى هؤلاء في التحقيقات الأثرية ، والطبوغرافية ، والجغرافية ، فأخذوا ما جاء في التوراة ، وقارنوه بالواقع ، ولكنهم في كثير من الحالات كانوا محتجزين لما جاء فيها من أسماء ومواقع ، واهتموا كثيراً بتحديد مواقع المدن على ضوء ما جاء في التوراة .

إن قراءة أعمال هؤلاء المستشرقين والرحالة ، والحجاج تقود إلى الاستنتاج بأن الهدف العلمي لهؤلاء يخفي وراءه الرغبة في تحقيق الأغراض الاستعمارية ، بفتح الأسواق التجارية ، والاستحواذ على البلاد ، وفرض السيطرة عليها ، لقد مثل هؤلاء المبشرون ، والمستشرقون الطليعة العلمية الاستكشافية للاستعمار ، ومن هؤلاء المبشرين والمستشرقين نذكر :

« تومسون »[1] مبشر أمريكي ، بدا رحلته إلى فلسطين في العشرين من كانون الثاني عام ١٨٥٥م ، وأصدر كتاباً اسماه « الأرض والكتاب » في ثلاث طبعات منفصلة وعلى الرغم من أنه يتحدث عن مسح كامل لفلسطين إلا أنه لم يذكر فلسطين بالاسم ، بل سماها أرض الميعاد ، وأرض إسرائيل ، وأرض الأنبياء وملوك إسرائيل. كما أورد أسماء المواقع بالأسماء التوراتية ، ثم وصف السكان المسلمين بأبشع الصفات ، وكل موقع أثري يربطه باليهود ، ويصف شعب فلسطين بأنهم بدو متوحشون الذين يستهلكون أرض الميعاد بنار الغزو والحروب الأهلية .

*** مطبوعات المبشرين :**

تأخر دخول المطابع إلى ربوع دولة الخلافة العثمانية ، وكانت أول المطابع دخولاً عام ١٦٠١م في دير قزحيا في لبنان ، وتليها مطبعة في دير مار يوحنا بالشوير عام ١٧٣٣م[2] .

أما بالنسبة لفلسطين ، فكانت مطابع الأديرة هي أول المطابع دخولاً ، حيث كانت مطبعة الآباء الفرنسيسكان أول مطبعة أنشئت في القدس عام ١٨٤٧م ، كانت تطبع العربية والتركية ، والأرمنية والعبرية ، وبلغ مجموع ما طبعته (١٢٠) كتاباً حتى عام ١٩٠٢م ومعظمها كتب دينية تبشيرية للأناجيل ، والأعياد ، والطقوس اللاتينية ، والتعليم المسيحي ، واللاهوت الأدبي.

كما قامت بطباعة كتب القراءة للمرحلة الابتدائية لإبراهيم يزبك ،

---

(١) W. Thimson the Lan and the Book , London , p . 879, 1881-1913 .

(٢) المحافظة ، علي : الاتجاهات الفكرية عند العرب ، ص٢٧.

والخلاصة الجلية في قواعد اللغة العربية « للخوري يوحنا خليل ». وقاموس اللغتين الإيطالية والعربية لأحد الأدباء الفرنسيسكان ، وكتب كثيرة وغيرها ، وكانت مناشير الباباوات وبطاركة القدس تطبع في هذه المطبعة أعني مطبعة الفرنسيسكان .

وتليها مطبعة دير الروم الأرثوذكس ، أنشأتها جمعية القبر المقدس اليونانية في القدس عام ١٨٤٩م ، وطبعت حوالي (٢٦) كتاباً حتى عام ١٨٨٣م ، وكانت الكتب الدينية مثل الزبور الإلهي ، والسواعي الكبير المشتمل على الفروض الكنائسية ، وترتيب الجنائز ، وخدمة الأسرار المقدسة الإلهية ، والإنجيل الشريف الإلهي ، والدليل الصريح على ملك المسيح وغيرها.

وفي عام ١٨٧٩م أنشئت مطبعة جديدة حيث أنشأتها جمعية المراسلين الكنسية (G.M.S) في القدس ، وطبعت حوالي (٢٢) كتاباً) بالغة العربية حتى عام ١٨٨٣م. ثم مطبعة دير الأرمن أنشئت عام ١٨٤٨م في دير الأرمن في القدس ، ولم تطبع سوى كتب أرمنية وتركية [1] .

وبعد ذلك انتشرت المطابع الخاصة حيث تولت طباعة الصحف، والمجلات، والكتب الدينية ، سواء في القدس ، أو حيفا ، ففي القدس وجدت مطبعة «مبارك لاسفو» ، ومطبعة « دوميان » وأخوانه منذ عام ١٨٩٢م ، ومطبعة «جورج حبيب» التي كانت تطبع جريدة القدس منذ عام ١٩٠٨م .

ونتيجة لفتح المدارس التبشيرية في فلسطين وتعليمها اللغات الأوروبية ،

(١) شيخو ، لويس : تاريخ فن الطباعة في الشرق ، ص٦٩-٧٤.

ونشطت حركة الترجمة ، وكان يقوم بها من أكمل دراسته بالدول الأوروبية. وتمت ترجمة الكتب الدينية التي طبعت في مطبعة (دير الروم الأرثوذكسي) بالقدس وهي الكتب التالي : في عام ١٨٦٠م طبع كتاب الفريضة السلفية في الواجبات الكاهنية ، للشماس «غريغوريوس» تعريب « إسبيريدون صروف ». وفي عام ١٨٦٦م كتاب « المنهاج في واجبات الزوج » تعريب (جراسيموس يارد) ، وفي عام ١٨٦٦م «بهجة الفؤاد في تفسير أناجيل الآحاد» لينكفورس تيوطوكي مطران استرخان تعريب « الخوري يوحنا حزبون » .

وفي عام ١٨٩٠م كتاب (الدرة اليتيمة للنفوس العائدة الكريمة) ، وهي صلوات خشوعية ، ترجمة الخوري « مخائيل كرم » وقد اتسمت ترجمتها بالركاكة والأخطاء اللغوية والإملائية ، كما ترجم كتاب (الروضة المؤنسة في وصف الأرض المقدسة) حيث نشر عام ١٨٩٩م .

* ومن المجلات التي صدرت :

١- « يوم الرب »[١] مجلة دينية بروتستانتية شهرية ، صاحب الامتياز والمحرر المسؤول « القس أسبير ضومط » ، حيث صدر العدد الأول في القدس ٢٨ تشرين الثاني ١٩٢٠م[٢] .

٢- مجلة « رقيب صهيون » مجلة دينية شهرية أصدرتها بطريركية اللاتين بالقدس في عام ١٩٢٤م ، وكان يحررها الأب بولس سمعاني ، تطبع في مطبعة

(١) العقاد ، أحمد خليل : الصحافة العربية في فلسطين ، ص١٥.

(٢) خوري ، يوسف : الصحف العربية في فلسطين ، ص ٣.

ميتم سيدة فلسطين [١] .

٣- مجلة « الأخبار الكنسية » ، دينية شهرية تصدر عن المجمع الكنسي للطائفة الإنجيلية الأسقفية ، ويحررها القس إلياس مرمورة ، صدر العدد الأول في القدس عام ١٩٢٤م [٢] .

٤- الزنبقة : مجلة شهرية تصدر عن كشافة القديس جاروجيوس في القدس، وتعنى بالرياضة والكشافة ، صدر العدد الأول عام ١٩٢٤م [٣] .

٥- مجلة « باكورة جبل صهيون » : كانت تصدر عن مدرسة صهيون الإنجليزية ، وصدر العدد الأول في القدس عام ١٩٠٩م كل ما صدر منها حوالي عشرة مجلات بعضها مطبوع والآخر خطي وهي مجلة علمية أدبية [٤] .

٦- مجلة « صهيون الجديدة » ، شهرية يحررها بطريركية الروم الأرثوذكس ، تبحث في المواضيع الدينية والكنيسة ، تصدر مرة واحدة كل شهر باللغتين العربية واليونانية ، بالقدس ، مطابع دير الروم تأسست عام ١٩٠٨م [٥] .

٧- مجلة « يوم الرب » ، يحررها القسيس إسبر ضومط ، مجلة دينية بروتستانتينية شهرية بالقدس تأسست عام ١٩٢٠م [٦] .

---

(١) خوري ، يوسف : الصحف العربية في فلسطين ، ص ٤١.

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٤٢.

(٣) المصدر السابق نفسه ص٤٢.

(٤) المصدر السابق نفسه ص١٧.

(٥) العقاد ، أحمد: الصحافة العربية في فلسطين ص ١٢٢.

(٦) المرجع نفسه ، ص١٣١.

٨- القدس الجديدة : يحررها القس واو . كاتلنج ، دينية ، أدبية ، القدس ، ١٩٢٢م[١] .

٩- مجلة الصفير ، تصدرها جمعية الكردينال فراري وكلية تراسانطة ، وهي مجلة دينية طائفية شهرية بالقدس تأسست عام ١٩٢٧م[٢] .

١٠- مجلة الحكمة ، بطريركية السريان ، دير مارمرقس بالقدس ، يحررها فؤاد حقي ، مجلة دينية أدبية تاريخية ، شهرية بالقدس تأسست عام ١٩٢٧م توقفت عام ١٩٢٩م[٣] .

١١- مجلة كلية ترسانطة ، الأب باسكال كنسل، تبحث في الشؤون العلمية، والأدبية ، والتاريخية ، وتصدر أربع مرات في السنة بالقدس عام ١٩٣٣م وتأسست عام ١٩٢٩م وتطبع في المطبعة الكائنة في دير اللاتين[٤] .

١٢- مجلة المياه الحية : يحررها القس خليل جبرائيل ، وتبحث في الشؤون الدينية ، تصدر مرة في الشهر باللغتين العربية والإنجليزية ، بالقدس ، تأسست عام ١٩٣٥م[٥] .

١٣- مجلة الرابطة ، يحررها المطران جاورجيوس حكيم تبحث في الأمور الدينية الكاثوليكية تصدر مرة في الشهر حيفا ، ١٩٤٤م[٦] .

---

(١) المرجع نفسه ، ص١٤٠ .

(٢) المرجع نفسه ، ص١٤٦ .

(٣) المرجع نفسه ، ص١٩٩ .

(٤) الوقائع الفلسطينية ، الجريدة الرسمية لحكومة الانتداب البريطاني ، ص٦٤٥ .

(٥) الوقائع الفلسطينية ، الجريدة الرسمية لحكومة الانتداب البريطاني ، ص٥٧١ .

(٦) العقاد ، أحمد خليل: الصحافة العربية في فلسطين ، ص١٨٤ .

* جرائد وصحف :

١- بشير فلسطين: جريدة دينية ، تصدر مرة واحدة في الأسبوع تأسست عام ١٩٠٨م بالقدس ، كانت تطبع في مطبعة القبر المقدس صدر ثلاثة أعداد فقط[١] .

٢- الإنصاف : جريدة سياسية ، علمية ، أدبية ، تصدر مرتين في الأسبوع ، يحررها: بندلي مشحور ، تأسست سنة ١٩٠٨م بالقدس وكانت مواضيعها حول القضية العربية الأرثوذكسية ، وتتلقى التأييد من القنصلية الروسية في القدس توقفت عام ١٩١١م صدر منها مائة وستة عدداً[٢] .

٣- رائد النجاح ، كلية الفرير بالقدس ، صدرت عام ١٩١٠م ، ١٩١١م صدر منها حوالي خمسون عدداً حتى عام ١٩١٠م[٣] .

٤- أبو شادوف وهبي تماري يحررها صليبا عريضة ، جريدة أدبية ، انتقادية ، أسبوعية ، مستقلة ، يافا ، تأسست عام ١٩١٢م ومن أبرز مواضيعها موضوع القضية العربية الأرثوذكسية والدفاع عنها استمرت حتى الحرب العالمية الأولى[٤] .

٥- القدس الجديدة ، يحررها القس كاتلنج ، جريدة دينية أدبية ، بالقدس ، تأسست عام ١٩٢٢م[٥] .

---

(١) المرجع السابق نفسه ، ص١٢٥.

(٢) المرجع السابق نفسه ، ص١٢٤.

(٣) يهرشع ، يعقوب: تاريخ الصحافة العربية في فلسطين في العهد العثماني : ص ٩٩.

(٤) المرجع السابق نفسه ، ص ١٠٧-١٠٨.

(٥) العقاد ، أحمد ، خليل: الصحافة العربية في فلسطين ، ص٣٩.

٦- أخبر دار الأيتام السورية: الاتحاد الإنجيلي لدار الأيتام السورية بالقدس، تبحث في مواضيع دينية تاريخية بالقدس عام ١٩٣٣م ، تصدر مرة واحدة في الشهر[١] .

٧- الكشاف : الأب نوربرت الثاني جريدة تبحث في شؤون الكشافة والتهذيب والأدب تصدر مرة واحدة في الشهر ، بيت لحم ، ثم أخذت تصدر مرة كل أسبوع اعتباراً من ١٥/ ١٠/ ١٩٣٥م[٢] .

٨- (D.N.B) مكتب الأخبار الألماني ، جريدة تبحث في الشؤون السياسية ، والاقتصادية ، والأخبارية العامة ، تصدر يومياً باللغات العربية والإنجليزية ، الألمانية ، القدس عام ١٩٣٦م[٣] .

٩- السلام والخير – حراسة الأرض المقدسة ، جريدة كاثوليكية اجتماعية ، تصدر مرة واحدة في الشهر ، القدس ، ١٩٣٧م[٤] .

١٠- كوكب الكرمل : جريدة تصدر مرة في الشهر يحررها القس «جون طنب» ، حيفا عام ١٩٤٦م صدر منها حتى ١٩١١م ، خمسة وسبعون عدداً[٥] .

* * *

---

(١) خوري ، يوسف: الصحف العربية في فلسطين ص ٧٣.

(٢) الوقائع الفلسطينية ، العدد (٤٦٧) الملحق (٦) تاريخ ٢٠/ ٩/ ١٩٣٤م ، ص١٢٠٦

(٣) الوقائع الفلسطينيـــة ، الجريدة الرسمية لحكومة الانتـداب البريطاني ، ١٩٣٣ ، ص٣٣١.

(٤) خوري يوسف: الصحف العربية في فلسطين ، ص٩٩.

(٥) الوقائع الفلسطينية، الجريدة الرسمية لحكومة الانتداب البريطانيين ١٩٣٣-١٩٤٨م ص٤١٠.

الفصل الرابع

أهداف المبشرين في فلسطين

المبحث الأول : الأهداف السياسية .

المبحث الثاني : الأهداف الدينية .

المبحث الثالث : الأهداف الاجتماعية .

المبحث الأول
الأهداف السياسية

عندما أوشكت دولة الخلافة العثمانية على السقوط ، بدأ تنافس الدول الأوروبية على تفتيت هذه الدولة مع ازدياد الدعوة من قبل غير اليهود إلى إنشاء دولة يهودية في فلسطين ، فعقدت الأحلاف والاتفاقيات بين الدول المتنافسة ، حتى لا تستأثر واحدة من هذه الدول بحصة الأسد. وكان التنافس على أشده بين بريطانيا ، وفرنسا ، وروسيا ، وألمانيا. حتى أمريكا التي بدأت بمطامعها الاستعمارية في الشرق العربي المسلم[١] .

وكان مجيء محمد علي باشا[٢] وظهوره بالقوة السبب الذي أخاف الدول الأوروبية من إعادة إحياء دولة الخلافة العثمانية ، وبدأت تطلعاتها الاستعمارية ، عندما فرضت على السلطان منحها الامتيازات ، والتي من خلالها أشرفت على رعاياها وطوائفها ، في فلسطين خاصة ، وقد منحت هذه الامتيازات في وقت مبكر ومع الزمن أصبحت هذه الطوائف غير خاضعة لسلطان دولة الخلافة العثمانية ، إذ حصلت فرنسا عليها عام ١٥٣٥م ، وحصلت بريطانيا عام ١٥٨٣م ، وألمانيا عام

---

(١) قهوجي ، حبيب: استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة ، ص١٧.

(٢) محمد علي باشا مؤسس آخر دولة ملكية بمصر ، عني بتنظيم الحكومة وقتل المماليك غدراً ، وأنشأ السفن في النيل ، وضم معظم السودان الشرقي إلى مصر ، أنشأ في الإسكندرية دار صناعة « ترسانة » للسفن ، حارب السعوديين ، استولى على سورية. كثرت في أيامه المدارس والمعامل في الديار المصرية وأرسل البعثات لتلقي العلم في أوروبا توفي سنة (١٨٤٩م) الأعلام (٢٩٨/٦).

١٦١٥م ، وروسيا عام ١٧٨٣م ، وأمريكا حصلت عليها عام ١٨٣٠م ، وفي عام ١٨٣٨م افتتحت بريطاني قنصلية لها في القدس[١] ، وهذا أول مطمع سياسي حصلت عليه بريطانيا ، لتثبت أقدامها في أرض بيت المقدس. وكلما ازدادت الدولة العثمانية ضعفاً تنافست الدول للحصول على مكاسب أكثر[٢] . ولم تمض سنوات على فتح القنصلية البريطانية ، حتى تم افتتاح قنصليات مماثلة لـ (ألمانيا ، فرنسا ، النمسا ، إسبانيا ، بالإضافة إلى الولايات المتحدة الأمريكية)[٣].

وبدأت الإرساليات التبشيرية الدخول ، وبشكل أسهل من ذي قبل ، حتى إنها لم تعد تخضع لرقابة سلطة دولة الخلافة العثمانية ، التي كانت تمنع مثل هذه النشاطات ، فدخلت البعثة البريطانية عام ١٨٦٥م ، ويرأسها الدكتور « كايت » مؤلف كتاب « تحقيق النبوءات » وقد فهم بداية : أن هذه البعثة مرسلة من الكنيسة الاسكتلندية ، ولكن عُلم بعد ذلك أنها مرسلة من الحكومة البريطانية ، لجمع المعلومات عن اليهود ، حيث كان من أهداف بريطانيا في تجميع اليهود تركيز نفوذها على أطلال النفوذ الذي كانت تتمتع به فرنسا في هذه البلاد[٤] .

وكان من أهم مظاهر التنافس بين الدول الاستعمارية تلك المحاولات والجهود التي بذلتها الدول من أجل بسط حمايتها على الطوائف التي تتوافق مع مذهبها الديني فالدول الكاثوليكية عملت على كسب الكاثوليك ، والبروتستانتينية عملت

---

(١) الكبالي ، عبد الوهاب: تاريخ فلسطين الحديث ، ص٢٧.

(٢) قهوجي ، حبيب استراتيجية الاستيطان الصهيوني الحديث في فلسطين المحتلة ، ص٥.

(٣) العظم ، طارق جلال : الصهيونية والصراع الطبقي ، ص٥٩.

(٤) أمين ، بديعة: المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية ص١٤٦.

على حماية البروتستانت ، وهكذا استعمل الدين والتبشير وسيلة لتحقيق أغراض استعمارية غير دينية ، ولم يكن التنافس مقصوراً بين الدول الاستعمارية في القارة الأوروبية وروسيا فحسب ، بل تعدى ذلك إلى خارج تلك الدول ، وعندما بدأت أمريكا تدخل الميدان التنافسي ، الصراع خارج حدودها ، وأصبحت تتطلع إلى المكاسب استعمارية ، شأنها شأن الدول الأوروبية .

ومن هنا فإن المطامع الاستعمارية المغفلة بأطر إنسانية ودينية لم تقتصر على بلدان أوروبا الاستعمارية ، وإنما امتدت إلى القارة الأمريكية ، ففي عام ١٨٧٠م أنشئت جمعية استكشاف فلسطين الأمريكية على غرار صندوق الاستكشاف البريطاني(١) ، علماً أن أمريكا كانت تشارك في تفجير الوضع الداخلي للدولة العثمانية ، بإثارة الفتن القومية والطائفية ، كإحدى الوسائل للسيطرة على بعض الممتلكات العثمانية ، وتجلى هذا في إثارة الفتن الأرمنية عام ١٨٩٠م ، وما يليها حين كانت إنجلترا ترسل إليهم الذخائر والأسلحة ، وتحضهم على التمرد والعصيان. وقد أكد القسيس الأمريكي «سايروس هملن» في جريدة «نصير الاستقلال الكنسي» بتاريخ ٢٣ كانون أول عام ١٨٩٣م صحة هذه الأعمال ، وذكر أن المراسلين الأمريكيين كانوا يشاركون في إثارة الفتن الأرمنية ، لإضعاف دولة الخلافة العثمانية حتى يتيسر للولايات المتحدة الأمريكية أن تعاقب السلطات العثمانية عقاباً عاجلاً(٢) .

وقد أطل القرن العشرون والصراع على أشده ، حتى تم الاتفاق الجماعي بين كل الدول الاستعمارية على اقتسام ممتلكات دولة الخلافة العثمانية ، والسيطرة على

---

(١) المرجع نفسه ص ١٤٦.

(٢) حلاق ، حسان: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ص ٢٨٢.

أجزائها ، وبصورة خاصة على فلسطين ، وتنفيذ المشروع الاستعماري ، والاستيطان اليهودي في أرض فلسطين ، لتكون رأس جسر ، وأداة قاعدة استعمارية لهم ، كما تجلى ذلك في تقرير «بنرمان»[(١)] عام ١٩٠٧م. واستناداً إلى هذه المخططات البريطانية اندفع قادة الصهاينة نحو بريطانيا لتحقيق أهداف الصهيونية في فلسطين .

*** سفراء الدول الاستعمارية :**

لم يكن سفراء هذه الدول يقومون بأعمالهم الرسمية التي أنيطت بهم كسفراء وقناصل ، بل تعدى ذلك إلى إحداث الفساد والفتن في جسم هذه الدولة ، وكان كل سفير أو قنصل يسعى جاهداً إلى كسب الأنصار ، وبسط الحماية على الطوائف الدينية ، والحصول على الامتيازات التي تؤهله للتدخل في شؤون الدولة الداخلية على أمل أن تحصل دولته على أكبر قسط من غنيمة هذه الدولة المنهارة .

وكان للدول الغربية أثر على مساعدة دولة الخلافة العثمانية لإعادة حكمها على فلسطين ، وطرد محمد علي حاكم مصر فكان ذلك سبباً من الأسباب القوية التي جعلت السلطان يوافق على إنشاء الكثير من المدارس ، والمصحات ، والكنائس ، والأديرة خلل السنوات ، من عام ١٨٣٣-١٩١٤م التي تملكها طوائف مسيحية مختلفة في أماكن مختلفة من فلسطين، إضافة إلى افتتاح القنصليات الأجنبية في البلاد، خصوصاً القدس. واتخذت بريطانيا القنصلية البريطانية التي افتتحت عام ١٨٣٨م ذريعة لتتمكن من التدخل في شؤون البلاد الداخلية، وتقوية مركزها أسوة بفرنسا، وحاول القنصل البريطاني مراراً إقناع السلطات العثمانية بالموافقة على هجرة اليهود

---

(١) بنرمان : رئيس وزراء بريطانيا في تلك الفترة .

إلى فلسطين ، ولكنها كانت ترفض رفضاً باتاً [١] .

وهكذا أصبحت قنصليات الدول الأجنبية تصرف في غياب الإدارة الشرعية العثمانية ، وذلك بمنح الحماية لكل من طلبها دون شروط ، نصارى أم يهوداً ، مما زاد عدد اليهود ، « فكان منهم (٥٠٠٠) تحت الحماية النمساوية ، و(١٠٠٠) تحت الحماية البريطانية و (١٠٠٠) تحت حماية ألمانيا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية وهولندا »[٢] . هذا إضافة إلى توسيع القنصليات بافتتاح فروع لها في أماكن مختلفة في فلسطين خارج القس ، حيث كانت تقدم خدمات كبيرة لليهود ، وتساعدهم على شراء الأراضي ، والاستيطان فيها .

واستمر تهجير اليهود إلى فلسطين بازدياد النشاط الاستعماري من خلال قناصل هذه الدول التي تعمل في هذا الاتجاه ، فكانت الوفود تفد إلى الأرض المقدسة دون أي سند مستفيدة من نظام الامتيازات الأجنبية ، الذي كان سائداً في دولة الخلافة العثمانية ، والذي كان يبيح لها التدخل باسم «حماية رعاياها موفرة لهم وضعاً أفضل في كثير من الأمور»[٣] .

وكان نشاط أمريكا ملحوظاً ، فلم تكن أقل تطلعاً إلى تنفيذ المشروع الصهيوني من دول أوروبا الاستعمارية ، إذ قام « الأب الأمريكي ميلاً ميول » بجهود كبيرة في هذا الميدان. وكان هذا الأب قد أرسل للعمل في القنصلية الأمريكية في القدس عام ١٨٨٢م ، وتولى إلى جانب منصبه الديني وظيفة مراقب وخبير في شؤون المنطقة.

---

(١) جرجيس صبري: تاريخ الصهيونية ص ٦٢.

(٢) المرجع نفسه ، ص ٦٢.

(٣) عبد الله ، إسماعيل ، صبري: في مواجهة إسرائيل ، ص١٣ ، ١٤ ، ١٥.

وقد عمل ما يقارب (الثلاثين) عاماً في القنصلية الأمريكية بالقدس ، ثم أصبح قنصلاً فيما بعد،حيث مارس العمل السياسي إلى جانب عمله التبشيري[١] .

هذا وقد كانت الدول الاستعمارية تستغل الإرساليات التبشيرية ، وتتستر تحت ستار الدين في إثارة الطوائف لاستغلالها وتوجيهها لخدمة سياساتها الاستعمارية. وقامت الجمعيات التبشيرية والإرساليات التابعة للدول الأوروبية المختلفة بجهود مهمة خدمة للمصالح الأوروبية ، وذلك بإثارة الطوائف ، كما قامت بأدوار خطيرة بالتعاون مع عملاء المخابرات خدمة للمصالح الأوروبية ، وقد وضع الأب اليسوعي « ريلو »[٢] نفسه في خدمة قضية النمسا والحلفاء لدى الموارنة مقيماً علاقاته مع الضباط الإنجليز والعملاء الأتراك ، على الرغم من أن رئيسه الأب « روثكان » نصحه بالتزام الحذر الشديد ، ولكنه ظن أنه يخدم في الوقت نفسه قضية رهبانية ، وقضية الحلفاء. هذا وقد أكد القنصل النمساوي: أنه لولا مساعدة الأب «ريلو» الفعالة لما استطاع السلطان ، ولا الحلفاء أن يربحوا المعركة ضد الجيش المصري[٣] .

وكان من الأهداف السياسية شراء أراضي القدس من أهلها الشرعيين ، وسكانها المسلمين ، وتنفيذاً لمؤامرة خطيرة على القدس ، وعلى الأقصى المبارك قبلة المسلمين الأولى ، ومسرى نبيهم محمد ﷺ . وهكذا بدأت المؤامرة وحيكت

---

(١) حلاق ، حسان: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ص ٩٨-٩٩.

(٢) ريلو (مكسيميليس (١٨٠٢-١٨٤٨م) : يسوعي بولوني. أنشأ جامعة القديس يوسف في بيروت ، نظم المخطوطات الشرقية في الكلية الأوربانية بروما (المنجد في الأعلام (٤٣١٦) .

(٣) حجار ، جوزيف: أوروبا ومصير الشرق العربين حرب الاستعمار على محمد علي والنهضة العربية ، ترجمة ماجد نعمة بطرس الحلق ص ٢٠٦.

خيوطها ، والمسلمون في غفلة عندما أقام الاستعمار «مجلساً أعلى» باسم النصارى ، ووضع له خبراء وسياسيين ، وعسكريين ، واقتصاديين ، وجعله يتلقى الأمر من الفاتيكان مباشرة ، وكان من أهداف هذا المجلس شراء الأراضي ، ورصد الأموال الطائلة لهذه الغاية ، خاصة الأراضي الواقعة على منافذ القدس ، ثم منافذ المدن الأخرى ، ولم تقتصر مؤامراتهم على شراء الأراضي في القدس فقط ، بل تعدت إلى غيرها من المدن ، كبيت لحم ، ورام الله ، والبيرة ، وحاولوا أن يقيموا على الأراضي المشتراة ، وخاصة أوائل المدن ، ومداخلها الكنائس الضخمة ، وبأشكال هندسية لافتة للنظر. وكذلك بناء المستشفيات أو المستوصفات أو مدارس التبشير ودور الأيتام والمعاهد الدينية ، فهم مثلاً يبدؤون بمشروع لتربية الدواجن ، أو بمشروع للصم والبكم ، ثم يتحول فجأة ليصبح معهداً أو جامعة أو سكناً للنصارى [(١)] .

وكانت قصص شراء الأراضي عجيبة وغريبة ، حيث يغرون الأهالي بمبالغ طائلة جداً ، ومعهم الاستعمار يمدهم ، والفاتيكان يساعدهم ، وبدؤوا يشترون الأراضي باسم الجمعيات الخيرية ، ويتعاطف الناس معهم حتى تفاقم الأمر ، وأحس المسلمون بالخطر ، خاصة حول الأقصى ، ومن ثم تسلم هذه الأراضي لليهود ، وليس غريباً أن تجد أكثر من ٧٠٪ من أراضي القدس ضاعت بين النصارى واليهود ، مما جعل المسلمين يثورون وينتبهون لهذا المخطط الصليبي الصهيوني الحاقد. وقد أصدر مجلس الفتوى في فلسطين تحذيرات تحرم بيع الأراضي لليهود والنصارى ، وتعتبر من يقدم على ذلك خائناً لله ورسوله. وشهد عام ١٩٠٠م حملة احتجاجات واسعة من العرائض الجماعية ضد استملاك اليهود

---

(١) الصواف محمد ، محمود: المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام ، ص٢٤٤.

للأراضي الزراعية .

وما يؤسف له أن هذه الأراضي التي بيعت « تحول قسم منها لليهود لإقامة مستوطنات عليها تحت حماية الدول الكبرى »[١] ، والقسم الآخر أنشئت عليه مؤسسات تبشيرية مرتبطة بمراكز أجنبية ، والعجيب: أن هذه المؤسسات كانت تجعل من القدس هدفاً لها. والغريب جداً أن عدد الأعضاء المقيمين في دير اللاتين وصل إلى سبعمائة رجل، مما يشعر بأن القدس قد رجعت للصليبيين بشكل آخر هذه المرة، وباسم اليهود ، وباسم التدويل ، أو « باسم الوثيقة التي أصدرها المجمع المسكوني ، وبرأ فيها اليهود ، المجرمين من محاولة قتل عيسى عليه السلام »[٢] . هذا وقد عمدت روسيا إلى بيع ممتلكاتها في القدس المحتلة إلى إسرائيل مقابل بضعة ملايين من الدولارات. من هنا تعلم أن هناك مؤامرة سياسية حيكت ، ونفذت لصالح العدو الصهيوني والمسلمون في غفلة[٣] .

وسأعرض نماذج من كتابات المبشرين ، التي تؤكد أن تأسيس الدولة اليهودية أمر مقرر عند المبشرين ، فقد كتب المبشر الأمريكي « جون فان أسي » في عام ١٩٤٣م عن دولة إسرائيلية معلناً صدورها ، فيقول « بأن الدولة التي ستؤلف تتكون من معظم أراضي اليهود من (الجليل) إلى خليج العقبة » هذا يدلنا دلالة واضحة على أن أخبار هذه التقسيمات السياسية كانت في متناول المبشرين ، أو أن المبشرين كانوا يحضون عليها في سبيل تسهيل مشاريعهم الدينية[٤] .

---

(١) جورج ، ماكاي: دولة إسرائيل والصهيونية ، ترجمة أسد محمد قاسم ، ص٩٠.

(٢) القاسم ، أنيس : نحن والفاتيكان وإسرائيل ، ص٢٣.

(٣) الصواف ، محمد ، محمود: المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام ص٢٤٦.

(٤) John Van Ess, Meet the Arab . 192 N.Y.I 943.

ويرى لورنس بروان : أن القضية الإسلامية تختلف عن القضية اليهودية وأن المسلمين يختلفون عن اليهود في دينهم ، فهو دين دعوة ، لأن الإسلام ينتشر بين النصارى وغير النصارى ، وأن المسلمين لهم كفاح طويل في أوروبة وتمكنوا من إخضاع ، وركزوا على أن الفرق بين المسلمين واليهود كما يراه المبشرون ، هو أن المسلمين لم يكونوا يوماً ما أقلية موطوءة بالأقدام ، ولن نرى مكاناً يصبح فيه المسلمون أقلية مثل فلسطين مما يؤكد بان المبشرين ينصرون اليهود على المسلمين في فلسطين [1] .

ونشر الدكتور بيار ضودج رئيس الجامعة الأمريكية في بيروت من عام ١٩٢٢-١٩٤٨م مقالاً بعنوان : « أمن الضروري أن تنشب حرب في الشرق الأوسط » ؟ بسط رأيه في حل القضية الفلسطينية حيث قال : إن قيام حكومة اتحادية في فلسطين تحت إشراف هيئة الأمم يسلب العرب سيطرتهم على فلسطين المطلقة ، كما يضع حداً لادعاء اليهود بالهجرة غير المقيدة وبذلك يربح الفريقان عرباً ويهوداً ربحاً ثابتاً. فاليهود يحتفظون بوطن قومي واسع جداً يتحكمون فيه بتفوقهم الفني الحديث ، وبالخطى الاقتصادية السلمية ، ويتسلمون زعامة الشرق الأوسط كله ، أما العرب فيجنون ربحاً من ذلك التقدم التجاري والصناعي الذي يأتي من هذا السبيل[2] منذ عهد بعيد ، ومنذ القرن التاسع عشر ، كانت بريطانيا تفكر باستعمار فلسطين ، وإقامة حاميتين فيها لحماية طرقها إلى الهند ، ولم يكن لها ذلك إلا عن طريق التبشير. فحاولت بريطانيا أن تنصر فلسطين ، وتنقل إليها المذهب

---

(١) الخالدي ، مصطفى ، فروخ عمر: التبشير والاستعمار في البلاد العربية ص ١٨٤ .

(٢) المرجع نفسه ، ص١٨٥ .

الأنكليكاني ، مذهب دولة إنجلترا ، ولقد روج اللورد «بالمرستون» وزير خارجية بريطانيا هذا الدعوة برسالة وجهها لجريدة التايمز اللندنية ، فنشرتها الجريدة المذكورة في السابع عشر من آب عام ١٨٤٠م ، ، وكانت تنص هذه الدعوة على تنصير فلسطين ، ورد اليهود منصرين إليها ، أو تنصيرهم بعد العودة إليها ، وإعلان الحماية البريطانية عليها ، ومن الذين تشجعوا لهذه الفكرة من البريطانيين « رئيس الوزارة البريطانية «غلادستون»[١] ، والقائد الأعلى الجنرال «غوردن»[٢] ، والمستكشف البريطاني « ليفنجستون » .

وكلهم كانوا يريدون اختراع الوسائل للدفاع عن الإمبراطورية ، وتوسيع رقعتها[٣] .

وكانت بريطانيا ترى في فلسطين ضرورة للدفاع عن إمبراطوريتها ، لأنها رأس جسر بين القارات الثلاث،والمنطقة الضرورية للدفاع عن السويس ، وآبار النفط في الموصل ، إضافة إلى العامل الديني الذي تبناه المبشرون ، وعملوا على تحقيقه .

وما وعد بلفور إلا تحقيقاً لكل ما ذكرناه،وإن السياسات التي استترت وراء هذا الوعد ، هي التي أرادت إيجاد إسرائيل ، وسواء تقدم التاريخ أم تأخر ، فإن

---

(١) غلادستون (وليم) Gladston (١٨٠٩-١٨٩٨م) : سياسي إنجليزي ولد في ليفربول ، زعيم حزب الأحرار . من أعماله تحسين حالة أيرلندا ، وإصلاح أسلوب الانتخابات ، ووضع نظام التبادل الحر [المنجد في الأعلام (٢٥٠٨)].

(٢) غردون باشا Gordon : (١٨٣٣-١٨٨٥): رائد إنجليزي خدم في جيش الخديوي إسماعيل (١٨٧٤م) فاستكشف وادي النيل الأبيض وألغى تجارة العبيد . حكم السودان ١٨٧٩-١٨٨٠م ليقمع ثورة المهدي فأُسر في الخرطوم وقُتل [المنجد في الأعلام (٥١٠)].

(٣) الخالدي ، مصطفى ، الفروخ ، عمر: التبشير والاستعمار في البلاد العربي ، ص١٨٥ .

الانتداب لا وعد بلفور هو الذي فسح في القانون العام مجلاً لقيادة إسرائيل في فلسطين ، وأن وعد بلفور ليس إلا إعلاناً لسياسة فقط ، وبريطانيا هي نفسها التي أخضعت العرب(١) .

ولم يكتف التبشير بالعمل الديني فقط ، ولكن عمل وسلك طريق التجسس خدمة لليهود وحقدً على العرب ، وقد نشرت مجلة الشرطة والأمن العام مقالاً عن داعية أمريكي لإسرائيل اسمه « رالف باني » يدعي أنه يدير جمعية تقارب مسيحية ، مع أن اسم الجمعية الحقيقي هو «جمعية التقارب المسيحي اليهودي » ، ولا تهدف سوى مساعدة اليهود والدس على الرب بتشويه سمعتهم ، والتجسس عليهم ، ومع أن هذا الداعية كان يرتدي ثياب المبشرين ، فإنه كان يقوم بأعمال تنافي الدين ، وبنشاط يضر بالعرب. وقد طرد من الأردن لهذا السبب ، وكثير هم المبشرون الذين يقومون بمثل هذا الدور ويخدمون الغايات الاستعمارية لدولهم ، ولكن دفاع دولهم عنهم وصعوبة إقامة البينة عليهم لدولهم تمنع عن كشف حقيقتهم(٢) .

وغالباً ما كان علماء الآثار ومعاونوهم من المبشرين ، ومن أعضاء الهيئات الدبلوماسية يعملون لضمان حمايتهم الأدبية والقانونية ، فهذا الإنجليزي«جون جار ستانج » ١٨٧٦-١٩٥٦م الأستاذ للمدرسة الأثرية البريطانية في بيت المقدس ، قد عمل في عهد الإدارة لسلطات الانتداب على فلسطين عام ١٩١٩م ، وبقي يعمل حتى عام ١٩٢٦م، وكان يشجع على الاستكشافات خاصة في منطقة عسقلان(٣) .

---

(١) Bible and sword, Englad and Palestine from the Bronse Age to Balfour . 217 .

(٢) العظم ، صادق: الصهيونية والصراع الطبقي ، ص٥٤-٥٥.

(٣) حمادة ، حسين ، عمر: آثار فلسطين ، ص ٧٠.

أما البعثات الألمانية والنمساوية ، فقد نشطت في نهاية القرن التاسع عشر بعد تحسن العلاقات مع تركية ، ففي عام ١٩٠٧م ، قامت البعثة الألمانية النمساوية المشتركة بالعمل لمدة سنتين في البحث والتنقيب عن الآثار في فلسطين ، برعاية الإمبراطور الألماني .

وقد نشرت وزارة الثقافة والإعلام الأردنية ترجمة بالعربية لرحلات الإنجليزي « بروكهارت » في جزءين عام ١٩٦٩م ، وتؤكد أن للرحلات التي قام بها الأوربيون في بلاد المشرق ، وما قصوه عن مشاهداتهم أثراً بالغاً في تاريخ الاستشراق ، ودوراً لا يستهان به في إيقاظ الرغبة في مشاهدة تلك البلاد ، ودراسة كل ما يتعلق بتاريخها وحضارتها[(١)] ، فالغزو هنا واضح جداً ، لدراسة تاريخ وحضارة المنطقة ، ومن ثم التعامل مع أهل هذه البلاد بالطريقة المناسبة.

كل ما أوردناه يفتح عيوننا وبصائرنا على بعض الخطط ، والأساليب ، والغايات التي كانت جمعيات الاستكشاف الأوروبية تصنعها ، وترمي إليها من وراء بعثاتها المستمرة إلى المشرق العربي وبخاصة أرض لفلسطين المقدسة ، فهذا المستشرق الإنجليزي ، « بروكهارت » يوصي بأن كل ما جمعه من مخطوطات عربية وتبلغ الثمانمائة مجلد هي ملك لجامعة كامبردج ، وهذا يفتح عيوننا على ما نهب ، واستنزف من آثار أمتنا المجيدة ، ليهدي لجامعة كامبردج بأبخس الأثمان[(٢)] .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٧١.

(٢) كتب الأستاذ محمد كرد علي في (مخطط الشام ٦/ ١٩٨) ما يلي : « من المصائب التي أصيب بها كتب الشام أن بعض دول أوروبة ومنها : فرنسا وبريطانيا ، وهولندا ، وروسيا أخذت تجمع منذ القرن السابع عشر كتباً من تراثنا ، تبتاعها من الشام بواسطة وكلائها ، وقناصلها ، والأساقفة ، والمبشرين بلغ بهم الجهل أن يفضلوا درهما على أنفس كتاب ، فخانوا الأمانة ،

أما فرنسا فلم يفتها هذا القطار ، بل كان لها دور في ذلك عن طريق شخص يدعي « فانسان إيف بوتان » ولد عام ١٧٧٢م ، وانتهى به المطاف أن يكون ملازماً في الحربية الفرنسية ، وقد أوكلت إليه مهمة استطلاعية في الجزائر ، وذهب متنكراً ، ووضع الخرائط والتصاميم رغم ما صادفه من مخاطر ، ثم أعطي تصريحاً للتنقيب عن الآثار بفلسطين تحت أعين الإنجليز الساهرة وكان ينزل عند قنصل فرنسا حيثما كانت إقامته في فلسطين[١] .

* موقف دولة الخلافة العثمانية من هجرة اليهود :

لم تكن الدولة العثمانية بمنأى عن النشاط الصهيوني في فلسطين ، ففي عام ١٨٥٥م أصدرت قانوناً يمنع الأجانب من الاحتفاظ أو شراء الأراضي في فلسطين، كما منعت إنشاء مستعمرات يهودية جديدة .

وفي عام ١٨٨٧م ، سمح لليهود بالدخول فقط كزوار ، أو حجاج ، وتم إبلاغ متصرفية القدس ويافا بذلك ، وفرضت على كل يهودي يدخل القدس أن يدفع (٥٠) ليرة تركية ، لقاء تعهده بالمغادرة خلال (٣١) يوماً . وهذا ينسجم مع قرار

واستحلوا به ما تحت أيديهم ، أو سرقة ما عند غيرهم ، والتصرف به كأنه ملكهم. وحدثني الثقة أن أحد سماسرة الكتب في القرن الماضي كان يغشى منازل بعض أرباب العمائم في دمشق ، ويختلف إلى متولي خزائن الكتب في المدارس والجوامع فيبتاع منها ما طاب له من الكتب المخطوطة بأثمان زهيدة ، وبقي هذا سنين يبتاع الأسفار المخطوطة من أطراف الشام ، ثم رحل بها إلى بلاده فأخذتها حكومته منه ، وكافأته عليها. وإن عودة إلى كتاب : « تراثنا بين ماض وحاضر » للدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ توضح انتقال رصيد المكتبة العربية إلى خزائن أوروبة .

(١) أبو طالب ، محمود : آثار الأردن وفلسطين في العصور القديمة ص١٧-٢٠.

الباب العالي الذي رأى وضع حد لهجرة اليهود ، وما يترتب عليها من أضرار وأخطار[١] .

ومن هنا فقد تم إبلاغ قناصل الدول الأجنبية باستياء السلطان والسلطات العثمانية من مساعدتهم لليهود والتزامهم بذلك. وفي عام ١٨٨٢م أصدر الباب العالي قوانين جديدة نصت على وجوب حمل اليهود ، والأجانب جوازات سفر توضح عقيدتهم اليهودية ، كي تمنحهم سلطات الميناء تصريحاً لزيارة المتصرفية لمدة ثلاثة أشهر ، مع رفض دخول اليهود الذين لا يحصلون على إذن السلطات . وكان اليهود الإنجليز هم أكثر القادمين إلى فلسطين ، لذلك تم منع اليهود الإنجليز دون غيرهم[٢] .

ونتيجة لضعف دولة الخلافة العثمانية ، كثيراً ما كانت القوانين والأوامر تلقى المعارضة ، مع ازدياد تآمر الدول الاستعمارية على ترسيخ المشروع الصهيوني الاستعماري ، وأحياناً كانت الدول الاستعمارية تتحدى السياسة العثمانية. وكان يقابلها السلطان بمزيد من القوانين والتشريعات التي تمنع اليهود من دخول لقدس، وكثيراً ما كانت الدول الاستعمارية لا تتقيد بالقوانين والتشريعات التي تمنع اليهود من دخول القدس ، وكثيراً ما كانت الدول الاستعمارية لا تتقيد بالقوانين بحجة حماية حقوق الإنسان ، وحامية الأقليات ، ورعاية مصالح اليهود المساكين المضطهدين.

وعلى الرغم من هذه الإجراءات المشددة للحفاظ على فلسطين استطاع كثير من اليهود ، وبمساعدة القناصل الأوروبية من التسلل والدخول ، ولما علم أهل

---

(١) حلاق ، حسان: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ، ص٩٧-٩٨.

(٢) المرجع السابق نفسه ، ص١٠٢.

فلسطين بذلك ، أبلغوا السلطات العثمانية ، ولكن تم تغيير متصرف القدس « محمد شريف رؤوف باشا» الذي كان يؤيد سياسة السلطان عبد الحميد[١] في طرد اليهود، وعدم السماح لهم بالإقامة[٢] .

وقد صدر قانون يحرم بيع الأراضي لليهود ، مهما كانت الأسباب ، ولكن للأسف كان بعض موظفي الميناء في يافا يتقاضون الرشوة مقابل إدخال اليهود ، أو تسجيل خروجهم وهم لم يخرجوا[٣] . هذا وقد تم إبعاد العناصر الفاسدة . ولما تم التطبيق الفعلي على اليهود ، حاول سفير الولايات المتحدة « أوسكار شتراوس » اليهودي الأصل الضغط بكل قوة ، حتى تغير « محمد رؤوف باشا » ، وكثيراً ما حاولت الدول الأوروبية ممثلة بسفرائها الضغط على الدولة العثمانية لصالح اليهود، علاوة على أنها كانت تساعدهم بالدخول بطرق غير مشروعة .

---

(١) عبد الحميد الثاني (١٨٤٢-١٩١٨م) : سلطان عثماني (١٨٧٦-١٩٠٩م) يعتبر أحد أشهر سلاطين بني عثمان قاطبة وأكثرهم حنكة ودهاء ، وأشدهم مقاومة للتدخل الغربي في شؤون إمبراطورية المتداعية إلى السقوط ، اضطر تحت ضغوط داخلية وخارجية كثيرة إلى منح هذه الامبراطورية أول دستور عثماني (٢٣ ديسمبر ١٨٧٦م) ولكنه سرعان ما علق هذا الدستور (فبراير ١٨٧٨م) وحكم البلاد حكماً استبدادياً متسماً بالإرهاب، رعى حركة الجامعة الإسلامية، أكرهه رجال حزب تركيا الفتاة (١٩٠٨م) على إطلاق الدستور من عقاله ثم خلعوه عن العرش (١٩٠٩م) . [موسوعة المورد العربية (٢/ ٣٥٧)] .

(٢) على الرغم من تدهور الوضع العام للعثمانيين في عهد السلطان عبدالحميد ، وتكالب القوى الاستعمارية ، ووصول الدولة العثمانية إلى مرحلة الرجل المريض ، فإن موقف السلطان عبد الحميد كان مشرفاً ، حيث رفض إعطاء فلسطين وطناً قومياً لليهود ، على الرغم من الإغراءات المادية ، والضغوط السياسية وهذا الموقف يسجل لصالحه ويرفع مقامه .

(٣) جريس ، صبري: تاريخ الصهيونية ، ص١٠٩.

وهذا هدف سياسي آخر :

لم يكن حرص الدول الأوروبية على تجميع اليهود في أرض فلسطين ، هدفاً دينياً فحسب ، بل كان سياسياً أيضاً ، فقد بدأت الإرساليات الإنكليكانية العمل بين اليهود ، واستقرت في القدس عام ١٨٢٠م ، ثم جعلت تقوم منذ عام ١٨٢٤م بشيء يسير من العناية الطبية ، حتى أنشأت عام ١٨٤٨م أول مستشفى مشهور ، ثم تأسيس إرسالية في القدس(١) وقلد اتفقت السلطات البريطانية والبروسية على تأسيس أسقفية مشتركة في مدينة القدس ، ويشرف عليها أسقف مرسوم على المذهب الأنكليكاني (الإنجليزي) ، ولكن تعيينه يجري بالتناوب بين ملك إنجلترا ، وملك بروسيا ، ولقد كان في هذا العمل عوامل سياسية ، إضافة إلى العوامل الدينية. فالحملة الفرنسية للكاثوليك يجب أن يوازيها حماية بريطانية للبروتستانت. كان الأسقف الأول على أسقفية القدس حاخاماً يهودياً متنصراً هو : «ميخائل سلمون اسكندر»(٢) .

ومن هنا انكشف الدور الذي قام به التبشير في التآمر على فلسطين ، وكل ذلك باسم الدين ، والدين منه براء .

*** [ومن الأهداف السياسية] :**

استعمال التعليم كأداة للقهر السياسي :

لكي يضمن الاستعمار الاستمرارية لنفسه في الوجود والسيطرة ، كان لابد له

(١) سعيد ، عبد الستار ، فتح الله: الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ، ص١٣٩ .

(٢) محافظة ، علي: العلاقات الألمانية الفلسطينية ، ١٩٤١-١٩٤٥م ، ص١٦٨ .

من تربية نوعية معينة من الشباب ، تألف الخنوع والاستكانة ، وتسلك في حياتها مسلك الضعفاء المنهزمين ، وتسيطر عليهم مشاعر الإعجاب بالغرب وبالمستعمر ، متمنين الوصول إلى منزلته والرقي مثله من هنا لجأ الاستعمار إلى فرض نظام تعليمي يقوم على القسوة والرعب ، نظام عسكري جاف شديد. وفي الوقت نفسه أوقع البلاد في ضائقة اقتصادية خانقة ، بحيث يكد الموظف طيلة الشهر ، وفي النهاية لا يجد إلا أقل القليل، مما دفع بالكثير من الشباب إلى التهافت على عتبات المستعمرين، وفي معسكراتهم ، لخدمتهم ، ومد يد العون لهم كي يحصل على ما يضمن له عيشة كريمة ، ولكن للأسف الشديد لم يصلوا إلى بغيتهم من العيشة الكريمة ، بل وهبوا أنفسهم كعملاء وجواسيس للعدو المستعمر الذي لا يرحم ، لأن العدو الاستعماري كان قد حصر الوظائف في نطاق محدود جداً ، وترك الباقين في تخلف اقتصادي ، إضافة إلى أن سياسة الاحتلال البريطاني كانت قبض اليد عن الإنفاق على التعليم ، ويعللون ذلك – بسوء نية – تعليلات واهية لا صحة ، لها فهذا «يعقوب آرثين »[(١)] يقول : « نعم لا ننكر أن التعليم بالبلاد من وسائل الثروة فإن له مساساً بالاقتصاد السياسي فيها ولكن لابد للحكومة أن تنظر أولاً في ضرورياتها الحالية ، كما هو جار الآن ، ثم تحقق حاجاتها من ميزانيتها إلى لوازم التعليم »[(٢)] .

وكان التعليم يخضع لرسوم يعجز عنها كثير من الناس ، لذلك انحصر التعليم في فئة معينة من الناس ، وهذا هدف بريطانيا أصلاً ، حيث لم تحرص على تعليم الناس إلا بقدر حاجتها للموظفين الذين يقومون لخدمتها فقط ، مما أدى إلى زيادة

---

(١) يعقوب أرثين: القول التام في تعليم العام ص ٤٢.

(٢) المرجع نفسه ، ص٤٣.

نسبة الأمية بين الأطفال[١] .

* التواصل بين بعثات التنقيب الأوروبية للحفريات :

لقد ساد جو من التعاون بين البعثات الألمانية ، والإنجليزية ، والفرنسية ، وكان الراهب الفرنسي[٢] المرجع الأول والسريع للجميع ، فقد كانت معلوماته الأثرية عن (الفخار) لا تبارى ، وشارك في كثير من عمليات التنقيب بفلسطين وهذا تعاون آخر بين البعثات الإنجليزي ، والأمريكية عن طريق المدرسة البريطانية للآثار بالقدس ، والمدرسة الأمريكية .

British school of Archae rchae logy Research)

(The American school of prehistoric

وفي الوقت نفسه كان الفرنسيون يقومون بنشاط في فلسطين ، إذ أجرى موظف كبير بالقنصلية الفرنسية[٣] سلسلة تنقيبات في بعض الكهوف بفلسطين .

وأما البعثة الأمريكية الكبرى في بيسان فكانت برعاية جامعة بنسلفانيا ، حيث أجرت حفريات عديدة حتى عام ١٩٣١م ، ومنذ عام ١٩٣٣-١٩٣٨م عملت البعثات الأمريكية بالتنقيب في أربع مدن كبرى في النقب[٤] جنوب فلسطين[٥] .

---

(١) أبو الفتوح رضوان: أصول التربية ونظام التعليم ، ص٩.

(٢) فنيست الراهب الفرنسي .

(٣) رينية نيفي .

(٤) النقب : صحراء في جنوب فلسطين ، تمتد حتى وادي العربة وسيناء بمساحة ١٣٢٠٠ كم٢ ، وتتوسطها المرتفعات.

(٥) حمادة ، حسين عمر: آثار فلسطين ، ص ٩١.

وكان من أهدافهم السياسية : التحالف الماسوني الصليبي متسترين وراء القومية العربية ، حيث أنشأت وأسست المحافل الماسونية في بلاد الشام ، فكان أول محفل أنشئ في فلسطين عام ١٨٧٣م هو المحفل الاسكتلندي التابع للنفوذ البريطاني ، ثم توالى تأسيس المحافل حتى وصلت إلى (٣٠) محفلاً ، عدا ما يوجد منها في مصر ، وتلاقت وجهات النظر الماسونية مع الدعوات التبشيرية ، والإرساليات الفرنسية والأمريكية والبريطانية على هدف واحد هو : الدعوة القومية العربية ، وليس ذلك حباً في العرب المسلمين ، بل لما لها من هدف سياسي مرتبط بأهداف الماسونية والاستعمار التي تسعى إلى تمزيق دولة الخلافة الإسلامية ، واستبدال حكم العثمانيين بحكم دولة أوروبية مسيحية .

وسعت الإرساليات جميعاً الأوروبية ، والأمريكية لتأسيس الجمعيات التي تتولى هذا الدور[١] ، وكانت هذه الجمعيات تعمل على إثارة مشاعر المسلمين بفتح الباب لتعليم النساء الموسيقى ، وحث المرأة على السفور. وقد أقيمت عام ١٨٥٠م الجمعية الشرقية – وضمت رجالاً من نصارى الشام – إلى مجموعة من المبشرين الفرنسيين ، وكان من أهدافها إثارة النعرة القومية لدى المسلمين ، إلى جانب الأهداف الاجتماعية الأخرى[٢] .

---

(١) جورج ، أنطونيس: حقيقة العرب ص١١٧.

(٢) لم يقتصر الاستعمار الغربي المادي المسلح ضد المسلمين ، بل استخدم الغزو الفكري والنفسي والخلقي عن طريق أخوانه الذين قاموا بدور خبيث لتحطيم المرأة وتحويلها إلى سلعة ، تحت ستار كثيف من المبادئ الإنسانية وأثاروا الشبهات لإفساد الدين والقيم ، وكان هذا الغزو الفكري له أخطار فادحة ، لأنه أفسد المفاهيم ، وأوجد مزالق خطيرة ، وهز النفوس من الأعماق ، وأنشأ مشكلات كبرى وتعاونت في ذلك أجنحة المكر : الاستشراق ، والتبشير ،

* بعثات التنقيب والاستكشافات الأثرية في فلسطين :

بادرت بريطانيا إلى تشجيع الباحثين عن الآثار الموجودة في فلسطين ، فأنشأت في القدس مدرسة العاديات ، ونالت هذه المدرسة تشجيع اللورد « اللنبي » واللورد « كرزون » ، وولي عهد إنجلترا ، بل وملك الإنجليز نفسه ، ولم يكن الاهتمام الإنجليزي وحده ، بل دعمه الاهتمام الفرنسي المشبوه ، الذي كان يهدف إلى تقويض الوحدة السياسية ، وتفتيت الأمة المتضامنة ، مسوغين للأقليات العرقية والطائفية المقيمة والوافدة أن تنشط ، ويعلو شأنها خاصة اليهود ، علماً بأنهم أنشط الشعوب في تزوير التاريخ وتزييف الحقائق ، والوثائق المكتوبة ، ليفسروا بحثهم ودراساتهم واستكشافاتهم على ما ورد في التوراة من أسماء ، ومعلومات ، ووقائع.

وفي مثل هذا الجو أعلن في لندن عام ١٨٦٥م عن تأسيس جمعية اكتشاف فلسطين[(١)] Palestine Exploration Fund society. تحت رعاية التاج البريطاني وكان عالم الآثار البريطاني من أكثر من كتبوا عن آثار الأردن وفلسطين ، وكان يرجع في كل اكتشافاته إلى التوراة ، حيث يقول : «كلما كنت أذهب مستكشفاً في وادي الأردن ، أو وادي عربة ، أو أي جراء من شرق الأردن ، أو النقب ، كنت أستعمل التوراة كدليل للآثار، وأثق ثقة مطلقة بمعلوماتها ، وشواهدها، وحتى تلميحاتها»[(٢)] هذا وقد نشطت البعثات الإنجليزية والفرنسية بسبب وضعها القنصلي المتميز في

والاستعمار بأنواعه وأشكاله ، ومن ورائهم الصهيونية العالمية ، ودسائسها ، وكيدها. (الأسرة المسلمة في العالم العاصر ، ليوسف بديوي وأحمد جمعة (٢٨٢)).

(١) حماد ، حسين عمر: آثار فلسطين ، ص ٢٩.

(٢) جلوك – عالم آثار بريطاني .

الديار المقدسة ، لتنشط فيها بعد البعثات الألمانية والنمساوية والأمريكية ، وكلما انقضت مدة سعوا للحصول على مدة أخرى ، وواصلوا التنقيب والبحث باسم الدين(١) .

فالرحلة إلى فلسطين لم تكن رحلة سياسية فقط ، ولكن للاستطلاع على قضية معينة ، فهذا عالم الآثار الفرنسي(٢) المهتم بالتنقيب في فلسطين ولبنان ، يكشف عن نواياه بأنه أتى تلبية لرغبة الإمبراطور نابليون الثالث(٣) (١٨٠٨-١٨٧٣م) ، الذي كلفه بمهمة علمية ولأغراض دينية ، وكان في طليعة الحجاج إلى الأراضي المقدسة « الأب ماري جوزيف دو جيران) الذي كشف في مقدمة كتابه: «رحلة حج إلى القدس وإلى جبل سيناء ١٨٣١-١٨٣٣م » ، بأن الهدف من رحلته إلى الأماكن المقدسة هو الصلاة ، وليزرف الدمع على قبر المسيح ، وغيره ، ويذكر الباحث الفرنسي في كتابه (Tournal d,unvouage en orient : p.4) :

«إن الآباء الصليبين تركوا على هذه الأرض ذكرى بطولاتهم ، وآثار دمائهم التي أريقت في سبيل تحرير الشعوب وها نحن اليوم نقتفي أثرهم ».

ومن الأهداف أيضاً تآمر المبشرين في البحث والتنقيب ، وسرقة الآثار. أما البعثات الأمريكية فقد أخذت موافقة دولة الخلافة العثمانية ، شريطة أن تعيد المكان إلى حاله قبل الحفر ، وتزعم الحفر عام ١٩٠٨م بعثة من جامعة هارفورد ، واستمر

---

(١) أبو طالب ، محمود: آثار الأردن وفلسطين في العصور القديمة ص١٧ .

(٢) أرنست رينان .

(٣) نابليون الثالث: (١٨٠٨-١٨٧٣م) ولد في باريس ، إمبراطور فرنسا (١٨٥٢-١٨٧٠) خلع عن العرش بعد إخفاقه في الرب ضد ألمانيا (١٨٧٠) واعتزل في إنجلترا حيث توفي [المنجد في الأعلام (٧٠٣)].

التنقيب لمدة ثلاث سنوات برئاسة ومعونة الباحث «أندرو يزنر» وتمكنت هذه البعثة وغيرها من البعثات البريطانية والفرنسية من تهريب الآثار للمتاحف والجامعات الأمريكية[١] .

* **ومن الأهداف السياسية :**

التطلع الدائم إلى تفتيت الكيان العربي ، وذلك في صيغة معاهدة (سايكس - بيكو) التي مزقت المنطقة ، وحددت مناطق الاحتلال بالنسبة للدول صاحبة النشاط التبشيري ، بالإضافة إلى ما كان في عقد المعاهدة ، وهو ما ضاعف من صعوبات توحيدها فيما بعد .

وبعد سنة من المعاهدة ، صدر وعد بلفور عام ١٩١٧م ، ثم دخلت الجيوش الفرنسية سورية ، وما زالت المنطقة تشكوا من الآثار الفاجعة لذلك الاحتلال وذلك التقسيم الذي فتت بلاد الشام[٢] .

أما المدارس الأجنبية فحققت انتشاراً واسعاً في المشرق العربي ، وتزايد عددها بسبب المنافسة الاستعمارية ، وبسبب ذلك التعطش إلى المعرفة لدى شعب عربي عرف بعراقته الثقافية. وبدلاً من أن تنتبه السلطات العثمانية إلى ذلك راحت توفر التسهيلات والامتيازات للمؤسسات الاستعمارية ، حتى أن كثيراً من الشباب صاروا يرغبون في حمل جنسية إحدى الدول الأجنبية. وهكذا وجدت فلسطين نفسها أمام وضع غريب أشبه بالتآمر الصليبي الأوروبي ، بل هو التآمر بعينه ، وما هي إلا غارة أوروبية تبشيرية تعمل على ملء الفراغ الثقافي ، ولكن بطريقة غريبة

---

(١) تشارلز دو موييه .

(٢) اليساوي شاكر: الصهيونية في المنظور الثوري ، ص١١١-١١٢.

باهرة ، تلوح دوماً بأفضلية النموذج الأوروبي الراقي ، وتخلف الوضع العربي على أرض الوطن ، علماً بأن الاستعمار الغربي في تلك المرحلة لم يكن بعد قد انكشفت أساطيله ، ولا أساليبه في القسر ، والعنف ، ولا ظهرت طبيعته الاستقلالية المتعمدة على الوحشية والبطش(١) .

ومن الأهداف السياسية التي عملت الإرساليات التبشيرية الألمانية خاصة على تحقيقها : تقوية النفوذين السياسي والاقتصادي لألمانيا في سوريا وفلسطين ، فأصبح على المؤسسات الثقافية الألمانية أن تخدم المصالح العليا للدولة ، لضرب نفوذ الدول الأوروبية الأخرى وخاصة فرنسا ، وفي البداية لم يع المبشرون هذا ، ولكن قبل نهاية القرن الماضي كانوا أكثر وعياً لدورهم ، وهو خدمة المصالح العليا لألمانيا ، وأعني بذلك المصالح التوسعية في الشرق فعن طريق معرفتهم باللغة وعادات السكان المحليين في سوريا وفلسطين ، استطاعوا أن يقوموا بدور الجسر بين هؤلاء المبشرين والاقتصاد الألماني (٢) .

ويظهر هذا الارتباط الحميم بين الأهداف التبشيرية والاقتصادية بوضوح في الجهود التي بذلت لاستعمار فلسطين ، فقد كان أول مشروع للاستيطان هو الذي قامت به مطرانية القدس ، لتوطين اليهود المتنصرين ، ولكن باء بالإخفاق لأن عدد اليهود المنصرين لم يكن يوازي الجهد لإنشاء المطرانية ، وهذا الفعل فتح أعين اليهود لإقامة المستوطنات باسم اليهود ، لا باسم المطرانية والمطرانيات في فلسطين (٣) .

---

(١) الأفغاني ، سعيد: من حاضر اللغة العربية ، ص٧٥.

(٢) سنو ، عبد الرؤوف : المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين ، ص٨٦.

(٣) حلاق ، حسان: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ، ص١٤٥.

المبحث الثاني
الأهداف الدينية

ينظر الأوروبيون للإسلام على أنه الدين الوحيد الذي أضر بالمسيحية ، ووقف عائقاً أمام انتشارها لما يتضمنه الإسلام من مبادئ سامية تتطابق مع الفطرة السليمة، ولسهولة هذا الدين اعتنقه الكثير من الناس ، ولما وصل الإسلام إلى وسط أوروبا عن طريق الفتوحات العثمانية اعتبر الأوروبيون إن كل نصر عسكري يحققه العثمانيون نصر للإسلام ، وهزيمة للمسيحية ، لذلك زادت حدة العداء بين أوروبا وبين دولة الخلافة العثمانية فما كان من الأجيال المتعاقبة من الأوروبيين - التي عاصرت دول الخلافة العثمانية على امتداد تاريخها الحافل - إلا أن ربطت في عقولها بين الإسلام وبين دولة الخلافة العثمانية ، فتداعت إلى أفئدتهم ذكريات الفتوح الإسلامية الكبرى ، مما أدى إلى تصاعد موجات العداء والحقد بين معظم دول أوروبا ، وبين دولة الخلافة العثمانية ، لذلك عملت جاهدة على تصفية هذا الوجود الإسلامي والقضاء على الإسلام ، ودعم مصالحها الاستعمارية بتوزيع تركة هذه الدولة فيما بينها [١] .

ومن هنا عملت أوروبا على رسم الخطط للقضاء على الإسلام المتمثل في شخصية دولة الخلافة العثمانية ، بالتخطيط السياسي ، والاقتصادي ، والعسكري ، وحمل المبشرون على عاتقهم تنفيذ القدر الأكبر من هذا المخطط ، وهذا ما أعلنه بعض المنصرين في أكثر من مناسبة ، ومنها المؤتمر التنصيري الذي عقد بجبل

---

(١) الصافوي ، محمد عبد المجيد: سقوط الدولة العثمانية وأثره على الدعوة الإسلامية ، ص٥٩.

الزيتون في (القدس) في فلسطين ، وحضرته أربعون دولة عام ١٣٤٦هـ - ١٩٢٧م، حين قام أحد أقطاب هذا المؤتمر قائلاً[١] : « أتظنون إن غرض التنصير وسياسته إزاء الإسلام هو إخراج المسلمين من دينهم ليكونوا نصارى؟ إن كنتم تظنون هذا فقد جهلتم التنصير ومراميه. لقد برهن التاريخ من أبعد أزمنته على أن المسلم لا يمكن أن يكون نصرانياً مطلقاً ، والتجارب دلتنا ، ودلت رجال السياسة النصرانية على استحالة ذلك ، ولكن الغاية التي نرمي إليها هي إخراج المسلم من الإسلام فقط ، ليكون مضطرباً في دينه، وعندما لا يكون له عقيدة يدين بها ويسترشد بهديها، وعندما يكون المسلم وليس له من الإسلام إلا اسه أحمد أو مصطفى. فإن الهداية ينبغي البحث عنها في مكان آخر »[٢] .

إن لموقع فلسطين أهمية بالغة ، فهذا البلد يقع في ملتقى الطرق بين آسيا وأفريقيا وأوروبا وبين البحرين المتوسط والأحمر ، زد على ذلك أن فيها البقاع المقدسة للديانات السماوية. فالكل يريد أن يسهر على حمايتها ، مما جعل أطماع القوة الأوروبية في فلسطين لا تتناقض مع رغبات شعوبها.

فمن الناحية الدينية تعتبر فلسطين مهد الديانات السماوية جميعها حيث أقام إبراهيم عليه السلام وبشر بالتوحيد ، ودفن في مدينة من مدنها (الخليل). وكذلك موسى عليه السلام الذي بشر بديانته ، وعيسى عليه السلام الذي ولد في إحدى مدنها (بيت لحم) .

ومن الناحية الإسلامية تعد أرضاً مقدسة مباركة ، فهي الأرض التي بارك الله فيها

---

(١) المبشر الأمريكي زويمر .

(٢) عكاشة ، إبراهيم: ملامح عن النشط التنصيري في الوطن العربي ، ص٣٨.

لوجود المسجد الأقصى ، وأولى القبلتين ، وثالث الحرمين الشريفين بعد مكة والمدينة. قال الله تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء :١].

لذلك سعت الدول الأوروبية إلى اتّباع سياسة التفرقة في المنطقة ، وذلك باستقلال القوميات والطوائف والعصبيات ، من أجل كسر وحدة المسلمين لتتمكن من السيطرة عليهم وعلى العالم الإسلام بعد ذلك .

فاتبعت تلك الدول الاستعمارية كل الوسائل والسبل التي تضعف هذا الكيان العظيم ، وعملت على تقسيمه إلى دويلات ، ومن ثم استغلال خيراته ، فليس من باب المصادفة أن تتجمع كل قوى الاستعمار على دعم الحركة الصهيونية والعمل على توطينها في أرض فلسطين المسلمة[(١)] ، وفي هذا الصدد يقول الكاتب الإسرائيلي «يوري أفنيري» : إن فكرة إنشاء وطن يهودي عام ١٨٤٠م حث عليها اللورد البريطاني « بالمرستون »[(٢)] الذي كان يعتقد إن مستوطنة يهودية على الأرض المقدسة ستساعد دولة الخلافة العثمانية التي كانت تحظى بمساعدة البريطانيين ضد المصريين الذين كانوا يحظون بمسندة فرنسا »[(٣)] .

ومن هنا كان تركيز هذه الدول على الإرساليات التبشيرية والتي ستخدمهم في هذا المجال، وذلك بحث اليهود وإثارتهم والتطلع إلى أرض الميعاد على أسس دينية،

---

(١) صبري ، جرجس: ملامح عن النشاط التنصري في الوطن العربي ص٣٨.

(٢) بلمرستون: (١٧٨٤-١٨٦٥م) سياسي إنجليزي ، تولى مراراً منصب وزارة الخارجية ورئاسة الوزارة دافع عن مصالح بريطانيا ، وقاوم النفوذ الفرنسي [المنجد في الأعلام (١٤١)].

(٣) المسيري: عبد الوهاب : الأيديولوجية الصهيونية ، ص١٢٥.

لكنها لم تثر في اليهود أي حماس عبر تاريخهم في للتفكير بذلك . ولم يقتصر توجيه الجمعيات الدينية التبشيرية على دولة معينة ، أو مذهب معين بل قامت بذلك جميع الدول الاستعمارية التي كانت تتطلع إلى استعمار الشرق . وكانت الجمعيات التبشيرية من أهم الأدوات التي استعملها الاستعمار الغربي بصورة مبكرة للإعداد لتنفيذ مخططاته .

ولم يكن نشاط الجمعيات التبشيرية من أجل عودة اليهود إلى فلسطين خالصة لوجه الله ، بل كانت مقدمة للاستعمار الأوروبي. لذلك كانت كل دولة ، وكذلك أمريكا ، تدفع بالمبشرين إلى المشرق العربي ، كمقدمة دينية وثقافية لتطلعاتها الاستعمارية ، وهذه الحمى التي انتابت بعض المبشرين والجمعيات التبشيرية لم يكن لها أثر فيما مضى في فكر المبشرين ، فالفكرة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بفكرة التوسع الأوروبي الداعي إلى مشروع توطين اليهود ، وما المبشرون إلا أداة تنفيذ في يد المستعمر ، لتحقيق أغراضه الاستعمارية. علماً أن سياسة الأوروبيين والبريطانيين منهم خاصة لم يكونوا يؤيدون المشروع الصهيوني حباً منهم في اليهود ، لكن لتحقيق أهداف سياسية استعمارية ، وليس أدل على ذلك من اللورد البريطاني «شافتسبري» الذي ساهم بفكره وعلمه في إنشاء الدول الصهيونية ، كان ضد اليهود ، وضد حل مشاكلهم ، وكان « لاسيما معروفاً »(١) وما زالت الحركات التبشيرية وجمعياتها تعلن الدعم لليهود بالمال والإعلام ، وليس غريباً أن تنتشر الجمعيات التبشيرية ، إن قيام دولة إسرائيل أكبر دليل على اقتراب العصر الألفي السعيد الذي سيحكم فيه

(١) أمين ، بديعة: المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية ، ص١٤٨.

المسيح الأرض ، ومن ثم زادوا في نشاطهم في الدول الصهيونية [(١)] .

لقد عرف المشرق العربي الهمجية الصليبية التي شنتها أوروبا على ديار المسلمين مستغلة فيها الصليب، واستغلت اسم المسيح عليه السلام ، لتنهب خيرات الأمم ، وتقتل الآلاف وليس ذلك غريباً على المبشرين – باسم الدين والصليب والمسيح – أن يدعموا دولة الصهاينة وينادوا بإقامتها .

ولعل في النشاط المبكر في الجمعيات التبشيرية والإرساليات ، وخاصة الألمانية دروا في تحقيق هذه الفكرة بإقامة مستوطنات في فلسطين ، هذا وقد وفد على فلسطين جماعة من المهاجرين (المسيحيين) أعضاء جمعية دينية ألمانية تسمى « جمعية فرسان المعبد » تهدف إلى توطين المسيحيين بصفة دائمة في الأرض المقدسة ، وكان الدافع وراء هذه العملية الاستيطانية مغلفاً بغلاف ديني ، وقد تجمعوا في إقامة مستوطنة زراعية – عسكرية ، مثل «المستوطنات الصهيونية الآن» وقد استمر وجودهم في القدس ويافا ، والخليل طوال فترة الانتداب وحتى عام ١٩٤٨م ، وشكلوا الحزب النازي في فلسطين ، هذا وقد تعرضت المستوطنات الصهيونية الألمانية لهجوم العرب عام ١٩٠٨م ، احتجاجاً على المستوطنات ، مما جعل ألمانيا ترسل سفينة حربية لحماية الرعايا الألمان ، إلا أن الشعب المسلم في فلسطين لم يرهب مقاومة الغازي مهما كان شكله[(٢)] .

ومن المعروف إن دعاة العودة إلى أرض الميعاد كانوا من المبشرين المسيحيين

---

(١) النتشة ، رفيق: الاستعمار وفلسطين ، ص١٩٤.

(٢) المسيري ، عبد الوهاب: الأيديولوجية الصهيونية ، ص١٣٣.

البروتستانت منهم خاصة قبل أن يكونوا من اليهود[١] .

وتعد العقيدة البروتستانتينية السائدة في كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية أكثر العقائد تعاطفاً مع الإيدولولوجية الصهيونية ، ومن الناحية التاريخية نلاحظ أن المنادين بالإصلاح الديني في أوروبا تمسكوا حرفياً بنصوص الكتاب المقدس – بعهديه القديم والجديد – وأحلوه محل الكنيسة الرسولية في روما ، وامتلاء بالاقتباسات الحرفية من نصوص الكتاب المقدس ، وتحدثت نبوءاتهم عن القدس الجديدة التي استوحوا فكرتها من سفر دانيال – ورؤيا القديس يوحنا ، وتأثروا في تعاطفهم مع توجيهات صهيون الروحية بعدائهم الديني للعقيدة الكاثوليكية التي تمثلها روما ، وكانوا يتوقعون (عودة المسيح من جديد ، ليقود الكفاح حتى ينتصر ضد أعداء المسيح ، ورأوا في سقوط هذا الأخير إيذاناً ببدء العصر الألفي وحلول مملكة السلام السماوية التي تدوم ألفي سنة ليأتي بعدها يوم الحساب الأخير[٢] .

ويلاحظ أن هذه التفسيرات للكتاب المقدس وتلك الادعاءات الدينينة لم تظهر إلا بعد ظهور الفكر الاستعماري ، الذي بدأ يتطلع للغزو والاستيلاء على أرض جديدة في المشرق مما يدل على أنه فكر ديني موجه لخدمة الاستعمار .

وقد نشطت الحركات التبشيرية في أوروبا وأمريكا لتبني الادعاءات الدينية والمدافعة عنها ، وإن الدين المسيحي دين المحبة والتسامح والحق ، وقد غالت بعض الكنائس البروتستانتينية في أمريكا – وهي كثيرة التشعب مثل طائفة (الفندامنتاست)

---

(١) العظم ، صادق جلال: الصهيونية والصراع الطبقي ، ص١٨٠-١٨١ .

(٢) ربيع محمد: أزمة الفكر الصهيوني ، ص٤٦ .

و«المعمدانيين» - فصورت إسرائيل - وكأنها تجسيد لإرادة الله في الأرض ، وأصبحوا يدعون ويصلون في قداسهم أيام الآحاد والأعياد الدينية إلى إسرائيل التي تجسد ـ حسب الفكرة الصهيونية ـ نبوءة العهد القديم وتحقيقاً للإرادة الإلهية[١] .

وهذا ليس رأي البروتستانت فقط ، بل رأي كثير من اللوثريين الأسقفيين ، والكاثوليك ، حيث ينشرون ذلك في مجلاتهم ، وقداسهم ، ويوم الأحد وعلى شاشات التلفاز ، وفي (الراديو) أيضاً[٢] .

ومن المعلوم أن بريطانيا هي أكثر الدول تحمساً لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، فقد استغلت المبشرين المسيحيين ، والعلماء ، والتوراة ، والإنجيل من أجل تحقيق هذا الهدف الذي لم يتحرك من أجله اليهود أنفسهم ، حيث قامت الطبقة البرجوازية من البريطانيين بتصدير المبشرين ، والتجار ، والرحالة وعلماء الآثار إلى فلسطين ، ليفتحوا الطريق أمام هذا المخطط ، وأنفقت الأموال الطائلة لاستكشاف الأرض المقدسة ، وإقامة الجمعيات المهتمة بالدراسة ، فعلى سبيل المثال تأسست جمعية فلسطين عام ١٨٠٤م في لندن ، بهدف تشجيع المزيد من الاستكشاف وإجراء الدراسات والأبحاث[٣] ، علماً أنها جزء من الجمعية الملكية الجغرافية البريطانية. وفي عام ١٨٦٥م تأسست في لندن صندوق استكشاف فلسطين برئاسة اللورد «شافيسبرى» لخدمة الأهداف نفسها ومع كل هذا الاهتمام

(١) اللبدي ، محمود: المنطلقات الأساسية في الفكر الإعلامي الصهيوني ، ص١٤.

(٢) المرجع نفسه ، ص١٥ .

(٣) النتشة ، رفيق: الاستعمار وفلسطين ، ص١٦٠.

هناك واجهة دينية تدعي أن الاهتمام بفلسطين واجب مقدس ، وإن مجيء ملكوت الله على الأرض قد أصبح قريباً ، ولم يخف القائمون على هذه الدراسات أهدافها الحقيقية ، وعلى سبيل المثال قال اللورد « شافتسبري » في الخطاب الافتتاحي الذي ألقاه بمناسبة تعيينه رئيساً لصندوق استكشاف فلسطين ما يلي: «دعونا لا نتأخر في إرسال أفضل العلماء لتنقيب طول فلسطين وعرضها ، ولمسح الأرض وتغطية كل زاوية منها ما أمكن ، ولتجفيفها وقياسها ، أي إذا شئتم لإعدادها من أجل عودة مالكيها القدماء ، إذ ينبغي على أن اعتقد أنه لن يطول الزمن كثيراً قبل أن يقع هذا الحدث العظيم»[١].

ونشاط بريطانيا في فلسطين دائماً مغلف بغلاف ديني ، وذلك باستغلال المبشرين والذين يدعون إلى تطبيق التعاليم الدينية سواء اقتبست من التوراة أو الإنجيل . وقد أورد « هوارس ماير كالمن » في كتابه (الصهيونية والسياسة الدولي عن فكرة بعث إسرائيل بين أصحاب المصالح الاستعمارية من غير اليهود ، فكتب: «انتشرت فكرة بعث إسرائيل باعتبارها ممكنة التحقيق على صعيد السياسة العملية، والمستوى الديني في بريطانيا وفرنسا ، بين غير اليهود بشكل أوسع وأشد من انتشارها بين اليهود»[٢]. ولأن الإنجليز مستعمرون ـ شأنهم شأن الأوروبيين الآخرين ـ ، فقد سبقوا اليهود في الدعوة إلى الفكرة الصهيونية ، وقد تجلى ذلك عند مفكريهم ، ومثقفيهم ، وجمعياتهم التبشيرية الموجهة من السياسة المستعمرة.

فهذا شخص اسمه « فلنت » بريطاني سياسي ، وفيلسوف ومبشر ديني ورحالة ،

---

(١) العظم ، صادق جلال: الصهيونية والصراع الطبقي ، ص٥٤-٥٥.

(٢) النتشة ، رفيق: الاستعمار وفلسطين ، ص١٦٠.

أنهى رحلته بإقامة في مسكن بناه في جوار حيفا ، وكان ينادي بعودة اليهود إلى فلسطين ، وخلاصة آرائه موجودة في كتابه (أرض جلعا) وهي « تأسيس الوطن القومي اليهودي برعاية بريطانيا فكل هذا ليس إلا خدمة لبريطانيا وباسم الدين»[١] .

* كيف تم استغلال الجمعيات التبشيرية :

لقد كانت الجمعيات من أهم الوسائل التي استخدمتها بريطانيا وغيرها من الدول الاستعمارية في التركيز على عودة المسيح المنتظر ، ومما يؤسف له أن الجمعيات التبشيرية كانت سباقة في الدعوة إلى المشروع الصهيوني ، ولقد أنشئت الجمعيات لهذا الغرض في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، مثل «جمعية اليهود البائسين» في القدس و « جمعية تشجيع العمل الزراعي اليهودي في الأرض المقدسة» ، وكان تحت إشراف القنصل البريطاني ، في القس ، كما كانت كلها جمعيات مسيحية ، وأخيراً تم تأسيس صندوق استكشاف فلسطين برئاسة اللورد «شافتسبري» البريطاني في عام ١٨٦٥م[٢] . باستغلال اليهود ، لنشر النصرانية بينهم ، ولمقاومة العرب المسلمين بهم ، ففي عام (١٩٠٨م) أسس « الإنجليز الجمعية اللندنية لنشر النصرانية بين اليهود » ، ومقرها لندن وقد كانت آمالهم عند تأسيسها عظيمة جداً ، وقد رأت أنه لب من أن يساق اليهود المتفرقون في الأرض إلى فلسطين ، وهكذا بدؤوا يشجعون الهجرة ، وعزموا أن يبدأ التبشير بينهم مباشرة ، ولكن آمالهم

(١) صايغ ، أنيس: الهاشميون وقضية فلسطين ، ص٨.

(٢) قهوجي ، حبيب: استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة ، ص٣٧.

خابت عندما شدد الأتراك العثمانيون على الإرساليات التبشيرية [١] .

على أن المبشرين حاولوا ثانية أن يستغلوا القضية اليهودية في سبيل أهدافهم الدينية ، حيث أسس الملك « فريدرك وهلهم الرابع »[٢] ملك بروسية عامي (١٨٤٠-١٨٦١م) الأسقفية الإنجليزية البروسية في القدس ، لتكون مركزاً بروتستانتينياً ، لإصلاح الكنائس الشرقية عامة ، ولتنصير اليهود خاصة .

وكان المبشرون على قناعة أن وجود اليهود بفلسطين يسهل لهم مهمتهم في الوصول إلى المسلمين ، فليس من المستغرب إذا أن تجد سبعاً وعشرين جمعية تبشيرية مختلفة الجنسيات كانت بلا ملل في فلسطين ، وهكذا نرى أن عوامل مختلفة كانت ترمي إلى استعمار فلسطين ، توصلاً إلى أهداف خاصة كانت البابوية والبروتستانتينية الصهيوني تتنافس فيما بينها لتحقيقها في فلسطين ، ومع أن هذه الحركات ظاهرها ديني ، إلا أنها سياسية في حقيقتها حيث كانت الدول الأوروبية تسعى إلى تحطيم دولة الخلافة العثمانية عن طريق الأقليات ، هكذا رأينا أن الدول الأوروبية تتساهل مع اليهود في فلسطين في كل الأمور ، حتى وصلنا إلى ما نحن

---

(١) بيير ، ديستريا : من السويس إلى العقبة ، ص٧٨ ، ومن هنا يعلم أن الدولة العثمانية – على الرغم مما يشاع عنها – قد وقعت حجر عثرة في وجه القوى المعادية للإسلام وقد سعت القوى الاستعمارية للقضاء على الدولة العثمانية واستغلال الظروف لتفتيتها .

(٢) فريدريك وليم الرابع: (١٧٩٥-١٨٦١م) : ملك بروسيا (١٨٤٠-١٨٦١) ابن فريدريك وليم الثالث وخليفته. شهدت البلاد في عهده فترة من القلق الاجتماعي ومطالب بتحقيق الوحدة الألمانية. عرف بكرهه للأنظمة الدستورية ، ولكن ثورة عام ١٨٤٨م التي عجت رجعته باندلاعها أكرهته على فتح البلاد دستورياً [موسوعة المورد العربية (٢/ ٨٤٨)].

عليه الآن[١] .

ولقد كانت المدارس التبشيرية تجمع الطلاب النصارى ، والمسلمين واليهود ، يلعبون سوياً حتى يمهدوا قبول اليهود كمواطنين في الدولة المسلمة ، والتي ستنزع بعد سنوات من هذه المؤامرة من يد أهلها ، حتى أن مدارس المبشرين وصلت إلى درجة تالية الرياضة ، وتشجيع التسامح في ميادينها إلى أبعد الحدود ، وكان من آثار هذا التسامح قتل الروح الوطنية والعداء لليهود ، عن طريق التسلية ، ومما يؤسف له حقاً قيام أحدث عام ١٩٢٩م ، وإعلان الإضراب احتجاجاً على محالفة الإنجليز لليهود ، لكن جمعية الشبان المسيحيين جعلت تخدم التعاون الودي بين العرب واليهود ، فأقامت مباراة في لعبة تنس الطاولة ، وكان اللاعبون مسلمين ويهوداً ، وكان الحضور لفيفا من المسلمين واليهود والنصارى ، فكان اليهود يحيون كل نجاح يصيبه اللاعبون العرب وكذلك العرب يحيون كل نجاح يهودي ، ثم تبع المباراة حفل شاي ، وهكذا نجد دائماً بوضوح أن المبشرين وأشياعهم خطر على المسلمين ، ولم تكن الإرساليات التبشيرية وحدها صديقة لليهود ، بل إن بريطانيا صديقة لليهود في تحقيق أغراضهم الاستعمارية ، وكان تأسيس دولة اليهود أمراً مقرراً عند المبشرين[٢] .

ومن هنا فقد لعبت « جمعية لندن لنشر المسيحية بين اليهود » ومقرها لندن آنذاك» نشاطً ملحوظاً في نشر الفكرة بين أوساط اليهود والإنجليز ، وبدأت بريطانيا برسم الخطط الأولى لسياستها ، وذلك بالضغط على السلطان العثماني من

---

(١) Richter Ahistory of the Protestant Misions in the Near East . 238.

(٢) John Van Ess , Meet the Arab , p 192.

أجل السماح بهجرة يهودية كبيرة لفلسطين » ، كتب اللورد «بالمرستون» وزير الخارجية البريطاني في ١١ آب عام ١٨٤٠م إلى اللورد «بونسبوني» السفير البريطاني لدى دولة الخلافة العثمانية:« سيكون من الأهمية البالغة إعلان السلطان تشجيع اليهود على العودة والاستيطان في فلسطين ، أطلب من سعادتكم وضع هذه الاعتبارات تحت ملاحظة الحكومة التركية ، ودفعها بقوة للقيام بهذا التشجيع يهود أوروبة للعودة إلى فلسطين[١] .

نلاحظ هنا أن الاستعمار استغل الدين اليهودي ، والدين المسيحي ، والجمعيات الدينية التي أنشأها لدعم هذه الفكرة ، التي لم يكن اليهود أصحابها ، أو مؤيديها بأي شكل من الأشكال .

*** دور التبشير الأمريكي :**

أما أمريكا الإمبريالية ، فقد استغلت أيضاً الحركات التبشيرية المسيحية لتحقيق أهدافها الاستعمارية ، فمنذ القرن التاسع عشر بدأت الولايات المتحدة تهتم بعض الشيء في المنطقة وبشكل رئيسي خلال نشاطات البعثات التبشيرية في المجالات الثقافية والتعليمية ، فقد كانت الأرض المقدسة دائماً موضع اهتمام مسيحي[٢] .

وتطوع الكثير من الحركات المسيحية الأمريكية في أواسط القرن الماضي من أمثال « السبتيين » ، « شهود يهوه » ، « المارون » لإقناع اليهود بأحقيتهم في العودة إلى فلسطين تنفيذاً لوعد الرب ، وهذا حق إلهي لليهود. من هنا نرى كيف أن هذه الحركات تستغل اسم الدين لتنفيذ الأهداف الاستعمارية ، وليس غريباً أن نرى

---

(١) قهوجي ، حبيب ، استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين ، ص١٦٣ .

(٢) جورج ، لينشوفيسكي: مصالح الولايات المتحدة في الشرق التوسط ص ٢٣ .

التسهيلات للمبشرين من قبل اليهود ، كيف لا؟ وهم الذين نادوا لهم بدولتهم ، وأعلموهم أن ذلك حق إلهي لهم.

وعلينا أن نتذكر: أن عام ١٨١٨م شهد تأسيس جمعية تبشيرية أمريكية للعمل في فلسطين ، مستندة إلى الجهود الأمريكية ، والإحسان الأمريكي ، ومن العوامل التي ساعدت على تأسيس هذه الجمعية الأمريكية للتبشير في فلسطين ، أن الشرق الأدنى لم يكن جزاء من الإمبراطورية البريطانية ، ولكن كان خاضعاً للحكم البريطاني ، أو النفوذ البريطاني ، إضافة إلى إخفاق أعمال المبشرين بالهند ، لذلك عزم المبشرون على توجيه جهودهم إلى فلسطين ، وإلى القدس خاصة ، لذلك قررت الجمعية الأمريكية السير في طريق مستغلة الجمعيات البريطانية التبشيرية. هذا وقد حمل موقع فلسطين بصفته الطريق المؤدي إلى أقسام واسعة من العالم ، اهتمام المبشرين « كان الهدف الرئيسي من التبشير في فلسطين ، تبديل عقائد شعوب الشرق الأدنى وتبديل أنماط حياتهم ، ولقد وضعت خطط للوصول إلى نفسيات المسلمين والنصارى واليهود في فلسطين رغم علمهم صعوبة ذلك»[(١)] .

ولما أرسل المبشرون ، لم يكن ينتظر أن تكون نتائج عملهم بين المسلمين سريعة الظهور ، فلقد أدرك المجلس أنه ليس من السهل حمل المسلم على تبديل دينه ، لأن المسلمين مقتنعون بان الإسلام أسمى الأديان ، ثم إن السلطة السياسية في يد المسلمين » ، غير أن الأمريكيين كانوا يأملون أن يتقوض البناء السياسي للدولة العثمانية في أثناء ذلك ، فيقضي بالتالي على القوى الإسلامية »[(٢)] .

---

(١) الخالي ، مصطفى ، فروخ عمر: التبشير الاستعمار في البلاد العربية ص٢٦٠.

(٢) المرجع السابق ص ٢٦١.

لقد ظل البروتستانت معتمدين للعهد القديم – الجزء الأساسي من العقيدة – بحيث ركز الأنظار والأفكار على تاريخ اليهود في فلسطين ، وخلق العقيدة الدينية بأن العودة هي مشيئة الله ، ويجب على المؤمنين العمل على تحقيق العمل على تحقيق مشيئة الله ، يضاف إلى أن البروتستانت دعوا إلى الحرية الفردية في العقيدة ، وترتب على ذلك أن وجدت الحركة الصهيونية من البروتستانت حلفا وأنصاراً ، حتى وصل الأمر بالبروتستانت إلى أن نفوا عن اليهود فكرة الصلب ، وقالوا: إن الأميين اشتركوا جميعاً في جريمة الصلب ، وأضافوا أنه من الخطأ أن يشار إلى اليهود دون غيرهم وأن يدان اليهود بجريمة ارتكبتها التبشيرية جمعاء[١] .

نلاحظ كيف أن البروتستانت يساعدون في تثبيت الصهاينة ، ويدعون إلى مساعدتهم وعدم العداء معهم ، وتثبيت أقدام اليهود في أرض فلسطين المسلمة ، فإذا كانت هذه آراء المبشرين البروتستانت ، فماذا نتوقع منهم بعد ذلك؟ فهذا مبشر وأسقف اسمه « سيفن نايل » بروتستانتي إنجليزي جاء في مطلع كتابه « تاريخ الإرساليات التبشيرية » ما نصه: « ولد يسوع يهودياً ، ولم يدع يوماً أنه كان شيئاً آخر »[٢] ، يظهر الكاثوليك بفكرة قوية ، هي إعادة تفسير الكتاب المقدس باستعمال طرق النقد الحديثة التي يستعملها البروتستانت ، وبعد استنكار هذه الحركة والفكرة مدة من الزمن ، أخذت تنال قبولاً في الأوساط الكاثوليكية ، وكجزء من هذا الاتجاه فإن خمسة من علماء اليهود اشتركوا في إعداد ترجمة جديدة للكتاب المقدس ، وتضم هذه اللجنة كذلك سبعة من الكاثوليك ، وخمسة عشر من

---

(١) القاسم ، أنيس: نحن والفاتيكان وإسرائيل ص ٢٣.

(٢) المرجع السابق ، ص١٦-١٧.

البروتستانت ، وقد صدر الجزء الأول من الترجمة عام ١٩٦٤م[١] .

وكما جاء في هذه الترجمة أن اللاسامية « شكل شيطاني للثورة ضد إله إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، وإنها رفض للمسيح اليهودي » وهكذا أصبح انتقاد اليهود ثورة على الله ، ورفضاً للمسيح موجهاً لشعبه اليهودي ، ونحن نعلم أن هذا الشعب اليهودي ليس هو شعب المسيح ، فشعبه البشرية جمعاء التي حمل رسالته إليها في عصره ، وبشر برسالة محمد ﷺ .

ولا شك أن المبشرين لعبوا دوراً كبيراً في تكييف العلاقات بين العالم العربي من جهة ، والغرب من جهة أخرى فـ«اللنبي»[٢] قائد الحلفاء في الشرق أعلن صراحة ، عندما دخل القدس في الحرب العالمية الأولى ، بأنه حينئذ انتهت الحروب الصليبية ، والحقيقة أنها بدأت ولم تنته ، وهذا القائد الفرنسي غورو[٣] عندما دخل دمشق ذهب إلى قبر صلاح الدين وأمسك بعمامته وقال : «ها قد عدنا يا صلاح الدين»[٤] .

---

(١) مجلة تايم ٢٧ أيلول ، ١٩٣٦م ، ١٢ اكتوبر (تشرين أول) ١٩٦٤م .

(٢) اللنبي ، أدموند (١٨٦١-١٩٣٦): مارشال إنجليزي تولي قيادة القوات البريطانية في مصر وفلسطين (١٩١٧-١٩١٨م) خلال الحرب العالمية الأولى. احتل القدس (٩ ديسمبر ١٩١٧م) وبعد الحرب ، شغل منصب المندوب السامي البريطاني في مصر (١٩١٩-١٩٢٥م) موسوعة المورد العربية (١/ ١٢١).

(٣) القاسم ، أنيس: نحن والفاتيكان وإسرائيل ، ص١٧٠ .

(٤) إن الوقائع تشهد ، والتاريخ يسجل أن الحرب بين الشرق والغرب هي حرب دينية عقائدية ، فعلى الشرق أن يعي هذه الحقيقة ، ويدأب في التمسك بأهداب الإسلام ، لتحقيق المواجهة الحقيقة ، وإحراز النصر القريب .

ولا شك أن المبشرين كان لهم دور كبير في التأييد الذي لقيته الحركة الصهيونية من المتدينين في الغرب ، لأنهم يريدون كسر شوكة الإسلام واحتلال أراضيه ، يقول أحد المبشرين[١] : «إن كثيراً من المسيحيين يعتبرون الدين الإسلامي ديناً وثنياً متعصباً ، وأن تأييدهم لليهود وسيلة لمحاربة الوحدة الإسلامية العربية » ثم يقول «إن التمييز ضد المسلمين، الذي تولد من قرون من الصراع بين المسيحيةوالإسلام ، والقصص الخيالية عن الحروب الصليبية قد اختلطا بالجهل العميق بتاريخ فلسطين الحديث ، الأمر الذي قوى حماس المسيحي للقضية الصهيونية »[٢] .

وعندما نرى أن الكنيسة البروتستانتينية ، وكذلك الكاثوليكية تسعى لتصلح أخطاء الماضي مع اليهود معترفة أن اليهود ليس لهم دخل بصلب المسيح فأي تقارب هذا على حساب المسلمين؟ وأي تعارف واحترام متبادل وتعاون لخير الإنسانية الذي يقوم به النصارى بمختلف طوائفهم وكنائسهم ضد المسلمين؟ .

ومن أهداف المبشرين وأعوانهم : المطالبة والمناداة بانفصال الولايات عن الدولة العثمانية بما في ذلك فلسطين، وقد ساعد المبشرين في ذلك من تعلموا في مدارس الإرساليات التبشيرية ، تؤيدهم الدول الأوروبية التي كانت تحتضن مثل هذه الحركات لأغراضها الاستعمارية، وكان المبشرون في فلسطين يمهدون لحكم اليهود، وإقامة دولة يهودية على أرض فلسطين ، وإلغاء الحكم الإسلامي ، كيف لا؟ وهذا ما فعلوه في لبنان وسورية[٣] . وذلك عن طريق المناداة بالقومية العربية ،

---

(١) الفرد ليلنتال .

(٢) القاسم ، أنيس: نحن والفاتيكان وإسرائيل ، ص١٧١ .

(٣) منسي ، محمد صالح: حركة اليقظة العربية في الشرق الأسيوي ، ص٨٩-٩٦ .

ولعلها تقف في وجه دولة الخلافة العثمانية الإسلامية .

*** ومن الأهداف الدينية نخلص إلى :**

١- حماية النصارى من الإسلام[١] .

٢- إخراج المسلمين من الإسلام ، وجعلهم مسخاً لا يعرفون عوامل الحية القوية التي تقوم على العقيدة القويمة ، والأخلاق الفاضلة[٢] .

٣- بذر الشك والاضطراب في الدين الإسلامي ، وهذا ظهر في محاولات المنصر المعروف « زويمر » الذي خاض تجربة في البلاد العربية بعامة ، وقد أرسل رسالة إلى «شاتليه »[٣] عام ١٩١١م قال فيها « إن لنتيجة إرساليات التبشير في البلاد العربية الإسلامية ميزتين: ميزة تشييد ، وميزة هدم ، أو بالأحرى ميزتي تحليل وتركيب ، والأمر الذي لا مرية فيه هو أن حظ المبشرين من التغيير الذي أخذ يدخل على عقائد الإسلام ومبادئه الخلقية في نطاق دولة الخلافة الإسلامية ، هو أكثر بكثير من حظ الحضرة الغربية منه ، ولا ينبغي لنا أن نعتمد على إحصائيات التعميد في معرفة عدد الذين تنصروا رسمياً من المسلمين ، لأننا هنا واقفون على مجرى الأمور ، ومتحققون من وجود مئات الناس انتزعوا الدين الإسلامي من قلوبهم واعتنقوا النصرانية من طرف خفي[٤] .

ويعقب « شاتليه » على رسالة « زويمر » بقوله : « ولا شك أن إرساليات التبشير

---

(١) النملة ، علي بن إبراهيم: التنصير في الأديان العربية ، ص٣٤.

(٢) المرجع السابق نفسه ، ص٣٤.

(٣) العقيقي ، نجيب: المستشرقون،٣/ ١٣٨ وعد زويمر مبشراً أمريكياً ولكنه ذو أصل يهودي.

(٤) أ. شاتلية : أستاذ المسائل الاجتماعيـة الإسلامية في فرنسا ، وأحد كبار المنصرين المستشرقين .

من بروتستانتينية وكاثوليكية تعجز أن تزحزح العقيدة الإسلامية من نفوس منتحليها ، ولا يتم لها ذلك إلا ببث الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوروبية ، فبنشر اللغات الإنجليزية ، والألمانية ، والهولندية ، والفرنسية يحتك الإسلام بصحف أوروبة ويمهد السبل لتقدم الإسلام مادياً ، وتهدف إرساليات التبشير إلى هدم الفكرة الدينية الإسلامية التي تحفظ للأمة الإسلامية كيانها وقوتها ، وتعلم تلك الإرساليات: أن هذا الهدف لا يتم إلا بعزلة الأمة الإسلامية وانفرادها»[١] .

٤- الإيحاء بأن المثل والمبادئ النصرانية أفضل من الإسلام ، لتحل النصرانية محل الإسلام في مثلها ومبادئها .

٥- الإيحاء بأن التقدم الذي عليه الغربيون بفضل تمسكهم بالنصرانية ، بينما يعزى تأخر المسلمين إلى تمسكهم بالإسلام ، وهذا تناقض عجيب .

٦- ترسيخ فكرة قيام وطن قومي لليهود في أي مكان أولاً ، ثم في فلسطين المحتلة بعدئذ ، آخذاً في الحسبان أن الإنجيل:- (العهد الجديد بعد تحريفه بأيد يهودية) – يتضمن تعاليم تدعو إلى هذه الفكرة ، وأنها أصبحت واجباً مقدساً على النصارى[٢] .

٧- كذلك تعميق فكرة سيطرة الرجل الغربي ، وأنه يتميز عن غيره ، وترسيخ فكرة القومية ، وتعميقها لضمان التبعية ، السياسية من الشعوب والحكومات الإسلامية للرجل الأبيض حتى تتم سيطرة الغرب على مقدرات الشعوب المسلمة

---

(١) النملة ، علي إبراهيم: التنصير في الأدبيات العربية ، ص٣٥/ شاتلية ، الغارة على العالم الإسلامي ، ص٨-٩.

(٢) أبو حمدة ، محمد علي: الأخطبوط الصهيوني رأي العين ، ص١٠١-١٠٨.

والتحكم في مقدراتها وإمكاناتها .

٨- التغريب ، نعني بذلك نقل المجتمع المسلم بكل ما لديه من قيم وأخلاق ، وسلوكيات اجتماعية واقتصادية وأسرية إسلامية إلى تبني النمط الغربي في الحياة ، وهي مستمدة من خلفية دينية نصرانية ، أو يهودية وهذا ما قاله « سيرج لاتوش » في كتابه (تغريب العالم) : « إن تغريب العالم كان لمدة طويلة جداً عملية تنصير ، إن تكريس الغرب نفسه للتبشير بالمسيحية يتضح تماماً – قبل الحروب الصليبية – الأولى في إطلاقات التنصير قسراً ، وهكذا نجد أن ظاهرة المبشرين بالمسيحية هي بالتأكيد حقيقة ثابتة للغرب ، باقية في ضميره بكل محتواها الديني يجدها الإنسان دائماً في العمل تحت أكثر الأشكال تنوعاً ، واليوم كذلك نجد أن أغلب مشروعات التنمية الأساسية في العالم الثالث تعمل بطريق مباشر أو غير مباشر تحت شارة الصليب[١] .

٩- ومن أهدافهم الدينية التوسع ، حيث أخذت الكنائس تتوسع منذ العقد الرابع في القرن الماضي ، إلا أن الكنيسة الأرثوذكسية ظلت الأولى من حيث سعة أملاكها ، وذلك لكثرة ما قدم لها الروس من الدعم المادي ، «حيث للكنيسة الأرثوذكسية (٦٣١) عقاراً في عهد الإدارة العسكرية البريطانية مختلفة الأحجام ، معظمها داخل سور القدس ، ولها أملاك في يافا ، ولها أرض زراعية خصبة ، وقد بلغت إيجارات بناياتها ١٥٨٢٧جنيه في السنة وكان مقابل ذلك ٢٩٪ من السكان

---

(١) نشر كتاب « سيرج لاتوش » (تقريب العالم) في باريس عام ١٩٨٩م ، نقل عنه أحمد عبد الوهاب لبعض المقتطفات ، انظر أحمد عبد الوهاب التغريب ، طوفان من الغرب ص١٣ ، مكتبة التراث الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٩٠م .

المسلمين لا يملكون أرضاً[١] .

١٠- ومن أهدافها - أيضاً والحديث هنا عن الإرساليات الألمانية وجماعة الهيكل الألمانية (Templer) - إنشاء المستعمرات لضرورات اقتصادية ، وذلك لمحاربة الأديرة التابعة للكنائس الأخرى ، ولهذا فقد ربط المستعمرون الألمان بين استصلاح الأراضي المقدسة في فلسطين - عن طريق شراء الأرضي - وإقامة المستعمرات ، وأن هذا سوف يؤدي إلى تحريرها من سيطرة المسلمين « الكفرة » ، كما أنهم رأوا أن الدولة العثمانية كممثلة للقوى الإسلامية تجاه الغرب على وشك الإنهيار ، وأن هذا دليل على قرب اندحار الإسلام ، ولهذا أخذوا يتسابقون مع غيرهم من الإرساليات الأوروبية الأخرى في عملية شراء الأراضي ، وإقامة المستعمرات إلا أن الله رد كيدهم في نحورهم ، حيث انهارت تركيا بعد الحرب العالمية الأولى كقوة سياسية ، أما الدين ولله الحمد فهو باق إن شاء الله إلى قيام الساعة .

وأما استصلاح الأراضي ، فظل في نطاق ضيق جداً ، اقتصر على المناطق التي سكانها الألمان ، وكان تأثير ذلك على السكان ضعيفاً لأنهم يحاولون استقطاب العديد من الناس للعمل بالزراعة ومن ثم التأثير عليهم[٢] .

ويمكن القول : إن هذه الأهداف تمثل مجمل ما يسعى إليه المنصرون في فلسطين وغيرها من الديار الإسلامية،وهناك أهداف فرعية مشتقة من هذه الأهداف يسعى المنصرون إلى تحقيقها والتركيز عليها حسب ما تقتضيه البيئة التي يعملون بها ، وإذا

---

(١) علوشي ، ناجي: المقاومة العربية في فلسطين (١٩١٧-١٩٤٨م) ، ص١٦ .

(٢) سنو ، عبد الرؤوف: المصالح الألمانية في سورية وفلسطين (١٨٤١-١٨٩٨) ، ص٨٨.

لاحظنا اندفاع بعض المبشرين بالحماس والعاطفة في إنقاذ العالم ندرك أن الرغبة في تحقيق أهداف احتلالية استعمارية ، أو أهداف سياسية غير واردة عندهم ، لأنهم يؤمنون أن دولهم دول علمانية لا تأخذ من الدين إلا ما يخدم أهدافها ، وسياستها في الداخل والخارج ، وهؤلاء الجماعة عندما يجدون الحق أو الحل البديل لإصلاح يمكن الناس في الإسلام سرعان ما يعلنون إسلامهم ويصبحون دعاة للإسلام(١) .

نلاحظ كيف يخططون في التوسع على حساب أرض المسلمين في فترات الفقر والضعف ، وكم هم العمال الذين يعملون ويتقاضون راتبهم آخر الشهر من الكنيسة ، وما هي العلاقة التي ستكون بينهم وبين رجال التبشير في الكنائس .

* * *

(١) النملة ، علي بن إبراهيم : التنصير في الأديان العربية ، ص٣٦.

المبحث الثالث
الأهداف الاجتماعية

١- التعليم . ٢- نشر الفساد . ٣- الاهتمام بالمرأة .

٤- أهداف اجتماعية أخرى ، وسأقوم باستعراضها .

١- التعليم :

أما أهدافهم الاجتماعية فقد اهتمت المدارس والإرساليات في تغيير القيم الإسلامية ، وإيقاظ الحركة القومية ، وإثارة الفتن ، وسأعرض هنا لعدد من المدارس الأجنبية ففي إستانبول في عام ١٩٢٢م بلغ عدد المدارس الفرنسية ما يقارب (٣١) مدرسة ، والأمريكية (١٠) مدارس ، والإيطالية (٩) مدارس ، والإنجليزية (٣) مدرس[١] . أما المدارس غير الإسلامية في الشام فهذه إحصائية توضح ذلك ، عام ١٣٠٣هـ-١٨٨٦م - ففي لواء لبيروت :

المكان	مدارس عادية		مدارس عالية	
	ذكور	إناث	ذكور	إناث
بيروت	٣٥	٣	٤٧	٢٣
صيدا	٣	-	-	-
صور	٦	-	١	-

نلاحظ كيف تزيد هذه المدارس في العاصمة حيث الكثافة السكانية وتقل في

(١) صابان ، سهيل: المؤسسات التعليمية الأجنبية في نهايات الخلافة العثمانية في استانبول ، ص٤٨٦.

المدن الأخرى الواقع أن نمو المدارس والإقبال عليها خلال هذه الفترة كان بطيئاً جداً بسبب الفقر الشديد الذي كان يعاني منه السكان وكذلك إهمال شئون التعليم.

وفي فلسطين كالتالي :

المكان	مدارس عادية		مدارس عالية	
	ذكور	إناث	ذكور	إناث
نابلس	٥	٤	-	-
عكا	١٠	-	-	-
الناصرة	١٥	١	-	٣
حيفا	٥	١	١	- (١)

نلاحظ أن عدد الخريجين قليل جداً .

ونلاحظ زيادة هذه المدارس في المناطق التي يتواجد بها النصارى أكثر من غيرها فمدينتي الناصرة وعكا فيها تجمع كبير من النصارى حيث لعبت هذه المدارس دوراً بارزاً في محاولة طمس الهوية الإسلامية ، ووصفها بالجمود والتأخر ، وفي تمجيد حضارة الغرب ، وإبعاد أجيال المسلمين عن لغتهم وثقافتهم وتعليمهم العادات الغربية والتقاليد البعيدة عن عقيدتهم من خلال وسائل التعليم ، وذلك بتعليمهم اللغات الأجنبية المختلفة دون التركيز على اللغة العربية لغة القرآن ، وخاصة الفرنسية ، والبريطانية ، ليتمكنوا من تمثل الفكر الأوروبي ، وكان لهذه المدارس أثر بارز في نشر العادات الغربية بين المسلمين ، وظهر ذلك عن طريق إرسال الطلاب العرب ببعثات إلى أوروبا ليعودوا وهم يحملون العادات والتقاليد الغربية ، حتى غدا تقليد الغازي البريطاني أو الفرنسي تقدماً ومدينة سواء في لباسهم

(١) عوض ، عبد العزيز : الإدارة العثمانية في ولاية سورية ، ص٣٦٨ ، ٣٩٦.

أو طعامهم ، أو احتفالاتهم .

منذ عام ١٨٧٥م وجهت الجمعيات التبشيرية اهتمامها إلى سورية وأنشأت مراكز طبية في غزة ونابلس وغيرها من المدن في سورية وفلسطين ، وكان لهم أطباء متجولون يزورون القرى ثم يتابعون مرضاهم ، وإذا عرفنا أن كثيراً من الأطباء البروتستانت ما جاؤوا إلا حباً في التبشير لا للتطبيب ، لأنهم أحدثوا في بلاد المسلمين أضراراً تفوق ما قدموه لهم علاج ، فهم أطباء في الظاهر أما في الباطن فكان ضررهم على البلاد يزيد أو ينقص بحسب الاستعداد الشخصي لكل واحد منهم ، بحسب الفرص التي تسنح له[1] . وإذا كان للأطباء مستشفى أو مستوصف فإن مهمته تزيد ، وفرصة التبشير تكون أكبر ، لذلك كان حرصهم كثيراً على إقامة المستشفيات ، والمصحات ، والمستوصفات من أجل هذا الغرض .

ومن الأهداف أيضاً ، أن المدارس المسيحية لها رسالة تؤديها ، ولرسالتها غاية قصوى ، هي أن تجعل الشعوب كلها في المستقبل تابعة للكنيسة ، من أجل ذلك كله ترفض هذه المدارس – وفي فلسطين خاصة – أنتقيد بالمنهاج الرسمي للبلاد ، حيث إن تتقيد هذه المدارس بالمناهج الرسمية يفقدها صفتها التبشيرية المسيحية ، ويجعلها مدرسة في عداد المدارس الوطنية ، فتبطل الغاية من وجودها[2] .

وهكذا ، نرى أن الأجانب يأتون إلى بلادنا باسم العلم ونشر العلم ، لكنهم مبشرون بالدرجة الأولى ، وكل المبشرين متفقون على أن التعليم أفضل الطرق غير المباشرة في الدعوة إلى النصرانية ، لذلك لا تستغرب ارتباط هذه المدارس

---

(١) الخالي ، مصطفى ، عمر فروخ: التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص٦١ .

(٢) المرجع السابق نفسه ، ص٦٩ .

والجامعات بالإرساليات للتعليم في مدارسهم والعمل في مكاتبهم توسيعاً لحركة التبشير ، ويرون أن المبشر الأول هو المدرسة ، لذلك يسعون إلى افتتاح المدارس حتى يتصل المبشر بالناس ، ويدعوهم إلى مذهبه الديني ، ويعملون على أن يكون جميع المدرسين من المبشرين ، وإن عجزوا استفادوا من بعض أبناء الأسر المعروفة ، وتم اختيارهم من القدس ، أو نابلس ، وغيرها من المدن .

ناهيك عن مناهج التعليم التي تصب جام غضبها على القرآن ، والإسلام ، ورسوله ﷺ وهناك بعض الأمثلة على مناهج التدريس . انظر إلى كتاب عنوانه : «تاريخ فرنسا » تأليف « هـ. غيومان وف. لوستير » للصفوف النهائية الابتدائية ، - هذا الكتاب يدرس في مدارس القديس يوسف للبنات - جاء فيه « إن محمداً مؤسس دين الإسلام قد أمر أتباعه أن يخضعوا العالم ، وأن يبدلوا جميع الأديان بدينه هو ، ما أعظم الفرق بين هؤلاء الوثنيين وبين النصارى ، إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة ، وقالوا للناس أسلموا ، أو موتوا بينما أتباع المسيح ربحوا النفوس ببرهم وإحسانهم ، ماذا كانت حال العرب لو انتصروا علينا ؟ إذا لكنا نحن اليوم مسلمين كالجزائريين ، والمراكشيين »(١) .

ومن سياسة المبشرين إقامة الاجتماعات التي تلقى فيها الخطب ، وتقام فيها المناظرات والمجادلات ، وكذلك بناء كنيسة بجانب كل مدرسة ، وهم يعملون على دراسة مشاكل الشباب المختلفة ، والنفاذ إلى نفسياتهم لاجتذابهم إلى أديانهم ومذاهبهم ، وإذا لم يستطع المبشرون ذلك فما عليهم سوى توجيه الشباب توجيها مسيحياً. وللتعليم عند المبشرين غاية واحدة هي تنصير التلاميذ الذين يحضرون إلى

---

(١) عكاشة ، إبراهيم: ملامح التنصير في الوطن العربي ، ص٢٤٨.

المدارس ، وهذا ما يؤكده «ميجونز» في قوله : « في الكلية الإنجليزية في القدس والتي فيها طلاب مسلمون ، ونصارى ، ويهود ، وكانت السياسة المدرسية أن تبشرهم جميعهم ، ولكن المقصود بالدرجة الأولى المسلم أولاً »[1] .

وقد استغل المبشرون التعليم ، لأنه ذو أثر فعال ، وهو من أقوى وسائل التبشير، لهذا بدأوا بإنشاء المدارس ، وخاصة البدء مع الأطفال ، وبهذا يخرجون أبناء المسلمين الصغار من عناية واهتمام المدارس المسلمة ، ويركزون على رياض الأطفال لأنها تساعد على الاتصال بالأهل ، ويجعلون المدرسين من الراهبات ، لأن الصغار فسائل تغرس فيها كل ما يريده المبشر ، فيجب العناية بها عناية خاصة ، وتعويدهم دخول الكنيسة وحضور الصلوات .

ولم يغفل المبشرون عن مدارس البنات وعن التعليم النسائي ، حيث أولوا ذلك عناية فائقة ، لما للمرأة من أثر بالغ في التربية ، حيث فتحوا العديد من المدارس في القدس ، ويافا ، وبيت لحم ورام الله .

وقد نشط المبشرون في إيجاد الأندية للاعتناء بالتعليم الرياضي ، وأعمال الترفيه ، وحشد المتطوعين لمثل هذه الأعمال ، وربما « جمعية الشبان المسيحيين » و « جمعية الشابات المسيحيات » في القدس ، قد نصبتا من نفسيهما معايير للوصول إلى الشباب المسلم والشابات المسلمات ، كما قلنا في النواحي الرياضية من غير أن يفطن الشباب إلى الغرض التبشيري.وربما استغل المبشرون الشعارات البراقة مثل « الرفق بالحيوان » ، « الطفل للمدرسة لا للعمل » ، « إنصاف العمال » ، كل هذا مجرد أفكار تطرح ، والحقيقة والواقع الذي يعيشونه غير ذلك ، من القتل ، والتشريد للإنسان

---

(١) عكاشة ، إبراهيم: ملامح التنصير في الوطن العربي ، ص٢٨٨.

والحيوان ، ولكن ذلك كله للتسلل بالتبشير إلى المجتمعات المسلمة(١) .

وقد استغل المبشرون أسلوب توزيع المعونات والإحسان إلى الفقراء ، والتعليم المجاني ، وهبة الثياب والكتب ، وقد أنشئت لهذا الغرض جمعيات منها: جمعيات المتطوعين والخدمة الاجتماعية على غرار تلك التي في مصر ، ويبدوا أن الإرساليات الكاثوليكية أكثر استخداماً للإحسان في سبيل التبشير ، وهذه « الإرساليات » تتبع أسلوب الإحسان المادي ، والعناية بالمرضى ، والتعليم ، وما أشبه ذلك ، ويندر أن يستخدم التبشير بطريقة مباشرة مع المسلمين(٢) .

وكذلك البروتستانت ينظرون إلى الإحسان وتوزيع الإعانات بأنه مهم ، وليس عجيباً أن تتولى الإرساليات مهمة التوزيع نيابة عن الدول المتبرعة ، كيف لا؟ وإن المبشرين هم عيون دولهم ، بل وسيلة الاستعمار الأولى ، فقد كتب «صموئيل زويمر» صاحب مجلة «العالم الإسلامي» مقالاً في مجلته عنوانه «استخدام الصدقات لاكتساب الصابئين» والمقصود استخدام الإحسان في سبيل التبشير المسيحي(٣) .

٢- نشر الفساد :

مما لا ريب فيه أننا أصبحنا مقتنعين بأن التبشير ظاهراً وباطناً من أساليب المستعمرين ، وأن المبشرين يتوسلون بظاهرة الأعمال الاجتماعية إلى باطن التبشير الاستعماري،فما مؤتمرات الطلاب ، والألعاب الرياضية المختلفة ، وبيوت الطلبة ، وملاجئ الأطفال ، ونشر المجلات وتوزيعها سوى مظاهر تحمل في طياتها إفساد

---

(١) الخالدي ، مصطفى ، فروخ عمر: التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص١٩٢ .
(٢) المرجع نفسه ، ص١٩٥ .
(٣) الخالدي مصطفى ، فروخ ، عمر: التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص١٩٥ .

الشعب المسلم ، فمنذ الاحتلال البريطاني لفلسطين اتسع التبشير البروتستانتي ، وأخذ المبشرون يستخدمون كل شكل من أشكال التبشير استخداماً فعالاً من ذلك التبشير الفردي والجماعي .

وكذلك التعليم المختلط الابتدائي والثانوي ، حتى أصبح في فلسطين ، إحدى وأربعون مدرسة فيها أربعة آلاف وثمانمائة تلميذة ، وبعد ذلك النشاطات التي تقدمها جمعية الشبان المسيحية ، وجمعية الشابات المسيحيات ، وهدف هذه الجمعيات الرئيسي تنشئة الشباب على أسس مسيحية .

ومن المفاسد التي ينشرونها : شرب الخمر ، والدعارة بأشكالها ، وتشجيع الحفلات والرقص والغناء ، وكثيراً ما كانت الخمر تشحن من إنجلترا إلى الإمبراطورية العثمانية لتفتك بهذه الشعوب ، والإنجليز قديمون في صناعة الإفساد الخلقي ، وما حرب الأفيون بين بريطانيا والصين إلا دليل واضح على ذلك ، حيث تم تهريب الأفيون إلى الصين ، وهكذا فرض الإنجليز هذا السلاح المدمر بقوة على أهل الصين تنفيذاً لخطة أرادها الاستعمار[١] .

٣- الاهتمام بالمرأة :

علم المبشرون ما للمرأة من أهمية في المجتمع ، لذلك أرادوا الوصول إلى المرأة المسلمة عبر الجمعيات ، كجمعية الشابات المسيحيات ، إضافة إلى فتح مدارس التبشير أمام الطالبات المسلمات ، وكذلك المعاهد المعدة للفتيات خاصة[٢] .

---

(١) فهمي ، عبد العزيز: الاستعمار عدو الشعوب ، ص١٩ .

(٢) الجندي ، أنور: الإسلام في وجه التغريب ، ص١٨٣-١٨٤ .

ويصفق المبشرون كثيراً عندما تخرج المرأة المسلمة عن دينها ، ومن بيتها ، وتنزع الحجاب ، لهذا حرص المبشرون على إحضار المبشرات ليصلن إلى النساء المسلمات ، واهتموا بذلك اهتماماً كبيراً ، ووضعوا لذلك البرامج المختلفة ، وما المؤتمر الذي عقد بالقاهرة عام ١٩٠٦م والذي جاء فيه : «لا سبيل إلا بجلب النساء المسلمات إلى المسيح ، إن عدد النساء المسلمات عظيم جداً لا يقل عن مائة مليون ، فكل نشاط للوصول إليهن يجب أن يكون أوسع مما بذل إلى الآن ، نحن لا نقترح إيجاد منظمات جديدة ، ولكن نطلب من كل هيئة تبشيرية أن تحمل فرعها النسائي على العمل ، واضعة نصب أعينها هدفاً جديداً هو الوصول إلى نساء العالم المسلمات في هذا الجيل»[١] .

ومن هنا أخذ المبشرون يوجهون الاتهامات للإسلام والمرأة المسلمة بالذات ، واصفين نساء المسلمين بالتخلف ، والتأخر ، وعدم التحرر ، إلا إذا دخلن في النصرانية ، ويبشرون أن المرأة المسلمة تخاف من زوجها، ومن الطلاق ، كل ذلك لإثارة المرأة المسلمة ، ولكي تطالب بحريتها وحقوقها ، وأن يكون الطلاق بيدها لا بيد الزوج ... إلخ[٢] من أمور ومفاسد ينشرها من يدعون الدين كالمبشرين ،

---

(١) الخالدي ، مصطفى ، فروخ ، عمر: التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص٢٠٤.

(٢) لقد حرض أعداء الإسلام المرأة تحريضاً خاصاً ، فأثاروا الشبهات في وجهها ، وجعلوها تعلق الآمال على الفكر الجديد ، المفعوم بالسموم والكذب والغش والتحايل ، وهذا النفوذ أعطى نتائج مذهلة ، وأفرز تلقفاً غير متوقع حتى من قبل المخططين. وكانت الصهيونية العالمية لها دور كبير في نصب الشباك وإيهام الآخرين ، وتلقين السذج مفاهيم ضالة وأفكار عفنة. جاء في البرتوكول التاسع من «بروتوكولات حكماء صهيون» : «ولقد اخترنا الجيل الناشئ من الأميين ، وجعلناه فاسداً متعفناً ، بما علمناه من مبادئ ونظريات ، معروف لدينا زيفها التام ، ولكننا نحن أنفسنا الملقنون لها . بروتوكولات حكماء صهيون (١٤٧) .

واستمروا في تضليل النساء ، وبدعوتهم هذه ، انظر إليهم في مؤتمر قسطنطينية بالجزائر ، إذ قالوا :« إن الحاجة الملحة المستعجلة إنما هي إنشاء بيت أو بيوت للفتيات المطلقات وللأرامل الصغار ، ألا تكون كبيرة ، بل يخيم عليها الجو العائلي ، وأن يكن خلال ذلك تحت تأثير الإنجيـل ، ثم تختار منهن من يقمن بدور المبشرات»[(١)].

وتشجيع الشبان على الزواج من الفتيات الأجنبيات المسيحيات للغرض التبشيري نفسه ، مستغلين أن الدين الإسلامي يبيح ذلك[(٢)] .

وهذه الأندية والبيوت التي تقام ليست إلا لإحياء الحفلات ، وليالي أنس وسمر وأسباب تسلية للشباب ، والمقصد من ذلك هو أن تجتذب من يستمع لمبشر إنجليزي أو فرنسي أو هولندي ، ليجيد تقليد الغرب ، وحبهم .

٤- ومن أهدافهم الاجتماعية الأخرى :

١- بعثات التعليم الصناعي .

٢- بعثات الإغاثة .

٣- بعثات التطيب .

---

(١) الخالدي ، مصطفى،فروخ ، عمر: التبشير الاستعمار في البلاد العربية،ص٢٠٥.

(٢) للزواج بالكتابيات – النصارى واليهوديات – عدة مخاطر ومحاذير ، وقد أشار الدكتور وهبة الزحيلي إلى بعضها ، فقال : « في الزواج بالكتابيات – بالأولى الحربيات – مضار اجتماعـية ، ووطنية ، ودينية ، فقد ينقلن لبلادهن أخبار المسلمين ، وقد يؤدي الزواج بهن إلى إلحاق ضرر بالمسلمات بالإعراض عنهن ، وقد تكون الكتابية منحرفة السلوك. الفقه الإسلامي وأدلته ٠٧/ ١٥٤).

١- بعثات التعليم الصناعي والتدريب المهني من خلال إنشاء المدارس ومراكز التدريب والورش للشباب والشابات، تستقطب إليها الطاقات، وتخضع لبرامج نظرية فيها دروس حول الثقافة، والمجتمع، والدين، والآداب المبسطة التي تنفذ من خلالها التعاليم النصرانية.

ومن ذلك إسناد الإشراف على المراكز والمدارس المهنية المحلية إلى إدارات أجنبية، ويقوم على التدريب فيها منصرون بلباس الفنيين والمدربين.

وهذا وقد كثرت المدارس الصناعية التي تخدم هذا الغرض في فلسطين، ومنها دار الأيتام السورية وكانت تابعة لإرساليات الألمانية، وتعد أشهر مدرسة مسيحية تولت مهمة التعليم الفني كصناعة الفخار، والنجارة، والصناعات الجلدية، والخزفية[١] وكذلك مدرسة النسيج في بيت جالا كانت تابعة لعصبة النساء الكاثوليكيات والمدرسة الصناعية للبنات تقع بمدينة القدس، وتتبع للإرساليات الأمريكية[٢].

٢- بعثات الإغاثة، إذ يهب الجميع رجالاً ونساء وصغاراً وكباراً، يجلبون معهم المؤن،والملابس، والخيام، وغيرها، ويقدمونها على أنها نعمة من عيسى عليه السلام سواء كان هذا الإيحاء واضحاً بالرموز والشعارات، أو بطريق خفي، ومعلوم الآن أن ميزانيات المنصرين في هذا المجال تخطت ثمانية عشر مليار دولار سنوياً (١٨,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) ولو حصرت ميزانيات هيئة الإغاثة الإسلامية لما وصلت إلى مليار واحد (١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) سنوياً.

---

(١) العارف، عارف: المسيحية في القدس، ص ١٧٦.

(٢) القشطان، عبد الله: التعليم في فلسطين، ص١٠١.

٣- بعثات التطبيب التي يبدو ظاهرها الإسهام في مجالات الإغاثة الطبية والصحية ، وتعمل على خدمة التبشير من خلال إنشاء المستشفيات والمستوصفات والعيادات المتنقل،وتعمد إلى تشغيل فتيات المجتمع ممرضات ومشرفات اجتماعيات يتمشين مع سياسة هذه المؤسسة،وتستغل البعثات التبشيرية إجراء التجارب على بعض الأدوية التي تصرف من إدارة الأغذية والأدوية الأمريكية (FDA) ، والتي ترفض إجراءها على المجتمع الأمريكي ، وكذا الأوروبي فيؤتى بها إلى المناطق العربية – وخاصة فلسطين – فتجري فيها التجارب ، ومع أن هذا ليس هدفاً للمبشرين ، ولكنهم لا يمانعون من القيام به[(١)] .

ومن الأهداف الاجتماعية التي بثها المبشرون عبر مدارسهم ومعاهدهم أحاول تلخيصها بما يلي :

١- تشويق وتحسين القيم الغربية ، والعادات ، والتقاليد إلى نفوس المسلمين وخاصة الطلاب ، ومحاولة منهم لتغيير القيم الإسلامية .

٢- محاولة تفكيك الأسـر ، تلك الأسر التي يعتز بها الإسلام والقائمة على الترابط والوحدة وصلة الرحم ، وتحويلها إلى النظام الغربي المفكك .

٣- إيقاظ الحركة القومية بين مختلف شعوب دولة الخلاف العثمانية .

٤- تشويق الطلاب إلى الاهتمام بالمظاهر الخارجية البراقة ، وبخاصة مجتمعات النساء ، مع التركيز على النظرة المادية للحياة ، وأنها أسمى ما ورد في الوجود .

٥- تشجيع الاختلاط وتسهيل أمره بين الجنسين ، إذ تعلم الطلاب في هذه

---

(١) خالد ، مصطفى ، فروخ ، عمر : التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص٦٠.

المدارس الاختلاط أدى إلى الانحراف ، وقتل الغيرة لدى أبناء المسلمين ، وللأسف انتقلت هذه العدوى للمدارس الوطنية أيضاً .

٦- إثارة أن الحجاب رجعية[١] وتخلف وظلم للمرأة ، وعلى المرأة أن تطالب بحقوقها ، ومن تلك الحقوق الحرية ، ونزع الحجاب ، وأنه لا يلائم العصر[٢] .

٧- ترسيخ فكرة أن التخلص من الدولة العثمانية تخلص من الاستبداد والظلم في أذهان الطلاب.

ومن أهداف المبشرين الخطرة : اهتمامهم برياض الأطفال ،إذ جعل بعض المنصرين رياض الأطفال القاعدة التي يعتمد عليها القائمون على نظام الإرساليات التعليمية ، لأن التعليم في رياض الأطفال مهم جداً ، حيث يتلقى الأطفال التعاليم الدينية وعقولهم غضة ، ويكون التنصير سهلاً دون مقاومة من الأطفال .

ويعد نظام الإرساليات : أن الأطفال دون سن السابعة القاعدة التي يعتمد عليها في التنصير ، وكان الاهتمام بالمرحلة التمهيدية ، أو ما يسمى برياض الأطفال ، ويتمثل هذا الاهتمام بتوفير الوسائل التعليمية كافة ، وفتح العديد منها أمام أبناء المسلمين خاصة ، والعمل على جذب الأطفال من خلل الهدايا التي يقدمونها ، أو الجوائز التشجيعية ، أو العطف على الأطفال والشفقة عليهم ، وكانت المدارس

---

(١) العابدين ، محمد زين: نشأة العلمانية ودخولها إلى المجتمع المسلم ، ص٩٥.

(٢) من المنادين بالسفور وخلع الحجاب وتحرير المرأة : قاسم أمين في كتابه : «تحرير المرأة» الذي صدر عام (١٨٩٩م) ، ولما تولى سعد زغلول زعامة الشعب في مصر عام (١٩١٩م) اشترط على السيدات اللوائي تحضرن لسماع خطبه أن يزحن النقاب ، وكانت هذه أول مرحلة عملية للسفور. انظر: جريدة الجمهورية في عددها الصادر في (٢٠/ ٤/ ١٩٨٧م) .

الابتدائية وما يتبعها من رياض الأطفال تسير وفق نظام البلد المؤسس أو الممول ، وليس لدولة الخلافة العثمانية أي تدخل في هذه المدارس وشؤونها ، فالمدارس الفرنسية كانت مدة الدارسة بها أربع سنوات ، أما الإيطالية فكانت خمس سنوات ، والرسمية ست سنوات ، وهكذا.

وقد بذل المنصرون جهوداً مضنية من أجل فتح المدارس ، وكانت الحاجة ماسة لها ، وذلك لتزايد أعداد المقبلين عليها ، وبعد ذلك يتولى أمور هؤلاء الطلاب الرهبان بلباس مدني ، وأما الآثار الناجمة عن ذلك فقد كان المبشرون حريصين على إفساد طائفة كبيرة من الطلاب ، حيث كانت هذه المدرسة تمثل المحطة الأولى لغرس الأفكار التي ظهرت في تلك الفترة ، وما يعقبها من تلقين المبادئ اللادينية وغيرها[١] .

* ومن أهدافهم الاجتماعية:

السيطرة على كثير من المواقع المهمة ، والتي يسهل العمل من خلالها ، وهي في مجال الخدمات العامة امتلاك الكثير والعديد من الفنادق مثل :

- الفندق الألماني المعروف باسم :« هوتيل جرمانيا » وقد امتلكه الخواجا « فريدرك هنرل شفرتس » وهو ألماني المولد ، والذي قدم إلى الناصرة عام ١٨٧٩م من مستعمرة حيفا الألمانية ، وقد عمل نجاراً، وكان هذا الفندق يتسع لستين زائراً .

- « الكازاوفا » أي : الدار الجديد للرهبان الفرنسيسكان ، ويقع مقابل ديرهم ، وقد وضع في صدر القاعة في الطابق السفلي على بلاطة رخام ما تعريبه : تم بناء

---

(١) منصور ، أسعد: تاريخ الناصرة ص٩٢.

الدار الجديدة عام ١٨٩٤م ، من حسنات المحسنين من أمريكا الشمالية. وكان هذا الفندق يقبل الزوار بأجرة تعادل أجرة المنزل الألماني ، وظل إلى نشوب الحرب العالمية الأولى مجهزاً بأفخر الأثاث والآنية ، ولكن الحرب العالمية الثانية عصفت بهذا كله[١] .

- « فندق فيكتوريا » ، للخواجة « نعمة صفوري » في بيت مستأجر ، وهو أرضية ثانية.

- فندق الناصرة الجديدة ، وهناك العديد من الخانات مثل :« خان الكاثوليك » بجوار كنيستهم في الناصرة ، و «خان فريدك هيزل شفرتس» ، في مدخل الناصرة ، بيع إلى « شنلر » فيما بعد .

ومن أهدافهم أيضاً أن يفتح باب الهجرة على مصراعيه، لدخول من يشاء من المبشرين أو اليهود ، مما أدى إلى استفحال أمر البطالة أمام آلاف العرب العاطلين ، وذلك بحلول العامل اليهودي محل العامل العربي المسلم ، وجراء ذلك تسرب إلى هذه البلاد المسلمة الكثير من المبادئ الخطرة كالشيوعية ، والإباحية ، والإلحاد[٢] .

ومن جملة الأهداف : تقوية العلاقات التجارية مع سورية وفلسطين خاصة بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩م ، وهذا كان مرتبطاً باتصال بحري ألماني مباشر مع الموانئ في سورية وفلسطين ، وليس عن طريق إرسال البضائع الألمانية بوساطة السفن الأوروبية وبالتالي تحميل البضائع مصاريف باهظة ، (لحماية المصنوعات المحلية الأوروبية من المنافسة في الأسواق الخارجية. كانت تفرض تعريفات نقل

---

(١)منصور ، أسعد: تاريخ الناصرة ، ص٢١٣.

(٢) شبيب ، سميح: حزب الاستقلال العربي في فلسطين ١٩٣٢-١٩٣٣م ، ص١٠٦.

باهظة على مصنوعات الدول الأخرى المارة في أراضي تلك الدول) . مما يؤدي إلى ارتفاعها في الأسواق الشرقية ، ويفقدها القدرة على المنافسة مع البضائع الأوروبية الأخرى ، ولهذا جاء إنشاء خطوط الملاحة الألمانية الشرقية عام ١٨٨٩م (Deutshe Line levante) ، وما إن حل عام ١٨٩٧م حتى تم تأسيس بنك فلسطين الألماني في فلسطين ومدن سورية أخرى من قبل جمعيات دينية تبشيرية ألمانية ، بروتستانتينية وكاثوليكية عاملة في فلسطين ، ويمثل الربع الأخير من القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى ذروة النفوذ الألماني في دولة الخلافة العثمانية (١) وكما هو معروف فإن المستشار الألماني بسمارك ، رأى الابتعاد عن المسألة ، خشية أن يؤدي ذلك إلى إخلال في التوازن الأوروبي الذي كان حيوياً لألمانيا .

ولكن عند نهاية عهد «بسمارك»(٢) ، واعتلاء «الإمبراطور فيلهلم الثاني» عرش ألمانيا ، أصبحت سياسة الزحف نحو الشرق – بأبعادها السياسية والاقتصادية – محور السياسة الألمانية الجديدة ، وبذلك أخذت ألمانيا بالتدخل لحماية رعاياها في سورية وفلسطين ، ومناهضة النفوذين الفرنسي والبريطاني ، وتمثل رحلة « فيلهلم الثاني » لفلسطين عام ١٨٩٨م قمة في النفوذ الألماني في المنطقة والصراع مع فرنسا على حماية كاثوليك الشرق(٣) .

---

(١) سنو ، عبد الرؤوف : المصالح الألمانية في سورية وفلسطين: ١٨٤١-١٨٩٨م ، ص٩١.

(٢) بسمارك Bismarck (١٨١٥-١٨٩٨م) : من مشاهير السياسيين الألمان ، وأحد الذين حققوا الوحدة الألمانية ، وجعلوا ألمانيا في مقدمة الدول الاستعمارية في القرن (١٩) [المنجد في الأعلام(١٣٢)].

(٣) سنو ، عبد الرؤوف: المصالح الألمانية في سوريا وفلسطين: ١٨٤١-١٨٩٨م ، ص٩٢.

الفصل الخامس

آثار المبشرين في فلسطين

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: آثارهم في مناهج التعليم .

المبحث الثاني : آثارهم في المدارس والكليات .

المبحث الثالث : آثارهم في المستشفيات والمصحات .

المبحث الأول
آثارهم في مناهج التعليم

كان لانتشار التعليم الغربي آثار سيئة ، وكان هذا التنوع نفسه في مناهج التعليم شراً جديداً في بلاد كانت فريسة للانقسامات الداخلية ، وذلك لأن بعض البعثات التبشيرية أصبحت أداة لمطامع السياسة ، فاختلطت مساوىء المنافسة الدولية وشرورها بحسنات التعليم ونعمه[١].

وعلينا أن نلاحظ أنه كان يطبـــق في فلسطين نظامان واضحان ومختلفان للتعليم:

أحدهما : نظام التعليم الذي تشرف عليه الدولة العثمانية ، ويسري على المسلمين من رعاياها.

والثاني : نظام التعليم الطائفي والأجنبي التابع للأقليات الدينية ، وكانت تشرف عليه الإرساليات التبشيرية وتتلقى المساعدات اللازمة لها من الدول الأجنبية[٢].

ويمكن القول إن التعليم الطائفي والأجنبي قاما بدور مهم في تفتيت وحدة الفكر الإسلامي باسم الطائفية ، وعرقل وضع أسس تربوية واحدة لبناء جيل فلسطيني موحد الفكر ، والقيم والغايات ، وكان له أثره فيما أصاب فلسطين فيما بعد من ضعف وتمزق.

---

(١) ياسين هلال : الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين ، ص ٨٥.

(٢) انطونيوس ، جورج : يقظة العرب ، ص ١٦٤.

وقد استمر هذا النظام أثناء الانتداب البريطاني ، حيث أعلنت الإدارة العسكرية : (أن القوانين ستبقى في الوقت الحاضر دون تغيير ، وأنها ستطبق القوانين العثمانية المعمول بها ، مع التعديلات اللازمة)[1] .

فقامت مثلاً بإلغاء مجلس المعارف في القدس وحولته إلى إدارة معارف ، تولاها موظف بريطاني حل مكان إسماعيل الحسيني الفلسطيني.

ولقد بذل المبشرون الإنجليز كل ما في وسعهم لصبغ الحياة العامة بصبغتهم وطبع التعليم العام بطباعتهم مادة ولغة وتاريخاً ، فمنذ اللحظة الأولى سعوا إلى محاربة الفصحى ، بل روجوا لتكون العامية لغة تعليم ، وكتابة وتأليف[2] إضافة إلى العناية بتاريخ الإنجليز والعناية به عناية فائقة. وكان المستعمر يفرض ذلك فرضاً لينطلق إلى عقول النشء حتى يشدها بعظمته وقوته ، فتؤمن به ، وتصاب بعد ذلك بمركبات النقص التي تشعره بالمذلة والتبعية ومن يطالع ما كتبه الإنجليز في تلك الفترة يجد فيها ترسيخاً لتلك الفكرة كما كان المستعمر كان دائماً

---

(١) الملحق الرسمي لجريدة فلسطين ، يوليو ١٩١٨ ص١ .

(٢) ارتبطت مشكلة العامية بالوجود الاستعماري في الوطن العربي ، فوجد في اللهجات الإقليمية ذريعة على اللغة الفصيحة ، لما تشكله من عامل توحيدي فأدخل تدريس اللهجات العربية المحلية في جامعاته ، ففي فرنسا درست العامية في مدرسة: باريس للغات الشرقية الحية ، التي أنشئت سنة ١٧٥٩م ، وفي روسيا أنشئت مدرسة لازارف للغات الشرقية في مدينة موسكو سنة ١٨١٤م وكانت تدرس العربية ولغات الشرق الأخرى ، وفي عام ١٩٠٩م خصصت فرعاً لها لتدريس العربية ولهجاتها العامة وكذلك في ألمانيا والمجر وبريطانيا وهذا الاهتمام لم يكن من والاتصال بالعامة ، انظر كتاب بحوث ودراسات في اللغة وتحقيق النصوص ، للدكتور حاتم الضامن (ص ٥٦-٥٧).

يزعم ويحاول إقناع الأهالي بأنهم لا يستطيعون الصناعة ، وأن المواد الخام غير متوافرة لديهم ، وهكذا يبعث المستعمر في نفوس الشباب الإحباط والتشاؤم.

وكان الإنجليز يحجبون التعليم عن الشعب المسلم ، ويعلمون الناس أن دولة الخلافة العثمانية غازية ، ومستعمرة وتقهر الشعوب وفي اللحظة نفسها يمجدون دور الإنجليز في التقدم والصناعة وكان من أخطر هذه الآثار:

١- فرض تعليم اللغة الإنجليزية على الطلاب لتوازي تعليم اللغة العربية.

٢- محاربة الاستعمار ومقاومته لإنشاء المدارس الحرفية وتأسيس الكليات العلمية ، لأن المستعمر يدرك أن التصنيع يمنح الشعب شيئاً من الشعور بالذات والاستقلالية ، مما يدفعه إلى التطور والتغيير والثورة على المغتصب. إذاً كان هناك صراع مرير بين أهداف الشعب الفلسطيني المسلم ، وبين أطماع الاستعمار ، وبين اللغة والثقافة العربية من جهة وبين اللغة والثقافة الإنجليزية من جهة أخرى(١).

وخير مثال على ذلك ما قاله الكاتب الاستعماري الفرنسي (أوجستين برنارد) في الغرض من غزو الجزائر: (إننا لم نحصر للجزائر لإقرار الأمن ، بل لنشر الحضارة واللغة والثقافة والأفكار الفرنسية وليست الجزائر مستعمرة كالهند الصينية ولا هي (دومينيون) مثل كندا ، ولكنها جزء من فرنسا كما كانت أيام روما .. إننا نريد أن نجعل هناك جنساً يندمج فينا عن طريق اللغة والعادات ، وسيتم هذا بعد نشر لغة (فيكتور هيجو)(٢).

---

(١) عبدالجبار ، عبدالله : الغزو الفكري في العالم العربي ، ص ١٧.

(٢) فيكتور هوغر Hugo (١٨٠٢-١٨٨٥): شاعر وكاتب فرنسي ، من أعلام الحركة الرومنطيقية امتازت مؤلفاته بقوة وتنوع الألفاظ ، وغني الوصف ، من مؤلفاته الشعرية :

وما ينطبق على الجزائر ينطبق على مصر وسورية ولبنان وفلسطين .

٣- محاولة المبشرين أن يبثوا في الفكر العربي أفكاراً لا إنسانية ، كفكرة العنصرية وتفوق بعض الأجناس على بعضها الآخر بالفطرة ، مع العلم أن ديننا الإسلامي يرفض هذه النظرة ويعتبر أن لا فرق بين الناس إلا بالتقوى ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [سورة الحجرات آية :١٣] .

والفكرة العنصرية البغيضة إذا ما اندست في عقولنا أصابتنا بالعقد النفسية ، ومركب العجز ، فلا نتقدم إلى الانطلاق الكبير ، الذي يعيد للمسلم عزه ومجده.

٤- ومن آثارهم نشر المدارس ، وإلزامها بالقصص الإنجليزية ، وتقديم الأدب الإنجليزي لشكسبير[1] وغيره على أنه أدب عالمي جدير بالاهتمام ، وغير ذلك من الآداب لا قيمة له ، لأن شعوبها ما زالت في التأخر والضعف ، ويقصدون بذلك الشعوب الإسلامية وبذلك فقدنا كثيراً من الصلابة ، والروح والإيجابية التي يجب أن تشيع بين شبابنا.

٥- سعى المستعمر والمبشر دائماً إلى تمزيق وحدة المسلمين ، وذلك بتشجيع الخلاف بين العلماء ، وإيجاد خلاف حاد بين المذاهب الإسلامية المختلفة ، لأن

الشرقيات ، أوراق الخريف ، أغاني الغسق ، ملحمة الأجيال ، والبشرية: سيدة باريس ، البؤساء ، هرتاين [المنجد في الأعلام (٧٣٣)] .

(١) شكسبير (وليم) ١٥٦٤-١٦١٦): شاعر مسرحي إنكليزي في مصاف رجال الأدب العالمي امتاز بتحليله عواطف القلب البشري من حب وبغض من مؤلفاته المسرحية هملت ، عطيل ، مكبث ، روميو وجولييت ، تاجر البندقية ، العاصفة ، يوليوس قيصر ، ترحم له خليل مطران بعضاً منها إلى العربية شعراً [المنجد في الأعلام (٣٩٠)].

التمزق المذهبي والإقليمي سواء بسواء ، كلاهما هدف المستعمر. إضافة إلى أن هذا التمزق هو هدف صهيوني يهودي كبير.

فقد ألقى الحاخام اليهودي ريتشون في مدينة براغ عام ١٨٦٩م خطبة ، نقتطف منها ما يلي: إذا كان الذهب هو القوة الأولى ، فإن الصحافة هي القوة الثانية ، فعلينا بوساطة الذهب أن نستولي على الصحافة ، وحينها نسيطر على الصحافة نسعى جاهدين إلى تحطيم الحياة العائلية ، والأخلاق والدين والفضائل ، ويمضي قائلاً في خطبته: إن علينا أن نشجع الانحلال في المجتمعات غير اليهودية ، فيعم الفساد والكفر ، وتضعف الروابط المتينة التي تعتبر أهم مقومات الشعوب ، فيسهل علينا السيطرة عليها ، وتوجيهها كيفما نريد(١).

٦- إنشاء المدارس العلمانية ، وجعل مادة القرآن والتربية الإسلامية مادة إضافية ، واختيارية ، لا تأثير لها على مستوى الطالب ، وهذا ما قاله الداهية القسيس صمويل زويمر: ما دام المسلمون ينفرون من المدارس المسيحية ، فلا بد أن ننشيء لهم المدارس العلمانية ، ونسهل لهم الالتحاق بها ، هذه المدارس التي تساعدنا على القضاء على الروح الإسلامية عند الطلاب(٢).

ومن جهة أخرى يعترف مبشر آخر هو أ. ل. شاتليه في مقدمة كتابه: الغارة على العالم الإسلامي ، إذ يقول: ينبغي لفرنسا أن يكون عملها في الشرق مبنياً قبل كل شيء على قواعد التربية العقلية ، ليتسنى لها توسيع نطاق هذا العمل ، والتثبت من فائدته ، ويجب علينا ألا نقتصر على المشروعات الخاصة

---

(١) عبدالجبار ، عبدالله: الغزو الفكري في العالم العربي ، ص ٧٩٠

(٢) الفاضل ، محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، ص ٢٠٤ – ٢٠٦.

التي يقوم بها الرهبان المبشرون ، فتبقى مجهوداتهم ضئيلة بالنسبة للغرض العام الذي نحن نتوخاه ، وهو غرض لا يمكن الوصول إليه إلا بالتعليم الذي يكون تحت إشراف الجامعات الفرنسية ، نظراً لما اختص به التعليم من الوسائل العقلية والعلمية المبنية على قوة الإدارة ، وأنا أرجو أن يخرج هذا التعليم إلى حيز الفعل ليبث في دين الإسلام التعاليم المستمدة من المدرسة ، والجامعة الفرنسية[1].

٧- إيجاد شخصيات مسلمة تتبنى الأفكار والمبادىء المعادية للإسلام ، وكثيراً ما تتبوأ هذه الشخصيات مراكز مرموقة في الحكم ، وعندئذ يستطيع دعاة التبشير أن يحققوا عن طريق هؤلاء ما يريدون دون أن يشعر بهم أحد ، لأن تلك الشخصيات ليست مجالاً للطعن فيها ، ولأنها تتمتع بالمحبة والتقدير ، فكان كلامها أقرب إلى النفس ، وأبعد عن الريبة.

وقد نوه عن الدور الذي تقوم به هذه المعاهد العلمية التي أسسها المبشرون ، ما قررته اللجنة التي ألفها مؤتمر ونبرج التبشيرية ، فقد جاء في القرار:

اتفقت آراء سفراء الدول الكبرى في عاصمة تركية على أن معاهد التعليم التي أسسها الأوربيون في البلاد الإسلامية كان لها تأثير على حل المسألة الشرقية[2].

كما نوه جب (المستشرق البريطاني) بقوله: لقد فقد الإسلام سيطرته على قيادة المسلمين الاجتماعية ، وأخذت دائرة نفوذه تضيق شيئاً فشيئاً ، حتى انحصرت

---

(١) الدهان ، محمد ، محمد : قوى الشر المتحالفة: الاستشراق ، التبشير ، الاستعمار ص ١٠٠.

(٢) المسألة الشرقية: تعبير استعملته الكتب الغربية في تاريخها للفترة الأخيرة من الخلافة العثمانية ، ويقصدون بحلها القضاء عليها ، لأنها كانت على الرغم مما حل بها رمزاً لوحدة العالم الإسلامي.

في طقوس محددة ، وقد تم معظم هذا التطور تدريجياً عن غير وعي ، ولا انتباه ، وقد مضى هذا التطور الآن إلى مدى بعيد ، ولم يعد من الممكن الرجوع عنه ، وكل ذلك كان نتيجة النشاط التعليمي والثقافي العلماني[١].

٨- لفت نظر المسلمين إلى أن مناهجهم وعلومهم فيها النفع العميم ، ومدارس المسلمين لا نفع فيها ، مع بيان أهمية اللغات الأوروبية ، وأنها ضرورية لسعادتهم في مستقبل حياتهم ، وللأسف ما أن يدخل أبناء المسلمين هذه المدارس ، فلا تنقضي سنوات تعليمهم إلا وقد خوت قلوبهم من كل فكر إسلامي ، وأصبحوا أقرب للكفار منهم للإسلام ، ثم تعقد قلوبهم على محبة الكفار ، وتنجذب أفئدتهم إلى مجاراتهم ، وبعد ذلك يصبحون ويلاً على الأمة ، ورزية على الدولة.

٩- العمل على إيجاد مناهج تعليمية تبعد الدين عن مجال الحياة ، وإلى جعل الحكم علمانياً خالصاً ، حتى أنهم يزعمون من خلال تلك المناهج أن الدين سبب نكبة فلسطين ، وهم يدعون إلى التخلص من قيود الدين ، واللحاق بالمدنية الغربية، كما يصورون الدولة العثمانية المسلمة بأنها دولة مستعمرة وظالمة، وهي سبب نشوء مشكلة فلسطين ، وينسون ما قاله[٢] كرزون في مجلس العموم البريطاني : لقد قضينا على تركية التي لن تقوم لها قائمة بعد اليوم ، لأننا قضينا على قوتها المتمثلة في أمرين: الإسلام والخلافة ، فصفق له الجميع ، حيث حقق

---

(١) الفاضل ، محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، ص ٢٠٤ – ٢٠٦.

(٢) كرزون : جورج (١٨٥٩ – ١٩٢٥) سياسي بريطاني ، عين حاكماً عاماً للهند ، ثم اختير مديراً لجامعة أكسفورد.

لهم حلماً من أشهر أحلامهم[١].

أي تناقض هذا؟ يسعون إلى إقناع أبناء المسلمين بأن مشكلتهم كانت وراء الحكم العثماني ، وهم الآن يصفقون بحرارة للذي هدم الخلافة والإسلام.

وإذا تبين لنا مدى غفلة الخلافة عن كل ما يحصل في هذه المدارس ، من حيث المناهج والقائمون عليها في التدريس ، أو كثرتها أو الدعوات التي تدعو إليها ، كانت هناك هيئة خاصة لوضع المناهج في المدارس وهذه الهيئة مكونة من أعضاء روحانيين ، وأعضاء جسمانيين تضع المناهج الدراسية للمدارس ، وفي هذه المناهج تشابه مع المناهج اليونانية وكذلك هناك مناهج تتفق مع المناهج الإيطالية، ولم تستطع نظارة المعارف التركية التدخل فيها[٢].

وكان العامل المشترك بين جميع هذه الدول والجمعيات التنصيرية المختلفة إعداد المناهج التعليمية الدراسية في المدارس حسب العقيدة النصرانية ، إلا أن فرنسا لما كانت متأثرة بالثورة الفرنسية ، فقد كانت مناهجها علمانية ، إلا أنها لم تنفصل عن التقاليد النصرانية ولا عن التنصير كما يظهر ذلك في الكتب والجرائد في العهود الأخيرة ، غير أن هذه المدارس الفرنسية فقدت حماسها العقدي الذي بدأت به ، وكانت مناهج المدارس الفرنسية موحدة على طول الدولة العثمانية ، مع أنها تبشيرية ، إلا أنه لا يمنع من مواكبة العصر ، وتنظيم المدارس حسب متطلبات التقنية الحديثة[٣] ، وهذا السبب جعل الإقبال على المدارس الفرنسية

---

(١) زلوم/ عند القديم : كيف هدمت الخلافة ، ص ١٩٠.

(٢) القطشان ، عبدالله: التعليم في فلسطين ، ص ١١٦.

(٣) صابان ، محمد : المؤسسات التعليمية الأجنبية في نهايات الخلافة العثمانية في استانبول، ص ٢١٢.

أكثر من غيرها.

وكانت المدارس الحكومية تدار من قبل الإدارة العسكرية للقوات البريطانية الغازية ، وكانت تتبع قانون التعليم العثماني الصادر عام ١٨٦٩م وفي عام ١٩٠٨م أدخلت بعض التعديلات على قانون التعليم ، وفي عام ١٩١٣م طرأت تغيرات جديدة على قانون التعليم الأصلي ، إذ منح التغيير الجديد السلطة المركزية في وزارة التعليم ، فأصبح الموظفون العثمانيون أصحاب سلطة مباشرة على المدارس الابتدائية الدنيا ، التي كانت تتمتع بالاستقلال التام قبل إقرار القانون ، ولا نعني بذلك أن التعليم بيد الأتراك ، ومن عناصر غير عربية ، فهناك في متصرفية القدس كان التعليم بالكامل تحت إشراف موظفين عثمانيين من عناصر فلسطينية عربية ، وفي عام ١٩٢٠م أصبح الجهاز التعليمي بيد الجيش البريطاني ، وأقصي العرب عن إدارة المدارس الحكومية ، واستمر العمل بالقانون التركي حتى عام ١٩٣٣م بعد أن صدر قانون التعليم الجديد من قبل حكومة الانتداب ، والحكومات الأوربية صاحبة الامتياز [1] .

ففي عام ١٩٢٧م نشر في الجريدة الرسمية كمسودة ، ولقي هذا القانون الجديد احتجاجاً من قبل الأوربيين أنفسهم ، لأن القانون يفرض مزيداً من الإشراف الحكومي على المدارس التابعة لتلك الجماعات التي رأت في بعض مواد مشروع القانون تدخلاً مباشراً في شؤونها الداخلية ، إضافة إلى بريطانيا فرضت ضرائب حكومية على المؤسسات التعليمية الأجنبية بشكل عام ، وكذلك واجهت الانتقاد الشديد بسبب بسط بريطانيا سلطتها على التعليم وتوجيهه.

---

(١) القطشان ، عبدالله: التعليم في فلسطين ، الجز الثاني ، ص ١١٦ .

ولكن ظلت المدارس الأجنبية في منأى عن تطبيق القانون عليهم ، وكانت تتمتع بالاستقلال الذاتي ومن الملاحظ أيضاً أن الطائفة المسيحية كانت تتمتع بتسهيلات تعليمية أفضل من الطائفة العربية الإسلامية ، علماً أنها تشكل ١١ ٪ من السكان[١].

انظر إلى حديث «مورلي» الإنجليزي يقول: وفشلنا في بناء نظام تعليم عال ، سوف يؤدي إلى إضعاف مركزنا السياسي على المدى الطويل ، إن الأمريكيين يبذلون جهوداً مستمرة لتوسيع نفوذهم خلال سنة أو سنتين في مدينة القدس وإن الإيطاليين هم الآخرون تواقون إلى تعميق سيطرتهم ونشرها ، ولا يقلون عن الأمريكيين في تطلعاتهم لترسيخ أقدامهم ، ولا أحد يعرف من الذي يقف وراء مؤسسات التعليم الإيطالية؟ أهو موسليني أم الفاتيكان؟[٢] والحقيقة الجهتان ، وعلى الرغم من ذلك فإن بناء هذه المؤسسات التعليمية إنما يهدف إلى تقوية نفوذهم السياسي في المنطقة ، فإذا ما نظرنا إلى أقواله نلاحظ كيف يظهر التنافس الشديد بين الدول الاستعمارية ومؤسساتها التبشيرية ، فالكل يجري ويريد أن يوطد أقدامه في المنطقة وخاصة القدس.

ومن أخطر القضايا التي يجب الانتباه لها هي : أن المدارس التبشيرية كانت حريصة كل الحرص على تعليم أبنائها الثقافة الخاصة بالدولة التابعة لها ، فالأمريكية تحرص على تعليم طلابها الثقافية الأمريكية ، وتاريخ أمريكا مثلاً ،

---

(١) المرجع نفسه ، ص ١١٦.

(٢) وثائق المستعمرات البريطانية وهي تحمل رقم ٦٥-٣٣٢٦-٢٣٢٦-١٢٢٨٠ موجود في مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس برقم (F.O,371).

والمدارس الفرنسية تحرص على نشر الثقافة الفرنسية والإيطالية والبريطانية ، كل يحرص على أن تسود ثقافة دولته في المدارس التابعة له ، وهذا للأسف يتلقاه الطلاب المسلمون المنتسبون إلى هذه المدارس ، وقد أثر الأمر دون شك على الاتجاه العام للتعليم والذي غرضه هدم المصالح الوطنية لأهالي فلسطين.

*** آثار مدارس التبشير في نشر الأفكار المعاصرة :**

لقد أدت مدارس الإرساليات التبشيرية دوراً مهماً في نشر الأفكار القومية والدعوة إلى الانقسام والتشعب في حين كانت دولة الخلافة العثمانية تقترب من الانهيار ، فقد حل نظام القومية محل الملة ، وبتعبير آخر ، إن النزعات القومية قد أطاحت بنظام الملة القائم على الأساس الديني(١) .

إضافة إلى أن كل مدرسة كانت حريصة على ترسيخ العادات ونشر الأفكار التي تؤمن بها ليس بين طلابها فحسب ، بل حتى في الخارج ؛حيث كانت المدارس الفرنسية تسعى إلى نشر الأفكار والتقاليد الفرنسية ، حتى يغدو الطلاب صورة طبق الأصل من الفرنسيين(٢) .

وكانت المدارس الأمريكية تنشر العادات والتقاليد الأمريكية ، وهكذا في جميع المدارس وقد قال أحد القساوسة عن فعاليات المدرسة : تمكين الطالب من إيجاد علاقة مع الغرب(٣) .

وقد قال المبشر « جب » : لقد أضاع الإسلام سيطرته على حياة المسلمين

---

(١) حرب ، محمد طلعت: الأوضاع الحقوقية لأهل الذمة ص ٥٢.

(٢) فروخ ، عمر ، الخالدي مصطفى: التبشير والاستعمار ، ص ١١٤.

(٣) الفاضل ، محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، ٢٠٤.

الاجتماعية وأخذت دائرة نفوذه تضيق شيئاً فشيئاً ، حتى انحصرت في طقوس محدودة ، ولاشك أن ذلك الحاصل بين فئات معينة من المجتمع كان أثراً من آثار المدارس الأجنبية ، حيث أصبح الطلاب المسلمون فيها غرباء عن عادات آبائهم وأجدادهم ، وتقاليد شعبهم ، نظراً لتنشئتهم في جو علماني بعيداً عن الدين والتاريخ الإسلامي(١).

وللأسف كان أولياء الطلاب يسجلون أولادهم في المدارس الأجنبية ، بغية تعلمهم شيئاً يفيدهم في حياتهم العملية مستقبلاً ، فإذا بهم ينسلخون من دينهم وقيمهم الإسلامية.

وأذكر هنا من الآثار المترتبة على مدارس الإرساليات التبشيرية وأثرها في إقصاء الشريعة ، وإدخال المذاهب الفكرية المنحرفة والأفكار الثورية ، أذكر الوثيقة التي أرسلها هرتزل إلى السلطان عبد الحميد رحمه الله عام ١٣٢٠هـ الموافق الثالث من شهر مايو عام ١٩٠٢م ، يقترح عليه إنشاء جامعة يهودية في القدس ، تفتح أبوابها للطلبة المسلمين في الدولة العثمانية ، جاء فيها: لي الشرف أن أقدم لحكمة جلالتكم الاقتراح التالي: إني أدرك الصعوبة التي تواجه حكومتكم بسبب ذهاب شباب تركيا لتلقي العلم في الخارج ، وما يتعرض له هؤلاء الشبان من ضياع خاصة في تأثرهم بالأفكار الثورية ، مما يجعل الحكومة أمام أمرين:

- إما أن تحرم هؤلاء من التدريب العملي.

(١) صابان ، محمد: المؤسسة التعليمية الأجنبية في نهايات الخلافة العثمانية في استانبول ، ص٢١٥.

- وإما أن تعرضهم إلى أخطار الغوايات السياسية[١].

ومن هنا فقد أبرزت هذه الوثيقة الدور الخفي الذي يقوم به اليهود ، وخاصة أن منهم الأساتذة المتخصصين في الجامعات الأوربية ، لذا يقترح هرتزل قائلاً: لهذا فإننا نستطيع أن نقيم جامعة يهودية في إمبراطوريتكم ، ولتكن في القدس مثلاً ، وعندئذ لن يضطر العثمانيون إلى الذهاب إلى الخارج، بل يبقون في بلدهم ، ويتلقون فيها أفضل التدريس ، وهم خاضعون لقوانين بلادهم وتقاليدها[٢].

ومن الجدير بالذكر أن هذا الأسلوب ماكر ، وخبيث إذ يشير إلى القدس كي تفتح أبوابها لليهود ، علماً أن الدولة العثمانية عانت من الأفكار الغربية ، والأفكار السياسية العلمانية من جراء تلقي أبناء المسلمين العلم في جامعات الغرب ، وما كان الإنجليز في ذلك الوقت يجهلون أصول التربية الصحيحة ، ولا وسائل التعليم الحقة ، ولا كانت مدارسهم تدار بالأسلوب نفسه الذي تدار به المدارس الخاصة للاستعمار ، ولكن السياسة التي رسمت لهذه المدارس والمناهج التي وضعت لها هي أن تخرج عدداً من الذين يُؤمرون فيطيعون ، ويشار إليهم فينفذون ، وفي هذه المدارس كان الراهب أو المدرس النصراني يحيط نفسه بشيء من القداسة والرهبة ، لا للتربية ، وإنما لزرع العبودية في النفوس ، وفي تلك المدارس كان يلقن الطالب أن فلسطين بلد متأخر ، لأنه زراعي ، ولا يمكن أن تنشأ فيه صناعة بعكس إنجلترا البلد المتقدم ، لأن فيه الفحم والحديد[٣].

---

(١) الخولي ، حسين: سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين ، ص ٩٧.

(٢) المرجع السابق نفسه ، ص ٩٨.

(٣) قطب ، محمد : هل نحن مسلمون ؟ ص ١٣٨.

ولننظر إلى المناهج التي وضعت وكانت مجردة من كل شيء له صلة بالدين الإسلامي وحقيقته، ومن تلك المناهج:

أ- مناهج اللغة العربية :

لقد خطط المستعمر لقتل مناهج اللغة العربية والقضاء عليها، إذ كان الراتب الذي يتقاضاه مدرس اللغة العربية لا يساوي ربع ما يتقاضاه المدرس الذي يدرس اللغة الإنجليزية، أو أي منهاج آخر غير اللغة العربية والتربية الإسلامية، ولذلك أثر سيء على المدرس، إذ إنه دون زملائه في الراتب أو المكانة؛ مما يجعله يمقت لغته، ويتمنى لو لم يدرسها أسوة بزملائه، هذا إلى جانب تدني مركزه المهني بين زملائه في المدرسة ويترتب عليه تدني وضعه الاجتماعي لتردي حالته الاقتصادية.

وهكذا ينحدر وضع مدرس اللغة العربية، ويقبل على التدريس بنفس غير راضية، ولا يبعث الأمل في نفوس طلابه إلى دراسة هذه المادة في سنواتهم المقبلة، لما يعانيه من الضيق والكبت النفسي. وهذا الوضع انعكس على مادة اللغة العربية لتصبح في موضع ازدراء من قبل الطلاب، والنفور والاحتقار، وبدأ الطلاب يشكون من صعوبة اللغة العربية في النحو والأدب والصرف حتى أصبحت اللغة العربية عبئاً ثقيلاً على المدرس والطالب، أما مدرس اللغة الإنجليزية، فيتمتع بميزات مادية ومعنوية، وتقدير في المدرسة والشارع والمجتمع[1]، كيف لا وهو يتقن لغة الغازي ويتحدث بلسانه، وهذا الوضع

---

(١) قطب، محمد: واقعنا المعاصر، ص ٢٢٠.

وصلت له اللغة العربية من الانتقاد والطعن فيها حتى أصبحت وكأنها لا تستحق الدراسة ، وأأسفاه ، وقد بدأ الطلاب ينصرفون عن كتاب الله ، ويتزودون بما هو مكتوب من لغة المستعمر ، لأنها لغة الغالب.

ب – مناهج التربية الإسلامية :

مما لا شك فيه أن مدرس مواد (التربية الإسلامية) لم يكن أحسن وضعاً من زميله مدرس اللغة العربية ، إن لم يكن أقل حالاً وأسوأ وضعاً ، لأنه يدرس تراثاً قديماً لا يصلح للعصر الحاضر كما يرى المستعمر والمبشر ، وإن مدرس الدين أصبحت له شخصية تقليدية نمطية ، وتتمثل تلك النمطية في ذلك الرجل كبير السن الذي أتعبته الأيام ، يوكل إليه تدريس مادة الدين ، وغالباً ما تكون حصة الدين في آخر اليوم الدراسي ، وهي لا تزيد عن حصة أو حصتين في الأسبوع ، مع أن حصة اللغة الإنجليزية تكون في كل يوم وكذا الرياضيات والعلوم ، فلم يعد الطالب يهتم بها ، كما أصبحت حصة الدين ترتبط بالموت ، والقبر والعذاب والخوف ، مما ينفر منها الطالب وتصبح حصته ثقيلة على الطلاب.

إنها مجموعة من النصوص تلقى لتحفظ مصحوبة بالعصا في أكثر الأحيان ، في خطة مقصودة لتنفير الطلاب من دروس الدين الإسلامي ، أما حصة الكتاب المقدس (الإنجيل) فهي الحصة الأولى في اليوم الدراسي فالتلاميذ قادمون بنشاطهم الدراسي ، ويكون المدرس إما مبشراً أو مبشرة من الشباب ، وكلهم حيوية ، وكثيراً ما يربطون حصة الدين النصراني بالكنيسة ، حيث الأناشيد والترانيم ، والحركة والاستبشار بالحياة هذا إلى جانب أن مادة التربية الإسلامية كانت كثيراً ما تحذف من برامج الصيف ، وتستبدل بحصة أشغال يدوية ، أو

ألعاب رياضية ، حتى تصبح مادة التربية الإسلامية مادة هامشية لا قيمة لها ، وبهذا التدبير البطيء تخرجت الأجيال وراء الأجيال لا تحس بأي توقير للدين الإسلامي(١).

ج- مناهج التاريخ :

من الجدير بالذكر أن التاريخ الذي يدرس كان في معظمه قلباً للحقائق وتشويهاً لها في أعين الطلاب ، كي تولد في قلوبهم اشمئزازاً من تاريخهم. واعتمد في ذلك على ما يلي:

١- تصوير التاريخ الإسلامي على أنه غزوات وقتل ونهب وسلب.

٢- تصوير التاريخ ، تاريخ الأمراء والحكام على أنه مجموعة من الجشع والترف والنساء والغناء والجواري(٢).

٣- تصوير التاريخ بأنه تجارة جوار ، ورق وعبيد.

هذا ما يقال عن فكرنا وحضارتنا ، وتعليمه أبناءنا على صورة جماعة من المغامرين المندفعين إلى الصراع ، والقتل والثأر(٣). وما ذلك كله إلا تشويه

(١) قطب ، محمد : واقعنا المعاصر ، ص ٢٢٣.

(٢) إن تاريخنا العربي الإسلامي تاريخ مشرق مجيد ، وفيه هامات كبيرة شعت نوراً وحلالاً وعلماً وتضحيات جمة. فهارون الرشيد كان يحج عاماً ويغزو عاماً ، وما يشاع عن لهوه ومجونه فكلام مدسوس وافتراء محض والسلطان قطز صاحب عين جالوت حقق العزة وأعاد الكرامه للأمة وصلاح الدين حرر القدس وقهر الصليبيين وغير هؤلاء صناديد أبطال ابتعدوا عن الجشع والترف وعاشوا حياة القوة والمجد والعلياء.

(٣) الجندي أنور : سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية ، ص ١٢٤.

للحقائق ونزع للقيم العليا الفاضلة التي شرع من أجلها الدين وشرع الجهاد في الإسلام لإيصال نور الهداية للناس أجمعين ، ونظام وفلاح وخير لهم ، وينسون أن الإسلام حضارة وحركة علمية أضاءت وأخذت منها أوربا كلها ، بل وينسون التنظيم الاقتصادي والاجتماعي في الإسلام ، الذي يعتبر حركة تحريرية من الظلم والاستعباد ونشر للحرية. وأخذوا ينشرون الإسلام وكأنه مجموعة من الطقوس والشعائر تؤدي فارغة من أي محتوى ، كل هذا تزوير للتاريخ وتشويه له ، يقدمون للطلاب تاريخ أوروبا ممثلاً في العدالة الاجتماعية ، والحضارة الإنسانية ، إذ لا علم إلا علم أوروبا.

ومن هنا فقد عمد أساطين الاستعمار ، ويتقدمهم المبشرون على تغريب التعليم والتربية وإقصاء الإسلام وتاريخه ولغته عن برامج التعليم في الدولة العربية المسلمة [١].

فالمنهج الغربي الذي اعتمدته المناهج المدرسية ، هو شيء مختلف تماماً عن منهج الإسلام في التربية وفي الحياة ، فالتعليم الغربي يحمل روحاً مستقلة ، ويعبر عن أفكار أهل الغرب ومجموعة أقدارهم وقيمهم ، إذا طبق في بلاد مسلمة أو مجتمع إسلامي ، فإنه يحدث صراعاً عقلياً يندرج ثم يندرج إلى تدمير العقيدة ، وإلى خلق الردة الفكرية والدينية [٢].

وقد كانت معظم المناهج تأتي من مصر ثم تعمم على الدول المستعمرة ، هذا ما قاله عبد الرزاق الهلالي في كتابه « تاريخ التعليم في العراق » في عهد الاحتلال

(١) قطب ، محمد : واقعنا المعاصر ، هي ص ٢٢٥.

(٢) آل سعود ، نايف بن ثنيان : المستشرقون وتوجيه السياسة التعليمية في العالم ص ٢٠٧

البريطاني: وهكذا جلبت كميات كبيرة من الكتب المدرسية المصرية ، وأخذ الطلاب منذ ذلك الوقت يسيرون في دروسهم وفق منهج الدراسة المصرية إلى حد كبير[(١)].

وهذا نقد للدكتور عبد القادر يوسف – الذي كان تلميذاً في إحدى المدارس الابتدائية في فلسطين – للمناهج الدراسية ، إذ يقول: وكان مصدر السلطة في بناء المناهج في فلسطين يتبع إدارة المعارف .. ولكن المربين والإداريين الذين وضعوا المناهج والسياسة التعليمية بنوا سلطتهم ، واستمدوها من خبرتهم واجتهادهم ، بالنسبة لحاجات ومصالح أمة أخرى وثقافة أخرى هي الأمة البريطانية والثقافية البريطانية ، ولم يستطع هؤلاء الموظفون تكييف أنفسهم ، أو تكييف العملية التعليمية بما يلائم أوضاع العرب في فلسطين[(٢)].

واستمر الكاتب في تحليله مناهج التعليم الحكومية قائلاً:

أما التوجيهات الثقافية في المنهج فكانت ضئيلة لا فائدة منها ، ولم يبد المنهج اهتماماً بالخصائص العامة للثقافة العربية ، وكان المنهج موجهاً نحو الاستقرار ، فجاء من النوع الذي لا يصلح إلا للمجتمع الجامد المحافظ ، ولم يكن المجتمع العربي في ذلك الوقت من هذا النوع المذكور لأنه يجتاز فترة انتقال جديدة من الأحداث والتغيرات التي خلقتها الحربان العالميتان: الأولى والثانية[(٣)].

وفي هذا الوقت حرمت حكومة الانتداب العناصر العربية الفلسطينية من

(١) الهلالي ، عبد الرزاق : تاريخ التعليم في العراق في عهد الاحتلال البريطاني ص ٤٦.
(٢) يوسف ، عبد القادر : مستقبل التربية في العالم العربي في ضوء التجربة الفلسطينية ص١٠٤.
(٣) المرجع السابق نفسه ص ١٧٥.

المشاركة في وضع المناهج التي تلائم الأوضاع المحلية ، والتي تحقق أهداف ومصالح العرب ، مما أدى إلى وضع الكتب المدرسية حسب ميول مدير التعليم ومعاونيه ورغباتهم لا حسب ما تمليه الأوضاع المحلية في البلاد ، فبالنسبة للغة الإنجليزية فرضت الإدارة العسكرية تدريس اللغة الإنجليزية كلغة أجنبية وحيدة في المدارس الحكومية ، فخلال الفترة التي تولت فيها شؤون البلاد بين عامي ١٩١١-١٩٢٠م وعندما تسلمت الإدارة المدينة مسؤولية البلاد انتهجت السياسة السابقة نفسها للإدارة العسكرية ، وكانت اللغة الإنجليزية تدرس في الصف الرابع بمدارس المدن وخصصت ثماني حصص في الأسبوع لكل من الصفين الرابع والخامس من مجموع خمس تلاميذ وتسع حصص لكل من الصفين السادس والسابع من مجموع ثلاث وثلاثين حصة[(١)].

وقد كانت الكتب توزع مجاناً على جميع التلاميذ ، وتشير تقارير دائرة التعليم إلى ضعف التلاميذ ، وذلك بسبب ضعف مستوى الكتب المدرسية ١٩٢٤/ ١٩٢٥ ، وطالب التقرير زيادة الوقت المخصص لتدريس المادة ، مع العلم أن اللغة الإنجليزية تشغل ٢٣٪ من الجدول الأسبوعي[(٢)].

ولو حاولنا استعراض منهج الجغرافيا والتاريخ معه ، لوجدنا إن الانتقادات كثرت ، وذلك طيلة فترة الانتداب البريطاني على فلسطين وقد بعثت مذكرات إلى إدارة المعارف التي تدير المدارس العربية ، تتبنى موقفاً مؤسفاً كما أنها تحرم

---

(١) القطشان ، عبد الله: التعليم العربي الحكومي إبان الحكم التركي والانتداب البريطاني ١٥١٦-١٩٤٨م ص ٤٥.

(٢) يوسف ، عبد القادر: مستقبل التربية في العالم العربي في ضوء التجربة الفلسطينية ص٨٥.

تدريس تاريخ فلسطين الإسلامي.

ويرى الطيباوي[١] الذي عمل مفتشاً للتعليم في اللواء الجنوبي ، بأن مقررات التاريخ والجغرافيا لا تربط بين الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يمر بها المجتمع العربي ، وأن تلك المقررات لا تتلاءم وظروف المجتمع العربي ، وقال في تعليقه على ذلك:

إن التلاميذ لا يستطيعون دراسة تاريخ وجغرافية فلسطين بالشكل المرغوب فيه[٢] وقد اعترفت المصادر البريطانية بالصعوبات التي تواجهها في تعليم التاريخ ، ونسبت ذلك إلى معلمي مادة التاريخ والجغرافيا الذين لا يجيدون اللغات الأوروبية[٣].

وباعتقادي أن طلاب فلسطين حرموا خلال فترة الانتداب من الاطلاع الكافي على تاريخ وجغرافية بلادهم ، نتيجة لسياسة بريطانيا الرامية إلى تجهيل الشعب المسلم في فلسطين وحتى يتسنى لهم إنشاء الوطن القومي لليهود ،

---

(١) الطيباوي ، عبد اللطيف: مؤرخ باحث من فلسطين ، حفظ القرآن الكريم وتخرج في دار المعلمين بالقدس وعمل بالتعميم والإدارة والتفتيش إبان الانتداب البريطاني ، درس التاريخ والأدب في الجامعة الأمريكية ، ببروت وغادر فلسطين عام النكبة إلى لندن واستقر بها إلى آخر حياته ، وحصل من جامعتها على الدكتوراه في الفلسفة وعمل بها محاضراً بكلية التربية ، مع مشاركته بالقسم العربي في الإذاعة البريطانية ، من مؤلفاته: التصرف في الإسلام ، جماعة إخوان الصفا ، مراسلات الحسين مكماهون ، التربية الإسلامية من أعلام الفكر والأدب في فلسطين (ص ٣٩٠).

(٢) Tibawi (op. cit) : p 88

(٣) القطشان عبد الله : مرجع سابق ، ص٤٧.

وتقول الآنسة رايدلر Miss Ridlr أمام مؤتمر التعليم الإمبراطوري الذي عقد في إنجلترا عام ١٩٢٧م ، والذي تحدثت فيه عن هدف دائرة التعليم من تدريس مادة التاريخ والجغرافيا بقولها: إننا نعلق أهمية على تدريس مادة تاريخ وجغرافية العالم ، لأننا ندرك أن تدريس هاتين المادتين بطريقة ذكية يساعد على مواجهة وتحقيق العداء الجنسي والديني الذي سيتفجر في البلاد من وقت إلى آخر[(١)].

وقد تنبه المفتشون العرب إلى خطورة الطريقة التي وضعت بها مناهج التاريخ عندما نشرت الإدارة المخططات النهائية لمفاهيم التعليم عام ١٩٢٥م ، وطالبوه بضرورة إعادة تقييم ومراجعة موضوعات التاريخ والجغرافيا والتي تدرس للصف السابع الابتدائي على الأقل ولكن لم ينجحوا في تحقيق مطالبهم[(٢)].

ويلاحظ من خلال الاطلاع على مناهج التاريخ أن هناك تجاهلاً لواقع وخصائص وتاريخ فلسطين كجزء من بلاد الشام، ولم تبرز الطابع العربي للبلاد، وكان التلاميذ يدرسون تاريخ داود وسليمان العبرانيين ، ولم يعرفوا إلا القليل عن أبي عبيدة وخالد بن الوليد، كما كانوا يدرسون حياة شارلمان[(٣)] ويوليوس قصر[(٤)]

(١) يوسف عبدالله : التعليم العربي الحكومي إبان الحكم التركي والانتداب البريطاني ، ١٥١٦-١٩٤٨م ص ٤٧.

(٢) ك. س هايام : معالم التاريخ منذ أقدم العصور ، ترجمة خليل السكاكيني ، أحمد خليفة ص٣٧.

(٣) شارلمان: شارلمان الأول (٧٤٢-٨١٧) ابن الملك بيبين القصير. ملك الفرنجة أو الفرانكيين (٧٦٨-٨١٤) وامبراطور العرب (٨٠٠-٨١٤) وسع رقعة الدولة الفرانكية ، تحالف مع الكرسي البابوي ضد بيزنطة فتوحة البابا الثالث امبراطور يعرف أيضاً بشارل الكبير (موسوعة المورد العربية (٣-٦٧٤).

(٤) قيصر ، غايوس يوليوس (١٠٠-٤٤ق م): سياسي ومؤرخ وقائد عسكري روماني ، ديكتاتور

والملكة فكتوريا[١] ، بينما لم يتلقوا أي معلومات ثقافية عن سايكس بيكو ووعد بلفور أو الأخطار التي تتعرض لها بلادهم من جراء نظام الانتداب والحركة الصهيونية.

أما التعليم الفني فكان شبه معدوم ، ولم يكن يوجد سوى مدرسة واحدة في حيفا ، ثم أغلقت حيث شغلتها القوات العسكرية البريطانية من عام ١٩٣٦-١٩٣٩م وبقيت تشغله حتى ١٩٤٥م[٢].

وللاطلاع على مناهج التعليم الفني سنورد نص البرقية التي أرسلها المندوب السامي البريطاني في فلسطين سير هارلد ماكمايكل (Machmichael Sir Harbld) إلى وزارة المستعمرات في لندن في ٥ يوليو عام ١٩٤٣م ، فكانت البرقية تحمل رقم (٦٦٤) ونورد منها بعض العبارات: من السهل أن يلاحظ المراقب النقص الواضح للتعليم المهني والزراعي في نظام التعليم الحالي ، وحقيقة أن العربي لم يصل إلى درجة يستطيع فيها منافسة اليهودي في مجال المعرفة الفنية والمهارة في

رومة (٤٩-٤٤ق.م) يعتبر أحد أعظم القادة العسكريين فتح غالة بحملات متعددة في ما بين عام ٥٨ وعام ٥٠ق.م ، غزا بريطانيا (٥٥-٥٤ق.ب) أمره مجلس الشيوخ بتسريح جيشه ، فاجتاز نهر روبيكون عام (٤٩ق.م) متحدياً أمر المجلس وبذلك أندلعت الحرب الأهلية الرومانية (٤٩-٤٥ق.م) اتهمه كاسيوس وبروتوس بالاستبداد ، وتآمر على قتله (٤٤ق.م) موسوعة المورد العربية (٣/ ٩٣٥).

(١) فيكتوريا ، الكسندريا فيكتوريا (١٨١٩-١٩٠١) ملكة بريطانيا العظمى (١٨٣٧-١٩٠١) أبدت اهتماماً متواصلاً بسياسات بلادها وعملت على تعزيز مكانة العرش ، وقد اقترن عهدها بتقديم بريطانيا السريع في ميدان التصنيع وباتساع رقعة الإمبراطورية البريطانية . موسوعة المورد العربية (٣/ ٨٩١).

(٢) توفيق ، محمد : الشهادات السياسية أمام اللجنة الملكية في فلسطين ، ص ١٧.

الصناعة والزراعة .. وذلك لا يرجع إلى الأسباب التي يرددها مدير التعليم بصفة دائمة ويكتب عنها رجال المخابرات ، وإنما يرجع ذلك إلى عدم توفر الفرص الملائمة أمام العربي لإكمال تعليمه ، ولعدم وجود التوجيه المناسب لتطوير نفسه لمهنة المستقبل .. إن مدير التعليم السابق يبرز في عدد من تقاريره ونشراته الضرورة الملحة للتعليم المهني والزراعي(١) ، واعترف المندوب السامي بمسؤولية الإدارة البريطانية عندما قال:

لقد ارتكبنا خطأً فادحاً في مجال التدريب المهني ، لأننا عجزنا بعد مرور خمس وعشرين سنة من الحكم عن تزويد التلاميذ بالتعليم المهني لتخريج عمال مهرة للعمل في المصانع والصناعات .. إن مدارس المدن في حاجة ماسة إلى تطوير برامجها في مجال التدريب المهني(٢).

وقد شنت الصحافة العربية انتقادات متكررة لتقاعس الحكومة عن تزويد العرب بالمدارس الصناعية (٣).

ومن هنا فقد حاول الزعماء الوطنيون لفت نظر الحكومة إلى ضرورة تزويد العرب بالمدارس الفنية ، ولكن كل المحاولات كانت تبوء بالإخفاق ، ولقد عانى الشعب العربي الفلسطيني الويلات من جراء سياسة الحكومة البريطانية في المجال الاقتصادي والسياسي والتعليمي ، مما أدى إلى تشريده وطرده بالقوة من أرضه بعد أن مهدت حكومة الانتداب الطريق لتلك النكبة المروعة عام ١٩٤٨م.

---

(١) The Reconst rution Coum missioner, Report :p 4

(٢) القطشان، عبد الله : التعليم العربي الحكومي إبان الحكم التركي والانتداب البريطاني، ص٥٢ .

(٣) فلسطين ، عدد ٥٤٨-٢٣ كانون الثاني عام ١٩٢٣م.

وهنا أود أن أبرز بهذا المثال مدى تدخل حكومة الانتداب في المناهج التعليمية من خلال ما كتبه أحد الذين عايشوا الواقع التعليمي الأليم الذي عاشه العرب في فلسطين ، إذ يقول عارف العارف: وإنني قضيت ثلاث سنوات صراع (١٩٦٤-١٩٤٦م) قبل أن أتمكن من إقناع المدير العام لمصلحة المعارف ، وكان يتولاها يومئذ المستر جيروم فرم كي يقر الاقتراح الذي تقدمت به إليه من أجل فتح صف أول ثانوي في مدرسة البيرة الابتدائية هذا مع العلم أن سكان البيرة والقرى المجاورة تبرعوا بالأموال اللازمة لبناء الغرف وتأثيثها ودفع رواتب المعلمين وما كانوا في حاجة إلا إلى كلمة واحدة تخرج من قمة هي: نعم وبعد أن قالها راح يرسم مناهج الدراسة في الصف الجديد وقد رسمه كما يريد[١].

علاوة على النقص الواضح في برامج التعليم التي تخص المسلمين حيث لا توجد مدارس ، إلا في نحو ثلاثمائة قرية منها. علماً أن عدد القرى كان يزيد عن ألف قرية إضافة إلى أن آلاف الطلاب في المدن لا تتوافر لهم مقاعد للدراسة ، ولا توجد إلا مدرسة صناعية واحدة على طول البلاد وعرضها ، ولا توجد مدرسة ثانوية واحدة كاملة الصفوف إلا واحدة بالقدس هذا مع أن إدارة المدارس إدارة إرهابية المسلك ، شديدة الوطأة ، كيف لا؟ وهي إنجليزية جامدة تكاد تحرم أي تعليم فيه روح وطنية وتراقب المعلمين العرب في ذلك مراقبة شديدة ، وعلاوة على ذلك فإن هذه الإدارة يديرها مدير المعارف ، وهو في ذات الوقت رئيس جمعية أجنبية ذات صبغة تبشيرية[٢]. علماً بأن اليهود لديهم الحرية

(١) العارف ، عارف : الفصل في تاريخ القدس ، ص ٤٨٨.

(٢) شبيب ، سميح ، حرب الاستقلال العربي في فلسطين ، ص ١١٨.

في مدارسهم ، إدارة ونظاماً ولديهم العديد من المدارس الثانوية المكتملة (الأكاديمية) والفنية والصناعية.

هذا جدول يبين المدارس غير الإسلامية في ولاية سورية ، وأخص هنا بالذات فلسطين (١٣٠٣هـ - ١٨٨٦م)[١][٢] .

المكان	مدارس عادية				مدارس عالية			
	عدد	ذكور	عدد	إناث	عدد	ذكور	عدد	إناث
نابلس	٥	١١٣	٤	١٢٧	-	-	-	-
لواء عكا	١٠	٢٠٥	-	-	-	-	-	-
الناصرة	١٥	٥٨١	١	٣٠	-	-	٣	٢٤٠
حيفا	٥	٨٩	١	١٠١	١	١٨٠	-	-

وغني عن البيان القول: إن هذه المدارس قد أدت دوراً بارزاً في محاولة طمس الهوية الإسلامية ، ووصفها بالجمود والتأخر ، وفي تمجيد الحضارة الغربية ، وإبعاد المسلمين عن حضارتهم ، ولغتهم وثقافتهم وذلك بتعليمهم اللغات الأجنبية وبصفة خاصة الفرنسية والإنجليزية ليتمكنوا من تمثيل الفكر الأوربي.

* * *

(١) عوض ، عبد العزيز محمد : الإدارة العثمانية في ولاية سورية ، ص ٣٦٨-٣٦٩.

(٢) الندوي ، أبو الحسن : الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية ، ص ١٦٩.

المبحث الثاني
آثارهم في المدارس والكليات

إن التعليم هو أخطر الأمور في حياة الأمم فبسببه ترتفع الأمم إلى القمم الشامخة بعد مشيئة الله عز وجل ، وبسببه تنخفض إلى القيعان الهاوية.

وقد عبر المفكر المسلم محمد إقبال[١] عن التعليم قائلاً: إن التعليم هو الحامض الذي يذيب شخصية الكائن الحي ، ثم يكونها كما يشاء. إن هذا الحامض هو أشد قوة وتأثيراً من أي مادة كيميائية ، وهو الذي يستطيع أن يحول جبلاً شامخاً إلى كومة تراب[٢].

وقد أدرك المبشرون خطورة التعليم ، فاتخذوا منه أسلوباً لاستعباد الأفراد والأمم دينهم وعقيدتهم ، وطبعهم بالطابع الغربي ، كما يقول اللورد كرومر: إن المصري الذي خضع للتأثير الغربي فإنه وإن كان يحمل الاسم الإسلامي لكنه في الحقيقة ملحد ارتيابي ، والفجوة بينه وبين عالم أزهري لا تقل عن الفجوة بين عالم أزهري وبين أوربي[٣].

---

(١) محمد إقبال (١٨٧٥-١٩٣٨): شاعر وفيلسوف هندي مسلم نظم باللغة الفارسية واللغة الأوردية. وكان أول من دعا إلى إنشاء دولة باكستان ، أشهر آثارة الشعرية قصيدة طويلة عنوانها: أسرار خودي أي: أسرار النفس عام(١٩٥١) ، وأهم آثارة الفلسفية إعادة بناء الفكر الديني في الإسلام عام (١٩٣٤). موسوعة المورد العربية (١/١٠٨).

(٢) الندوي، أبو الحسن: الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية، ص١٦٩.

(٣) الندوي ، أبو الحسن: الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية ص ، ١٠٦ .الندوي.

ولهذا حرص المبشرون على إنشاء المدارس والجامعات في أنحاء العالم الإسلامي وبشروطهم الخاصة جداً ، وخصوا بذلك فلسطين مهد الحضارات ، وملتقى الديانات فكانت لهم المدارس المنتشرة في القرى والمدن ، كما أنهم اهتموا بمدارس البنات ، واهتموا خاصة بالمدارس ذات المساكن الداخلية ، لأن الفرص فيها سانحة والأحوال مواتية ، ويكون التبشير فيها أكثر نجاحاً. كما اهتموا بالحضانة ورياض الأطفال ، واعتبروا دخول الطفل ، مدارسهم صيداً ثميناً لا يقدر بمال ، لما للأطفال الصغار من قابلية للتشكيل الذي يريدونه.

وفي هذا المجال يقول جون موط(١) : يجب أن نؤكد في جميع ميادين التبشير على جانب العمل بين الصغار ، فهو عمدة عملنا في البلاد الإسلامية ، وأن الأثر المفسد في الإسلام يبدأ باكراً جداً ، من أجل ذلك يجب أن يصل الأطفال الصغار إلى المسيح قبل بلوغهم سن الرشد ، وقبل أن تأخذ طباعهم أشكالها الإسلامية (٢).

ومن أجل هذا الغرض قام المبشرون بنشر الحضانات ورياض الأطفال(٣).

ومن المثير للعجب: إن مدينة القدس اشتملت وحدها على خمس عشرة مدرسة تتبع للإرساليات التبشيرية الألمانية فقط ، من أصل ٥٠٠ مدرسة تابعة

---

(١) جون موط: مبشر أمريكي له كتاب اسمه خمسة عقود ونظرة للمستقبل صدر عام ١٩٣٥م.

(٢) فروخ عمر ، والخالدي مصطفى ، التبشير والاستعمار ، ص ٦٨.

(٣) جاء في تقرير جمعية التبشير الإنجليزية في الخرطوم: وأحوال مدرسة (عطبرة) سائرة من حسن إلى أحسن ، لأنه أصبح في استطاعة المبشرين فيها أن يطلبوا من التلاميذ الصغار من المسلمين أن يصلوا معهم صلاة الصبح : الغارة على العالم الإسلامي (٢٢).

للإرساليات بشكل عام فلسطين ، وأما المدارس العربية الإسلامية فهي أقل من (١٠٠) مدرسة حتى عام ١٩١٣م، فما أبعد الفرق بين هذه المبادىء وتلك!![١].

وما كان ميسراً لأبناء غير المسلمين ، وأبناء الأمم الأخرى حتى عام ١٩١٤م لم يكن ميسراً لأبناء فلسطين حيث ما كان يوجد بفلسطين مدرسة ثانوية مكتملة إلا واحدة ، وهي ما كان يعرف بـ(المكتب السلطاني) بالقدرس ، ثم كانت هناك واحدة في عكا ، وأخرى في نابلس تشتمل على فصول ثانوية وعرفت بالمدارس الابتدائية الثانوية ، وفي عام ١٩٢٢م فتحت فصول في مدينة يافا والخليل ، ولم تتح فرصة التعليم الثانوي إلا أمام ١٥٤ طالباً فحسب[٢].

وهذا جدل يبين عدد المدارس والطلاب التابعين للإرساليات التبشيرية :

العام	عدد المدارس المسيحية	عدد البنين	عدد البنات	المجموع
١٩٣٠-١٩٣١	١٨١	٨٢٦٧	٨٨١٣	١٧٠٨
١٩٤٠-١٩٤١	١٨٦	١٣١٥٧	١١٥٠٢	٢٤٦٥٩
١٩٤٧-١٩٤٨	١٨٠	٣١٤٨٤	-	٣١٤٨٤

بالمقابل نلاحظ في عام (١٩٤٧-١٩٤٨م) أن المدارس الإسلامية كانت ١٣٥ مدرسة ، وعدد التلاميذ (١٥٠٠٠) ، وفي عام (١٩٤٠-١٩٤١م) ، المدارس الإسلامية (١٩١) مدرسة ، وعدد الأولاد ١٢٨٢١ ، والبنات ٢٦٨١،

---

(١) نويهض ، عجاج : رجالات من فلسطين ، ص ٥١.

(٢) وثائق المستعمرات البريطانية (FO) تقارير صادرة عن حكومة فلسطين
F.O .371-9003 G. of.P. Report. 1922 (G.P)

والمجموع ١٥٥٠٢[١] .

نلاحظ أن المدارس المسيحية في عام ١٩٣٠-١٩٣١م كانت تشكل نسبة ٣٥٪ من المجموع العام للتلاميذ في مختلف المدارس ، أما في عام ١٩٤٧-١٩٤٨م كانت تشكل ٢٠٪ فقط دليل على أن المدارس الإسلامية آخذة في الازدياد ، والسبب في ذلك يعود إلى الجهود التي بذلها السكان المسلمين لزيادة فعالة المدارس الحكومية والمدارس الإسلامية .

ومن تحليل المعلومات تبين أن سبب زيادة المدارس التبشيرية ما يلي :

- ما أدخلته من أساليب تعليم حديثة .
- ضمت المدارس المسيحية كافة المراحل من رياض الأطفال حتى الثانوي .
- وجودها في المدن والقرى حيث يوجد النصارى .

*** المدارس والكليات :**

والمقصود بالمدارس والكليات هنا : مجموعة المدارس والكليات التابعة للطوائف المسيحية في فلسطين ، كتلك التي للطائفة اللاتينية ، والأرثوذكسية ، والسريانية ، والأرمنية ، واليونانية ، والكاثوليكية ، ويتضمن أيضاً مؤسسات التعليم التي تديرها ، وتشرف عليها مؤسسات التبشير الأجنبية الفرنسية ، والإنجليزية ، والإسبانية والألمانية والأمريكية واليونانية والنمساوية في فلسطين أو تلك المدارس التي رفضت المساعدة المالية بغية تجنب تدخل دائرة التعليم في

---

(١) القطشان ، عبدالله: التعليم العربي الحكومي إبان الحكم التركي والانتداب البريطاني ، ص ١٩٧-١٩٨.

شؤونها الداخلية[١].

ومن الملاحظ أن التعليم المسيحي في فلسطين قد ارتبط بنظام الامتيازات التي حصلت عليها مختلف القوى الأوروبية من الدولة العثمانية في فترات مختلفة، ويعود تاريخه إلى عام ١٥٣١م ، وأخذت هذه القوى الأوربية تتنافس في تشييد المباني التعليمية في مختلف الولايات العثمانية[٢] ، وكان من بينها ٣٧٦ مدرسة فرنسية و ١٤ إيطالية و٩ دنمركية ، عام ١٩٢٦م[٣].

وقد كـان في فلسطين معهـد تخريج الدعـاة المسلميـن يسمى (الكلية الصلاحية)[٤] ، أمر الانتداب البريطاني بالإجهاز عليه عشية باشر الحكم في البلاد ، وهذه الكلية تقع في الناحية الشمالية الشرقية على بعد عشرات الأمتار من الحرم الشريف في المكان المعروف بدير القديس حنا ، وبدخول الجيش الإنجليزي القدس ٨/ ١٢/ ١٩١٧م سلمت هذه المدرسة إلى يد الآباء البيض الفرنسيين ، وهي اليوم مدرسة اكليريكية دينية للروم الكاثوليك.

ولو نظرنا كيف حولت هذه المدرسة المعدة لتعليم الفقه الإسلامي إلى كلية لاهوتية لتخريج المبشرين ، لوجدنا مدى الحقد على هذا الدين ومحاولة طمسه ، ظناً منهم أن فلسطين رومانية ، ويجب أن تعود كما كانت ، كل هذه بمساعدة

---

(١) القطشان ، عبد الله : التعليم في فلسطين ، ح ٢ ، ص ٥٧.

(٢) B.N The End of the capitulation system the British year Book of international Oxford University press No Date p. 89.

(٣) wilsoni Florance : Report Near East Educational survey. P. 101

(٤) الكلية الصلاحية : أسست في القدس ونسبت إلى صلاح الدين ، وكانت بمثابة مدرسة دينية عالية (انظر ساطع الخضري ، حولية الثقافة العربية ، ص ١٣).

الإنجليز. ولما اطمأنوا إلى أنه لن يكون للإسلام دعاة مرشدون في فلسطين أرادوا أن يجلبوا إلى الأرض المستباحة مللاً أخرى تثير الفوضى الدينية فيها ، وتبلبل الأفكار ، وتهيىء الظروف لإقامة دول إسرائيل ، وفي الوقت نفسه احتضنوا البهائية[١] البعيدة عن روح الإسلام الصحيح.

فالمهم لدى الإنجليز إحداث شتات وبعثرة ، وفي الوقت الذي يجد فيه رجال التبشير الفرصة للقيام بدورهم كاملاً ، والميدان خال من الحرس ، أو الحراس مشغولون فيه بغيرهم.

وفي هذه الأثناء أنشئت المعاهد على يد الإرساليات التبشيرية ، والتي يمكن تصنيفها وفق مذاهب الإرساليات التبشيرية على النحو التالي:

أولاً: المعاهد اللاتينية والكاثوليكية:

تعد الإرساليات اللاتينية أقدم الإرساليات نشاطاً في ميدان التعليم ، حيث أنشأت لها مدارس داخلية في دير الفرنسيسكان في القدس منذ عام ١٧٠٠م ، وتوالي إنشاء المدارس ، وفي عام ١٨٤٨م ، أنشئت مدرسة مار يوسف للبنات ، ثم مدرسة الكرسي البطريركي للشباب عام ١٨٦٠م ، وفي عام ١٨٦٥م مدرسة راهبات صهيون للبنات ، وفي عام ١٨٨٢م مدرسة الروم الكاثوليك. في عام ١٩٠٩م أنشئت مدرسة راهبات المحبة والراهبات الكرمليات ، وفي عام

(١) البهائية : فرقة ظاهرها الإصلاح الديني والاجتماعي ، وباطنها تلفيق عقيدة جديدة من أديان ومبادىء مختلفة. أسسها حسين علي نوري بن عباس بن برزك الميرزا المعروف بالبهاء وهو إيراني مستعرب ، جاء ببدعة مستهجنة قاومه العلماء بشدة واعتقل ، وطرد ، توفي سنة (١٨٩٢م) من آثاره (الكتاب الأقدس) و(الإيقان) و(الهيكل) و(الألواح) الأعلام (٢/ ٢٤٨).

١٩٢٩م حلت مدرسة تراسانطة محل المدرسة الإيطالية ، وفي القدس كانت مدرسة شيدت للبنات ، التي كانت تضم صفوفاً من البنات وحتى نهاية المرحلة الثانوية وهي مدرسة متكاملة وغالبية المدارس في المدينة المقدسة(١).

ثانياً : المعاهد البروتستانية والإنجليكانية:

نعلم جميعاً النشاط المحموم الذي بذلته الإرساليات التبشيرية ، وتنافسها الكبير من أجل افتتاح المدارس والكليات ففي عام ١٨٤٧م افتتحت مدرسة (The Dioceisan Boys school) في المدينة المقدسة وفي عام ١٨٥١م أنشئت مدرسة صهيون الداخلية للصبيان ، ومدرسة يومية للبنات في القدس عام ١٨٧٠م ، كما أنشئت هذه الجمعية مدارس في بيت لحم ، وبيت جالا ، والرملة ، ويافا ، ونابلس ، وفي غزة اثنتان للصبيان واثنتان للبنات ، وقد بلغ عدد المدارس في فلسطين والأردن (٣٥) مدرسة عام ١٨٨٢م وازداد العدد إلى (٤٠) مدرسة عام ١٨٩٦م(٢).

وهذا جدول يبين عدد المدارس والتلاميذ:

المدينة	عدد المدارس	عدد الطلاب بنين وبنات
القدس وقراها	٨	٤٨٢
يافا وقراها	٧	٥٦٥
غزة وقراها	٤	١٦٥

(١) مكاريوس ، شاهين : المعارف السورية ، ص ٤٧٠-٤٧٢.

(٢) Tibaw, A.L. British intertests In Palestine ps 226

نابلس وقراها	٨	١٩٠
الناصرة وقراها	١٥	٦٩٠ [1]

هذا وقد أنشئت مدرستان إنجليزيتان في القدس ، وهما: مدرسة القديس جورج ، وكلية القدس للبنات ، وكانت مدرسة البنات تدرس سنة واحدة بعد (المترك)[2] لإعداد المعلمات[3].

وسأعرض هنا لبعض المؤسسات التبشيرية ، التي ساهمت في بناء المدارس ، والإنفاق عليها ، وما يتعلق بها من جميع الجوانب.

١- الكنيسة البروتستانتية: وتتكون من مجموعة من الكنائس من أهمها: الكنسية الإنجليكانية والإنجليزية التي تأسست عام ١٨٤٢م بعد تأسيس القنصلية البريطانية في مدينة القدس بأربع سنوات ، وتتكون هذه الكنسية من الكنائس التالية:

أ- جمعية التبشير الكنسية (Church Missionary Gocity C.MS).

ب -إرسالية القدس والشرق (Jerusalemand The East Mission J.E.M)

ج -إرسالية لندن اليهودية (L. J. S) .

ويعود نشاط الإرساليات التبشيرية في حقل التعليم إلى عام ١٨٥٢م عندما أنشأ الأسقف (بيث جوبات) Biythap Gohat أول مدرسة في فلسطين ،

(١) Tibaw. A.L. British intertests In Palestine p. z 26.

(٢) المترك: يشمل الصفين الثالث والرابع الثانوي هي الدارسة الثانوية العليا تؤهل طلابها للتقدم لأداء امتحان شهادة الاجتياز إلى التعليم العالي (ما يعرف بمتروكليشن من فلسطين).

(٣) العارف ، عارف : المسيحية في القدس ، ص ١٦٩ ..

والمدرسة الثانية أسست عام ١٨٨٩م على يد الأسقف بيث Biyth أيضاً وسبب هذا التأخير العقبات من الحكومة التركية التي كانت تمنع مثل هذه المدارس[(١)].

٢- الكنسية الألمانية البروتستانتية « اللوثرية » من أشهر مدارسها ، دار الأيتام السورية التي أسسها القس (شنلر) عام ١٨٦٠م ومدرسة طاليتا قومي ومدرسة تريزا التي أسست عام ١٨٧٠م ، في يافا[(٢)].

٣- الكنسية البروتستانيتية الأمريكية: حيث يرجع نشاط المبشرين الأمريكيين في بلاد الشام إلى عام ١٨٢٠م ، وفي عام ١٨٣٥م افتتحت أول مدرسة بروتستانتية أمريكية في بيروت ، وفي عام ١٨٩٧م تأسست القنصلية الأمريكية في مدينة القدس ، وعين الدكتور جون جراهم) كأول قنصل أمريكي في فلسطين ، وفي عام ١٩١٤م تبين أن الكنسية البروتستانيتية الأمريكية تدير ١٧٤ مدرسة في سوريا وحدها[(٣)].

٤- الكنسية الكاثوليكية: حيث ينقسم الكاثوليك إلى مجموعات مختلفة من أهمها:

الروم الكاثوليك	الفرنسيسكان	الدومينكان
الكرمليون	راهبات ماري يوسف	راهبات صهيون
الفرير	راهبات الوردية	راهبات القديس كارلوس
المالزوية	اليسوعيون	جمعية الأرض المقدسة

---

(١) العارف ، عارف : المسيحية في القدس ، ص ١٦٩.

(٢) المرجع السابق نفسه ، ص ١٦٩.

(٣) العارف ، عارف : المسيحية في القدس ، ص ١٦٩.

راهبات القديس سارلز[١].

علماً بأن عدد الإرساليات الكاثوليكية إلى فلسطين وصل إلى أكثر من أربعين إرسالية تبشيرية.

٣- الطائفة الأرثوذكسية العربية: تعد من أكبر طوائف المسيحيين بفلسطين ، وتشكل ٤٣٪ من المسيحيين ، وهي تتبع لروسيا ، إذ أخذت حق حمايتهم من الدولة العثمانية ، عام ١٧٩١م ، وفي عام ١٨٥٨م أنشأت روسيا قنصلية في القدس ، وبعد ذلك تم تشييد دار المعلمين في مدينة صفد ثم شيدت (١٠٠) مدرسة في مختلف أرجاء بلاد الشام ، وكانت المدارس الروسية من أرقى المدارس وأحدثها ، وكانت تتبع للجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الروسية أكثر من (٢٥) مدرسة في فلسطين حتى عام ١٩٠٧م[٢].

*** الامتيازات ومدى علاقتها بالتعليم في فلسطين:**

من الجدير بالذكر أن المصادر تتفق على أن نظام الامتيازات (privileges) يعود لعام ١٥٣١م عندما منح السلطان العثماني القانوني[٣] ملك فرنسا فرنسوا الأول[٤]

---

(١) Nardi Noacho, Zionism and Education Columbia University 1934 p 132 New York.

(٢) ياغي ، عبد الرحمن: حياة الأدب الفلسطيني الحديث من أول النهضة حتى النكسة ، ص٣٠.

(٣) سليمان القانوني (١٤٥٩-١٥٦٦): سلطان عثماني (١٥٢٠-١٥٦٦) الابن الوحيد للسلطان سليم الأول في عهده بلغت الإمبراطورية أوجها ، وعرفت نهضة مرموقة في حقول التشريع والأدب وفن العمارة ، فتح بلغراد (عام ١٥٢١) ورودس (١٥٢٢) وهزم القوات المجرية معركة موهاج عام (١٥٢٦) وحاصر فيينا (١٥٢٩) موسوعة المورد العربية (٢/ ٦٣٥).

(٤) فرانسوا الأول (١٤٩٤-١٥٤٧) : ملك فرنسا (١٥١٥-١٥٤٧) أحدث تغييراً جذرياً في بنية

امتيازات تجارية وقانونية لرعاية الدولة الفرنسية ، وتبع ذلك إبرام معاهدات مختلفة بين الدولة العثمانية ومختلف الدول الأوروبية تتعلق بالامتيازات التجارية والقانونية والدينية والثقافية في الأراضي التابعة للدولة العثمانية بما فيها فلسطين(١) .

وحصلت هولندا على امتيازات مماثلة للامتيازات الفرنسية عام ١٦١٢م ، أما إنجلترا ففي عام ١٨٥١م أسست شركة (levant company) التي أولت النشاط التجاري في بلاد الشام عناية كبيرة ، وكانت هذه الامتيازات للتشجيع التجاري عندما كانت الدولة العثمانية في أوجها وفي نهاية القرن الثامن عشر اتخذت هذه الامتيازات شكل معاهدات غير متكافئة فرضتها القوى الأوروبية على الدولة العثمانية التي بدأت في التقهقر على خريطة العالم السياسية ، وبمرور الوقت أصبحت هذه الامتيازات حقوقاً مكتسبة تتمتع بها رعايا الدول الأجنبية(٢) .

وقد أصبحت الدولة العثمانية عاجزة عن وضع الرسوم ، والجمارك والضرائب على المصانع والمصارف والمؤسسات ، لتؤكد سيطرتها على فلسطين ، وكانت القوى الأوروبية تتحين الظروف الملائمة للانقضاض على جسم الدولة المتقهقرة ، فكانت المحاولات جادة وسريعة ، إذ استطاعت بريطانيا فتح قنصلية

بلاده الاقتصادية والاجتماعية سلخ الشطر الأكبر من فترة حكمه في محاولة الاستيلاء على إيطاليا ، وفي مناوأة الإمبراطور شارل الخامس (شرلكان) فخرج وأسر في معركة بافيا (عام ١٥٢٥). شجع الفنون فبلغت النهضة الفرنسية في عهده أوج ازدهارها (موسوعة المورد العربية (٣/ ٨٣٧).

(١) B.N The End of the Capitulation the British year Biik of international law oxford University press No, Date p. 89 .

(٢) الحصري ، ساطع : البلاد العربية والدولة ، ص ١٤٣.

لها في القدس عام ١٨٣٨م ، وأسست الأسقفية البروتستانتية في القدس عام ١٨٤٠م ، كما بدأت فرنسا في تقديم الحماية للكنيسة اللاتينية وأنشأت لها قنصلية في القدس وأصبحت الطوائف التبشيرية تتمتع بحق إقامة المؤسسات الدينية ، والثقافية والخيرية بمنأى عن الإشراف المباشر للسلطات العثمانية.

* نشأة المدارس التبشيرية:

يعود تاريخ نشأة المدارس التبشيرية إلى بداية منح الامتيازات الأجنبية ، التي تمكنت بموجبها الجماعات المسيحية في فلسطين أن تتمتع بقسط وافر من الحكم الذاتي ، واستفادت هذه الجماعات بفتح عدد من المدارس التبشيرية أينما وجدت تجمعات سكانية في مختلف أرجاء فلسطين ، ونشطت هذه الجماعات خاصة عندما أولتها الحكومات الأوروبية قدراً كبيراً من الدعم المادي والمعنوي ، لأنها كانت تتنافس للسيطرة على فلسطين. ولكن ضررها كان أكبر بكثير من نفعها ، إذ قدمت هذه المدارس نفعاً للمسلمين بإدخال المطابع والنشرات والمجلات[1] .

وقد قدر عدد الإرساليات المسيحية التبشيرية الأجنبية بها لا يقل عن سبع

---

(١) لم تكن الإرساليات التبشيرية هي أول من أدخل العلم والمعرفة إلى بلاد الشام فقد سبقها المصريون إلى ذلك ، إذ أسس إبراهيم باشا عدداً من المدارس العسكرية في دمشق وأنطاكية وحلب ، بلغ مجموع الطلاب فيها نحو ألف ، وغايتها الأولى: إعداد الضباط الدين يعرفون القراءة والكتابة ، إلى جانب أن بعض ابناء الموظفين والموسرين أرسلوا إلى مصر للتعلم في مدارسها المختلفة. وقد أدخل المصريون إلى سورية عدداً كبيراً من الكتب التي طبعت في بولاق باللغة العربية وبذلك يتبين أن المصريين قد سبقوا الإرساليات التبشيرية بنحو جيل على الأقل . انظر كتاب « دراسات عربية وإسلامية » للطيباوي (ص١١٣ وما بعدها) .

وعشرين جمعية تبشيرية[١] .

ومن خلال هذا العرض يتبين لنا خطورة هذه المدارس التي عملت على نمو التعليم المسيحي وازدهاره مستغلة مفهوم نظام الامتيازات ، وكذلك ظهور المدارس المختلطة ، والبعيدة كل البعد عن واقعنا المسلم. وكانت المؤسسات الأجنبية تشرف على أكثر من ٩٠٪ من هذه المدارس ، بينما أهمل التعليم كلياً في المناطق العربية المسلمة ، والأخطر من ذلك أن هذه المدارس والمؤسسات شكلت خطراً كبيراً عندما كانت البعثات التبشيرية تساعد في طباعة النشرات السياسية ، التي أدت إلى الانقسامات الداخلية ، فاختلطت مساوىء المنافسة الدولية وشرورها بحسنات التعليم ومنافعه[٢] .

أما (ساطع الحصري) فقال: ومن الطبيعي أن تستفيد هذه المؤسسات من الامتيازات الأجنبية والحماية من الدولة التي تنتسب إليها ، لأنها كانت تخدم مصالح دولتها بصورة مباشرة. أو غير مباشرة ، وتساهم مساهمة كبيرة في توسيع نفوذها ، وتقويته من الوجهتين المادية والمعنوية وكانت كل دولة من الدول الكبرى تسعى إلى زيادة مؤسساتها الاقتصادية ، والثقافية في الممالك العثمانية ، وكانت تركز معظم جهودها في المناطق التي تطمع في احتلالها يوماً من الأيام ، لأن النفوذ الاقتصادي والثقافي الذي اكتسبته هذه الدول بوساطة هذه المؤسسات كثيراً ما كان يسبق الاحتلال السياسي ، والعسكري وبمراحل[٣] .

(١) الخالدي مصطفى ، فروخ عمر : التبشير والاستعمار في البلاد العربية ص١٨١ .

(٢) ياسين ، هلال: الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين ١٨٨٢-١٩٤٨م ، ص٨٥.

(٣) الحصري ، ساطع : البلاد العربية ، ص ١٤٦.

ونضيف قائلين: ليس من المعقول هذا أن يكون التنافس الكبير بين الدول الاستعمارية ومؤسسات التبشير المختلفة خدمة إنسانية بريئة ، ومتى عرف الغازي الرحمة بالشعوب المغلوبة؟! ولكننا ندرك الدور الخطر الذي قامت به هذه المؤسسات الثقافية في علمية الاستعمار الأوروبي الحديث في كثير من مناطق العالم ، وهناك أمثلة كثيرة ، نذكر منها موقف فرنسا من الكنيسة ورجال الدين الذين اضطهدوا ، وعذبوا ، وصودرت ممتلكات الكنائس في فرنسا ، تجدهم في بلادنا يقدمون الدعم والحماية والتأييد دون حدود للبعثات التبشيرية وتقديم العون للرهبان الكاثوليك في مختلف أنحاء فلسطين بعد أن طردتهم فرنسا من أراضيها.

إن هذه المدارس كسبت شهرة واسعة ، مما جعل أبناء المسلمين يتنافسون عليها بل يتسابقون في الدخول إليها نتيجة الظروف القاسية التي يعيشونها ، ومع ذلك كسبت هذه المدارس احترام السكان العرب بالتضليل الذي نشرته هذه المؤسسات الثقافية ، اعتماداً على جهل المواطن العربي بخطورتها وشرها. لقد بينا الظروف التي نشأت فيها المدارس المسيحية ، ثم استعراضنا الطوائف والكنائس التي كانت تدعمها ومع ندرة المصادر ، إلا أنه يجب علينا وعلى الرغم من العقبات الكشف عن التعليم التبشيري المسيحي ، فقد أشار الدكتور عبد الرحمن ياغي: أن عدد الطلاب المسيحيين في متصرفيات : القدس ، عكا ، ونابلس بلغ (٣٤٤٥) طالباً نقلاً عن النشرة الرسمية العثمانية لعام ١٩١٣/ ١٩١٤م[1].

ولكن هذا العدد لا يتناسب مع عدد المسيحيين في فلسطين ككل ، والسبب :

---

(١) ياغي ، عبدالرحمن: حياة الأدب الفلسطيني الحديث من أول النهضة حتى النكسة ، ص ٦٨.

أن المدارس الألمانية وحدها ضمت أكثر من (٢٧٣٦) طالباً في القدس علماً أن عدد المسيحيين إجمالاً يقدر بـ (٦٧.٠٠٠) ألف نسمة في عام ١٩١٤م ، ولو أخذنا نسبة الأطفال في سن التعليم ، لتبين لنا أن العدد يفوق (١٥.٠٠٠) تلميذ في سن التعليم ، وهذا ما أكدته الأبحاث والدراسات فهذا مصطفى مراد الدباغ[1] في كتابه (بلادنا فلسطين) نقل معلومات عن الكتاب السنوي لوزارة المعارف العمومية العثمانية ، وعلى تقارير ولاية بيروت تبين لنا من خلال هذه الدراسة أن متصرفية القدس بها (١٠٧) مدارس مسيحية ، ضمت ما لا يقل عن (٥٥١٢) تلميذاً ، ولواء عكا وبه (٧٤) مدرسة ضمت ما لا يقل عن (٢٥٥٩) تلميذاً ، ولواء نابلس وبه (١٩) مدرسة ، وضمت ما لا يقل عن ٨٩٩ تلميذاً ، فهذه نسبة معقولة وقريبة جداً من الإحصاءات الرسمية[2].

سادساً : المعاهد الروسية الأرثوذكسية:

فقد بذلت الحكومة الروسية جهوداً كبيرة لإرضاء البطريركية ، وفي عام ١٨٦٦م اشترى رئيس البعثة الروسية في القدس أرضاً في بيت جالا ، وبنى

---

(١) مصطفى الدباغ : مرب مؤرخ ، حذق التركية والإنجليزية ، عمل في الجيش العثماني فأرسل إلى الحجاز ، فلما أعلن الشريف ثورته التحق بالجيش العربي ، ثم عاد إلى فلسطين بعد سقوطها بيد الإنجليز ، فعمل بوظائف التعليم حتى نكبة ١٩٤٨م ، ثم درس بحلب وقصد بيروت ، ثم الصفة العربية ، وترقى في وظائف وزارة المعارف الأردنية ، حتى كان وكيلاً للوزارة من مصفاته: الموجز في تاريخ فلسطين و بلادنا فلسطين (١١) جزءاً توفي سنة ١٩٨٩م إتمام الأعلام (١٨٧) ومن أعلام الفكر في فلسطين.

(٢) F. 0371–8993–E 7942/53/65

See: F:O 371λ9003/Reoert palestine admimistration 922.
See;F.o.371/2/064/21868/2869.
See Colonial Office Report.palestine Beyal Commission

عليها مدرسة لبنات العرب الأرثوذكس ، ثم تحولت إلى معهد لتدريب المعلمـات بعد أن أصبحت تحت إشراف جمعية فلسطين الروسية الإمبراطورية[١].

ففي عام ١٨٨٢م أنشئت مدرسة في المجيدل ، وفي عام ١٨٨٥م أنشئت مدرسة لهم في الناصرة والواقع أن النشاط الثقافي الروسي لم يبدأ بصورة منتظمة وفعالة إلا بعد تأسيس جمعية فلسطين الروسية ، وأخذت الجمعية الروسية توفد خيرة متخرجيها إلى روسيا لإكمال تعليمهم ، وفي عام ١٩١٤م أغلقت المدارس الروسية في فلسطين بعد إعلان الحرب العالمية الأولى ، وعاد جميع المدرسين الروس إلى بلادهم[٢] .

وهذا جدول يبين المذاهب وعدد مدارسها وعدد طلابها :

المذهب	المدارس	التلاميذ
الكاثوليكي	١١٩	١٥٧٠٠
البروتستنتي	٣٤	٤٩١٩
الأرثوذكسي	٢٨	٣٦٣٥
مذاهب أخرى	١٤	١٠٢٠
المجموع	١٩٥	٢٥٢٧٤[٣]

وقد ذكر تقرير حكومة فلسطين حول الإدارة المدنية عام ١٩٢٢م بأن فرص

(١) محافظة على الحركات الفكرية في عصر النهضة في فلسطين والأردن ص ٤٣.

(٢) دانمر أسعد : المدارس الروسية في سورية ، المقتطف ١٩٠١ ، ص ٩٠١.

(٣) (تقارير سنوية صادرة عن دائرة التعليم التابعة لحكومة فلسطين) A.R, 1939-194 p.7

التعليم لم تتسع إلا لما نسبته ٥٧٪ من الأطفال المسيحيين ، وذكر التقرير أن عدد التلاميذ المسيحيين في ١٩٤٤/١٩٤٥م ، بلغ ٢٨٧١٧ تلميذاً في مختلف المراحل[١].

من خلال مقارنة مختلف الوثائق وتحليلها يتبين أن نسبة الذي التحقوا بالمدارس من السكان المسيحيين كالتالي:

العام الدراسي	عدد المسيحيين في سن التعليم	عدد المسيحيين في المدارس	نسبتهم
١٩٢٢/٢١	١٥٨٤٢	١١٨٥٦	٧٥٪
١٩٢٩/٢٨	١٧٥٦٥	١٥١٣٩	٨٦٪
١٩٣٧/٣٦	٢٣٥٨٥	٢٢٤١٠	٩٥٪
١٩٤٤/٤٣	٢٨٥٥٢	٢٧٧٣٩	٩٧٪
١٩٤٨/٤٧	٣٠١٠٠	٣٠١٠٠	١٠٠٪[٢]

نلاحظ مدى الإقبال على التعليم في حين كان المدارس الإسلامية كانت قليلة في عددها وعدد طلابها.

أما بالنسبة للتعليم الزراعي: فقد افتتحت أول مدرسة زراعية في بداية حكم الانتداب على بلادنا ، فمدرسة خضوري الزراعية افتتحت عام ١٩٣١م ، ولم تقبل إلا أعداد قليلة من الطلاب العرب ، وكان الهدف من إنشائها ينحصر

(١) A.R 1944–1945 p 33

(٢) نعني التقارير السنوية الصادرة عن فلسطين (دائرة التعليم) التابعة لحكومة فلسطين A.R.p 33 ١٩٤٥-١٩٤٤ .

بالدرجة الأولى في تخريج معلمين زراعيين وموظفين يعملون في دائرة الزراعة ، وحتى هذه المدرسة تعرضت للتعطيل ، بسبب تمركز القوات البريطانية بداخلها لعدد من السنوات ومع هذا التأخر الزراعي ، وقلة المراكز ، كانت الطائفة المسيحية والتي تشكل ١١٪ من السكان العرب مزودة بأكثر من مدرسة زراعية. ففي عام ١٩٢٥م أصبح عدد المدارس الزراعية المسيحية مدرستين ، عمل بهما أحد عشر معلماً ، وضمتا ٦٤ طالباً[(١)] .

وفي عام ١٩٣٦م ارتفع عدد المدارس الزراعية المسيحية إلى ثلاث مدارس هي:

١- مدرسة الســاليزان الزراعية Salesian تقع في بيت جمالا ، التحق بها (٧١) طالباً في عام ١٩٣٦م[(٢)] .

٢- دار الأيتام الزراعية للآباء الترابسنين ، تقع المدرسة في اللطرون بالقدس ، وضمت (١٦) طالباً حتى عام ١٩٣١م.

٣- المدرسة الزراعية في رفات Rafat ، التحق بها ٣٢ طالباً في الفترة نفسها[(٣)] .

التعليم الفني: تأخرت حكومة الانتداب في تزويد العرب المسلمين بأي مدرسة تقنية حتى عام ١٩٣٦م ، وبعد ذلك تم تزويد العرب المسلمين بمدرسة واحدة افتتحت في حيفا ، وقد تم الاستيلاء على هذه المدرسة حتى عام ١٩٤٥م، ولكن لو نظرنا لواقع المسيحيين لكان أفضل بكثير ، حيث زودوا

---

(١) الحصري ، ساطع : حولية الثقافة العربية ، ص ١٧

(٢) AR. 1924–1925 P.26

(٣) C.of.P. Memorandum 1937 oli ,p.28.

بأربع مدارس فنية ، عمل بها (٢٦) معلماً ، وضمت (٥٥٣) طالباً وطالبة حتى عام ١٩٢٢م[١].

وفيما يلي نبذة عن هذه المدارس الفنية المسيحية التبشيرية:

١- دار الأيتام السورية: وهي تتبع الإرساليات الألمانية (البروتستانتية) وترجع إلى عام ١٨٦٠م ، وهي أشهر مدرسة مسيحية كانت لصناعة الفخار والتجارة والصناعات الجلدية والخزفية ، وفي عام ١٩٣٩م تم طرد الألمان من فلسطين واستيلاء بريطانيا عليها وبقيت في يد حكومة الانتداب حتى قيام دولة إسرائيل[٢].

٢- مدرسة النسيج في بيت لحم: وكانت تابعة لعصبة النساء الكاثوليكيات.

٣- المدرسة الصناعية للبنات ، وتقع في القدس ، وكانت تتبع إحدى الإرساليات الأمريكية ، وأشرفت جمعية يهود لندن على ورشتين تابعتين لمدرستين ابتدائيتين في مدينة القدس[٣].

وقد كانت هذه المدارس تتبع لعدد من الإرساليات الأجنبية في إداراتها ، ولكنها تتبع مجلس التعليم العالي الفلسطيني ، ولم يواجه طلاب هذه المدارس أي مشكلة في الالتحاق بالجامعات الأجنبية ، وكان التعليم فيها بإحدى اللغات الأوروبية: الفرنسية ، أو الألمانية أو الإنجليزية أو الإيطالية وكانت هذه المدارس أضعاف المدارس بالوسط العربي ، مع الفارق الكبير في عدد السكان ، فهذه

---

(١) C.of.P. Memorandum 1937 Vol1,p 28.

(٢) العارف ، عارف : المسيحية في القدس ص ١٧٦

(٣) See. Op. Git p.9

سياسة أوروبية حاقدة وهادفة.

ويمكننا تقسم هذه المدارس حسب لغات التعليم والفصول وعدد الطلاب على النحو التالي: عام ١٩٣٩م :

المدرسة	عدد المدارس	عدد الفصول	عدد التلاميذ
المدارس التي تعلم اللغة الإنجليزية	١٥	٥٦	١٠١٣
المدارس التي تعلم اللغة الفرنسية	٩	٣٥	٥٧١
المدارس التي تعلم اللغة الألمانية	٥	٩	٨٧
المدارس التي تعلم اللغة اليونانية	١	٣	١٧
المدارس التي تعلم اللغة الإيطالية	٤	١٠	٩٣ (١)

وسأقوم باستعراض للمدارس والكليات التابعة للإرساليات التبشيرية في مدن فلسطين بادئاً من القدس حتى عام ١٩٤٤/ ١٩٤٥ :

المدرسة	عدد الطلاب
مدرسة القديس جورج	١٨٩
مدرسة المطران غوبات	١٣٨
كلية تراسنطة	١٥٤
كلية البنات الإنجيلية	١٤٩
مدرسة شمت للبنات	١٦١
مدرسة مريم العذراء الإنجليزية	٦٢
كلية الفرير	٩٣

(١) A.R. Education in Palestine p.123.

مدرسة نوتردام	٣٢
مدرسة القديس يوسف	٤٤
كلية النهضة	٨٧
مدرسة الأمة	٣٧
الجمنازيوم الأرثوذكسية اليونانية	٨٧
المعهد اللاهوني الأرمني	٢٥
مدرسة تراسنطة للبنين	١٥
مدرسة تراسنطة للبنات	١١
مدرسة القديسة مريم	٢٢
رام الله	
مدرسة الفرندز للبنين	١٥٥
مدرسة الفرندز للبنات	٧٦
مدرسة اللاتين للبنين	٩
مدرسة اللاتين للبنات	٣
مدرسة بيرزيت الثانوية للبنين	٧٤
مدرسة بيرزيت الثانوية للبنات	٣٧
يافا	
مدرسة طاليتا قومي	٦٤
المدرسة الإنجليزية العليا	١٣٦
كلية القديس يوسف	٨٤
الداخلية الفرير	-
مدرسة تراسنطة للبنين	٢٣

مدرسة تراسنطة للبنات	١٣
الرملة	
مدرسة القديس يوسف للبنات	٣٤
غزة	
كلية غزة	٨٣
حيفا	
مدرسة البنات العليا	١١٠
مدرسة القديس لوك	٩٠
راهبات الناصرة	٧١
كلية الفرير	٥٨
مدرسة القديس بول	٣٧
مدرسة السلزيان للبنين	٥٣
مدرسة الأخوات الكرمليان الإيطالية	١٠
مدرسة القديس يوسف الكرملية	١٠
بيت لحم	
مدرسة تراسنطة للبنين	٦
مدرسة تراسنطة للبنات	١٧
مدرسة القديس يوسف	٢٣
مدرسة الراعي الطيب	٤
عكا	
المدرسة الوطنية الثانوية	١٩

الناصرة	
مدرسة الإرسالبات الفرنسيسكان	١٤ [(١)]

نلاحظ هنا أن الإرساليات قامت ببناء هذا العدد الضخم من المدارس الثانوية ، في حين تكاسل الانتداب عن بناء المدارس الثانوية للعرب ، لا في القرى إلا العدد الضئيل جداً ، وهذا ظلم وأي ظلم تطلق يد الإرساليات في البناء والتعليم ، ويمنع المواطنون العرب المسلمون من بناء المدارس ، فالعملية مقصودة ، وهي تجهيل هذا الشعب ، حتى يسهل عليهم إقامة الوطن القومي اليهودي الذي التزموا به.

ونلاحظ أيضاً في المدارس التي تعلم الإنجليزية تحتل الصدارة من حيث عدد الصفوف والمدارس والتلاميذ ، وتلتها الفرنسية وكانت المدارس الثانوية تحتل ٢٧٪ من المجموع للمدارس.

وقد انتقد العرب هذه المدارس المسيحية على النحو التالي:

١- أن المدارس ودور التبشير لم تؤسس لتأخذ بين الثقافة العربية وتقوي العرب بل أسست لمكافحة هذه الثقافة.

٢- أن المبشرين هم عيون بلادهم حاولوا دائماً إثارة الفتن والفوضى الفكرية.

*** أهل الذمة في ظل الحكم الإسلامي:**

يجد الباحث في العلاقة بين مدارس أهل الذمة والتنصير أن الذين يتولون

---

(١) Ibid : p28.

التدريس في هذه المدارس جلهم أو كلهم من الرهبان والقسيسين ، سواء كانوا نساء أم رجالاً. وكان المدرسون في هذه المدارس يحاولون التأثير على الطلاب ، وإعطاءهم صورة جميلة عن الديانة النصرانية ، علماً أن الرهبان لم يكونوا متخصصين في الدين فقط ، بل في مواد أخرى كالرياضيات والجيولوجيا والفلسفة وغيرها من المواد الدراسية ، وهذا الحكم عام على جميع المدارس التي يدرس فيها النصارى. وكان معظم المدرسين متخصصين من فرنسا أو بريطانيا وكان الجو الدراسي يمتاز بأنه جو نصراني خالص من حيث سكن الطلاب والمطعم وقاعة المحاضرات والفصول الدراسية كانت مزينة بصور القديس وصور كبار رجالات الدين النصراني ، إضافة إلى أن جميع الفصول الدراسية وغرف الفسحة كانت مزينة بالصليب ، هذا وكان الارتباط قوياً بين المدرسة والكنيسة ، فليس عجيباً أن تعطى بعض الدروس في الكنيسة وبشكل عملي أحياناً ، خاصة أثناء الأيام المقدسة عندهم ، وأما الأيتام فكان ارتباطهم بالكنيسة أكثر من غيرهم[(١)] ، فما ظنك بأبناء المسلمين في مثل هذه الظروف والذين يدرسون على نفقة الكنيسة ، وطالما أن تأثير الطقوس الدينية التي تمر كل أسبوع تجعلهم يقتربون من النصرانية يوماً بعد يوم ، علماً أن أكثر من ٨٠٪ من أبناء المسلمين أصحاب النفوذ يدخلون هذه المدارس[(٢)].

---

(١) الصابان ، سهيل : المؤسسات التعليمية الأجنبية في استانبول ، ص ١٥٣-١٥٤.

(٢) عجباً لهذه الأمة كيف لا تواجه خصومها بالسلاح الذي تحارب به ، فهم يدخلون الدين في كل شيء ، ونحن سعد الدين عن كل شيء ونفصل بينه وبين الواقع المعاش ، وهم ينجحون في نهاية المطاف ، ونحن نعاني من الخسائر المتتالية ، والسبب واضح لا يحتاج إلى تعليق.

ويقول روفائيل بطي[١] وهو مؤلف وأديب نصراني ، صاحب كتاب: تاريخ نصارى العراق ، وكان أسلوب التعليم أداة فعالة من أدوات التبشير الكاثوليكي البابوي ، وأكثر وضوحاً في طائفة الكلدان من غيرها ، خاصة عندما نجح المبشرون البابويون في تحويل عدد من بطاركة الطائفة الكلدانية إلى كاثوليكية ، وكان هذا مشجعاً جداً للبابوية كي تعمل على فتح أبواب مدارسها في الشرق أمام رجال الدين الشرقيين[٢].

وفيما يتعلق بمجانية التعليم فقد كانت هذه المدارس التبشيرية سبباً في جذب أبناء المسلمين ، وكانت هذه المدارس تمول من قبل الدول التي أنشأتها ، إذ كانت فرنسا تخصص سنوياً مليونا ومئتي فرنك فرنسي لهذه المدارس التابعة لها. وكان الفرنسيون يعملون على نشر المذهب الكاثوليكي والثقافة الفرنسية[٣].

وقد ساعد في دعم هذه المدارس: أن الكنائس كان لها ريع خاص ، ودخل خاص تجعل منه جزءاً لعملية التعليم في هذه المدارس ، وأما المدارس فالغالب منها عمل على إنشاء الجمعيات التنصيرية ، ومن هذه الجمعيات التي معظمها

---

(١) روفائيل بطي : كاتب صحفي عراقي ، من مؤرخي الأدب العربي الحديث ، رأس تحرير جريدة (العراق) البغدادية ، وأصدر مجلة (الحرية) ثم جريرة الربيع ثم جريدة البلاد اليومية ، وعاشت (٢٧) سنة وأنتخب نائباً عن لواء (البصرة) في مجلس الأمة ست مرات ، كما أنتخب عميداً للصحفيين من مصنفاته (الأدب العصري في العراق العربي والصحافة في العراق توفي سنة (١٩٥٦) . الأعلام (٣/ ٣٥) ، وتاريخ الصحافة العربية (٤/ ٨٢) ومعجم المؤلفين العراقيين (١/ ٤٧٩).

(٢) روفائيل ، بطي : تاريخ نصارى العراق ، ص ١٤٨.

(٣) جرجس ، سلامة : تاريخ التعليم الأجنبي في مصر ، ص ١٢٩.

في القدس:

أ- جمعية الجزويت (اليسوعيين).

ب- جمعية العازريين.

ج- جمعية الدومينكان.

د- جمعية الفرنسيسكان.

هـ- جمعية البروتستانت.

وكذلك الدول وعلى رأسها : فرنسا ، إيطاليا ، بريطانيا ، ألمانيا ، النمسا ، روسيا وغيرها.

*** الآثار المترتبة على انتشار المدارس التنصيرية:**

كان الهدف من إنشاء هذه المدارس تنشئة جيل بعيد عن الإسلام متشكك فيه ، ليسهل القضاء عليه ، وعلى وحدة المسلمين المتمثلة في الدولة العثمانية التي كانت حجر عثرة أمام الاستعمار الغربي ، الذي ما فتىء يضرب المسلمين بكل الوسائل ، وقد وضع الأعداء خطة طويلة الأمد لإبعاد المسلمين عن دينهم ، دون إثارة واستفزاز وبأيدي المسلمين أنفسهم ، وذلك بهدم العقيدة ، ثم إفساد الأخلاق(١).

وتأكيد للهدف الأول يقول أحد المبشرين(٢): يجب أن نشجع إنشاء المدارس على النمط الغربي العلماني؛ لأن كثيراً من المسلمين قد زعزع اعتقادهم بسبب ما

---

(١) النعمة ، إبراهيم : مجلة الأمة ، ص ٧٤-٨٠.

(٢) هو المبشر تكلي .

درسوه في المدارس التبشيرية، والمناهج الغربية وتعلموا اللغات الأجنبية[١].

هذا الهدف يبدو واضحاً من تصريحات المنصرين في تشكيك المسلمين وأبناءهم في عقائدهم، وتشكيكهم في أخبار القرآن وأحكامه في كل ما هو ثابت في هذا الدين؛ إذ كانت هذه المدارس صورة طبق الأصل للمدارس الموجودة في الدول التي تمولها سواء من حيث البناء والفصول الدراسية، أو المناهج، إضافة إلى أنها صليبية الطابع والمظهر، مع أن أكثر المدارس في بلدانهم منذ أواخر القرن التاسع عشر علمانية، ولا علاقة لها بالدين أو الكنيسة إلا في نطاق ضيق، وكان أغلب المدرسين من الرهبان أرسلوا من دول الغرب للتنصير بين المسلمين، أو من النصارى في الداخل[٢].

١- الآثار الفكرية لهذه المدارس:

أ- وصف الإسلام بالجمود والتأخر.

ب- بذل الجهود في إقناع الطلاب بأن الإسلام هو سبب تأخر المسلمين، وأن تقدم الغرب راجع لتمسكهم بالنصرانية.

ت- تمجيد رجال الفكر الغربي، والحط من قدر العلماء المسلمين ومفكريهم

---

(١) الدهان، محمد، محمد: قوى الشر المتحالفة، ص ٨٤-٨٥.

(٢) إن جهود المبشرين كادت أن تثمر من أنحاء العالم الإسلامي، فقد خرجت في القرن الماضي قادة فكر علمانيين وساسة كرسوا خطط المستعمر في أوطانهم بعد أن رحل من تلك الديار، إن خططهم كانت مدروسة وجهودهم كانت متضافرة ومضيئة وما تزال تلوي في أساليبها لاقتحام ما تبقى من حصونها، انظر تربية الأطفال في رحاب الإسلام، لمحمد حامد الناصر وحوله درويش (ص ٥٣٣).

ووصفهم بالجمود والرجعية والتخلف وأن الحاجة لم تعد ماسة لهم[١].

ث- القضاء على الوحدة الإسلامية المتمثلة في الدولة العثمانية والسعي إلى هدم الخلافة.

ج- إبعاد الطلاب المسلمين عن الثقافة الإسلامية وإحلال الثقافة الغربية محلها ، ومن ذلك العناية بالمجلات ودور الأزياء والجرائد[٢].

ح- تشويه صورة الإسلام في نفوس الطلاب وإبعادهم عن تراثهم وإشعارهم أن ذلك التراث لا قيمة له ، ومن ثم تشجيعهم على الترجمة عن الغرب والدراسة في مدارسهم والرجوع إلى تراثهم.

خ- إدخال العامية مكان الفصحى ، وإدخال الكثير من الكلمات الأجنبية إلى العربية ، بل جعل اللغة الأجنبية هي لغة المكاتب والإدارات بين المثقفين.

يقول زويمر في مؤتمر أعمال المبشرين المنعقد في القدس عام ١٣٤٦هـ ، ١٩٢٨م : لقد أعددتم في ديار المسلمين شباباً لا يعرف الصلة بالله ، ولا يريد أن يعرفها ، وأخرجتم المسلم من إسلامه ولم تدخلوه في المسيحية وهذا بالطبع جاء بالغرس حسب ما زرع المستعمرون لا يهتم هذا الجيل للعظائم ، ويحب الراحة والكسل ولا يعرف من همه في دنياه إلا الشهوات[٣].

ومن الآثار أيضاً أن نبتت فكرة إلحادية تفيد أن الدين من الأعمال الفردية

(١) صقر ، عطية ، محمد : الإسلام في مواجهة التحديات ص ١٤٨.

(٢) قطب ، محمد : واقعنا المعاصر ، الآثار المترتبة على المدارس الأجنبية.

(٣) شرف ، عمار : حقائق عن البشير ، ص ٣٣.

والشخصية الخاصة بالإنسان ، والتي تترك فيها الحرية الكاملة ، ودون التقيد في ذلك بآداب اجتماعية معينة ، دون أن يكون لهذا الدين أدنى صلة بالنظم السياسية ، أو الاجتماعية أو الاقتصادية في الحياة[١].

ونتيجة للتسهيلات والامتيازات التي منحتها الدول العثمانية للرعايا الأجانب ، فقد بدأت المدارس التبشيرية في فتح أبوابها ، بالإضافة إلى الهجرة الصهيونية ، والتي بدأت تزداد في نهاية القرن التاسع عشر وتضافرت المؤسسات التبشيرية والصهيونية للوقوف أمام المؤسسات الإسلامية المبتدئة.

* * *

(١) محمود ، علي عبد الحليم: الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر ، ص١٣٩.

المبحث الثالث
آثار المبشرين في المستشفيات والمصحات

حددت منظمة الصحة العالمية مفهوم الصحة كما يلي : « إن الصحة هي الوضع الحياتي المتكامل جسدياً وعقلياً واجتماعياً ولا تقتصر على مجرد انعدام الداء والمرض »[١].

فالصحة إذاً لا تتعلق بوضع الجم وحده ، بل هي عملية توازن بين الجسم وأعضائه المختلفة من جهة ، وبين الجسم ومحيطه من جهة أخرى ، فهي وضع عام يمكن التأثير فيه سلباً وإيجاباً ، ويصعب إيجاد مقياس دقيق يمكن الاعتماد عليه لتحديد مدى الصحة التي يتمتع بها شعب ما ، ولكن يمكن الإجابة عن مجموعة من الأسئلة لتحديد المستوى الصحي في بلد ما وهي:

- **ما الأمراض الموجودة؟**
- **ما تأثير كل من هذه الأمراض في المجتمع؟ وما مدى انتشارها؟**
- **إلى أي مدى تمنعهم هذه الأمراض من مزاولة أعمالهم؟**

وقبل الإجابة عن هذه التساؤلات لابد من استعراض النقاط التالية:

١- المجتمع والصحة:

الصحة وضع اجتماعي يطلب من الإنسان أن يكون سليماً وصحيحاً حتى يصبح قادراً على الإنتاج والخدمة والإنسان يتصرف صحياً بشكل تلقائي ، من

---

(١) اللبدي ، عبد العزيز : الأحوال الصحية للشعب الفلسطيني ، ١٩٢٢-١٩٨٢ – ص٧

منطلق الحفاظ على الذات فهو يأكل صحياً ، ويلبس صحياً ويسكن صحياً ويحاول الحصول على العلاج إذا مرض وتعتمد طريقة التصرف الصحي على درجة وعي الإنسان ومستوى تعليمه وموقفه الاجتماعي وعلى المجتمع الذي يوفر له الأفكار والمعلومات والتوجيهات ، أي ما يسمى بالوعي الصحي الاجتماعي ، ويعتمد الوعي الصحي الاجتماعي على مدى المعرفة المتوفرة للمجتمع والتي تعتمد على تراكم المعلومات عبر التطور الحضاري لأي شعب من الشعوب ، وهذا الوعي الصحي الاجتماعي كاد يكون معدوماً في الواقع الفلسطيني بسبب قلة المعاهد والجامعات أو حتى المستشفيات وكان الاعتماد غالباً على الطب الشعبي[1].

٢- الدين والصحة:

فرض الدين الإسلامي الصلاة واشترط الوضوء والطهارة قبلها ، وعد النظافة من الإيمان وهناك الكثير من الآيات والأحاديث التي تنص على كيفية الحياة الصحية ، كما أن للدين دوراً غير مباشر من خلال المفاهيم الاجتماعية والعادات والقيم التي يفرضها والتي تتكون نتيجة التطور الاجتماعي المبني على الدين.

فمن الآيات الكريمة قوله تعالى:

١- ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾ [الأعراف : ٣١].

٢- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ

(١) اللبدي ، عبد العزيز : الأحوال الصحية والاجتماعية للشعب الفلسطيني ص٩.

﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة : ٦] .

وفي الحديث يقول الرسول ﷺ : « **إن الله خلق الداء والدواء ، فتداووا عباد الله** »(١) .

وقال ﷺ أيضاً : « **نظِّفوا أفنيتكم ...** »(٢) .

ومن خلال مطالعتنا للآيات الكريمة نلاحظ أن الإسلام حث على النظافة ، والتزين والتطهر وكل هذه مظاهر صحية ، بل عد الإسلام ذلك عبادة ، يؤجر عليها المسلم ، كيف لا وهو يحث على غسل اليدين قبل الأكل وبعده ، وما ذلك إلا صورة وعنواناً في الدعوة للصحة العامة.

٣- مستوى التطور الحضاري :

يلعب التطور الحضاري دوراً أساسياً في تحديد الوعي الصحي الاجتماعي ، ولعل من أهم منجزات هذا العصر اعتبار الصحة مسؤولية اجتماعية تتولاها الدولة. كما أن الوقاية من الأمراض أخذت جانبها المهم في تطوير الحياة حضارياً ، كتحسين المساكن ، وطرق تصريف النفايات بشكل يحافظ على الصحة(٣) .

ولكن لو نظرنا لفلسطين في هذه الفترة لوجدنا التأخر الصحي وإهمال

---

(١) رواه الدولابي (٢/٣٨) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/٨٦) والألباني في السلسلة الصحيحة (١٦٣٣).

(٢) رواه الترمذي (٢٧٩٩).

(٣) اللبدي ، عبد العزيز : الأحوال الصحية والاجتماعية للشعب الفلسطيني ص١٢.

حكومة الانتداب لهذا الجانب ، إضافة إلى أن المساكن غير صحية ، ولا يوجد مراكز صحية للتطعيم مثلاً ، أو معالجة المرض إلا ما قل ، وكانت حكومة الانتداب لا ترعى الصحة بما تستحق من رعاية ، لذلك انتشرت الأمراض التي فتكت بكثير من الناس ، وخاصة الأطفال لقلة المختصين بالصحي والمؤسسات الصحية في كل البلاد. فالأطباء وهم قلة يتركزون في المدن ، أما الأرياف فهي تخلف وحرمان من العناية الطبية الحقيقية.

*** الوضع خلال فترة الانتداب :**

كانت فلسطين قبل الانتداب قد بدأت مرحلة من التحديث والانفتاح على الحضارة الغربية ، وقد بدأت بذلك بشكل أو بآخر ، منذ حملة نابليون على مصر ثم على فلسطين حيث تقهقر أمام أسوار عكا[1] وكان لحملة نابليون آثار عدة أهمها أنه جلب إلى فلسطين التحالف البريطاني ، ثم الوعي الدولي بمطامع الصهيونية في فلسطين ، فبدأت عملية التحديث من خلال الانفتاح على التجارة الأجنبية ، والتي أعطتها الدولة العثمانية التسهيلات الكثيرة ، كما جاء قانون الوصاية الذي منحته الدولة العثمانية للدول الأوروبية للوصاية على الأقليات المسيحية عام ١٨٥٦م ليعطي عدة نتائج منها:

١- بدأت المدارس التبشيرية في فتح أبوابها أمام المسيحيين خاصة.

---

(١) يؤرخ بعض الكتاب – دون تمحيص – بدء النهضة الحديثة في مصر وسورية من حملة نابليون ، ولكن إذا صح هذا على مصر ، فلا نراه صحيحاً على سورية ، فالثابت أن نابليون لم يترك فيها بعد ارتداده عن عكا سوى الدمار ، وإن بوادر النهضة والتحضر لم تظهر في البلاد السورية حتى النصف الثاني من القارة التاسع عشر. انظر دراسات عربية وإسلامية ، للطيباوي (ص١١٣).

٢- أنشأت الإرسالية الإنجليزية أول مستشفى في فلسطين عام ١٨٤٢م.

٣- قامت مؤسسة (Palestine Exploitation Fund) الصهيونية بنشر الدراسات عن فلسطين والتي تدعو إلى استعمار فلسطين ، وتحضير الرأي العام لهذا الغرض[١].

* المتخصصون في الطب:

لقلة الأطباء والمستشفيات كان هناك مجموعة طبية شعبية متخصصة تمارس مهنتها في القرى والمدن وتتوارث المهنة في الغالب.

أ- الداية : موجودة في كل مكان لتوليد النساء والإشراف على صحة المولود لمدة أربعين يوماً في الغالب.

ب- الحكيم والطبيب الشعبي الذي يتجول في القرى والمدن يحمل أعشابه ، وكان من أشهر الأطباء المغاربة.

ت- الشيخ الذي يكتب التمائم ، وهي عادة تتكون من آيات قرآنية وأدعية نبوية.

وكانت هناك الصيدليات (دكاكين العطارة) والتي تقوم بصرف الوصفات الطبية الشعبية ، وأمام هذا كله كان يرزح المجتمع الفلسطيني أمام تحديات المرض ، وخاصة في المناطق الريفية.

ومن خلال دراسة التقارير المرفوعة من قبل دائرة الصحة في حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين ، فإننا نستطيع أن نكون فكرة عن تطور الوضع

---

(١) ياسين ، عبدالقادر : كفاح شعب الفلسطيني حتى عام ١٩٤٨م ، ص ١٠٠.

الصحي في تلك الفترة ، علماً بأنه لا يوجد أي مصدر آخر ، والتقارير الطبية تتمتع إلى حد كبير بالدقة في المعلومات وإن كانت لا تقدم التفاصيل كافة ، استطعنا الحصول على بعض المعلومات منها :

١- جرى أول تعداد عام للسكان في فلسطين عام ١٩٢٢م زمن حكومة الانتداب وشمل المواليد ، والوفيات ، وعدد المهاجرين ، وهذا الجدول يبين عدد السكان:

الدين	١٩٢٢م	١٩٤٦م
مسلم	٥٨٩.١٧٧	١.١٤٣.٣٣١
مسيحي	٧١.٤٦٤	١٤٥.٠٦٣
يهودي	٨٣.٧٩٠	٥٨٣.٣٢٧ [1]

٢- نسبة عدد سكان القرى إلى سكان المدن في فلسطين خلال فترة الانتداب:

السنة	سكان الريف	سكان المدن
١٩٢٢	٦٤.٩	٣٥.١
١٩٣١	٦٢.٣	٣٧.٣
١٩٣٥	٥٩.٦	٤٠.٣
١٩٤٤	٣٣.٦	٦٦.٤ [2]

(١) اللبدي ، عبد العزيز : الأحوال الصحية والاجتماعية للشعب الفلسطيني (١٩٢٢-١٩٨٢) ، ص ٤٣.

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٨.

نلاحظ أنه حصل انتقال كبير من سكان القرى إلى المدن نتيجة الضرائب البريطانية الباهظة من جهة ، نتيجة المغريات الحضارية التي تقدمها المدنية بالإضافة إلى سياسة طرد الفلاحين من أراضيهم.

وهذا جدول يبين عدد الأسرة في المستشفيات الخاصة والكنسية للأعوام ١٩٢٨ ، ١٩٣٣ ، ١٩٤٦ :

السنة	عدد المستشفيات	عدد الأسرة
١٩٢٨م	٢٨	١٦٥٧
١٩٣٣م	٢٧	١٦٢٩
١٩٤٦م	٤٥	٢٦٧٠ [١]

ومن مجموع هذه المستشفيات (٣١) مستشفى خاصاً باليهود ، والباقي يتبع المنظمات الكنسية ، وينوه تقرير لحكومة الانتداب صدر عام ١٩٤٦م بالزيادة في عدد السكان[٢] ولم يزد عدد الأسرة في مستشفيات البلديات والحكومة عام ١٩٢٨م عن (٣٠٥) سريراً ، وبلغت عام ١٩٣٥م (٥٨٣) سريراً ، ولم تزد حتى نهاية الانتداب البريطاني إلا زيادة طفيفة ، بينما بلغ عدد الأسرة في المستشفيات التبشيرية التطوعية ١٧١٢ سريراً في عام ١٩٢١م ، منها (٧٤١) سريراً في مستشفيات صهيونية ، أصبحت في عام ١٩٤٤م (١١٢٣) سريراً ، أما المستشفيات الخاصة فمالكوها يهود ، ما عدا مستشفى الدجاني في يافا الذي كانت سعته ٥٠ سريراً[٣] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٣.

(٢) Annhal Health Report 194̄,s 17̄

(٣) ياسين ، عبدالقادر : كفاح الشعب الفلسطيني حتى عام ١٩٤٨ ، ص ١٠٠ .

ومع هذا التطور الكبير للمؤسسات التبشيرية سواء كان في المدارس أو المؤسسات والمعاهد ، هناك مجال آخر هو المستشفيات أو عدد الأسرة ، حيث كان الشعب العربي الفلسطيني المسلم يغزوه المرض تلو المرض ، مع ندرة المستشفيات ، وقلة الطاقم الطبي ، بل انعدامه أحياناً ، مما ضاعف من عدد الوفيات.

وهذا الجدول يبين عدد الوفيات بأمراض مختلفة ، وسنوات متعددة :

المرض	السنة	عدد المرضى	الوفيات
التهاب الرئة	١٩٢٨م	٥٤٤	٣٥٤
	١٩٣٦م	٥٣١	٣٨٦
الحصبة	١٩٢٨م	٥٦٧	٢٧٥
	١٩٣٦م	٤٣٨	٢٠١
السل	١٩٢٨م	٩٢٠٠	١٠٥٦
	١٩٣٦م	٣٤٨٩	١٩٩
التيفوس	١٩٢٨م	٦٥٤	٧١
	١٩٣٦م	١١٤٨	١٤٣[١]

وهناك العديد من الأمراض كالملاريا مثلاً ، كانت نسبة الوفيات فيها عالية ، ولم تبن حكومة الانتداب سوى مستشفيات في القدس وحيفا ، وتل أبيب ومستشفى للأمراض العقلية في بيت لحم. أما مستشفى تل أبيب فقد سلمته الحكومة البريطانية للصهاينة ، وقد بلغت ميزانية الجهاز الصحي بكامله ٤٪ من الميزانية العامة للحكومة ، أما قسم الشرطة؛ فبلغت ميزانيته ٢٠٪[٢] إن دل على

(١) اللبدي ، عبدالعزيز : الأحوال الصحية والاجتماعية للشعب الفلسطيني ، ص٤٣.

(٢) Annual health repot 1936 .S,17

على شيء إنما يدل على مدى الاستهتار بالمواطن المسلم في فلسطين.

وكان معظم العاملين في القطاع الصحي بريطانيين من أطباء وممرضين وممرضات. ولم يبلغ عدد الأسرة سوى ٥٨٣ سريراً عام ١٩٣٥م ، بينما الأسرة في المستشفيات التبشيرية فبلغت ١٧١٢ سريراً.

أما بالنسبة لمراكز الأطفال وحديثي الولادة ؛ فلم يحصل تطور يذكر. يقول تقرير لحكومة الانتداب في عام ١٩٣٦م : لم يحصل توسع في هذا المجال – أي بناء المستشفيات ، لعدم توفر الموارد الرسمية ، ولكن المراكز الخاصة بالقابلات قامت بواجبها جيداً[١].

ومن المستشفيات أيضاً مستشفى إنجليزي في الناصرة تابع لجمعية (Medical Mission Society Edinburgh) وبه ٧٢ سريراً ، ودخل عام ١٩٤٤م حوالي ١٧٣١ مريضاً.

وهناك مستشفى آخر يتبع البعثات الفرنسية به ٨٨ سريراً ، دخله عام ١٩٤٤م ١٢٧٨ مريضاً في الناصرة[٢].

وقد أنشأت الإرساليات الإنجليزية أول مستشفى لها في فلسطين عام ١٨٤٢م. وقبل نهاية القرن كانت بريطانيا قد أنشأت أحد عشر مستشفى في فلسطين كما يبين هذا الجدول:

قائمة بأسماء المستشفيات البريطانية في فلسطين قبل الحرب العالمية الأولى:

---

(١) المرجع السابق نفسه ، ذكر في تقرير عام ١٩٣٢.

(٢) الدباغ ، مصطفى : بلادنا فلسطين ، ص ٦٨.

السنة	المستشفى	الجهة المؤسسة
١٨٤٢م	م الإرساليات الإنجليزية	London Jews Society
١٨٧٨م	م. يافا	Church Missionary Society
١٨٨٢م	م. الصهيون البريطاني في القدس	St,John Orden
١٨٨٢م	م. غزة	Church Missionary Society
١٨٨٠م	الناصرة	Edinbirgh Medical Missionary Society
١٨٨٤م	م. طبريا	United free church Society
١٨٩١م	م. نابلس	Church Missionary Society
١٨٩٢م	م. الخليل	United free church Society
١٨٩٤م	م. صفد	London Jews Society
١٨٩٥م	م. حيفا	Terusalem and the East Mission Fund[١]

ويبين هذا التقرير مدى استفادة بريطانيا في تلك الفترة من القوانين العثمانية الخاصة بحماية الإرساليات التبشيرية الأجنبية ، ومستعملة كون فلسطين تحتوي على أماكن مقدسة للأوروبيين.

وكان معظم الموظفين في الإدارة الصحية من البريطانيين ، وحتى الممرضات جرى استقدامهن من بريطانيا ، وقد جرى تطعيم الطاقم المتوسط بفلسطين ، ويجب ملاحظة أن هذه لا يعني عدم وجود طواقم فلسطينية في تلك الفترة ، إذ بلغ عدد الأطباء الفلسطينيـين عام ١٩٢٨م (١٠٨) طبيباً ، والصيادلة (٩٥) صيدلياً ، وأطباء الأسنان (٤٧) طبيباً ، وقابلات قانونيات (١١٩) قابلة[٢].

---

(١) اللبدي ، عبد العزيز: الأحوال الصحية والاجتماعية للشعب الفسطيني ، ١٩٢٢-١٩٨٢ ، ص ٢٥.

(٢) اللبدي، عبدالعزيز: الأحوال الصحية والاجتماعية للشعب الفلسطيني، ١٩٢٢-٩٨٢ ، ص٥٧.

ومما سبق نلاحظ ارتفاع نسبة الوفيات عند الأطفال بسبب قلة الطاقم العربي المسلم المؤهل طبياً، وقلة المستشفيات.

ويقول تقرير لحكومة الانتداب عام ١٩٣٦م: لم يحصل توسع في هذا المجال أي بناء المستشفيات لعدم توافر الموارد الرسمية، وتم الاعتماد على القابلات وقليل منهن المؤهلة علمياً، بينما عملت شبكة المراكز الطبية عند السكان اليهود، والتي تمولها منظمة هداسا الطبية، ومنظمات أخرى، ولجان من الدائرة الصحية بشكل أمين، وينعكس عملها على انخفاض وفيات الأطفال عند اليهود.

عدد المراكز الطبية لرعاية الأم والطفل، وعدد الزيارات:

الزيارات	مراكز يهودية	الزيارات	مراكز عربية	السنة
١٢٦٨٩	٢٧	٤٣٠٤	١١	١٩٢٨
١٠١٢٥	٣٠	٦٨٨٨	١٨	١٩٣٢[(١)]

علماً بأن اليهود كانوا يتمتعون بالتأمين الصحي الذي يوفره لهم صندوق التأمين (KOBAT HOLIM) بينما كانت الأوساط العربية المسلمة محرومة من ذلك بفعل سياسة الاستعمار.

وهذا جدول يبين الأمراض المعدية المنتشرة في عام ١٩٣٦:

الأمراض المعدية	١٩٣٦
التهاب السحايا	١٣٧
شلل الأطفال	٢١
الدفتيريا	٢٥٧

(١) Annual health report 1936 p 13.

السعال الديكي	٦٧٧
السل	٤٣٨
الحصبة	٣٤٨٩
التفوئيد	١١٤٨[١]

وهذا الجدول يبين إحصائيات مختلفة عن الانتداب البريطاني ، ومنظمة الصحة العالمية نلاحظ مدى إهمال الجانب الصحي لدى أهالي فلسطين.

بينما المدارس التبشيرية فتحت أبوابها أمام المسيحيين خاصة ، لتدريبهم وتعليمهم ورفع مستواهم الصحي ، ولقد ساهمت المدارس في مجال التعليم الخاص الصحي كما يلي:

١- نشر الأساليب الصحية الصحيحة من خلال الدروس للتلاميذ والأهالي التابعين للمؤسسات التبشيرية.

٢- إيجاد طاقم صحي من الرجال والنساء.

٣- فتح مستوصفات طبية ، ومعاهد للعناية بالأطفال[٢] .

وكان لتهافت المرضى على العيادات والمستوصفات التابعة للمؤسسات التبشيرية خسارة كبيرة على مراكز الطب الفلسطينية ، السهلة المنال ، والرخيصة الثمن وكذلك الاعتماد على المستحضرات الطبية الغربية باهظة الثمن ، وعدم قدرة الأكثرية الساحقة من الناس على دفع تكاليف العلاج الغربي ، مما أثقل كاهل المواطنين واضطر بعضهم إلى بيع أرضه لتغطية تكاليف العلاج.

---

(١) Report of Health Department Goverment of Palestine 1936. p 13

(٢) ياسين ، عبدالقادر: كفاح الشعب الفلسطيني حتى عام ١٩٤٨م ، ص ١٠٠

نظرة في بعض الأمراض الخطيرة التي تعرض لها الشعب الفلسطيني:

١- مرض السل: يقول التقرير الصحي لحكومة الانتداب البريطاني ١٩٢٨م: أن مرض السل في فلسطين بلغت نسبته في عام ١٩٢١م ١٤.٣٪ وبلغ عدد المرضى في عام ١٩٢٨م (٥٦٠) مريضاً، يتوزعون كما يلي:

	عدد المرضى	وفيات
عرب	٢٤٨	١٥٩
يهود	٢٧٧	٨٢

يدل الرقم على ارتفاع نسبة المرض عند اليهود ، إلا أن نسبة الوفيات عند العرب أكثر ، وإن دل على شيء فإن العناية الصحية لليهود كانت أفضل. وفي عام ١٩٣٥م بدأت خطة مكافحة السل بإنشاء مستشفى لمعالجة هذا المرض في يافا ، بينما كانت المنظمة الصهيونية تمتلك مستشفيين أحدهما في صفد والثاني في كوبات حوليم[١].

٢- الحصبة : كانت من أهم أمراض الأطفال في فلسطين بالنسبة للأمراض المعدية ، وبلغ عدد المرضى عام ١٩٢٨م ، حوالي (٩.٢٠٠) مريض توفي منهم (١٠٥٦) طفلاً تحت عمر خمس سنوات ، وهذا جدول يبين عدد المرضى والوفيات.

السنة	عدد المرضى	عدد الوفيات	نسبة الوفيات للمرضى
١٩٢٨	٩.٢٠٠	١.٠٥٦	١٤.٧٪
١٩٢٩	٥.١٢٣	٥٢٥	١٠.٢٥٪

(١) Department of Health, Annual report 1928. Government of Palestine

١٩٣٣	٤.٩٩٨	٣٧٢	٧.٤٤٪
١٩٣٦	٣.٤٨٩	١٩٩	٥.٨٥٪[(١)]

ومن أن نسبة المرضى نقصت كثيراً حتى عام ١٩٤٦م ، فقد سجل في هذه السنة ٢٤٤ حالة وفاة من الحصبة. لأنها مرض معد وسريع الانتشار ، وقلة جرعات التطعيم هذا إن وجدت.

٣- التهاب الرئة: بقي هذا المرض منتشراً ، وسبباً مهماً للوفاة حتى في عام ١٩٤٦م وهذا جدول يبين نسبة الوفيات:

السنة	الوفيات
١٩٢٨	٢٣.٤
١٩٢٩	١٤.٢٦
١٩٣٣	٢٠.٧٠
١٩٤٦	١٧.٢[(٢)]

وكان عدد العيادات الحكومية في المدن عام ١٩٢٨ حوالي تسع عشرة عيادة ، أما القرى فلم تعرف العيادات ولا المراكز الصحية أو العناية الطبية إلا في وقت متأخر جداً من عهد حكومة الانتداب ومعظم العيادات يعمل بها الأجانب ولعل هذا السبب في انخفاض نسبة المستفيدين العرب مقابل اليهود ، وكان اليهودي يتمتع بالعلاج في المستشفيات بالمبشرين دون العرب .

* * *

(١) اللبدي ، عبد العزيز : الأحوال الصحية والاجتماعية للشعب الفلسطيني ، ص ٥٢.

(٢) اللبدي ، عبد العزيز : الأحوال الصحية والاجتماعية للشعب الفلسطيني ، ص ٢٨.

الفصل السادس

واقع المسلمين في فلسطين عند هجوم المبشرين

المبحث الأول : الواقع الديني .

المبحث الثاني : الواقع الإعلامي .

المبحث الثالث : الواقع الاجتماعي .

المبحث الرابع : الواقع السياسي .

المبحث الخامس : الواقع التربوي .

المبحث الأول
الواقع الديني

كان سكان فلسطين يتألفون من أكثرية مسلمة ، وأقلية من المسيحيين واليهود ، والمسلمون معظمهم من أهل السنة ، وبينهم أقلية من الشيعة والدروز والبهائية.

والمسيحيون أكثرهم من الروم الأرثوذكس والذين أصبحوا قلة بالنسبة للطوائف النصرانية الأخرى التابعة للإرساليات التبشيرية كاللاتين (الكاثوليك) والبروتستانت.

وقد تأثرت التيارات الدينية الإسلامية في فلسطين بالتيارات العامة التي ظهرت في مصر والشام ، والعراق ، وأعطى الغزو الصهيوني الذي تعرضت له فلسطين بُعداً جديداً لمشاركتهم ، وشحذ هممهم وجعلهم أكثر حساسية ، متطلعين إلى مساندة إخوانهم وتأييدهم في نضالهم الطويل .

وظهرت في فلسطين فئتان من المفكرين المسلمين: فئة مقلدة لمن سبقها من العلماء والمشايخ ، وخاصة مشايخ الطرق الصوفية والتي كان جل اهتمامها دراسة الكتب الدينية ووضع الشروح اللازمة لها ، ونظم القصائد المطولة في التصوف ، ومدح رسول الله ﷺ والتوجه إلى الصحابة والأولياء الصالحين طالبين منهم تفريج الكربات ، وقضاء الحاجات ، واستغلال مشاعر العامة الدينية. وبقيت هذه الفئة تجهل ما دخل إليها من أفكار وآراء جديدة ، ونظريات ومبادىء حديثة من خلال المطبوعات والترجمات والصحف والمدارس والجامعات[1] .

(١) المحافظة، على تاريخ الحركات الفكرية في عصر النهضة، ص ٨٩.

وفئة ثانية : مجددة أتيح لها أن تطلع على التيارات الحديثة التي هبت على البلاد العربية من الغرب ، فأقبلت عليها تدرسها وتمعن النظر فيها ، وتقارن بينها وبين ما لديها من تراث فانقسمت في موقفها إلى فريقين: فريق رفض النظريات والمبادىء الغربية وفريق حاول التوفيق بينها وبين التراث الإسلامي.

وسنتناول الفكر الديني لدى هاتين الفئتين ، وموقف كل فئة من الحضارة والتراث الغربي:

١ - فئة المقلدين : تركز اهتمام هذه الفئة كما ذكرنا آنفاً على شرح الكتب الدينية ، وتلخيصها وتحقيقها ونظم قصائد التصوف والمدائح النبوية ، وقد انتشرت الفرق الصوفية مثل النقشبندية ، والقادرية والرفاعية والخلوتية والمولوية ومن كبار شيوخ هذه الفئة الشيخ عمر بن محمد البكري اليافي(١) ، الذي ألف كتباً عدة ، ورسائل في بعض المسائل الدينية مثل (هداية أهل المحبة في معنى قوله ﷺ: «من عرف نفسه عرف ربه»(٢) ، ورسالة في الفرق بين الواحد والأحد. والشيخ محمد الخطابي(٣) الذي ألف كتاباً في شرح الجوهرة في التوحيد ، وله رسالة في الطريقة النقشبندية

---

(١) عمر اليامي : شاعر، له علم بفقه الحنفية والحديث والأدب، كان خلوتي الطريقة. نظم مرشحات أكثرها في مصطلح الصوفية، له (ديوان شعر) و (قطع النزاع) وغير ذلك، توفي سنة (١٨١٨م). الأعلام (٥/ ٦٤) وآداب اللغة (٤/ ٢٣٣).

(٢) حديث موضوع، انظر في الأسرار المرفوعة (٥٠٦) والتذكرة (١٢٩) والفوائد المجموعة (٨٧) وكشف الخفاء (٢٥٣٢) والمقاصد الحسنة (١١٤٩) وموضوعات الأحاديث والآثار الضعيفة والموضوعة (٢٥٣٥٦).

(٣) محمد الخطابي: مدرس في الجامع الأموي، هاجر إلى الهند وأقام فيها عشرين سنة، توفي سنة (١٣٢٣). (الشطي، إيمان، دمشق، ٤٢٩).

التي كان ينتمي إليها ، إذا فسر ما قامت عليه هذه الطريقة الصوفية. وله رسالة في حكمة اجتماع الذاكرين وحركاتهم على الطريقة الصوفية ورسالة في معنى التصوف والصوفي.

وكان من عادة الناس الاستعانة بالأولياء وزيارة قبورهم وتقديم النذور إليهم كما يدعون وكانت زيارة القبور من العادات المستحبة وخاصة قبور الأولياء والأقارب ومن الشيوخ الذين ساروا على هذا النهج ، الشيخ حسن ابن سليم الدجاني(١) ، وشقيقه الشيخ حسين ، حيث تولى الأول الإفتاء في مدينة يافا أربعين سنة.

وخير من يمثل هذا الاتجاه التقليدي الشيخ يوسف البنهاني(٢) ، وكان له باع طويل في التصوف والتأليف فيه ، حيث ألف أكثر من ثلاثين مؤلفاً في التصوف منها: رسائل الوصول إلى شمائل الرسول و الأحاديث الأربعين في فضائل سيد المرسلين ، و سعادة الدارين في الصلاة على سيد الكونين والقول الحق في مولد سيد الخلق وجامع كرامات الأولياء ، ومما يؤسف له أن بقيت هذه الفئة متجاهلة ما يحدث في المنطقة من تجديد ، وما هب على هذه الديار من رياح غربية ، وظل رجال هذه الفئة في حالة الجمود دون النظر إلى العصر ، وما حل به وما أصاب الأمة من ويلات ودمار.

---

(١) حسن الدجاني، درس في الأزهر وكان يتقن التركية والفارسية توفي عام ١٨٧٦م (حلية البشر)، ص ١-٥٢١.

(٢) يوسف النبهاني، شاعر، وأديب، من ر جال القضاء عمل في الآستانة في تحرير جريدة (الجوانب) وتصحيح ما يطبع في مطبعتها كان رئيساً لمحكمة الحقوق ببيروت من مصنفاته (رياض الجنة) و(حجة الله على العالمين) وغير ذلك كثير، توفي سنة (١٩٣٢) الأعلام (٨/ ٢١٨) ومعجم الشيوخ (٢/ ١٦١).

*** أما الفئة الثانية فهي فئة المجددين:**

كانت هذه الفئة ممن تأثروا بالشيخ جمال الدين الأفغاني ، والإمام محمد عبده ، والسيد محمود رشيد رضا. والذين نادوا بتنقية الدين مما علق به من الشوائب وما أدخله المتصوفة من أمور لا صلة لها بالدين ، ومن ثم تنوير عقول العامة ، وضرورة فهم النصوص على وجهها الحقيقي ، مع إزالة الأوهام والضلالات والبدع والخرافات التي علقت بالدين والدين منها براء ، والعودة إلى منابع الفكر الإسلامي الأصيل ، مع ضرورة التوفيق بين الدين والعلم ، وإصلاح المعاهد والمدارس القائمة ، والدفاع عن الإسلام بالرد على أعدائه من الملاحدة ، وبيان وتفنيد حججهم على الملأ(١) .

وخير من يمثل هذه الفئة من علماء فلسطين الشيخان: أسعد الشقيري(٢) وسعيد الكرمي(٣) ، إذ كان الشقيري داعية لأفكار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده بالإصلاح الديني من خلال خطبه التي كان ينشرها في صحف فلسطين ، ودمشق ، وبيروت.

---

(١) المحافظة، على : تاريخ الحركات الفكرية في عصر النهضة، ص ٩٦.

(٢) أسعد الشقيري: خطب الجيش الرابع، ونديم جمال باشا والمقرب إليه، يجيد التركية. حاول أن يشفع برجال العرب وأحرارهم المحكوم عليهم بالإعدام، فلم يفلح، إلا في إنقاذ الشيخ سعيد الكرمي. توفي عام ١٩٤٠ه. انظر شهداء الحرب العالمية، لأدهم الجندي (١٨٣).

(٣) سعيد الكرمي : فقيه، من علماء الأدباء له شعر، تفقه في الأزهر بمصر، وتولي الإفتاء في بلده (طولكرم)، وشارك في الحركة القومية، فحكم عليه بالإعدام، واكتفى بسجنه لكبر سنة. ثم كان من أعضاء المجمع العلمي بدمشق، وناب عن رئيسه مدة، له واضح البيان في الرد على أهل البهتان ، (الإعلام بمعاني الأعلام) توفي سنة (١٩٣٥م)، الأعلام (٣/ ٩٨).

ويرى الشيخ الكرمي: أن صلاح المجتمع الإسلامي يعود إلى ستة أمور هي: «دين متبع ، وسلطان قاهر ، وعدل شامل ، وأمن عام ، وخصب دائم ، وأمل فسي»[(١)]. هذا وقد وقف الشيخان موقف الرفض من النظريات الغربية والمادية منها بوجه خاص ، مع قبولهما بالمنجزات العلمية ، علماً بأن هناك من أراد أن يفتح الباب على مصراعيه لكل وافد غربي ، وأصحاب هذا الاتجاه يرون فتح أبواب العرب لحضارة الغرب ، ونددوا بكل من يقاوم ذلك ، ونادوا بأن تحمل العقلية العربية عقلاً أوروبياً وقلباً عربياً ، فهذا إسعاف النشاشيبي[(٢)] يمثل هذا الاتجاه بقوله: بالمدينة الغربية يا سادة! فيها معقلنا وفيها سد الصين وفيها المنجاة من كل فعل شرقي أو غربي مقتحم والخوف من ذلك الجار مثل الخوف من ضيف الدار ، فالعربي الذي يكره إلينا هذه المدنية ، ويثلب علمها ونظامها وفنها ويسخر من روادها لا يروم وحياتكم أن نحيا في هذا الوجود أو أن يسوده بل يريد أن نبيد وأن نعود في الناس مثل العبيد ، وهذا عدو وما تمنى عدو لعدو خيراً...[(٣)] .

« فالبس ، والبس جلد القوة ، والقوة غربية فاطلبها في الغرب .. واعلم علمه ، وأخبر فنه واقبل نظامه ، وحقق يا هذا تحقيقه ، واسلك في الكون طريقه ، وقبيح

---

(١) الكرمي، عبد الكريم : الشيخ سعيد الكرمي، سيرته العلمية والسياسية (١٣٨).

(٢) إسعاف النشاشيبي : أديب بحاث، من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، انفرد بأسلوب من البيان، وبعث بأدب العربية، نظم الشعر، ثم تركه. وكتب كثيراً في الصحف والمجلات. كان عصبي المزاج، أبي النفس، حاضر البديهة، متقد الذهن، من مصنفاته : (الإسلام الصحيح) و (قلب عربي وعقل أوروبي)، توفي سنة (١٩٤٨) الأعلام (٦/ ٣٠-٣١١).

(٣) النشاشيبي، إسعاف : قلب عربي وعقل أوروبي، ص ١٥-١٧.

الشرق قبيح الغرب ، هذا ودع السم ، وجود عيشك تجويده ، واتقن صنعك اتقانه ، فلن يفلح بعد اليوم إلا المتقن ، واقتصد في دنياك اقتصاده ، وجد في فنك جودته ، واخلص في كل عملك قلدته إخلاصه ، فإنما الخلاص في الإخلاص[١].

ألقينا الضوء على الواقع الديني من الناحية الفكرية ، أما من الناحية الشعبية ، فالوضع مختلف إذ يسود الجهل والتخلف الديني في كثير من المدن والقرى.

ومما يجدر ذكره هو أن المسلمين في فلسطين كانوا يحتفلون بعدة مواسم دينية موزعة على مختلف المناطق ، وعلى مدار السنة. ومن أهمها موسم النبي موسى عليه السلام في القدس ، ويصادف موعده عيد الفصح عند المسيحيين ، ويكون في شهر أبريل في المعتاد وهناك موسم النبي صالح عليه السلام في الرملة ، وموسم للنبي روبين عليه السلام وموسم الحسين رضي الله عنه في وادي النمل بعسقلان ، وموسم الشيخ المنطار بغزة.

وتعود فكرة هذه المواسم الدينية والشعبية إلى العهدين الأيوبي والمملوكي ، وكان السبب في إقامتها تحذيراً للمسيحيين ، حيث يتجمع المسلمون في كل موسم خشية من أطماع الفرنجة ، ومحاولاتهم إعادة السيطرة على فلسطين ، فقرر صلاح الدين الأيوبي إقامة هذه المواسم في الزمان والمكان الذي يحتفل فيه المسيحيون تحسباً لأي طارىء ، فكان الغرض سياسياً أكثر منه دينياً ، ثم تحول بعد ذلك إلى بدع منكرة لا يقرها الدين الإسلامي[٢].

هذا وقد استمر العمل في هذه المواسم في العهد العثماني ، وكذلك في عهد

---

(١) المرجع السابق نفسه، ص ١٥-١٧.

(٢) العارف، عارف : المفصل في تاريخ القدس، ص ٤٦٥.

الانتداب البريطاني ، ومن هنا فقد عملت الحركة الوطنية الفلسطينية على استغلال هذه التجمعات وتنوير الجماهير العربية بالأخطار المحدقة بالأمة الإسلامية ، وبيان مخططات الاستعمار البريطاني ، والصهيونية العالمية ، ومن هنا أخذت هذه الاحتفالات الدينية صبغة وطنية سياسية وبخاصة ذكرى النبي موسى عليه السلام، وموسم النبي صالح عليه السلام ، نظراً لأهمية موقعهما وقربهما من تجمعات اليهود في القدس ، والرملة وتل أبيب[1] .

ففي موسم النبي موسى يتجمع الكثير من أبناء فلسطين ، من القدس والخليل ونابلس حتى تصل الحشود إلى عشرات الآلاف من المسلمين ، ثم تعود هذه الجموع – بعد أن تمكث بضعة أيام- للقدس تحسباً لأي طارىء وما يحصل هنا يحصل في يافا والرملة في موسم النبي صالح عليه السلام. وينتهي الاحتفال بموسم النبي صالح بمغادرة الصليبيين فلسطين عائدين إلى أقطارهم ، وقد ظل هذان الموسمان يحملان – وخاصة في عهد الانتداب البريطاني وبالقرب من التجمعات الصهيونية في القدس وما حولها أهمية عظمى في أن القدس وما حولها للمسلمين ، ولن يتخلوا عنها مهما أحيك حولها من مؤامرات ، وفي هذه المواسم يأتي الناس إلى مقام الولي أو النبي أي المزار للقيام بما يلي:

١- أداء واجب الزيارة ، وتقديم الاحترام وأداء الطقوس الدينية.

٢- المشاركة في الفرح الوطني الشامل حول المزار.

٣- الوفاء بالنذر ، وختان الأطفال.

---

(١) دروزه، محمد عزة : القضية الفلسطينية، ص ٣٤٥.

وهذه الزيارات كانت تأخذ طابع الزيارة الجماعية ، وهي في الوقت نفسه تعد صورة تتكرر كل سنة ، وتتحول إلى تقليد شعبي دائم ، ويذهب الناس إلى المواسم ، وخاصة التي تمتد لعدة أيام ، وقد اصطحبوا معهم أفراد عائلاتهم ، وخياماً يأوون إليها ولوازمهم التموينية وأمتعتهم الشخصية علاوة على الطبول والدفوف لفرق المتصوفين. وإذا ما وصلوا إلى مكان الموسم نصبوا الخيام ورتبوا أمورهم واستعد الجميع لأحداث الموسم ، ففي موسم النبي موسى مثلاً يتجمع السكان من كل أنحاء فلسطين في مدينة القدس ثم يذهبون إلى موقع الموسم بالقرب من أريحا ويقيمون احتفالاً خاصاً بهذه المناسبة(١).

* الممارسات الدينية في المواسم:

ينظر بعضهم إلى الموسم على أنه زيارة لولي الله ، وبذلك فإن التصرفات تنطلق من وجهة نظر دينية ، وهناك من يجمع بين النظرتين الاحتفالية والدينية ، وأن الزائر يقوم بأداء الصلوات في وقتها ويحضر حلقات الذكر.

وفي الغالب يتم تقديم ذبيحة توزع على المحتاجين. إضافة إلى ما ذكرنا من مواسم ، هناك العديد من المواسم مثل: مواسم الجمعة (جمعة المناداة أي جمعة المشاركة في موسم خميس البنات ، وكذلك جمعة القربى وجمعة الحزانى).

وهناك أيضاً موسم علي بن عليم في يافا على شاطىء البحر جنوب يافا ، حيث توجد فيه قرية الحرم ، ويقع فيها ضريح الولي (ابن عليم) وهناك موسم (ستنا الخضراء) في نابلس.

---

(١) سرحان، نمر : المرارات في فلسطين، ص ٥٥.

إن نظرة إلى هذه المواسم تبين أن شعبنا العربي الفلسطيني قد قام بتقديس المزارات ، علماً أن هذا الأمر مرفوض شرعاً ويعد من الشرك الأكبر. وهذا يوضح مدى الجهل الديني الذي انتشر في هذه الحقبة الزمنية من انتشار الفرق الصوفية التي تبيح وتشجع مثل هذه اللقاءات.

وهذه قائمة بأسماء المواسم وتواريخها ومواقعها:

الاسم	المدينة	المدة الزمنية
موسم النبي موسى	أريحا	٨ أيام
موسم النبي صالح	الرملة	يوم واحد
وادي النمل	عسقلان	يومان
موسم النبي أيوب	قرب الجورة	١-٣ أيام
موسم النبي روبين	قرب يافا	ثلاثة أشهر
موسم الشيخ إعمر	رام الله	١-٣ أيام
موسم ستنا مريم	شرق القدس	١٥ يوماً [١]

أما بالنسبة إلى مفتي فلسطين ، فإن هذه الوظيفة تكاد تنحصر في عائلة واحدة ، وهذه عادة الدولة العثمانية ، إذ إنه منصب شبه وراثي ، ولما توفي المفتي كامل الحسيني في عام ١٩٢١م ، عينت الحكومة البريطانية بطلب من أعيان البلاد الحاج محمد أمين الحسيني [٢] وهو شقيق المفتي السابق ، ويبدو أن بريطانيا أحبت في تعيين

(١) سرحان، نمر : المزارات في فلسطين، ص ٥٥.

(٢) محمد أمين الحسيني : زعيم فلسطين السياسي في عصره، ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى بفلسطين، وكان أول من نبه إلى حظر تكاثر اليهود في فلسطين بعد وعد بلفور، وكان الحركة الدائمة في اللجان والوفود إلى المؤتمرات، وفي الثورات، منحته البلاد السعودية جنسيتها، وقام بتأليف

تعيين المفتي الجديد أن تمتص نقمة الجماهير وغضب الأهالي ضد سياسة بريطانيا المؤيدة للصهيونية ، إذ أن تدخلها في هذه الوظيفة ، وتعيين الحاج محمد أمين الحسيني يضفي على الغازي المستعمر استمالة وعطف السكان عليه ، ومحاولة التقرب منه ، ولكن لم يحصل هذا حسب ما توقعته بريطانيا الغازية[١].

* * *

جيش الجهاد المقدس بقيادة عبدالقادر الحسيني، واستقر في بيروت، وتوفي إثر عملية جراحية سنة (١٩٧٤م). الأعلام (٦/ ٤٥).

(١) حلة، كامل، محمود : فلسطين والانتداب البريطاني، ص ١٥٩، ١٦٢.

المبحث الثاني
الواقع الإعلامي

تأسست الصحافة في فلسطين وفق قانون تنظيم المطبوعات العثماني عام ١٨٦٥م على الرغم من كون بواكير الصحف الفلسطينية كانت حكومية ، فمثلاً جريدة «القدس الشريف» التي أصدرتها الحكومة التركية عام ١٨٧٦م باللغتين العربية والتركية لتقوم بعملية نشر الأخبار العامة ، كانت تخضع لرقابة صارمة وبسبب الرقابة كان الناس في فلسطين يتابعون الأخبار العالمية عامة والعربية خاصة وفق ما يحصلون عليه من معلومات من المسافرين بين مصر ، وفلسطين وسورية ولبنان ، لأن الحكومة العثمانية كانت تركز على حظر المعلومات وتبادلها بين الولايات العثمانية وخاصة الولايات التي ينتمي سكانها لقومية واحدة ، وكانت تشدد في نقل الأخبار من مصر خوفاً من تأثير مصر على البلدان المجاورة ، لذلك حظرت دخول الصحف المصرية إلى فلسطين وباقي الأقطار عقب احتلال بريطانيا لمصر عام ١٨٨٢م ، ويمكن التثبت من هذا بما نشرته مجلة «الهلال» العدد الأول من السنة الأولى أيلول عام ١٨٨٣م حول عودة السلطات العثمانية للسماح للصحف المصرية بالدخول إلى فلسطين: تكرمت الحضرة الشاهانية بالإجازة للجرائد التي تطبع في الديار المصرية أن تدخل الممالك المحروسة العثمانية[1] .

وكانت الصحافة الفلسطينية تتشبه بالصحف التي كانت تصدر في الآستانة سواء من ناحية حجمها أو عدد صفحاتها ، أو حتى طريقة إخراجها ، بحيث كانت صغيرة الحجم ، وكل جريدة لا تزيد صفحاتها عن أربع ، وكل صفحة تحتوي على

---

(١)يهوشع، يعقوب : تاريخ الصحافة العربية في فلسطين، ص ١٥٥ .

ثلاثة أو أربعة أعمدة ، وبقيت على هذا الحال حتى اعتمدت جريدتا «الجامعة العربية» و «اللواء» المقدسيتان ، طريقة التبويب وإيجاد محرر خاص لكل باب ، وقد دهش كثيراً محرر جريدة «المنادي» المقدسية عندما زار جريدة « الكرمل» في حيفا فوجد نجيب نصار[١] صاحبها يشتغل إضافة إلى عمله في ترتيب الحروف وإدارة المطبعة وكتابة عناوين المشتركين وتوزيع الجريدة[٢] .

أما الشكل الترتيبي للصحف فقد كان مقصوراً على العناوين وعلى الأخص أسمائها وزواياها الثابتة ، فمثلاً كانت تظهر على جريدة القدس ثلاثة نجوم داخل كل نجمة كلمات وبالتتابع: «مساواة ، حرية ، إخاء» ، وكانت هذه شعارات حزب تركيا الفتاة.

أما الصور فكانت نادرة ، وإذا ظهرت ففي أوقات متباعدة جداً ، في الأعياد والمناسبات كانت تطبع بالحبر الأحمر ، وظل هذا التقليد حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

ولم تكن الجرائد تصدر يومياً في العهد التركي ، ويقول يعقوب يهوشع: إن كل صاحب جريدة كان يتطلع بشوق إلى اليوم الذي تخرج فيه الجريدة كل يوم.

كان الواقع الإعلامي في فلسطين في هذه الفترة انعكاساً للواقع الاجتماعي والسياسي فلم يكن مواكباً للتطور والتقدم فالصحافة لم تدخل فلسطين إلا في عام

---

(١)نجيب نصار: كاتب صحفي، أصدر جريدة (الكرمل) الأسبوعية في حيفا سنة (١٩٠٨). وطارده الاتحاديون في الحرب العالمية الأولى، وكان من دعاة التوفيق بين العرب على اختلاف مللهم ونحلهم، من كتبه (الصهيونية) و (الزراعة الجافة) توفي سنة ١٩٤٨ والأعلام (٨/ ١٣).

(٢) جريدة المنادي، العدد ٤١، تاريخ ٣/ ١٢/ ١٩١٢.

١٨٧٦م كصحيفة « القدس الشريف » الناطقة بلسان المتصرفية ، وفي السنة نفسها أصدر الشيخ الريماوي[(١)] جريدة «الغزال» الشهرية في مدينة القدس. وبعد ذلك خلت الساحة من الصحف اكثر من ثلاثين سنة ، واكتف بما يصلها من صحف خارجية من دمشق وبيروت والقاهرة والاستانة[(٢)] .

وبعد الانقلاب العثماني عام ١٩٠٨م ، نشطت الحركة الصحيفة بشكل كبير ، وملموس حتى وصل عدد الصحف إلى أكثر من ثلاثين صحيفة في مدن فلسطين: القدس ، يافا ، حيفا ، وظلت الصحف الصادرة من يافا ناطقة باسم فلسطين أكثر من غيرها في الحكمين العثماني والبريطاني ، ومن هذه الصحف التي كانت تعارض كل شيء يضر بفلسطين وبأرضها: «الكرمل» و « المنادي » و « فلسطين »[(٣)] .

وقد نادت الصحف الفلسطينية بضرورة تطبيق نظام التعليم الإجباري لكل طبقات البلاد. وكذلك حملت هموم المواطنين من حيث الأمن العام ، والانتخابات البلدية ، وتجارة البرتقال ، وزراعة القطن.

ولما قامت الحرب العالمية بقيت هذه الصحف تطالب الدولة العثمانية تحديد موقفها ، وإلى أي الأحلاف تنضم. وذهبت صحيفة فلسطين إلى أن على الدولة العثمانية أن تتخذ أسلوب الحياد في هذه الحرب. وكانت تناقش هذه الصحف ،

---

(١)علي الريماوي: شاعر وصحافي، ومرب، كان متمسكاً من العربية وقرض الشعر، أسس جريدة (النجاح) الأسبوعية، وانتقد الحكومة التركية لاضطهادها العرب، باستبعادهم عن المناصب الحكومية، توفي سنة ١٩١٩م الموسوعة الفلسطينية (٣/ ٣١٣).

(٢)المحافظة، على : الحركات الفكرية في عصر النهضة في فلسطين والأردن، ص ٦٨ .

(٣)المرجع السابق نفسه، ص ٦٨ .

وترد على الذين يريدون الوقوف مع الأوربيين ظناً منهم بازدهار بلادهم. وأشارت الصحف إلى واقع الهند السيء في ظل الحكومة البريطانية ، ولما دخلت الدولة العثمانية الحرب أعلنت إغلاق هذه الصحيفة في ١٢ تشرين الثاني ١٩١٤(١).

أما صحيفة «الكرمل» فقد اتخذت موقفاً مخالفاً لموقف الصحيفة «فلسطين» ودعت الدولة العثمانية للوقوف مع التحالف البريطاني بحجة أن الشواطىء العثمانية مهددة بالقصف من الأسطول البريطاني ، وما كان من الدولة العثمانية إلا أن أغلقت الصحيفة أيضاً.

أما صحيفة « الكوكب » فكانت تتابع أخبار الثورة العربية في الحجاز باهتمام زائد، وكانت تنشر أخبارها نقلاً عن صحيفة « القبلة » لسان حال الثورة التي كانت تصل بصورة سرية إلى فلسطين(٢) .

وطوال سنوات الحرب توقفت معظم الصحف عن الصدور إثر فرض الأحكام العرفية في البلاد ، ثم عادت للصدور بعد الاحتلال البريطاني وحقيقة الأمر أن الصحافة الفلسطينية ظلت قائمة تعكس حالات الناس السياسية والاجتماعية ، ولكننا لا نبالغ في قدرة هذه الصحف على تغطية الأمور الحياتية للناس ، وطرق معيشتهم ونضالهم ضد المستعمر الغازي ، وكذلك موالاة كثير من هذه الصحف لهذا المستعمر ، وشنت الهجوم على الدولة العثمانية وحكمها البائد متناسين أمجاد الإسلام والمسلمين التي صنعتها هذه الدولة العظيمة أيام عزها ومجدها ، وهي بذلك تصور حال المؤيدين للاستعمار من ذلك ما نشره الشيخ علي

---

(١) المحافظة، على : الحركات الفكرية في عصر النهضة في فلسطين والأردن ص ٦٩.

(٢)يهوشع، يعقوب : تاريخ الصحافة العربية في فلسطين، ص ٧٥.

الريماوي في ملحق جريدة فلسطين الرسمية التي كان يصدرها الجيش البريطاني بمناسبة مرور سنة على احتلاله:

وهــذا نهــار فيــه حلــت قيودنــا وقد نشطت الأقدام وانطلــق الفكــر
وحــل محــل الظلــم عــدل محبب وقد لاح مـن بعـد الظـلام لنـا فجـر
بريطانيـا العظمـى وأنـت شـهيرة وعندك طبعاً يحمل الحمد والشكر[1]

ونشرت الكواكب قصيدة طويلة لاسكندر الخوري البيتجالي، يهجو الأتراك، ويرحب بالإنجليز نقتطف منها[2].

حكمـــتم في أراضـــينا وجـــرتم في أهالينـــا
وعاكـــستم مـــساعينا ومـــا انـــصفتمُ فينـــا
لذاك لقربكم نفزع
بنـــي التـــايمز قـــد فـــزتم وبالإنقـــاذ قـــد جئـــتم
بـــلاد القـــدس شرفـــتم فـــأهلاً أيـــنما بـــتم
وسهلاً فيكم أجمع[3]

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٧٧.

(٢) العجب كل العجب من أمثال علي الريماوي وأقرانه، ممن رحبوا بالحكم البريطاني ووصفوه بالعدل والفجر والفكر المنطبق، والريماوي فقيه، وكان الجدير له أن يقيس التصرفات البريطانية بمقياس الدين، لا بمقياس الهتاف الصارخ، والإعجاب المندفع، لأنه وأمثاله كانوا مدافعين عن سياسة الاستعمار، فالريماوي شاعر وشخصية معروفة لها شهرة فإذا بحشود شعبه كبيرة تسمع له، وتقتدي به وهنا الطامة الكبرى؟!!!

(٣) يهوشع، يعقوب : تاريخ الصحافة العربية في فلسطين، ص ١٥٧.

وكانت الصحف «المنادي» و « فلسطين » و « الكرمل » تشن هجوماً على المخطط الصهيوني محذرة من هذا الخطر الداهم. وكذلك شنت هجوماً على الاستيطان اليهودي ومشاريعه الزراعية والعمرانية والصحية ، مما دفع اليهود الشرقيين إلى إصدار «صوت العثمانية» في يافا في الثامن والعشرين من كانون الثاني عام ١٩١٤م وذلك للرد على الصحف العربية الوطنية. وأخيراً وبعد خلاف مع جريدة القدس صدر حكم إيقاف جريدة اليهود ، التي كان يتولاها الدكتور شمعون مويال(١) .

ولا ننسى أن الصحف الفلسطينية في كتابتها تأثرت بأدب الصحافة السورية ، وصحف بيروت ، وكان لإقبال أدباء فلسطين على الصحافة أثر كبير في رفع مستواها ، وأسلوب أدائها وكان من أبرز الكتاب في جريدة «القدس» إبراهيم عبود وإسعاف النشاشيبي وإسماعيل الخطيب وبندلي الجوزي وحافظ السعيد وخليل بيدس وروحي الخالدي(٢) وعارف العارف ويوسف العلمي وعلي الريماوي وكان

---

(١) ولد شمعون مويال عام ١٨٧٠م، ودرس بالقدس وأتقن الفرنسية والعربية، ودرس في بيروت وانتقل إلى القاهرة وأصدر كتاباً له عام ١٩٠٩م (فصول الآباء). (يهوشع، تاريخ الصحافة العربية في فلسطين، ص ١٢٢، ١٢٣).

(٢)روحي الخالدي : باحث، من رجال السياسة. رحل إلى باريس فدخل مدرسة العلوم السياسية فأتم دروسها، ثم درس فلسفة العلوم الإسلامية والشرقية في جامعة السوربون، وألقى محاضرات عربية ، واتصل بعلماء الشرقيات ، وأقيم مدرساً في جمعية نشر اللغات الأجنبية بباريس ، وكان من أعضاء مؤتمر المستشرقين بباريس سنة ١٨٩٨م عاد إلى الأستانة فعين قنصلاً عاماً، له العالم الإسلامي و علم الأدب عند الإفرنج والعرب وغير ذلك توفي سنة (١٩١٣) الأعلام (٣/ ٣٤).

من أبرز كتاب جريدة فلسطين خليل السكاكيني[١] ، والشاعر خوري إسكندر ويونس شحات ، ومن كتاب جريدة الترقي يوسف العيسى ، وراغب الإمام.

وكان هناك تنافس شديد بين هذه الصحف في الشعارات أو الرموز وكانت الصحف توزع بالشوارع ، بل تباع بالدكاكين وكانت جريدة فلسطين توزع مجاناً على مخاتير القرى[٢] .

وسأستعرض هنا عدداً من الصحف والمجلات والنشرات في فلسطين منذ صدور أول نشرة دورية عام ١٨٧٦م خلال الحكم العثماني، إلى نهاية الانتداب عام ١٩٤٨م.

* **الصحف والمجلات :**

١- القدس الشريف ١٨٧٦م : يحررها الشيخ علي الريماوي للقسم الأدبي ، وعبد السلام كمال للقسم التركي ، وهي جريدة رسمية وتصدر مرة واحدة في الشهر ، وتطبع في القدس في المطبعة المأمونية ، وكانت تتوقف عن الصدور ثم تعود إلى الظهور[٣] .

٢- فلسطين ، ١٩١١م : يحررها يوسف العيسى وداود العيسى ، جريدة

---

(١) خليل السكاكيني : أديب ومرب فلسطيني. مارس التعليم في القدس، وعمل منقحاً لمجلة الأصمعي وصحيفة القدس، ومدرساً للغة العربية للأجانب، أسس جمعية الإخاء الأرثوذكسي، والمدرسة الدستوية في القدس، له مشاركة بالثورة العربية الكبرى، كان عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق، من كتبه : فلسطين بعد الحرب الكبرى) و(مطالعات في اللغة والأدب، توفي سنة ١٩٥٣م، الموسوعة الفلسطينية (٢/ ٣٧٠)

(٢) مرآة الشرق، عدد ٥٤٢، السنة التاسعة، ١٩ كانون الثاني ١٩٢٨م.

(٣) العقاد، أحمد خليل : الصحافة العربية في فلسطين، ص ١٢١.

سياسية أخبارية إدارية تصدر مرتين في الأسبوع من يافا.

٣- الأخبارية الأسبوعية ، ١٩١١م : يافا يحررها حنا فضول صباغة ، تصدر مرة واحدة في الأسبوع ، جريدة أسبوعية. صدر العدد الأول في ٢٨ كانون الثاني عام ١٩١١م.

٤- النادي ١٩١٢م ، القدس يحررها سعيد جار الله ، جريدة سياسية أدبية اجتماعية تصدر مرة واحدة في الاسبوع والعدد الأخير صدر عام ١٩١٣م وهي أول جريدة عربية سياسية في البلاد(١) .

٥- الاعتدال ١٩١٠م : يحررها بكري السنهوري في القدس ثم حولت إلى يافا وهي جريدة سياسية وبقيت حتى الحرب العالمية الأولى وتوقفت عام ١٩١٤م ، لم يذكر شيء عن مواعيد صدورها (٢)

٦- سورية الجنوبية ١٩١٩م : جريدة سياسية يحررها عارف العارف ، ومحمد حسن البديري القدس، تصدر مرة واحدة في الأسبوع ثم صدرت نصف أسبوعية، فكانت تهاجم الصهيونية(٣) .

٧- الأقصى : ١٩٢٠م يحررها صالح عبد اللطيف الحسيني ، جريدة سياسية أدبية اجتماعية تصدر من القدس.

٨- جريدة حكومة فلسطين الرسمية : يحررها قلم المطبوعات في حكومة

---

(١) العقاد، أحمد خليل : الصحافة العربية في فلسطين، ص ١٨٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢١.

(٣) خوري، يوسف : الصحافة العربية في فلسطين، ١٨٧٦-١٩٤٨م، ص ٢٦.

فلسطين ، جريدة رسمية تصدر من يافا شهرياً[١] .

٩- جريدة صوت الحق ١٩٢٧م : يحررها حمدي الحسيني ، جريدة سياسية ، مستقلة تصدر يومياً من يافا[٢] .

١٠- الجامعة العربية ويحررها منيف الحسيني، سياسية اقتصادية ، تصدر يومياً، القدس ١٩٣٣م.

١١- الكرمل ويحررها نجيب نصار ، جريدة سياسية ، اجتماعية أدبية في حيفا ١٩٣٣م.

١٢- الصراط المستقيم ويحررها الشيخ عبد الله محمد القلقيلي ، جريدة سياسية ، أدبية تصدر باللغة العربية وتطبع في حيفا في ساحة الجرينة تصدر مرتين في الأسبوع، يافا ١٩٣٣م.

١٣- القافلة ويحررها حسن مصطفى ، أدبية اجتماعية ، القدس لم يذكر عن كيفية صدورها ولكن تأسست عام ١٩٤٧م صدرت لمدة شهرين فقط مكتب المطبوعات ودار الإذاعة الفلسطينية.

* **المجلات :**

١- الدستور ويحررها خليل السكاكيني ، ثم جميل الخالدي اعتباراً من١٩١٣م، مجلة تعنى بالمواضيع العلمية ، والثقافية ، تصدر مرة واحدة في الأسبوع ، القدس ١٩١٠م.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٣.

(٢) العقاد، أحمد خليل : الصحافة العربية في فلسطين، ص ١٩٩ .

٢- الحرية ويحررها توفيق السمهوري، تبحث في المواضيع الأدبية والاجتماعية، تصدر أسبوعياً، يافا.

٣- المنهل : ويحررها محمد موسى المغربي ، مجلة أدبية ، تاريخية اجتماعية ، تصدر شهرياً من القدس ١٩١٣م[١].

٤- مجلة دار المعلمين : يحررها طلاب دار المعلمين ومتخرجوها ، ومنهم نقولا حنا ، وسميح عبدالهادي ، ورفعت الشهابي ، مجلة تهذيبية مدرسية ، القدس ١٩٢٠م.

٥- زهرة الجيل : يحررها جميل البحري ، مجلة أدبية ، تصدر مرتين في الشهر ، حيفا ١٩٢٢م.

٦- الحقوق : يحررها فهمي الحسيني ، قضائية شرعية ، تصدر مرة كل شهر ، يافا ١٩٢٣م.

٧- النهضة : ويحررها وديع صنبرة ، مجلة أدبية ، تصدر مرة كل أسبوع ، حيفا ١٩٢٩م.

٨- مجلة كلية الروضة : المعارف ، يحررها حسان أبو رحاب ، تصدر مرة في الشهر ، ثقافية اجتماعية ، القدس ١٩٣٣م[٢].

٩- مجلة دار الأيتام الإسلامية : يحررها عبد اللطيف ممتاز الحسيني تصدر مرة في الشهر ، القدس ١٩٤٦م.

---

(١) خوري، يوسف : الصحافة العربية في فلسطين (١٨٧٦-١٩٤٨) ص ٢٥.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ٢٨.

١٠- المجلة الزراعية العربية : يحررها حسني مقدادي ، تصدر أربع مرات في السنة ، القدس ١٩٤٦م[١] .

هذا وكان يحظر على أهالي فلسطين استيراد وتصدير وطبع ، ونشر أي مطبوعة من المطبوعات التي لا تراها حكومة الانتداب ، ومن ذلك:

١- فظائع البريطانيين في الأراضي المقدسة.

٢- معركة القدس.

٣- فلسطين تحت الانتداب.

٤- اغتصاب فلسطين وكتب أخرى كثيرة[٢] .

نشرات دورية أصحابها أجانب:

١- أخبار دار الأيتام : ويحرزها « أرنستن شنللر » ، أحد مديري دار الأيتام السورية بالقدس.

٢- باكورة جبل صهيون : ويحررها أساتذة وطلاب مدرسة صهيون الإنجليزية.

٣- صدى الناصرة : ويحررها القس (ب.م) كيمبرت.

٤- بريد اليوم.

٥- البناء الحر.

٦- كوكب الأمل.

---

(١) الوقائع الفلسطينية، ص ١٩٠.

(٢) خوري، يوسف : الصحافة العربية في فلسطين، ص ٢٤٤.

والعديد من النشرات التي تجاوزت الثلاثين نشرة [(١)].

وسأشير هنا إلى بعض الصحف والمجلات التبشيرية.

* **المجلات التبشيرية :**

١- باكورة جبل صهيون: يحررها أساتذة وطلاب مدرسة صهيون الإنجليزية، تصدر مرة كل شهر بالقدس ١٩٠٦م.

٢- صهيون الجديدة : يحررها بطريركية الروم الأرثوذكس ، دينية وتصدر مرة بالشهر ، القدس ١٩٠٨م [(٢)].

٣- يوم الرب : يحررها القسيس أسير ضومط ، مجلة دينية بروتستانتية مرة واحدة بالشهر في القدس ١٩٢٠م [(٣)].

٤- رقيب صهيون : ويحررها الأب (بولس سمعاني) مجلة دينية تصدرها شهرياً في القدس ١٩٢١م [(٤)].

٥- الأخبار الكنسية : ويحررها القس إلياس مرمورة ، تبحث في الشؤون الدينية ، القدس ١٩٢٤م.

٦- الصغير : ويحررها جمعية الكردينال فراري ، وكلية تراسانطة ، مرة واحدة بالشهر ، القدس ١٩٢٧م.

---

(١) المرجع السابق نفسه، ص ٢٣٠.

(٢) العقاد، أحمد خليل : الصحافة العربية في فلسطين، ص ١٢٢.

(٣) العقاد، أحمد خليل : الصحافة العربية في فلسطين، ص ١٣١.

(٤) خوري، يوسف : الصحافة العربية في فلسطين (١٨٧٦-١٩٤٨) ص ٣٣.

٧- مجلة البطريركية يحررها (قسطندي ثيودري) مجلة تبحث في الشئون الدينية والتاريخية القدس ١٩٣٣م[١] وغيرها كثير، ومن هذه المجلات.

٨- مجلة مصباح الحق يحررها ليندي، ويتهان، تبحث في المواضيع الدينية، وشئون الإرساليات المسيحية، تصدر شهرياً، القدس ١٩٣٧م[٢].

* الصحف التبشيرية:

١- الباكورة الصهيونية : وتنسب إلى مدرسة صهيون، أي من جبل صهيون يحررها أساتذة وطلاب المدرسة المذكورة، تعنى بالشؤون التربوية، القدس ١٩٠٩م.

٢- بيت القدس : يحررها بندلي إلياس مشحور، جريدة سياسية أدبية تصدر مرتين في الأسبوع، القدس ١٩١٩م[٣].

٣- أخبار دار الأيتام السورية يحررها أرنست شنللر، تصدر مرة واحدة بالشهر باللغتين العربية والألمانية، القدس ١٩٣٣م[٤].

٤- الشباب : ويحررها إميل الغوري تبحث في المواضيع السياسية الاقتصادية والدينية القدس ١٩٣٤م، تصدر مرتين في الأسبوع[٥].

٥- اللواء : يحررها إميل أنطون الغوري، تبحث في الشئون السياسية

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٤١.

(٢) الوقائع الفلسطينية، ص ٦٩٣.

(٣) العقاد : أحمد خليل : الصحافة العربية في فلسطين، ص ١٢٨.

(٤) الوقائع الفلسطينية، ص ١٣٦٩.

(٥) المصدر السابق نفسه، ص ٧٣٤.

والاقتصادية والدينية تصدر يومياً، القدس ١٩٣٥م[١] .

٦- مكتب الأخبار الألماني : يحررها الدكتور (فرانز رنجرت)، تعنى بالشئون السياسية والأخبار العامة تصدر يومياً، القدس ١٩٣٦[٢] .

٧- كوكب الأمل : يحررها القس (جون طنب)، جريدة تعنى بالمواضيع الروحية والأدبية، تصدر مرة واحدة في الشهر، حيفا ١٩٤٦[٣] .

وهناك العديد من الصحف والمجلات والنشرات، ولكن قدمنا صورة عامة من الواقع الإعلامي في فلسطين، وأشير أن التواريخ الواردة في هذه الصحف والمجلات ترجع إلى تاريخ تأسيسها واعتمدت في الغالب إلى الوقائع الفلسطينية والصحافة العربية في فلسطين ما بين عامي ١٨٣٦ -١٩٤٨م الصادرة عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية، وكذلك على دار الصحافة العربية في فلسطين للعقاد.

وعلى الرغم من كل العقبات التي اعترضت طريق الصحافة الفلسطينية، إلا أننا لا ننكر المجهود الذي بذل على هذا الصعيد بكل ما فيه من سلبيات، ونواقص، ومحاولات اختبار وتجريب، إلا أنها وضعت اللبنات الأولى لصرح الصحافة الفلسطينية الذي شيد من بعد، ولا نستطيع الحكم على الصحافة الفلسطينية حكماً دقيقاً بسبب قوة تأثير الظروف المحيطة بها، ومدى انعكاس ذلك وبشكل سلبي على الآفاق الطموحة التي يرتجي الوصول إليها، لقد قلنا إن معظم مالكي الصحف، وأصحاب حق الامتياز هم من الأغنياء وأصحاب النفوذ، وأحياناً لا

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٣٦٩.

(٢) خوري يوسف، الصحافة العربية في فلسطين، ص ٩١.

(٣) المصدر السابق، نفسه، ص ١٢٧.

ينتسبون إلى مهنة الصحافة ، بل نظراتهم إلى مقدار المردود الاستثماري لهم ، لذلك لم يكن التطور في الصحافة سريعاً ، أو حتى ملحوظاً إلا بنسبة ضئيلة.

ووسط الظروف الشاقة فإن كثيراً من المحررين تنقصهم الخبرة التحريرية ، كما أنهم لا يملكون من الخبرة الفنية شيئاً.

فلو أخذنا العدد الأول والأخير من الجريدة نفسها ، والتي كانت تصدر في ذلك العهد للاحظنا أن الفرق بينهما ضئيل جداً. حتى أن موقف الجمهور كان يوصف باللامبالاة ، وكانت جماعة المثقفين لا تهتم بالصحف بقدر ما تندد وتطعن ، ومع كل هذه المصاعب استطاعت الصحافة الفلسطينية وبإمكانياتها المحدودة أن تكون حرة وجديرة بأن تقرأ...[(١)] .

ومما أثر على مستوى الصحافة الفلسطينية : عدم وجود المتخصصين ، فغالبية العاملين بالصحف غير متفرغين للعمل في مهنة الصحافة ، لأنهم لم يروا في الصحافة مهنة تكفل العيش لممارستها ، فالشيخ علي الريماوي محرر جريدة (النجاح) المقدسية كان موظفاً حكومياً ومدرسة ، ويوسف العيسى محرر (فلسطين) في العهد التركي كان موظفاً حكومياً ، وكذلك (إيليا زكا) صاحب (النفير) كان مدرس لغة عربية لليهود[(٢)] .

هذا بالإضافة إلى أن الجرائد شبه محلية ، حيث كل جريدة تولي الاهتمام لما يجري في منطقتها ، وكانت إذا صح التعبير جرائد متصرفيات ، فجريدة (المنادي) المقدسية أوضحت أنها تنشر الأخبار التي تهم سكان متصرفية القدس فقط ، وكانت لا تنشر

---

(١) يهوشع، يعقوب : تاريخ الصحافة العربية في فلسطين، ص ٢٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٣.

أي خبر خارج عن نطاق اهتمام سكان فلسطين ، وكذلك لم يكن هناك مراسلون دائمون للجرائد في مدن عربية ، لتزويدهم بالأخبار أولاً بأول ، أما المراسلون فكانوا متطوعين أو أصدقاء للجريدة ، فمعظم الأخبار محلية ، لذلك كان اهتمام الجريدة بالأدباء في الداخل كثيراً جداً ، ومن بين الصحف التي كانت محور استقطاب للأدباء جريدة (القدس) ، حيث ساهموا بإنتاجهم فيها ومن بينهم: إبراهيم عبود ، إسعاف النشاشيبي ، إسماعيل محمد الخطيب ، أنطوان لورنس ، بندلي الخوري ، حافظ السعيد ، روحي الخالدي ، شكيب أرسلان(١) ،عارف العارف، خليل بيدس(٢) ، يوسف العلمي، علي الريماوي ، وكانت جريدة (فلسطين) تنشر موضوعات لعباس العقاد(٣) وخليل مطران(٤) ، وأكرم

---

(١) شكيب أرسلان : الأمير، عالم بالأدب، والسياسة، مؤرخ من أكابر الكتاب، بيعت بأمير البيان، من أعضاء المجمع العلمي العربي، عالج السياسة الإسلامية قبل انهيار الدولة العثمانية، وكان من أشد المتحمسين من أنصارها، واضطلع بعد ذلك بالقضايا العربية فما ترك ناحية إلا تناولها تفصيلاً وإجمالاً من تصانيفه : الحلل السندسية في الرحلة الأندلسية وغزوات العرب و حاضر العالم الإسلامي توفي سنة (١٩٤٦)، الأعلام (٣/ ١٧٣) ورواد النهضة الحديثة (١٠٩).

(٢) خليل بيدس : أديب، قصاص، مترجم خطيب. أصدر مجلة النفائس عام (١٩٠٨) وكان أول أديب فلسطيني ترجم قصص (بوشكين) الروسي إلى العربية، وكان مورداً فياضاً خلال الحرب العالمية الثانية للإذاعة الفلسطينية في الحديث والقصة والتاريخ والنقد اللغوي، توفي سنة (١٩٤٩) الموسوعة الفسطينية (٢/ ٣٦٧).

(٣)عباس محمود العقاد : إمام في الأدب، من المكثرين كتابة وتصنيفاً مع الإبداع تعلم الإنكليزية والألمانية والفرنسية، انقطع للكتابة في الصحف والتأليف، وكان من أعضاء المجامع العربية الثلاثة (دمشق والقاهرة وبغداد) وشعره جيد، من مصنفاته رجعة أبي العلاء، و ساعات بين الكتب، و المرأة في القرآن، توفي سنة (١٩٦٤) الأعلام (٣/ ٢٦٦).

(٤)خليل مطران : شاعر غواص عالى المعاني، من كبار الكتاب، له اشتغال بالتاريخ والترجمة، أنشأ

زعيتر[١]، وإسعاف النشاشيبي.

وعلى الرغم مما أوضحنا سابقاً من أن قلة من الصحف في فلسطين كانت تنشر أخباراً عالمية ، أو تعتمد على وكالات الأنباء ، وأن عدداً قليلاً من هذه الصحف مثل : (الترقي) التي صدرت عام ١٩٠٩م ، الوحيدة من بين صحف فلسطين التي كانت تنشر أخباراً دولية ، وكانت تهتم بنشر تراجم من الصحافة الأجنبية وخاصة الفرنسية.

أما جريدة (فلسطين) فقد رأت أنه لابد من الاشتراك في وكالات الأنباء الأجنبية ، والاعتماد عليها في نشر الأخبار واستطاعت جريدة (فلسطين) بتطورها أن تكون ممثلة (أجانس عثمانلي) أي وكالة الأنباء العثمانية ، بحيث تنقل الأخبار إليها على شكل برقيات ، وتنشر يومياً في يافا بثلاث لغات هي: العربية ، الفرنسية ، الألمانية[٢].

وقد ظلت الصحافة الفلسطينية على هذا الوضع حتى انتهت الحرب العالمية

(المجلة المصرية) والجوانب المصرية) يومية، ولقب بشاعر القطرين، وكان يشبه الأخطل، وكان غزير العلم بالأدبين العربي والفرنسي، رقيق الطبع، ودوداً مسالماً، له (ديوان شعر) وعدة ترجمات توفي سنة (١٩٤٩) الأعلام (٢/ ٣٢٠)

(١) أكرم زعيتر : كاتب مفكر سياسي مؤرخ. ترأس جريدة (مرآة الشرق) ثم جريدة (الحياة) واعتقل مراراً أسس حزب الاستقلال وشارك في عصبة العمل القومي، ونادي المثنى، والجوال القومي، واشتراك بثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق، عين وزيراً للمعارف في حكومة عموم فلسطين، فسفيراً للأردن، فوزيراً للخارجية، فوزيراً للبلاط، فرئيساً للجنة الملكية لشئون القدس (اختير عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق وعمان والمجمع الملكي من كتبه (أوراق أكرم زعيتر) و من أجل أمتي و التاريخ الحديث توفي سنة (١٩٩٦م) إتمام الأعلام (٤٤).

(٢) جريدة (فلسطين) العدد الأخير الصادر يوم الثلاثاء ١٦/ ٤/ ١٩١١م.

الأولى ، وشهدت حركة الإدارة العربية بدايات تشكلها ، ولكن سرعان ما خضعت للانتداب البريطاني ، وقد تأثرت الصحافة الفلسطينية بالمستجدات السياسية ، والآثار الاقتصادية ، وفي هذه الفترة غزت الصحافة الفرنسية المنطقة العربية ، فظهرت مصطلحات ، وتيارات وانتماءات جديدة ، وأساليب ، ولغة كتابة أدبية فرنسية ، كل ذلك اثر في الصحافة الفلسطينية.

* * *

المبحث الثالث
الواقع الاجتماعي

- السكان : قدرت دولة الخلافة سكان فلسطين في عام ١٩١٤م (٦٨٩.٢٧٥) نسمة ، منهم ٨٪ يهود ، وفي عام ١٩٢٠م (٦٧٣.٠٠٠) منهم (٥٢١.٠٠٠) من المسلمين ، (٦٧.٠٠٠) من اليهود و (٧٨.٠٠٠) من المسيحيين ، و (٧.٠٠٠) مذاهب أخرى[١].

وفي عام ١٩٤٧م قدر عدد السكان بنحو : (١.٩٣٣.٦٧٣) نسمة ، إضافة إلى بدو بئر السبع (٩١.٩٣٤) ، نسمة بينهم (٦١٤.٢٣٩) يهودياً[٢].

وفي عام ١٩٤٨م قدر عدد السكان حوالي (٢.٢٦٥.٠٠٠) نسمة ، منهم (١.٤١٥.٠٠٠) عربي مسلم ، (٦٥٠.٠٠٠) يهودي و(١٤٦.١٦٢) مسيحي[٣].

نلاحظ من خلال هذه النسبة زيادة عدد اليهود حسب الهجرة التي يقومون بها بين الحين والآخر من ٨٪ عام ١٩١٨م إلى ٣١٪ عام ١٩٤٤[٤].

وكان سكان فلسطين موزعين على أنماط الحياة الرئيسية الثلاثة ، وهي:

١- سكان المدن (الحضر):

فمنذ بداية الانتداب كان في فلسطين (٢٣) مدينة ، يتميز سكانها بالطابع

---

(١) United nations, Statistical Year book 1959 New York p.31

(٢) G. ofP General monthly bulletin a current statistics p.5

(٣)ياغي، اسماعيل : الجذور التاريخية للقضية الفلسطينية، ص ٦٨

(٤) C.O521, 14007405 Report about population p 322

التجاري الصناعي ، وقد بلغ مجموع سكانها (٢٤٦.٣١٧) نسمة ، أي: بنسبة ٣٤.٩٪ من مجموع السكان الكلي ، ولو استعرضنا هذه المدن لوجدنا أن (١٧) مدينة سكانها عرب مسلمون بشكل تام ، ولم توجد إلا مدينة واحدة يهودية هي : تل أبيب ، وهناك ثلاث مدن: يافا وحيفا ، وصفد. فيها نسبة محدودة من اليهود ، وفي عام ١٩٤٨م وصل عدد سكان المدن (٩٧٨.٠٠٠) نسمة بنسبة ٤٧٪ من سكان فلسطين[١].

٢- سكان القرى (أهل الريف):

عند بداية الانتداب كان في فلسطين (٨٤٤) قرية عربية ، و(٧١) مستعمرة يهودية ، وبلغ مجموع السكان (٧٩٢.٨٦٥) نسمة عام ١٩٢٢م ، بنسبة ٦٥٪ من مجموع سكان فلسطين آنذاك ، منهم (٤٥١.٨١٦) مسلماً ، و(١٧.٨٨١) مسيحياً ، و (٧.٨٩٦) درزياً و (١٥.١٧٢) يهودياً[٢].

وعند نهاية الانتداب عام ١٩٤٨م ، كان معدل سكان الريف قد بلغ ٥٣٪ من مجموع السكان العرب (١.٤١٥.٠٠٠) نسمة واليهود (٦٥٠.٠٠٠) نسمة[٣] وكان غالبية السكان فلاحين ومزارعين ، وكانوا يعيشون حياة قاسية حيث تفرض حكومة الانتداب من الضرائب ما يجعلهم في حالة بؤس وشقاء ، وكان بعضهم يضطر لبيع أرضه للسماسرة ليسدد الدين الذي عليه ، أو يهاجر من قريته.

وحياتهم شبه عشائرية، و(الحمولة) أهم وحدة اجتماعية في حياة القرية

---

(١) النتشة، رفيق، اسماعيل : فلسطين تاريخيا، ص ١٥.

(٢) وزارة المستعمرات البريطانية C.O 82.41.07405 Report about the Demography of Palestine

(٣) صايغ، يوسف : الاقتصاد الإسرائيلي، ص ٦١.

الفلسطينية ، إذ لا يستطيع أحد من أبناء الحمولة أن يقطع أمراً بزواج ، أو سفر دون إذن من شيخ القبيلة ، أو مختارها الذي يقوم بإدارة شؤون الحمولة ، وأهم ما يميزهم البساطة والجد في العمل والكرم والشهامة(١).

٣- سكان البادية (البدو الرحل) :

بلغ عدد سكان البادية عام ١٩٢٢م حوالي (١٠٣.٣٣١) نسمة ، وكلهم مسلمون وفي عام ١٩٣١م قدر عددهم (٦٦.٥٥٣) نسمة ، وبقي هذا العدد حتى أواخر الانتداب.

وينقسمون إلى ثلاثة أقسام: قسم يعيش على إنتاج الحيوانات فقط ، وقسم يعيش على إنتاج الحيوان ، ويقايض على منتجات زراعية ، وقسم ثالث يعتمد على الزراعة والمواشي معاً.

من عاداتهم: تعدد الزوجات ، ولهم شيخ قبيلة يحكم بينهم في المنازعات(٢).

كان سكان فلسطين من رعايا الدولة العثمانية ، وقد تعرضوا لظروف قاسية ناجمة عن الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية ، وكانت غالبية سكان فلسطين تعيش في الريف معتمدة على الزراعة ، وقد بلغ عدد سكان الريف عام ١٩٢٢م (٧١٪) من إجمالي عدد السكان ، وغالبيتهم يعيشون في القرى الجبلية ، بعيداً عن الساحل لأسباب أهمها: الأمن وذلك لتعرض الساحل للغزو ، إضافة إلى انتشار الأمراض ، وخاصة الملاريا وبعيداً عن الضرائب التي تصل أحياناً إلى (٥٠٪) من

---

(١) عرابي، محمد : تطور المجتمع في فلسطين، ص ٢٠٧.

(٢) العارف، عارف : القضاء بين البدو، ص ١٩.

الدخل. وقد تم تسجيل مئات الدونمات من الأراضي بأسماء الإقطاعيين هرباً من الضرائب ، وبقية الشعب عدا الإقطاعيين يعيشون في فقر ، وحالة اجتماعية ونفسية سيئة ، يعاني منها غالبية الفلاحين الفلسطينيين(١). وقد وصل الحد بالإقطاعيين إلى بيع بعض الأراضي إلى الصهاينة ، حتى وضع الباب العالي تشريعاً يلغي فيه بيع الأراضي لليهود(٢).

وفي الفترة التي بدأ فيها النشاط الاقتصادي بالانتعاش إثر الامتيازات الممنوحة للغرب في الدولة العثمانية ، والتسهيلات ومن ذلك إلغاء الضرائب على السلع الأوروبية والتي وصلت إلى ٧٪ من المنتجات المحلية فالضرائب كانت تتراوح بين ٣٠٪ - ٥٠٪. مما أدى إلى ضمور الإنتاج المحلي ، ومع ذلك كله جاءت مرحلة الانتداب التي أوقفت هذا النشاط ، وعرقلت تقدمه وألغت كثيراً من الصناعات وأغلقت كثيراً من الأسواق أمام الصناعة المحلية(٣).

الناحية الصحية :

جرى أول تعداد عام للسكان في فلسطين عام ١٩٩٢م في زمن حكومة الانتداب، وشمل هذا الإحصاء الولادات والوفيات والهجرة الداخلية والخارجية، وجرى تسجيل الأولاد بشكل منظم عام ١٩٢٠م.

---

(١) اللبدي ، عبدالعزيز : الأحوال الصحية والاجتماعية للشعب الفلسطيني (١٩٢٢-١٩٨٢) ، ص ٢٣.

(٢) ياسين، عبد القادر : كفاح الشعب الفلسطيني حتى عام ١٩٤٨م، ص ١٩.

(٣) اللبدي ، عبد العزيز : الأحوال الصحية والاجتماعية للشعب الفلسطيني (١٩٢٢-١٩٨٢م) ص٤٣.

الدين	عام ١٩٢٢	عام ١٩٤٦
مسلم	٥٨٩.١٧٧	١.١٤٣.٣٦٦
يهودي	٨٣.٧٩٠	٥٨٣.٣٢٧
مسيحي	٧١.٤٦٤	١٤٥.٣٢٧
آخرون	٧.٦١٧	١٥.٤٨٨ (١)

نلاحظ أن زيادة العرب المسيحيين طبيعية ، ولكن زيادة اليهود كانت غير طبيعية بسبب الهجرة التي مارستها حكومة الانتداب. علماً بأن عدد اليهود كان ينخفض لعدم استثارة العرب ، كذلك نلاحظ أن هذا التقسيم سياسة استعمارية ، ومما يلاحظ أنه في فترة الانتداب انتشر كثير من الأمراض مما سبب عدداً من الوفيات. ويعود ذلك للإهمال الصحي ، وقلة المستشفيات ، ومن الأمراض المنتشرة: التهاب الرئة والحصبة والسل والتيفوئيد والدسنتاريا ، وكانت الحصبة من أهم الأمراض لدى الأطفال ، حيث كانت تقتل العديد منهم ، فالعناية الطبية السريرية كانت قليلة جداً ، وفي عام ١٩٢٨م تأسس سبعة مستشفيات حكومية بها حوالي ٢٤٣ سريراً ، وكانت موزعة كما يلي:

المستشفيات	عدد الأسرة
حيفا	٢٥
عكا	٢٥
يافا	٤٥

(١) المرجع السابق نفسه، ص ٤٣.

غزة	٢٥
بئر السبع	١٨
نابلس	٤٠[1]

بينما المستشفيات التابعة للمنظمة الصهيونية حوالي ٣١ مستشفى ، ومستشفى خاص لفلسطين في يافا وبقية المستشفيات الخاصة تابعة للمنظمات الكنسية ، وينوه التقرير الصادر عن حكومة الانتداب بالنقص الموجود في عدد الأسرة ، على الرغم من ارتفاع عدد السكان.

وكان معظم الموظفين في الإدارة الصحية بريطانيين ، وحتى الممرضات ، أو العيادات الحكومية ، ففي عام ١٩٢٨م لم يكن سوى ١٩ عيادة في المدن ، ولم يدخل القرى منها شيء حيث لا تعرف هذه القرى العيادات، ولا المراكز الصحية، أو العناية الطبية ، في حين كان الصهاينة يديرون (٢١) عيادة ، أما المؤسسات الكنسية فكانت تدير (٢٦) عيادة.

عدد الأسرة في المستشفيات الخاصة والكنسية للأعوام ١٩٢٨ ، ١٩٣٣ ، ١٩٤٥ كالتالي:

سنة	عدد المستشفيات	عدد الأسرة
١٩٢٨م	٢٨	١٦٥٧

(١) اللبدي ، عبد العزيز : الأحوال الصحية والاجتماعية للشعب الفلسطيني (١٩٢٢-١٩٨٢)، ص ٥٢.

١٩٣٣م	٢٧	١٦٢٩
١٩٤٦م	٤٥	٢٦٧٠ [١]

نلاحظ من خلال الإحصائيات إهمال حكومة الانتداب للجانب العربي ، من حيث بناء المستشفيات ، أو عدد الأسرة ، مما ضاعف من الوفيات ، خاصة عند الأطفال ، علاوة على نقص الوعي الصحي. وهذا يدل على نقص الخدمات الصحية ، سواء أكانت وقائية أو علاجية[٢].

الطبقة العاملة في فلسطين:

ظهرت الطبقة العاملة كطبقة متميزة من طبقات المجتمع ، وأهم ما يميزها كونها تتشكل من عمال مأجورين محرومين من ملكية وسائل الإنتاج ، ولا يملكون سوى قوة عملهم ، كذلك لم يكن العمال الصناعيون والحرفيون في فلسطين يشكلون طبقة اجتماعية متميزة ، ويعود سبب ذلك إلى كون فلسطين بلداً زراعياً من ناحية ، ومن ناحية أخرى لم يكن الصناعيون في تلك الفترة سوى طبقة حرفية تسود بينها العلاقات الأسرية بين رب العمل والعامل ، علاوة على ذلك صغر الوحدات الإنتاجية الصناعية، وانخفاض عدد العمال في الوحدة الواحدة[٣]. فكانت الطبقة العاملة في فلسطين شبيهة في كثير من الحالات بمثيلاتها في الأقطار العربية المجاورة ، فقد أدى تدهور الأوضاع الاقتصادية إلى هجرة مستمرة من الريف إلى المدن ، إذ شكلت المدن مركز جذب للفلاحين غير الملاك ، الذي أخذوا

---

(١) nnual Health Report 1946 s. 17

(٢) اللبدي، عبدالعزيز : الأحوال الصحية والاجتماعية للشعب الفلسطيني، ص ٥٢.

(٣) العامري، عدنان : التطوير الزراعي والصناعي في فلسطين، ص ١٣٤

يواجهون صعوبات متزايدة في الحصول على ما يقيم أودهم.

ونشير إلى أن الصهاينة لم يكونوا ليحجموا عن استخدام اليد العاملة العربية في مزارعهم ، حيث بلغ عدد العاملين العرب في مستوطنات بتاح تكفا – رحبوت ، نيس ، لي صهيون عام ١٩٣٥ ، حوالي ٦.٨٦٨ عاملاً ، في الوقت الذي كان فيه عدد العمال الصهاينة (٢٦٧٢) عاملاً[١].

وأغلقت هذه الأعمال في أوائل الثلاثينات للبعد السياسي. ولقد انحدرت أغلبية الطبقة العاملة الفلسطينية من الفلاحين ، والحرفيين والبدو ، كما أدت الهجرة في تكوين هذه الطبقة ، وكانت مدينة حيفا مركزاً لهؤلاء العاملين ، إذ كان لهم حي خاص في حيفا مساكنه من التنك (الصفيح والخشب) ، ولا توجد إحصائية دقيقة لعدد العاملين ، وتلك الإحصائية التي أجرتها حكومة الانتداب (١٩٣٩/ ١٩٤٢م) كان عدد العاملين العرب (٤١١٧) ضمن الصناعات العربية، أما في الصناعات الخاصة (٧٥٤) عاملاً و(٥٢) عاملة[٢].

وضمن الصناعات العبرية اليهودية (٨٠٣٣) عاملاً ، وكان منهم حوالي (٧٧١) عاملة ، وضمن الملكيات الخاصة حوالي (٢٧٤١) عاملاً ، منهم (١٤٦) عاملة ، وبقية العمال كانوا في معسكرات الإنجليز التي أقيمت في البلاد العالمية الثانية[٣].

ورغم ذلك تفشت البطالة بين العمال العرب ، حيث قدر عدد العاطلين منهم

---

(١) port of the Zionist Organization and Jewish Agency for Palestine submitted to the xxth zionist congress et Zurich Augus 1937, Terusalem P 393

(٢) ياسين، عبدالقادر : تاريخ الطبقة الفلسطينية، ص ٧٣.

(٣) Government of Palestine, Statistical Abstract/of Palestine 1944/4945 op.cipp 53

عن العمل في عام ١٩٣١م بنحو (١٣.٨٠٦) عاملاً ، بمن فيهم عمال الزراعة ، ثم زادت إلى (١٧٠٠٠) عامل ويعود السبب في زيادة تفشي البطالة إلى الآتي:

١- الهجرة الصهيونية : أخذ الصهاينة القادمون ينافسون السكان الأصليين على فرص العمل المتاحة لهم في المشاريع الحكومية ، وحلو محلهم[1].

٢- نزوح الفلاحين إلى المدن؛ لتوفر فرص العمل ، حيث إن الإنتاج الزراعي أخذ يقل والاحتياجات في زيادة ، وهناك من لا أرض لهم ، أي ليسوا ملاكاً ، فاضطروا للنزوح بحثاً عن العمل[2].

٣- طرد العمال العرب من الأعمال الحكومية: حيث إن حكومة الانتداب بدأت تطرد العمال العرب ، وتحل محلهم الصهاينة القادمين من دول العالم ، خاصة بعد ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩م ، إذا وظفت العرب فبأجور أقل من اليهود ، بسبب ارتفاع مستوى معيشة اليهود عن العرب ، كما جاء في تفسير وكيل وزارة المستعمرات البريطانية آنذاك[3].

٤- تطبيق شعار (عبرية العمل): شكل الهستدروت[4] حاميات صهيونية

---

(١) الجندي، إبراهيم : الصناعة في فلسطين إبان الانتداب البريطاني، ص ٤٤.

(٢) أبو الفدا، إبراهيم : فلسطين، تعريب، سعد زروق : ص ١٤٤.

(٣) مستر شيلز.

(٤) تم تأسيس الهستدروت في عام (١٩٢٠م) واستعمل منذ بداية تشكيله ليكون لحم الاستيطان الصهيوني في فلسطين ودمة، وقد لعب الهستدروت دوراً كبيراً في تحقيق الشعارات الصهيونية (احتلال الأرض) و (احتلال العمل) وهذا يعني طرد العمال الفلاحين الفلسطينيين العرب من أرضهم وأعمالهم. انظر كتاب : بنية ومشاكل التجمع الاستيطاني الصهيوني في فلسطين المحتلة الحسيب قهوجي (ص ٩٢).

أسند إليها أمر مطاردة العمال العرب ، العاملين في المؤسسات اليهودية الزراعية والصناعية ، وفرض غرامات على أصحاب هذه المؤسسات الذين يستخدمون العمالة العربية ، وكان هدف اليهود من ذلك أن الذين تزداد حالة العرب سوءاً وتضعف بنيتهم الاقتصادية ، ويضعفوا عن مواجهة الصهاينة ، ويضطروا في النهاية إلى بيع الأراضي أو الهجرة عنها ، وهذا هدف سياسي مكمل لهدف الهجرة الصهيونية وأدى ذلك كله إلى انخفاض مستوى معيشة العرب ، لذا عاش العرب – أعني غالبيتهم حياة بؤس ظهرت معالمها في مدينة يافا ، حيث كان (٧٠٪) منهم يعيشون في بيوت غير صحية ، إضافة إلى العديد منهم الذي يعيشون في الكهوف ، لعدم قدرتهم على دفع الأجور ومستلزمات المعيشة[1] .

مؤتمر العمال العرب الأول :

كان لوعي الطبقة العربية بفلسطين ، والخطر الكبير من هجرة الصهاينة ، وما ترتب عليه من توسيع دائرة البطالة وطرد العمال العرب لحساب العمال اليهود ، والأحداث التي جعلت حكومة الانتداب ترمي برصاصها العديد من الشهداء لصالح الوطن القومي ، اليهودي كل هذه المعطيات فجرت عند العمال العرب الفلسطينيين الرغبة في تنظيم صفوفهم وفق اتحاد عمال عرب فلسطين والذي حمل بياناً إن لم ننظم صفوفنا سيكتسحوننا في بلادنا ، وينتزعون منا كل أعمالنا[2] .

وقد عملت مؤتمرات العمال على إيقاظ الوعي العمالي الفلسطيني إلى حد ما ، وفي الوقت نفسه كانت حكومة الانتداب تقف جنباً إلى جنب مع العمال اليهود ،

---

(١) مجلة آفاق عربية : مقالة عبد القادر ياسين بعنوان : فجر الحركة العمالية في فلسطين ، ص٧٩.

(٢) كراس مؤتمر العمال العرب الأول : ص٢.

فقدمت في عام ١٩٣٦م مبلغاً وقدره ٢٥.٠٠٠ جنيه فلسطيني من أجل بناء مساكن ، وإقامة مستوطنات جديدة لإيواء العاطلين منهم عن العمل ، وخصصت مع الهستدروت رواتب شهرية ثابتة لهم[١].

ولم تدخر حكومة الانتداب جهداً في تقديم التسهيلات كافة من أجل الصناعة اليهودية ونموها في البلاد ، إضافة إلى إعفائها من الجمارك وحماية المنتجات اليهودية من المنافسة الخارجية ، إضافة إلى تمكين اليهود من التقدم الصناعي على العرب[٢].

وهذا جدول يبين الصناعات العربية واليهودية في فلسطين ، حسب الإحصائيات التي أجرتها حكومة الانتداب عام ١٩٤٢م:

العام	الصناعات العربية		الصناعات اليهودية	
	١٩٣٩	١٩٤٢م	١٩٣١م	١٩٤٢م
عدد المصانع	٣٣٩	١٥٥٨	٨٧٢	١٩٠٧
عدد العمال	٤١١٧	٨٨٠٤	١٣.٦٧٨	٣٧٧٧٣
رأس المال المستثمر (جنيه) فلسطيني	٧٠٣.٠٠٠	٢.١٣١.٠٠٠	٤.٣٩١.٠٠٠	١٢.٠٩.٠٠٠ [٣]

يتضح من الجدول السابق الفارق الكبير بين عدد المصانع العربية واليهودية ، وكذلك عدد العمال ورأس المال ، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على تقدم اليهود

(١) الجندي : إبراهيم رضوان : الصناعة في فلسطين إبان الانتداب البريطاني، ص١٤٤ .

(٢) الجندي إبراهيم رضوان : سياسة الانتداب البريطاني في فلسطين/ ص ١٢٣

(٣) مستخرج من عدة مباحث وحاول اطلع عليها الباحث من خلال Statistical Abstracat of Palestine 1994/25 op. Git p. 59

صناعياً ، ويدل أيضاً على أن أهل فلسطين حاولوا تحسين وضعهم أمام المنافسة اليهودية ، ولكن دون جدوى ، لأن الاستعمار وحكومة الانتداب ترجح الكفة لصالح اليهود وكانت هناك عقبات تعترض الصناعة العربية في مسيرتها من خلال:

١- حصر موارد الإنتاج : حيث منعت حكومة الانتداب مسلمي فلسطين من استيراد المواد الأولية اللازمة لصناعتهم ، وعلى النقيض من ذلك فقد خصصت ٩٠٪ من رخص الاستيراد والتصدير للصهاينة؛ الذين تحكموا في التجارة حسب مصالحهم ، وحجبت عن العرب رخص فتح المصانع ، كما حصل مع شركة البوتاس الفلسطينية ، وامتياز توليد الكهرباء عن مياه نهر الأردن[1].

٢- الحظر القانوني : حيث منع السكان العرب من استثمار ينابيع الثروة في بلادهم ، وكانت معظم الشركات بريطانية ، حيث وقفت حائلاً دون تقدم الصناعة بفلسطين ، وقد احتكروا توليد الكهرباء ، ولم يفسحوا المجال أمام المصانع العربية.

٣- الاحتكار : وهذا ما فعلته شركة صهيون للكبريت من القضاء على معمل كبريت الناصرة كما أنتجت مصانع شيمن للزيوت النباتية الصهيونية الصابون العربي النابلسي ، وقد عملت حكومة الانتداب على خنق الصناعات العربية ، وذلك بتحديد أسعارها أو الاستيلاء عليها أحياناً ، أو على إنتاجها ، مثل مصنع البطانيات الذي فرضت عليه سعراً للبطانية الواحدة لا يغطي سعر التكلفة[2].

٤- قلة رأس المال : لم يتوافر رأس المال الكافي للقيام بصناعة متقدمة بعكس

---

(١) الخولي حسن، صبري : سياسة الاستعمار الصهيونية تجاه فلسطين، ص ٨١.

(٢) خلوصي، محمد علي : التنمية الاقتصادية في قطاع غزة، ص ١٤٨.

ضخامة الأموال التي توافرت للصناعات الصهيونية.

٥- الخبرة الصناعية : افتقد العمال العرب الخبرة الصناعية المكتسبة من المدارس الصناعية ، وذلك لعدم قيام حكومة الانتداب بإنشاء مدارس صناعية عربية في البلاد ، باستثناء مدرسة حيفا ، ولكنها لم تف بالغرض المطلوب ، ولم يقم المتخرجون بأي دور في النشاط الصناعي في البلاد ، علماً بأن عدد الطلاب لا يزيد عن أربعة وعشرين طالباً وهذه نسبة لا تؤثر في إيجاد واقع صناعي متقدم (١).

يتضح لنا مما تقدم: أن الصناعة العربية في فلسطين كغيرها من البلدان العربية التي كانت تحت سلطة الدولة العثمانية ، فكانت الصناعة يدوية تقليدية ، وكانت تسد حاجات الأسرة ، أو القرية أو المدينة ، ثم تطورت الصناعات تطوراً طبيعياً مع بطء قلة رؤوس الأموال المستثمرة وكان التوجه للزراعة أكثر منه للصناعة.

وهذا جدول يبين الفارق الكبير بين الصناعة العربية والصناعة اليهودية في فلسطين في الفترة ما بين ١٩٢٣-١٩٢٩م:

البيان	١٩٢٣	١٩٢٥	١٩٢٨	١٩٢٩
عدد المشاريع	٢٧٦	٥٣٦	٥٩٤	٦١٩
عدد العمال	٢٣٣١	٤.٨٩٠	٥.٧٥١	١٠.٧٠٠
رأس المال المستثمر	٩٦٦.٠٠٠	١.٥١٧.٠٠٠	١.٨٤٩.٢٢٧	٢.٠٧٤.٠٠٠ (٢)

ومن أهم المشاريع الصهيونية اليهودية مصنع نيشر للأسمنت الذي أنشىء في حيفا عام ١٩٢٣م ومصنعان للقرميد لتلبية حاجة البناء ، ثم شركة مطاحن

(١) مجلة شئون فلسطين، مقالة هاني حوراني، ص ١١٩ .

(٢) Grunwald. Op, Git. P Ī

فلسطين الكبرى ، لليهودي الباون روتشيلد في حيفا ، وكذلك شركة شيمن للزيوت النباتية وشركة ماسيير للدخان[١] .

وقد ازداد عدد المصاريف التجارية في فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى زيادة ملحوظة ، حيث كانت تعتمد قبل وإبان الحرب على مصرفين هما المصرف العثماني الإمبراطوري ، والمصرف البريطاني الفلسطيني ، أما بعد الحرب فقد تم افتتاح العديد من البنوك الأجنبية والمحلية وازداد نمو هذه المصارف بعد عام ١٩٣٠م تحديداً ، إذ ارتفع عدد المصارف المحلية إلى (٢٠) مصرفاً ، والأجنبية إلى سبعين مصرفاً ، وبعد سنوات وصل عدد المؤسسات المالية إلى (٧٦) مؤسسة ، ويعود السبب إلى الفائدة المرتفعة التي تقدمها هذه المؤسسات وكان هناك مصارف للإقراض الصناعي ، وكذلك الزراعي. وبعد ذلك زاد عدد مصارف الإقراض إلى (٨٨) مصرفاً عام ١٩٣٣م ، ووصل عددها عام ١٩٣٧م إلى (٢٣٧) مصرفاً.

نلاحظ هذا النشاط الاقتصادي المتزايد ، وما ذلك إلا للتنافس الشديد بين الدول المستعمرة ، فكل دولة ترغب أن يكون لها مجرد موضع قدم في أرض فلسطين[٢] .

٦- الهجرة الصهيونية والأوضاع المعيشية : كان من نتائج الهجرة الصهيونية واستيلاء الصهاينة على نسبة من أجمل الأراضي في فلسطين ما يلي:

أ- حُرم الفلاح العربي من استغلال هذه الأراضي ، مما اضطر عدداً كبيراً من المزارعين العرب للعمل في بيارات ومزارع اليهود ، أو مستخدمين وعمال بناء في

(١) الجندي : إبراهيم، رضوان : الصناعة في فلسطين إبان الانتداب البريطاني، ص ٨٩.

(٢) الجندي، إبراهيم رضوان : الصناعة في فلسطين إبان الانتداب البريطاني، ص ٨٩.

المدن ، أو معسكرات الجيش البريطاني [١] .

ب- ارتفعت تكاليف المعيشة ارتفاعاً فاحشاً ، وبهذا تدني مستوى المعيشة عند العرب. وخاصة العمال منهم.

ت- ازداد غنى الكثير من العائلات ، مما دفعهم إلى بيع أراضيهم للسماسرة الذي سهلوا نقلها للصهاينة.

ث- أدت الهجرة الصهيونية وقيام المستعمرات إلى تنافس غير متكافىء بين العرب واليهود ، حيث كان اليهود المال ، والخبرة والتنظيم ، حتى أن بعض المهن أو مورد الرزق لكثير من الناس أصبح مهدداً. ففي مجال الصناعة مثلاً كان عدد العمال العرب عام ١٩٣١م ما يساوي ٢٤.٩٢٩ عاملاً ، بينما العمال اليهود ١٩.٢٣٥ ، علماً بأن عدد اليهود لما يبلغ حينئذ ٢٥٪ من عدد السكان [٢] .

* **النشاط الاقتصادي :**

ولما كان الصهاينة يسعون للسيطرة على الأراضي ، والمال والصناعة والزراعة ، فقد اتجهت الحركة الوطنية إلى مقاومة بيع الأراضي ، فكان كل بيان يطالب بإيقاف بيع الأراضي ، ونتيجة لذلك ، وفي عام ١٩٣٣م عقد مؤتمر اقتصادي في القدس طالب بما يلي:

١- السعي لإيقاف ضريبة العشر ، ورسوم الأفراد.

٢- تشجيع غرس الأشجار.

٣- تأسيس مدرسة زراعية.

---

(١) الخولي، حسن صبري : سياسة الاستعمار الصهيوني اتجاه فلسطين، ج٢، ص ٨١.

(٢) علوشي، ناجي : المقاومة العربية في فلسطين، ص ١٩.

٤- إعادة المصرف الزراعي.

٥- منع بيع الأراضي.

٦- تحسين الطرق.

٧- رفع رسوم التبغ الأسباني.

٨- تعليم مهنة الخياطة للنساء، خاصة في مدارس الإناث[١].

*** نظرة في الاقتصاد الفلسطيني في هذه الفترة:**

كانت الدولة العثمانية هي المهيمنة سياسياً على فلسطين قبل الانتداب البريطاني، وكان نظام النقد المتداول في ذلك الوقت حتى عام ١٩٢٧م نظام المعدنين الذهب والفضة، ثم اقتصر على الذهب إضافة إلى العملة التركية الورقية، التي أصبحت بلا قيمة في ظل ارتفاع الأسعار والتضخم وبعد هزيمة الدولة العثمانية وإعلان الانتداب على فلسطين أصدرت الحكومة البريطانية المرسوم التالي:

١- يعلم من الآن بأنه اعتباراً من تاريخ ٢٢/ ١/ ١٩٢١م، تكون العملات التالية هي المتداولة:

أ- العملة المصرية (ذهب، وفضة، ونيكل).

ب- الجنيه البريطاني ويعادل ٩٧.٥ قرشاً مصرياً.

٢- تصادر العملات التي لم يرد ذكرها في هذا المرسوم إذا تم التعامل في التجارة، أو التداول بها، على أن يكون هذا التداول لصالح البنك المصري، لذا لم يلق هذا ارتياحاً من المواطنين، وبعد سنتين أنشىء نظام مالي خاص بفلسطين عام

---

(١) علوش، ناجي: المقاومة العربية في فلسطين، ص ٢٣.

١٩٢٧م مرتبط بالجنيه الإسترليني(١) .

وكان الجنيه الإسترليني يساوي (١٠٠) قرش ، والقرش يساوي (١٠) مليم ، والعملة هي الفضة والنيكل والبرونز ، وقد شكلت حكومة الانتداب مجلساً خاصاً يقوم بمهمة توفير وضبط الموارد المتداولة في فلسطين ، بحيث يتم التداول بشكل مستقر ، يتلاءم والمصالح البريطانية وتحقيقاً لهذه الغاية فقد أنيطت مهمة صك العملة وطبع النقد – إلى المجلس – حيث كان يتم طبع النقود بموجب قيمة مدفوعة من بريطانيا ، تغطي حاجة المستعمرة ، وكان المجلس يحتفظ له بوديعة في بريطانيا تحسباً لتغير قيمة الجنيه.

ويبين الجدول التالي حجم التداول:

التاريخ	الاستثمارات	القيمة الموجودة	السيولة المتداولة	قيمة الفضة في البورصة	قيمة مجموع الموجودات	العملة المتداولة	فائض قيمة الموجودات
١٩٢٩	١،٤٤٧،٣٣٨	٨٢	١٨٥،٠٧٨	١٥١،٩٩٥	١،٧٧٤،٣٧١	١،٧٨٧،٦٦٤	١٣،٢٨٩
١٩٣٠	١،٨٧٤،٠٢٧	٨٣	٣،٩،٩١٢	٨٣،٩٢٢	٢،٣٦٧،٨٦١	٢،١٩٧،٦٦٤	٧٠،١٩٧
١٩٣١	١،٢٣٦،١١٨	٩٢	١٣٤،٠٨٢	٥٥،٨٥٩	٢،٥٢٦،٠٥٦	٢،٣٦٩،٦٦٤	١٥٦،٣٩٥
١٩٣٦	٥،٣٤٥،٦٧٢	٧٦	١،٤٠٤،٣١٨	٢٤٠،٧٢٢	٦،٩٩٠،٧١٢	٦،٢٣٦،١٣٤	٧٥٤،٥٧٨
١٩٣٧	٤،٧٦٧،٧١١	٧٦	١،٢٥٤،١٨٠	٣٥٤،٣٩١	٦،٢٧٧،٠٨٤	٥،٦٣٦،١٣٤	٦٥٠،٩٤٨(٢)

لاحظنا من خلال الجدول كيف تم الارتفاع ، وتمت الزيادة ولكن سرعان ما عادت للانخفاض يسبب انخفاض القيمة الشرائية.

(١) Economic Organization et Palestine said Baimadey 1433 Beirtue Lebanon chapix monetary banking system.

(٢) Government Census of Industries 1928 op.pp 9–11.

المبحث الرابع
الواقع السياسي

بدأ الاهتمام بفلسطين في مطلع القرن التاسع عشر ، منذ حملة نابليون لغرض هيمنة فرنسا على بلاد المشرق ، فقد اجتاحت قوات نابليون جنوبي فلسطين واتجهت نحو عكا ووقفت على أبوابها دون التمكن من فتحها ، ثم خضعت فلسطين لمحمد علي باشا بين عامي ١٨٣١ و ١٨٤٠م ، ولم يتأخر أعيان المدن عن تقديم الولاء والطاعة للفاتح الجديد[١].

ولما دخل إبراهيم باشا بقواته إلى القدس منع الرسوم والأتاوات المفروضة على الحجاج المسيحيين واليهود ، مع منحه الكنائس والأديرة حرية قراءة الكتب المقدسة ، وإقامة الشعائر الدينية ومع أن إبراهيم باشا خفف الضرائب على المواطنين ، وضمن لهم الأمن ، وأخذت الرشاوي تتلاشى ، مما أكسب محمد علي وابنه إبراهيم التأييد والترحيب. إلا أن حاجة محمد علي باشا الماسة لتطوير جيشه فرضت عليه إعادة الضرائب التي أثقلت كاهل المواطنين ، علاوة على فرضه التجنيد الإجباري بأساليب قاسية ، مما دفع المواطنين إلى القيام بثورات متتالية جعلت الباب العالي يعلن أن محمد علي باشا وابنه خارجان على السلطة الشرعية ، فاندلعت الثورات في نابلس والقدس ورام الله والرملة وطبرية وصفد. مما جعل بريطانيا تتدخل لدى الدولة العثمانية ، لإجبار محمد علي باشا على سحب قواته من بلاد الشام عام ١٨٤٠م. وعادت فلسطين من جديد لحظيرة الدولة العثمانية[٢].

---

(١) النتشة، رفيق : الاستعمار وفلسطين، ص ٩٢.

(٢) الدبس، يوسف : تاريخ سورية، ص ٦٤٩-٦٥٠، عبود أسعد، تاريخ الناصرة، ص ٧٠-٧٢.

وبعد خروج محمد علي باشا من فلسطين ، قامت الدولة العثمانية بتقسيم إلى الألوية التالية: لواء عكا ، ولواء نابلس ولواء القدس وكان لواء القدس تابعاً للباب العالي مباشرة ، ثم قسمت الألوية إلى أقضية وعلى رأس كل قضاء قائم قام.

وقسمت الأقضية إلى نواح ، وعلى رأس كل ناحية مدير ، والنواحي إلى قرى وعلى رأس كل قرية مختار.

وفي عام ١٩١٧م دخلت القوات البريطانية واحتلت القدس. ثم والت احتلال بقية المدن الفلسطينية وأخضعت فلسطين لحكم عسكري بريطاني ، ويتبع القائد العام لقوات الحلفاء ، وفي عام ١٩٢٠م حلت الإدارة البريطانية محل الحكم العسكري المباشر ، وأصبح المندوب السامي بمثابة رئيس للدولة ، يليه السكرتير العام لحكومة فلسطين الذي كان بمثابة رئيس للوزراء [١].

وقد عملت الحكومة الجديدة على جمع الضرائب والمكوس التي كانت تجمع خلال العهد العثماني ، وواصلت جبايتها غير مفرقة بين القادر والمعسر في سداد هذه الضرائب ، ولم تأخذ بعين الاعتبار الحالة الاقتصادية للبلاد لاسيما أنها كانت خارجة من الحرب العالمية الأولى ، وفي ظل هذه الظروف الاقتصادية الصعبة ، احتكرت الإدارة العسكرية حركتي الاستيراد والتصدير فيها ، ثم تخلت عنها للصهاينة فيما بعد[٢].

حين بدأت الدول الاستعمارية تظهر مطامعها الدينية ، والسياسية والاقتصادية وكانت بريطانيا في طليعة تلك الدول ، حيث كان يحركها قاعدتان أساسيتان إزاء

---

(١) Tibawi A. L Arab Education In Palestine p.8

(٢) الجندي غبراهي، صفوان : سياسة الانتداب البريطاني الاقتصادية في فلسطين، ص١٢٦.

دولة الخلافة العثمانية هما:

أ- الخوف من روسيا.

ب- التنافس القديم مع فرنسا(١).

إن بريطانيا كانت ترى في المشرق بما فيه فلسطين الطريق إلى مصالحها في الهند، ولكن بعد أن اشترت حصة الخديوي في قناة السويس، أصبحت المنطقة الشرقية للسويس ذات ضرورة عسكرية وأمنية للقناة، وخاصة بعد اكتشاف البترول، لذلك خططت وبكافة الأشكال للاستيلاء والسيطرة على فلسطين، وتبرع الصهاينة بتقديم الدعم والتسهيلات لهم مقابل دعمهم في إقامة وطن قومي لليهود(٢).

وعلى ضوء ذلك أنشئت لجنة أطلق عليها اسم «لجنة فلسطين البريطانية» أخذت على عاتقها تعزيز العلاقات بين بريطانيا ومصالح الحركة الصهيونية، لحمل بريطانيا فيما بعد على الاعتقاد بأن مصلحة بريطانيا تقتضي تأييد مطالب اليهود ودعمها، وهذا ما يحدث في غياب الوعي العربي واليقظة المبكرة على خطط اليهود ومؤامراتهم(٣).

وبعد توقف القتال على الجبهة التركية ١٩١٨م، وافقت إستانبول بسبب هزيمتها على انفصال الولايات العربية عنها، والتخلي عن السيادة عليها بموجب معاهدة (سيفر) الموقعة في ١٠ آب أغسطس ١٩٢٠م.

ولكن لم تصبح هذه المعاهدة نافذة إلا بعد معاهدة (لوزان) عام ١٩٢٣مم إذا

---

(١) Frank H. Epp. Op, cit, 99–100–121

(٢) النتشة، رفيق: الاستعمار وفلسطين، ص ١٧٢.

(٣) د. سعد رزوق: إسرائيل الكبرى، ص ٢٦.

عندها تراجع الحلفاء عن دعم فكرة إقامة الدولة العربية المستقلة ، وبادروا إلى تقسيم بلاد الشام إلى مناطق نفوذ فرنسية وبريطانية وفق مخطط اتفاقية (سايكس بيكو) الموقعة بينهما في ١٦ آيار عام ١٩١٦م. وعلى ضوء ذلك أصبحت فلسطين تحت الانتداب البريطاني[١].

إذاً فرض على فلسطين الانتداب دون أن تتاح للشعب العربي الفلسطيني فرصة المشاركة في اختيار الدولة المنتدبة ، أو شروط الانتداب المقترح.

إن إصدار صك الانتداب على فلسطين يبين أن الكيفية التي صدر بها تخالف المبادىء التي قررها عهد عصبة الأمم.

وعليه نقول: إن صك الانتداب على فلسطين إنما ولد وهو يحمل في طياته أسباب بطلانه من الناحيتين الشكلية والموضوعية ، فمن الناحية الشكلية جاء في الفقرة الرابعة من المادة (٢٢) من عهد عصبة الأمم ، التي تعرف بأهلية الأقاليم العربية التي انفصلت عن دولة الخلافة العثمانية ومن ضمنها فلسطين ، وأن تكون بصورة مؤقتة أمماً مستقلة ، لا تحتاج إلى مشورة ومساعدة إدارية من الدولة المنتدبة[٢].

وهذا يضمن الاعتراف باستقلالها وحريتها وقد أقر الأمين العام لعصبة الأمم، وأيده مندوب بلجيكا بطلان صك الانتداب على فلسطين ، حيث أنكر على الحلفاء في مجلسهم الأعلى ما فعلوه ، وقدم هذه الاستنكار لعصبة الأمم في ٣٠

---

(١) هنري، كتن : فلسطين في ضوء الحق والعدل، ص ١٨ نقلة إلى العربية وديع فلسطين، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٧٠م

(٢) د. الغنيمي. محمد طلعت : قضية فلسطين أمام القانون الدولي، ص ٩٤.

يونيو عام ١٩٢٠م ، لذا فتوزيع الدول الكبرى على الانتداب ليس قانونياً ، ولا يمكن الاعتراف به[١].

أما بطلانه من الناحية الموضوعية فإن بريطانيا تبنت وعد بلفور باعتباره يمثل اعترافاً بالصلة التاريخية ، التي تربط معتنقي الديانة اليهودية بفلسطين ، وبالبواعث الأساسية لإعادة تأسيس وطنهم القومي هناك ، وهذا مبدأ باطل من أساسه.

فبدل أن تعمل بريطانيا على رفاهية الدولة المنتدبة وتطويرها ، إذ بها تخالف ذلك ، وتنشيء دولة جديدة لا صلة لها بالأرض ، وتحرم أهلها حقهم الأساسي.

وهذا تجاوز من الدولة المنتدبة في اختصاصها الذي يقتصر على تقديم المشورة والمساعدة علماً بأن الدولة المنتدبة مطالبة بألا تتنازل عن أي جزء من أراضيها ، أو أن تؤجره ، أو تضعه تحت سيطرة دولة أجنبية أخرى ، هذا ما خالفته بريطانيا وتنازلت عن الأرض لمن لا يملكها ظلماً وعدواناً[٢].

وفي ظل هيمنة وضغوط قوى الاستعمار الغربي اعتبرت قضية فلسطين صراعاً بين فئتين من سكان فلسطين مع وضوح الحقيقة التي أبى المستعمرون التلفظ بها.

وبناءً على ذلك صدر قرار التقسيم الحديث الذي لم يشهد إقليم في العالم مثيلاً له ، ليسمح للدخلاء الأغراب معتنقي الديانة اليهودية بأن يكون لهم وطن وأرض ، وهذه بداية المأساة للشعب الفلسطيني المسلم[٣] .

---

(١) د. الغنيمي، محمد طلعت : قضية فلسطين أمام القانون الدولي ص ٩٥.

(٢) علي، فلاح خالد : فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٣٩-١٩٤٨م، ص ٧٠-٧١.

(٣) القراعين، يوسف محمد : حق الشعب العربي الفلسطيني في تقرير مصيره، ص ٧٨.

كل هذه المؤامرات تحاك ، وهذا الظلم يجري ، وشعب فلسطين غير مدرك تلك المؤامرات وأبعادها ، ولم يكن لديه من الوعي السياسي الكافي الذي يمكنه من مجابهة تلك الخطوب الجسيمة.

بدأ الوعي وأحس شعب فلسطين بالظلم كغيره من حكام الدولة العثمانية وولاتها في الفترة المتأخرة بعد السلطان عبدالحميد ورفعوا أصواتهم ضد هذا الظلم والجور. ولما مات أحمد باشا الجزار ، فرحوا لزوال ظلمه.

وشارك الشيخ يوسف ضياء الدين الخالدي أحد مفكري القدس وأعيانها ، وكذلك روحي الخالدي ، في وصف هذا الظلم والاستبداد.

وكان من نتائجه أن اختل النظام ، وبطلت مراعاة الأحكام القانونية ، والسير في إدارة الدولة على الأصول والتقاليد المعارضة من القديم ، وفسد التعليم في المدارس ، وانحرفت إدارة الأمور الداخلية والخارجية. عن محورها ، ومالت إلى الانحطاط.

وبدأت تظهر بوادر الدعوة إلى القومية العربية ، وفي عام ١٩١٠م تشكلت (جمعية العربية الفتاة) على أيدي الطلبة العرب في باريس ، كان اثنان من أبناء فلسطين هما عوني عبدالهادي[1] ،

(١) عوني عبد الهادي : من رجالات القضية الفلسطينية البارزين، التحق بالمدرسة الملكية التابعة لجامعة استانبول وقصر باريس سنة (١٩١٠م) ليتابع دراسة الحقوق، فشارك بعض زملائه في تأسيس جمعية العربية الفتاة، التقى سنة (١٩١٨م) بالأمير فيصل بن الحسين ولازمه، زاول المحاماة في القدس، وشارك في معظم الوفود الفلسطينية إلى الخارج واعتقل مراراً وعين سفير الأردن في القاهرة حتى سنة ١٩٥٥م، ثم أصبح عضواً في مجلس الأعيان، وتقلد وزارة الخارجية بعض الوقت، ثم اعتزل العمل السياسي، توفي سنة (١٩٧٠م) الموسوعة الفلسطينية (٣/ ٣٦٤).

ورفيــق التميمي[1] من الأعضاء المؤسسين. ولاقت هذه الجمعية ما لاقت من البطش والتنكيل من الولاة الذين جاءوا بعد السلطان عبد الحميد هذا وكان لنواب فلسطين في مجلس المبعوثان دور بارز في تكوين الكتلة العربية في المجلس المذكور في آذار ١٩١١م. وسعت هذه الكتلة إلى منح الولايات العثمانية الاستقلال الإداري، وتطبيق مبدأ اللامركزية في الدولة[2].

وكانت مساهمة علماء فلسطين في الدعوة إلى اليقظة والخلاص من الاستبداد

---

(١) رفيق راغب التميمي (...١٩٥٦م) : مؤرخ ومحام وسياسي ولد في نابلس، وأتم دراسته الابتدائية والإعدادية فيها ثم انتسب سنة ١٩٠٢م إلى الكلية الملكية في استانبول. وكان من المتفوقين فأوفد إلى جامعة السوربون في باريس لتحصيل الإجازة في الآداب. ولما أنهى دراسته عين مدرساً للتاريخ والأدب على التوالي في ثانويات سالوينك وخربوط وبيروت وأزمير ودمشق، وأخيراً في الكلية الصلاحية في القدس، عمل رفيق في السياسة في العهد العثماني فكان أحد الذين أسهموا في الحركة العربية، وواحد من سبعة شبان عرب أسسوا جمعية العربية الفتاة في باريس ١٩٩١م، ولما شبت الثورة العربية بقيادة الحسين بن علي (١٩١٦م) التحق التميمي بجيش فيصل بن الحسين وعندما عقد المؤتمر السوري العام بدمشق كان التميمي أحد ممثلي فلسطين فحكم الفرنسيون عليه بالإعدام، ثم عاد إلى مزاولة التدريس فعين مديراً للكلية الإسلامية في القدس فمديراً لثانوية العامرية بيافا، وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية انتخب التميمي عضواً في الهيئة العربية العليا وتولى إدارة مكنتها في القدس، وذلك قبل التقسيم ولما حلت نكبة ١٩٤٨م هاجر التميمي إلى دمشق فجمع هناك بين تدريس التاريخ في الجامعة السورية ومهنة المحاماة توفي في دمشق سنة ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م، له مؤلفات منها:
الإقطاع وأول إقطاع في الإسلام (١٩٥٤) و (الحروب الصليبية (١٩٤٥) و حوض البحر المتوسط (١٩٤٥) و تاريخ أوروبا الحديث (١٩٤٦)- تاريخ العصر الحديث (١٩٤٦) و تاريخ الحروب الصليبة انظر الموسوعة الفلسطينية (٢/ ٤٧٢).

(٢) الشهاب، مصطفى : القومية العربية، ص ٧٨.

كبيرة ، ولما قامت الحرب العالمية اختلف مفكرو فلسطين ، فمنهم من يؤيد تحالف الدول العثمانية مع ألمانيا ، ومنهم من فضل التحالف مع بريطانيا ولكن الدولة العثمانية فضلت الانضمام لألمانيا ، وبعد هزيمة أحمد جمال باشا[(١)] في مصر نسب الهزيمة والفشل للعرب ، وحوكم الكثير منهم وعلقوا على أعواد المشانق ، ومنهم: سعيد الكرمي من طولكرم ، حسن حماد[(٢)] من نابلس ، أحمد العارف[(٣)] من غزة ، والنشاشيبي من القدس ، سليم عبد الهادي[(٤)] من جنين ، ومحمد حافظ السعيد[(٥)] من غزة ، فأعدم ثلاثة منهم وهم: سليم عبد الهادي ، والنشاشيبي ،

---

(١) أحمد جمال باشا : من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي البارزين. عين بعد الانقلاب الحميدي والياً لأضنة، ثم لبغداد ثم عين قائداً للجيش في الآستانة، ثم وزيراً للأشغال العامة، ثم وزيراً للحربية، تغلب عليه حياته العسكرية القاسية، فكلفه أنور باشا لمهاجمة مصر، وهذا يرضي نزعته الديكتاتورية المستبدة. أعدم جمال باشا السفاح شباب العرب لمطالبتهم بالاستقلال الذاتي، اغتاله الأرمن سنة (١٩٢١م) شهداء الحرب العالمية، لأدهم الجندي (٢٢٢).

(٢) حسن حماد: من وجوه مدينة نابلس ومواليدها، كان معتمد حزب اللامركزية في نابلس، حكم عليه بالإعدام غيابياً، توفي سنة (١٩٣٦م) شهدا العالمية (١٦٦).

(٣) أحمد العارف: مفتي مدينة غزة بفلسطين، كان وجيهاً، عالماً، فاضلاً، ذا عقيدة وطنية ومروءة، وكان كريماً فصيح اللسان، قوي الحجة، حكم عليه جمال باشا الإعدام، ونفذ ذلك في سنة (١٩١٨) شهداء الحرب العالمية (١٤٧).

(٤) سليم عبدالهادي: من أسرة معروفة بالوجاهة والفضل. كان معتمداً للامركزية بقضاء جنين، أعدم شنقاً في بيروت مع قافلة الشهداء الأولى (١٩١٥) شهداء الحرب العالمية (٨١)

(٥) محمد حافظ السعيد: أصل أسرته من المغرب الأقصى، تلقى العلوم على أعلام عصره، وكان أديباً في اللغة التركية، ذا كمال ووقار وفي سنة (١٩٠٨م) انتخب مبعوثاً عن لواء القدس، وسعى بتأليف الحزب المعتدل، فحقد عليه الاتحاديون، المجلس، حكم عليه بالإعدام، ولكنه توفي قبل تنفيذ الحكم به سنة (١٩١٥) كان شاعراً، كاتباً، قوي الذاكرة، كبير الحجة، ذا شفقة، محباً للخير، شهداء الحرب العالمية (٧٣).

وأحمد العارف ، ومنهم من سجن ومنهم من نفي إلى الأناضول[١].

* خطة اليهود لإقامة دولتهم:

منذ عام ١٨٨٠م بدأت الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، ومعظمها كان من أوروبة الشرقية ، وكان الرأسماليون اليهود يجمعون الأموال ، ويساعدون العائلات اليهودية المهاجرة في شراء الأراضي ، وإنشاء المستعمرات وفي عام ١٩٠١م يلتقي هرتزل الزعيم اليهودي بالسلطان عبد الحميد ، ويعرض عليه استعداد اليهود لدفع جميع الديون والقروض على دولة الخلافة إضافة إلى المعونات المالية الأخرى مقابل السماح لليهود بجعل فلسطين وطناً لهم ، ولكن السلطان عبد الحميد يرحمه الله رفض ذلك كله معلناً: أن بيت المقدس تسلم مفاتيحه سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وليس السلطان عبد الحميد هو الذي يتحمل وصمة العار ببيعه لليهود ، وهي الخيانة العظمى للأمة الإسلامية التي حملته أمانة حمايتها ، وبعد ذلك حيكت المؤامرات التي انتهت بخلع السلطان عبد الحميد ، ولكن مرفوع الرأس ، واستطاعت الصهيونية العالمية أن تفسد العلاقة بين الأتراك المسلمين ، والعرب المسلمين والدعوة لقيم دولة تركية على أساس القومية التركية بدلاً من الأخوة الإسلامية ، ومن المؤسف أن الأتراك والعرب دخلوا الحرب العالمية الأولى كطرفين متعاديين متناحرين ، وأخيراً انتزع (وايزمان)[٢] الوعد الذي اشتهر بوعد (بلفور) من حكومة إنجلترا عام ١٩١٧م،

---

(١) الجندي، أدهم : شهداء الحرب العالمية الكبرى، ص ٨١، ١٣٠.

(٢) وايزمان، حاييم (١٨٧٤-١٩٥٢م) أول رئيس للكيان الإسرائيلي من ١٩٤٩ حتى موته، رأس وايزمان المنظمة الصهيونية العالمية من ١٩٤٩م حتى موته، رأس وايزمان المنظمة الصهيونية من ١٩٢٠م-١٩٣١م ومن ١٩٣٥م إلى ١٩٤٨م وهي المنظمة التي عملت على إقامة وطن قومي

والذي نص على أن بريطانيا تؤكد قيام وطن قومي لليهود. وبعد الانتداب كما مر سابقاً، وضعت القوانين التي أمنت للمهاجرين من اليهود الحصول على الأراضي، وفي الوقت نفسه فرضت الضرائب على العرب ، حتى يعجزوا عن السداد ، ومن ثم تنزع وتصادر منهم الأرض ، وتمنح لليهود والمستعمرين[١].

وهكذا تعرضت فلسطين للهجرة اليهودية المنظمة ، حتى إذا كانت نهاية القرن التاسع عشر كان لليهود مناطق أربع أقاموا فيها ، وهي:

١- منطقة يافا : وقد احتوت على تسع مستعمرات ، وأنشئت بتمويل من جمعية (أحباء صهيون) التي أنشئت في أوربا الشرقية في الأربعينات من القرن التاسع عشر ، وساهم فيها أثرياء اليهود [٢].

٢- منطقة القدس : وقد احتوت على ثلاث عشرة مستعمرة.

٣- منطقة الجليل : وشملت حوالي ثماني مستعمرات.

٤- منطقة حيفا : وشملت حوالي ست مستعمرات.

وأخذت المستعمرات في الازدياد ، خاصة بعد عام ١٩١٧م ، وصدور وعد

لليهود في فلسطين، رأس المفاوضين اليهود إلى مؤتمر السلام بباريس في عام ١٩١٩م. وعمل هناك لإقناع عصبة الأمم بإعطاء بريطانيا انتداباً لإدارة حكم فلسطين، أصدرت بريطانيا وعد بلفور في ١٩١٧م، الذي ساند فكرة إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، ولد وايزمان في موتول في روسيا، وتعلم في ألمانيا وسويسرا، درس الكيمياء في جامعة مانشستر في إنجلترا من ١٩٠٤م إلى ١٩١٤م. اكتشف وايزمان أثناء الحرب العالمية الأولى قاعدة مطورة لتصنيع متفجرات من أحماض ليوتن والأستول وقد ساعد هذا الاكتشاف المجهود الحربي البريطاني. الموسوعة العربية (٢٧/ ٤٤).

(١) المودودي، أبو الأعلى : طائفة من قضايا الأمة الإسلامية في القرن الحاضر، ص ٧.

(٢) موسى : مونتفيوري، والبارون أدموند روتشيلد.

بلفور قبيل الاحتلال بشهر واحد ، حتى وصلت المستعمرات إلى حوالي (٨٢) مستعمرة عام ١٩٢٥م ، وعدد اليهود لم يتجاوز (٨٠) ألف نسمة حسب الإحصاءات البريطانية عام ١٩٢٢م[1].

*** الموقف من الصهيونية :**

أدرك أهل فلسطين خطر الهجرة اليهودية إلى بلادهم ، بعد أن أصبحت منظمة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وبدأ الفلاحون العرب يصطدمون وسكان المستعمرات الصهيونية ، وكانت أول الصحف إشارة إلى هذا الخطر صحيفة الكرمل عام ١٩٠٨م ، ثم جريدة فلسطين ، ودعت الكرمل إلى إنشاء (جمعية وطنية فلسطينية) تضم أعيان المدن الفلسطينية لشراء الأراضي المدورة ، أراضي الدولة قبل أن يستولي عليها الصهاينة[2] . وعبر إسعاف النشاشيبي عن قلق العرب في فلسطين إزاء الخطر الصهيوني ، فعبر بقصيدة نشرت في مجلة (النفائس العصرية) تشرين أول ١٩١٠م:

يا فتاة الحي جودي بالدماء ... بدل الدمع إذا رُمت البكاء
إن الاستعمار قد جاز المدى ... دون أن يعدوه عن سير عداء
إنها أوطانكم فاستيقظوا ... لا تبيعوها لقوم دخلاء

وحذر خليل السكاكيني من سكان القدس من خطر الصهيونية ، ودعا إلى الاتحاد لأجل دفعهم ، وقال السكاكيني في مقالة نشرها قبيل مجيء لجنة (كنج كرين) :

---

(١) كافية، مرنتس : الصهيونية وغاياتها، المشرق، ص ١١٧-١٣٤.

(٢) يعقوب، يهوشع : الصحافة العربية في فلسطين في العهد العثماني، ص ١٢٢-١٢٣

(أكبر خطر على الأمة العربية الصهيونية ، إذا لم نتحد في مقاومة الصهيونية ، ذهبت فلسطين من أيدينا ، وعرضنا غيرنا للخطر ، وإذا خسرت أمة بلادها خسرت كل شيء، وإذا أردنا أن يكون لنا مستقبل مجيد ، فيجب أن نحتفظ ببلادنا، بكل قطعة منها.

والخطر الثاني: التجزئة ومهما بلغنا من الانحطاط ، ومهما اختلفنا في الأخلاق والأذواق والعادات فإن تلافي ذلك ميسور إذا اتحدنا ولكن إذا تزرأت بلادنا وأصبحت كل قطعة منها في يد دولة ، فإننا لا نلبث أن نصبح أمماً مختلفة ، لا تزيدنا الأيام إلا اختلافاً... [(١)].

ويعتبر السكاكيني الخطر الصهيوني ، خطراً على حضارتنا،وثقافتنا وتراثنا وهذا يدل على وجود فهم عميق للحركة الصهيونية ، ووعي كامل لمخططاتها من قبل بعض المفكرين.

وهذا كسافييه فرنتس المقيم في فلسطين ، حيث كتب مقالة نشرت في (الشرق) في عدد شباط ١٩٢٥ بعنوان : الصهيونية وغاياتها.

فخلاصة الكلام : أن الصهيونية خطر مستديم ، وليس من وسيلة لإخماد الحركة العربية ما دام الصهاينة يسعون إلى إنشاء وطن قومي في فلسطين ، وهذا مما يلوح كل سنة في التظاهرات والاحتجاجات التي يقيمها الأهلون برصانة وثبات في ثاني يوم من شهر تشرين الثاني ، الذي أعلن فيله بلفور قراره المشئوم ، ولا أقبل لليهود بأن يعيشوا يوماً بأمان في موطنهم هذا[(٢)].

---

(١) السكاكيني/ خليل : كذا أنايا دنيا، ص ١٧٩.

(٢) كسافيه، فرنتس : الصهيونية وغاياتها، ص ١١٧-١٣٤.

نلاحظ كيف أن الشعب لديه وعي سياسي وفكري في مقاومة المحتل ، وموقف أهل فلسطين من الصهيونية هو موقفهم نفسه من الانتداب البريطاني ، وما أن شعر العرب بموالاة الإنجليز لليهود ، حتى أسرعوا إلى إنشاء الجمعيات الإسلامية في مدن فلسطين كافة ، من أجل مقاومة فكرة الوطن القومي اليهودي ، فكانت هذه الجمعيات هي حجر الأساس لانعقاد المؤتمر العربي الفلسطيني الأول عام ١٩١٩م ، وقد اتخذ هذا المؤتمر عدة قرارات منها:

١- رفض وعد بلفور ، ومقاومة الهجرة اليهودية.

٢- رفض الانتداب البريطاني على البلاد.

٣- المطالبة بوحدة فلسطين مع سورية[1] .

ولما أعلنت الثورة العربية الكبرى ، لم يتوان أهل فلسطين في الانضمام تحت لوائها ، وشاركت فلسطين في المؤتمر السوري العام الذي عقد بدمشق عام ١٩١٩م ، والذي كان من مطالبه استقلال سورية ووحدتها ورفض وعد بلفور رفضاً قاطعاً.

وقبيل انعقاد المؤتمر السوري الثاني اجتمع مفكرو فلسطين وأعيانها ، وقرروا ما يلي:

١- اعتبار فلسطين جزءاً لا يتجزأ من سورية.

٢- المطالبة بدفع الخطر الصهيوني عن البلاد العربية.

٣- رفض كل حكومة تشكل في فلسطين ، لحين أن تعترف بريطانيا بمطالب

---

(١) قاسمية، خيرية، وعوني الهادي : أوراق خاصة، ص ٥٧.

الشعب العربي الفلسطيني[١] .

ولم يطرح مستقبل فلسطين على بساط البحث من قبل أبنائها إلا بعد الاحتلال البريطاني عام ١٩١٧م ، إذ حكمت فلسطين حكماً عسكرياً مباشراً ، ووضعت تحت إدارة الميجور جنرال موني Molney الذي كان مرتبطاً مباشرة مع الجنرال اللنبي ، مع أن شعب فلسطين كان يتلهف للشريف حسين[٢] يتلهف للخلاص على يد الإنجليز لإنقاذه ، ولكن آماله خابت ، وتبددت.

ولكن سورية خضعت للاستعمار ، وتم التقسيم ، وفرض على العرب القبول بالأمر الواقع وأن يتعاملوا مع الواقع الجيد بمرارة ، كل على حدة ، وأحس عرب فلسطين بخطورة وضعهم ، لأن هذا يعني تنفيذ وعد بلفور ، وظل الشعب الفلسطيني يقاوم ويعقد المؤتمرات الواحد تلو الآخر ، ولكن الأمور كانت تفرض بالقوة على شعب فلسطين ، حتى إن خليل السكاكيني عبر عن ذلك بمقالة نشرتها جريدة (السياسة) القاهرية ، في عددها الصادر في ٣١ كانون أول ١٩٢٣م ، وجاء فيها (لو قبلت الأمة الانتداب لكان معنى ذلك أنها جعلت الانتداب غير المشروع مشروعاً ، ولو قبلت الأمة وعد بلفور ، لكان معنى ذلك أنها قبلت برضاها أن تتنازل عن حقوقها السياسية في بلادها .. الخ[٣] .

---

(١) Dovid. Philipe Ungovemments Arabe Damas Mareal Biard. Paris, pp 91-12

(٢) الشريف حسين بن علي (١٨٥٣-١٩٣١): شريف مكة المكرمة (١٩٠٨-١٩١٦) وملك الحجاز (١٩١٦-١٩٢٤م) أعلن الثورة العربية على العثمانيين عام (١٩١٦م) أثناء الحرب العالمية الأولى، رفض توقيع معاهدة فرساي عام (١٩١٩) احتجاجاً على وضع فلسطين وسورية والعراق تحت الانتداب، أعلن نفسه خليفة عام (١٩٢٤) هزمه عبدالعزيز بن سعود فتخلى عن العرش وأقام في قبرص، موسوعة المورد العربية (٢/ ٤٣٣).

(٣) السكاكيني، خليل : المجموعة الكاملة/ ص ٣٧٣-٣٧٤.

وعليه ظهر أول حزب في فلسطين ، وهو: (الحزب الوطني العربي الفلسطيني ١٩٢٣م ، وكانت مطالبه تتمثل في الحفاظ على عروبة فلسطين ، وعدم الاعتراف بوعد بلفور ، أو بالدستور الذي سنته الإدارة البريطانية. وباختصار ظلت هذه المطالب هي المحور لأفكار الحركة الوطنية الفلسطينية طول عهد الانتداب[١].

وخلاصة القول: حاول المثقفون نشر الوعي السياسي بين الجماهير العربية فاقبلوا على الصحف التي أصبحت منابر، يعلنون فيها مطالب أمتهم ، وتظلماتهم، ووسيلة فعالة في نشر الوعي السياسي، وإذا كانت الشعوب واجهت خطراً واحداً، فإن شعب فلسطين واجه خطرين معاً: الانتداب البريطاني من جهة ، والصهيونية من جهة أخرى ، فرفضوا الانتداب ، كما رفضوا الاستيطان اليهودي، وطالبوا بوحدة فلسطين وخروج المستعمر.

إن فلسطين كانت عربية إسلامية خالصة بسكانها ، وعاداتها وتقاليدها حتى بدء الانتداب البريطاني في فلسطين ، وفي الربع الأول من القرن العشرين ، ومع عهد الانتداب البريطاني على فلسطين ، وتنفيذاً لمواد صك الانتداب ، بدأ تنفيذ سياسة الانتداب بتسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين ، وتسهيل سيطرتهم على الأراضي العربية في فلسطين ، وساعدهم على ذلك أن ملكية الأراضي كانت تتبع السلطان العثماني ، ثم آلت إلى حكومة الانتداب ، ومنها إلى الصهاينة الذين بدؤوا مرحلة الاستيطان منذ عام ١٨٥٥م ، وبعدها تم إقامة أول معهد زراعي قرب يافا عام ١٨٧٠م ، ثم توالت المستعمرات، وهي: (بتاح تكفا، ديشون ، لي ، زيون، روس بيناه) وغيرها وفي عام ١٨٨٢م ، وصل عدد المستعمرات خمسة يسكنها

---

(١) ياغي، أحمد، بركات نظام : دراسات فلسطينية، ص ١٣٣ .

٥٠٠ يهودي ، وفي عام ١٩٠٠ بلغ عددها ٢٢ مستعمرة ، يسكنها (٥٢١٠) يهودياً.

وهكذا بدأت الهجرة وزيادة عدد السكان اليهود في فلسطين(١) وقد عمل الانتداب البريطاني على تشجيع الهجرة وتسهيلها في محاولة منه لتكوين أغلبية صهيونية تتمكن فيما بعد من تشكيل دولة ، عام ١٩٢٠ وصل عدد المهاجرين اليهود ٥٥١٤ نسمة ، وفي ١٩٣٠ وصل عددهم إلى ٤٩٤٤ نسمة ، وفي ١٩٣٦ وصل عدد المهاجرين اليهود ٢٩٧٢٧ نسمة وأصبح مجموع المهاجرين عام ١٩٣٦م ، إلى (٢٨٢.٦٤٥)(٢).

ولم يسكت العرب ، وقامت الثورة تلو الثورة ، وقابلتها حكومة الانتداب بالقمع والقتل والنفي والتعذيب ، ومن هذه الانتفاضات والثورات:

١ - انتفاضة يافا:

في ١ أيار (مايو) ١٩٢٠م هجم الثائرون على مركز الهجرة الصهيوني في يافا ، وعلى بعض المستعمرات ، واستمرت المعارك بين المسلمين والبريطانيين والصهاينة خمسة عشر يوماً أسفرت عن استشهاد (٥٠) عربياً ، وجرح (٧٥) آخرين ، وقتل (٥٠) يهودياً ، وجرح (١٥٠) آخرين ، ومعظم الشهداء المسلمين استشهدوا على أيدي جنود بريطانيين(٣).

٢- ثورة البراق :

عم التوتر فلسطين كلها ، وقامت التظاهرات ، وأسفرت الأحداث في الخليل

---

(١) مجلة فلسطين الثورة، العدد ١٨٤، ٢٨/ ٣/ ١٩٧٦ ص ١٨.

(٢) حمادة، سعيد : النظام الاقتصادي في فلسطين، ص ٣٠.

(٣) دروزة، محمد : القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها، ص ٣٨.

عن مقتل (٦٠) يهودياً عدا الجرحى، وامتدت التظاهرات إلى أرجاء فلسطين كافة، ففي صفد حدث هجوم وقع فيه أكثر من (٥٠) يهودياً بين قتيل وجريح ، وكانت هذه الأحداث دفاعاً عن (صخرة البراق) ، التي يعتقد المسلمون أن الرسول صلى الله عليه وسلم عرج به إلى السماء من فوقها ، مع ادعاء اليهود أن موضع الحائط هو جدار الهيكل.

٣- ثورة ١٩٣٦م : والتي يعد استشهاد الشيخ عزالدين القسام[١] الشرارة الأولى التي أشعلها وقادها الشيخ فرحان السعدي[٢] ، وخلال ذلك نودي بالإضراب العام ، وقد شكلت بريطانيا حملة قومية لقمع الثورة تكونت من (٢٠.٠٠٠) جندي ، عدا القوات اليهودية المحلية ، وعدداً من قوات الشرطة ، كانت تلك الثورات تقمع ويقضى عليها من قبل حكومة الانتداب ، فكم كانت بريطانيا تبطش وتنكل بالمواطنين! وكم امتلأت المعتقلات من العلماء والقضاة والثوار! إلى غير ذلك من الإجراءات التعسفية ، وأعقب هذا كله تقسيم فلسطين،

---

(١) عزالدين القسام : مجاهد، تعلم في الأزهر بمصر، واشتغل في بلدة جبلة بالتعليم والوعظ، إلى أن احتل الفرنسيون سورية، فثار في جماعة من تلامذته ومريديه، وطارده الفرنسيون، فقصد دمشق، ثم غادرها، فأقام في حيفا، وتولى فيها إمامة جامع لاستقلال وخطابته، ورئاسة جمعية الشباب المسلمين، ظهرت بطولته في ثورة (١٩٣٤) في فلسطين على الإنكليز، مات شهيداً سنة (١٩٣٥) الأعلام (٦/ ٢٦٧) والأعلام الشرقية (٢/ ١٣٩).

(٢) فرحان السعدي (١٨٦٠-١٩٣٧م) : واحد من القساميين وقائد من قادة ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩م، ولد في قرية المرر فصاحين وتلقي دراسته الابتدائية في قريته ثم في مدينة جنين، وقد نشأ نشأة دينية فحفظ القرآن والأحاديث النبوية الشريفة بالشيخ، وكان موضع احترام معارفه وأهالي قريته والقرى المجاورة لما تحلى به من تقي واستقامة وشجاعة وإيمان، عمل بالزراعة، وقد ساءه التسلط العثماني فأخذ يعمل على فضحه

بمساعدة من العالم المسيحي بأكمله ، وبموافقته[١] .

* * *

وينادي باستقلال البلاد العربية. وحين احتل البريطانيون فلسطين واتضحت نواياهم العدوانية في غرس وطن قومي يهودي فيها أخذ يقاومهم ويقاوم الصهيونيون ويحث مواطنيه على مقاومتهم وعندما أنشئت ثورة ١٩٢٩ قاد مجموعة من المقاتلين في قضاء جنين وأخذوا يهاجمون البريطانيون والصهيونيون حيثما وجدوهم، ثم قبضت عليه سلطات الانتداب البريطاني وحكمت عليه بالسجن ثلاث سنوات. وحين أطلق سراحه عاود نشاطه النضالي فانضم إلى الحركة الشهيد عز الدين القسام، وشارك في معركة أحراج يعبد (تشرين ١٩٣٥م) التي استشهد فيها الشيخ عز الدين ونفر من أصحابه وقد نجا فرحان السعدي من الوقوع في أيدي القوات البريطانية. التحق بالثورة الفلسطينية الكبرى وكان له شرف اطلاق رصاصتها الأولى. فقد قام هو ومجموعته بمهاجمة قافلة صهيونية على طريق نابلس – طولكرم فكان ذلك إيذاناً ببدء الكفاح المسلح وتتابعت بعد ذلك أعمال الثورة، وقد أوكل إليه قيادة فصيل (غتبا – نور شمس) كما اختير عضواً في اللجنة التي كونتها قيادة لثورة لجمع الإعلانات. خاض معارك كثيرة، وجرح في معركة (عين جالود) ولكنه استمر يقاتل بعد ذلك. وفي ٢٢/ ١١/ ١٩٣٧ هاجمت القوات البريطانية بيته في قرية المزار، وألقت القبض عليه، وقدم لمحاكمة صورية، حكم فيها بالإعدام شنقاً وفي ١٤ رمضان ١٣٥٦ه، الموافق ٢٧/ ١١/ ١٩٣٧م أعدم فرحان السعدي شنقاً في سجن عكا وهو صائم، الموسوعة الفلسطينية (٤٤١٣) .

(١) غنيم، عادل : الحركة الوطنية الفلسطينية، ص ٢٩٤.

المبحث الخامس
الواقع التربوي

قبل الحكم العثماني : ارتبط التعليم بالعامل الديني بشكل رئيس ، وكانت المدارس الدينية الكتاتيب منتشرة في كل مكان ، تتواجد في الجوامع ، والتي يؤمها مسلمو فلسطين. وكان المسجد الأقصى على رأسها ، وكان مثالاً بارزاً ، حيث ضم العديد من المدارس الدينية في جنباته ، وبنيت أقدم المدارس في عهد صلاح الدين الأيوبي ، يوسف بن أيوب ، بعد هزيمة الصليبيين[(١)].

واختلف في عدد المدارس الموجودة إبان دخول الأتراك العثمانيين عام ١٥١٧م: فبعضهم قدرها ب (٤٥) مدرسة ، وبعضهم الآخر (٦١) مدرسة ، ويروي شيخ الأقصى[(٢)] أن المسجد الأقصى كان يضم سبعين مدرسة ، وكانت هذه المدارس تعتمد على أهل الخير والوقف الإسلامي[(٣)].

التعليم إبان الحكم العثماني: بقيت المدارس ملحقة بالمساجد ، وكانت تدرس العلوم الدينية لتخريج الأئمة والوعاظ، وكانت هذه المدارس في وضع غير ملائم، فالطلاب يفترشون الأرض ، وجو الدراسة يغلب عليه الخوف والقسوة ، والعملية التربوية تقوم على التلقين والتكرار. وبعد ذلك ، فكر القادة الأتراك في

---

(١) علي، محمد، كرد : خطط الشام، ص ١١٧.

(٢) ضياء الدين الخطيب.

(٣) الشقيري، جميل : مجموع الشهادات والمذكرات إلى لجنة التحقيق الأنجلو – الأمريكية المشتركة حول قضية فلسطين، ص ١٠٥.

تفح مدارس تشتمل في تعليمها على الفيزياء ، والكيمياء ، والجغرافيا ، مع العلم الشرعي قبل التعليم الحربي ، وفتحت المدارس الابتدائية الثانوية لتأهيل الطلاب للالتحاق بالمدارس العسكرية ، وكان الهدف تزويد الجيش بالضباط والفنيين ، لذلك سبقت المدارس العسكرية غيرها من المدارس المدنية ، والتي شملت المدارس الطبية والعسكرية لتخريج الأطباء والصيادلة الذين يحتاج إليهم الجيش ، وبعد منتصف القرن التاسع عشر ، بدأت الحكومة العثمانية في اتخاذ خطوات لإصلاح البرنامج التعليمي المدني ، وكانت أهم هذه الخطوات:

١- تعيين لجنة لمراقبة المدارس العثمانية عام ١٨٤٧م ، وفي عام ١٨٥٧م تأسست وزارة المعارف العثمانية(١).

٢- افتتاح دار المعلمين في الآستانة عام ١٨٤٨م.

٣- عام ١٨٦٨م تأسيس أول كلية طب في استانبول.

وقد تم إنشاء العديد من المعاهد الإدارية وكليات الحقوق ، والفنون ويرجع الفضل في ذلك للسلطان محمد الثاني الذي عمل على الأخذ بنظام التعليم في كل ولايات الدولة العثمانية.

وفي عام ١٨٦٩م صدر أول قانون للتعليم العثماني ، نظم التعليم الابتدائي والثانوي في مختلف الولايات العثمانية ، وكان التعليم باللغة التركية ، متجاهلاً اللغة العربية ، ولم يخصص للغة العربية سوى ساعات قلائل. وكانت اللغة

---

(١) ياغي، عبد الرحمن : حياة الأدب الفلسطيني الحديث من أول النهضة حتى النكبة عام، ص٦٩.

الفرنسية هي اللغة الثانية بعد التركية[١].

وفي عام ١٩١٣م ، صدر قانون تعليم تركي جديد ، تضمن إدخال إصلاحات متعددة الجوانب في مسيرة التعليم العثماني ، وبموجب القانون الجيد أصبح التعليم الابتدائي إلزامياً ومجانياً في جميع الولايات العثمانية ، وأصبحت الدراسة الابتدائية خمس سنوات ، وأدخلت تحسينات على دور المعلمين ، وكان التعليم الإلزامي مقصوراً على أبناء الطائفة الإسلامية ، وهذا لا يعني حرمان أبناء الطوائف الأخرى ، ولكن أبناء الطوائف غير الإسلامية كانوا يحبذون الالتحاق بالمدارس التي تشرف عليها المؤسسات التبشيرية الأجنبية ، وهذه المقدمة لابد منها ، لأن فلسطين جزء لا يتجزأ من دولة الخلافة آنذاك[٢].

ونشير هنا إلى أن موضوع اللغة العربية كان له كبير الأثر عند العرب الذين هم تحت الحكم العثماني ، وهو يقصي لغتهم ، مما أثار الأحقاد والمشاكل ، وكان ذلك هو السبب في إذكاء روح العداء للحكم العثماني بعد الاتحاد التركي عام ١٩٠٨م ، وعلق ساطع الحصري على موقف العرب وإبعادهم عن لغتهم بقوله: (إن حق التعليم باللغة العربية ، أحرز مكانة الصدارة عندما أخذ العرب يطالبون الحكومة بمراعاة حقوقهم القومية[٣] ولكن الحكومة التركية لم تلق أي اعتبار لمطالب العرب حتى عام ١٩١٨م ، وخروج الأتراك من فلسطين[٤] ، ومع هذا لا ننكر

---

(١) القطشان، عبد الله : التعليم العربي الحكومي إبان الحكم التركي والانتداب البريطاني، ص١٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٤.

(٣) الحصري، ساطع : البلاد العربية والدولة العثمانية، ص ١٢٩.

(٤) A Survey of Palestine vol (II)p. 635.

دور الدولة العثمانية الرائد في رعاية التعليم الديني ، ويكفي أن مدينة القدس كان بها (٥٦) مدرسة للبنات عام ١٩١٠م ، موزعة بين عمومية وخاصة[١].

تصنيف المدارس حسب مراحل التعليم ونوعيتها (١٩٢٠-١٩٢١):

	ابتدائية	ثانوية	كليات معلمين	مدارس زراعية	م. مهنية
مدارس حكومية[٢]	٢٣٨	٤	٢	٢	-
مدارس غير حكومية	٢٥٥	١٢	٤	١	٥

مجموع الطلاب في المدارس الحكومية ١٣٦٥٦ طالباً و ٢٧٨٩ طالبة مجموع الطلاب في المدارس غير الحكومية ١٥١٧٠ طالباً و ١١١٨٦ طالبة[٣].

ومن الخطأ أن نقول: إن العرب كانوا تحت نير الحكم التركي مع ذوبان كامل لشخصيتهم المستقلة ، فقد تمتع العرب بجميع أنواع الحقوق التي كان يتمتع بها التركي ، سياسة كانت أو غير سياسية ، وكان العرب يشاطرون الأتراك في مناصب الدولة المدنية والعسكرية ، وفي شهادة أمام اللجنة الملكية في عام ١٩٣٧م تحدث محمد عزة دروزة[٤] ، وقال : (ومع أن الدولة العثمانية فتحت فلسطين

(١) الدباغ، مصطفى : بلادنا فلسطين، ص ١٣٨ .

(٢) مدارس حكومية : تلك المدارس التي يشرف عليها الانتداب وهي المدارس العربية، غير الحكومية: هي المدارس الصهيونية وغير الصهيونية والمدارس المسيحية.

(٣) F.O. 371 Report 1920–1921

(٤) محمد عزة دروزة: مؤرخ، باحث، من أهالي فلسطين/ تقلب في الوظائف حتى كان مديراً

ضمن ما فتحته من الولايات العربية ، فإن صبغتها العربية ظلت ثابتة ، وكانت في الجزء الأكبر من الحكم العثماني تدار من قبل أمرائها وحكامها الوطنيين ، وحتى الفترة الأخيرة من الحكم العثماني ، فقد كان أكثر موظفيها وحكامها عرباً وكان الموظفون العرب لا ينظرون إلى العثمانيين كموظفي دولة استعمارية ، بل كعثمانيين لا فرق بينهم وبين العرب[١] .

وكان العرب هم الذين يتولون أمورهم الدينية ، ويقررون ميزانية الشؤون المحلية ، والتعليمية والزراعية والعمرانية والصحية ، وعلى الرغم من السلطات المركزية التي تمتعت بها وزارة التعليم في العاصمة العثمانية ، فإن السكان العرب شاركوا بدور رئيس في إدارة مدارسهم عن طريق اللجان المحلية ، ومجالس التعليم في مختلف المناطق الإدارية بمختلف أشكالها ، وكانت العناصر العربية تقوم بمسؤولياتها التعليمية من تفتيش وإدارة في جميع المدارس الحكومية ، فالحكومة التركية تركت للعرب حرية واسعة في إدارة شؤونهم التعليمية ، حتى إننا نجد أن إدارة التعليم بالقدس الشريف عام ١٨٩٨م تقع في أيدي عربية ، ونجد على رأس إدارة التعليم موظفاً عربياً من مدينة القدس عام ١٩٠١م هو

للأوقاف بفلسطين، وفصل عنها حين وضع الإنكليز أيديهم عليها، وعمل في السياسة منذ إعلان الدستور العثماني عام (١٩٨٠م). واشترك بجمعيات وأحزاب، وكان عضواً في لجان عديدة، حكم عليه الفرنسيون بالسجن (٥) سنوات وأفرجوا عنه. منح بعض الجوائز التقديرية، له أكثر من ثلاثية كتاباً/ منها:عصر النبي (والمرأة في بالقرآن) و (جهاد الفلسطيني) توفي سنة ١٩٨٤م إتمام الأعلام (٢٥٦).

(١) الكيالي، عبد الوهاب : وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيوني (١٩١٨-١٩٤٨) ص ٥٤٢.

إسماعيل بك الحسيني ، وجميع موظفيها من سكان القدس البالغ عددهم (١٤) موظفاً[١].

التعليم في عهد الإدارة العسكرية .. (الانتداب) :

عين الميجر وليمز Major Willams مسؤولاً عن خدمات التعليم في الفترة ١٩١٧-١٩١٨م، فعمل على إعادة تنظيم التعليم ، وبناء هيكل تعليمي حكومي، يشتمل على إعادة فتح المدارس ، أو إصلاح المدارس التي أغلقت أو دمرت بسبب ظروف الحروب ، وأصبحت اللغة العربية ولأول مرة لغة التعليم في المدارس الحكومية ، وفرضت اللغة الإنجليزية كلغة ثانية تدرس في مدارس المدن الابتدائية في الصف الرابع. وشهدت هذه الفترة افتتاح كلية المعلمين ، ودار المعلمات في مدينة القدس ، وبصفة عامة فإن الإدارة العسكرية ساهمت إلى حد ما في إعادة فتح المدارس ، وترميم وإصلاح بعضها الآخر[٢].

وبلغ مجموع هذه المدارس (١٧١) مدرسة ، ضمت ١٠.٦٦٢ تلميذاً في العام الدراسي ١٩١٩/ ١٩٢٠م. هذا بالنسبة للمدارس العربية ، أما المسيحية واليهودية فلها شأن آخر ، حيث بقيت مستقلة ، وبمنأى عن سيطرة الإدارة العسكرية.

ويشير الجدول التالي إلى عدد التلاميذ بالمدارس الابتدائية حسب السنوات المذكورة:

---

(١) الدباغ، مصطفى : في بيت المقدس، ص ١٣٨.

(٢) القطشان، عبد الله : التعليم العربي الحكومي إبان الحكم التركي والانتداب البريطاني، ص ٣٥.

السنة الدراسية	عدد التلاميذ بالمدارس الابتدائية	المتاح أمامهم فرص التعليم
١٩٣٨-١٩٣٩م	٢١.٩٣٨	١١٦٢
١٩٣٩-١٩٤٠م	٢٥.٠٢٥	١١٣٨
١٩٤٠-١٩٤١م	٢٤.٧٩٥	١١٣٨
١٩٤١-١٩٤٢م	٢٥.٧٤٢	١٢٣٧
١٩٤٢-١٩٤٣م	٢٦.١٧٠	١٠٣٨
١٩٤٣-١٩٤٤م	٢٧.٢٠٣	١٠٩٢
١٩٤٤-١٩٤٥م	٢٩.٥١٠	١٢٦٦
١٩٤٥-١٩٤٦م	٣٢.٢٦٧	١٥١٠[(١)]

يلاحظ من هذا الجدول أن فرص التعليم المتاحة أمام إتمام التعليم الابتدائي ضئيلة ، بل ضئيلة جداً ، وهو لا شك يشكل خطراً كبيراً ينذر بعودة الأمية إلى هؤلاء التلاميذ الذي التحقوا بالمدارس لفترات مختلفة ، وترجع الحكومة البريطانية العجز في توفير فرص تعليمية أكبر أمام الطلاب العرب ، لعدم استقرار الأوضاع السياسية والاضطرابات الداخلية الدائمة التي مرت بها البلاد في هذه الفترة ، مما اضطر الحكومة إلى تقليص الاعتمادات المالية التي كان من المقرر أن تخصص للمشاريع العامة[(٢)]. ولكن الحقيقة غير ذلك ، حيث أن الحكومة البريطانية تتذرع بتلك الأسباب لنفي الاتهامات الموجهة إليها بشأن انتهاجها سياسة من شأنها أن تؤدي في النهاية إلى نشر الأمية بين أبناء الشعب العربي المسلم، حتى يسهل عليها تنفيذ سياسة الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، إذ إن

---

(١) .A.R. 1940.7 See : N.N. Education in Palestine p, 12

(٢) The Reconstruction Commissoner, Report:p. 82.

حكومة الانتداب لم تكن جادة في توفير فرص تعليم الأطفال العرب ، بل قلصت موازنة التعليم بدل زيادتها ، وبمقارنة تكاليف الجندي البريطاني في فلسطين لمدة سنة ، والتي كلفت (٥٠٠) جنيه فلسطيني ، بتكاليف تعليم طفل واحد في المدارس الحكومية في فلسطين لوجدناها لا تكلف سوى ٣٠٤ جنيهاً المرحلة الدنيا ٧٠٢ المرحلة العليا ، ٢٢ جنيهاً المرحلة الثانوية ، إذاً الادعاء بارتفاع التكاليف المادية للتعليم ادعاء باطل ، ولا مبرر له [١].

ومن خلال مطالعتنا وبحثنا ، تبين أن عدد السكان العرب في سني التعليم (٣١٠.٠٠٠) طالباً في عام ١٩٤٧ ، ١٩٤٨م ، وهذا يبين لنا أن فرصة لم تتح إلا أمام ٥١٪ من الطلاب العرب من سن (٥-١٥) سنة ، مما يشير إلى حرمان ١٨٧٦٥ طالباً وطالبة في سن التعليم ، أي ما نسبته ٤٩٪ والحكومة البريطانية اتهمت العرب بالتقصير في دفع عملية التعليم ، إذ تذكر التقارير الرسمية لحكومة الانتداب: يستطيع المرء أن يشاهد النقص الواضح في تجهيزات ووسائل الراحة في مدارس المدن بالقدس ، نابلس ، حيفا ، الخليل... ويرجع ذلك إلى تقصير السكان الذين اعتمدوا إلى جهود الحكومة ، وكما اعتادوا في السابق أثناء الحكم التركي [٢].

وفي تقرير آخر : برهن القادة العرب على عجزهم في بذل أي مجهود لإيجاد حلول عاجلة تساعد على تعليم أطفالهم الذي حرموا من التعليم (ويزيد التقرير) ولم يسهم سكان المدن العربية بمجهودات تستحق الذكر [٣].

---

(١) القطشان، عبد الله : التعليم العربي إبان الحكم التركي والانتداب البريطاني، ص ٦٦

(٢) A.R. 1920–1927-p 8.

(٣) The Reconstruction commissione Repot. P 33 .

هذه الآراء تحمل الكثير من التحامل على الشعب العربي المسلم في فلسطين؛ لأن الضرائب التي كانت تفرضها الحكومة تشكل جانباً من الميزانية والتي كانت تعادل ٢٧٪ من الدخل العام ، ونضيف قائلين: إن لجان وجمعيات التعليم المحلية في نابلس ، وطولكرم ويافا تستحق الثناء في تشييد العديد من المدارس ، وتجهيزها بكل ما تحتاج إليه ، بل تعدى الأمر إلى دفع رواتب المعلمين ، وقد أشار تقرير في ١٩٤٥-١٩٤٦م ، بجهود لجان التعليم المحلية بقوله: بلغ عدد لجان التعليم المحلية للعرب المسلمين (١٩٥) لجنة ، أخذت على عاتقها جمع تبرعات ، وضرائب التعليم في جميع المدن الفلسطينية ، وفي العديد من القرى كذلك ، ففي مدينة غزة مثلاً بلغت جهود اللجان هناك جمع (٥.٤٦٥) جنيهاً ، أنفقت على التعليم في عام ٤٦ ، ١٩٤٧م.

وفي مدينة كالرملة ، أنفقت (٥.٧٤٦) جنيهاً ، في عام ٤٦ ، ١٩٤٧م. كذلك فكل الافتراءات ترد على حكومة الانتداب ، والتي كانت تتعمد تجهيل العرب لتمرير مخططاتها ، الاستعمارية وخدمة الصهيونية[1].

ولا يوجد أي مبرر لحكومة الانتداب مهما ادعت وقالت من افتراءات ، والأسباب كلها سياسية لتحول دون ازدهار التعليم عند العرب ففي الفترة من ١٩١٨-١٩٢٢م تم بناء (٣٠٠) مدرسة ، وتم تزويدها بالأثاث ، والمختبرات ، والحدائق ، وهذا ما جاء في تقرير حكومة الانتداب ، والذي ما نصه: يتولى السكان العرب بناء المدارس وتزويدها بالأثاث اللازم في مختلف القرى العربية[2].

---

(١) الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين الجزء الأول، القسم الثاني، في الديار الغزية، ص١٢٢.

(٢) F.O371,9003, G-o p fo Report 1942.

وهذه برقية سرية من المندوب السامي رقم ٦٦٤ ، والتي أرسلها إلى الحكومة البريطانية في ٥ يوليو عام ١٩٤٣م جاء فيها: وحقيقة فإن العربي كما اليهودي مهما كان موقعه الاجتماعي ، فإنه على استعداد لدفع المال من أجل تعليم طفله[1].

ونكتفي هنا بهذه البرقية لتشهد على ظلم وافتراء حكومة الانتداب.

وفي عام ١٩٤٤-١٩٤٥م التحق في جميع المدارس الثانوية ، وكلية المعلمين ، ودار المعلمين في القدس ، ومركز تدريب معلمات رام الله ، والمدرسة الصناعية في حيفا ما يلي:

المدرسة وموقعها	أعلى صف	أولاد	بنات	المجموع
القدس				
كلية العربية	٦	٩٠	-	٩٠
دار المعلمين	٥	-	١٠٠	١٠٠
الرشيدية	٦	٢٣٥	-	٢٣٥
بنات الأمويين	١	-	٢٨	٢٨
رام الله				
مركز تدريب المعلمات	٣	-	٣٤	٣٤
الخليل				
المدرسة الابتدائية الثانوية	٢	٦٥	-	٦٥
يافا				
المدرسة الأميرية الابتدائية الثانوية	٤	١٤٦	-	١٤٦
مدرسة الزهراء	٢	-	٣١	٣١

(١) القطشان، عبدالله : التعليم في فلسطين، ج٢، ص ١٣٠ .

الرملة المدرسة الابتدائية الثانوية	٢	٣٨	-	٣٨
نابلس المدرسة الصلاحية	٢	٥١	-	٥١
المدرسة العمشية	٢	-	٢٣	٢٣
طولكرم المدرسة الابتدائية الثانوية	٢	٧٨	-	٧٨
جنين المدرسة الابتدائية الثانوية	١	٢٨	-	٢٨
حيفا المدرسة الابتدائية الثانوية	٢	٤٤	-	٤٤
عكا المدرسة الابتدائية الثانوية	٢	٦٣	-	٦٣
الناصرة المدرسة الابتدائية الثانوية	٢	٤٠	-	٤٠
صفد المدرسة الابتدائية الثانوية	٢	٣٤	-	٣٤[١]

لا يمكن للباحث بأي حال من الأحوال فصل موضوع التعليم في فلسطين عن التطورات والتغيرات التي شهدها التعليم العثماني في مختلف مناطق دولة الخلافة العثمانية.

فكانت المدارس العثمانية قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر قليلة العدد،

---

(١) A.R 1944 10,45 pp 27 F

وكان الهدف من هذه المدارس تخريج الكتبة ، والوعاظ وتدريس موضوعات القرآن الكريم والحساب ، وكان عدد الطلاب قليلاً جداً ، وإلى جوار تلك المدارس كانت توجد (الكتاتيب) ولا نعني بذلك أن هذه الدولة العظيمة قادها رجال أميون ، ولكنهم جمعوا بين التعليم الديني والتعليم التقليدي ، وبعد ذلك بدأت عملية تطوير التعليم وإصلاحه من خلال المدارس الحربية ثم بدأت السلطات في تأسيس المدارس الحديثة لجميع المراحل الابتدائية والمتوسطة والثانوية ، فكان إصلاح التعليم مرتبطاً بعجلة الآلة الحربية ، فبدأت السلطات العثمانية وابتداء من منتصف القرن التاسع في اتخاذ خطوات متلاحقة لتدعيم علمية إصلاح التعليم، وهذا دون شك طال معظم الولايات ، ومنها فلسطين[(١)] .

ويرجع الفضل للسلطان محمد الثاني في منتصف القرن الثامن عشر في الأخذ بنظام التعليم الحديث في مختلف مقاطعات دولة الخلافة.

وفي عام ١٨٩٦م عالج قانون التعليم موضوع المدارس الخصوصية ، وفرض عليها إعفاء التلاميذ من دفع رسوم التعليم حتى نهاية مرحلة الدراسة الثانوية الدنيا (مرحلة المكتب الإعدادي) وفي عام ١٩١٣م صدر قانون تعليم جديد ، تضمن إدخال إصلاحات ، متعددة الجوانب في مسيرة التعليم[(٢)] .

وأصبح التعليم الابتدائي إلزامياً في جميع الولايات العثمانية. أما بالنسبة لفلسطين ، فإن السكان العرب كانوا يتمتعون باستقلال ذاتي واسع النطاق في إدارة مدارسهم الابتدائية الأولية بواسطة لجان التعليم المحلية. ففي عام ١٨٩٨م

---

(١) ياغي عبد الرحمن: حياة الأدب الفلسطيني الحديث من أول النهضة حتى النكبة، ص٦٩.

(٢) القطشان، عبد الله : التعليم في فلسطين، ج١، ص ١٥.

كان في متصرفية القدس مدير تعليم ويساعده سبعة موظفين وجميعهم من سكان مدينة القدس، وبقي الوضع هكذا حتى حل الانتداب البريطاني أرض فلسطين[١] .

إن نظرة عميقة لواقع التعليم في فلسطين ، تكشف لنا طبيعة القيود التي كانت تفرضها السلطة الاحتلالية الإنجليزية على العملية التربوية ، بغية وضع القيود والعراقيل أمام تطورها وبالتالي إجهاضها ، الأمر الذي ظهر من خلال تعاملها مع العملية التربوية ، وإشرافها المباشر ، بعكس ما أتيح للصهاينة من تسهيلات وإطلاق يدهم في كل المجالات ، وهذا يدل على تماثل السلطة الانتدابية الاستعمارية مع الأفكار الصهيونية في محاربة الحضارة العربية الإسلامية أو لنقل التمهيد لضرب هذه الحضارة وطمسها عبر سياسة التجهيل.

يقول الأستاذ (متي عقراوي)[٢] والدكتور (دورديك): كان هناك نظامان للتعليم العام العربي الذي يتبع للإشراف المباشر لدائرة التعليم والحكومة الرسمية الانتدابية ، في حين كان التعليم اليهودي متحرراً من هذه السيطرة ، وتابعاً للجنة القومية اليهودية التابعة للوكالة اليهودية [٣] .

(١) الدباغ، مصطفى : في بيت المقدس، ص ١٣٨ .

(٢) متى عقراوي : تربوي، من أهالي الموصل، نال إجازة الآداب من الجامعة الأمريكية ببيروت، وكان رئيساً لجمعية العروة الوثقى فيها، نال الدكتوراه في التربية من جامعة كولومبيا. اهتم بنشر التعليم الإلزامي. وعمل مع اليونيسكو، واستقر استاذاً في الجامعة الأمريكية. كان مستشاراً للعديد من وزارات التربية والجامعات في المشرق والمغرب العربي، له أبحاث ودراسات بعدة لغات منها: العراق الحديث وإصلاح الخط العربي ومحاضرات في تطوير البرامج توفي سنة (١٩٨٢) إتمام الأعلام (٢١٧)

(٣) عقراوي، متى: روديل مايثوز، التعليم في الأقطار العربية في الشرق الأدنى، ص٢١٧.

كانت فلسطين مقسمة إلى أربع مناطق تعليمية ، كل منطقة لها مفتش لوائي:

أ- منطقة القدس : تشمل لواء القدس ، وفيها مركز ورئاسة تعليم.

ب- منطقة الجنوب : تشكل جنوب فلسطين وأقضية اللد ، والمركز في مدينة يافا.

ج- السامرة : لواء السامرة ، والمركز مدينة نابلس.

د- منطقة الجليل : تشمل على أقضية الجليل ، وحيفا ، ورئاسة التعليم مركزها مدينة حيفا [١] .

وأريد هنا أن نضيف مراحل التعليم والفرص المتاحة بها على النحو التالي:

١- التعليم الجامعي:

لم تسمح حكومة الاحتلال الإنجليزي بقيام أي شكل من أشكال التعليم الجامعي في فلسطين ، وفي الوقت نفسه سمحت للصهاينة بإقامة الجامعة العبرية عام ١٩١٨م ، هذا إضافة إلى مساعدتهم في إقامة معهد التخنيون في حيفا [٢] .

٢- إعداد المعلمين: لم يكن بفلسطين سوى دارين للمعلمين العرب ، واحدة تابعة للكلية العربية في فلسطين والثانية هي المدرسة الرشيدية ، وكلاهما في مدينة القدس ، أما بالنسبة للمعلمات فلم يكن سوى مركز التدريب الريفي في رام الله ، في حين بلغت معاهد المعلمين التابعة لليهود خمسة معاهد.

---

(١) المرجع السابق نفسه، ص ٢٦.

(٢) سمعان، مسير : المؤامرات الصهيونية والاستعمارية لتجهيل عرب فلسطين منذ القرن التاسع عشر، ص ٦.

٣- **التعليم الابتدائي** : في الوقت الذي كان فيه (٤.٥٠٠) طالب يهودي يدرسون في (٧٩) مدرسة دينية ، لم يسمح بفتح مدارس إسلامية متخصصة لتدريس الدين الإسلامي ، هذا بالإضافة إلى انعدام المعاهد والكليات الشرعية ، فكل ما يعطاه الطالب العربي المسلم من الصف الأول الابتدائي إلى الخامس الابتدائي ما بين ثلاث إلى أربع حصص دينية فقط. هذا إضافة إلى خلو التعليم الابتدائي من أي مادة عن فلسطين ، أو دراسة القضايا الوطنية ، أو تعليم الحرف اليدوية ، فكان تعليماً فارغاً لا قيمة له [١] .

٤- **التعليم الثانوي** : إن الباحث لا يجد مدرسة ثانوية متكاملة على طول أرض فلسطين وعرضها سوى مدرستين ، الأولى في يافا ، وهي المدرسة العامرية ، والثانية في القدس ، وهي الرشيدية ، في حين كان لليهود كما أسلفنا أكثر من (٢٠) مدرسة ثانوية.

هكذا نلاحظ أن عدد الطلاب اليهود وصل إلى ١٢.٦٩٦ طالباً ، في حين لم يتجاوز عدد الطلاب العرب بضع مئات حتى عام ١٩٤٥م[٢].

وحال التعليم الثانوي كحاله في الابتدائي ، يفتقر إلى الموضوعات التخصصية الفنية المتميزة كالمدارس اليهودية آنذاك ، كدراسة فلسطين ، والتاريخ وقضايا الأمة والتصدي للهجرة اليهودية إلى غير ذلك من الموضوعات التي تهم المواطن المسلم.

---

(١) ماثيوز وغفراوي : التعليم في الأقطار العربية في الشرق الأدنى، ص ٢٤٢.

(٢) سمعان، سمير : المؤامرات الصهيونية والاستعمار لتجهيل عرب فلسطين منذ القرن التاسع عشر، ص ٢٨.

٥- **التعليم المهني**: إذا كان التعليم الإلزامي لم يحظ بالاهتمام والرعاية ، فإن التعليم المهني واجه المصير نفسه من الإهمال والتضييع ، حيث لم يتوفر في فلسطين سوى مدرسة واحدة بمدينة حيفا ، مدرسة حيفا التقنية تأسست ١٩٣٦م ثم توقفت عن التدريس من قبل الإنجليز ، وحولت إلى ثكنة عسكرية ، ولم تفتح إلا بعد عام ١٩٤٥م لتستأنف نشاطها مع انعدام الأجهزة والمعامل المخبرية ، في حين زاد عدد المدارس المهنية الصهيونية عن (٢٠) مدرسة ، علماً أن هذا المعهد لم يقبل سوى سدس الطلاب المتفوقين في الدراسة الابتدائية[(١)] .

٦- **التعليم الزراعي** : حل بالتعليم الزراعي ما حل بالتعليم المهني من الإهمال والإغلاق للمدرسة الوحيدة (مدرسة خضوري الزراعية) في مدينة طولكرم ، كما أغلقت المدرسة التقنية بحيفا ، وحولت إلى ثكنة عسكرية ، علماً أن اليهود في كل مستوطنة ينشئون مدرسة زراعية فمنذ عام ١٨٧٠م وهم يشيدون المدارس الزراعية لربط اليهودي المهاجر بالأرض ، إلى أن وصل عدد المدارس (١٧) مدرسة عام ١٩٤٦م ، علماً بأنه لم يسمح بإقامة أي مدرسة عربية زراعية سوى معهد خضوري الذي يضم ٥١ طالباً عربياً مقابل (٢٠١٩) طالباً يهودياً كل هذا تمهيداً لخطة الاستيطان الموسعة ، ومصادرة الأراضي المنتظرة ، وكل هذا على مرأى ومسمع من الاحتلال الإنجليزي[(٢)] .

٧- ولا نستطيع أن ننكر الدور العثماني في فترة الازدهار ، بل وحتى الحرب العالمية الأولى ، كان للحكومة العثمانية مدارس رسمية في المدن الفلسطينية ،

---

(١) ماثيوز وعقراوي : التعليم في الأقطار العربية في الشرق الأدنى، ص ٣٢٠.

(٢) الكتاب السنوي للصحفيين اليهود الصادر عن رابطة الصحفيين اليهود عام ١٩٤٥من ص ١٢٣ .

وكانت خاضعة لإدارة لجان محلية خاصة ، وإن كانت لم تتعد مستوى الكتاتيب القرآنية في العالم الإسلامي ، إلا أنه أثناء فترة الحرب أقيمت بعض المدارس الثانوية ، حيث بلغ عدد المدارس في لوائي نابلس وعكا ومتصرفية القدس (٩٥) مدرسة ابتدائية ، يدرس فيها (٢٣٦) معلماً يقومون بتدرس (٧.٧٥٨) تلميذاً وتلميذة وجاء في الإحصاءات الرسمية للمعارف العثمانية أن مجموع الأطفال الذين كانوا في سن التعليم الابتدائية بلغ عام ١٩١٣م (٧١.٩٣٣) وأن المدارس الرسمية استوعبت منهم فقط ١٠.٦٪ كما جاء في كتاب : Education in Palestine and British poloties.

إن عدد المدارس العربية في فلسطين بلغ في عام (١٩١٤/ ١٩١٥م (٩٨) مدرسة ضمت (٨.٢٤٨) طالباً منهم (٦١.٨٤٨) من الذكور ، و(١.٤٠٠) من الإناث[١] .

وإن نسبة الحضور من الطلبة العرب بلغ ٢٥٪ من مجموع الطلبة العام ، بالنسبة للمرحلة الثانوية التي كانت خاضعة لدائرتين تعليميتين: الأولى في القدس تحت اسم (مكتب سلطاني) ثم في كل من عكا ونابلس باسم (مكتب إعدادي ، حيث وصل عدد الطلبة في المرحلة الثانوية (٤٧١) طالباً ، ثم تواصل فتح المدارس الابتدائية والثانوية فيها حتى بلغ في متصرفية القدس وولايتي عكا ونابلس (٥٠٠) مدرسة ، يدرس فيها (٧١٩) معلماً وفيها ما يزيد على (١٥.٧٧٣) طالباً وطالبة. ثم أنشئت الكلية الصلاحية في القدس[٢] والتي كان لها

---

(١) بدران، نبيل أيوب : التعليم والتحديث في المجتمع الفلسطيني، ح١، ص ١٠٩.

(٢) الحصري، ساطع : حولية الثقافة العربية، ص ٧.

الفضل في تخريج عدد من المعلمين الأكفاء الذين ساعدوا في تعريب التعليم في سورية ، وفلسطين بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، وانفصال فلسطين عن الدولة العثمانية ، وسأشرح هنا واقع التعليم في ظل السلطة العثمانية بشكل أكثر تفصيلاً على النحو التالي[١] .

١- المدارس التركية في متصرفية القدس : في سنة ١٨٦٦م افتتحت أول مدرسة رشيدية في القدس ، وفي عام ١٨٨٩م افتتح مكتب إعدادي أسسته الحكومة العثمانية ، ويضم المكتب الإعدادي ثلاث سنوات للمرحلة الرشيدية ، وسنتين للمرحلة الإعدادية ، وفي عام ١٩١٣م تحول المكتب الإعدادي إلى مكتب سلطاني وفي عام ١٨٨٨م ، أسست مدرسة في قرية بتير ، ومدرسة أخرى في قرية المالحة عام ١٨٩٣م[٢] .

٢- مدارس يافا: كان في يافا عشرون مدرسة ، وكان من بينها خمس مدارس رسمية ، وهي أربع مدارس ابتدائية وواحدة رشيدية ، وفي الرملة مدرسة ابتدائية للبنين[٣] .

٣- الخليل اشتهرت بالمدارس القرآنية في مختلف المساجد ، وفي الحرم الإبراهيمي الشريف ، وأقامت الحكومة العثمانية المدرسة الرشيدية عام ١٨٨٢م ، ومدرستين في عامي ١٨٩٤-١٨٨٦م.

---

(١) سمعان، سمير : المؤتمرات الصهيونية والاستعمار لتجهيل عرب فلسطين منذ القرن التاسع عشر، ص ٣٣.

(٢) الدباغ، مصطفى : بلادنا فلسطين، الجزء الرابع، ص ٢٠٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٣٥.

٤- نابلس: كانت نابلس تتبع قضاء بيروت مع قضاء جنين وطولكرم وناحية بيسان ، وتذكر الإحصاءات أن الحكومة العثمانية زودت نابلس بأربع مدارس ، من بينها مدرسة رشيدية أسست عام ١٨٦٨م ، وأخرى عام ١٨٧٩م ، وثالثة إعدادية عام ١٨٩٦م ، ورابعة عام ١٩٠٣م ، وهناك (٤٧) مدرسة تابعة لقضاء نابلس ، أما جنين فأسست أول مدرسة ابتدائية للبنين عام ١٨٨٠م ، ومدرسة رشيدية عام ١٨٨٦م ومدرسة عام ١٩١٤م ، أما طولكرم فقد ارتفع عدد المدارس إلى ٢٥ في نهاية الحكم العثماني[١] .

٥- لواء عكا كان يتبع بيروت إدارياً ، وكان يضم أيضاً لواء حيفا ، وصفد ، وقضاء الناصرة ، وطبريا وأول مدرسة أسست عام ١٨٨١م ، وفي عام ١٨٨٣م أنشئت مدرسة رشيدية ، وفي عام ١٨٨٥م أقيمت مدرسة للبنات ، ويمكن القول أن عدد المدارس وصل إلى (٣٠) مدرسة ، وكان مدينة حيفا نفسها ثلاث مدارس رسمية (عمومية)[٢] .

* الأوضاع التعليمية في فلسطين عام ١٩١٦م :

١- التعليم العربي – التعليم الحكومي الرسمي:

المتصرفية	عدد المدارس	عدد
متصرفية القدس	٣٥٠	١٠١٥٠
متصرفية نابلس	١٢٧	٣٨٦٣
لواء عكا	٨١	٢٣٤٩

(١) القطشان، عبد الله : التعليم العربي إبان الحكم التركي والانتداب البريطاني، ص ٢٦

(٢) المصدر السابق، ص ٤٣٥.

٢- التعليم المسيحي:

المتصرفية	عدد المدارس	عدد التلاميذ
متصرفية القدس	١٠٧	٥٥١٢
متصرفية نابلس	٧٤	٣٥٥٩
لواء عكا	٧٥٨	١٨٩[١]

وقد واجهت المدارس الحكومية في فلسطين صعوبات مالية ضخمة ، بسبب فقر البلاد ، وبسبب ما تعرضت له من دمار وخراب أثناء الحرب العالمية الأولى.

موازنة المعارف خلال السنوات الخمس الأولى من عهد الانتداب تدل على ذلك:

السنة المالية	مقدرات النفقات بالجنيهات الاسترلينية	نسبة نفقات التعليم إلى النفقات العامة
١٩٢٠-١٩٢١م	٧٨٠٠٠	٥.٦٪
١٩٢١-١٩٢٢م	١٣٠٠٠٠	٦.٧٣٪
١٩٢٢-١٩٢٣م	١١٤٢١٧	٦.٠٦٪
١٩٢٣-١٩٢٤م	٩٧٢٧٩	٥.٩٤٪
١٩٢٤-١٩٢٥م	١٠٠٩٩٠	٥.٥٤٪
١٩٢٥-١٩٢٦م	١٠١٣٩٢	٤.٩٦٪[٢]

ووافق هذه الزيادة في الموازنة زيادة في عدد المدارس. ويبين الجدول التالي حال

---

(١) F.O. 371-9003 Repot Palestine Adminstration 1922.

(٢) Tabwi, Al, Arab Education In Mandatory Palestine , p134

المدارس بفلسطين بين عامي ١٩١٤-١٩٢٥م

			عدد التلاميذ		
السنة الدراسية	عدد المدارس	عدد المعلمين	البنون	البنات	المجموع
١٩١٤/ ١٩١٥	٩٨	٢٣٤	٦٨٤٨	١٤٠٠	٨٢٤٨
١٩١٩/ ١٩٢٠م	١٧١	٤٠٨	٨٤١٩	٢٢٤٣	١٠٦٦٢
١٩٢٠/ ١٩٢١م	٢٤٤	٥٢٥	١٣٦٥٦	٢٧٨٦	١٦٤٤٢
١٩٢٢/ ١٩٢٣م	٣١٤	٦٧٢	١٦٠٤٦	٣٢٨٥	١٩٣٣١
١٩٢٤/ ١٩٢٥م	٣١٥	٦٨٧	١٦١٤٧	٣٧٣٤	١٩٨٨١
١٩٢٥/ ١٩٢٦م	٣١٤	٦٨٧	١٦١٤٦	٣٥٩١	١٩٧٣٧[١]

ولما حلت الإدارة المدنية البريطانية محل العسكرية عام ١٩٢٠م ، تسلم مدير المعارف الإنجليزي مهامه ، ويساعده موظف بريطاني ، ومفتشان عربيان. إلا أنه من السهولة علينا رؤية أخطر الأمراض التي كان يعاني منها التعليم الحكومي ، والمتمثلة فيما يسمى بالحد الأدنى من التعليم ، مما أدى إلى حرمان الغالبية العظمى من التلاميذ من فرصة تعليمهم الابتدائي ، ولم تستطع دائرة التعليم معالجة تلك المشكلة المزمنة ، ويتضح لنا خطورة الوضع إذا نظرنا إلى عدد ونسبة التلاميذ الذي أتيحت أمامهم فرصة إكمال التعليم الابتدائي بين عامي ١٩٣٩/ ١٩٤٠/ ١٩٤٥م ، ففي العام الدراسي ٣٩/ ١٩٤٠ التحق بالصف السابع الابتدائي ١١٣٨ تلميذاً بينما قدر عدد تلاميذ المدارس الابتدائية ب (٥٣٢٤) تلميذاً وبذلك شكل هؤلاء التلاميذ نسبة ١.١٢٪ من تلاميذ المرحلة الابتدائية وفي عام ٤٠/ ١٩٤١م ، التحق بالصف الابتدائي نفس العدد السابق ،

(١) Tabwi, Al, Arab Education In Mandatory Palestine , p70

ولكن عددهم ما زال قليلاً [١] .

وهذه قائمة بعدد التلاميذ والصفوف التي التحقوا بها في نوفمبر ١٩٤٤م ونوفمبر ١٩٤٥م :

	توزيع التلاميذ في نوفمبر ١٩٤٤			توزيع التلاميذ في نوفمبر ١٩٤٥م		
	بنين	بنات	المجموع	بنين	بنات	المجموع
الأول	١٣١٦١	٣٦١٦	١٦٧٧٧	١٥٣٣٢	٣٧١٩	١٩٥٠٥١
الثاني	١١٧٥٩	٣٠٦٧	١٤٨٥٦	١٣٥٣٤	٣٣٠٢	١٦٩٣٦
الثالث	١٠٤٧٠	٢٥٨٤	١٣٠٥٤	١١٨٦٥	٢٨٥٩	١٤٧٢٤
الرابع	٩٣٢٦	١٣٨١	١١٣٢٧	١٠٤٩٧	٢٢٠٠	١٢٦٩٧
الخامس	٥٧٨٤	١٢٦٣	٦٠٤٧	٦٩٣٢	١٤٢٣	٨٣٥٥[٢]

يلاحظ أن نسبة تلاميذ المرحلة الابتدائية العليا تمثل ٩.٤٧٪ من التلاميذ الذين يلتحقون بالابتدائية الدنيا في عام ١٩٤٤ . أما عام ١٩٤٥م فتمثل النسبة ٢.٦٦٪ من نسبة التلاميذ الذين يلتحقون بالمدارس الابتدائية.

أما المدارس الخاصة فرغم ضعف الحال وقلة الموارد ، بقيت بعض المدارس قائمة وتؤدي رسالتها مثل: روضة المعارف ، والنجاح في نابلس ، ودروس دينية في جامع الجزار في عكا ، ومدرسة (دار العلوم) في يافا ومدرسة دار الأيتام بالقدس ، وبها فروع مهنية كالتجارة والطباعة وتجليد الكتب ، والخياطة ، أما المدارس الخاصة المسيحية فكانت معظمها مدارس تبشيرية[٣] .

(١) A.R. 1939–1940: p4.

(٢) A.R. 1945–1977 : p8 , see Survey of Palestine vol (2) .p84.

(٣) محافظة ، علي : الحركات الفكرية في عصر النهضة ، ص٥٠ .

وقد أدرك خليل السكاكيني المربي المقدسي – مع أنه نصراني – خطورة المدارس الأجنبية على حياتنا الثقافية والفكرية ، فقال: هل كان ينتظر من رؤساء الدين وكلهم أجانب لا يعرفون حاجات البلاد ولم يجيئوا إلا لغرض ديني- أن يؤسسوا في بلادنا مدارس مثل مدارسهم في بلادهم ، تعود علينا بالنفع والخير؟ بل هل كان ينتظر من الأمة وهي جاهلة خاملة أن تنشط لأن تتولى بنفسها جميع أمرها؟ بل لو حاولت ذلك لمنعته ، لأن أمر التعليم كان محصوراً في يد الحكومة ورؤساء الدين ، ولم يكن بالإمكان أن تكون في البلاد مدارس غير الحكومية ، والمدارس الطائفية ، والتي كان لها صفتان :

أولاً : أنها كانت أجنبية ، وقل بين رؤسائها من عرف حاجاتنا ، واهتم بقضائها ، وكذلك قلت العناية بلغتنا ، وإذكاء الروح الوطنية فينا ، وإن أفادت البلاد من جهة أخرى ، مما نجمل الثناء عليه.

والثانية : أنها دينية تبشيرية ، وكان المفهوم من الدين في ذلك الوقت الحزن ، والكآبة ، والزهد في الحياة ، وترك العمل ، وقمع النفس ، والرضا من الدنيا بالنصيب الأقل ، فكان ضررها من جهتين: من جهة كونها أجنبية ، ومن جهة كونها دينية تبشيرية[1] .

وإن النظام التعليمي السائد خلال هذه الفترة كان قائماً على أساس التقسيم (المللي) الطائفي للسكان ، لذلك ساهم في تعميق الهوة بين المواطنين ، وأوجدت المدارس الأجنبية فوضى فكرية عجيبة ، لأن كلا منها كان يعتمد النظام التربوي السائد في البلد الذي تنتسب إليه ، فكان هذا الخليط المتناقض عاملاً في إيجاد

---

(١) السكاكيني ، خليل : كذا أنا يا دنيا ، ص٦١ .

فوضى تربوية كبيرة ، وقد أبقت الإدارة البريطانية العسكرية والمدنية على هذا الخليط خلال فترة الانتداب ، إمعاناً منها في تمزيق الشعب الواحد ، ولقد وصف أحد متخرجي هذه المدارس - أعني الأجنبية - تأثير الإرساليات في التعليم ، فقال: إن إرساليات التعليم التي أتت إلينا من أوروبا وأمريكا إنما كان تأثيرها في جهات مختلفة ، فالفرق النصرانية مال كل منها إلى ما يوافق مشربها من تلك الإرساليات ، وكان تعليم هؤلاء المرسلين تعليم ديني[(١)] .

هذا وقد فرضت الإدارة العسكرية تدريس اللغة الإنجليزية كلغة أجنبية وحيدة في المدارس الحكومية ، خلال الفترة ما بين عامي ١٩١٨-١٩٢٠م ، وعندما تسلمت الإدارة المدنية المسؤولية انتهجت السياسة السابقة للإدارة العسكرية نفسها ، فكانت اللغة الإنجليزية تدرس في المدن منذ الصف الرابع ، ثم الخامس ، وبقي تدريس اللغة الإنجليزية يخضع للتجارب طيلة ثلاث وعشرين سنة ، حتى نشر منهج تعليم اللغة الإنجليزية عام ١٩٤١م ، إضافة إلى كتب إضافية أخرى ، ومن خلال اطلاعي ومراجعتي لكثير من الكتب والمراجع لم أجد أي نقد ، أو استنكار لتدريس اللغة الإنجليزية ، بل وجدت القبول ، مما جعلها تستمر وتتوسع في كافة المدارس الحكومية ، والخاصة كلغة دخيلة على ديارنا[(٢)] .

وإن مراجعة سريعة لكل ما تقدم إزاء ما حققته الصهيونية في مجال التفتيش ، والتعليم على أرض فلسطين بدعم متواصل ، ومنسق من القوى الاستعمارية من أجل سيطرة الفكر الصهيوني ، بغية تحقيق نصر ثقافي يهودي ، أما سياسة التجهيل

---

(١) المقدسي جرجس الخوري : التعليم قديماً وحديثاً في سورية، المقتطف ، ص٧٢٩ .

(٢) القطشان ، عبدالله : التعليم العربي الحكومي إبان الحكم التركي والانتداب البريطاني، ص٤٥ .

التي تبنتها القوى الاستعمارية في فلسطين بالتعاون الوثيق مع الصهيونية[1] في سد السبل في وجه حركة التعليم والتعليم العربية ، إضافة إلى عدم نشر الوعي الثقافي بين صفوف المواطنين العرب ، مع كل ما يدور حولهم من مؤامرات . وإن نظرة لما قدمته القوى الاستعمارية للحركة الصهيونية يكشف بوضوح مدى تأثيره على شعبنا وأمتنا.

تلك هي الحقائق الماثلة للمؤامرة الاستعمارية ، الصهيونية ، لإجهاض العملية التربوية العربية في فلسطين ، وقصر العملية التعليمية في أقل مستوى تعليمي ، مما يسهل على هذه القوى الغاصبة طمس هوية العرب التاريخية والإسلامية ، ومن ثم تهويد الأرض عن طريق احتلال مقومات الوجود الإسلامي في هذه البقعة المقدسة.

ولا ننسى المزاعم الصهيونية والإنجليزية التي أثاروها ، أنهم يدعون ويتهمون شعب فلسطين المسلم بعدم رغبته في تعليم أبنائه ذكوراً وإناثاً ، وأنهم يحظرون على الفتيات الذهب إلى المدارس ، ولكننا نترك الرد للأوربيين أنفسهم ممن أقاموا على أرض فلسطين فهذه عضوة الجمعية الجغرافية الملكية تبرهن لأبواق الدعاية الصهيونية كذب دعواها في كتابها (خمسون عاماً) في فلسطين الذي ترجمة للعربية وديع البستاني[2] عام ١٩٤٧م ، ففي الصفحتين ٣٢.٣١ نوهت بتشجيع

---

(١)تعاون التبشير مع الصهيونية في عدائهم للعرب والمسلمين، ولم يصر المبشرون على إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين إلا لأن إنشاءه يضعف العربي إضعافاً شديداً، ويفتح أبواب فلسطين العربية أمام التبشير ، وإلا لأن فلسطين إحدى نقاط الهجوم على العالم العربي الإسلامي. انظر كتاب : التبشير والاستعمار ، ص١٧٩ .

(٢) وديع البستاني : أديب، حقوقي، من كبار المترجمين عن اللغة الإنجليزية له نظم جيد. احترف المحاماة

الفلسطينيين العرب إقامة المدارس في مدنهم وقراهم ، الذي ساعد في خلق نهضة علمية تعليمية ، حتى في أقسى الظروف الحياتية التي كانوا قد واجهوها في أواخر العهد العثماني ، وأضافت (المس نيوتن) أن نزراً من العلوم ويسيراً وإن العناية الكبرى كانت موجهة لمرضاة الآباء والأمهات ، الذين كانوا يتوقون لأن يتعلم أولادهم وبناتهم القراءة والكتابة[1] .

إضافة إلى أن الطرق كانت مغلقة تماماً أمام الفئات الاجتماعية المعدومة ، ففرص التعليم الثانوي كانت محدودة للغاية ، وتتفق معظم الآراء على أن الأوضاع المالية كانت السبب الرئيسي الذي أدى إلى عرقلة نمو واتساع التعليم الثانوي الحكومي ، ومع تقديرنا لأهمية العامل الاقتصادي وأثره على التعليم ، إلا أنه كانت هناك أسباب أخرى متعلقة بالأوضاع السياسية التي تعيشها البلاد ، فالشعب الفلسطيني المسلم حرم من حقه الطبيعي في إدارة شؤونه التعليمية على الرغم أنه صاحب البلاد الشرعي ، ودافع الضريبة التي خصصت الحكومة نسبة منها للتعليم[2] .

إن مشكلة التعليم الثانوي مرتبطة جذرياً بحل مشكلة التعليم الابتدائي في جميع جوانبه ، التي وصلت إلى حد الانهيار لولا جهود الشعب العربي المسلم التي تفوق الوصف ، على الرغم من أنه عاش في ظروف اقتصادية صعبة ، ومشكلة

سنة (١٩٣٠م) وكان يكثر من الحض على وحدة المسلمين والنصارى من العرب، وهو أول من ترجم إلى العربية (رباعيات الخيام) وله الانتداب الفلسطيني باطل ومحال (والفلسطينيات) وغير ذلك. توفي سنة (١٩٥٤م) الأعلام (٨/ ١١٣).

(١) المس، فرنسيس أميلي نيوتن : خمسون عاماً في فلسطين ص ٤٦

(٢) القطشان، عبد الله : التعليم العربي الحكومي إبان الحكم التركي والانتداب البريطاني، ص١٧٣ .

التعليم الابتدائي مرتبطة بشكل جذري بحرمان العرب من استقلالهم السياسي ، فقد حرموا منه بقوة السلاح والإرهاب السياسي الذي استخدمته حكومة الانتداب لتحطيم إرادة الشعب الفلسطيني ، ومحاولة سحق شخصيته في مطلع هذا العصر الحديث .

* * *

الفصل السابع

الوقوف في وجه المبشرين ومجاهدتهم

وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : دور العلماء وخطباء المساجد .

المبحث الثاني : المؤسسات والجمعيات الإسلامية .

المبحث الثالث : دور المؤسسات التعليمية .

المبحث الرابع : دور المؤسسات الإعلامية .

المبحث الأول
دور العلماء وخطباء المساجد

في هذا الفصل سنتحدث عن الذين ينطلقون من الدين الإسلامي وتعاليمه كمرتكز في اعتقادهم، وأفكارهم وأعمالهم ومنهجهم في الحياة، سواء أكانوا أفراداً كالشيوخ وعلماء الدين، أم المفكرين أم الدعاة، أم المجاهدين أو جماعات تتمثل في الهيئات والمؤسسات والأحزاب، والتنظيمات، بغض النظر عن طريقة كل منهم في الفهم الإسلامي التفصيلي، أو في طريقة تطبيقه والجهاد هنا يعني لغة: مصدر جاهدت جهاداً أي بلغت المشقة[١] .

وفي لسان العرب : (الجهد والطاقة)، «وجاهد العدو .. قاتله»).

والجهاد هو : محاربة الأعداء، واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل[٢] .

والجهاد : بذل الجهد في قتال الكفار أو البغاة[٣] .

وللجهاد فضل عظيم في الإسلام، وتتعدد أنواع الجهاد، فهناك : الجهاد باليد، والنفس، وهناك الجهاد باللسان، والجهاد المال، والجهاد بالتعليم، والجهاد السياسي[٤] .

---

(١) الصنعاني، محمد الكحلاني : سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام لابن حجر العسقلاني، ج٤ص٤١.

(٢) ابن منظور، لسان العرب: ص ٧٠١.

(٣) الصنعاني، محمد الكحلاني : مرجع سابق، ص ٤١.

(٤) حوى، سعيد : جند الله ثقافة وأخلاقاً، ص ٣٦٣.

قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وقال ﷺ: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم»(١).

*** العلماء وتطورات الأحداث:**

على الرغم من أن علماء المسلمين يتفقون بشكل عام في كونهم على دراية وفهم للشريعة الإسلامية وأحكامها، إلا أنهم يختلفون في درجات الوعي السياسي، وأساليب كواجهة الأعداء الماكرين، الذين يخططون بخبث ودهاء مقابل المسلمين، الذين يتميزون بسلامة الفطرة، وحسن الظن بالناس.

لذلك كان هناك الكثير من العلماء، الذين تنبهوا لخطر المبشرين والصهاينة معاً، فكانوا يعملون جنباً إلى جنب في مقاومة الغزو الفكري من جهة، والغزو العسكري من جهة أخرى، ومنهم الشيخ: (موسى البديري والشيخ سعيد العوري، اللذان كانا يُدرسان في المسجد الأقصى، والشيخ عبد الله الجزار، مفتي عكا، حيث أنشأ مدرسة في الجامع نفسه، والشيخ حسام الدين جار الله، والشيخ خليل الخالدي، أحد كبار الباحثين الإسلاميين خاصة في مجال المخطوطات. والشيخ محمد مراد مفتي حيفا، والشيخ حسن أبو السعود مفتي الشافعية، والشيخ أمين العوري، المفتي على المذهب الحنفي في فلسطين(٢). والشيخ موسى العزراوي، الذي اختير لوعظ المساجين، ولقي نجاحاً كبيراً)، وهكذا فإن علماء فلسطين شكلوا حضوراً لا باس به في تلك الفترة الصعبة.

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٢٤، ٣٥١) وأبو داود (٢٥٠٤) والنسائي (٦/ ٧).

(٢) نويهض، عجاج: بيان القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ص ٢٤، ٢٧، ٣٥، ١٣٨.

* العلماء والمؤتمرات التبشيرية في فلسطين:

في عام ١٩٢٤م ، والتحديد من ٣-٧ أبريل ، عقد مؤتمر تبشيري سري في القدس ، وقد رمت أهدافه البعيدة إلى تأجيج نار العداء الديني بين المسلمين والمسيحيين ، بحيث تنتهي الروابط القوية التي تجمع الطرفين على أساس خدمة الوطن ، والعمل لأجله ودارت أبحاث هذا المؤتمر التبشيري المسيحي حول إدخال التبشير في بلاد المسلمين ، وقد حضره (٨٠) مندوباً منهم ، بالإضافة إلى رجال الأعمال المندوبين عن جمعيات التبشير الموجودة في أوروبا ، وأمريكا ، والمتصلة بحركة التبشير في العالم الإسلامي وحضره من ضعفاء المسلمين ، ولم يكتشف أبناء فلسطين أمر هذا المؤتمر إلا بعد أربع سنوات ، إبان عقد المؤتمر التبشيري العالمي في القدس في إبريل عام ١٩٢٨م. وقد قامت جريدة الجامعة العربية بترجمة مقررات المؤتمر التبشيري السري السابق عام ١٩٢٤م ، وتم نشر الترجمة في الأعداد: ١١٩ وحتى ١٢٥ ، في الفترة من ٢٢ مارس وحتى أبريل عام ١٩٢٨م.

وعقد مؤتمر جبل الزيتون ، والذي حضره (٥١) مندوباً يمثلون الدول المنصرة، والراعية للمبشرين. وقد أثار هذا المؤتمر هيجان المسلمين ، وعدوه تحدياً سافراً لمشاعرهم ، ولمبادئهم الإسلامية ، كما خشوا أن يؤدي هذا المؤتمر إلى تقوية فعالية التبشير المسيحي في أوساطهم(١) .

وقد أقيمت اجتماعات حضرها علماء الإسلام ، والشيوخ ، والوجهاء ، والأطباء ، والمهندسون والعمال في مختلف المناطق ، وأرسلت برقيات تطالب

(١) نويهض ، عجاج : بيان القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨م ، ص ٢١٥

بوقف أعمال المؤتمر ، وفي غزة أدى هياج المصلين بعد صلاة الجمعة إلى التصادم مع الشرطة ، واعتقال ١٠٠ متظاهر(١) .

وقد اقترب موسم النبي موسى الذي يقيمه المسلمون في القدس – وهو موسم ديني سنوي – واجتماعات المؤتمر السري ما زالت منعقدة على جبل الزيتون ، أي أن الحكومة لم تستجب للنداءات بوقف المؤتمر ، عند ذلك ، قام الحاج أمين الحسيني المفتي الأكبر ، ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى بتحريض جماهير البلاد ضد المؤتمر ، وأرسل عجاج نويهض(٢)، وأمين الحسيني ليطوفا بالبلاد لتأليب الناس ضد المؤتمر ، وقد وقعت عدة صدامات في نابلس ، وغزة والقدس(٣) . كان من أخطر نتائج هذا المؤتمر أن المبشرين يعملون لصالح دولهم سياسياً تحت ستار التبشير ، وأخذوا يمارسون عملهم واجتماعاتهم بشكل علني تحت رعاية حكومة الانتداب على مرأى العالم أجمع.

* * *

---

(١) المرجع السابق نفسه ، ص ٢١٦.

(٢) المرجع السابق نفسه ، ٢١٦-٢١٧.

(٣) نويهض ، عجاج : مؤرخ سياسي ، صحفي ، أديب. كان أمين سر المجلس الإسلامي الأعلى ، أسس مجلة العرب الأسبوعية ، اشترك مع قادة الحركة الوطنية بالاضراب الكبير عام (١٩٣٦م) فاعتقل. عمل بالإذاعة الفلسطينية من مؤلفاته الأمير جمال الدين التنوخي و أبو جعفر المنصور توفي سنة (١٩٨٢م) إتمام الأعلام (١٨٢).

المبحث الثاني
المؤسسات والجمعيات الإسلامية

١- المجلس الإسلامي الأعلى عام ١٩٢٢م:

استطاع الحاج أمين الحسيني، أن يحول المجلس الإسلامي الأعلى إلى كيان ضخم مؤثر وفاعل في البلاد.

ولقد كان المجلس مسؤولاً عن ١٨ محكمة شرعية، وجهاز من (٢٥٠) معاوناً، وست دوائر أوقاف، وعشر مدارس، وكلية إسلامية، ودار الأيتام الإسلامية، والعديد من المأذونين، الذين تولوا معاملات عقد الزواج تحت مراقبة المحاكم الشرعية في جميع أنحاء فلسطين، وكان لهم كبير الأثر مع الخطباء والوعاظ في المساجد، وكان المجلس الأعلى يعمل على تعميق الأصالة الإسلامية في مواجهة الحضارة الغربية، ومحاربة النفوذ الصهيوني، والانتداب البريطاني، ومقاومة المبشرين بشتى الوسائل والسبل.

٢- جمعية الشبان المسلمين (١٩٢٨م):

وكان بعد زيارة الشيخ المصري عبد الحميد سعيد، الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين، وتنقله بين مدن فلسطين، راقت الفكرة لهم، وتم الاجتماع بيافا في ١٨ أبريل ١٩٢٢م، وقد رأس المؤتمر المحامي المعروف (راغب الإمام)، وكان من الأعضاء حسن أبو السعود، وهاني أبومصلح، وقد اعتنى هذا المؤتمر بالتعليم الإسلامي، وتشجيع الكشافة الإسلامية[١] وقد لاقت هذه الجمعية استجابة

---

(١) نويهض، عجاج: بيان القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين: ص ١٨٩.

كبيرة حيث وصل عدد الفروع إلى ٢٠ فرعاً ، وكانت هذه الجمعية مقابل ما حدث من قيام جمعيات الشبان المسيحيين تحت الرعاية البريطانية ، وكان لها دور كبير في قضية تعبئة المشاعر الإسلامية ضد المبشرين والغزاة وأطماعهم.

ولما تحدثنا عن بيع الأراضي ، قلنا: كان للنصارى دور كبير في بيع الأراضي بشمالي فلسطين خاصة ، ولكن المقاومة الإسلامية بذلت جهوداً كبيرة في إيقاظ المسلمين وتنبيههم إلى خطورة ذلك ، وإعلان أن من يبيع أرضه خارج عن الدين.

وبتاريخ ٢٧/ ١١/ ١٤٢٠هـ من عام ٢٠٠٠-٢٠٠١م بمدينة الرياض وبمكتب الأستاذ موسى حسن أبو السعود[1] ، قمت بمحاورته عن نشاط والده – يرحمه الله – في مقاومة المبشرين وأصحاب الضلالات الأخرى ، وكان الشيخ حسن أبو السعود مفتي السادة الشافعية بفلسطين ، ومفتش المحاكم الشرعية ، وكان أيضاً عضو محكمة الاستئناف الشرعية التي كان يرأسها فضيلة الشيخ إسماعيل ، والد دولة الدكتور أمين الحافظ رئيس وزراء لبنان الأسبق ، فمن خلال مركزه كان له كبير الأثر في مقاومة المبشرين ، ومن صور هذه المقاومة كما ذكر ابنه موسى حسن أبو السعود ، والذي يعمل محامياً ، وهو متخرج من الجامعة الأمريكية ، وعضو بالمجلس الوطني الفلسطيني ، أنه رد على كتاب (لماذا أنا مسلم) الذي كتبه نصراني أساء فيه للإسلام وكانت محاولة للرد على المبشرين في إثارة الاضطراب الفكري عند الناشئة.

وكان الشيخ – يرحمه الله – يتولى التفتيش على المعاهد العلمية الدينية ، وهي

(١) موسى ، حسنْ ، أبوالسعود : من مواليد القدس ويعمل حالياً محامياً ومترجماً في مدينة الرياض خريج الجامعة الأمريكية . بيروت.

المدارس الإسلامية التي فتحت للحفاظ على الجيل المسلم من الضياع والتشتت، وكانت هذه المدارس تسهر على حفظ العقيدة السليمة من أصحاب الأغراض والهوى، وأصحاب المذاهب والفرق غير السليمة من المبشرين وغيرهم كالأحمديين والبهائيين.

وكان من نشاطهم وجهادهم، حيث يقومون بعد صلاة الجمعة - أعني العلماء وأصحاب الفكر - بصورة منظمة، وهم يهللون ويكبرون من باب الزاوية، النخرية زاوية (آل أبو السعود) حتى يصلوا إلى مقام النبي داود، حيث تعقد الدروس في المسجد المجاور، والذي يعتني به آل الدجاني، وقد عمل من الشيخ أبو السعود الشيخ حسين حسونة من مدينة اللد، حيث كان من موظفي المحاكم الشرعية، وهو من المجاهدين الأبطال، وعمل معه أيضاً شخص مصري اسمه الحركي مراد الأصفهاني، واسمه الحقيقي علي رشيد عنان، وكان يحفظ القرآن والإنجيل والتوراة، وكان دوره الرائد في محاورة ومناقشة من استمعوا للمبشرين، وأصحاب الضلالات الأخرى، ومن الذين قاوموا التبشير الشيخ صبري عابدين، حيث كان يعاون في محاربة التبشير والأفكار الضالة، وكان أحد المدرسين في المسجد الأقصى.

وكان العديد من العلماء والمشايخ الذين تولوا مقاومة المبشرين، ولكن سرية هذا الأمر حالت دون معرفة الكثير منهم، وهذا ما قاله ابن الشيخ أبوالسعود، وكذلك الخطر الصهيوني والعمل على إقامة دولة العدو، وشراء الأراضي جعل جل اهتمام المسلمين والعلماء في مقاومة الغازي والمستعمر الجديد، مما قلل من ظهور حركة المسلمين، ونشاطهم في الرد على المبشرين والوقوف في وجههم، وكانت الأقلام، والخطب والكتب تندد بالخطر الداهم الكبير الذي دون شك

مهد له المبشرون ، وارسوا قواعده في لحظة ضعف انتابت العالم الإسلامي ، إثر ضعف دولة الخلافة الإسلامية.

وفي عام ١٩٣١م ، عقد مؤتمر إسلامي كبير ، وكان الشيخ أبو السعود عضو اللجنة التحضيرية ، واللجان المنبثقة من المؤتمر ، للرد على أطماع اليهود والإنجليز في فلسطين.

واستنتجت من هذه المقابلة أن المسلمين لم يكونوا في غفلة كما وصفهم بعضهم، بل كانوا على علم وبصيرة ، وما فتح المدارس والكليات إلا دليل وعي المسلمين ووعي علمائهم ، ولكن الأحداث كانت أكبر والخطر الداهم كان أسرع ، مما بدد جهود العلماء ومحاولاتهم الوقوف في وجه التبشير من جهة ، والصهيونية من جهة أخرى.

*** الوقوف في وجه المبشرين:**

يخطىء من يعتقد أن المسلمين في مواجهة عمليات الغزو الشامل الذي تعرضوا له ، سواء أكان فكرياً أم اجتماعياً – قد استسلموا خاضعين ، والحقيقة غير ذلك تماماً ، فقد دأب المسلمون بفاعلية ، واستطاعت حركة المقاومة أن تخرج قادة فكر ، وقادة عمل فكلما تعرض جانب من المجتمع الإسلامي للتدمير ، والتنكيل ، هب الجانب الآخر يدافع ويقاوم مستمدين من القرآن والسنة وقوداً لا ينطفىء ، حيث برزت قوة مقاومة عسكرية قادرة ، لا تقل في إيمانها بالإسلام والدفاع عنه عن قوى السلاجقة والمماليك ، ففي الجزائر الأمير عبد القادر[1] ،

---

(١) عبدالقادر الجزائري : أمير ، مجاهد ، من العلماء البسلاء ، ولما دخل الفرنسيون الجزائر بايعه الجزائريون ، وولوه القيام بأمر الجهاد ، فنهض بهم ، وقاتل الفرنسيون (١٥) عاماً ، وأنشأ معامل

وفي مصر بقيادة عمر مكرم[١] ، وأحمد عرابي ، وفي السودان المهدي وعبد الله التعايشي في مواجهة الإنجليز والفرنسيين ، وكذلك السنوسيين ، وهكذا استمرت الحرب بين المسلمين – وهم في مراحل الضعف وبين الغرب الغازي المستعمر في مراحل قوته ، وقد كتب المسلمون في هذه المرحلة صفحة مشرقة من العزة والنصر[٢] .

ومع كل هذه الجهود الإسلامية الاستعمارية الغازية ، فإن روح الجهاد في المسلمين لم تضعف ، ولم تستسلم بما لديها من قلة العتاد وندرة المال ، ولكن الاستعمار لم يفتر في مجال التبشير والتنصير وزرع الكيان الصهيوني.

والمسلمون يفرقون بين نوعين من النشاط الديني للمسيحيين:

١- مسيحيون مسالمون لا علاقة لهم بالنشاط التنصيري ، ولا يتدخلون في شئون المسلمين ، ولا يقاتلون ولا يحيكون المؤامرات ضدهم ولم يقفوا مع عدو المسلمين ، هؤلاء المسيحيون على طول فترات التاريخ لم يحصل لهم إيذاء ، أو

للأسلحة ، والأدوات الحربية ، وملابس الجند ، استسلم سنة (١٨٤٧م) فنفوه إلى طولون ، ومنها إلى أنبواز حيث أقام نيفاً ، أربع سنين. وزارة نابليون الثالث فسرحه ، مشترطاً ألا يعود إلى الجزائر ، ورتب له مبلغاً من المال يأخذه كل عام. واستقر في دمشق له ذكرى العاقل وديوان شعره والمواقف ، توفي سنة (١٨٨٣م) الأعلام (٤/ ٤٥).

(١) عمر مكرم : زعيم شعبي مكرم ، ولي نقابة الأشراف سنة (١٢٠٨هـ) قاوم الفرنسيين فلم ينجح ، ثم قاتلهم عدة مرات ، أبعده محمد علي إلى الدمياط سنة (١٢٢٢هـ). اقتنى مكتبة كبيرة ، ولم يعرف فضله ، ولا كوفي على جهاده بل كان نصيبه النفي والحرمان والإقصاء من ميدان العمل ، ونكران الجميل ، توفي سنة (١٨٢٢م) الأعلام (٥/ ٦٧).

(٢) طعيمة ، صابر : أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي ، ص ٦٦.

تنكيل ، بل يعيشون في أسعد حال ، لهم ما يكون للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين ، لهم البر والإحسان ما داموا كذلك.

٢- قال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة : ٨] .

وهؤلاء كفل لهم الإسلام حقهم في حرية وممارسة العبادة ، كما ضمن لهم أموالهم ، وأعراضهم ، وكل حقوقهم الإنسانية.

٣- مسيحيون من داخل الدولة المسلمة أو من خارجها يمارسون التنصير والتشكيك في الدين الإسلامي ، ويحاولون متعمدين لردة المسلمين عن دينهم ، فكما أن الردة كفر ، فكل ما يؤدي إليها كفر كذلك ، كما حرم الإسلام الردة ، حرم من يؤديها ، وهؤلاء الصنف يعملون على تدمير المسلمين ، وخاصة الأطفال والنساء والشيوخ ويعملون ضد المسلمين في وقت الشدة ، والحاجة والعوز ، أو مع الجهل والظلام ، فهؤلاء وحوش يجب مقاومتهم والتنكيل بهم ، فيهم معاول هدم وأدوات تدير يجب الوقوف في وجوههم ، ومقاومتهم بكل الوسائل وبشتى السبل.

وقد علمنا أن هؤلاء المنصرين لا يعملون إلا بالخداع ، والإكراه مع تظاهرهم بالرحمة والنبل في الأخلاق ، فكان لزاماً على المسلمين أفراداً وهيئات وشعوباً وحكومات أن يمنعوا التنصير في بلادهم بكل الوسائل ويحرموه وأن يبطلوا كل محاولة خبيثة من منتصر مخادع.

وعلى العلماء والدعاة المسلمين فريضة تنفيذ ذلك ، وبكل الطرق الممكنة ، وتبيين حقائقهم في الدعوة إلى الله ، وحث المسلمين على الانتباه لهم ولمخططاتهم المسمومة وعلى أغنياء المسلمين إقامة المدارس ، والمعاهد التي تحتضن الأطفال ،

والشباب ، بدل الذهاب إلى مدارس المنصرين ، وعليهم أيضاً بناء المستشفيات والمصحات بدل الذهاب إلى عيادات النصارى المجانية.

وعلى جميع المسلمين امتثال قول الله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة :٩].

ولابد أن نشير هنا إلى موقف السكان العرب من المدارس المسيحية:

وجهت انتقادات مختلفة الجوانب للدور الذي قامت به المدارس المسيحية ، وتناولت هذه الانتقادات أهداف هذه المدارس ، ومناهجها ، وقد جاءت تلك الانتقادات من الأوساط العربية ، وسنحاول إيضاح هذه الانتقادات:

١- إن المدارس ودور التبشير لم تؤسس لتأخذ بيد الثقافة العربية ، وتقوي العرب في معتقداتهم ، بل أسست لمكافحة هذه الثقافة وتلك المعتقدات ، مما أدى إلى انتشار الفوضى الفكرية في أوساطهم[١] .

٢- (إن المبشرين هم أصابع أممهم ، وعيون بلادهم ، ويحاولون دائماً أن يثيروا الفتن والقلاقل في البلاد العربية والإسلامية ، حتى تتمكن أممهم من السيطرة عليها سياسياً ، واقتصادياً أما من الناحية الثقافية ، فقلما تهمهم إلا بقدر ما يسهل مهمتهم السياسية والاقتصادية.

وإن كان ثمة نفر قليلون جاؤوا إلى الشرق للتبشير فحسب ، ولكنهم مقتنعون شخصياً بالناحية الدينية ، إذ أنهم في الدرجة الأولى مخطئين ، لأنهم لم يأتوا إلينا

(١) ياغي ، عبد الرحمن: حياة الأدب الفلسطيني الحديث من أول النهضة حتى النكبة ص٣٤.

بقيمة روحية واجتماعية أسمى مما عندنا، ولا مثلها ثم إنهم قد وضعوا أنفسهم في أيدي رجال الاستعمار السياسي والاقتصادي، يستخدمونهم كيف شاؤوا، وعلى غير علم منهم في بعض الأحيان[١].

٣- على الرغم من الشهرة التي اكتسبتها مؤسسات التعليم التبشيري، فإنها لم تبدل العناية الكافية في تدريس اللغة العربية، وإنما عملت على تعليم اللغات الأجنبية المختلفة، حسب لغة البلاد والأمم التي تتبعها هذه المدارس[٢].

٤- وفي اعتقادي أن وجهة النظر العربية السابقة لم تر إلا جانباً واحداً من الحقيقة، دفع إلى الحفاظ على الهوية العربية الإسلامية في مواجهة التغلغل الأجنبي في البلاد، وخاصة التغلغل الصهيوني ويقول إن المؤسسات الثقافية الأجنبية كانت إحدى الوسائل التي اعتمدت عليها القوى الاستعمارية في استيلائها على أرض الشعوب الأخرى، وفي بعض الأحيان كان النشاط الثقافي مقدمة للاحتلال العسكري.

٥- وقد تحدث (هيد لام مورلي)[٣] في تقريره الذي نشر عام ١٩٢٧م عن نشاط الجمعيات في فلسطين: ولا يختلف نشاط الجمعيات التبشيرية الانجليكانية عن نشاط البعثات الطبية، لأنها لم ترتبط بأعمال التبشير الصرفة...[٤].

نلاحظ أن هناك هدفاً تبشيرياً، وإن لم يكن مباشراً كما جاء على لسان هذا لقس

---

(١) الخالدي مصطفى، فروخ عمر: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص ٢٥.

(٢) القطشان، عبد الله: التعليم في فلسطين، ص ١٠٧.

(٣) هيرد لام مولي: قس ألماني، عمل في خدمة الإرساليات الألمانية اللوثرية.

(٤) F,O 371-12280-3326 P.65.

الألماني ، ونحن لا نقتنع بهذا الأسلوب المبطن ، فظاهرة الأعمال الإنسانية والله أعلم ما بباطنه ، فنحن نؤمن بفصل هذه المؤسسات عن دورها السياسي والاستعماري وانظر إليه في تقرير آخر ماذا يقول: (إن فشلنا في بناء نظام تعليمي عال سوف يؤدي إلى أضعاف مركزنا السياسي على المدى الطويل ، إن الأمريكيين يبذلون جهوداً مستمرة لتوسيع نفوذهم خلال سنة أو سنتين في مدينة القدس ، وإن الإيطاليين هم الآخرون تواقون إلى تعميق سيطرتهم ونشرها ، ولا يقلون عن (الأمريكان) في تطلعاتهم لترسيخ أقدامهم ، ولا أحد يعرف من الذي يقف وراء مؤسسات التعليم الإيطالي؟ أهو موسليني[١] أم الفاتيكان؟ وعلى الرغم من ذلك فإن بناء هذه المؤسسات التعليمية إنما يهدف إلى تقوية نفوذهم السياسي في المنطقة[٢].

وقد لاحظنا كيف يناقض نفسه ، فهذه المدارس وهذا مما يؤسف له اجتذبت الكثير من أبناء المسلمين ، والتي تديرها المؤسسات الدينية التابعة لبعثات التبشير.

وسنبين في هذا الجدول عدد أبناء المسلمين في هذه المدارس ، وهي عينات فقط:

---

(١) موسوليني ، بنتيو (١٨٨٣-١٩٤٥) : زعيم إيطاليا الفاشية أسس الحزب الفاشي (في ميلان) عام ١٩١٩م وفي عام ١٩٢٢ زحفت الميليشيا الفاشية على روما وأسندت رئاسة الوزراء إلى موسليني، أنشأ مع هتلر محور روما برلين عام (١٩٣٦م) أعلن الحرب على الحلفاء (عام ١٩٤٠م) ولكن هزيمة قواته أدت إلى سقوطه في يوليو ١٩٤٣م.

إعادة الألمان إلى السلطة في إيطاليا. (١٩٤٣-١٩٤٥) قتله بعض خصومه عام (١٩٤٥م) موسوعة المورد العربية (٤/ ١١٧٢).

(٢) F.O 371-12288-3326 P.65

السنة	عدد المسلمين بالمدارس المسيحية
٢١/ ١٩٢٢م	١٦٦١
٢٤/ ١٩٢٥م	١٥٢٧
٢٦/ ١٩٢٧م	١٨١٦
٣٤/ ١٩٣٥م	٢٤٢١
٤٤/ ١٩٤٥م	٤٠٠٢ [١]

هذا هو التزايد على هذه المدارس التبشيرية ، ويا حبذا لـو كانـت هـذه النـسبة زيادة في مقاعد الطلاب العرب المسلمين في فلسطين.

وعلينا أن ألا ننسى الخطر الكبير لهـذه المـدارس في عـدم تركيزهـا عـلى اللغـة العربية ، لأن هذا الأمر يضعف الوحدة الوطنية ، وقد صدر الكثير من الـشكاوي عن ضعف مستوى اللغة العربية عند المتخرجين خاصـة في معاهـد المعلـمات مـن كلية شمت مثلاً ، وكلية بنـات القـدس ، ولا سـيما المتخرجـون الـذين عملـوا في المدارس الحكومية العربية ، مما أثر بدوره على المستوى العام لتعليم اللغة العربية في المدارس التي التحق بها الغالبية العظمى من التلاميذ العرب[٢] حيث كانت هنـاك مدارس تبشيرية نالت شهرة واسعة مثل:

١- كلية شمت للبنات في القدس ، وهي تابعة للإرساليات الألمانية.

٢- كلية الشباب الإنجليزية بالقدس ، حيث أسست عام ١٩١٩م وتدار من جمعية في لندن ، ومديرها إنجليزي والمدرسون بريطانيون.

---

(١) A.R 1934–1944-p.23

(٢) A.R 1934–1944-p.4

٣- كلية البنات الإنجليزية بالقدس أيضاً.

٤- مدرسة القديس جورج في القدس.

٥- مدرسة الفرندز في رام الله.

٦- مدرسة طاليتا للبنات في يافا.

٧- الكلية الإسكتلندية في صفد.

٨- مدرسة المطران غوبات في القدس(١).

كانت هذه المدارس تخضع لسياسة البلاد التي تشرف عليها، فتلاحظ مثلاً أن المدارس البريطانية والأمريكية ركزت على التعليم النظري، بينما الألمانية والإيطالية ركزت على التعليم المهني الصناعي والزراعي، بالإضافة إلى النظري.

وعلينا أن نلاحظ: أن هذه المدارس رفضت الخضوع لقانون التعليم العام وكان الرفض يأتي من الدول الراعية نفسها لهذه المدارس بشدة على رفض هذا القانون عام ١٩٢٧م ومسودة عام ١٩٢٨م، التي فرضت مزيداً من الإشراف الحكومي على المدارس التابعة لتلك الجماعات، التي رأت في بعض مواد مشروع القانون تدخلاً مباشراً في شؤونها الداخلية.

كما أصدرت حكومة الانتداب قانوناً للتعليم عام ١٩٣٣م، وكانت كل هذه المدارس في منأى عن بنوده، وفي منأى عن قبضة دائرة التعليم الحكومي(٢)، مما أثار غضب المسلمين، علاوة على أن هذه المدارس بكامل طاقتها كانت تدار من

---

(١) كان المطران غوبات: من رجال الدين الإنجليز، وعمل في خدمة جمعية التبشير في فلسطين منذ ١٧٤٦م.

(٢) القطشان، عبد الله: التعليم في فلسطين، ص ٣٠.

قبل عناصر غير وطنية ، وكان لهذا مردود سلبي ، وتحيز عنصري واضح.

* دور الخطباء وأئمة المساجد :

مما جرى من سرد لوسائل المواجهة ، فلابد من التأكيد على عدم شموليتها ، وعدم انطباقها بالضرورة على جميع الأحوال والبيئات ، ومن وسائل المواجهة في المجتمع المسلم عن طريق الخطباء وأئمة المساجد الخطوات التالية:

١- الدعوة إلى الله على بصيرة في المواجهة العملية ، وأن يتفهم ذلك أبناء المسلمين ، أو من نعتقد فيهم الخير من غير المسلمين ، وأن الإسلام الذي به القرآن الكريم ، وسنة المصطفى محمد ﷺ هما الحل السليم في مواجهة هؤلاء الغزاة ، وأساليب الدعوة متعددة ومتنوعة فمرة مباشرة ، وأخرى غير مباشرة ، وكل ما يحقق الهدف ، ولا يتعارض مع الشرع نعده أسلوباً ، ولكن أولى المهمات التي ركز عليها الخطباء ، وأئمة المساجد : ضرورة تعلم العلم الشرعي أولا ، ثم الفقه فيه ، لأنهما يعدان من أوليات مؤهلات الداعية إلى الله.

فكان تركيز الخطباء في هذه الفترة على توجيه الشباب المؤمن بربه ، الواعي المتعلم كيلا يكون فريسة سهلة في أيدي الأعداء ، ونعني: المبشرين ومن وراءهم من المستعمرين ، فتسليح الشباب بالعلم الشرعي هو أهم وسيلة في هذه المرحلة.

٢- دعوة الخطباء وأئمة المساجد الأهالي عن طريق خطب الجمع ، والدروس بعد الصلوات ، والتجول بين الناس ، ومطالبة الحكومات الإسلامية ، وأولي الأمر بعدم تسهيل مهمة المنصرين في المجتمعات الإسلامية ، وضرورة التأكيد على الوافدين إلى ديار المسلمين وبصفة خاصة فلسطين من يهود ونصارى، إلى ضرورة احترام ثقافة البلاد ، وعدم اتخاذهم أي إجراء عام يتعارض مع هذه

الثقافة ، أو يتناقض معها ، وذلك عن طريق مراقبة البعثات الدبلوماسية الأجنبية وإشعارها دائماً وبوضوح أنها مطالبة بالاقتصار على مهماتها المناطة بها والمحدودة ، وعدم الإخلال بهذه المهمات بالخروج للمجتمع ، ومحاولة تضليله دينياً وثقافياً واجتماعياً[1].

٣- كما حث الخطباء وأئمة المساجد على ضرورة إيجاد هيئات وجمعيات ولجان ، هدفها حماية البلاد والعباد من الأفكار التي يتبناها النصارى وكانت هذه الجمعيات تشكل تهديداً عملياً واضحاً للجمعيات التنصيرية ، وهدف هذه الجمعيات التنسيق للوقوف في وجه المنصرين بالعلم والإيمان ، ومن هذه الجمعيات : جمعية المجلس الأعلى الإسلامية ، وجمعية الشبان المسلمين ، وجمعية الإصلاح الإسلامي ، وكان من أثر هذه الجمعيات بناء المدارس الإسلامية كي تقف في وجه المؤسسات التعليمية النصرانية[2].

٤- كما جاء أن الخطباء حثوا الموسرين والقادرين من التجار ورجال الأعمال ، وأصحاب المصانع الذين تضطرهم الظروف إلى استقدام الطاقات البشرية من الخارج سواء أكانوا مهندسين ، أم عمالة أن يسعوا جادين إلى استبدالهم بالمسلمين ، حتى لو قلت خبرتهم ، مع ضرورة المراقبة الدقيقة والمتابعة لنشاط الأجانب ، وهذا ليس مقصوراً على القطاع الخاص ، بل الحكومي أيضاً ، حين يستقدم الخبراء مع العلم أنه قد يندس بينهم (مرشدون روحيون) مقصودون للعبث بالمناهج والتوجيهات البعيدة عن روح الدين الإسلامي ، كما يكلفون الغرفة

---

(١) النملة ، علي إبراهيم : التنصير في البلدان العربية ، ص ٧٦.

(٢) المرجع السابق نفسه ، ص ٧٧.

التجارية مراقبة ذلك ، ومتابعة المصانع والاتصال بالتجار ، ورجال الأعمال ، والاجتماع معهم وعقد المؤتمرات والندوات ، والتوصية بالمتابعة الشديدة لكل الأجانب ، وعدم التساهل في ذلك.

٥- كما أن الخطباء وأئمة المساجد كانوا يدعون الشباب بما يملكون من طاقة ، وقوة ، ونشاط ليعطوا الدعوة شيئاً من التفرغ ، ويقومون بالدعوة إلى الله متطوعين في ذلك ، والخطباء لا يقللون من جهود الشباب ، مهما كانت في الوقوف في وجه المبشرين، وتنبيه الشباب أمثالهم من مخاطر الاستجابة للمبشرين، أو قبول الهدايا المجانية منهم ، أو الدعوة لحضور اجتماعاتهم مهما كانت.

أما بالنسبة لبيع الأراضي والتي كان يخطط لها الصهاينة من جهة ، والمبشرون من جهة أخرى ، كي تتحول ملكيتها تدريجياً للصهاينة ، فأشير هنا ، إلى أن الفلسطينيين في تلك الأثناء كانوا يقومون بعملية مضادة لبيع الأراضي العربية ، فانطلقت حملة واسعة لجمع الأموال بغية نيل حق الشفعة (السبق في الشراء) على الأراضي المتوقع بيعها عما قريب ، ولقد تشكل صندوق قومي عربي ، ولكن كان متأخراً في عام ١٩٤٢م(١).

وهذا تقرير رفع من فضيلة الشيخ (مشهور الضامن) مفتي نابلس إلى سماحة الشيخ عبد الله غوشة قاضي القضاة في الأردن ، ينكر على المبشرين في المدارس الأهلية الأجنبية في نابلس ، ما يجري في مدرسة البنات بنابلس من طعن على نبي الإسلام ، وتشويه لحقائق الإسلام والطالبات مسلمات والمدرسات مسيحيات مبشرات ، مرسلات لهدم العقائد والأخلاق ،جاء في البيان (أنه بيان الحقيقة عن

---

(١) صنبر ، إلياس : فلسطين ١٩٤٨م التغيب ، ص ٩٩.

النشاط التبشيري الواقع في المدارس الأهلية الأجنبية ، أرجو أن أعرض لسماحتكم ما حصل في مدرسة البنات في نابلس التابعة للإرساليات الفرنسية بالتبشير بين الفتيات المسلمات داخل المدرسة. وقد ذكر لي والد إحدى الطالبات في المدرسة المذكورة عن حديث جرى في صف من صفوف المدرسة ، يتلخص في الطعن الواضح على رسول الله ﷺ ورسالته. وقد دعاني والد البنت بنفسه لأسمع ما وقع مع ابنته وبالفعل ذهبت إلى بيته وذكرت البنت الحديث الذي دار في المدرسة ، وكيف أن الإسلام لا يعتني بالبيت عكس المسيحية[1].

فهذا جانب من محاربة علماء المسلمين للتبشير ، وذلك برفع الأمر إلى الجهات العليا لأخذ التدابير اللازمة إذا عجز المفتي عن إصلاح الوضع.

أما بالنسبة لتقليد الأجانب والتحذير منه ، وعدم مسح الشخصية الإسلامية ، فهذه خطبة ألقاها عبد الله القلقيلي في يافا ، ونشرت في مجلة (المقتطف) عدد مارس ١٩٢٥م جاء فيها): المراد من التقليد الذي أزمعنا الكلام فيه في هذا المقام أن يتبع الإنسان غيره في أمر من الأمور ، ويحذو حذوه ، ويتشبه به ، وأظن أنه تبادر إلى أذهان بعض الإخوان أن التقليد الذي سأتكلم فيه هو التقليد في مصطلح علماء أصول الفقه عندنا معشر المسلمين ، أي التقليد في العقيدة ، والأعمال الشرعية، فالتقليد بهذا المعنى لا أقصد الكلام فيه ، إذ ليس هذا موضعه، وبعد فالتقليد المعني المراد هنا يجري في لقول ، والفعل والأخلاق والعادات والآداب والأكل والشرب والملبس ، وسائر الأمور التي تعتري الإنسان والأحوال التي ترد عليه ، وتعرض له. فقد تقلد غيرك في قوله ، أو فعله ، أو

---

(١) الصواف ، محمد : المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام ، ص ٢٣٠.

أخلاقه أو عاداته أو آدابه ، أو أكله أو لبسه أو في ذلك كله.

سبب التقليد أن الباعث على تقليد الإنسان لغيره هو اعتقاده فيمن يقلد الكمال، كتقليد التلميذ أستاذه ، والولد أباه ، والجاهل العالم. ويكون الباعث أيضاً على التقليد أن يكون المقلد ذا مقام رفيع ، ورتبة عالية وصاحب سلطان واستيلاء، فيظن المقلد أن المقلد لم يدرك ذلك إلا بما اتصف به من الصفات ، وما استنه من السنن ، وانتهجه مع المناهج ، فيسير على مثاله ، وينسج على منواله ، ويأخذ نفسه بتقليده في جميع أقواله وأفعاله ، وأحواله ، ومن هذا الضرب تقليد المغلوب للغالب والمسود للسائد ، والخادم للمخدوم[(١)].

وقد فطن لذلك العلامة ابن خلدون[(٢)] ، وبينه في مقدمته المشهورة حيث قال:

(فصل في أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره ، وزيه ، ونحلته ، وسائر أحواله وعوائده. والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها، وانقادت إليه ، إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه ، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي ، إنما هو لكمال الغالب ، فإذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقاداً فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به ، وذلك هو الاقتداء ، أو لما تراه والله أعلم من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس ،

---

(١) النشاشيبي ، إسعاف : قلب عربي وعقل أوربي ، ص ١٥-١٧.

(٢) ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد : الفيلسوف المؤرخ ، العالم الاجتماعي البحاثة ، توجه إلى مصر فأكرمه سلطانها الطاهر برقوق وولي فيها قضاء المالكية وعزل ، وأعيد.

كان فصيحاً ، جميل الصورة، عاقلاً، صادق اللهجة ، طامعاً للمراتب العالمية ، من كتبه العبر، وديوان المبتدأ والخبر، توفي سنة (٨٠٨هـ) الأعلام (٣/ ٣٣٠) والضوء اللامع (٤/ ١٤٥) ونفخ الطيب (٤/ ٤١٤).

وإنما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب ، تغالط أيضاً بذلك عن الغلب ، وهذا راجع للأول ، ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ، ومركبه ، وسلاحه ، في اتخاذها وأشكالها ، بل وفي سائر أحواله ، وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائماً ، وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم.

وإذا نظرنا في تقليدنا للغرب واقتداءنا به ، فإنا نجد السبب فيه الأمرين اللذين ذكرناهما آنفاً: اعتقادنا في الغربيين الكمال ، وظناً أنهم لم يبلغوا ما بلغوه من المقام الرفيع والسلطان الواسع ، إلا لما انتحلوه من العادات والمذاهب وما سلكوه في أفعالهم من المناهج.

منافع التقليد: إذا عرفنا التقليد وسببه فيجدوا بنا أن نعرف ما فيه من المنافع والمضار ، فإن هذا هو لباب موضوعنا وخلاصته. لا ريب أن للتقليد منافع عظيمة ، وفي الاقتداء منافع جسيمة يجب أن ندركها ونفطن لها ، اعترافاً بفضائل التقليد ، وتقديراً لمحاسنه ، ورداً على قوم نفروا منه نفرة السليم من الأجرب.

مضار التقليد : لا ريب أن قوام الأمم أمران: اللغة والعادات. فإذا ذهبت من أمة لغتها وعاداتها فقد ذهبت الأمة وزالت. فلو فرضنا أن الشعب العربي الآن قد صارت لغته وعاداته إنجليزية ، فإنه بلا شك يكون قد انقاد وانقرض ، فإن انقراض الأمم ، هو دخولها في غيرها واندماجها في سواها ، وليس انقراض الأمم وهلاكها فناءها بالموت فحسب ، كما هو كذلك في الأفراد. وإذا كان كذلك فإن من أشد الأخطار على الأمم الشرقية أن تفرط في التقليد. وتغلو حتى تفقد لغاتها ، وتنسلخ من آدابها وعاداتها، فتنخلع من خصائصها، ومقوماتها وفصولها ومميزاتها.

فعلى هذه الأمم إذا أرادت البقاء ورغبت في الحياة الكريمة أن تحرص على

لغاتها الحاملة لآداب أسلافها ، وعلومهم ومعارفهم وحضارتهم ، وأن تحتفظ بأحسن عاداتها ، وأطايب آدابها وصفاتها ، ولو كان عليها أن تقتبس من الغرب الخلال الحميدة والعادات الممدوحة ، وتقلد الغرب في الجد ، والسعي والثبات وصدق العزيمة وقوة الإرادة.

أما تقليدنا للغربيين تقليداً أعمى ، والجري خلفهم على غير هدى اعتقاداً منا الكمال فيهم ، وظناً منا أنهم لم يبلغوا ما بلغوا إلا بما هو عليه من العادات والمذاهب ، وما هم فيه من الأزياء والأحوال ، فذلك صائر بنا إلى الردى وسوء العقبى[1] .

كما أن تقليدنا للغرب في كل الأمور تقليداً أعمى قبيح ومعيب ، فإن اقتصار قوم منا على تقليدهم في خلال لا تنفع ، بل تضر وتوقع النفرة منهم في القلوب ، والوحشة في النفوس ، أكثر قبحاً وعيباً ، وذلك كالعكوف على الملاهي ، والإسراف في معاقرة الخمر ، والتشبه بهم في الملابس ، والمآكل والتبرج وما أشبه ذلك[2] .

فلندع تقلدهم في مثل هذه الخلال ، ولننتق من أخلاقهم وعاداتهم أحسنها وأطيبها ، ولنتخير من مواردهم أصفاها وأعذبها ، فإن ذلك أقوم سبيلاً ، وأحمد عاقبة ومآلاً ، إن وافق شريعتنا الإسلامية الغراء.

* * *

---

(١) القلقيلي ، عبد الله : التقليد المقتطف ، ح ٦٦ ، ص ٣٠٢.

(٢) المرجع السابق، ص٣٠٤ .

المبحث الثالث
دور المؤسسات التعليمية

لا شك أن انتشار التعليم الغربي في بلاد الشام ، وتزايد نشاط المدارس والكليات الأجنبية التي كانت تنمو في كنفها الإرساليات التنصيرية ، قد زاد من قلق العرب المسلمين الذين أدركوا خطورة هذا الغزو الثقافي الأجنبي ، وأحدث لديهم ردة فعل قوية ، حيث بدؤوا في قيادة الحركة العربية ذات الاتجاه الإسلامي ليصل الأمر بهم إلى العزوف عن إدخال أبنائهم المدارس الأجنبية ، خوفاً على عقيدتهم من سموم البعثات التنصيرية(١) .

وبقي العرب المسلمون في معزل عن المؤسسات التربوية المسيحية ، وأنشئوا مدارس إسلامية ، وهاجموا المفكرين العرب الذين ينادون بالأخذ بالتربية الغربية، وقد رأى السيد محمد رشيد رضا: أن هؤلاء المتخرجين من تلك المدارس ، هم الآلات التي يستعين بها الأجانب على إدارة أمر البلاد ، لأنهم تربية مدارسهم ، أو الجيش السلمي لثكناتهم ، ولا يتم لهم ما يسمونه الفتح السلمي بدونهم(٢) .

وكان من أبرز المؤسسات الإسلامية التي أدت دوراً رئيساً في التعليم الإسلامي هي:

أ- المجلس الإسلامي الأعلى:

كان يتبع هذا المجلس ثمان مدارس ، التحق بها ٣١ تلميذاً (٥٩٦ من

---

(١) منسي، محمود صالح : حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي ، ص ٩٥-٦٩.

(٢) زين ، نور الدين : نشوء القومية العربية ، ص ١٨٩ ، ١٩١.

الأولاد، و١٣٥ من البنات)، وتشير الأوساط الإسلامية في فلسطين أن المجلس الإسلامي كان يمتلك في السنة الدراسية ١٩٤٥/١٩٤٦م (١١٠) مدرسة، ضمت (٢٠٢٣) طالباً وطالبة.

ب - اللجنة المحلية للتعليم في يافا:

تمثل يافا المركز الثاني في النشاط التعليمي بعد المجلس الإسلامي، ففي عام ١٩٢٦/١٩٢٧م، كانت لجنة يافا تمتلك ٥ مدارس، ضمت ٤٣٦ تلميذاً، و١٢٥ تلميذة[١].

ج - جمعية حيفا الإسلامية: كانت جمعية حيفا تمد وتمول مدرستين ضمتا ٣٨٧ تلميذاً حتى عام ١٩٢٦م.

د - جمعية الشبان المسلمين.

هـ - جمعية الإصلاح الإسلامية.

وهذا جدول يوضح عدد المدارس الإسلامية، وعدد التلاميذ كنموذج فقط لإحدى السنوات:

	عدد المدارس	عدد المعلمين	عدد الطلاب
عام ١٩٢٦م	٤٢	١١٤	٢٤٩٦[٢]

لاشك أن هذه الصورة التعليمية للمدارس الإسلامية وإن كانت غير مرضية، إلا أنها ساعدت إلى حد ما في الحيلولة دون توجه أبناء المسلمين للمؤسسات

(١) القطشان، عبد الله: التعليم الخاص اليهودي والمسيحي والإسلامي، ص ١٤٣.

(٢) القطشان، عبد الله: التعليم في فلسطين، ج٢، ص ١٢٣

التعليمية النصرانية ، والوقوع بين يدي المبشرين ، إضافة إلى ذلك خلو المدارس الإسلامية من التعليم المهني والزراعي ، الذي كانت المؤسسات التبشيرية نشطة به ، على الرغم من حاجتنا الماسة إليه في تلك الفترة.

وكانت المدارس الإسلامية تتلقى الدعم من قبل المجلس الإسلامي الأعلى ، ولجنة نشر التعليم العالي بين المسلمين ، وبعثة الجمعية الإسلامية الخيرية ، والتي تأسست عام ١٩٢١م ، وقد أرسلت أربعة طلاب على نفقتها لجامعة الأزهر عام ١٩٢٤[١].

وحسب تقديري أن هذه الجهات الممولة ساعدت في نشر التعليم الإسلامي في فلسطين إلى حد ما ، وحسنت من مستوى التعليم ، حتى إن بعض الطلاب العرب أخذوا يلتحقون بمثل هذه المدارس ، مثل مدرسة روضة المعارف في القدس ، والنجاح في نابلس ، ولقد ارتفع عدد هذه المدارس إلى (١٩١) مدرسة ، ضمت (١٥٥٠٥) تلميذاً عامي ١٩٤٠-١٩٤١م.

وهناك مؤسسات علمية ومؤسسات تعليمية كالمعاهد العليا ، ومراكز البحوث، وهذه ولله الحمد كانت توجد في فلسطين ، ولكن بشكل قليل جداً ، فكانت تسهم في مجال التركيز على الحملات التنصيرية ، وتبين خطرها على الأمة عن طريق نشر الكتاب الذي يعالج هذه المشكلة ، وعن طريق الندوات ، والدعوة إلى المحاضرات لوضع الخطط لمواجهة التنصير ، أو إصدار نشرات تبين خطورة التنصير ، حيث لا تخلو الساحة من هذه الإصدارات ، ولكن لا يوجد دورية متخصصة يمكن الرجوع إليها في هذا الموضوع ، في حين نجد الكثير من المجلات

---

(١) جريدة فلسطين ، العدد ٧٠٦ (٤٨) ١٩٢٤ يافا.

التنصيرية المدعومة من الجمعيات التنصيرية[١] كما لا توجد مؤسسة علمية واحدة تضع اهتمامها في هذا الموضوع ، لأن خطر اليهود كان أكبر بكثير من التبشير ، في حين نجد الجمعيات التنصيرية والجامعات المتخصصة في تخريج المنصرين[٢]، تزداد وتكثر ، ولكن هذه المعاهد أعني الإسلامية -كانت متأخرة في ظهورها ، مثل (صفحات سوداء من تاريخ المبشرين) ، (التبشير الإسلامي) ، (التبشير المضاد).

وكان دور المؤسسات التعليمية رسم طريقة للحوار مع النصارى في مجالات العقيدة ، ومع أن هذا الموضوع غير مرغوب فيه لدى بعض المهتمين ، إلا أنه عند الاستعداد له بالعلم الشرعي ، والعلم بالملل والنحل ، والنصرانية خاصة ، قد يدخل في دعوة القرآن الكريم إلى أهل الكتاب إلى كلمة سواء بيننا وبينهم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢] .

وعن طريق هذا الحوار يمكن تصحيح الفهم غير الصحيح الذي تعمله المسلمون من القرآن عن النصرانية ، وخاصة فيما يتعلق بالكتاب المقدس ، ورسالة عيسى عليه السلام وعقيدة التالوث ، وكذلك طبيعة الكنيسة ، فعملية الحوار عملية ناجحة في مواجهة الغزو التبشيري ، وكسب النصارى للإسلام ، بدلاً عن ضياع شباب المسلمين بين يدي المبشرين وحيلهم الكاذبة.

---

(١) من أبرز الدوريات النصرانية والتنصيرية : العالم الإسلامي، الحقيقة الواضحة، الإسلام بالألمانية ، والفرنسية ، والروسية.

(٢) ومن هذه الجمعيات ، والمؤسسات : المركز النصراني لدراسة شمال إفريقية في الجزائر ، معهد الشرق الأدنى للاهوت.

وأود أن أشير هنا إلى التحفظات السابقة، فإن المدارس الإسلامية استطاعت في العام الدراسي ١٩٤٥-١٩٤٦م أن تستوعب ١٨٪ مما استوعبته المدارس الحكومية من التلاميذ و٥٠٪ مما استوعبته المدارس المسيحية، و١٥.٨٣٪ من التلاميذ المسلمين في جميع المدارس، ونسبة ١١.٧٣٪ من التلاميذ العرب في جميع المدارس، على الرغم من أن السكان المسلمين يشكلون ما يقارب ٨٩٪ من الناطقين باللغة العربية.

وعليه أستطيع القول بأن المدارس الإسلامية استطاعت أن توفر فرص التعليم لما يقارب من (٥٠٠٠) طفل وشاب في العام الدراسي ١٩٤٧-١٩٤٨م[١].

وكان من بين الإنجازات الحقيقية للتعليم الإسلامي قدرته على التكيف مع روح العصر على صعيد المناهج، والمعلمين والمباني بالإضافة إلى إتاحة فرص التعليم أمام أعداد كبيرة من الأطفال العرب الذين لم تتح أمامهم إمكانية الالتحاق في المدارس الحكومية، ولسنا من الذين ينكرون الجوانب السلبية في حق مستوى التعليم في المدارس الإسلامية الواقعة في القرى العربية بعكس الوضع في مدارس المدن التابعة لمختلف المؤسسات الإسلامية، ولم توجه أيضاً عناية كافية للتعليم الفني (الزراعي والصناعي والتجاري)، والثانوي وتعليم الإناث[٢].

وإن الجهود التي بذلتها المدارس الإسلامية في توعية تلاميذها وتربيتهم تربية وطنية عبر صعيد منهج التربية الوطنية، وتشكيل فرق الكشافة، والاشتراك في المظاهرات، والاضطرابات، والحركات السياسية والثورات الوطنية التي شهدتها

---

(١) A.R 1944.1945 p.I

(٢) القطشان، عبد الله : التعليم في فلسطين، ج٢، ص ١٥١.

بلادنا في الفترة الواقعة بين أعوام ١٩٢٠-١٩٤٨م.

وهذا جدول يبين عدد، ونسبة المدارس والتلاميذ في مختلف المدارس الإسلامية في عام ١٩٤٥-١٩٤٦م.

المدرسة	عدد المدارس	الأولاد	البنات	المجموع
بساتين الأطفال	٤٦	٢٧٢٥	١١٤٨	٢٨٧٣
المدارس الابتدائية	١٣٥	٩٤٢٤	١٧٩٦	١١٢٢٠
المدارس الثانوية	٥	٣٥٥	-	٣٥٥[١]

أما المناهج، فهي تختلف باختلاف المؤسسات المشرفة عليها. فعلى سبيل المثال نجد أن المدارس الثانوية التابعة للمجلس الإسلامي الأعلى كالإبراهيمية، وروضة المعارف، ومدرسة النجاح، تتبنى مقررات المدارس الثانوية الحكومية، إلا أنها تعد تلاميذها لامتحان المترك الفلسطيني الذي يشرف عليه المجلس الأعلى للتعليم في فلسطين، أما المدارس في عكا، وحيفا، أعني مدارس المساجد، فإن هناك مدرساً يتولى تدريس المواد التي يراها مناسبة، كذلك مدرسة دار الأيتام بالقدس.

ودلت التقارير على قوة التعليم في المدارس الإسلامية ولاسيما المرحلة الابتدائية، وفيما يلي تقرير من المجلس الشرعي الإسلامي حول مستوى التعليم في المدارس الإسلامية: كان مستوى بعض مدارس الأوقاف مرتفعاً في عام ١٩٣٧م و ١٩٣٨م، حتى إن المستوى العلمي في صفوف مدرسة العلوم الإسلامية بيافا يفوق مستوى مدارس الحكومة، كما أن بعض متخرجي الصف السادس الابتدائي في دار العلوم، كانوا يتقدمون إلى امتحان دخول الصف الأول

(١) A.R 1944.1945 p.I

الثانوي ، أي أنه كان في إمكانهم (القفز) عن الصف السابع. وكان معظم المتفوقين في الصفوف الثانوية الأميرية من التلاميذ الذين أنهوا الدراسة في مدارس الأوقاف ، كدار العلوم والنهضة[(١)].

وتجمع الآراء على أن مدرسة النجاح ، وروضة المعارف ، والإبراهيمية ، كانت من أرقى المدارس ، وتضاهي المدارس المسيحية ، إذ تؤهل متخرجيها للدراسة في أي جامعة كانت في الشرق الأوسط ، أو أوروبا ، أو حتى في أمريكا.

ولكن المدارس الإسلامية في القرى كانت أقل من المدارس الإسلامية في المدن، حيث التركيز في القرى على المواد الدينية والقراءة والكتابة.

وعلى الرغم من التفاوت بين المدارس الإسلامية ، إلا أننا نجد عاملاً مشتركاً بينها. وهو التركيز على اللغة العربية في جميع المواد ، وجميع المراحل الدراسية ، وكذلك التركيز على المواد الدينية ، والأخلاق ، والتربية القومية.

* نفقات التعليم في هذه المدارس:

كانت المدارس الإسلامية تعتمد في نفقاتها على مصادر متعددة ، وغير ثابتة ، مما أدى إلى توقف العديد منها بسبب نقص الموارد المالية ، بعكس المدارس النصرانية ، والتي كانت الأموال تنهال عليها من كل جانب ، وكثيراً ما توقف البناء للتوسعة بسبب الظروف المادية ، أو نقص الكتب ، أو الخرائط ، أو أدوات المختبرات ، كل ذلك بسبب نقص الدخل لهذه المدارس ، وكانت أهم مصادر التمويل:

---

(١) Education in Palestine . p122 , see A.R: 1925 –P 6.See A.R

١- الرسوم المدرسية من الطلاب.

٢- الإعانات المالية من حكومة الانتداب ، والتي تكاد لا تذكر حيث خصص (٢٠٠) مليم للطالب الابتدائي ، و (٥٠٠) مليم للطالب الثانوي ، وهذه نسبة مخجلة حقاً إذا قورنت بالدعم للمدارس النصرانية من أوروبا وغيرها.

انظر إلى هذا الدعم الذي يكاد لا يذكر ، ففي عامي ١٩٢٢،١٩٢٣م كان الدعم (٣١٤) جنيهاً ، وفي عامي ١٩٢٤-١٩٢٥ كان الدعم (٣٩٩) جنيهاً ، كذا في عامي ١٩٢٦-١٩٢٧م كان الدعم (٤٥٥) جنيهاً ، وفي عام ١٩٤٤-١٩٤٥م كان الدعم (٧٧٧)[١] جنيهاً.

وكانت المدارس الإسلامية لا تستوعب سوى ١.٥٩٪ من الأطفال المسلمين الذين في سن التعليم بسبب قلة الدعم ، مما يعني حرمان ١٥٣٩٢٩ طفلاً في سن التعليم ، وهو ما يعادل نسبة ٩٨.٤٠٪ ، ولا شك أن هذه صورة سلبية ، وغير مرضية ، وهذا ما أدى إلى كثرة التساؤلات حول موقف المسلمين من تعليم أطفالهم ، وكالعادة يلقي البريطانيون اللوم على المسلمين في تقاعسهم ، وعدم التصرف جيداً في أموال الأوقاف ، ولكن هذه الاتهامات ليست إلا من باب العداء السياسي ، والعنصري للمسلمين ، هذا إضافة إلى سوء الظروف التي تمر بها البلاد ، مما انعكس ذلك على التعليم ، وخاصة الظروف الاقتصادية الصعبة ، والضرائب الباهظة على الفلاحين ، والتي وصبت إلى ٣٤٪ من محاصيلهم. فهل ينفقون على أنفسهم؟ أم يفتحون المدارس ويعلمون أبناءهم؟ وكل ذلك من

(١) القطشان ، عبدالله : التعليم في فلسطين ، ج٢ ، ص ١٣٠.

مظاهر سوء الحالة السياسية والاقتصادية في بلدنا فلسطين[١].

ونود أن نشير هنا إلى عملية تحديث دور الكتاتيب ، وإدخال التحديث عليها سواء في مجال البناء ، والإدارة والمناهج ، أو هيئات التدريس لتصبح مواكبة للعصر ، حتى غدت مدارس الكتاتيب في مستوى المدارس الرسمية ، وغدا كثير من المدارس الإسلامية أفضل من المدارس الحكومية ، أو مدارس الإرساليات التبشيرية ، ومنها مدرسة البنات الإسلامية بالقدس ، والتي تعد أكبر مدرسة للإناث تابعة للمجلس الإسلامي الأعلى ، ومن أرقى مدارس البنات في مدينة القدس ، فبلغ عدد التلميذات في المدرسة (٢٨٢) تلميذة. عام ١٩٢١-١٩٢٢م ، وكذلك المدرسة الإبراهيمية ، ويرجع الفضل في تأسيسها إلى الشيوخ: راشد القاسمي ، وعز الدين الشريف إبراهيم بدر. وكذلك كلية روضة المعارف الوطنية في مدينة القدس التي تأسست عام ١٩٠٦م ، وكانت من أشهر المدارس الإسلامية ، وكان عدد تلاميذها عام ١٩١٨م (٨٩) تلميذاً ، ليرتفع عام ١٩٣٨م إلى (٢٣٧) ، وكان متخرجوها يقبلون في سورية ولبنان ومصر وتركية.

وأود أن أثبت أن المدارس الإسلامية – ولله الحمد – خطت خطوات كبيرة للأمام ، حيث ضمت في صفوفها الدراسية ما تقدر نسبته ١٨٪ ، من بعد أن كانت النسبة ٢٪ في سنواتها الأولى.

بهذا العرض للتعليم الإسلامي يتضح لنا مدى مساعدة هذه المدارس في رفع مستوى التعليم العام بفلسطين ، وأستطيع القول بأن هذه المدارس كانت تمثل أحد التيارات الرئيسة في التعليم العربي بفلسطين ، ليس في مجال قبول التلاميذ ،

---

(١) القطشان ، عبدالله : التعليم في فلسطين ، ج٢. ص ١٣١.

وإنما من حيث المناهج ذات الطابع الديني والوطني بعكس الحال في المدارس الحكومية[١] .

هذا ، وإن قدرة المدارس الإسلامية على التكيف مع روح العصر أضفت عليها قدرة وتقدماً على كل الأصعدة ، مع أننا لا ننكر الجوانب السلبية ، والتي تعترض أية مدرسة مهما كانت ، فالكمال لله وحده.

ومن هذه السلبيات عدم التركيز على التعليم التجاري ، والزراعي والصناعي وكذلك التخطيط الجيد لأن تكون هذه المدارس تخضع لمناهج موحدة ، ولها القدرة على تكوين آلية تعليم إسلامي متميز ، ولكن كما قلنا: إن الظروف الاقتصادية والسياسية كانت تحول دون ذلك[٢] .

ولا ننسى ما للمدارس الإسلامية من توجبه الطلاب وتغذية الروح الوطنية لديهم ، والإقبال على الجهاد ضد المستعمرين ،والخروج في المظاهرات والمساهمة في الحركات السياسية والثورات الوطنية التي شهدتها بلادنا من عام ١٩٢٠- ١٩٤٨م[٣] .

وأشير هنا إلى الوضع المؤلم المتمثل بسيطرة الإنجليز على مدارس العرب فقط ، وإعطاء اليهود حصتهم من ميزانية المعارف نقداً ، وجعلهم مطلقي الحرية ، والإدارة في تنشئة أبنائهم ، ووضع التعليم الخاص بهم وفق آمالهم ، ولم يقف العرب صامتين ، بل طالبوا بإلحاح أن يعطوا نصيبهم في ميزانية المعارف بنسبتهم

---

(١) القطشان ، عبدالله : التعليم في فلسطين ، ج٢ ، ص ١٤٨ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٥١ .

(٣) الدباغ ، مصطفى : في بيت المقدس ، ج٢ ، ص٣١٩.

العددية ، وأن يتولوا هم أنفسهم إدارة مدارسهم وسياسة تهذيب ناشئتهم ، ولكن دون جدوى ، ولكن دون جدوى لأن القائمين على ذلك نصارى ، بل يعلمون لحساب جمعيات تبشيرية[١] .

وكانت دار الأيتام الإسلامية الصناعية ، والتي كان من أهدافها التي رمى إليها الحاج أمين الحسيني – رحمه الله – أن تجمع بين التعليم والتهذيب وبين اكتساب الصناعات. أما الأيتام فهم عندما يتخرجون بشهادات كاملة يصبحون أهلاً للعمل في البلاد ، كل حسب مهنته وصناعته وأقيمت هذه الدار الشامخة لتقابل دار الأيتام الألمانية، حيث كان من الصعب الوصول إليها، لما هنالك من أحاييل ، لأنها مؤسسة تبشيرية ، وتشرف عليها الإرساليات التبشيرية ، فكان مشروع دار الأيتام الإسلامية أول مشروع رأته فلسطين بإشراف الحاج أمين الحسيني ، ومجلسه الإسلامي الأعلى[٢] .

ومن أعظم مآثر هذا الشيخ الفاضل نجاحه في اقتلاع المؤتمر التبشيري عام ١٩٢٧م[٣]، وكثيراً من مذكراته منشور في مجلة « فلسطين » ، (٦٥ جزءاً) وآخر جزء صدر في تموز الأسبوع الأخير من وفاته عام ١٩٤٦م. فرحمة الله على الشيخ ، وجزاه الله عنا كل خير ، لما قام به من جهد عظيم في الدفاع عن الإسلام ، وحماية المسلمين من خطر المبشرين أولاً ، والصهاينة ثانياً.

ومن وسائل مقاومة الغزو – التي تشمل المباشرة ، وغير المباشرة ، المدرسية

---

(١) الكيالي ، عبدالوهاب : نقلاً عن وثائق المقاومة العربية الفلسطينية ضد الاحتلال البريطاني والصهيوني ، ص ٢٨٤ ، ٢٩٨.

(٢) نويهض ، عجاج : رجال من فلسطين ، ص ٣٤٠.

(٣) المرجع السابق نفسه ، ص ٣٨٣.

واللامدرسية ، الجماعية والفردية ، الداخلية والخارجية ، البشرية والمادية والتقليدية المستخدمة والدفاعية والهجومية ، بحيث لا نترك وسيلة من غير استثمارها ، ولا أداة دون توجيهها – السيطرة على التعليم ، وبغير ذلك يصبح ميدان المعركة في غير مصلحتنا ، ولا نقول نسيطر على التعليم ونترك الإعلام ، لأنه ينسف ما بنته المدرسة ، ولا أن نستثمر العمل في المساجد ، وننسى النوادي والجمعيات ، وأن نسير في اتجاهات معاكسة ، فنقصد أن تكون قطاعات الدولة المسلمة كافة في فلسطين ، تهب جميعها لمقاومة الغازي والمستعمر مبشراً كان أو جندياً ، أو طبيباً أو ممرضاً ، ويجب أن تتكامل الأدوار دون تصادم أو تعطيل ، فعلينا أن نحرص على التربية الإسلامية الصحيحة للجيل الناشئ.

*** دور الكتب :**

لقد ساعدت المكتبات الخاصة والعامة التي وجدت في مدن فلسطين المهمة ، مثل: القدس وعكا ويافا وغزة ونابلس وحيفا والخليل ، في اليقظة العامة في البلاد. فقلما خلا مسجد من مكتبة خاصة ، وكانت هذه المكتبات ، في المساجد والمدارس الإسلامية غنية بالكتب الدينية والمخطوطات القديمة ، فكان هناك العديد من المكتبات مثل: مكتبة المسجد الأقصى في القدس ، ومكتبة الحرم الإبراهيمي في الخليل ، ومكتبة جامع الجزار بعكا ، وهناك مكتبات خاصة: مثل المكتبة الخالدية(١) ، والتي كانت مفتوحة لمن يشاء ، والمكتبة الحنبلية ، ومكتبة البديري ، ومكتبة الشيخ الخليلي ، وكلها في القدس ، وخزانة المفتي في غزة، وهناك العديد من الخزانات المليئة بالكتب النفيسة ، كلها كان لها أعظم الأثر في

(١) المحافظة ، علي : الحركات الفكرية في عصر النهضة في فلسطين والأردن ، ص٥٥.

توجيه الناشئة إلى تراثهم، والحذر من الدعوات المغرضة، والهدامة ضد الإسلام، وتاريخه وماضيه العتيد من قبل المبشرين وغيرهم من الملحدين والشيوعيين.

وكذلك كان هناك العديد من الجمعيات والنوادي الأدبية/ مثل : الجمعية الإسلامية في حيفا برئاسة مفتيها محمد جرار عام ١٩١٨م ، وجمعية تهذيب الفتاة الإسلامية ، وكل هذه الجمعيات كانت تعمل على خط واحد ، وهو تربية الجيل ، وتهذيبه لمقاومة الغازي والمستعمر.

وحمل الإسلام عقيدة ، وشريعة ، وتعاملاً ، ومن المؤسسات التعليمية الشامخة: مدرسة « روضة المعارف الوطنية » في القدس التي أعاد تأسيسها المربي الفاضل الشيخ محمد الصالح[١] بعد الحرب العالمية الأولى ، وجعلها تستأنف الحياة واشترك معه رهط يشبه رهط مدرسة النجاح ، ولكنه اقل عدداً ، ورعي المجلس الإسلامي الأعلى مدرسة الروضة رعاية واسعة ، فكانت قافلتها وقافلة النجاح بنابلس جيلاً بعد جيل ، وتولي إدارة المدرسة مع الشيخ صالح ، عبد اللطيف الحسيني ، والشيخ حسن أبو السعود ، وهبت عليها الزعازع لما اضطربت فلسطين عام ١٩٣٧-١٩٣٨م ثم كانت الحرب العالمية الثانية فوقف دولابها ، ومكانها قرب الحرم الشريف على مرمى حجر من غرفة الإمام الغزالي ، وفي هذه الغرفة وضع الغزالي أهم كتبه إحياء علوم الدين[٢].

ومن معاقل العلم والمعرفة التي انطوى تحت لوائها العديد من أبناء الوطن

---

(١) الشيخ محمد الصالح : هو مدير كلية روضة المعارف الوطنية ، في القدس ومن رجال التربية المدرسية في فلسطين ، عجاج نويهص : رجال من فلسطين ، ص ٦٥.

(٢) نويهض، عجاج : رجالات من فلسطين، ص٦٥ .

الحبيب ، وكانت هي وروضة المعارف الوطنية معقلين كبيرين لاذ بهما شباب فلسطين من التغريب والتبشير ، مدرسة النجاح الوطنية بنابلس ، ومشت بشكل وئيد ، ثم تحولت إلى كلية ، وخرجت الأجيال الذين كانوا من عيون الشباب الوثاب[1] .

* * *

(١) المرجع السابق نفسه ، ص٦٤-٦٥ .

المبحث الرابع
دور المؤسسات الإعلامية

المؤسسات الإعلامية وإن لم تكن تتمتع بالكيفية والآلية المستخدمة في هذا العصر ، إلا أنه كان لها دور فعال في تنبيه وتنشيط العملية الإعلامية ضد المبشرين والغزاة والمستعمرين.

ففي أعقاب زيارة اللورد (أرثر جيمس بلفور) لفلسطين ، حيث قدم إلى القدس عام ١٩٢٥م للاشتراك في حقل افتتاح الجامعة العبرية ، وقوبل بالسخط والمظاهرات ، وأعلن المجلس الإسلامي يوم وصول بلفور إلى فلسطين يوم حداد وطني ، ودعا إلى الإضراب العام في جميع أنحاء فلسطين هذا وقد اتخذ المجلس الإسلامي الأعلى قراراً بإغلاق الأماكن المقدسة الإسلامية في وجه بلفور ، ونفذ المسلمون إضراباً ، رفعت فيه الرايات السوداء ، واجتمع أهل البلاد في الحرم الشريف ، وطلبوا إلى المندوب السامي إبلاغ بلفور مغادرة البلاد[١] .

نلاحظ هنا كيف تضافرت جهود المجلس الإسلامي الأعلى مع اللجنة التنفيذية في نشر الأخبار بسرعة ، وإعلان الإضراب ، وأن ذلك اليوم يوم أسود على فلسطين.

كما أن ثورة البراق عام ١٩٢٩م ، والتي نشبت بسبب أطماع الصهاينة الدنيئة في الأماكن المقدسة الإسلامية في القدس ، فقد عمت العالم الإسلامي موجه من

---

(١) الكيالي ، عبدالوهاب : تاريخ فلسطين الحديث ، ص ٣٢٣ ، ٣٢٤.

الاستياء والقلق على مصير المسجد الأقصى ، ومسجد الصخرة المشرفة ، فقام الزعيم الهندي المسلم (شوكت علي) يدعو إلى عقد مؤتمر إسلامي عام في القدس ، ولاقت الفكرة ترحيباً من مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني ، وشكلت لجنة لمتابعة ذلك صيانة للأقصى ، وللنظر في شؤون المسلمين جميعاً.

وعقد المؤتمر في القدس عام ١٩٣١م ، وبلغ عدد المندوبين الذين حضروه (١٤٥) مندوباً ، وكان هذا المؤتمر تظاهرة كبيرة لوحدة المسلمين وتضامنهم ، لها مغزاها ، إذ أقيمت في أرض فلسطين(١) وصدر عن المؤتمر عدة قرارات من أهمها:

استنكار السياسة الإنجليزية الاستعمارية ، والأطماع الصهيونية ، وإنشاء الجامعة الإسلامية باسم جامعة المسجد الأقصى، وتأسيس شركة زراعة إسلامية، ومقاطعة جميع المصنوعات اليهودية ، بوقف الهجرة اليهودية لأرض فلسطين. ولكن المؤتمر أخفق بسبب سياسة الإنجليز العدوانية ، ومقاومتها للجنة المؤتمر الساعية لتنفيذ بنود المؤتمر.

ومن ناحية أخرى: شنت المؤسسة الإسلامية – ممثلة بالمجمع الإسلامي – حملة قوية ضد بيع الأراضي لليهود ، كما وجهت الدعوة لعقد مؤتمر لعلماء فلسطين ، وإصدار فتوى بتحريم بيع الأراضي ، ووصف الباعة والسماسرة بالخيانة(٢) .

وفي ٢٥ كانون الثاني (يناير) عام ١٩٣٥م انعقد مؤتمر العلماء برئاسة مفتي فلسطين ، وحضره حوالي أربعمائة من القضاة الشرعيين ، ورجال الإفتاء وأئمة

---

(١) الكيالي ، عبدالوهاب : تاريخ فلسطين الحديث ، ص ٥٦٨ .

(٢) يهوشع ، يعقوب : تاريخ الصحافة العربية في فلسطين ، ص ١٢٢ .

المساجد وطالبوا حكومة الانتداب بوقف الهجرة اليهودية ، وبيع الأراضي.

وكل هذه الأسباب دعت الشيخ القسام إلى إعلان الثورة ضد الإنجليز ، وكان القسام رجلاً مؤمناً صادقاً ، وكان معقله الحي القديم بمدينة حيفا ، وبعد جهاد عنيف من البطل المجاهد دارت معركة في غابة (يعبد) في منطقة جنين ، وانتهت يوم ٢٥ نوفمبر تشرين الثاني ١٩٣٥م باستشهاد القائد وبعض رفاقه ، وأسر الباقون ليسجنوا ، ويعذبوا طويلاً في سجون الاستعمار.

وفي عام ١٩٢٧م انعقد في جبل الطور في القدس مؤتمر المبشرين الإنجليز ، وهم خبثاء الطوية والنية ، وهم يمتهنون التبشير تمهيداً لخطط الاستعمار ، ويتخذون من الدعوة التبشيرية أحابيل إلى مجاري السياسة الاستعمارية ، عقد هذا المؤتمر ، وكانت مقاصده وغاياته قد كشفت عنها الصحف ، فهب أهل فلسطين ، والمسيحيون منهم قبل المسلمين ، يستنكرون مقررات هذا المؤتمر ، وفيها حسب خطة الداعية الأكبر (زويمر) غزو المدينة المنورة في الحجاز بالوسائل الحديثة ، وهاجت البلاد هياجاً عنيفاً ، واضطرب حبل الأمن فاضطرت الحكومة بقيادة المندوب السامي الفيلد مارشال (بلومر) إلى إنهاء عمل المؤتمر ، ومطالبته بمغادرة البلاد ، فغادرها ليلاً خائفاً مترقباً[1] .

ومن الوسائل الإعلامية التي قاومت التبشير جريدة (الجامعة الإسلامية) في يافا ، وعاشت هذه الجريدة بضع سنين ، ويرجع الفضل في تأسيس هذه الجريدة للشيخ سليمان التاجي الفاروقي وهو ضرير عاش في الرملة ، ودرس في الأزهر ، والآستانة ، وكان شاعراً فحلا خطيباً مفوها ، وكان يتعمم ، ويلبس العباءة ،

---

(١) نويهض ، عجاج : رجالات من فلسطين ، ص ٨٣.

ويحمل العصا، توفي عام ١٩٥٦م بأريحا، ودفن فيها.

ومن خلال مجلتي (الزهراء الشهرية) و (الفتح)[١] الأسبوعية لصديقه العلامة محب الدين الخطيب[٢] في مصر كان ينشر خليل الخالدي رحمه الله أبحاثه، وكان رئيس محكمة الاستئناف الشرعية في القدس، وتوفي الشيخ في القاهرة أوائل الحرب العالمية الثانية.

ومن خلال المدرسة الإسلامية في جامع الجزار كان الشيخ عبد الله الجزار رحمه الله يتولى تخريج الطلاب منها على طريقته في التعليم والتنشئة، وكان الشيخ مفتي عكا في العهد العثماني، وظل على هذا الحال طيلة زمن الانتداب، وجعله المجلس الإسلامي الأعلى قاضي عكا الشرعي، حيث قاوم المدارس التبشيرية من خلال مدرسته الإسلامية في الجامع نفسه لحماية الأطفال من خطر مدارس الإرساليات التبشيرية[٣].

ومن خلال الكلية الإسلامية التي يشرف عليها الإسلامي الأعلى، كان مديرها الشيخ رفيق التميمي، والذي اشتهر بكتاباته التاريخية والإسلامية، فكان له وللكلية دور بارز في توجيه الطلاب، وإرشادهم، وكانت الكلية بمثابة

---

(١) نويهض، عجاج: رجالات من فلسطين، ص ١٩.

(٢) محب الدين الخطيب: من كبار الكتاب الإسلاميين، شارك بإنشاء جمعية (النهضة العربية) وعمل في تحرير (المؤيد) اعتقله الإنجليز سبعة أشهر. وحكم عليه الأتراك بالإعدام غيابياً. وعمل محرراً في الأهرام وأصدر مجلتيه الزهراء والفتح وكان من أوائل مؤسسي جمعية الشبان المسلمين وأنشأ المطبعة السلفية ومكتبتها. من مؤلفاته ذكرى موقعة حطين و الأزهر و الرعيل الأول في الإسلام توفي سنة (١٩٦٩م) الأعلام (٢٢).

(٣) نويهض، عجاج: رجالات من فلسطين، ص ٣٥.

الحصن الحصين لكثير من أبناء المسلمين ، والذين لولا الله ثم هذه الكلية ، لانضموا إلى مدارس الإرساليات، فتأسيس هذه الكلية عمل رائع وإنجاز عظيم.

ومن خلال المسجد الأقصى ومن على منابره ، كان الشيخ سعد الدين الخطيب الجماعيلي أحد خطباء المسجد الأقصى لمدة لا تقل عن عشر سنين ، وكان متجدد الأسلوب ، يحاول في خطبة أن يعالج الموضوعات الاجتماعية التي عمت بها البلوي ، توفي عام ١٩٣٦م ، وكان له دور بارز في إظهار خطر الغزاة ، والتخدير منهم ، وكثيراً ما ينبه إلى خطر الأجانب ، ومدارسهم وكلياتهم ، وكل ذلك في مجال التوعية العامة للمسلمين ، ونحن نعلم ما للأقصى من مكانة في قلوب المسلمين ، وبالأخص من يوجد في فلسطين منهم ، تلك الأرض التي بارك الله فيها ، وفيما حولها[١] .

ومن الكلية الصلاحية إلى كلية المعارف ، حيث الشيخ حسن أبو السعود مفتي القدس على المذهب الشافعي ، والذي كان موظفاً في القضاء الشرعي ، ثم عمل مفتشاً للمحاكم الشرعية في فلسطين ، وهو عالم شرعي متمكن ،وخطيب ، ومتكلم دافع عن الإسلام وحارب الأفكار من تبشير ، وصوفية وبهائية توفي عام ١٩٥٧م – رحمه الله – وهو من المناضلين حقاً في سبيل الإسلام[٢] .

ومن العلماء الذين لهم دور كبير في نشر الوعي الديني والتوجيه التربوي الشيخ خليل الخالدي ، عرفته مدينة القدس وقد بلغ الذروة في علمه وفضله ، وكان رئيس محكمة الاستئناف الشرعية ، هادىء المجلس ، حلو الحديث ، علامة في

---

(١) نويهض ، عجاج : رجالات من فلسطين ، ص ٤٤.

(٢) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٧.

علم المخطوطات الإسلامية، واسع الاطلاع، وزار الأندلس مرتين، وكان شديد الحرص على نشر الدعوة، وقول الحق، ودارة قرب الحرم الشريف في القدس، ينشر أبحاثه في مجلة (الزهراء) و (الفتح) في مصر، وكان صديقاً للعلامة الشيخ (محب الدين الخطيب) صاحب كتاب الغارة على العالم الإسلامي، توفي الشيخ في القاهرة أوائل الحرب العالمية الثانية، والشيخ قدورة مفتي صفد، وكبير علمائها، والقاضي الشرعي في شمالي فلسطين، والمساهم في الحركة الوطنية دون انقطاع، والمتوفى في دمشق عام ١٩٥٩م، حيث أنشأ مدرسة وطنية، وعني بها لتعليم العربية، وكان مقاوماً لنشاط اليهود في شراء الأراضي مقاومة عنيفة، وشهد الكثير من المؤتمرات الوطنية الإسلامية، وكان ينادي بها ينادي به المجلس الإسلامي. والشيخ (موسى البديري) تولى القضاء الشرعي في القدس، في عهد (المجلس الإسلامي الأعلى) خلال الانتداب مدة طويلة، عمل أستاذاً وخبيراً في التربية والتعليم، وكان على مقدار من الجمود في مسألة تعليم المرأة، ومع ذلك له دور كبير في الدعوة وتنوير بصائر الجيل من الأخطار المحدقة بالأمة الإسلامية. والشيخ (حسام الدين) جار الله (هو في القدس من أعلامها، كالبديري، والخالدي والعوري، درس في الأزهر وعمل قاضياً شرعياً ومفتياً للمحاكم الشرعية، وانتدب ليعمل قاضي قضاة بالأردن، ولا ننس المحاكم الشرعية حيث كان لها دور كبير في مقاومة المبشرين وتنبيه الناس لخطرهم، فكانت المحاكم تعتبر الجهة الشرعية المدافعة عن الإسلام ضد الغزاة المستعمرين وأعوانهم من المبشرين[1] والشيخ عبد الله الجزار، مفتي عكا من العهد العثماني، ظل في الإفتاء

---

(١) نويهض، عجاج: رجالات من فلسطين، ص ٢٧.

من الانتداب حتى آخر حياته ، وجعله المجلس الإسلامي الأعلى قاضياً على عكا أيضاً ، كان وعاء من أوعية العلم على طراز الشيخ سعودي العوري ، والشيخ البديري ، أنشأ مدرسة إسلامية وكان له فضل كبير في مقاومة المبشرين والرد على من يقف في وجه الإسلام[1] .

وكان أول ما اتجه إليه العلماء هو : الدعوة إلى تنوير الجماهير ، وتزويدها بالمعرفة الصحيحة فالجهل أساس كل[2] ما عانته الأمة ، وما زالت تعيشه من كوارث ، ومن خلال هذه الدعوة بدأ التوسع في إنشاء المنابر لمخاطبة الجماهير ، ونشر الصحف ، والمجلات إضافة إلى المسرح. كما اتجهوا إلى تبسيط اللغة ، وتطويع مفرداتها لمتطلبات العصر ، وتيسير مسالك قواعدها أمام الدارسين ، وكانت الدعوة إلى الوحدة الوطنية مظهراً آخر من مظاهر الرد على دعوات التفتيت الطائفي والإقليمي ، التي ما زال المبشرون يسعون إليها ، وهذا تحد لما كان المستعمر يبشر به في كل مناسبة من الفروق المذهبية.

أما المظهر الأساسي من مظاهر التحدي ، فكان التوجه إلى الإصلاح ، والقول بضرورة التقدم ، ونلاحظ في ذلك تياراً من الإصلاح وقف في الوقت نفسه وقفة شديدة ضد الغرب الذي لم يحمل إلى العرب غير العبودية ، والانهيار الخلقي ، والتفريغ الثقافي ، لإضرار بلادنا فالوضع الاستعماري علاوة على أنه يصير الإنسان غريباً عن شخصه ، فهو يجعله حاقداً على نفسه ، بل خجلاً منها ، فبعد أن نزع مني اسمه ، وسلب مني ماضيه وذاكرته أراد أن يستبدل ذلك كله بثقافته

---

(١) الكرمي ، عبد الكريم : سعيد الكرمي ، ص ٢.

(٢) نويهض عجاج ، رجالات من فلسطين ، ص ٢٠٢.

القومية والعنصرية[١] .

وبالإضافة إلى التجهيل الجماعي لشعبنا ، وملء الرؤوس بالمفاهيم الاستعمارية المضللة ، كان الاستعمار دائم الإصرار على أن يفرض صورته (صورة المتفوق العملاق ذي الجبروت) فكان التخطيط يجري لحرق مسيرة الشعب المسلم ، وتحويلها لتصب في مجرى الثقافة الغربية بريطانية كانت أو فرنسية أو حتى ألمانية وفي ذلك الوقت كانت تنشط جحافل المبشرين ، وقد يسرت أمامها كل السبل ، لكي تنقذنا من أنفسنا ومن قناعتنا الدينية والحياتية ، أما نشاط هؤلاء المبشرين واهتمامهم وسياستهم فبينما كان يوفر لكل المبشرين كل الأسباب من فتح المدارس والمصحات ، والمستشفيات ، كان الدين الإسلامي يحارب بشتى الوسائل ، حيث إن تفتيت الدين إلى طوائف متشاحنة متضاربة من البدعة والطائفية وما شابهها ، يؤدي للاستعمار الدور نفسه الذي تؤديه التفرقة بين الأمة الواحدة على أساس مذهبي ، بل إن هذه التفرقة المذهبية ، كانت تقدم للاستعمار أكثر ما تقدمه الجيوش الغازية بأكملها.

نلاحظ هنا مدى الأخطار المحدقة التي تتعرض لها الأمة من الغازي نفسه ، أو من التفرقة المذهبية ، وأصحاب الطرق الصوفية من ناحية أخرى ، فإن انتباه علماء الدين الإسلامي لمثل هذا الخطر وتنبيه الناس إليه ، له أثر عظيم ، فكان دور العلماء كبير في تنمية الغافلين ، وذلك بفتح المدارس ، وإقامة المهرجانات الدينية التي توقظ الحس الديني عند العامة.

---

(١) عماد ، حاتم : الغزو الثقافي الغربي ، ص ٦٤-٦٥.

*** المؤتمر الإسلامي العالمي في القدس أواخر سنة ١٩٣٠م:**

دعا إلى عقده في القدس الحاج أمين الحسيني بصفته رئيس المجلس الإسلامي الأعلى ومفتي فلسطين – رحمه الله – فانعقد هذا المؤتمر سنة ١٩٣١م (١٣٥٠هـ) ومن الدواعي لعقد هذا المؤتمر في القدس اطراد استفحال الخطر الصهيوني الناشبة مخالبه بفلسطين ، بل هذا هو السبب الأهم ، وعنه تنحدر الأسباب الأخرى ، وكانت فلسطين بعد مضي (١٢) سنة على أخذها بسياسة التهويد البريطانية ، وانتشار بيع الأراضي بمغريات وضغوطات معينة ، وبعد الثورات العديدة بين ١٩٢٠ - ١٩٢٠م[1] وثورة البراق ١٩٢٩م ، قد ثقل عليها العبء ، وصار في البلاد من لا أرض له وشاعت بطالة العامل العربي المسلم ، وافتتح المؤتمر في المسجد الأقصى المبارك ليلة (الإسراء والمعارج) المباركة ، وكان من أبرز نتائجه.

١- صيانة مكان البراق الشريف من العدوان اليهودي.

٢- إنشاء جامعة في القدس تسمى جامعة المسجد الأقصى.

٣- تخليص سكة حديد الحجاز (وهي وقف إسلامي) من السيطرة الأجنبية الفرنسية البريطانية في سورية ، والأردن ، وفلسطين.

٤- شكر العرب النصارى الذين لهم إسهام في الوقوف مع المسلمين ضد الإرساليات التبشيرية ، وكذلك ضد بريطانيا وفرنسا المستعمرات ، وضد اليهود الغاصبين.

ونجح الحاج أمين الحسيني في اقتلاع المؤتمر التبشيري سنة ١٩٢٧م ، والتنديد

---

(١) الدباغ ، مصطفى ، بلادنا فلسطين ، ج١ ، ق٢ ص ٢٧٠.

به ، والتحذير من مؤتمرات مماثلة[١] .

* بروز الوعي الإسلامي بفلسطين :

لقد برز الوعي الإسلامي بفلسطين في نطاق الحركة الإسلامية التي تبلورت في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، أي مع نشوء المنظمة الصهيونية العالمية.

وكانت الحركة الإسلامية تهدف إلى قيام حركة إسلامية بفلسطين تهدف إلى إحياء التراث الإسلامي ، وإعادة أمجاد الأمة الإسلامية إلى الأذهان ، وبالتالي إلى إبراز حركة تظهر الحضارة الإسلامي على الحضارة الغربية ، حيث كان المبشرون ينادون بالحضارة الغربية ، وتفوقها وضرورة الأخذ بها ، وانخدع بذلك نفر كثير من أبناء المسلمين.

* إكمال بروز الوعي الإسلامي:

وقد تبلورت هذه اليقظة شيئاً فشيئاً إثر ابتعاث كثير من الطلاب إلى الأزهر الشريف ، والاحتكاك بالعلماء ، ومشايخ الأزهر ، حيث كانت المطابع ، والمجلات والجرائد والمدارس تنشر أكثر هناك ، وقد أسفرت هذه العوامل عن ظهور جماعة من المفكرين الإسلاميين الذين اسند إليهم الدور في الرد على المبشرين من ناحية ، وإظهار الخطر الصهيوني من ناحية أخرى ، وتحذير المسلمين من بيع الأراضي ، وأن ذلك خيانة عظمى[٢] .

---

(١) نويهض ، عجاج : رجال من فلسطين ، ص ٣٨٢.

(٢) المحجوب ، على : جذور الاستعمار الصهيوني بفلسطين ، ص ٦٦ .

وكان من أبرز العلماء: الشيخ الحاج أمين الحسيني، وحسام الدين أبو السعود، حسام الجار الله ، حسن أبو السعود ، والشيخ خليل الخالدي ، والشيخ سعود العوري ، وأمين العوري وعبد الله الجزار ، والشيخ سليم أبو الإقبال اليعقوبي وكثير غيرهم[١] .

فكان هناك وعي إسلامي ، ونزعة دينية مستقلة عن الفكر الغربي في صفوف المسلمين ضد المستعمرين والمبشرين ، ولم تكن هذه المقاومة في البداية منظمة ، وكانت بشكل فردي ، ثم أصبحت منظمة في مواجهة المستعمرات الصهيونية ١٨٨٦م ثم سنة ١٨٩٢م ثم اتسعت المقاومة في تكثيف الجهود في بيان الخطرين المحدقين بالأمة الإسلامية، كما برزت في هذه الفترة معارضة الهجرة والاستيطان، ونشر ذلك في جريدة الكرمل بمدينة حيفا ١٩٠٩م قصد منها تحسيس الرأي العام الفلسطيني بخطورة هجرة اليهود ، والتحذير كما قلنا من بيع الأراضي لهم ، أو حتى رهنها لدى إحدى البنوك ، كما نددت بمقاطعة البضائع اليهودية ، وعقد أكثر من مؤتمر إسلامي ما بين ١٩٢٢م إلى سنة ١٩٢٩م ولكن في جملتها كانت ضعيفة نظراً لقوة الغازي المستعمر والذي كان يشل عمل الحركة الإسلامية في تلك الفترة[٢] .

هذا وقد ازداد الوضع توتراً بفلسطين في الثلاثينات ، إذ بلغت تناقضات الشعب الفلسطيني مع البريطانيين والصهاينة درجة من الحدة ، أسفرت عن انفجار عارم انطلق من مدينة نابلس في منتصف إبريل ١٩٣٦م ، فعرفت البلاد

(١) المحجوب ، علي : جذور الاستعمار الصهيوني بفلسطين ص ٦٧ .

(٢) المرجع السابق نفسه ، ص ٦٨ .

إضرابات عامة ، وقامت المظاهرات في العديد من المدن ، وامتنع السكان من دفع الضرائب لسلطات الانتداب ، ثم اشتدت شيئاً فشيئاً حتى تحولت إلى صدامات مسلحة استمرت زهاء السنتين ، وساهم فيها أبناء الحركة الإسلامية إضافة إلى من قدموا من البلدان العربية المجاورة ، ونال الكثير منهم الشهادة على ثرى فلسطين الظاهر وتوقفت الثورة بعد التقسيم وقيام دولة العدو الصهيوني وفرض سياسة الأمر الواقع وتشريد الكثير من أبناء المسلمين من ديارهم.

*** الفتوى بشأن بيوع الأراضي والسمسرة الصادرة عن المؤتمر الأول لعلماء الدين بفلسطين ١٩٣٥م :**

«كل سمسار كافر ومرتد عن دين الإسلام »

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد ، فإننا نحن المفتين ، والقضاة والمدرسين والخطباء والأئمة والوعاظ وسائر المسلمين ورجال الدين في فلسطين ، المجتمعين اليوم في الاجتماع الديني المنعقد في بيت المقدس بالمسجد الأقصى المبارك حوله ، بعد البحث والنظر فيما ينشأ عن بيع الأراضي في فلسطين لليهود من تحقيق المقاصد الصهيونية في تهويد هذه البلاد الإسلامية المقدسة، وإخراجها من أيدي أهلها ، وإجلائهم عنها ، وتعقبه أثر الإسلام منها بخراب المساجد والمعابد والمقدسات الإسلامية كما وقع في القرى التي تم بيعها لليهود ، وإخراج أهلها متشردين في الأرض ، وكما يخشى أن يقع – لا سمح الله – في أول القبلتين ، وثالث المسجدين المسجد الأقصى

المبارك.

* السمسار وبائع الأرض في حكم الشرع الشريف :

وبعد النظر في الفتاوى التي أصدرها المفتون ، وعلماء المسلمين في العراق ، ومصر والهند والمغرب وسورية وفلسطين والأقطار الإسلامية الأخرى ، والتي أجمعت على تحريم بيع الأرض في فلسطين لليهود وتحريم السمسرة على هذا البيع، والتوسط فيه ، وتسهيل أمره بأي شكل وصورة وتحريم الرضا بذلك كله ، والسكوت عنه ، وأن ذلك كله أصبح بالنسبة لكل فلسطين صادراً من عالم بنتيجة راض بها ، ولذلك فهو يستلزم الكفر والارتداد عن دين الإسلام ، باعتقاد حله كما جاء في فتوى سماحة السيد محمد أمين الحسيني مفتي القدس ، ورئيس المجلس الإسلامي[1] .

* جهود العلماء في إصلاح المجتمع:

يمكننا أن نجمل مشروع الإصلاح الاجتماعي في النقاط التالية:

١- إثبات الفروق بين المجتمع الفلسطيني المسلم والمجتمع الأوروبي من خلال رصد الفروق التاريخية والاجتماعية بين المجتمع الأوروبي ، ومن ثم لا يكون الإصلاح في أي مجال من مجالات الحياة بالاتجاه إلى الغرب بل الرجوع إلى أصول أنظمتها الإسلامية.

فهناك فروق مادية ومعنوية تحول دون الاقتباس المطلق الذي نادى به المبشرون. ومن ثم نادى العلماء المسلمون وجوب حماية العادات الإسلامية في

---

(١) الحوت ، بيان : القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧ ، ١٩٤٨ ، ص ١٤٥ .

المجتمع الفلسطيني المسلم[١] .

٢- إصلاح المدارس وفتح مؤسسات تعليمية في أرجاء الوطن كافة:

حرص العلماء على إعداد برامج تعليمية للمستويات كافة من المدارس الأولى وحتى المدارس العليا ، لإحياء التعاليم الإسلامية ، وقاموا بكتابة العديد من الأعمال والمؤلفات الشرعية لتوضيح كل الأسس الإسلامية ، ويشير العلماء إلى أن التعليم هو السبيل الوحيد لتطوير المجتمعات[٢] .

٣- ضرورة البعد عن التغريب وإنقاذ المجتمع من آثاره:

يرى العلماء ضرورة الانتباه بعدم الإقبال على مدنية الغرب ، لأن ، في ذلك تقهقراً وانهزاماً ، ولقد اهتم العلماء بمناشدة الوعاظ ، وخطباء المساجد لنصح الشباب لمراعاة التقاليد الإسلامية ، والحرص على اتباعها.

كل ذلك والغزو الفكري يحاول دائماً أن يزاحم المسلمين في بلادهم ، وأن يشوش عليهم دينهم والمعركة معركة فكر ، وجبهة الصراع الجديد هي عقول أبناء هذه الأمة ومشاعرهم. تلك التي يحاول هذا الغزو أن يغرس فيها بذوره ، ويعرض بضاعته ، لذا فإن جهاد المسلمين لهذا الغزو كان لابد أن يعتمد على سلاح من نوع سلاحه.

*** دور الصحافة في التوعية الفكرية:**

لقد ترتب على دخول المطبعة الحديثة لبلاد الشام أن رافقها نهضة صحفية

---

(١) مخلوف ، ماجدة، صلاح : معروضات أحمد جودت باشا ، ص ٨٧.

(٢) البستناوي ، وفاء : فكرة الإصلاح في مذكرات جودت باشا ، ح/ ٣ ، ص ١٨-١٩.

واسعة ، شملت بلاد الشام بأكملها لتقوم بالدور الرئيس في توعية الجماهير العربية فكرياً ، وثقافياً. وجاءت هذه النهضة الصحفية مع بوادر تكوين الطبقة المثقفة ، وقامت هذه النهضة الصحفية بالدور كاملاً في مجال النشاط الصحفي فتجاوز بعضها المجالات الثقافة إلى مجال التوعية وإيقاظ الشعور الإسلامي ، وعدت هذه الصحف التاريخ العثماني تتمة للتاريخ الإسلامي ، ونشطت الصحف الفلسطينية وهي : القدس والنفير ، والكرمل وفلسطين. وأخذت على عاتقها مقاومة الخطط الصهيونية وقد بلغ مجموع هذه الصحف حوالي (٥٠) صحيفة[١] .

ويلاحظ على هذه الصحف ما يلي:

١- انتشرت بأعداد كثيرة ومتنوعة ، وذلك لغياب وسائل الإعلام المعاصرة ، كالإذاعة والتلفزيون.

٢- انتشار المعرفة في شتى الميادين من خلال الصحافة.

٣- كانت الصحافة أحد عوامل الوعي الجماهيري ، وأن سكان فلسطين أحسوا بالخطر الحقيقي الذي يتهددهم من وراء الهجرة اليهودية.

واصلت الصحف العربية حملاتها على الذين يبيعون أراضيهم للمهاجرين الصهاينة ، ففي شهر أيار (مايو) ١٩١٠م هاجمت الصحف العربية آل سرسق لاعتزامهم بيع الأراضي في قريتي (فولة) و (عفولة) لليهود ، وكانت صحيفة المقتبس الدمشقية ، وصحف (المفيد) و (الحقيقة) والرأي العام البيروتية تصدر في

---

(١) ياغي ، عبد الرحمن : حياة الأدب الفلسطيني الحديث ، ص ٣١٩.

ذلك الوقت ، كما كونت جميع الصحف جبهة واحدة ضد الصهيونية[١] .

وكانت هذه الصحف تشير إلى التحالف الغربي الصهيوني ضد فلسطين المسلمة ، ولقد تناولت صحف فلسطين هذا الخطر بالتنديد ، ودحض الأفكار المعادية ، ولم تقتصر حملة الصحافة في فلسطين على التنبيه للخطر الصهيوني أو مقاومة بيع الأراضي بل عملت على توعية أهل البلاد من الخطرين العظيمين ، الفكر الأوروبي ، والصهيوني ، ومحاربتهما بالسلاح نفسه الذي تحاربنا به هذه القوى الشريرة. ومن هذه الصحف (المنادي) لصاحبها سعيد جار الله ، إضافة إلى صحيفة (الكرمل) وكشفت هذه الصحف النقاب عن أن حكومة الانتداب تتخذ الإجراء تلو الآخر ضد الشعب المسلم في فلسطين ، وثم تدعوهم إلى التحرك ، وتنظيم أنفسهم ، والاعتماد عليها وحدها بعد الله عز وجل[٢] .

* مناهج التعليم:

كان لسياسة البطش التي اتبعتها حكومة الانتداب في التعليم أن عينت أناساً غير أكفاء تربوياً وعلمياً في الجهاز التعليمي ،وزج من تبقى من المعلمين الأكفاء في السجون والمعتقلات وفرضت الإقامة الجبرية على القياديين ، وفصل الكثير من مدارسهم قسراً ، وتعسفاً ، هذا بالنسبة للمعلمين ، أما المناهج فكان ميل واضح للتهرب من تدريس التاريخ العربي الإسلامي ، بسبب ماله من أهمية في يقظة الوعي لدى الطلبة ، إذ لم يرد في الصفين السابع والثامن ولا فصل واحد عن التاريخ الإسلامي وإنما دمجت ضمن موضوعات أخرى ، والإيحاء للطلاب أنهم

(١) خيرية ، قاسمية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨ ، ١٩١٨ ، ص ٧٢.

(٢) الكيالي ، عبد الوهاب : تاريخ فلسطين الحديث ، ص ٧٦.

ينتمون لأمة متخلفة حضارياً ، وثقافياً ، وتشويه صورة العالم الإسلامي في وجه الطفل المسلم من خلال كتب التاريخ والجغرافيا[1] .

ونتيجة لهذه الصعوبات والمشكلات والعقبات التي وضعتها حكومة الانتداب بالتعاون مع المبشرين أمام العملية التربوية حسب معايير وزارة المعارف والثقافة ، كان لابد من التصدي لها ، وتجسيد فكرة إقامة روابط ولجان عربية في فلسطين للتصدي لهذا الخطر والتغلب على كل مسبباته ، وأخذت الجماهير بالاحتجاج والمطالبة المستمرة لوضع حد لأوضاع التعليم المتردية الناجمة عن الإجراءات العنصرية المتواصلة في حين كانت المدارس اليهودية بازدياد وقد ترك لها الحرية في وضع مناهجها.

*** الندوات والاجتماعات:**

فهي تتيح فرصة للمناقشة والحوار لاكتشاف المعلومات وإبداء المقترحات ، وللندوة والمحاضرة خصائص لا تتوافر في غيرها من وسائل مقاومة الغزاة، وعلى رأسهم المبشرين.

وهذه الندوات والمحاضرات ترفع من مستوى الداعي والمقاوم ، لأن العاملين في مقاومة الغزو الفكري يختلفون قليلاً عن غيرهم ، فالعامل هنا يواجه سموماً سبق نفثها ، وعقولاً سبق تلويثها ، ويريد أن يتحدى إمكانات سبق تدبيرها ، وقيادات سبق تدريبها ، لهذا ينبغي أن يدخل هذا الداعية المعركة مزوداً بكل سلاح ، ومعداً بكل إتقان ، لأنه سيواجه فئة من متخرجي أو طلاب الجامعة

---

(١) ماثيو وعقراوي ، التعليم في الأقطار العربية في الشرق الأدنى ، ص ٢٤٢.

الأمريكية في بيروت ، أو استانبول – مثلاً – لذلك لابد من التزود بإمكانات وطاقات والتدريب على فاعليات وتقنيات ، ومكتسباً هذا الداعي مهارات تناسب التحدي ، وتتجاوز صعابه[1] ؛ لهذا كان لابد من الإعداد الجيد ، من هنا بدأ العلماء والمشايخ في فتح معاهد إسلامية ، ومدارس إسلامية ، ودور حضانة ، تقابل تلك التي فتحها المبشرون ، كذلك العمل على ابتعاث الطلاب للخارج وكذلك عدم إهمال دور المسجد ، بل لابد من توسيع رسالته ، ليصبح مكاناً للتربية الروحية الشاملة خاصة بين الشباب ، لذلك فتحت مدارس شرعية في القدس ، والخليل وجنين ونابلس[2] .

*** دور المؤسسات الوطنية والخيرية :**

في منتصف عام ١٩١٤م تأسست في فلسطين مؤسسات وطنية وخيرية في القدس بقصد (الوقوف في وجه الأخطار الوشيكة التي تهدد أرض فلسطين وإنقاذ البلاد من الدمار).

*** والمؤسسات هي :**

الجمعية الخيرية الإسلامية ، جمعية الإخاء والعفاف ، شركة الاقتصاد الفلسطيني ، شركة التجارة الوطنية ، وكانت جميعها تنادي بالتوعية الوطنية ، ونشر التعليم ومساندة الصناعات الوطنية ، كما أسس الطلبة الفلسطينيون بالأزهر الشريف (جمعية مقاومة الصهيونية) وأسس طلبة نابلس في بيروت جمعية

---

(١) محمد ، إبراهيم/ نصر : الإعلام وأثره في نشر القيم الإسلامية ، وحمايتها ، ص ٦٠ .

(٢) محمد ، إبراهيم ،صر : الإعلام وأثره في نشر القيم الإسلامية وحمايتها ، ص ٦٠-٦٢ .

مماثلة وجمعية (المنتدى الأدبي) في حيفا، ثم أسست جمعية الإحسان العام[1] .

ولا شك أن الحملات والنشاطات التي قام بها الفلسطينيون كانت تستهدف تهيئة البلاد ضد الخطر الصهيوني من جهة والمؤسسات التبشيرية النصرانية بمساعدة بريطانيا من جهة أخرى.

* * *

(١) الكيالي، عبد الوهاب : تاريخ فلسطين الحديث، ص ٧٤-٨٥.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فإن العالم الإسلامي واجه العديد من التحديات في القرن التاسع عشر ، والتبشير هو أحد تلك التحديات.

إن التبشير مؤسسة من مؤسسات الغزو الفكري الغربي الموجهة للعالم الإسلامي ، هذه المؤسسة سلكت طريقين لإخراج المسلمين من ملتهم الأولى: إضعاف العقيدة في نفوس المسلمين ، والثانية: العمل على تقبل نمط الحياة الغربية بكل ما فيها من سلبيات تتنافى وروح الإسلام ومبادئه.

وتكمن خطورة التبشير في ارتدائه ثوب الدين في الظاهر – حيث يدعون المبشرون إلى دين عيسى عليه السلام – ولكن على أرض الواقع ، فإن التبشير حركة سياسية ، تعمل على تسهيل الغزو الفكري والحضاري الغربي للبلاد الإسلامية ، وصولاً لاستعمار تلك البلاد ، وكثيراً ما مارست المؤسسات مهمتها باسم العلم والإنسانية.

لقد استخدم التبشير كل الوسائل الممكنة لتحقيق أهدافه الاستعمارية ، منطلقاً من حاجات الناس في المجالات كافة ، ومستثمراً بلؤم ودهاء تلك الحاجات لاستقطاب أكبر عدد من المسلمين لصالحه ، فاقتحم كل الميادين الحياتية المهمة ، فأنشأ المدارس والجامعات والعيادات الطبية ، والمستشفيات ، وأسس التبشير أيضاً النوادي ، وبيوت الطلبة ، وأقام المخيمات الكشفية ، وأسس الجمعيات الخيرية ، واستخدم البر والإحسان ، ومارس العطف على المستحقين ، وقدم

الإعانة للمحتاجين ، وقام على رعاية ذوي الحاجات الخاصة ، كما استخدم وسائل الإعلام المتوافرة لنشر آرائه في أوساط الناس ، كل ذلك بهدف الوصول إلى مرامه الاستعماري.

لم يتوقف المبشرون عند فترة زمنية في تبشيرهم ، بل ما زالت عجلتهم تدور ، ونحن نعلم ذلك جيداً ، ونستمع حتى اليوم إلى إذاعاتهم المنتشرة بين مضاربنا وعلى أرضنا ، وما قضية العولمة التي نعيشها هذه الأيام إلا صورة ذكية من صور التبشير ، وتجد أرضاً خصبة لدينا لنموها ، والتصفيق لها ، فهناك عدد لا بأس به من كتابنا ، ومثقفينا يؤيدون العولمة وينادون لها. كل هذا مرام للتبشير ، والهدف هو الإسلام والمسلمين.

لقد نال المبشرون منا ، وآلمونا ، فهذه فلسطين ثمرة من ثمار تبشيرهم الاستعماري ، ما زالت مشكلة معضلة ، وهذا الإسلام يحارب في عقر داره ، وهاهم المسلمون في أسوأ حالة يمكن أن نتصورهما ، فما الحل إذاً؟! نحن نعلم أن المبشرين يشكلون خطراً يداهمنا ، فماذا علينا أن نعمل؟!

لابد لنا من تنظيم أنفسنا ، والتخطيط لمواجهة التبشير بشكل علمي مدروس ، تماماً كما يواجهونا ، لابد لنا من صحوة ، ولابد لنا من البدء في تناول العلاج ، ما دام الداء قد تم تشخيصه ، وحددت معالمه ، فإن لم يكن ذلك ، فإن الخطر التبشيري سيداهمنا ، ويقرع أبوابنا ، ويدخل إلى بيوتنا ضيفاً مرحباً به وأنا أعلق الجرس وأقرعه ، وإن كان صوت الجرس مسموعاً لدى الجميع منذ زمن ، لكنه ربما أصم الآذان لطول رنينه ، دون التعامل معه.

هذا ما استطعت قوله ، فإن أصبت فمن الله ، وإن أخطأت فمن نفسي.

والله ولي التوفيق .

التوصيات

١- العمل على إنشاء مراكز أبحاث إسلامي متخصص في الدراسات الاستشراقية والتنصيرية من أجل الوقوف على مخططات الغرب، مع كشف نواياهم، وأطماعهم خاصة في فلسطين موضوع الدراسة.

٢- العمل على إنشاء دار إسلامية تقوم بنشر المطبوعات الإسلامية بكافة اللغات، كي لا تظل المطبوعات الإسلامية تحت رحمة الغرب، وتعمل الدار على نشر الأبحاث الغربية، وترجمتها للوقوف على كل ما هو جديد في هذا الغزو الخبيث.

٣- أن تقوم الجامعات في الدول العربية، والإسلامية بالرد على كتابات المستشرقين، والمبشرين الذين كتبوا عن الإسلام، وشوهوا صورته في بلادهم، وأن يكون قسم خاص بهذه الجامعات للثقافة الإسلامية.

٤- عمل دورات خاصة بالتربية الإسلامية لكل الأساتذة، والطلاب العائدين من الخارج لتزويدهم بالثقافة الإسلامية التي عملت الجامعات الغربية على تشويهها، أو محوها من أذهان الطلاب.

٥- العمل على إصدار مجلة شهرية تتابع أعمال المبشرين، وإيقاف الباحثين عليها في مختلف الجامعات، والمعاهد العلمية المتخصصة بالشريعة الإسلامية، ورد كل الادعاءات، والنقد للإسلام والمسلمين في تاريخهم أو عقيدتهم أو سيرة الصالحين منهم لأنها موضوع اهتمام من الغرب.

٦- العمل على فتح أقسام خاصة بالجامعات على مثال قسم الدراسات الشرقية الذي يفتح في كل جامعة غربية ويسمى (قسم الدراسات الغربية) وفيه يتولى هذا لقسم تدريب الطلاب على كيفية الرد على المبشرين والمستشرقين ورصد كل ما يكتب عن الإسلام.

٧- إعادة النظر في كل مناهج التعليم ، والتي كان للمبشرين دور كبير فيها وإعادة صياغتها ، والاعتماد على المراجع الأصلية من تاريخنا الإسلامي وثقافتنا الإسلامية.

أدعو الله أن أكون قد وفقت في هذه الدراسة ، وقدمت ومن زاوية واحدة لخطر المبشرين والمستشرقين أعني في أرض فلسطين الحبيبة ، والعمل يتطلب أن تتكاتف الجهود في دراسة كاملة ، ولجميع دول البلاد الإسلامية ، والخروج بدراسة كاملة ، وعمل موسوعة في ذلك كي نفيق من هذه الغفلة الطويلة.

٨- الحقيقة أننا لا نلوم أحداً بقدر ما نلوم أنفسنا فهم يسعون جاهدين إلى أضعاف عقيدتنا وتدير ديننا وقوتنا فأطلب من الشباب المسلم أن يفوتوا الفرصة عليهم.

٩- كل ما بذله أعداء الإسلام من مبشرين ومستعمرين ومستشرقين في أضعاف الإسلام ما كان ولن يكون لولا ضعف المسلمين وتفرقهم وحينما ينهض المسلمون ويتمسكوا بعقيدتهم سوف تذهب كل مخططات الأعداء أدراج الرياح.

١٠- إنه لمن المهين أن تجد أعداء الدين من المبشرين وأعوانهم ينشرون عقيدتهم المحرفة وينفقون الأموال الطائلة في سبيل ذلك وللأسف أن المسلمين ما يقومون ولو بعشر ما يقوم به هؤلاء فأطالب شباب الإسلام باليقظة وأن نتذكر

أننا خير أمة أخرجت للناس.

١١- أوصي الشباب بترشيد الإنفاق وضبط الاستهلاك وعدم التبذير والاقتصاد وتوفير ما يمكن توفيره لدعم العمل الإسلامي ولمواجهة أعداء الأمة وأن يزيد الشباب من طاقتهم الإنتاجية كي يتحرر مجتمعنا من البطالة والفقر ونتفرغ لما هو أهم من ذلك.

١٢- أحذر شباب المسلمين والأمة المسلمة قاطبة من هذه المساعدات الغذائية والإنسانية والحقيقة أنها مساعدات إذلالية للمسلمين ولنشر كل مفاسدهم باسم العمل الاجتماعي والخدمة الإنسانية وكل هذه المساعدات ما هي إلا سيطرة اقتصادية وسياسية فيجب أن نعلم أن الموت والحياة ليس بأيدي هؤلاء الكفرة وبهذه المساعدات فإنني استنهض الشباب المسلم للعمل الدؤوب حتى نتخلص من هؤلاء الأرجاس الأنجاس.

١٣- يجب الحذر الشديد من التدافع على المؤسسات التعليمية الغربية وخاصة الجامعات والتعاون الأكاديمي لأن وراءه ما وراء من خداع وتضليل ومسح للهوية الإسلامية في أجيالنا المسلمة .

١٤- لا نقصد من هذا العرض أن يتحرر النصارى من نصرانيتهم ويسلموا ، لكن كل ما نرجوه أن نبين لأبناء المسلمين المهزومين نفسياً والمفتونين بالغرب ومدارسهم وجامعاتهم أن يصحوا وينتهوا إلى خطورة التبشير وأهله لذلك يجب التنبه إلى عدم التعاون معهم وتيسير مهمتهم وقبول أفكارهم والدعوة إليها أو دعوتهم لإلقاء محاضرات في الجامعات والمؤسسات التعليمية الأخرى فكل هذا يعني الولاء الثقافي لهم وقد حرم الله على المؤمنين ذلك ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا

تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (المائدة : ٥١).

وكل ما قدمت لا أدَّعي أني قد أحطتُ بكافة الجوانب ، ولكن حاولت أن أعطيه ما استطعت وتوخيت فيه كمال العمل ، وإتقانه فإن وُفقت فمن الله، وإن قصرت فهو من نفسي، والله المستعان .

* * *

الفهـــارس

المصادر

١- القرآن الكريم .

٢- ابن كثير : مختصر التفسير ، تحقيق محمد علي الصابوني ، بيروت ، دار القرآن ، ط ٨ ، ١٤٠٢هـ.

٣- ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم : لسان العرب ، بيروت ، دار صادر ، ط٢ ، ١٩٧٥م.

٤- أبو داود (٢٧٥) : السنن ، تحقيق محمد محيى الدين، القاهرة دار السنة النبوية ، د.ت.

٥- أحمد بن حنبل : مسند أحمد ، بيروت ، دار صادر ، (د.ت).

٦- البخاري : محمد بن إسماعيل : (٢٥٦) الجامع الصحيح ، المسند المختصر ، جدة مكتبة العالم ، ط١ ، ١٩٨١م.

٧- البيهقي : أبوبكر أحمد بن الحسين بن علي : السنن الكبرى ، بيروت ، دار المعرفة ١٩٨٦م.

٨- الترمذي : عيسى بن محمد بن عيسى بن سورة : السنن ، الجامع الصحيح سنن الترمذي ، القاهرة ، شركة مكتبة ومطبعة الباني الحلبي وأولاده ، ١٩٦٢-١٩٧٧م.

٩- الرازي : محمد بن أبوبكر (٦٦١):

١٠- الزبيدي ، محمد بن محمد : تاج العروس ، طبع عيسى البابي الحلبي وشركاء مصر (د.ت).

١١- الصنعاني ، محمد الكحلاوي : سبل السلام شرح بلوغ المرام ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ١٩٦٠م.

١٢- العسقلاني ، ابن حجر : فتح الباري ، شرح صحيح البخاري ، بيروت ، دار المعرفة (د.ت).

١٣- الفيروز أبادي ، مجد الدين بن يعقوب : القاموس المحيط ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات ، ١٤٠٧هـ.

١٤- الإمام مسلم أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١) : صحيح مسلم ، دار الحديث ، ط١ ، ١٩٩١م ، ١٤١٢هـ.

المراجع

١- أباظة ، فاروق : التنافس البريطاني الأمريكي في جنوب البحر الأحمر في النصف الأول من القرن التاسع عشر : بحث غير منشور ، جامعة عين شمس ، مارس ١٩٧٩م.

٢- ابن نبي ، مالك : بين الرشاد والتيه ، طريق الثورة في طريق الاستقلال ، دمشق ، دار الفكر ، ١٩٧٨م.

٣- أبوبصير ، صالح مسعود : جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن ، بيروت ، دار الفتح للطباعة والنشر ١٩٨٦م.
٤- أبو حمدة ، محمد علي : الأخطبوط الصهيوني رأي العين ، الأردن ، مكتبة الرسالة ، (١٩٨٣/ ١٤٠٣هـ.
٥- أبو طالب ، محمود : آثار الأردن وفلسطين في العصور القديمة، عمان ، وزارة الثقافة والشباب ، ١٩٧٨م.
٦- أبولغد ، إبراهيم : فلسطين ، تعريب سعد رزوق ، بيروت ، مركز الأبحاث الفلسطيني ، ١٩٧٢م.
٧- أبوالفتوح رضوان : أصول التربية ونظام التعليم ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٣٧٤هـ.
٨- أحمد إبراهيم خليل : المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والإسلامي ، القاهرة ، مكتبة الوعي العربي ١٩٦٢م.
٩- أسد ، محمد : الإسلام على مفترق الطرق ، الترجمة العربية ، عمر فروخ ، القاهرة ، دار الاعتصام ، د.ت.
١٠- إسماعيل عادل : السياسة الدولية في الشرق العربي ، بيروت ، دار النشر للسياسة والتاريخ ، ١٩٥٩م.
١١- الأسمر ، فوزي : عربي في إسرائيل، ترجمة نظمي لوقا وصوص عبد الله، القاهرة ، دار المعارف، ١٩٧٧م.
١٢- أ.ل. شاتليه : الغارة على العالم الإسلامي ، تعريب محب الدين الخطيب ومساعد اليافي ، جدة ، السعودية ، ١٣٨٧هـ.
١٣- إميل توما : جذور القضية الفلسطينية ، بيروت ، مركز الأبحاث ، دراسات فلسطينية ١٩٨٥م.
١٤- أمين ، بديعة : المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية ، بيروت ، دار الطبعة ط١ ، ١٩٧٤م.
١٥- الأندونيسي ، أبو هلال : غارة تبشيرية على أندونيسيا ، جدة ، دار الشروق ، ط٤ ، ١٤٠٤هـ / ١٩٧٩م.
١٦- أنطونيوس ، جورج : يقظة العرب ، ترجمة ناصر الدين الأسد ، إحسان عباس ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ط٤ ١٩٧٤م.
١٧- المعجم الوسيط ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٢م.

١٨- أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني ، حياته وأحداث عهده ، الكويت دار الوثائق ، ١٩٨٦م.
١٩- أيفانوف ، يوري :الصهيونية ، ترجمة ماهل عسل ، القاهرة ، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٦٩م.
٢٠- الأفغاني ، سعيد : من حاضر اللغة العربية ، بيروت ، دار الفكر ، ط١ ، ١٩٧٦م.
٢١- بدران ، نبيل : التعليم التحديث في المجتمع العربي الفلسطيني ، بيروت ط١ ، مركز الأبحاث الفلسطيني ١٩٦٩م.
٢٢- البسطامي ، أحمد سعد الدين : التبشير وأثره في البلاد العربية والإسلامية ، القاهرة ، مكتبة الإيمان ١٩٨٩م.
٢٣- بعلبكي منير : المورد ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ط١ ١٩٨٠م.
٢٤- البهي، محمد : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، القاهرة ، مكتبة وهبة ١٩٧٥م.
٢٥- أبو صير ، صالح مسعود : جهاد شعب فلسطيني خلال نصف قرن ، بيروت د.ن. ١٩٧٠م.
٢٦- التل ، عبد الله : الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ط١ ، ١٩٧١م. * جذور البلاء ، بيروت – ط٢ ، المكتب الإسلامي ، ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٨م.
٢٧- التميمي ، عبد الملك : التبشير في منطقة الخليج العربي ، الكويت ، شركة كاظمة للنشر ، ١٩٨٢م.
٢٨- جاك مندلسون ، الرب والله وجوجو : الأديان في أفريقيا المعاصرة ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧١م.
٢٩- الجبهان ، إبراهيم سليمان : معاول الهدم والتدمير في النصرانية والتبشير ، الرياض عالم الكتاب للنشر والتوزيع، ط٥ ، ١٩٨٢م. * ما يجب أن يعرفه المسلم من حقائق عن النصرانية والتبشير، الرياض ، د.ن ، ١٩٧٦م.
٣٠- جريس ، صبري : تاريخ الصهيونية ، بيروت ، مركز الأبحاث ، ١٩٨١م.
٣١- جرجس سلامة : تاريخ التعليم الأجنبي في مصر ، القاهرة ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون ، ١٩٩٣م.
٣٢- جريشة ، علي ، محمد : الاتجاهات الفكرية المعاصرة ، المنصورة دار الوفاء ، ط١ ، ١٩٩٠م.* أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، القاهرة، دار الاعتصام ، ط٢، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧١م.

٣٣- الجندي ، إبراهيم : الصناعة في فلسطين إبان الانتداب البريطاني ، عمان ، الأردن ، منشورات دار الكرمل ، ١٩٨٦م. * سياسة الانتداب البريطاني في الاقتصاد في فلسطين ، رسالة ماجستير غير منشورة ، الإسكندرية ، ١٩٧٥م.

٣٤- الجندي أدهم : شهداء الحرب العالمية الكبرى ، دمشق مطبعة ١٩٦٠م.

٣٥- الجندي أنور : سموم الاستشراق في العلوم الإسلامية ، القاهرة ، كلية التراث الإسلامي للطباعة والنشر (د.ت). * التبشير الغربي ، الدمام ، دار الإصلاح السعودية ، ١٩٨٢م. * مخططات التبشير والاستشراق ، القاهرة ، دار الاعتصام ، ط١ (د.ت). * الإسلام في وجه التغريب ، القاهرة ، دار الاعتصام.(د.ت). * الخنجر الذي طعن به المسلمون ، دار الاعتصام ، القاهرة (د.ت).

٣٦- الجهيني ، مانع بن حماد : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، الرياض ، نشر الندوة العالمية للطباعة والنشر ط١ ، ١٤١٨هـ.

٣٧- الجهيني لينشوفسكي : مصالح الولايات المتحدة الأمريكية في الشرق الأوسط ، مؤسسة المشروعات الأمريكية لأبحاث السياسة العامة ، جامعة كاليفورنيا (د..ن).

٣٨- حبنكة ، عبد الرحمن : أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها ، دمشق ، ط٥ ، (د.ن) ، ١٩٨٦م.

٣٩- حتي ، فيليب : مختصر تاريخ لبنان ، بيروت ، دار الثقافة ، ط١ ، ١٩٨٥م.

٤٠- حسن ، محمد خليفة : الحركة الصهيونية ، طبعتها وعلاقتها بالتراث الديني اليهودي ، القاهرة ، دار المعارف ، ط١ ، ١٩٨١م.

٤١- حسين ، محمد محمد : الإسلام والحضارة الغربية ، بيروت ، دار الفتح ، ط٢ ١٣٩٣هـ. * حصوننا مهددة من داخلها ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ط٥ ، ١٩٧٨م. * الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، ط٢ ، بيروت ، دار النهضة ، ١٩٧٢م.

٤٢- حسون ، د. علي : تاريخ الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية ، بيروت ، دمشق ، المكتب الإسلامي ، ط٣ ، ١٩٩٤.

٤٣- الحصري ، ساطع : البلاد العربية ، والدولة العثمانية ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ط٣ ١٩٦٠م. * حولية الثقافة العربية ، القاهرة ، السنة الثانية ، دار الرياض للطباعة والنشر (د.ت).

٤٤- حلاق ، حسان : موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية (١٨٩٧-١٩٠٩م) بيروت ، الدار الجامعية ، ط٢ ، ١٩٨١م.

٤٥- حمادة حسين ، عمر : آثار فلسطين بين حرب الهياكل العظمية التوراتية ووثائق الاستكشافات الأثرية العلمية والإدارية والدولية ، دمشق ، دار قتيبة ، ١٩٧٣م.

٤٦- حمادة سعيد : النظام الاقتصادي في فلسطين ، بيروت ، جامعة بيروت الأمريكية ، ١٩٣٩م.

٤٧- حوى ، سعيد : الرسول ﷺ ، بيروت ط٨ ، النهضة للنشر ، ١٩٧٢م.

٤٨- الخالدي ، مصطفى ، فروخ ، عمر : التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، بيروت ، المكتبة العصرية ، ١٩٨٦م.

٤٩- خانكي ، جميل : الأحوال الشخصية في مصر ، القاهرة ، المطبعة العصرية ، د.ن ، (د.ت).

٥٠- خراج السيد أحمد : جذور العلمانية ، المنصورة ، دار الوفاء ، ط٣ ، ١٤٠٧هـ.

٥١- الخريجي ، منصور بن عبد العزيز : الغزو الثقافي للأمة الإسلامية،ماضيه وحاضره ، دار العصيمي للنشر ، الرياض ، ١٤١٣هـ.

٥٢- الخطيب ، عمر : لمحات في الثقافة الإسلامية ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط٧ ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٥٣- الخطيب ، محب الدين : الغارة على العالم الإسلامي ، الرياض ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، الرياض ، ط٣ ، ١٩٨٠م.

٥٤- خلة ، كامل محمود : فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢-١٩٣٦م ، بيروت ، مركز الأبحاث الفلسطيني ، ١٩٧٤م.

٥٥- خلوصي ، محمد علي : التنمية الاقتصادية في قطاع غزة ، القاهرة ، (د.ن) ، ١٩٤٧م.

٥٦- خمار ، قسطنطين : الموجز في تاريخ القضية الفلسطينية ، بيروت ، المكتب التجاري للطباعة والنشر ، ط ، ١٩٦٦م.

٥٧- خميس ، محمد عطية : تداعت عليكم الأمم ، القاهرة ، دار الاعتصام. (د.ت).

٥٨- خوجة ، كمال : أسرار الانقلاب العثماني ، مصطفى طوران ، بيروت ، دار السلام ، ١٩٨٠م.

٥٩- خوري يوسف : الصحافة العربية في فلسطين ، بيروت ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧٦م.

٦٠- الخولي ، حسين : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين ، القاهرة ، دار المعارف ، وثائق ونصوص تاريخية ، ١٩٧٠م.

٦١- الدباغ ، مصطفى : بلادنا فلسطين ، ج٤ ، القسم الثاني في الديار اليافية ، بيروت ، دار الطليعة ط١ ، ١٩٧٢م.
٦٢- الدبس ، يوسف : مختصر تاريخ سورية ، د.ت ، ١٩٨٤م.
٦٣- الدجاني ، أحمد صدقي : ليبيا قبل الاحتلال الإيطالي ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧١م.
٦٤- دروزه محمد عزة : القضية الفلسطينية في مختلف مراحها ، القاهرة ، (د.م) ١٩٥٥م.
٦٥- الدسوقي ، عمر : في الأدب الحديث ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ط٧ ، ١٩٨٠م.
٦٦- دنفر ، أحمد : التبشير المسيحي في الخليج ، (د.م) ، (د.ت) ماليزيا ، مطبعة بو ليجرافك ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م.
٦٧- الدهان ، محمد ، محمد : قوى الشر المتحالفة ، الاستشراق ، النبشير ، الاستعمار ، المنصورة ، دار الوفاء ، ١٩٨٨م/ ١٤٠٨هـ.
٦٨- الدوسري ، أحمد النجدي : الغزو التبشيري والنصراني في الكويت ، القاهرة. (د.ن) ١٩٨٥م.
٦٩- ديار بكرلي ، عبد الرازق : تنصير المسلمين ، دار النفائس ، الرياض ، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.
٧٠- بيير ديستريا : من السويس إلى العقبة ، ترجمة يوسف مزاحم ، بيروت ، الدار العربية للنشر ، ١٩٧٤م.
٧١- ربيع محمد : أزمة الفكر الصهيوني ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٩م.
٧٢- رستم أسد : الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد علي باشا ، ط ، بيروت ، كلية العلوم الإدارية ، الجامعة الأمريكية. (د.ت).
٧٣- رزوق أسعد : إسرائيل الكبرى ، بيروت ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث المعهد العربي للدراسات والنشر ، ١٩٧٣م.
٧٤- رفعت ، محمد : تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٩م.
٧٥- رودي ، بارت : الدراسات العربية الإسلامية في الجامعات الألمانية ، ترجمة مصطفى ماهر ، القاهرة ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٧م.
٧٦- الروقي، عايض بن حزام : حروب البلقان والحركة الصهيونية العربية في المشرق العربي والعثماني ، ١٨١٢-١٩١٣م ، مكة المكرمة ، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي.

٧٧- رتيشارد ، كمجيان : الأصولية في العالم العربي ، ترجمة عبد الوارث سعيد ، المنصورة ، دار الوفاء للطباعة ، ١٩٨٩م/ ١٤٠٩هـ.

٧٨- ريتشارد ومونتجمري : مدخل إلى القرآن ، أدنبره ، (د.ت) ، ١٩٧٧م.

٧٩- ريني ، دوبستر : الثقافة الإفريقية ، الجزائر ، الشركة الوطنية للتوزيع ، ١٩٦٩م.

٨٠- الزاوي ، أحمد الطاهر : ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٨٠م.

٨١- زقزوق ، محمد ، حمدي : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، كتاب الأمة ، الدوحة ، ١٤٠٤هـ.

٨٢- زين ، نورالدين : نشوء القومية العربية : بيروت ، دار النهار ، ١٩٧٢م .

٨٣- سالم أحمد موسى : الإسلام وقضايانا المعاصرة ، القاهرة ، دار الهناء ١٩٧٠م ، بيروت ، ١٩٧٥م.

٨٤- سالم ، محمد رشاد : المدخل إلى الثقافة الإسلامية ، الكويت ، دار القلم ، ط٩ ، ١٤٠٧ ، ١٩٨٧م.

٨٥- سلطان ، سالمة بنت السيد سعيد: مذكرات امرأة عربية، عمان ، وزارة التراث القومي والثقافة ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

٨٦- السامرائي ، عنان : الفكر العربي والفكر الاستشراقي ، الرياض ، دار صبري للنشر والتوزيع ، ١٩٨٩م.

٨٧- ستيفين ، رينسمان : تاريخ أوروبة والحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني ، القاهرة ، دار المعارف ط٦ ، ١٩٧٦م.

٨٨- سعد ، مرسي أحمد : تاريخ التربية والتغليم ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٨٧م.

٨٩- سعيد أدوارد : الاستشراق لندن ، (د.ن) ، ١٩٧٨م.

٩٠- آل سعود ، نايف بن ثنيان : المستشرقون وتوجيه السياسة التعليمية في العالم العربي ، ط١ ، دار أمية ، الرياض ، ١٤٠٧هـ.

٩١- السكاكيني ، خليل : كذا أنايا دنيا ، القدس ، المطبعة التجارية ، ١٩٥٥م.

٩٢- سليمان موسى : ترجمة رحلات في الأردن وفلسطين ، عمان ، (د.ن) ، ١٩٨٤م.

٩٣- سمعان ، سمير : المؤتمرات الصهيونية والاستعمارية لتجهيل عرب فلسطين منذ القرن التاسع عشر ، عمان ، دار البيرق ، ١٩٨٧م.

٩٤- السنهوري ، عبدالرزاق : الوسيط في شرح القانون المدني ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، ١٩٨٠م.

٩٥- سنو ، عبد الرؤوف : المصالح الألمانية في سورية وفلسطين ، ١٨٤١-١٨٩٨م ، بيروت ، معهد الإنماء ١٩٨٧م.

٩٦- السيد سابق : فقه السنة ، بيروت ، دار الكتب العربي ، ط١ ١٩٦٩م.

٩٧- السيد صالح، سعد الدين: الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام ، القاهرة ، دار الأرقم ، ط١ ، ١٩٨٩م.

٩٨- شاكر محمود : التاريخ الإسلامي ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٤٠٧هـ.

٩٩- الشبانة ، عبد الله حمد : المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية ، الرياض ، دار طيبة ، ١٤٠٩م.

١٠٠- شبيب ، سميح : حزب الاستقلال العربي في فلسطين ، ١٩٣٢-١٩٣٣م ، بيروت ، مركز الأبحاث الفلسطيني ، ١٩٨١م.

١٠١- شريف ، محمد بديع : دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة ، بيروت ، دار اقرأ ، ١٩٨٤م ، ١٤٠٤هـ.

١٠٢- الشقيري ، جميل : مجموع الشهادات والمذكرات إلى لجنة التحقيق الأنجلو الأمريكية المشتركة حول مصيبة فلسطين ، يافا ، مطبعة النجاح ، ١٩٤٦م.

١٠٣- شكري ، محمد فؤاد : أوروبة في القرن التاسع عشر ، الصراع بين البرجوازية والإقطاع من ١٧٨٩-١٨٤٨م. القاهرة ، دار الفكر العربي (د.ت).

١٠٤- شلبي ، أحمد : التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، القاهرة ، (د.ن) ، ١٩٦٧م.

١٠٥- شلبي ، أكرم : الإذاعات التنصيرية الموجهة إلى المسلمين العرب ، القاهرة ، مكتبة التراث الإسلامي ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٩٢م.

١٠٦- شلبي ، عبد الودود : الزحف إلى مكة ، حقائق ووثائق عن مؤامرة التنصير في العالم الإسلامي ، القاهرة ، الزهراء للإعلام العربي ، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

١٠٧- شمالي ، نصر : إفلاس الصهيونية ، بيروت ، منشورات فلسطين المحتلة ، ١٩٨١م.

١٠٨- الشناوي ، عبد العزيز : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨٣-١٩٩٢م.
١٠٩- الشهاب مصطفى : القومية العربية ، تاريخها ، وقوامها ، ومراميها ، القاهرة ، جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العربية ، ١٩٥٩م.
١١٠- الصابان ، سهيل : المؤسسات التعليمية الأجنبية في نهايات الخلافة العثمانية في استانبول ، رسالة ماجستير ، جامعة الإمام محمد بن سعود ، الرياض ، ١٤٠٩هـ.
١١١- الصافوري ، مجدي عبد الحميد : سقوط الدولة العثمانية وأثره على الدعوة الإسلامية ، القاهرة ، دار الصحوة ، ١٩٩٠م.
١١٢- الصايغ ، أنيس : لبنان الطائفي ، بيروت ، دار الصراع الفكري ، ١٩٥٥م * الهاشميون وقضية فلسطين ، صيدا ، بيروت منشورات جريدة المحرر الملكية العصرية ، ١٩٦٦م.
١١٣- صايغ ، يوسف : الاقتصاد الإسرائيلي ، القاهرة ، معهد الدراسات العربية والعالمية ، ١٩٦٦م.
١١٤- صبرة ، عفاف : المستشرقون ومشكلات الحضارة ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٥م.
١١٥- صقر ، عطية : الإسلام في مواجهة التحديات ، الكويت ، وزارة الأوقاف ١٤٠١هـ.
١١٦- صنبر ، إلياس : فلسطين ١٩٤٨م ، التغييب ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط١ ، ١٩٨٧م.
١١٧- طعيمة ، صابر : أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي ، بيروت ، عالم الكتاب ، ط١ ، ١٩٨٤م.
١١٨- الطهطاوي ، محمد عزت : التبشير أو الاستشراق ، أحقاد وحملات على النبي صلى الله عليه وسلم والإسلام ، القاهرة ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، ط١ ، ١٩٧٧م.
١١٩- عازوري ، نجيب : يقظة الأمة العربية ، تعريف وتقديم أحمد أبو ملحة ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات. (د.ت).
١٢٠- العابدين ، محمد زين : نشأة العلمانية ، ودخولها في مجتمع السلم ، الرياض ، دار العاصمة (د.ت).
١٢١- العارف ، عارف : المفصل في تاريخ القدس ، القدس ، مطبعة المعارف ، ١٩٦١م.
١٢٢- العارف ، عارف : القضاء بين البدو ، القدس (د.ن) ، ١٩٧٨م.
١٢٣- العارف ، عارف : المسيحية في القدس ، القدس ، مطبعة دير الروم الأرثوذكس ، ١٩٥١م.

١٢٤- العالم ، جلال : قادة الغرب يقولون : دمروا الإسلام أبيدوا أهله ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

١٢٥- عبد الحميد ، نبيل : الأجانب وأثرهم في المجتمع العربي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، قدمت سنة ١٩٧٦م إلى جامعة عين شمس ، كلية الآداب ، إشراف الدكتور جمال زكريا.

١٢٦- العامري ، عنان : التطور الزراعي والصناعي في فلسطين ، ١٩١٨-١٩٤٨م ، بيروت مركز الأبحاث الفلسطيني ، ١٩٨٠م.

١٢٧- عبد الجبار ، عبد الله : الغزو الفكري في العالم العربي : رابطة العالم الإسلامي ، الأمانة العامة ، ١٩٧٤م.

١٢٨- عبد الرحمن بدوي : موسوعة المستشرقين ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ط٢ ، ١٩٨٩م.

١٢٩- عبد الله إسماعيل صبري : في مواجهة إسرائيل ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٩م.

١٣٠- عبد المقصود ، عبد الفتاح : صليبية إلى الأبد ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٠م.

١٣١- عبد الوهاب ، أحمد :حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر ، القاهرة ، دار غريب ، ط١ ، ١٤١٢هـ. * التبشير بين الماضي والمستقبل ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، ط١ ، ١٤٠١هـ.

١٣٢- عبود ، أسعد : تاريخ الناصرة من أقدم أزمانها إلى أيامنا الحاضرة ، القاهرة ، مطبعة الهلال ، ١٩٢٠م.

١٣٣- عرابي ، محمد : تطور المجتمع في فلسطين ، القاهرة ، ١٩٧٨م.

١٣٤- العربي ، كرم ضياء : التراث والمعاصرة ، قطر ، من إصدارات رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية ، ١٤٠٤هـ.

١٣٥- العسكر ، عبد العزيز بن إبراهيم : التنصير ومحاولاته في بلاد الخليج العربي ، الرياض ، نشر مكتبة العبيكان ، ط١ ، ١٩٩٣م.

١٣٦- عطية نعيم : الفكر العربي في مئة سنة ، القاهرة. (د.ت).

١٣٧- العظم ، صادق جلال : الصهيونية والصراع الطبقي ، بيروت ، دار العودة ، ط١ ، ١٩٧٨م.

١٣٨- العظم ، يوسف : أين محاضن الجيل المسلم ، الرياض ، الدار السعودية ، للنشر ، ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م.

١٣٩- العفيفي ، نجيب : المستشرقون ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٤م ، ١٩٦٥م.

١٤٠- علي ، فلاح ، خالد : فلسطين والانتداب البريطاني ، ١٩٣٩-١٩٤٨م ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٠م.

١٤١- العقاد أحمد خليل : الصحافة العربية في فلسطين ، دمشق ، دار العروبة للطباعة والنشر ، ١٩٦٧م.

١٤٢- العقاد ، عباس محمود : الإسلام في القرن العشرين ، القاهرة ، دار الكتاب الحديث (د.ت).

١٤٣- عكاشة ، إبراهيم : ملامح عن النشاط التنصيري في الوطن العربي ، الرياض ، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠٤هـ. * التبشير في جنوب السودان ووادي النيل ، الرياض ، دار العلوم للطباعة والنشر ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

١٤٤- علوش ناجي : المقاومة العربية الفلسطينية ١٩١٧-١٩٤٨م ، بيروت دار الطليعة ١٩٧٥م.

١٤٥- علي محمد كرد : خطط الشام ، بيروت ، دار العلم للملايين ١٩٧٢ .

١٤٦- العلي ، صالح : المعجم الصافي في اللغة العربية ، بيروت ، مطابع الشرق الأوسط ، ط١ ، ١٩٨٩م.

١٤٧- العمري نادية : أضواء على الثقافة الإسلامية ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ١٩٨٥م.

١٤٨- عوض عبد العزيز : الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤-١٩١٤م ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٩م.

١٤٩- عوض محمد عبد الرحمن : أخطار التبشير في ديار المسلمين ، القاهرة ، دار الأنصار ١٩٨٦م.

١٥٠- عويس عبد الحليم : ثقافة المسلم في وجه التيارات المعاصرة ، الرياض ، النادي الأدبي ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

١٥١- الغتيت محمد علي : الغرب والشرق من الحروب الصليبية إلى حرب السويس ، القاهرة ، الدار القومية للطباعة (د.ت).

١٥٢- غراب ، أحمد : رؤية إسلامية للاستشراق ، المنتدى الإسلامي ، لندن ، ط٢ ، ١٤١١هـ.

١٥٣- الغزالي ، محمد : خلق المسلم ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ١٣٨٤هـ.

١٥٤- غرايبة ، عبد الكريم : سورية في القرن التاسع عشر ، (١٨٤١-١٨٧٦) القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالمية ١٩٦٢م.

١٥٥- الغنيمي ، محمد طلعت : قضية فلسطين أمام القانون الدولي ، الإسكندرية ، ط٢ ، منشأة المعارف ١٩٦٧م.

١٥٦- غنيم عادل : الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٧-١٩٣٦م ، القاهرة ، دار آداب القاهرة (د.ت).

١٥٧- غفراوي ، متى : التعليم في الأقطار العربية في الشرق الأدنى ، شركة جورج بانتا ، وسكنسون ، الولايات المتحدة (د.ت).

١٥٨- فتح الله السعيد ، عبد الستار : الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ، المنصورة ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، ط٥ ، ١٤١٠هـ ، ١٩٨٩م.

١٥٩- فرنسيس إملي نيوتن : خمسون عاماً في فلسطين ، نقلة للعربية وديع الشعاني ، بيروت مطابع صادر رويحاني ١٩٤٧م.

١٦٠- الفيومي ، أحمد محمد : المصباح المنير ، بيروت ، مكتبة لبنان ١٩٨٧م.

١٦١- القاسم ، أنيس : نحن والفاتيكان وإسرائيل ، بيروت مركز الأبحاث لمنظمة التحرير الفلسطينية ١٩٦٦م.

١٦٢- قاسم ، جمال زكريا : الخليج العربي ، دراسة لتاريخ الإمارات العربية المتحدة (١٨٤٠-١٩١٤م) رسالة دكتوراه مطبوعة على نفقة جامعة عين شمس - ١٩٦٦م.

١٦٣- قاسمية خيرية : النشاط الصهيوني في المشرق العربي وصداه ، بيروت ، مركز الأبحاث لمنظمة التحرير الفلسطينية ١٩٧٢م. * عوني عبد الهادي ، أوراق خاصة ، بيروت ، مركز الأبحاث (منظمة التحرير الفلسطينية ١٩٧٤م).

١٦٤- القراعين ، يوسف محمد : حق الشعب العربي الفلسطيني في تقرير مصيره ، دار الجليل للنشر ١٩٨٣م.

١٦٥- قطب ، سيد : في ظلال القرآن ، بيروت ، دار الشروق ، ط١٠ ، ١٩٨٣م.

١٦٦- قطب ، محمد : واقعنا المعاصر ، جدة ، مؤسسة المدينة للصحافة والنشر ، ط١ ، ١٤٠٨هـ. * هل نحن مسلمون ، القاهرة ، ط٢ ، مكتبة وهبة ١٣٩٠هـ.

١٦٧- القطشان ، عبدالله : التعليم الخاص، اليهودي والمسيحي والإسلامي في فلسطين ، ط١ ، عمان ، دار الكرمل ١٩٨٨م. * التعليم العربي الحكومي إبان الحكم التركي والانتداب البريطاني ١٥١٦-١٩٤٨م ، عمان ، الأردن ، منشورات درا الكرمل ١٩٨٥م.

١٦٨- قهوجي حبيب : استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة ، دمشق ، مؤسسة الأقصى للدراسات الفلسطينية ١٩٧٨م.

١٦٩- الكرمي/ عبد الكريم : الشيخ سعيد الكرمي ، سيرته العلمية والسياسية ، من آثاره ، دمشق ١٩٧٣م.
١٧٠- كشك ، جلال : القومية والغزو الفكري ، الكويت ، مكتبة الأمل ، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م.
١٧١- كوثراني ، وجيه : السلطة والمجتمع والعمل السياسي من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام ١٩٨٨م ١٤٠٨هـ.
١٧٢- الكيالي ، عبد الوهاب : وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيوني ١٩١٨م-١٩٤٨م ، بيروت ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٩٦٨م.
١٧٣- كيرزون – لورد : موضوعات اليوم : مختارات من الأحاديث والكتابات ، لندن ١٩١٥م.
١٧٤- اللبدي ، محمود : المنطلقات الأساسية في الفكر الإعلامي الصهيوني ، بيروت ، منشورات فلسطين المحتلة (د.ت).
١٧٥- اللبدي ، عبد العزيز : الأحوال الصحية والاجتماعية للشعب الفلسطيني ١٩٢٢-١٩٨٢م عمان ، الأردن ، دار الكرمل ، ١٩٨٦م.
١٧٦- محافظة ، علي : العلاقات الألمانية ، ١٩٤١م/ ١٩٤٥م – بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨١م. * الحركات الفكرية في عصر النهضة في فلسطين والأردن ، بيروت ، الأهلية للنشر والتوزيع ط١ ، ١٩٨٧م. ÷ الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ، ١٧٨٨-١٩١٤هـ ، بيروت الأهلية للنشر والتوزيع ١٩٨٣م.
١٧٧- المحجوب ، علي : جذور الاستعمار الصهيوني في فلسطين ، تونس ، دار سراس للنشر ١٩٩٠م.
١٧٨- محمد إبراهيم نصر : الإعلام وأثره في نشر القيم الإسلامية وحمايتها ، الرياض ، دار اللواء ١٩٧٨م.
١٧٩- محمد فريد بك – المحامي : تاريخ الدولة العثمانية (د.ن) ، (د.ت).
١٨٠- محمد ، محمد عوض : الاستعمار والمذاهب الاستعمارية ، مصر دار الكتاب العربي ، ط٢ ١٩٥٦م.
١٨١- محمود ، علي عبد الحليم : الغزو والتيارات المعادية للإسلام ، جامعة الإمام محمدبن سعود الإسلامية ، الرياض ، دار الثقافة للنشر ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
١٨٢- محمود علي عبد الحليم : الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر ، الكويت ، دار البحوث العلمية ، (د.ن).

١٨٣- المحيش ، نبيل: الغزو الفكري للعالم الإسلامي ، الاحساء ، مكتبة النور ، ط١ ، ١٤١٢هـ.

١٨٤- مرسي ، محمد عبد العليم : التغريب في التعليم في العالم الإسلامي ، الرياض ، دار الثقافة والنشر ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٢هـ.

١٨٥- مرسي ، عبد العليم : المعلم والمناهج وطرق التدريس ، الرياض ، عالم الكتب ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م.

١٨٦- المسيري ، عبد الوهاب : الأيدلوجية الصهيونية ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط١ ، ١٩٧٥م.

١٨٧- مصطفى ، أحمد عبد الرحيم : في أصول التاريخ العثماني ، القاهرة ، دار الشروق ١٩٩٣م.

١٨٨- منسي ، محمد صالح : حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي ، القاهرة دار الفكر العربي ، ١٩٧٨م.

١٨٩- مهنا ، محمد نصر : الإسلام في آسيا منذ الغزو المغولي ، الإسكندرية ، المكتب الجامعي الحديث ، ط١ ١٩٩٠م.

١٩٠- المودودي ، أبو الأعلى : واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ١٣٩٥م.

١٩١- المودودي ، أبو الأعلى : الحجاب ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ١٩٨٠م.

١٩٢- المودودي ، أبو الأعلى : طائفة من قضايا الأمة الإسلامية في القرن الحاضر ، الرياض ، مكتبة الرشد ١٩٨٣م.

١٩٣- الميداني ، عبد الرحمن حنبكة : غزو في الصميم ، دمشق ، دار القلم ١٤٠٥هـ.

١٩٤- النتشة ، رفيق : الاستعمار وفلسطين ، عمان دار الجيل ، ط١ ١٩٨٤م. * السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين ، الرياض ط٣ ، مطابع الشرق الأوسط ١٩٨٥م.

١٩٥- نجم إبراهيم أبو النصر : فلسطين العربية ، ط١ ، يافا ١٩٣٦م.

١٩٦- النحال ، محمد سلامة : فلسطين أرض تاريخ ، منشورات فلسطين المحتلة (د.ت).

١٩٧- الندوي ، أبو الحسن : الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية ، الكويت ، دار العلم ط٤ ، ١٤٠٣/ ١٩٨٣م.

١٩٨- النشاشيبي ، إسعاف : قلب عربي وعقل أوروبي ، خطبة ألقاها في الجامعة الأمريكية ، بيروت ، في ١٧ مارس ١٩٢٤م ، المكتبة السلفية القدس ، بيت القدس العربي ١٣٤٢هـ.

١٩٩- النعمة ، إبراهيم : المسلمون أمام تحديات الغزو الفكري ، العراق ، شركة ومعمل ومطبعة الزهراء الحديثة ١٩٨٦م.

٢٠٠- النملة ، علي إبراهيم : التنصير : مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته ، الرياض ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٩٩٣م.

٢٠١- النملة ، علي إبراهيم : العلاقات بين الاستشراق والاستعمار ، الرياض ، محاضرة ألقاها في كلية الشريعة ١٤٠٨هـ.

٢٠٢- النملة ، علي إبراهيم : التنصير في الأدبيات العربية ، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ١٤١٥هـ ، ١٩٩٤م.

٢٠٣- نوار ، عبد العزيز : تاريخ العراق الحديث ، القاهرة ، دار الكاتب العربي ١٩٦٨م.

٢٠٤- نويهض ، عجاج : حكماء صهيون ، نصوصها ، رموزها ، أصولها التلمودية ، بيروت ، ط٣ ، دار الاستقلال ١٩٩٠م.

٢٠٥- نويهض ، عجاج : رجالات من فلسطين ، منشورات فلسطين المحتلة ، بيروت ، مطابع الكرمل الحديثة ١٩٨١م.

٢٠٦- نويهض عجاج : بيان القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨م رسالة دكتوراه بيروت ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٩٨١م.

٢٠٧- هراوي ، سامي : الحصار المر ، فلسطين بين عامي ١٩١٤-١٩٧٤م ، ترجمة فخري حسين يغمور ، رابطة الجامعيين ، الخليل ١٩٨٢م.

٢٠٨- الهلالي عبدالرازق : تاريخ التعليم في العراق في عهد الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩٢١م. بغداد ، وزار التربية ، مطبعة المعارف ١٩٧٥م.

٢٠٩- هنادي ، محمد عبد القادر : قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ، جدة ، مكتبة الطالب الجامعي ١٤٠٨هـ.

٢١٠- هيكل ، محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٤٠٣هـ.

٢١١- وجدي ، محمد فريد : دائرة معارف القرن الرابع عشر ، بيروت ، دار المعرفة ، ط٣ ١٩٧١م.

٢١٢- وزان عدنان محمد : الاستشراق والمستشرقون ، مكة المكرمة ، مطبعة رابطة العالم الإسلامي ١٤٠٤هـ.

٢١٣- ياسين ، هلال : الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين ١٨٨٢-١٩٤٨م ، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٠م.

٢١٤- الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين ١٨٨٢-١٩٤٨م ، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٠م.

٢١٥- ياسين عبد القادر : تاريخ الطبقة العاملة الفلسطينية ١٩١٨/١٩٤٨م ، بيروت مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية ١٩٨٠م * كفاح الشعب الفلسطيني حتى عام ١٩٤٨م بيروت ، مركز الأبحاث ١٩٧٥م.

٢١٦- ياغي إسماعيل : الجذور التاريخية للقضية الفلسطينية ، الرياض (د.ت) ١٩٨٣م. * فلسطين تاريخياً ، الرياض ط٢ (د.ت) ١٩٨٨م.

٢١٧- ياغي إسماعيل ، أحمد بركات : دراسات فلسطينية تاريخية ، سياسية ، الرياض ، مطابع الفرزدق ١٤٠٨/١٩٨٨م.

٢١٨- ياغي ، عبد الرحمن : حياة الأدب الفلسطيني الحديث ، من أول النهضة حتى النكبة ، ط١ ، بيروت المكتب التجاري ١٩٧٠م.

٢١٩- اليساوي ، شاكر : الصهيونية في المنظور الثوري ، دمشق ، مطبعة دار العلم ١٩٨١م.

٢٢٠- يعقوب ، آرثين : القول التام في التعليم العام ، القاهرة ، دار الاعتصام ، (د.ت).

٢٢١- يكن ، فتحي : العالم الإسلامي والمكائد الدولية خلال القرن الرابع عشر ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٢٢٢- يوسف عبد القادر : مستقبل التربية في العالم العربي في ضوء التجربة الفلسطينية ، القاهرة ، مكتبة الاعتماد ١٩٦٢م.

* * *

الدوريات

الاســم	العنوان	المجلة	مكان الصدور	العدد	السنة
١- أحمد زكي الشلق	طه حسين ، مستقبل الثقافة في مصر	حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية	مصر	١٣	١٩٩٠م
٢- ألبرت حوراني	مستقبل الجامعات الأجنبية في الشرق الأدنى	مجلة الفكر	تونس	٢	١٩٥٩
٣- الأهرامي	المسألة الشرقية	المنار	مصر	١١	ذو القعدة ١٣٢٩
٤- التميمي عبدالجليل	التفكير التبشيري لدى عدد من المسؤولين الفرنسيين في الجزائر وتونس	المجلة التاريخية العربية	تونس	عدد جانفي	١٩٧٤م
٥- حاتم عماد	العربية والتعريب في الجزائر	مجلة كلية التربية	ليبيا	٨	١٩٧٨م
٦- حسان محمد حسان	وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي	دعوة الحق	مكة المكرمة	٥	١٤٠١هـ
٧- خضر أحمد إبراهيم	الإسلام والكونجرس	مجلة المجتمع	الكويت	(٩١٧)	١٤٢٠هـ
٨- داغر اسعد	المدارس الروسية في لبنان	المقتطف	لبنان	بدون	١٩٠١
٩- رزان عدنان محمد	الاستشراق والمستشرقون	دعوة الحق	مكة	٢٤	ربيع أول ١٤٠٤هـ
١٠- سرحان نمر	المزارات في فلسطين	صامد الاقتصادي	دمشق	المجلد الرابع	١٩٨٤م

١١ - السلامي الحسين	الجندي المجهول يموت اغتيالاً	الدستور	عمان	٢١٩	شباط ١٩٨٢م
١٢ - سيد أحمد نبيل	النشاط التبشيري الأمريكي في البلاد العربية	المجلة التاريخية المصرية	القاهرة	مجلد ٢٧	١٩٨١م
١٣ - شرف عمار	حقائق عن التبشير	المختار الإسلامي	القاهرة	١٢٥	١٣٩٥هـ
١٤ - شلبي رؤوف	عودة القدس	الفكر الإسلامي	قطر	٤	١٤٠٨هـ، ١٩٨٨
١٥ - صغيرون إبراهيم الزين	لمحات عن انتشار الإسلام في أوغندا	مجلة العلوم الاجتماعية	الرياض	٦	١٩٨٢م
١٦ - عبدالرازق ديار بكر لي	كلورادوا يطرح أخطر استراتيجية للتنصير بين المسلمين	المجتمع	الكويت	٢٥	١٣٠٩هـ، ١٩٢٠م
١٧ - عبدالحميد نبيل	التبشير الأمريكي في البلاد العربية	التاريخية المصرية	القاهرة	٢٧	١٩٧٥م
١٨ - عبدالطاهر حسن عيسى	التبشير والاستعمار	الأزهر	مصر	ج٨	١٣٩٦هـ، ١٩٧٦م
١٩ - عبدالقادر ياسين	فجر الحركة العمالية في فلسطين	آفاق عربية	بغداد	١٠	حزيران ١٩٧٦م
٢٠ - عزت محمد إبراهيم	حقيقة التبشير ومايتستر وراءه من أغراض	الوعي الإسلامي	الكويت	١٨٠	١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م
٢١ - عماد حاتم	الغزو الثقافي العربي	الآداب	بيروت	٢٠١	١٩٨٢م
٢٢ - العقيلي عبدالله	التقليد	المقتطف	لبنان	بدون	١٩٠٢م
٢٣ - عتريس طلال	المدارس التبشيرية الفرنسية في سورية في نهاية القرن التاسع عشر	الفكر العربي	بيروت	٢١	١٨٩٧م

٢٤- الغامدي صالح	التبشير في العصر الحديث	بيادر	أبها	٦	١٤١٢هـ، ١٩٩٢م
٢٥- الفاسي علال	التبشير أخطر أسحلة الاستعمار	الهلال	القاهرة	٨١	١٣٧٣هـ، ١٩٥٩م
٢٦- فاطمة الحبابي	تقويم تجربة التعريب في الغرب	المستقبل العربي	بيروت		١٩٨٥م
٢٧- فروخ عمر	من تحركات الاستشراق في البلاد العربية	المنطق	لبنان	٣	١٣٩٨هـ ١٩٧٨م
٢٨- كامنية مرنتس	الصهيونية وغاياتها	المشرق	روما		١٩٢٥م
٢٩- كولصرس أفق	سكة حديد الحجاز	الفيصل	الرياض	٢٢٦	١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م
٣٠- لويس شيخو	الآداب العربية في القرن التاسع عشر	المشرق	روما	٤	١٩١٠م
٣١- مكاريوس شاهين	المعارف السورية	المقتطف	لبنان	بدون	١٨٨٣م
٣٢- منصور أسعد	تاريخ الناصرة	صامد الاقتصادي	عمان	٧١	١٩٨٨م
٣٣- النعمة إبراهيم	-	الأمة	قطر	١	١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م
٣٤- هاشم عماد	الغزو الثقافي الغربي الممهد والمتوافق مع الاستعمار	الآداب	بيروت	٤٠٣	١٩٨٢م
٣٥- يهوشع يعقوب	تاريخ الصحافة العربية في فلسطين	الهلال	القاهرة	٤١	١٩٤٧م

***

المجلات والصحف

١- التبشير والاستعمار وآلام أخرى ، الوعي الإسلامي ، السنة العاشرة ، العدد (١١٥) ١٩٧٤م ، رجب ١٣٩٤هـ * جريدة فلسطين أسسها في يافا السيدان عيسى داود العيسى ، ويوسف العيسى ، ١٤ كانون الثاني ١٩١١م ، وهي نصف أسبوعية.

٢- جريدة فلسطين العدد (٢٧) الصادر يوم الثلاثاء : ١٦/ ٠٤/ ١٩١١م.

٣- جريدة فلسطين ، العدد الأخير ، الصادر يوم الثلاثاء ٢١/ ٠٣/ ١٩٦٧م.

٤- جريدة فلسطين العدد الأخير ، الصادر يوم الثلاثاء ٢١/ ٠٣/ ١٩٦٧م.

٥- جريدة فلسطين ، عدد ٥٤٨ ، ٢٣ كانون الثاني من عام ١٩٢٣م.

٦- جريدة فلسطين ، العدد ٥٤٨ ، ٢٣ كانون الثاني ١٩٢٣م ، انظر الجامعة العربية العدد : ٤١ ، السنة الأولى ١٦ حزيران ١٩٤٧م.

٧- جريدة القدس ، السنة الأولى العدد (٢٩) في ٢٥/ ١٢/ ١٩٠٨م. وتوقفت بعد خمس سنوات من صدورها ثم عادت للصدور مجدداً ١٩١٣م.

٨- مجلة الأسرة ، قسم اللغة العربية ، كلية الآداب ، العدد السادس ١٩٥٧م.

٩- مجلة التايم ٢٧ أيلول ١٩٣٦م ، أكتوبر تشرين أول ١٩٦٢م.

١٠- مجلة الوقائع الفلسطينية ، العدد ١٨٤ ، الملحق رقم ١٨٤ ٢٨/ ٠٣/ ١٩٧٦م.

١١- الوقائع الفلسطينية ، العدد ٣٨٤ ، الملحق رقم (٢) ٢٨/ ٠٨/ ١٩٣٣م القدس.

١٢- الوقائع الفلسطينية ، العدد ٤٤٨ ، الملحق رقم (٢) ٢١/ ٦/ ١٩٣٤م القدس.

١٣- الوقائع الفلسطينية ، العدد ٥٣٧ ، الملحق رقم (٢) ١٢/ ٩/ ١٩٣٥م القدس.

١٤- الوقائع الفلسطينية ، العدد (٥٨٢) ملحق رقم (٢) تاريخ ٩/ ٤/ ١٩٣٦م القدس.

١٥- الوقائع الفلسطينية ، العدد (١٥٢٤) ملحق رقم (٢) تاريخ ٢٦/ ٩/ ١٩٤٦م القدس.

١٦- الوقائع الفلسطينية ، العدد ١٥٤٢ ، الملحق ، رقم٢ ، ١٩٤٦م.

والوقائع الفلسطينية : (الجريدة الرسمية لحكومة الانتداب البريطاني) ١٩٣٣- ١٩٤٨م.

* متنوعة :

١- الكتاب السنوي للصحفيين اليهود، الصادر عن رابطة الصحفيين اليهود عام ١٩٤٥م ، المطبعة التعاونية هبوعيل هتسعير ، تل أبيب ، فلسطين.

٢- كراس مؤتمر العمال العرب الأول ، حيفا ، المطبعة الأهلية ، ١٩٣٠م.

* * *

المراجع الأجنبية

1	A. Stephen Nail History of Mission by, the Pelican hist of the Pelicant Book
2.	Bentwich Norman The End of the Copitulation System the British Years Book on International, Oxford University Press.
3.	Chandler Bj. And other : Education and the New Dieache Dodl Merel Chompany N.Y. Toronto 1971
4.	Cherall – el – Lyon, et Lusyien 1919 Bases me into
5.	Compendium Maren. Don M. Mcurry Edr The Gospel and Islam A. 1979 S.A 1978
6.	David Philipe Ungovernment Arabe Damas Mareal Biards, Paris
7.	Dr. E.W.G. Materman Hygiene and Deceuse in Palestine Expiration London
8.	E.J. Hannua Folklor the Holy Land London
9.	Ediward Said, Grientalism Reatedy rncl Keyon Paul London ahl tenley 1974
10.	Em Wherry (Edr) A Comprehensive Commentary on the Quran Competising Sales Translation and Preliminary Disconre 1896
11.	Field Teme A. America and Mediterranean Frieneeton 1969
12.	Gibb : Muhammad anism; An Historical Scormey Oxford Up. 1947
13.	Hadow to Baylis, 30 March 1907
14.	Hecker M. Raituay 1888–1918 in the Economic History of the Middle East.
15.	Henderson Here son to 20 March 1930 Guarantees For Religion Liberty in Egypt P.R.O.FO
16.	John Van Ess Meet the Arab by John Van Ess, N.Y.1943
17.	KC. Ragg The Dome and The Rock Spack London 1964
18.	Mardi Noach Education in Palestine 1920–1945 Washington D.C. Zionist Organization of America
19.	Mary Eliza Rogers Domestic Life in Palestine London . 1855.
20.	Montgomery watt : The Influence of Islam in Medienal Europe Edinburgh up 1472.
21.	Munster Achen. Rj. Streit Dindinger Bibliotheca missionum 1916
22.	Nardi Noach Zionism and Education in Columbia University New York 1934.
23.	Norman Bentwich England in Palestine Kegan Paul Co. 1932
24.	R.W. Southern, Western Views of Islam in the Middle Ages Harvard Up. 1962
25.	Roger De Contaut – Biton Commet Is Francess Installee eu Syria 1918–1919 Paris
26.	The Eney of mission London 1904.
27.	Tibawi, A : British Intersts in Palestine oxford university Press. London 1961
28.	W.H.T. Gairdner, An account and interpretation of the world missionary conference, Edinburg 1410.
29.	W. Thomson the lasndand the Book London 1881
30.	Wallach J.C. Germany and the Middle East 1835–1939

31.	Watnect out line of a history of the Protestant mission London 1906
32.	Wensinke The Muslim Greed C.V.P and 1956
33.	Wingatete to Cow BEL C Berber U.N. and Mangalla Provinfes, G.G.O.SCR/46 1410

أ) وثائق إنجليزية لم يسبق نشرها:

التقـــارير السنوية الصادرة عن (دائـــرة التعليم) التابعة لحكـــومـــة فلسطين

Government of, Department of Education

وهي موجودة في الأرشيف الصهيوني المركزي لدولة إسرائيل

Central Zionist and Israel Archives
Annual Report, for the school year 1924–1925
Annual Report, for the school year 1939–1940
Annual Report, for the school year 1940–1941
Annual Report, for the school year 1944–1945
Annual Report, for the school year 1945–1946
Memorandum, 1940

ب- وثائق وزارة المستعمرات البريطانية ، وهي تحمل رقم F.O, وهي موجودة في مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس:

F.O.371 – 7744–7800–7801
F.O.371 – 8993–8994–8995
F.O.371 – 8995–8996–8997–8998
F.O.371 – 9003–9004–9005
F.O.371 – 10832–10833–10834
F.O.371 – 10834–10835–10836
F.O.371 – 10836–10837–10838
F.O.371-12275–12278–12279–12280 .
F.O. 371-12280–12281–13020–13021

ج – تقارير ومذكرات صادرة عن جهات رسمية مختلفة وهي :

وزارة المستعمرات البريطانية Colonial Office

حكومة فسلطين Government of Palestine

لجان تحقيق Commission of Inquiry

الفايد ليومي Vaad Leumi

الكيرن هيسود Keren Hayesod

- Colonial office : Report .
- The System of Education the Jewish Commuinty in Palestine .No201 , London .
–598 Colonial Office : Report
To council of the league of Nations on the Administraion of Palesine an Trans-Jordan for the year 1939 London
London 1930
- Government of Palestine . Memorandum For the use of Palestine Royal Commision, volume 1 .
- Government of Palestine.asurvey of Palestine , for the information of Anglo-American Committee of inquiry vol 2 .
- The Finacial commission, Report.
Middle East No.43 . July 1931 .

* * *

فهرس الموضوعات

* * *